رواية

أليف شافاك

بنات حوّاء الثلاث

ترجمة: محمد درويش

دار الآداب

طبعة خاصة بالعراق

مكتبة الفكر الجديد
18-09-2017

بنات حوّاء الثلاث

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

أليف شافاك

بنات حوّاء الثلاث

ترجمة د. محمّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

مكتبة الفكر الجديد

بنات حوّاء الثلاث

أليف شافاك / مؤلّفة تركيّة

الطبعة الأولى عام 2017

ISBN 978-9953-89-552-9

Three Daughters of Eve

by Elif Shafak

Copyright © 2017 Elif Shafak

http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

مكتبة الفكر الجديد

ماذا ستفعل أيُّها الربّ عندما أموت؟
عندما أرقد أنا إبريقك مكسورًا؟
عندما أفسد أنا شرابك أو أجفّ؟
إنَّني رداؤك، تجارة تتاجر بها،
فتفقد المعنى وتفقدني.

آر. أم. ريلكه

هل تأتي إذا دعاك أحد
باسم غير اسمك؟
بكيتُ لأنَّه منذ سنوات
لم يلجأ إلى أحضاني.
لكنَّني عرفت سرًّا في يوم ما:
لعلَّ اسمَ الربّ الذي نستخدمه
ليس حقًّا اسمَه:
لعلَّه ليس سوى اسم مستعار.

رابعة العدويَّة

أوَّل امرأة متصوِّفة ــ القرن الثامن عشر ــ العراق

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

مقدِّمة المترجم

أليف شافاك: روايات فكريَّة بامتياز

ما الذي يجعل روايات أليف شافاك تستحوذ على اهتمام القرَّاء في مختلف البلدان، فتُترجَم إلى أكثر من أربعين لغة خلال عقد ونيِّف من الزمان، ومنها لغتُنا العربيَّة التي أصدرتْ لها حصرًا «دارُ الآداب» البيروتيَّةُ، وبترجمتنا: «قواعد العشق الأربعون»، «شرف»، «لقيطة إسطنبول»، «الفتى المتيَّم والمعلِّم»، «قصر الحلوى» و«حليب أسود». وهذه هي الرواية الأخيرة التي نضعها بين أيدي القرَّاء العرب؟

الواضح لنا أنَّ هؤلاء القرَّاء، على اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم وأديانهم وجذورهم الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة والعرقيَّة والمذهبيَّة، وجدوا في روايات هذه الكاتبة التركيَّة العالميَّة، وفي طروحاتها وأفكارها وفلسفتها ووجهات نظرها، ما لم يجدوه لدى غيرها من أدباء العالم على مرِّ الأزمنة والعصور، والأقلِّيَّات المعرَّضة للزوال بين لحظة وأخرى بسبب الحروب القاسية التي توشك أن تضع حدًّا مأساويًّا لحياتهم في عالم يحكمه الرأي الواحد الذي لا يُقيم وزنًا للآخر، وإن كان الآخر ابنًا من أبناء البلد الأصليين. إنَّ تماهي القارئ مع هذه الشخصيَّات المرسومة بعناية فائقة ومهارة قلَّ نظيرها، هو الذي

مكتبة الفكر الجديد

جعل هذه الأديبة تحظى بمكانة مرموقة في دنيا الأدب الروائيّ، وتتربَّع على عرش الرواية المعاصرة من غير منازع.

فهذه الأديبة التي وُلدتْ في مدينة ستراسبورغ الفرنسيَّة سنة ١٩٧١ عاشت طفولتها ومراهقتها في مدريد وفي عمان وفي كولون بألمانيا، وأمضت سنوات عمرها، وهي في الثلاثينيَّات، في الولايات المتَّحدة، في مدينة بوسطن أوَّلًا، ثم في ميتشيغين وآريزونا. وإذا كان جزء من نشأتها في ولاية فلوريدا، كما تقول، فإنَّ مدرستها الداخليَّة كانت في الآباما. كما عاشت مدَّة من الزمن في مدينة تاكسون الأميركيَّة أيضًا. والدها هو الفيلسوف نوري بيلجين، ووالدتها الديبلوماسيَّة شافاك أتايمان. وأخذتْ أليف اسمها الأوَّل من حرف الألف في الألفباء العربيَّة، والثاني من اسم والدتها الأوَّل (الذي يعني «شَفق» باللغة العربيَّة، كما ذكرتْ في إحدى المقابلات الأدبيَّة).

أكملت دراستها في تركيا في جامعة الشرق الأوسط التقنيَّة، وحازت منها شهادةَ الماجستير في الدراسات النسويَّة، والدكتوراه في العلوم السياسيَّة، وكانت عن «التصوُّف الإسلاميّ وفهم الزمان فهمًا دائريًّا»، فمنحها معهد علماء الاجتماع جائزةً قيِّمة. أمَّا كتاباتها الفكريَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة فتُنشَر دومًا في عدد من الصحف والمجلَّات العالميَّة، مثل الـ «غارديان» اللندنيَّة، والـ «لوموند» الفرنسيَّة، والـ «برلينر زايتونغ» الألمانيَّة، والـ «نيويورك تايمز» و«وول ستريت جورنال» والـ «واشنطن بوست» و«التايم» الأميركيَّة. وهي تعيش اليوم متنقِّلة بين إسطنبول ولندن.

المِهاد الثقافيّ، الذي يميِّز شخصيَّة أليف شافاك، جعلها تنهل من مختلف صنوف المعرفة الإنسانيَّة، مبحرةً بذلك بين هدير أمواج التصوُّف

مكتبة الفكر الجديد

الإسلاميّ والفكر السياسيّ الحديث وعلم الاجتماع المعاصر وعلم النفس التحليليّ واللسانيَّات الحديثة، فتنعكس كلُّها في مؤلَّفاتها الروائيَّة التي باتت اليوم مرآة عصر آيل إلى الزوال، مكفهرٍّ ومتجهِّم، لا يرى فيها الإنسانُ اليوم بارقةَ أمل، ولا حتى في نهاية نفق الحياة المضني للأعصاب والشاقِّ على النفس.

بهذا كلّه، يمكن القول إنَّ القارئ المعاصر الذي لم يعد في منأى عن أحداث العالم المريعة، يجد نفسه، شاء أم أبى، في خضمّ الأفكار التي تطرحها المؤلِّفة، فلا يستطيع إلَّا أن يتعاطف مع تلك الأفكار والطروحات التي لا مفرّ منها.

وفي هذه الرواية، تفاجئ أليف شافاك القرَّاء بأجواء جديدة، إذْ تدور الأحداث بين الأعوام ٢٠٠٠ و٢٠١٦، وبين إسطنبول وأوكسفورد. وها نحن نتركها من دون تفاصيل أخرى حتى لا نحرم القارئ متعةَ المفاجآت التي تنطوي عليها.

الدكتور محمَّد درويش

بغداد ٢٠١٦

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

القسم الأوّل

مكتبة
الفكر الجديد

حـقـيـبـة الـيــد

إسطنبول ـ ٢٠١٦

كان النهار نهارًا اعتياديًّا من نهارات الربيع في إسطنبول، عصرًا طويلًا وثقيلًا مثل غيره من أوقات العصر الكثيرة حين اكتشفتْ، غاضبة، أنَّها قادرة على أن تقتل شخصًا ما. وكان الشكُّ يساورها دومًا في أنَّ أكثر النساء هدوءًا وعذوبة يتعرَّضن تحت وطأة الكَرْب لجيشان العنف وتفجُّره. ولمَّا كانت ترى أنَّها هي نفسها ليست هادئة ولا عذبة، فقد اعتقدت أنَّ مقدرتها على فقدان السيطرة أكبر من غيرها إلى حدٍّ بعيد. غير أنَّ كلمة «مقدرة» مخادعة، وتحتاج إلى قَدْر كبير من البراعة والحذر. فقد قال الناس ذات مرَّة إنَّ تركيا ذات مقدرة كامنة، وانظروا إلى ما آلت إليه الأمور اليوم. وهكذا، طمأنت نفسها بأنَّ مقدرتها على الاكتئاب من شأنها أن ترقى أيضًا إلى أيٍّ شيء في نهاية المطاف.

لحسن الحظّ أيضًا أنَّ القَدَرَ ـ اللوحَ المحفوظ حفظًا جيِّدًا، والمدوَّنَ عليه كلُّ ما حدث وما سيحدث مستقبلًا ـ قد جنَّبها في الأعمّ الأغلب ارتكابَ الخطأ. فعلى امتداد كلّ تلك السنين، عاشتْ حياة كريمة، ولم تُوقع الأذى بأيّ مخلوق، في الأقلّ ليس على نحو متعمَّد، وفي الأقلّ ليس مؤخَّرًا، اللهمّ سوى الإسهام في القيل والقال أو كلام السوء بين وقت وآخر، وهي من الأمور التي لا تؤخذ في الحسبان. في

مكتبة الفكر الجديد

أيِّ حال، الناس يفعلون ذلك، وإذا ما مثَّل ذلك خطيئةً كبرى، فإنَّ مهاوي الجحيم سوف تمتلئ إلى حافَّتها. وإذا ما تسبَّبت بإلحاق الكَرْب بأحد ما، فهو الربّ، وإنَّ الربّ يستاء بسهولة، ويميل إلى التقلُّب، لكنَّ الكَرْب ليس من صفاته، وإنَّما هو إحدى صفات البشر.

كانتْ نازبيري نالباتوغلو ـ المعروفةُ بين الناس أجمعين ببيري ـ امرأةً طيِّبة، إذْ كانتْ تدعم الصدقاتِ، وتزيد في حدَّة الوعي بمرض ألزهايمر، وتجمع الأموال من أجل الأُسر المحتاجة. كما أنَّها تطوَّعت في بيوت المتقاعدين، إذ شاركت في منافسات لعبة النرد لتخسر عن عَمْد، وحملت في حقائب يدها الطعامَ والشراب للقطط السائبة التي تمتلئ بها مدينةُ إسطنبول، حتى بلغ بها الأمر حدًّا أنَّها كانت تعمد إلى إخصائها على نفقتها الخاصَّة. وكانت تراقب عن كثب أداء أطفالها في المدرسة، وتُعِدّ العشاء الشهيّ لربِّ عمل زوجها والعاملين وإيَّاه، وتصوم في اليومين الأوَّل والأخير من شهر رمضان، وتميل إلى الإفطار في الأيَّام الواقعة بينهما، وتضحِّي بخروف في كلِّ عيد. ولم تكن تفسد نظافة الشوارع، ولا تخالف نظام الاصطفاف في الطوابير في متاجر البيع، ولا ترفع صوتها، حتى إن عوملتْ معاملة غليظة. لقد كانت زوجة رائعة، وأُمًّا رائعة، وربَّةَ بيت رائعةً، ومواطنةً رائعة، ومسلمةً عصريَّة رائعة.

عمل الزمان كالخيَّاط الماهر في حياكة قطعتي القماش اللتين غَلَّفتا حياة بيري، والمتمثِّلتين في رأي الناس فيها ورأيها شخصيًّا في نفسها. وامتزج الانطباع الذي تركتْه في نفوس الآخرين بتصوُّرها الذاتيّ ليصبحا كلًّا متكاملًا على نحو لم تعد فيه قادرة على معرفة مدى ما تحدِّده أمنياتُ الآخرين من يومها، ومدى ما كانت تريده هي حقًّا من ذلك اليوم. وغالبًا ما كانت تشعر بدافع يحثُّها على الإمساك بدلو مملوء ماءً

مكتبة الفكر الجديد

مغطّى برغوة الصابون لتغسل الشوارع والميادين العامّة والحكومةَ والبرلمانَ والبيروقراطيّة، وتغسل معها كلّها بضعةَ أفواه أيضًا؛ فثمّة قَدْرٌ كبير من القذارة التي تحتاج إلى تنظيف، وقَدْرٌ كبير من الكسور التي تحتاج إلى تجبير، وقَدْرٌ كبير من الأخطاء التي تحتاج إلى تصحيح. وكانت عند خروجها من منزلها في صباح كلّ يوم تُطلق تنهيدة هادئة، وكان في وسعها أن تُزيل بنفخة واحدة حطامَ اليوم الفائت. وبينما كانت بيري تطرح الأسئلة على العالم من دون كلل أو ملل، لم تكن ممّن يبتعدن صامتاتٍ في وجه الظلم، فعزمت قبل بضعة أعوام على أن تَقنع بما لديها. لهذا فوجئت مفاجأة تامّة حين وجدت نفسها في يوم معتدل وهي في سنّ الخامسة والثلاثين، محترمةً وثابتة الجنان، وقد راحت تحدِّق إلى الخواء الكامن في روحها.

طمأنت نفسها في وقت لاحق بأنَّ سبب ذلك إنّما يرجع إلى حركة المرور: هديرٍ وضوضاء واحتكاك الحديد بالحديد كأنّه صرخاتُ حرب يُطلقها ألف محارب. المدينة برمّتها موقع بناء واحد عملاق. لقد توسّعت إسطنبول على نحوٍ لا سبيل إلى السيطرة عليه، وظلّتْ تتمدَّد وتتوسّع مثل سمكة ذهبيّة منتفخة، غيرَ مدركة أنّها التهمتْ ما هو أكبر من طاقتها على الهضم، ولا تزال تبحث من حولها عن المزيد لتأكله. عندما تتذكّر بيري عصر ذلك اليوم المنذر بالسوء، تستنتج أنَّ سلسلة الحوادث التي أيقظت جزءًا من ذاكرتها، التي كانت تغطّ في النوم، ما كان لها أن تبدأ لولا ذلك الازدحام الخانق والميؤوس منه.

ها هما هناك، تشقّان طريقهما في صعوبة بالغة على امتداد طريق بممرَّين توقّف فيه السير تمامًا تقريبًا بسبب انقلاب شاحنة انحشرت بين مركبات من كلّ نوع وحجم. نقرتْ بيري بأصابعها على عجلة القيادة،

مكتبة الفكر الجديد

تقلّب محطّات الإذاعة كلّ بضع دقائق، في حين اتّخذتِ ابنتُها مجلسَها في المقعد المجاور واضعةً سمّاعةً على أذنيها، ولاحت على وجهها قَسَماتٌ تنمُّ عن الملل. وكما هو شأنُ العصا السحريَّة التي تمسك بها يدان تفتقران إلى المهارة والبراعة، فقد قلبت حركة المرور الدقائق إلى ساعات، وصيَّرتِ البشرَ وحوشًا، وحوَّلت أيّ ذرَّة من سلامة العقل إلى جنون. بيد أنَّ إسطنبول لم يظهر عليها ما يشير إلى اعتراضها على ذلك، ففيها الشيءُ الكثير من الوقت والوحوش والجنون. ساعة أكثر، ساعة أقلّ، وحش أكثر، مجنون أقلّ، لا فرق في ذلك بعد أن يتجاوز العدد نقطة معيَّنة.

كان الجنون يجري في شوارع المدينة جريانَ دواء مخدِّر في الدورة الدمويَّة، إذْ كان ملايين الإسطنبوليين يتناولون كلّ يوم جرعة أخرى غير مدركين أنَّهم بذلك إنَّما يزدادون تشوُّشًا وقلقًا، ويُصابون بلوثة في عقولهم. فالناس الذين يرفضون مشاركة الآخرين في خبزهم كانوا يشاركونهم في جنونهم بدلًا من ذلك، مع فارق واحد متمثِّل في أنَّهم كانوا يفهمونه فهمًا تامًّا. هذا هو موضوع فقدان العقل الجمعي: فإذا ما راقبتْ عيونٌ كافيةٌ الهلوسةَ ذاتَها، فإنَّها تنقلب إلى حقيقة. وإذا ما ضحك عددٌ كافٍ من الناس على هذه التعاسة نفسِها، فإنَّها تغدو مزحةً صغيرة تُثير الضحك.

قالتْ بيري بغتةً:

ـ آهٍ، توقَّفي عن قضم أظافرك. كم مرَّةً ينبغي لي أن أُخبرك بذلك؟

جذبت دينيز السمَّاعة من أذنيها رويدًا رويدًا إلى أسفل عنقها وقالت:

ـ إنَّها أظافري.

مكتبة الفكر الجديد

ثم ارتشفت رشفة من الكوب الورقيّ الموجود بينهما.

قبل أن تنطلقا في الطريق، توقَّفتا عند ستاربورك ـ وهو واحد من سلسلة مَقاهٍ تركيَّة أقام ضدَّها مقهى ستاربكس الدعاوي مرارًا وتكرارًا أمام المحاكم، لمقاضاته بسبب استخدام شعاره وقائمة مشروباته وتحريفِ اسمه، بيد أنَّه لا يزال يعمل عمله بسبب التفاف قانونيّ يمكّنه من التهرُّب من الالتزامات ـ واشترتا مشروبين، أحدُهما صغير لبيري والآخرُ فرابوتشينو مثلوجٌ بالشوكولا، وبالحجم الكبير، لابنتها. وفي حين فرغتْ بيري من تناول مشروبها، كانت دينيز تواصل رشفه في حيطة وحذر مثلَ طائر جريح. كانت الشمس خارج السيَّارة تذوب في الأفق، تصبغ بقايا أشعَّتها سطوحَ البيوت وقبابَ المساجد ونوافذَ ناطحات السحاب بظلّ لون الصدأ المملّ نفسِه.

قالتْ بيري بصوت خافت:

ـ وهذه هي سيَّارتي، وأنت ترمين القشور على أرضيَّتها.

ندمتْ على ما قالتْه بعِد أن هربتِ الكلماتُ من فمها: سيَّارتي!!! يا له من كلام فظيع تتفوَّه به لطفلة، أو لأيٍّ شخص، بقدر ما يتعلَّق الأمر بهذا الموضوع. هل أضحتْ واحدة من أولئك الحمقى الماديِّين الذين يكمن كلُّ إحساسهم بالذات والمكان في الأشياء التي يمتلكونها؟ تمنَّت لو لم يكن الأمر كذلك.

لم يبدُ على الابنة أنَّها أُخذتْ على حين غرَّة، بل هزَّتْ كتفيها النحيلتين عوضًا عن ذلك، وَرَنَتْ خارج النافذة بنظرة خاطفة، ثم قضمتْ بعصبيَّة ظفرها الآخر.

مضت السيَّارة مترنِّحةً في طريقها، لتتوقَّف بعد برهة وجيزة وصريرُ عجلاتها ينبعث قويًّا منها. كانت من طراز «رينج روڤر» بظلٍّ من ظلال

مكتبة الفكر الجديد

اللون الأزرق يُقال له «مونت كارلو بلو». وبحسب الكشف المتوافر عند البائع، ثمَّة ألوانٌ أخرى مثل: دافوس وايت، أورينتال دراغون ريد، سعودي ديزرت بينك، غانا بوليس غلوسبلو أو أندونيسان آرمي مات غرين. تساءلت بيري مندهشة، وهي تزمُّ شفتيها وتهزّ رأسها: مَن ذا الذي اختار هذه الأسماء؟ وهل كان سائقو السيَّارات مدركين أنَّ السيَّاراتِ الصقيلةَ والمبهرجة التي يتباهون بها، مقترنةٌ بزيٍّ الشرطة في غانا، أو العواصفِ الرمليَّة في الصحارى؟

مهما يكن لون المركبات، فإنَّ مدينة إسطنبول تحتشد بها. سيَّارات فارهة، أعدادٌ لا حصر لها تبدو غيرَ منسجمة في مكانها، مثل كلاب أصيلة عريقة النَّسَب تاهت في طريقها، وهامت في متاهة المدينة على نحو من الأنحاء، على الرَّغم من أنَّ قَدَرها كان أن تحيا حياة رَغَد وراحة: سيَّاراتٌ مكشوفة تتسابق مزمجرة وهادرة ومحبطة لعدم توفُّر الطريق الملائم لزيادة سرعتها، وسيَّاراتٌ لا يمكن لأبرع المناورات أن تحشرها بين أماكن الوقوف الصغيرة، إن كان أيٌّ منها يتوفَّر مصادفة، وسيَّاراتُ «سيدان» باهظة الثمن مخصَّصة للسير في الطرق الريفيَّة المتَّسعة التي لا تتوفَّر إلَّا في الأراضي النائية وإعلانات التلفاز.

قالت بيري:

ـ قرأت أنَّها الأسوأ في العالم.

ـ ما هي؟

ـ حركة السير والمرور. إنَّنا في المرتبة الأولى، تصوَّري أسوأ من القاهرة، بل أسوأ من دلهي!

لم يسبق لبيري أن زارت القاهرة أو دلهي. إلَّا أنَّها، أُسوةً بأعداد كبيرة من سكان إسطنبول، كانت تؤمن إيمانًا راسخًا بأنَّ مدينتها أكثر

مكتبة الفكر الجديد

تمدُّنًا من تينك المدينتين النائيتيْن، الوعرتَيِ المسالك والمزدحمتَيْن. ومع هذا، فإنَّ صفة «نائية» مفهوم نسبيّ، كما أنَّ «وعرة» و«مزدحمة» صفتان غالبًا ما تنطبقان على إسطنبول. في أيِّ حال، فهذه المدينة تحاذي أوروبا، وهذا القربُ لا بدَّ من أن يرقى إلى شيء ما، بل إنَّ قربها الشديد، والذي يبعث على الدهشة، جعل تركيا مضطرَّة إلى وضع إحدى قدميها على عتبة أوروبا، واندفعتْ إلى أمام بكلِّ ما تملك من قوَّة، لتجد أنَّ العتبة أصغر من أن تمكِّنها من حشر نفسها فيها على الرَّغم من الجهد الجهيد الذي تبذله في الاندفاع والتقدُّم. كما لم تتمكَّن أوروبا نفسُها من دفع الباب وإغلاقه في وجهها في الوقتَ نفسه.

قالت دينيز:

ـ رائع!

فردّت بيري غير مصدِّقة:

ـ رائع؟

ـ نعم، فنحن في الأقلِّ نحتلّ المرتبة الأولى في شيء ما.

هذه هي قضيَّة ابنتها. وفي وقت لاحق، راحت دينيز تتَّخذ موقفًا معارضًا لكلِّ فكرة تعبِّر عنها بيري في أيِّ موضوع، وكانت كلّ ملاحظة تُبديها بيري، مهما تكن مناسِبة أو منطقيَّة، تتلقَّاها ابنتها بعداء يصل إلى حدّ الكراهية. كانتْ بيري مدركة أنَّ دينيز، التي بلغت سنَّ الثالثة عشرة الحَرِجةَ، مضطرَّةٌ إلى التحرُّر من تأثير والديها، وخصوصًا تأثيرَ أمِّها. أَدركت ذلك. إلَّا أنَّ الشيء الذي لم تستطع إدراكه وإبعادَ تفكيرها عنه، يتمثَّل في حجم الغضب الذي ينطوي عليه ذلك التحرُّرُ. فابنتها تغلي كالمرجل من شدَّة غضبها وسخطها على نحو لم تمرَّ فيه بيري في أيِّ مرحلة من مراحل حياتها، ولا حتى في سني مراهقتها. فهي نفسُها

أبحرتْ في سنوات بلوغها الحلمَ مشوَّشةً في تفكيرها تشوُّشًا بريئًا وصل إلى درجة السذاجة. كم كانت مختلفة في مرحلة البلوغ مقارنةً بابنتها، على الرَّغم من أنَّ والدتها لم تكن مراعية لمشاعرها أو متعاطفةً وغيرَ قاسية معها ولو قليلًا، كما تتعامل هي الآن مع ابنتها. وعلى نحو ما، ملتوٍ وغير مباشر، كلَّما ازدادت معاناة بيري من جيشان ابنتها وعنفوانها اللذين لا يعرفان الاستكانة، عظم جنونُها بنفسها لأنَّها لم تكن غاضبة بما يكفي في الأيَّام الخالية تجاه أُمِّها.

تمتمت بيري:

ـ حين تصبحين في مثل سنِّي لن يبقى لديك صبر على هذه المدينة.

قلَّدتها دينيز تقليدًا مريرًا:

ـ حين تصبحين في مثل سنِّي.. ليس من دأبك أن تتكلَّمي مثل هذا الكلام.

ـ لأنَّ الأمور تزداد سوءًا!

قالت دينيز:

ـ لا يا أمَّاه! بل لأنَّك تجعلين من نفسك أكبرَ سنًّا. إنَّه أسلوب كلامك. ثم انظري إلى ثيابك.

ـ ما خطب ثيابي؟

صمتت ابنتها ولم تجب.

رشقت بيري بنظرة خاطفة ثوبَها الحريريَّ البنفسجيّ وسترتَها الشيفون المزركشةَ والمرصَّعة بالخرز. كانت قد ابتاعت هذا الطقم من متجر يقع في مركز تجاريّ جديد ومتألِّق، ضمن مجمَّع تجاريّ كبير، كأنَّ أحدهما أنجب الثاني قبل قليل. كان ثمن الطقم باهظًا أكثر ممَّا

مكتبة الفكر الجديد

يجب، وحين اعترضت على السعر، لم يقل البائع شيئًا، بل انفرجت زاوية فمه عن ابتسامة تقول: «إذا كنت غير قادرة على الشراء أيَّتها السيِّدة، فماذا تفعلين في هذا المكان؟» فانزعجت بيري من كلامه، وسمعت نفسها وهي تقول: «سوف أشتريه». ورأت الآن كم هو ضيِّق على جسدها، كما أدركت أنَّ اللون لا يناسبها. فاللون البنفسجيّ الذي لاح جريئًا وباعثًا على الثقة من تحت أضواء مصابيح الفلورسنت، تحوَّل إلى لون صارخ ومبهرج تحت أنوار النهار.

إنَّها أفكار لا طائل منها ما دامتِ لا تملك الوقت للذهاب إلى المنزل وتغييرِ الثياب. فقد تأخَّرتا على موعد العشاء في منزل يُطلّ على ساحل البحر ويملكه رجل أعمال جنى أموالًا طائلة في السنوات القليلة الماضية، وليس في هذا ما يبعث على الدهشة، إذْ كانت إسطنبول تحتشد بالفقراء القدامى، والأثرياءِ الجدد، وأولئك التوَّاقين إلى الوثوب من حالة الفقر إلى حالة الثراء في قفزة واحدة سريعة.

كانتْ بيري تمقت مثل هذه الحفلات التي تستمرّ إلى وقت متأخِّر من الليل، وتتركها في أغلب الأحايين تعاني صداعًا نصفيًّا في اليوم التالي. وكانتْ تُؤْثِر البقاء في البيت والاستغراقَ في قراءة رواية في منتصف الليل، بحيث يسود الاعتقاد أنَّ السَّحَرة يمارسون عندئذٍ سحرَهم، إذْ كانت القراءة سبيلها إلى التواصل مع الكون، غير أنَّ العزلة امتياز نادر في مدينة إسطنبول. فهناك على الدوام حدث مهمٌّ يستدعي الحضور، أو التزامٌ اجتماعيٌّ طارئ يجب تحقيقه، كأنَّ الثقافة أشبه بطفل وَجِلَ من الوحدة، تريد الاطمئنان إلى أنَّ كلّ فرد في رفقة الآخرين في كلّ الأوقات. كثير من الضحك والطعام. السياسة والسيجار. الأحذية والملابس. لكنَّ الأهمّ من هذا كلّه هو حقائبُ اليد الحاملةُ

اسمَ مصمِّمها أو شعارَه. كانتِ النسوة يستعرضن حقائب أيديهنَّ كأنَّها تذكاراتٌ غُنمت في معارك بعيدة. من يدري أيُّ الحقائب أصليَّةٌ وأيُّها مزيَّفةٌ؟ وكانت سيِّدات إسطنبول، من الطبقتين الوسطى والأرستقراطيَّة، يَدْعِيْنَ مالكي المتاجر إلى بيوتهنَّ لأنَّهنَّ لا يرغبن في أن يراهنَّ أحد ما وهنَّ يشترين بضاعة مزيَّفة، وذلك بدلًا من التوجُّه إلى متاجر تُثير الشبهات داخل السوق الكبيرة ومن حولها. فكانت الشاحنات الصغيرة المقفلة والمملوءةُ بعطور من نوع شانيل ولويس فيتون وبوتيغا فينيتا، تندفع بنوافذها الظليلة، ولوحاتُ رُخُصاتِها مكسوَّةٌ بالطين (وإن كانت بقيَّة المركبات لا تشوبها شائبة تمامًا)، إلى الأمام وإلى الوراء، تجوب الأحياء الموسرة، ويُسمح لها بدخول المرائب الخاصَّة بالقصور من بوَّابات خلفيَّة كأنَّها في شريط سينمائيّ من أشرطة الجاسوسيَّة. وكانت أثمانها تُسدَّد نقدًا، من دون إيصالات، ومن دون طرح أيّ أسئلة. وفي المناسبة الاجتماعيَّة المقبلة، يرى المرء أولئك السيِّداتِ أنفسَهنَّ وهنَّ يتفحَّصنَ، بلمحات خاطفة، حقائبَ بعضهنَّ بعضًا، ليس من أجل معرفة العلامة الثمينة فحسب، وإنَّما أيضًا للتأكُّد من أصالتها، أو نوعيَّةِ السلعة. يا له من جهد جهيد. جهد بصريّ.

كانت النسوة يحدِّقنَ. يتفحَّصنَ. يُنعمنَ النظرَ ويبحثن، ويتقصَّينَ المَثالب في غيرهنَّ من النساء، ما ظهر منها وما بطن: تشذيب الأظافر أكثر ممَّا يجب؛ الوزن الزائد؛ البطون المترهِّلة؛ الشفاه المنتفخة؛ الأوردة ذات الدوالي؛ التكتُّلات الدهنيَّة التي لا تزال شاخصة للعيان بعد عمليَّات شفط الدهون؛ جذور الشعر المحتاجة إلى صبغة؛ بثرة أو تجعيدة مخفيَّة تحت طبقات المساحيق... لم يكن ثمَّة شيء تعجز نظراتهنَّ الثاقبة عن ملاحظته أو معرفته. ومهما كنَّ خاليات من الهموم

مكتبة الفكر الجديد

أو انشغال البال قبل مجيئهنَّ إلى الحفلة، فإنَّ الضيوف الإناث يتحوَّلن شيئًا فشيئًا إلى ضحيَّة وجلَّاد في الوقت نفسه. وكلَّما أطالت بيري تفكيرًا في المساء المقبل، ازدادت رهبة وخوفًا منه.

قالت دينيز وهي تترجَّل من السيَّارة:

ـ إنَّني في حاجة إلى أن أتمشَّى بعد أن كلّت رجلاي من الجلوس مدَّة طويلة.

هنا أشعلت بيري سيجارة من فورها. كانت قد أقلعت عن التدخين منذ أكثر من عقد، لكنَّها استسلمت مؤخَّرًا، وصارت تحمل علبة سجائر لتدخِّن واحدة بين الفينة والفينة. غير أنَّها لم تُكمل تدخين سيجارة واحدة، وإن كانت تشعر بالارتياح بعد بضع نفثات من الدخان. وكانت في كلّ مرَّة ترمي ما تبقَّى منها، يخالجها الإحساسُ بالذنب وبما يشبه الاشمئزاز. وكانت بعد ذلك تمضغ علكة بنكهة النعناع لإزالةِ الرائحة الكريهة، وإن لم يَرُقْها الطعمُ. وقد كان الشعور يستبدُّ بها بأنَّه لو قُيِّض لنكهات العلكة أن تكون أنظمة سياسيَّة، فإنَّ النعناع سيكون نظامًا فاشيًّا، شموليًّا، عقيمًا وصارمًا.

قالت دينيز بعد أن استقلَّت السيَّارة مجدَّدًا:

ـ لا أستطيع التنفُّس يا أمَّاه. ألا تعلمين بأنَّ التدخين سيقضي عليك؟

كانت دينيز في مرحلة عمريَّة يعامل فيها الأطفال مدخِّني السجائر كأنَّهم مصَّاصو دماء طليقون من كلّ قيد أو نظام. وفي المدرسة، قدَّمت محاضرة عن آثار التدخين السيِّئة، موضحة بملصق إعلاني سهامًا منطلقة من علبة سجائر فُتحت حديثًا إلى قبر حُفِر مؤخَّرًا.

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري وهي تلوّح بكفِّها صارفةً النظر عن الفكرة:

ـ لا بأس، لا بأس.

ـ لو كنتُ في موضع الرئيس لسجنتُ الأبرياء الذين يدخِّنون إلى جانب أطفالهم.

قالت بيري قبل أن تضغط على الزرّ لتفتح النافذة:

ـ حسنًا، يسعدني أنَّك ترشِّحين نفسك للرئاسة.

كان الدخان الذي تنفثه إلى خارج السيَّارة يدور في الهواء ليدخل من جديد، ببطء وعلى نحو غير متوقَّع، النافذةَ المفتوحة في السيَّارة المجاورة. ذلك هو أحد الأمور التي يعجز المرء عن التخلُّص منها في هذه المدينة: القرب. فكلّ شيء قريبٌ من أيّ شيء آخر. فالمارَّة يسيرون في الطرقات كأنَّهم جسد واحد. والركَّاب يجلسون منحشرين في القوارب أو يقفون كتفًا لكتف في الحافلات والأنفاق. والأجساد تصطدم وتتدافع وتتعايش من دون مبالاة كأنَّها خلايا نبتة هندباء بريَّة يتلاعبُ فيها النسيم.

ثمَّة رَجلان اثنان يجلسان في السيَّارة المجاورة لهما. ابتسم كلاهما لها، فامتقع وجه بيري وهي تتذكَّر أنَّ معجم «دليل المتعلِّم إلى الأبوَّة» عرَّف نَفْثَ المرأة الدخانَ في وجه ذكر لا تعرفه على أنَّه يمثِّل دعوة جنسيَّة صريحة. وإذا كان يسهل أحيانًا النسيانُ، فإنَّ المدينة كانت بحرًا هائجًا منتفخًا بجبال جليديَّة ذكوريَّة تطوف في كلّ حدب وصوب، ما يعني أنَّ المستحسن هو الابتعاد بهدوء وذكاء لأنَّ المرء لا يدري حجم الخطر الكامن من تحت السطح.

وسواء أكانت المرأة تقود السيَّارة أم تسير على قدميها، فإنَّه يفضَّل

مكتبة الفكر الجديد

عدمُ تحديقها إلى شيء معيَّن والانطواءُ على نفسها كأنَّها تغور في ذكريات بعيدة. ومتى وحيثما كان في الإمكان، فإنَّه ينبغي لها أن تخفض رأسها لتبعث رسالة واضحة وجليَّة تنمُّ عن التواضع والحشمة، وهو أمر ليس بالسهل، ما دامت مخاطرُ الحياة في المدينة، واهتمامُ الذكر غير المقنع، والتحرُّشُ الجنسيّ، أمورًا تستدعي من المرء أقصى درجات اليقظة والحذر في كلّ الأوقات. أمَّا كيف يسع النساءَ خفضُ رؤوسهنَّ إلى الأسفل وإبقاءُ عيونهنَّ غيرَ مفتوحة على سعتها في كلّ الاتِّجاهات في الوقت نفسه، فأمرٌ لا تستطيع بيري القيام به. فما كان منها إلَّا أن رمت بسيجارتها وأغلقت النافذة، آملةً أن يكفَّ الرجلان الغريبان عن التحديق إليها. وتغيَّر ضوء حركة السير الأحمرُ إلى الأخضر، لكن من دون طائل. فما من شيء يتحرَّك.

في تلك اللحظة شاهدت المتشرِّد يسير في منتصف الشارع، طويل القامة كالنخلة، ضامرَ الوجه، بارزَ العظام، رقيقًا مكسوّ الذقن بطفح جلديّ، وعلى يديه بقعٌ تدلُّ على إصابته بالأكزيما. واحد من ملايين اللاجئين السوريين الذين فرُّوا من حياة لا يعرفون لغيرها نمطًا آخر. هذا ما ظنَّتْه باديَ الأمر، وإن كانت ثمَّة فرصة مساوية تدلُّ على أنَّه من أهل البلد: تركيٌّ أو كرديٌّ أو غجريٌّ أو خليط من كلّ شيء. كم من الناس في هذا البلد الذي لم تتوقَّف إليه الهجراتُ والتحوُّلات، يمكنه القول عن يقين إنَّه ينتمي إلى عرق خالص، اللهمَّ إلَّا إذا كان يكذب على نفسه، وعلى أطفاله؟ في أيّ حال، إسطنبول مدينة تفيض بالخداع وتحتشد به.

كانت قدما الرجل ملطَّختين بما تيبَّس من الوحل، ويرتدي سترة مهلهلة، مقلوبةً ياقتُها إلى أعلى، وبلغت من القذارة ما جعل لونها يميل

مكتبة الفكر الجديد

إلى السواد. وراح يدخِّن بلا اكتراث عقبَ سيجارتها الذي عثر عليه ملطَّخًا بأحمر الشفاه. فنقَّلت بيري نظراتها، وهي تحدِّق إليه، من فمه إلى عينيه، لتتملَّكها الدهشة عندما أدركت أنَّه يراقبها منفرجَ الأسارير. ثمَّة خطر ما في مشيته وسلوكه، يكاد يكون تحدِّيًا، كأنَّه ليس متشرِّدًا وإنَّما هو ممثِّل يؤدِّي دور متشرِّد، وينتظر التصفيق والتهليل، واثق الثقة بأدائه.

أدركت بيري أنَّه ينبغي لها الآن أن تنأى بنفسها عن ثلاثة أشخاص: الاثنين الجالسين في السيَّارة فضلًا عن المتشرِّد، فأشاحت بعينيها عنهم، وغيَّرت اتِّجاهها سريعًا ناسيةً كوب القهوة الذي انسكب محتواه في حضنها.

صاحت بيري فاغرة فاها مذعورة لـمَّا شاهدت اللطخة السوداء تنتشر على ثوبها باهظ الثمن:

ـ آه، لا.

أمَّا ابنتها فقد صفَّرت مبتهجة على ما يبدو بالكارثة، وقالت:

ـ يمكنك القول إنَّها قطعة من صنع مصمِّم حديث العهد بالتصميم.

بيد أنَّ بيري تجاهلت ملاحظة ابنتها، وصبَّت اللعنات على نفسها، وأمسكت بتهوُّر بحقيبة يدها ـ وهي حقيبة بلون الخزامى من نوع أوسترتيش بيركن ذي التفاصيل الدقيقة في كلِّ شيء، باستثناء علامة النبر الموضوعةِ على نحو مغلوط في كلمة Herme's، إذ ما من مزيِّف تركيّ لا يستطيع التزوير باستثناء التهجئة الصحيحة ـ التي وضعتها بين ساقيها. وأخرجت علبة من المحارم الورقيَّة على الرَّغم من أنَّها كانت تعلم جيِّدًا ـ أو أنَّ جزءًا منها يعلم ـ بأنَّ المسح سوف يزيد الطين بلّة. وفي غمرة تشتّت ذهنها ارتكبت هفوة لا يجدر بأيّ سائق مخضرم في إسطنبول أن

مكتبة الفكر الجديد

يرتكبها، إذْ رمت بحقيبة يدها إلى المقعد الخلفيّ، علمًا بأنَّ الأبواب غير موصدة.

ارتعش شيء ما في زاوية عينها. فتاة متسوِّلة لا يزيد عمرها على اثني عشر عامًا كانت تسير في اتِّجاههما متوسِّلة إعطاءَها بعضَ المال. ثيابها فضفاضة على جسدها النحيل، وكفُّها ممدودة إلى أمام، وتتقدَّم من دون أن تحرِّك الجزء العلويّ من جسمها الذي يعلو خاصرتها كأنَّها تخوض في الماء. لبثت واقفة أمام كلّ سيَّارة زهاء عشر ثوانٍ قبل أن تتَّجه إلى السيَّارة الأخرى. ظنَّت بيري أنَّها إن لم ترحم الفتاة في تلك اللحظة القصيرة من الزمن، فلن تتمكَّن من رحمتها أبدًا. فالرحمة لا تأتي بصفتها فكرةً متأخِّرة، بل تكون فوريَّة أو لا تكون.

حين وصلتِ الفتاة إلى سيَّارة «الرينج روڤر»، أشاحت بيري ودينيز بعيونهما إلى الجهة المقابلة متظاهرتين بعدم مشاهدة الفتاة. بيد أنَّ الشحَّاذين في إسطنبول كانوا يألفون التخفِّي عن أنظار الآخرين كما أنَّهم كانوا على أهبَّة الاستعداد دومًا. ففي الجهة التي التفتت إليها الأمُّ وابنتها، ثمَّة طفلةٌ أخرى، بالعمر نفسه تقريبًا، تنتظر وكفُّها ممدودة إلى أمام.

تنفَّستْ بيري الصعداء حين تحوَّل ضوء إشارة المرور إلى الأخضر، فاندفعتِ السيَّارة مسرعة اندفاعَ الماء من خرطوم مياه الحديقة. كانتْ توشك أن تضغط بقدمها على دوَّاسة البنزين عندما صكَّ سمعَها صوتُ باب السيَّارة الخلفيّ يُفتَح ويُغلَق بسرعة انفتاح مدية جيب بوساطة نابض. ورأت في المرآة حقيبةَ يدها تُنتزع من داخل السيَّارة.

شهقت بيري وصرخت بصوتٍ أجشّ:

ـ لصوص! النجدة! لقد سرقوا حقيبتي. لصوص!

مكتبة الفكر الجديد

أطلق سائقو السيَّارات أبواق سيَّاراتهم من خلفها بعصبيَّة، متجاهلين ما حدث، وتوَّاقين إلى المضيِّ في طريقهم. الواضح أنَّ لا أحد كان يريد مساعدتها. تردَّدت بيري، لكن تردُّدها لم يستمرَّ أكثر من لحظة واحدة، إذْ أدارت عجلة القيادة وانحرفت بسيَّارتها إلى حافَّة الرصيف تاركةً أضواءَ إشارة الطوارئ تومض وميضًا متقطِّعًا.

ـ ما الذي تفعلينه يا أمَّاه؟

غير أنَّ بيري لم تردَّ على ابنتها لأنَّها لم تكن تملك الوقت للردّ. لقد شاهدت الاتِّجاه الذي هرول إليه الأطفال، وكانت مضطرَّة إلى اقتفاء أثرهم. ثمَّة إحساس في أعماقها، بل إحساسٌ غرائزيٌّ، جعلها متأكِّدة من أنَّها إذا عثرت عليهم فسوف تسترجع ما تملكه حقًّا.

ـ اتركيها يا أمَّاه، إنَّها مجرَّد حقيبة، ومزيَّفة!

ـ فيها نقودي وبطاقاتُ الائتمان.

غير أنَّ القلق استبدَّ بالابنة، والحرجَ أيضًا، فهي لم ترغب في جذب الأنظار ولفت الانتباه، بل كانت بخلاف ذلك، تريد أن تختلط بالآخرين وأن تكون قطرة رماديَّة في بحر رماديّ. وبدا أنَّ كلّ مشاعر التمرُّد تكنُّها لأمِّها فقط.

قالتْ بيري:

ـ امكثي هنا، وأَغلقي الأبواب وانتظريني. أرجوك، افعلي ما أقول لك ولو مرَّةً واحدة.

ـ لكن يا أمِّي...

اندفعتْ بيري خارج السيَّارة من دون تفكير، من دون تفكير أبدًا، ناسيةً في تلك اللحظة أنَّها كانت تنتعل حذاءً بكعب عال. وسرعان ما

مكتبة الفكر الجديد

تنبَّهت فخلعتْه وراحت تركض بقدميها الحافيتين تضربان على الإسفلت. ومن داخل السيَّارة، فغرت الابنة فاها مندهشةً، واتَّسعت عيناها في ذهول وإحساس بالإهانة.

هرولت بيري، بثوبها البنفسجيّ، وبثقل أعوام سنِّها، وبتورُّد خدَّيها واتِّقادهما. زوجةٌ وربَّة بيت وأمٌّ لثلاثة أطفال، أمام أنظار عشرات الأعين، مدركةٌ إدراكًا يبعث على الألم أنَّ نهديها كانا يتوثَّبان على نحو جنونيٍّ، وأنَّها غير قادرة على فعل أيّ شيء لتقييدهما. ومع هذا، فإنَّها بعد أن تذوَّقت طعم الحرِّيَّة الغريبَ، وتوغَّلت في منطقة محرَّمة عليها لم تعرفها من قبل، عبرتِ الشارع وسلكتِ الشوارع الداخليَّة، بينما انفجر سائقو السيَّارات ضاحكين، وحلَّقت النوارس فوق رأسها. لو أنَّها تردَّدتْ، ولو أنَّها خفضتْ سرعتها ثانية واحدة، لكان الرعب استبدَّ بها من جرَّاء ما تفعله، ولكان الهلع سيطر عليها من احتمال أن تدوس على مساميرَ صدئة أو زجاجات الجعة المكسورة أو على بول الجرذان. غير أنَّها عوضًا عن ذلك، اندفعت إلى أمام، وكانت قدماها تواصلان الركض أسرعَ فأسرع، كأنَّهما مستقلَّتان عن جسدها، ومتحرِّرتان منه، وتحملان ذكرى خاصَّة بهما، وتتذكَّران ذلك الزمنَ البعيد الذي كانتا تمارسان فيه رياضة الجري في أوكسفورد مسافةً تتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال يوميًّا، صحوًا كان الجوُّ أم ماطرًا.

كانت بيري تعشق الجَرْيَ. غير أنَّ تلك البهجة غابتْ عن حياتها مثلما هجرتها بقيَّةُ المسرَّات.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الشاعر الصامت

إسطنبول ـ ثمانينيَّات القرن العشرين

حين كانت بيري طفلة صغيرة، سكنت أسرة نالباتوغلو في شارع الشاعر الصامت الكائن في أحد أحياء الطبقة الوسطى في الجانب الآسيويّ من مدينة إسطنبول. في تلك الأيَّام الغابرة، كان مزيج من روائح الباذنجان المقلي والقهوة والخبز الساخن والثوم المطهوّ على نار هادئة ينبعث من الشبابيك المشرَّعة، قويًّا، متسرِّبًا في كلّ شيء، ومتداخلًا مع روائح أنابيب الصرف الصحِّي وتلك المنعبثةِ من أغطية المجاري المعدنيَّة، ومُرغِمًا ريحَ الصباح على تغيير مسارها سريعًا. غير أنَّ أهل المنطقة لم يتذمَّروا ولا اشتكوا لأنَّهم لم ينتبهوا أبدًا لتلك الروائح، بل كان الغرباء عن الحيّ هم وحدهم الذين اشمأزُّوا من استنشاقها، وإن كان عدد قليل جدًّا منهم يملك سببًا وجيهًا للمجيء إلى هذه المنطقة. كانت الدُّور تميل عشوائيًّا مثل شواهد قبور في مقبرة غير منظَّمة. ثمَّة غمامة من الضجر تحوم فوق كلّ شيء، ولا تزول إلَّا قليلًا مدَّةً وجيزة عندما تشقّ صيحات الأطفال عنان السماء إذا ما مارسوا الغشّ في أثناء اللعب.

راجتِ الشائعات بشأن أصل تسمية الشارع الغريبة. فقد اعتقد البعض أنَّ شاعرًا عثمانيًّا ذائع الصيت قطن في تلك المنطقة، ولم يرض بالمقابل الماليّ الذي مُنح له في إثر إرساله قصيدةً إلى القصر، فأقسم

مكتبة الفكر الجديد

ألَّا يقرض الشعرَ مجدَّدًا إلَّا إذا أكرم له السلطانُ العطاءَ بسخاء.

وآخر ما تلفَّظ به قبل أن يلوذ بصمت يشبه صمت ثلج منتصف الليل هو: «المؤكَّد أنَّ سيِّد بلاد قيصر والإسكندر الكبير وحاكمَ القارَّات الثلاث والبحار الخمسة وظلَّ الله على الأرض، سينعم بكرمه اللامحدود على عبده الضعيف، لكنَّه إذا امتنع من ذلك، فسوف أعدّ ذلك دليلًا على ضعف قصائدي، وسأبقى صامتًا إلى أن توافيني المنيَّة، لأنَّ الشاعر الميِّت أفضل من الشاعر الفاشل». لم يكن ذلك ادِّعاءً، إذْ كان يخشى السلطانَ ويطيعه، ويبجِّل كلّ ما كان يتصوَّره في ذهنه عن هيئته. غير أنَّه كان فنَّانًا، لذلك لم يستطع أن يحول بين نفسه وبين التوق إلى اهتمام أكبر، وتقريظ أكبر، وحبٍّ أقوى. كما أنَّ بعض القطع الأخرى من النقود سوف تكون مفيدة، ولا بأس بها.

حين وصل نبأ الشاعر إلى أذنَيِ السلطان ضحك لهذه الصفاقة، ووعد بإصلاح ذات البين. وكما هو شأن كلّ الطغاة المتجبِّرين، كانت مشاعره متباينة بخصوص الفنَّانين: ففي حين كان يستهجن صعوبة التنبُّؤ بسلوكهم وجموحهم وعدم انصياعهم للنظام، كان يستمتع أيضًا بحضورهم بشرط أن يلزموا حدودهم. لقد كان للفنَّانين أسلوبُهم غيرُ المألوف في النظر إلى الأمور، وهو أسلوب يمكن أن يكون مسلِّيًا، وقد لا يكون كذلك. وكان يروقه أن يحتفظ بعدد قليل منهم في بلاطه، لكن تحت رقابة يقظة. كانوا أحرارًا في قول ما يحلو لهم ما داموا لا يوجِّهون النقد إلى الدولة وقوانينها، ولا إلى الدين أو العَلِيِّ القدير، وقبل هذا كلِّه إلى السلطان.

وتشاء الأقدار أن يلقى السلطان مصرعه في ذلك الأسبوع في عقب مؤامرة في السرايا للإطاحة به وتنصيب ابنه الأكبر على العرش، إذْ جرى

مكتبة الفكر الجديد

خنقه بخيط من حرير كي لا يُراق دمه النبيل. وكان العثمانيُّون، في الموت كما في الحياة، يروقهم أن يضعوا كلّ فرد في محلِّه، وأن يكون كلّ شيء واضحًا ودقيقًا في انتظامه. ففي حين كان أفراد الأسرة المالكة يُخنَقون، كان اللصوص يُشنَقون، والمتمرِّدون تُضرَب أعناقُهم، وقُطَّاعُ الطُّرق يُحكَم عليهم بالموت على الخازوق، ووجهاءُ البلاد يُسحَقُون بالهاون، والمحظيَّاتُ يُلقى بهنَّ في البحر وهنَّ داخل أكياس مثقلة بالحجارة. وكلَّ أسبوع كان يجري عرض مجموعة جديدة من الرؤوس المقطوعة معلَّقة على المشانق أمام القصر، ومحشوَّة الأفواه بالقطن إذا كان أصحابها ضبَّاطًا رفيعي المستوى، وبالقشّ إن كانوا أشخاصًا عاديِّين لا يُحسَب لهم أيُّ حساب. هكذا كانت مشاعر الشاعر تمامًا. ولمَّا كان ملزمًا بالقَسَم الذي أقسمه على نفسه، فقد لبث صامتًا إلى اليوم الذي لفظ فيه نَفَسه الأخير.

بيد أنَّ هنالك من كان له تفسير مغاير للقصَّة: فعندما طلب الشاعر تعويضًا سخيًّا، أمر السلطانُ الغاضبُ بأن يُقطَع لسانُه وأن يُفْرم إلى قطع صغيرة ويُقلى ويُطعم للقطط في سبعة أحياء. وبما أنَّ لسان الشاعر كان قد تفوَّه بكثير من الألفاظ النابية طوال تلك الأعوام، فقد اكتسب مذاقًا لاذعًا حتى بعد قليه قليًا سريعًا بقليل من شحم الخروف والبصل الطازج. وهكذا نأت القطط بأنفسها عنه، فراحت زوجة الشاعر التي كانت تراقب المشهد من وراء نافذة تجمع سرًّا قطع اللسان الصغيرة وتخيطها. وما كادت توشك على وضع ما جمعتْه على السرير وتخرج باحثة عن طبيب جرَّاح يتمكَّن من إعادة اللسان إلى فم زوجها، حتى خرّ طائر من النوارس وانسلَّ من النافذة المفتوحة وسرقها. ولم يكن ذلك بالأمر الذي يدعو إلى العجب، لأنَّ نوارس إسطنبول معروفةٌ بأنَّها تقتات على القاذورات وعلى

مكتبة الفكر الجديد

كلّ ما تصادفه في طريقها، بغضّ النظر عن مذاقه. فالطائر الذي يتمكّن من نقر عيون حيوانات تزيد على حجمه بمقدار ضعفين والتهامِها، إنَّما يستطيع أن يلتهم أيّ شيء. لهذا السبب لبث الشاعر صامتًا صمتَ مصباح صيّاد سمك، وشرع طائر أبيض يحوم فوق رأسه ثم ينعبُ بالقصائد التي لم يعد في ميسوره إلقاؤها فوق المدينة برمتها.

لكن مهما تكن حقيقة اسم الشارع التقليديّ الضيّق الذي كانت تقطن فيه أسرة نالبانتوغلو المُعْتَدَّةُ بِنَفْسِها، فقد صيغتْ وفق ثلاث حالات هي: طاعةُ الله ـ والأئمَّة ـ طاعةً تامَّة، والخضوعُ خضوعًا نهائيًّا وراسخًا (صلب)؛ تقبُّلُ نهر الحياة المقدَّس مهما كثرت القاذورات والأوحال التي قد يجرفها وإيَّاه (سائل)؛ الاستغناءُ عن الطموحات ما دامت كلُّ الممتلكات والمغانم سوف تختفي في نهاية المطاف في الجوّ (غاز). وعلى هذا الأساس، يُنظر إلى مصير كلّ فرد على أنَّه مقرَّر سلفًا، وأنَّ كلّ المآسي يتعذَّر تجنُّبُها، وضمنها المعاناةُ التي يسبِّبها سكَّان الشارع لبعضهم بعضًا، كشجارات كرة القدم والمناكفات السياسيَّة وضرب الزوجات.

كان بيت الأسرة يتألَّف من طبقتين بلون الكرز الحامض، وعلى امتداد السنين كان يُطلى بمختلف الألوان، مثل لون الإجاص الأخضر المملَّح ولونِ مربَّى الجوز البنِّي ولونِ البنجر المخلَّل البنفسجيّ. وقد استأجرت الأسرة الطبقة الأرضيَّة، في حين سكن مالك العقار في الطبقة العليا. وعلى الرَّغم من أنَّ الأسرة لم تكن موسرة ـ لأنَّ أيَّ ثراء هو ثراءٌ نسبيٌّ قياسًا إلى معايير الزمان والمكان ـ فإنَّ بيري كبرتْ من دون أيّ إحساس يراودها بالحرمان، فالحرمان سيأتي لاحقًا. وكما هو شأنُ كلّ الأمور المؤجَّلة، فإنَّه سيأتي بقوَّة كأنَّه يريد التعويض عن زمن

مكتبة الفكر الجديد

ضائع. وسوف تتعلَّم رؤية أخطاء البيت الذي كانت فيه يومًا ابنةً تحظى بكلِّ الحماية والمحبَّة.

كانت بيري آخر العنقود في أسرة نالبانتوغلو، وكان الحَمْل بها مثار دهشة لا توصف، لأنَّ أبويها اللذين ربَّيا ولدين اثنين حتى بلغا سنَّ المراهقة، كانا أكبر سنًّا من أن يُنجبا طفلًا آخر، بحسب الأعراف المحلِّيَّة السائدة. كانت سنوات بيري المبكرةُ حياةً سهلة بعد ولادتها، فكانت تتمتَّع بالحماية والدلال، وكلُّ حاجة من حاجاتها لم تكن مشبعةً فحسب، وإنَّما متوقَّعة أيضًا، غير أنَّها على الرَّغم من ذلك، كانت مدركة لنفحة من التوتُّر تهبّ في البيت لتتحوَّل بعدئذٍ إلى إعصار هائج كلَّما صادف وجود أبيها وأمّها في حجرة واحدة.

فقد كان الاثنان متناقضين تناقضَ الخمَّارة والمسجد، وكان العبوس الذي يلفُّ وجهيهما والصرامةُ المشبعة في صوتيهما، يدلّان على أنَّهما ليسا زوجين عاشقين أُغرم أحدهما بالآخر، بل كانا يبدوان كخصمين يمارسان لعبة الشطرنج. فعلى رقعة شطرنج زواجهما، كان كلّ واحد منهما يدفع إلى أمام، ويخطِّط للحركات المقبلة، ويستولي على القلاع والفيلة والوزراء، بهدف إلحاق الهزيمة النهائيَّة بخصمه. كان كلّ واحد منهما يرى في الآخر طاغيةً مستبدًّا في الأسرة، لا يعرف التسامح أو الغفران، ويتطلَّع إلى أن يقول يومًا ما: مات الملك أو الشاه. كان زواجهما محبوكًا حبكًا دقيقًا بنفور مشترك، فلم يعد أحدهما في حاجة إلى سبب كي يشعر بأنَّه مظلوم أو محبط. وراود بيري منذ تلك السنِّ المبكرة الإحساسُ بأنَّ الحبّ لم يكن، بل ربَّما لم يكن يومًا ما، السببَ الذي جمع بين والديها.

في أوقات المساء، كانت تراقب والدها وهو يتهاوى من حول

مكتبة الفكر الجديد

المائدة المؤلَّفة من أطباق المقبِّلات، الموزَّعةِ بدورها من حول زجاجة مشروب العرق: أوراق العنب المحشوَّة؛ الحمص المهروس؛ الفلفل الأحمر المشويّ؛ نبات الخرشوف بزيت الزيتون؛ فضلًا عن سلطة مخّ الغنم المفضَّلة عنده. كان يتناول طعامه ببطء، متذوِّقًا كلَّ طبق كأنَّه ذوَّاقة صعبُ الإرضاء يعرف الجيِّد من الرديء، حتى إن لم يكن الطعام أكثر من حاجة ضروريَّة كي لا يتناول الكحول ومعدتُه خاوية. وكان منصور مولعًا بالقول: «إنَّني لا أُقامر، ولا أسرق، ولا أقبل الرشوة، ولا أدخِّن، ولا أطارد النساء، والمؤكَّد أنَّ الله سوف يرأف بمخلوقه العجوز على هذا الصنيع الشنيع». وكان من مألوف عادته أن يدعو صديقًا أو صديقين إلى تناول مثل هذا العشاء الذي يطول وقته، فيتجاذبوا أطراف الحديث في قضايا السياسة والسياسيين، وتسيطر عليهم الكآبة بسبب ما آلت إليه الأمور. وكما هي حال أغلبيَّة السكَّان في هذا البلد، كان أغلب حديثهم يدور عن أشياء قلَّما تروق لهم.

فكان منصور يردِّد:

ـ سافروا إلى أصقاع العالم المترامية، وستجدون الناس يحتسون الشراب على نحو مختلف.

وكان هو شخصيًّا قد طاف مختلف أرجاء العالم في أيَّام شبابه، عندما كان يعمل مهندسًا على ظهر إحدى السفن.

ويضيف قائلًا:

ـ حين يشرب المرء حتى الثمالة في بلد ديموقراطيٍّ، تراه يهتف: «ماذا حدث لحبيبتي؟» أمَّا إذا كان البلد غير ديموقراطيٍّ فإنَّه يهتف: «ماذا حدث لبلدي الحبيب؟».

وسرعان ما كانت تلك الكلمات تتحوَّل إلى أغانٍ عذبة يشترك الكلُّ

مكتبة الفكر الجديد

في غنائها، مبتدئين أوَّلًا بغناء الألحان البلقانيَّة الراقصة، تعقبها بعد ذلك أناشيدُ البحر الأسود الثوريَّةُ، ثم ينتقلون رويدًا رويدًا، وحتمًا، إلى الأغاني الأناضوليَّة الشعبيَّة التي تقطِّع نياط القلوب، وتدور عن الحبِّ من طرف واحد. وكانت الأغاني التركيَّة والكرديَّة واليونانيَّة والأرمنيَّة والإسبانيَّة والعبريَّة تمتزج في الهواء شأنها شأن خيوط الدخان الملتفَّة.

كانت بيري تجلس وحدها في ركن من أركان المنزل فيغشاها حزن وكدر وتثقلها الهموم. وفي أغلب الأحايين، تسأل نفسها عن السبب الذي جعل والدها مهمومًا إلى هذا الحدّ. وتخيَّلت الحزن ملتصقًا به كأنَّه طبقة رقيقة من قطران أسود ملتصق بحذائه. ولم تستطع العثور على وسيلة ترفع بها معنويَّاته، أو تكفَّ عن المحاولة لأنَّها كانت، كما يعرف كلّ فرد من أفراد الأسرة، ابنةَ أبيها.

كان أتاتورك ـ أبو الأتراك ـ يحملق فيهم من خلال إطار الصورة المزخرف والمعلَّق على الجدار، عيناه الزرقاوان الجامدتان مرقَّطتان بالذهب. ثمَّة لوحات للبطل القوميّ منتشرة في كلّ حدب وصوب: أتاتورك في زيِّه العسكري في المطبخ؛ أتاتورك في سترته الطويلة في حجرة الجلوس؛ أتاتورك معتمرًا قبَّعة الرأس المعروفة بالقلبق، ومرتديًا سترة في حجرة النوم الرئيسة؛ أتاتورك في قفَّازين حريريَّيْن وقبَّعة فضفاضة في الردهة. وفي المناسبات القوميَّة والعطلات الرسميَّة كان منصور يرفع عَلَم تركيا وصورةَ الرجل العظيم خارج إحدى النوافذ كي يراها المارَّة.

غالبًا ما كان منصور يقول لابنته:

ـ تذكَّري، لولاه لأصبحنا مثل إيران، ولاضطررت شخصيًّا إلى أن أُطلق لحيتي المدوَّرة وأن أهرِّب مشروباتي الروحيَّة. وسيكتشفون أمري

ويجلدونني في الميدان. أمَّا أنتِ يا روحي، فستضطرِّين إلى لبس العباءة حتى وأنتِ في هذه السنِّ الصغيرة.

كان أصدقاء منصور ـ من معلِّمي المدارس وموظَّفي المصارف والمهندسين ـ أسوة به، من مريدي أتاتورك وأتباعِه، يقرأون القصائدَ الوطنيَّة ويُلقونها، وإذا ما تفجَّرت قريحتهم فإنَّهم كانوا ينظمونها، وكانت في معظمها متشابهةً في وزنها ومكرَّرةً أصلًا، وليست مقطوعات منفصلة، فتبدو مثل أصداء صيحة واحدة. ومع هذا، فقد استمتعت بيري بتسكُّعها في حجرة الجلوس وهي تصغي إلى أحاديثهم الشجيَّة، وإلى نبرات أصواتهم وإيقاعاتها التي كانت تعلو وتهبط عند ملء كلّ كأس إلى حافَّتِها. فلم يعترضوا على حضورها، وإن دلّ اهتمامها بأحاديثهم على شيء فإنَّه مؤشِّر على بعث الحيويَّة والنشاط فيهم، فيملأهم بأمل في الشباب. وهكذا، كانت بيري تلبث على مقربة منهم تحتسي شراب عصير البرتقال من كوب والدها المفضَّل الذي يزيِّن أحدَ جوانبه توقيعُ أتاتورك، ومكتوب على جانب آخر له قولٌ من أقوال الزعيم القومي مفاده: «أنَّ العالم المتمدِّن يسبقنا وما علينا إلَّا اللحاقُ بالرَّكْب». كانت بيري تحبّ هذا الكوب حبًّا جمًّا، فهو مصنوع من الخزف، ناعمُ الملمس عندما تضعه في كفِّها، وإن كان يجعلها نادمة قليلًا عندما تفرغ من الشراب، كأنَّ الفرص المتاحة للحاق بالعالم المتمدِّن قد تلاشت بدورها.

كانت بيري أشبه بلعبة اليويو(١)، تُعيد ملء دلاء الثلج في ذهاب وإياب، وتُفرغ منافض السجائر وتحمِّص الخبز. ثمَّة عمل يتطلَّب إنجازه،

---

(١) اليويو (yo-yo): لعبة مؤلَّفة من قرص مزدوج محزوز بسلك، أحد طرفيه ملفوف حول الحزّ والآخر مشدود إلى يد المرء أو إصبعه على نحو يمكِّنه من قذف القرص في اتِّجاه ما ثم إعادته إلى اليد، وهكذا (المورد).

مكتبة الفكر الجديد

وخصوصًا أنَّ والدتها كانت تغيِّب نفسها عن مثل هذه الأمسيات.

كانت سلمى تضع الطعام على الطاولة وتتنهَّد تنهيدة هادئة لتتوارى من بعدها في حجرة نومها، ولا تخرج منها إلَّا في صباح اليوم التالي. وأحيانًا لا تخرج إلَّا وقتَ الظهيرة أو في وقت لاحق. كانت كلمة «اكتئاب» غير معروفة في البيت، فكانت تردِّد موضحة أنَّ السبب هو «الصداع». كانت تعاني دومًا حالات الصداع الذي يتركها واهنة، مطبقة الجفنيْن إلى حدٍّ ما؛ كأنَّها تغمض عينيها متجنِّبةً مواجهةَ نور الشمس الدائم. وكانت تدَّعي أنَّ العقل يتطهَّر إذا ما ضعف البدن؛ يتطهَّر تطهُّرًا يجعلها ترى نذر الشؤم في كلّ شيء: هديل حمامة خارج نافذتها؛ مصباح كهربائيّ يحترق بغتةً؛ ورقة شاي تطفو في قدحها. وإذا ما انعزلت في حجرة نومها، فإنَّها تستلقي على السرير وتُصيخ السمع إلى كلِّ صوت. كان يستحيل عليها ألَّا تُصغي إلى الأصوات، فالجدران رقيقة رقَّةَ أقراص العجين، لكنَّ ثمَّة جدارًا آخر بين سلمى ومنصور، شُيِّد قبل عقود من الزمان، وراح يرتفع ويرتفع بمرور السنين.

كانت سلمى قبل مدَّة من الزمان قد انضمَّتْ إلى حلقة من حلقات الذِّكْر يؤمُّها إمام اكتسب شهرة عظيمة بسبب فصاحة خطبه وصرامة أفكاره. وكان الأهالي يسمُّونه أوزمباز[١] أفندي، لأنَّه اعتاد أن يزعم أنَّه حيثما رأى علامات تدلُّ على الكفر والهرطقة فإنَّه سيعمد إلى تهشيمها وسحقها سحقَ حبَّات العنب تحت القدمين. ولم يتضايق أقلَّ مضايقة من أنَّ لقبه يذكِّر المرء بصناعة النبيذ، وتلك خطيئة لا تقلّ خطورة عن شربه. وهكذا، لم يكن عصير العنب ولا النبيذ المعبَّأ في زجاجات

---

(١) أي ساحق العنب (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

يثيران اهتمام الرجل بقدر ما كان يثيره سحقُ العنب نفسه.

تغيَّرت سلمى تغيّرًا ملحوظًا تحت تأثير الواعظ وخطبه. وأصبحت الآن لا تمتنع من مصافحة الجنس الخشن فحسب، وإنَّما بدأت أيضًا ترفض الجلوس على مقعد حافلة سبق لرجل ما أن جلس عليه، حتى إذا كان ذلك الرجل قد نهض عنه لتوِّه ليفسح لها المجال للجلوس. وعلى الرَّغم من أنَّها لم تضع النقاب على وجهها، وهو ما فعلته بعض صديقاتها المقرَّبات إليها، فإنَّها غطَّت رأسها تمامًا. ولم تعد تستحسن الأغاني الشبابيَّة، إذْ كانت تجدها فاسدة ومفسدة للذوق. ومنعت أن يدخل منزلَها كلُّ أنواع الحلويات والوجبات السريعة والمثلَّجات ورقائق البطاطس ومنتوجات الشوكولاتة، وحتى الموادّ الغذائيَّة المكتوب عليها كلمة «حلال»، منذ أن أخبرها أوزمباز بأنَّها ربَّما تحتوي على مادَّة الجلاتين، التي قد تحتوي على مادَّة الكولاجين، ويمكن لهذه الأخيرة أن تكون مصنوعة من لحم الخنزير. وبلغ بها الخوف من التماسّ مع أيّ مستخلص من مستخلصات الخنازير حدًّا جعلها تستخدم صابون زيت الزيتون بدلًا من «الشامبو»، والمسواكَ بدلًا من معجون الأسنان، وقالبَ الزبدة بدلًا من الشمعة. وفي سياق الشكوك التي كانت تستبدّ بها من أنَّ الصمغ المستخرج من عظام الخنازير قد يكون مستعملًا في صناعته، رفضت رفضًا باتًّا انتعال الأحذية ذات العلامات الأجنبيَّة، ونصحت الآخرين بأن يحذوا حذوها. وراحت ترى في الأحذية الخفيفة (الصنادل) أكثر أمنًا. وعلى مدى سنين طويلة، وبناء على نصيحة الأمّ، بدأت بيري الذهاب إلى المدرسة منتعلة الصنادل المصنوعة من جلد الإبل، ومرتديةً الجواربَ المنسوجة من صوف الماعز، لتكون بذلك موضع سخرية زميلاتها في الفصل الدراسي.

ونظَّمت سلمى مع حلقة من النساء اللواتي يشبهنها في عقليَّتها نزهات إلى الشواطئ في إسطنبول وما حولها، محاوِلةً بذلك إقناعَ النساء اللواتي يعرِّضن أجسادهنّ لأشعَّة الشمس بالتوبة على أفعالهنّ قبل فوات الأوان على إنقاذ أنفسهنّ. فـ «كلّ بوصة من أجسادكنّ تكشفن عنها اليوم مصيرُها الحرقُ في نار جهنّم غدًا». ووزَّعت جماعتُها من النسوة منشوراتٍ مكتوبةً بلغة مليئة بأغلاط نحويَّة شنيعة وأخطاء إملائيَّة أسوأ، ومليئة بعلامات التعجُّب وتنقصها الفواصل، ويردِّدن أنَّ الله لم يرغب في رؤية حفيدات حوَّاء أنصافَ عاريات في الأماكن العامَّة. وفي أوقات لاحقة من الأماسي، وبعد أن تغدو الشواطئ مهجورة، كان في الإمكان مشاهدةُ تلك المنشورات تتقاذفها الريح، ممزَّقةً وملطَّخة، وكلمات مثل «فسوق» و«تدنيس المقدَّسات» و«اللعنة الأبديَّة»، متفرِّقة على الرمال كأنَّها بقايا أعشاب بحريَّة يابسة.

وعلى الرَّغم من كلّ شيء، فقد كانت سلمى مفعمة بالحيويَّة والنشاط، وأصبحت كثيرة الثرثرة والنقاش في هذه المرحلة الجديدة من حياتها، توَّاقةً إلى إعادة الآخرين، وخصوصًا زوجَها، إلى جادَّة الصواب. وبما أنَّ منصور لم تكن لديه أيّ نيَّة في أن يقوِّم سلوكه، فقد انقسمت أسرة نالبانتوغلو إلى منطقتين: منطقتها هي، ومنطقته هو؛ دار الإسلام، ودار الحرب.

هبط الدِّين على حياتهم على نحو غير متوقَّع هبوطَ النيزك، وأحدث فجوةً كبيرة، وفصل الأسرة إلى معسكرين متناحرين. فوقف الابن الأصغر، هاكان، المغالي في تمسُّكه بالدين وبالقوميَّة إلى جانب أمِّه، في حين لبث الابن الأكبر، أوميد، محايدًا برهةً وجيزة من الزمان، في محاولة منه لتسوية الخلاف، وإن كان الواضح من أقواله وأفعاله أنَّه يساريّ الهوى. وحين اتَّضح في نهاية المطاف أنَّه يساريٌّ، تصرَّف

مكتبة الفكر الجديد

تصرُّفَ الماركسيّ المؤمن الإيمانَ كلّه بالماركسيَّة.

كان من جرَّاء ذلك أن وجدت البنت الصغرى، بيري، نفسها في موضع حرج، يحاول كلّ واحد من أبويها أن يكسبها إلى صفّه، وبات وجودها ساحةَ معركة بين وجهتي نظر عالميَّتين ومتنافستين. وأصابها بالشلل تفكيرُها في أنَّه يتحتَّم عليها أن تلجأ إلى الاختيار مرَّة واحدة، وإلى ما لا نهاية، بين تديُّن والدتها المنطوي على التحدِّي، وماديَّةِ والدها المناوئة. فقد كانت بيري نمطًا من الأشخاص حاولت، ما استطاعت، ألَّا تثير استياءَ أحد. وفي سِياق وضعها المحاط بمحاربَيْن، تمرَّد كلٌّ منهما على الآخر وحارَب حربًا ضروسًا لا نهاية لها، اضطرَّت إلى أن تكون دمثة ليِّنة الجانب، وأرغمت نفسها على الكياسة وعلى أن تكون سهلة العريكة وسلسة القياد. ومن غير أن يُدرك أحد ما، أطفأتِ الحريق المضطرم في أعماقها وحوَّلتْه إلى رماد.

لم تكن الهوَّة بين والدَي بيري واضحة أكثر ممَّا هي عليه في ركن معيَّن من أركان حجرة الجلوس. فهنالك رفّان من فوق جهاز التلفاز، أحدُهما محجوز لكتب أبيها، مثل: «أتاتورك: ولادة جديدة لأمّة» للمؤلِّف لورد كينروس؛ «الخطاب العظيم» لأتاتورك نفسه؛ «أشياء لم أعرف أنَّني أحببتها» لناظم حكمت؛ «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي؛ «دكتور جيفاكو» لبوريس باسترناك، إضافة إلى مجموعة كاملة من المذكَّرات (بأقلام جنرالات الحرب وعامَّة الجنود) عن الحرب العالميَّة الأولى، وطبعةٍ قديمة لكتاب «رباعيَّات عمر الخيَّام» مهلهلةِ الغلاف لكثرة قراءتها.

أمَّا الرفّ الثاني، فكان يختلف الاختلافَ كلَّه عن الرفّ الأوَّل، وقد لبث سنوات طويلة مخصّصًا لجياد مصنوعةٍ من الخزف، من مختلف

مكتبة الفكر الجديد

الألوان والأحجام. جيادٌ صغيرة الجسم وجياد فحول وأَمْهار بشعر رقبة ذهبيّ اللون، وذيول بلون قوس قزح، تمرح وتعدو وترعى. ورويدًا رويدًا، بدأت الكتب بالوصول: «صحيح البخاري» و«تهذيب الأصول» للغزالي، و«الدليل إلى الصلاة والدعاء في الإسلام»، «قصص الأنبياء»، و«دليل المرأة المسلمة الصالحة»، و«فضائل الصبر والعرفان»، و«التفسير الإسلامي للأحلام». وكان الركن الأيمن مخصَّصًا لكتابَيْ أوزمباز أفندي، وهما: «أهمِّيَّة الطهارة في عالم منحلّ»، و«الشيطان يهمس في أذنك». وبينما راحت أعداد جديدة من الكتب تصل، بدأت الجياد بالانسحاب، بوصةً بوصةً، إلى نهاية الرفّ، حيث تربَّعت تربُّعًا مزعزَعًا كأنَّها على حافَّة الهاوية.

كان فيض الكلمات وجيشان العواطف في ممرَّات المنزل قد أدهشا عقل بيري البريء. فقد كانت تعلم، من كلّ ما تلقَّته من معارف، بأنَّ الله واحدٌ أحد. لكنَّها بالرَّغم من ذلك، لم تستطع لحظة واحدة أن تصدِّق أنَّ التعاليم الدينيَّة التي كانت والدتُها تقدِّسها ووالدُها يتمرَّد عليها، إنَّما ترجع إلى الربّ نفسه. المؤكَّد أنَّ الأمر ليس كذلك. وإذا كانت ترجع فعلًا، فكيف يمكن أن يَنظر إلى الله، بمثل هذين الأسلوبين المتناقضين والمتعارضين، شخصان يجمعهما خاتمُ الزواج، وإن لم يعد يجمعهما فراشٌ واحد؟

كانت بيري في يقظتها وإذعانها شاهدةً على العداوات المتأصِّلة، تراقب كيف كان أحبَّاؤها يمزِّق أحدهم الآخر إربًا إربًا. وتعلَّمت، منذ وقت مبكر، أنَّ لا معركة أشدُّ إيلامًا وأذًى من معركة عائليَّة، ولا معركة عائليَّة أكثر إيلامًا وأذًى من تلك التي تدور عن الله.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الســـكِّيـــن

إسطنبول ــ ٢٠١٦

قبل زمن طويل، شاهدت بيري الشحَّاذين الذين خطفوا حقيبة يدها وكانت أسرع منهم على الرَّغم من أنَّهمَ هربوا بأسرع ما يستطيعون. لم تقدر على تصديق حظِّها، إن كان ذلك حظَّها. فقد انطلقت من ورائهم في أزقَّة مرصوفة بالحجارة، جدرانُها الصخريَّة تنهض من بين الظلال، وصدرُها يحترق عند كلّ نَفَس.

كان الأطفال في ذلك المكان، يحيطون بالرجل، المتشرِّد الذي دخَّن ما تبقَّى من سيجارتها. خطت بيري خطوة إليهم بيد أنَّها لم تستطع الكلام. لقد تصرَّفت من دون تفكير. أمَّا الآن، فقد ارتبكت لأنَّها كانت مستغرقة في التفكير.

ابتسم المتشرِّد ابتسامة هادئة كأنَّه كان يتوقَّع مجيئها. بدا عن كثب رجلًا مختلفًا، فالخطوط الرفيعة على عظام وجنته متناسقةٌ تمامًا، وألق الشباب يومض من أعماق عينيه السوداوين. ولولا التعاسةُ البادية على مظهره، لظنَّ المرء أنَّ مسحة من الخُيَلاء تُحيط به. وكان يضع في حضنه حقيبة يدها، ويمسك بها على نحوٍ ينمُّ عن تقدير، ويربِّت عليها كأنَّها حبيبة ضاعت منذ زمن طويل.

قالت بيري بصوت صارم وهي تزدرد العقدة التي بلغت حلقومها:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هذه حقيبتي.

في هذه الأثناء، فتح المتشرِّد الحقيبة بعد أن رفعها عاليًا وقلبها رأسًا على عقب، فسقطت محتوياتها، وهي: مفاتيح البيت، وقلم حمرة، ومستحضر تجميليّ لمحيط العين، وقلم حبر، وزجاجة عطر صغيرة، وهاتف محمول، وعلبتان من المحارم الورقيَّة، ونظَّارة، وفرشاة شعر، وسدادة أذن قطنيَّة، وحافظة نقود جلديَّة سرعان ما مدَّ يده والتقطها، وجذب من داخلها رزمةً من النقود الورقيَّة، وبطاقاتِ ائتمان وهويَّةَ امرأة شخصيَّةً ورديَّةَ اللون، وإجازةَ سَوْق، وصورًا عائليَّة ذكرياتُها أثيرةٌ. وفي الوقت الذي انهمك فيه في إطلاق الصفير، بدأ يدسّ في جيبه النقود والهاتف متجاهلًا باقي الأشياء. كان صفيره لحنًا رقيقًا ينمُّ عن خلوِّ البال كأنَّه صادر من صندوق موسيقى قديم. وبينما هو يوشك على رمي حافظة النقود بعيدًا عنه، جذب نظرَه شيءٌ ما: صورة انزلقت قليلًا من مكانها بعد أن حُجِبت عن الأنظار بعناية. تذكار من زمن مضى وانقضى.

رفع المتشرِّد حاجبه وأنعم النظر في الصورة التي شاهد فيها أربعة وجوه لـ: رجل واحد وثلاث نساء شابَّات، أستاذ وطالباته. كانوا جميعًا يرتدون المعاطف ويعتمرون القبَّعات ويلفُّون أعناقهم باللفَّاعات، مُولِين ظهورَهم مكتبةَ بودليان في أوكسفورد، متلاصقين كأنَّهم جسد واحد طلبًا للدفء، أو هكذا كانت هي عادتهم، ومنحشرين إلى الأبد في واحد من أشدّ أيَّام ذلك الشتاء برودة.

رفع المتشرِّد رأسه وكشَّر عن أسنانه في وجه بيري، كأنَّه استدلَّ على أوكسفورد من شريط سينمائيّ أو قصاصة من إحدى الصحف، أو لعلَّه تنبَّه إلى أنَّ إحدى الفتيات في الصورة تقف الآن قبالته. لقد ازدادت

مكتبة الفكر الجديد

وزنًا وتغضَّنت ملامحها، وبات شعرها أقصر ممَّا كان عليه، بل أضحى مسترسلًا أيضًا، لكن عينيها لم تتغيَّرا، وتحجبان أيّ مسحة تنمّ عن الحزن. وهنا رمى الصورة جانبًا.

راقبت بيري، لبضع ثَوانٍ لا أكثر، الصورةَ تطير في الهواء ثم تهوي على الأرض، فجفلت كأنَّ في الصورة روحًا حيَّة قد تتعرَّض للأذى في أثناء سقوطها.

في خضمِّ الهلع الذي تملَّكها، صرخت في وجهه قائلة إنَّ الناس قادمون لنجدتها: الشرطة والجندرمة وزوجها. ولوَّحت بيدها لتُريه خاتم زواجها، مدركةً إدراكًا يبعث على الألم في تلك اللحظة، أنَّ الفتاة التي كانَتْها أيَّامَ زمان سوف تسخر منها الآن على عرضها، متباهية بهذا الرمز الدالّ على حالتها الزوجيَّة كأنَّه تعويذة. غير أنَّ هنالك ما يكفي من الأسباب التي تجعل الرجل لا يصدِّقها، ليس أقلَّها تهدّجُ صوتها. كان الزقاق مهجورًا، والضوء متلاشيًا من صفحة السماء. ما مقدار المسافة التي تفصلها الآن عن الطريق العام؟ لا تزال تسمع صوت هدير السيَّارات التي تعبر الطريق، لكنَّه صوت مكبوت كأنَّه صادر من وراء حاجز زجاجيّ. وعلى حين بغتة، استبدَّ بها الخوفُ.

وقف المتشرِّد ساكنًا من دون حراك لحظة واحدة ملؤها الارتباك. كان المكان مغلّفًا بسكون تامّ جعل بيري تعتقد أنَّ في وسعها سماعَ دبيب فأر يعدو وسط كومة من النفايات على مقربة منها، مندفعًا وباحثًا، في حين كان قلبه الذي لا يتجاوز حجمُه حجمَ الفستقة يدقُّ بعنف داخل صدره الصغير. بدا الزقاق كأنَّه خارج مملكة قطط إسطنبول، خارج حدود المدينة، وفي تلك اللحظة، خارج حدود هذا العالم.

فتَّش الرجل في هدوء داخل جيب معطفه عن شيء ما، ثم أخرجه:

مكتبة الفكر الجديد

كيس من النايلون يحتوي على أنبوبة صغيرة فيها محلول. أمسك الأنبوبة وراح يعصرها بكلٍّ محتوياتها في الكيس، ونفخ الكيس فأصبح كالبالون الصغير. ثم ابتسم لما صنعه، فكان أشبه بكرة ثلجيَّة تبعث في النفس الراحة والرضا، فكلّ ندفة ثلج تتساقط منها هي ماسة أو لؤلؤة. ثم وضع الكيس على فمه وأنفه وبدأ يتنشَّق تنشُّقًا قويًّا: مرَّة، مرَّتين، ثلاث مرَّات، وكان تنشُّقه في المرَّة الثالثة طويلًا. وحين رفع رأسه مجدَّدًا، كانت قسمات وجهه قد تبدَّلت ولم تعد كما كانت قبل قليل. فهمت بيري أنَّ الرجل مدمن على تنشُّق الصمغ. ولم تتنبَّه إلَّا الآن للأوعية الدمويَّة المتكسِّرة في محجريه، وكانت أشبه بأرض محروقة. وأخبرها صوت سمعته في أعماقها بأن تعود إلى ابنتها وإلى سيَّارتها، غير أنَّها لبثت واقفة كأنَّ مادَّة لاصقة قد انسكبت على قدميها فالتصقت بهذه البقعة من الأرض.

أعطى المتشرِّد الكيس لإحدى الفتاتين، فكادت تخطفه خطفًا من بين يديه وهي في غمرة انفعالها. وبدأت تنفخ فيه نفخًا متواصلًا، في حين انتظرت الفتاة الأخرى دورها نافدةَ الصبر ومستاءةً لأنَّها الأخيرة. كان الصمغ المتعة المفضَّلة لدى أطفال الشوارع والبغايا القاصرات، وكان أيضًا البساطَ السحريّ الذي يطير بهم بخفَّة الريش من فوق السطوح والقباب وناطحات السحاب إلى مملكة نائية حيث لا مكان للخوف، بل لا سبب له، ولا مكان للألم ولا للسجون ولا للقوانين. كانوا يمكثون في ذلك النعيم، نعيم جنَّة عدن، أطولَ مدَّة يستطيعونها، يتناولون العنب الذهبيّ اللون من أغصانه، ويقضمون الخوخ الطريّ. وكانوا في أمنهم من الجوع والبرد يطاردون الغيلان، ويسخرون من العمالقة، ويُعيدون الجن إلى القماقم التي هربوا منها.

مكتبة الفكر الجديد

وكما هي حال كلّ الأحلام الجميلة، كان لهذا الحلم ثمنُه أيضًا. فقد كان الصمغ يُذيب غشاء خلايا أدمغتهم، ويفتك بأجهزتهم العصبيَّة، ويفتِّت أكبادهم وكلاهم. يلتهمهم بوصة بوصة من الداخل.

زعقت بيري بصوت كان أعلى ممَّا يجب:

ـ سأستدعي الشرطة.

ثم فكَّرت، في سرِّها، في أنَّ كلامها لم يكن مناسبًا، فأضافت بصوت أعلى:

ـ إنَّ ابنتي اتَّصلت بالشرطة قبل قليل، وستحضر في أيّ لحظة.

نهض المتشرِّد واقفًا على قدميه كأنَّ تلك هي الإشارة إلى البدء في الحديث. كانت خطواته بطيئة، متمهِّلة ومتروِّية، وربَّما تعمَّد ذلك لإعطائها الوقت الكافي لتغيير رأيها، أو ليوضِّح لها أنَّ ما سيحدث ليس خطأً من صنع يديه.

اختفت الطفلتان ولم يعد في الإمكان مشاهدتُهما. لم تكن لدى بيري أيُّ فكرة عن الوقت أو المكان الذي توارتا فيه عن الأنظار. فقد كانتا تمتثلان لأوامر المتشرِّد، فهو سلطان الشوارع الخلفيَّة وإمبراطورُ النفايات المتراكمة وفتحات تصريف مياه المجاري، وكلّ شيء متروك ومهمَل وغير مرغوب فيه. إنَّه جامع هذه الأشياء كلّها، الرحبُ الصدر والسمحُ التفكير. ولم تكن ملامحه، بل حدَّة انفعالاته ونظرته الحادَّة التي يرمق بها مَنْ حوله، هي التي ذكَّرت بيري بشخص ما؛ شخص اعتقدت أنَّها تركته وراء باب مغلق في الماضي؛ شخص أحبَّته كما لم تحبَّ أحدًا من قبل.

أشاحت بيري بنظرها بعيدًا عن الرجل ورَنَتْ إلى الصورة على

مكتبة الفكر الجديد

الأرض بنظرة خاطفة. كانت من الصور التي ترجع إلى أيَّام دراستها في جامعة أوكسفورد، واحتفظت بها على مرِّ السنين، وهي الصورة الوحيدة التي تملكها للأستاذ آزور. لهذا لم تقدر على تحمُّل ضياعها.

عندما حدَّقت إلى المتشرِّد مجدَّدًا، جفلت لمَّا شاهدت أنفه ينزف، وقطرات من الدم تلطِّخ صدره، حمراء قانية، برَّاقة مثل طلاء. كان لا يزال يتقدَّم نحوها غير مُدرك تلك القطرات. وتناهى إلى سمع بيري صوتُ شهقة، كان صوتها غير مألوف لأذنيها، عندما شاهدت لمعان السكِّين المعدني الذي شهره في وجهها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

اللـــعـــبـــة

إسطنبول ـ ثمانينيَّات القرن العشرين

وصلوا في ساعة متأخِّرة من إحدى ليالي الجمعة. وكما هو شأن البوم، فقد انتظروا حتى يرخي الظلام سدوله على المدينة قبل البحث عن طريدتهم. كانت والدة بيري آخرَ من سمع صوت قرع الباب الرئيس، بعد أن أوت إلى فراشها عقب منتصف الليل بعدما طهت أحد أطباقها الشهيَّة من لحم الضأن المشويّ على مهل بورق النعناع. وعندما نهضت من فراشها، كان رجال الشرطة قد دخلوا المنزل وبدأوا يقلبون الحجرة المخصَّصة للولدين. وبعد المداهمة، لم تتمكَّن سلمى من النوم نومًا هانئًا مجدَّدًا، وصارت كأنَّها عاجزة عن التفكير، فأصبحت بذلك مخلوقًا من المخلوقات الساهرة ليلًا.

على الرَّغم من أنَّ رجال الشرطة كانوا يفحصون كلّ شيء، فإنَّ الواضح من تصرُّفهم أنَّهم كانوا ينشدون الابن الأكبر، أوميد، إذْ جعلوه يقف منفردًا في أحد أركان الحجرة، ومنعوه من أن يتبادل أيّ نظرة مع أفراد أسرته. وعندما شاهدته بيري، وهي ابنة السنوات السبع، في تلك الحالة، خالجها شعور بالحزن، كاد يصل في حقيقته إلى مرحلة اليأس. غير أنَّها لم تُفصح عن شيء أبدًا، لكن أوميد كان شقيقَها الأثير على فؤادها. فعيناه البندقيَّتان الواسعتان اللتان تتغضَّنان من زاويتيهما لدى كلّ ابتسامة يبتسمها، وجبينه الواسع، سببٌ يدفع إلى

مكتبة الفكر الجديد

الاعتقاد أنَّه أكثر حكمة ورزانة من سنوات عمره. وكما هو شأنها هي، فقد كان ميَّالًا إلى الخجل بسهولة، لكنَّه بخلافها، كان مفعمًا بالحيويَّة والنشاط. كان اسمًا على مسمًّى، فهو الأمل. وبالرَّغم من الفجوة العمريَّة القائمة بينهما، فقد لبث أوميد قريبًا من بيري، يلعب وإيَّاها ألعابًا ساذجة من دون سبب سوى حبّه لها، متظاهرًا بأنَّه أميرٌ مختطَف على متن سفينة قراصنة، أو ساحرٌ ماكرٌ ومدبِّرُ مكائد على جبل «كاف»، بغض النظر عمَّا كانت تطلبه قصَّة ذلك اليوم.

في الجامعة ـ قسم الهندسة الكيميائيَّة ـ كان أوميد قد تحوَّل إلى شخص انطوائيّ إلى حدٍّ ما، فأخذ يطيل شاربه مثل حيوان الفقمة، وعلَّق على الجدران صورَ أشخاص لم يسبق لبيري أن شاهدتها. جدّ بلحية تدلُّ على وقار؛ رجل ذو نظَّارة دائريَّة ووجه منوّر؛ صورة أخرى لرجل كثيف الشعر ويعتمر قبَّعة دكناء. ثمَّة امرأة أيضًا شعرها معقوص إلى الوراء وتعتمر قبَّعة بيضاء. وعندما سألته بيري عن هؤلاء الأشخاص في إحدى المرَّات، قال موضحًا:

ـ هذا ماركس(١)، وذلك غرامشي(٢). أمَّا صاحب القبَّعة، فهو الرفيق تشي.

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣): فيلسوف اجتماعي ألماني حرَّر «البيان الشيوعيّ» بالتعاون مع إنجلز، وأسَّس «الدوليَّة الأولى». له «رأس المال» وهو دستور الماركسيَّة والنظام الشيوعي (المترجم).

(٢) أنطونيو غرامشي (١٨٩١ ـ ١٩٣٧): سياسي وصحافي وأديب إيطالي من مؤسِّسي الحزب الشيوعي الإيطالي مع توغلياتي (١٩٢١). الأمين العام للحزب (١٩٤٢). سُجن (١٩٢٦) ومات في السجن. له «رسائل السجن»، وهي من روائع الأدب الإيطالي، و«دفاتر السجن»، وهي مجموعة مقالاته في الفترة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٥، وتُعدّ من أهمّ المؤلَّفات في تاريخ الفكر الماركسيّ (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري من غير أن تفقه شيئًا ممَّا كان يتفوَّه به، لكنَّها تأثَّرت بالحماسة التي ميَّزت صوته:

ـ آه، وهذه؟

ـ روزا[1].

ـ ليت اسمي كان روزا.

فابتسم لها أوميد وقال:

ـ اسمك أجمل بكثير. صدِّقيني. لكن إن شئت فسوف أُناديك روزا ـ بيري، فلربَّما تصبحين ثوريَّة.

ـ وما معنى ثوريَّة؟

توقَّف أوميد عن الكلام باحثًا عن جواب شاف.

ـ الثوريّ هو من يريد أن يكون لكلِّ طفل لُعَبٌ، لكن ليس أكثر ممَّا يجب.

قالت بيري في حذر:

ـ حسنًا...

فقد أعجبها نصف ما سمعته من الكلام، ولم يعجبها نصفُه الآخر.

ـ كم عدد اللُّعَب الأكثر ممَّا يجب؟

ضحك أوميد وداعب شعرها، وظلّ السؤال معلَّقًا بينهما من دون إجابة.

واليوم، ها هي الملصقات نفسها التي يمزِّقها رجال الشرطة عن

---

(١) روزا لوكسمبورغ (١٨٧٠ ـ ١٩١٩): كاتبة اشتراكيَّة ألمانيَّة. من قادة الحزب الاشتراكي الألماني، ومن المناوئين لحرب ١٩١٤. سُجنت (١٩١٥ ـ ١٩٢٨). شرحت مفاهيم الماركسيَّة عن الاستعمار. لها «تكديس رأس المال» و«رسائل إلى سبارتاكوس». قُتلت في أثناء نقلها إلى السجن (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الجدران. وعندما أصبحت كلّها ممزَّقة، راحوا يفتِّشون الكتب التي كانت كلُّها ملكَ أوميد، إذْ لم يكن شقيقه الأصغر هاكان من هواة القراءة: «البيان الشيوعيّ» لكارل ماركس، «الطبقة العاملة في إنكلترا» لفريدريك إنجلز(١)؛ «الثورة الدائمة» لليون تروتسكي(٢)؛ «فئران ورجال» لجون شتاينبك(٣)؛ «المدينة الفاضلة» لتوماس مور(٤)؛ «وفاءً لقطالونيا» لجورج أورويل(٥). وبدوا وهم يقلبون الصفحات بنظرات تنمُّ عن إحباط يشوبه التوتُّر، كأنَّهم يفتِّشون عن رسائل وملاحظات شخصيَّة. وبالرَّغم من أنَّهم لم يعثروا على شيء، فقد عمدوا إلى مصادرة الكتب.

قال قائد الشرطة ممسكًا بأحد الكتب وهو يلوِّح في وجه أوميد:

---

(١) فريدريك إنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥): اشتراكيّ وفيلسوف ألمانيّ، وضع مع كارل ماركس «البيان الشيوعيّ» (١٨٤٨)، ونشر كتاب «رأس المال» بعد موت مؤلّفه ماركس (المترجم).

(٢) ليون تروتسكي (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠): من مشاهير رجال الثورة الروسيَّة ورفيق لينين. نظَّم الجيش السوفياتيّ، ونفاه ستالين في سنة ١٩٢٩ إلى آلما ـ آتا عاصمة جمهوريَّة كازخستان، لكنَّه هرب منها فطاردته السلطات السوفياتيَّة في فرنسا وتركيا والنرويج، غير أنَّه وجد له ملاذًا في المكسيك التي أقام بها إلى أن اغتيل مضروبًا ببلطة في رأسه. من مؤلَّفاته: «الثورة الدائمة» و«الثورة التي خانوها» و«دفاعًا عن الماركسيَّة» و«لست مذنبًا» و«حياتي» (المترجم).

(٣) جون شتاينبك (١٩٠٢ ـ ١٩٦٨): روائيّ أميركيّ اشتهر بوصف الطبقات الشعبيَّة في موطنه كاليفورنيا. حاز جائزة نوبل في الأدب (١٩٦٢). من أشهر مؤلَّفاته «عناقيد الغضب» و«شرقي عدن» (المترجم).

(٤) توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥): قدِّيس وفيلسوف وسياسيّ إنكليزيّ. عارض طلاق الملك هنري الثامن فأُعدم. اشتهر بكتابه «المدينة الفاضلة»، الذي وصف فيه مدينة خياليَّة تعمّ فيها اشتراكيَّة مثاليَّة (المترجم).

(٥) جورج أورويل (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠): روائيّ إنكليزيّ من أشهر رواياته «١٩٨٤» و«مزرعة الحيوان» (١٩٤٥) (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ لماذا تقرأ هذا الهراء؟

كان الكتاب هو «قبلة المرأة العنكبوت»، وأضاف:

ـ أنت تركيّ مسلم ووالدك تركيّ مسلم ووالدتك تركيَّة مسلمة. سبعة أجيال، الشيء نفسه. ما الذي يمثّله لك كلّ هذا الكلام الفارغ؟

حدَّق أوميد إلى قدميه الحافيتين؛ إلى أصابع قدميه المدوَّرة والنظيفة والمتلاصقة، بعضها إلى بعض، كأنَّها تنشد الأمان.

قال الرجل:

ـ اللعنة على أهل الغرب، إن كان لديهم مشكلة فهي مشكلتهم. أمَّا في بلدنا فالناس جميعًا سعداء. فنحن ليس لدينا هنا طبقات، بل نحن لا نعرف حتى مغزى هذه الكلمة. هل سمعتم شخصًا ما يسأل: هيه، ما طبقتك؟ المؤكَّد لا. كلُّنا أتراك. انتهى. الدينُ نفسُه والجنسيَّة نفسُها والشيء نفسُه في كلّ شيء. هل هناك ما لا تفهمه في هذا الكلام؟

اقترب المفتِّش من أوميد، ومال إلى أمام كأنَّه يريد أن يشمَّه وأضاف:

ـ مرَّت البلاد بثلاثة انقلابات كي تضع حدًّا لمثل هذا الهراء. واليوم يعود هذا الهراء مجدَّدًا! أتظنُّنا سوف نسمح بذلك؟ إنَّ كتبك تحتشد بالأكاذيب، وهي مكتوبة بالسمّ والغلّ! لعلَّك مسموم، صحيح؟

لم يجب أوميد، فصاح به الرجل وقد انتفخ منخراه:

ـ إنَّني أوجِّه السؤال إليك أيُّها الغبي. هل أنت مسموم؟

ردّ أوميد بصوت أشبه بالهمس:

ـ لا.

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه مؤيِّدًا في نفسه:

ـ هم مم. بل أعتقد أنَّك مسموم. فأنت تبدو كذلك.

جرى تفتيش الفرش والخزانة والأدراج، وحتى فرن الحطب...

مكتبة الفكر الجديد

لم تبق زاوية إلَّا وجرى تفتيشها. لكن مهما يكن الشيء الذي يبحثون عنه، فإنَّهم بدوا عاجزين عن العثور عليه، الأمر الذي زاد في حدَّة غضبهم.

أصدر المفتِّش أمره لرجاله قائلًا:

ـ فتِّشوا بقيَّة أرجاء المنزل، فهم يُخفون السلاح.

كان المفتِّش يدخِّن السجائر، الواحدةَ تلو الأخرى، نافضًا رمادها على الأرض.

قال منصور من الركن المقابل من الحجرة حيث طلب عناصر الشرطة من أفراد الأسرة الوقوف والانتظار:

ـ معذرة... ما الذي نخبِّئه تحديدًا؟

كان يرتدي بيجامته المقلَّمة والمجعَّدة، أشعث الشعر قليله، والخفُّ في قدميه.

ردّ عليه قائد الشرطة:

ـ سوف أُدخله في مؤخِّرتك عندما نعثر عليه. كأنَّك لا تعرف ما هو؟

جفلت بيري لقسوة الكلمات، وأمسكت بيد والدها، غير أنَّ عينيها لبثتا ثابتتين على شقيقها. كانت قلقة بشأن أوميد، الذي احتقن وجهه احتقانَ صفار القمر الذاوي.

اندفع رجال الشرطة إلى بقيَّة حجرات النوم والحمَّام والمرافق الصحِّيَّة ومخزن حفظ الأطعمة الذي يحتفظون فيه بالباميا التي جفَّفوها وبالخيار الذي خلَّلوه. وندَّت عن المطبخ أصواتُ الأدراج وهي تُفتَح، والصناديق وهي تُنبَش، وأدوات الطبخ وهي تُرمى هنا وهناك. وأصبحت الرفوف التي كانت ذات مرَّة حسنة الترتيب، ومزيَّنةً بحافَّة قماش مزركشة،

مكتبة الفكر الجديد

في فوضى الآن. مرَّت ساعة، وربَّما أكثر. ولاح من خارج المنزل بصيص ضياء وسط السماء الرماديَّة مثل سنِّ طفل يبزغُ من لثَّة طريَّة.

سأل قائد الشرطة:

ـ ماذا بشأن هذه البنت؟

ثم رمى عقب سيجارته على السجَّادة وسحقها بقدمه، وأضاف:

ـ هل فتَّشتم لُعبها؟

احتجَّت سلمى من دون أن تفارق نظراتُها السجَّادةَ التي نظَّفتها في أوَّل نهار ذلك اليوم، وقالت:

ـ لا بد من وجود خطأ ما أيُّها الأفندم. إنَّ أسرتنا أسرة محترمة، ونحن أُناس نخشى الله.

التفت الرجل إلى بيري متجاهلًا ملاحظةَ سلمى، وقال:

ـ أين هي أغراضك أيَّتها الطفلة؟ دعينا نطَّلع عليها.

اتَّسعت عينا بيري وفكَّرت في السبب الذي يدفع كلّ فرد إلى الاهتمام بُلعَبها، علمًا بأنَّها لم تكن تملك عددًا كبيرًا منها، سواء أكان من الثوريّين أم من الشرطة.

قالت:

ـ لن أخبرك.

جذب منصور ابنته إلى الوراء وهي لا تزال ممسكة به، وتمتم:

ـ اسكتي! فليُلقوا نظرة، فنحن لا نملك ما يستدعي القلق.

ثم قال مضيفًا من دون أن يوجِّه كلامه إلى أحد تحديدًا:

ـ إنَّها تحتفظ بها في صندوق معدنيّ تحت سريرها.

بعد مرور بضع دقائق، ولدى عودة قائد الشرطة ورجاله من خلفه، استبدَّ الذعر والهلع ببيري بسبب السحنة التي لارتسمت على قسمات

مكتبة الفكر الجديد

وجهه، لا بسبب الشيء الذي كان بين أنامله.

ـ حسنًا، حسنًا... ماذا لدينا هنا؟

لم يسبق لبيري أن شاهدت في حياتها مسدَّسًا. وبخلاف تلك المسدَّسات التي تظهر على شاشة التلفاز، فإنَّ هذا المسدَّس بدا غاية في الصغر والدقَّة، ما جعلها تتساءل إن كان مصنوعًا من الشوكولاتة.

ـ مخفيّ تحت مهد. تحت دمية! يا له من مكان ملائم!

قالت سلمى بصوت حادّ:

ـ أقسم بالقرآن الكريم إنَّنا لا نعرف شيئًا عن هذا.

ـ المؤكَّد أنَّك لا تعرفين أيّتها المرأة، لكن لديك ولدًا يعرف.

قال أوميد متورِّد الخدَّيْن:

ـ آه، ليس مُلكي، لقد طلبوا منِّي أن أحتفظ به بضعة أيَّام، لكنِّي قرَّرت أن أُعيده يوم غد.

سأل قائد الشرطة والسعادة بادية عليه:

ـ مَنْ هم؟

فتنهَّد أوميد تنهيدة قويَّة وغرق في الصمت.

من خارج المنزل، تعالى صوت المؤذِّن مؤذِّنًا من مسجد قريب: لا إله إلَّا الله. الصلاة خير من النوم[١].

أمر قائد الشرطة رجاله قائلًا:

ـ حسنًا. لنذهب. خذوه.

قال منصور ممتقعَ الوجه بعد أن شاهد المسدَّس:

ـ من فضلك، لا بدَّ من وجود تفسير ما. فالولد صبيّ طيِّب، ولم يؤذِ أحدًا.

---

(١) هكذا ورد ترتيب عبارات الأذان في النصِّ الإنكليزي والصواب هو: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلَّا الله (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

استدار قائد الشرطة على عقبيه بعد أن كان قد خطا بضع الخطوات في اتِّجاه الباب، وقال:

ـ الكلام الفارغ نفسه دائمًا. إنَّك لا تراقب أطفالك. إنَّهم يختلطون بشيوعيِّين كَفَرة وأنذال. وهم يحشرون أنفسهم في كلّ شيء. وعندما يفوت الأوان، تبكي وتولول وتتوسَّل. واع... واع. لماذا تنجبون الأطفال إن كنتم لا ترعونهم أيُّها المجانين؟ ألا يمكنكم السيطرة على غرائزكم؟

أمسك قائد الشرطة بسروال بيجامة منصور بحركة مفاجئة وجذبه إلى أسفل ركبتيه، كاشفًا بذلك عن لباس تحتانيّ أبيض اللون، لا تشوبه شائبة وإن كان قديمًا. فضحك اثنان من رجال الشرطة لهذا المشهد في حين تظاهر الآخرون بعدم الاهتمام.

شعرتْ بيري بأنَّ الطاقة الكامنة في يد والدها قد انحسرتْ وتلاشتْ، وأصابعه واهنة جفَّ فيها الدم. يد جثَّة توشك أن تُوضَع على المشرحة. يا لصمت والدها، وعار والدها. ها هو والدها الذي هامت به حبًّا، وقدَّسته، وعشقته، وبجَّلته منذ اليوم الذي تفوَّهت فيه بأوَّل كلمة من كلماتها. في تلك الأثناء، جذب منصور بيد مرتعشة سروالَ بيجامته إلى أعلى، بينما شقَّ رجال الشرطة طريقهم من خلال الباب مصطحبين أوميد وإيَّاهم.

* * *

مرَّت سبعة أسابيع لم تشاهد فيها الأسرة أوميد الذي احتُجز في زنزانة منفردة. وبعد أن اتَّهموه بالانضواء في منظَّمة شيوعيَّة محظورة، اعترف بامتلاكه المسدَّسَ، بعد أن جرَّدوه من ثيابه، وعصبوا عينيه، وأوثقوه في سرير حديديّ، وعذَّبوه بصدمات كهربائيَّة. وحين ربطوا الأقطابِ الكهربائيَّة بخصيتيه وضاعفوا الصدمات الكهربائيَّة، أقرَّ بأنَّه

مكتبة الفكر الجديد

زعيم خليَّة خطَّطت لسلسلة من عمليَّات الاغتيال ضدَّ مسؤولين في الدولة. وراحت تنبعث من زنزانته رائحةٌ لاذعة بسبب الحروق التي تعرَّض لها جسده، فضلًا عن رائحة الدم النحاسيَّة، ورائحة البول الحامضيَّة، ورائحة القرفة المنبعثة من علكة جلَّاده، وهو ضابط يلقَّب بـ «خرطوم الماء حسن»، بسبب أساليب التعذيب المبتكرة بخرطوم ماء الحديقة الذي كان يستعمله.

في كلّ مرَّة كان أوميد يُغمى عليه، كانوا يلجأون إلى إعادته إلى وعيه بصبِّ الماء البارد المشبع بالملح لزيادة فعاليَّة الصدمات الكهربائيَّة. وفي أوقات الصباح، كان رجال الشرطة يضعون المراهم الطبِّيَّة على جروحه كي يواصلوا تعذيبه عصرًا. وحين كان «الخرطوم حسن» يداوي جروح أوميد بالمرهم، كان يشكو ويتذمَّر من قلَّة مرتَّبه وساعات عمله الطويلة، وكيف هربت ابنته مع رجل أكبر منها سنًّا، متزوِّج من امرأة أخرى وله منها طفلٌ صغير. وبعد ستَّة أشهر، عاد طيرا الحبِّ، مفلسَين تمامًا ومذعورَيْن. كان في وسعه أن يقتلهما في ذينك الزمان والمكان، لكنَّه عوضًا عن ذلك، أبقى على حياتيهما. كما هو شأن الجلَّادين المحترفين. كان رقيقًا مع أقربائه، يحترم رؤساءه، لكنَّه قاسٍ في تعامله مع غيرهم.

كانوا يُرغمون أوميد بين جلسات التعذيب على الاستماع إلى صرخات غيره من السجناء، مثلما كان أولئك السجناء يُجْبَرون على الاستماع إلى صرخاته. وكان النشيد الوطني يصدح مرارًا وتكرارًا من مكبِّرات الصوت. وفي إحدى المرَّات، وفي أثناء الصدمة الكهربائيَّة، نسوا أن يضعوا منشفة في فمه، وكان ذلك خطأً غير مقصود، فعضَّ على لسانه وكاد يقطعه نصفين، فصار تناوله الطعام على مدى زمن طويل

مكتبة الفكر الجديد

تجربةً تعيسة، لا يقدر على تذوُّقه إلَّا عندما يبلعه.

قيل إنَّ التعذيب الذي كان يُمارَس على نطاق واسع، في السجون ومراكز الاعتقال ومعاهد إصلاح الأحداث المنتشرة في طول البلاد وعرضها في أعقاب انقلاب سنة ١٩٨٠، انخفض في ذلك الوقت، بيد أنَّه استمرَّ على الحال نفسها. فالعادات القديمة لا تزول بسهولة، وإن كان ذلك لا يعني أنَّه لم تحدث أيّ تغيّرات. فالفَلَقة، وهي الضرب على أسفل القدمين، حلَّ محلَّها تعليقُ الذراعين طوال ساعات، وهو طريقة نظيفة لا تترك سوى أقلّ الآثار. كما أنَّ الحرق باستخدام السجائر، وقلعَ الأظافر أو الأسنان السليمة، عفا عليهما الزمان. وباتت الرجَّات الكهربائيَّة أسرع وأكثر كفاءة، فضلًا على أنَّها لا تترك أيّ آثار. كذلك حال إرغام السجناء على أكل برازهم وشرب بعضهم بول البعض الآخر، أو قضاء ساعات في صهاريج تحت الأرض تتجمَّع فيها الفضلات العضويَّة. لا دليل يفضح سوء المعاملة، ولا شيء يُثير قرائح الصحافيين الفضوليين أو الناشطين الغربيين في مجال حقوق الإنسان كي يقتفوا أثره إذا ما ظهر للعيان من دون تحذير.

أخيرًا، حُكم على أوميد بالسجن ثمانية أعوام وأربعة أشهر من دون إطلاق سراحه مشروطًا.

بعد النطق بقرار الحكم، بدأ أفراد الأسرة يزورون السجن الواقع في ضواحي إسطنبول زيارات منتظمة. كانوا يصلون في مجموعات مختلفة، بحسب الأيَّام: منصور برفقة ولده الأصغر، سلمى بمعيَّة ابنتها، منصور مصطحبًا ابنته، لكن لم يذهب منصور وزوجته معًا قطّ. وكانوا يتحلَّقون مع عشرات الناس الآخرين من حول طاولة عريضة مصنوعة من مادَّة اللدائن، على سطحها مئات آلاف اللقاءات المؤلمة والمصحوبة

مكتبة الفكر الجديد

بالقلق وانشغال البال: فيجلس الزوّار في جهة والمساجين في الجهة المقابلة. وكانوا مضطرِّين إلى إبقاء أيديهم ظاهرة للعيان، كما هي التعليمات، للتأكُّد من عدم تبادل أيّ شيء. وكانوا على هذه الحال يحاولون إصلاح ثقب الصمت بابتسامات لا تصل إلى عيونهم، وبكلمات متقطّعة تنزلق منهم وتهرب خارج نطاق فهمهم.

في مرَّة من المرَّات، حين نهض أوميد واقفًا لينصرف، لاحظ منصور بقعة من الدم على الجزء الأسفل من ظهر زيّ السجن الذي كان ابنه يرتديه؛ بقعة بحجم ورقة صفصاف ولها شكلها. كانت طريقة التعذيب التي تسبَّبت بها تحمل اسمًا خاصًّا بها: «الكوكا القاتلة». فقد كان نزلاء السجن يتعرَّضون للضرب وتُنزَع عنهم ثيابهم، ويُرغَمون على الجلوس على زجاجة كوكا كولا. وكان يُقال إنَّها مثل شراب «كوكتيل» يقدَّم إلى فئة مختارة وقليلة من النزلاء، كالسجناء السياسيين والمثليِّين الذين يُقبَض عليهم في الشوارع.

حدَّق منصور إلى البقعة مذهولًا، وصاح صيحة خانقة، وشهق متنفِّسًا بصعوبة بالغة على الرَّغم من محاولة يائسة بذلها للحفاظ على رباطة جأشه. لحسن الحظّ، لم يسمعه أوميد الذي كان قد رجع إلى زنزانته، لكن بيري، التي كانت برفقة والدها في الزيارة في ذلك اليوم، سمعته حتمًا. فراقبتِ المشهد كلّه، ـ كأنَّها تشاهد شريطًا سينمائيًّا صامتًا ـ وإن كان المشهد قوامُه الصورُ التي سوف تلازمها لسبب من الأسباب. بعد ذلك اليوم، منع منصور ابنته بيري من زيارة السجن، فكانت تجلس في البيت وتكتب الرسائل إلى أخيها عوضًا عن ذلك، مخبرةً إيَّاه بأمور لطيفة وتفاصيل حلوة لتروِّح عنه وترفع معنويَّاته. وقد استمرَّت بيري على هذه الحال بقدر استطاعتها. فكانت تكتب الرسائل، ببهجة لا تحسّ بها، عن أشخاص قلَّما صادفتهم،

مكتبة الفكر الجديد

وعن حوادث نادرًا ما حدثت على النحو الذي كانت تصفها به. إلَّا أنَّ أوميد لم يردّ على رسائلها كأنَّه يستشفّ فيها الخديعة.

غير أنَّه كان يراودها في أحلامها في أغلب الأحايين، فكانت تستيقظ في منتصف الليل وهي تصرخ. في بعض الأحيان، كانت تتمكَّن من الخلود إلى النوم مجدَّدًا، لكنَّها في أحيان أخرى، كانت تنسلُّ من سريرها، وتدخل خزانة الثياب وتوصد الباب من الداخل، محاوِلةً أن تتخيَّل مشاعرها وهي داخل زنزانة السجن. وبينما كانت تصغي إلى نبضات قلبها في تلك المساحة الضيِّقة والمظلمة، وَجِلةً من نفاد الأوكسجين رويدًا رويدًا، كانت تتظاهر بأنَّ أخاها إلى جوارها، يتنفَّس باستمرار.

* * *

أخذ الرعب بسبب وجود أوميد وراء جدران السجن يُبعد أفراد أسرة نالبانتوغلو عن بعضهم بعضًا، وليصبحوا في حالة عداء في ما بينهم بدلًا من أن يوحِّدهم. فوجَّه منصور اللوم إلى زوجته، وقال محاجًّا إيَّاها إنَّه منهمك في عمله طوال النهار، وهي التي كان يُفترض بها أن تراقب ولدهما. ولو أنَّها أنفقت وقتًا أقلّ مع وعّاظ الدين المتشدِّدين الذين وعدوها برائحة الجنَّة، وكانت يقظة لما يجري تحت أنفها، لمنعت حدوث المصيبة التي حلّت بهم. أمَّا سلمى، الواجمة، الكتومة والمستاءة، فقد ألقت المسؤوليَّة على زوجها لأنَّ منصور هو الذي بذر بذور الإلحاد في ذهن ولدهما. فكلِّ أحاديثه عن المادِّيَّة والتفكير الحرّ، وهي التي أدَّت إلى هذه الكارثة.

تحجَّر زواج منصور وسلمى بمرور السنين وقسا، حتى بات كالقشرة الخارجيَّة الجوفاء. والآن انكسرت هذه القشرة وانفتحت، فوجدا نفسيهما على جانبي واد خسيف. وغدا الجوّ داخل المنزل خانقًا

مكتبة الفكر الجديد

وثقيلًا، كأنَّه امتصَّ حزن سكَّانه. وخُيِّل إلى بيري الصغيرة أنَّ النحل والحشرات أسرعت بالخروج مذعورة بعد أن دخلت من النوافذ المفتوحة. وغادر حتى ذلك البعوض النهم الذي لا يرتوي من امتصاص دماء أفراد الأسرة، خشيةَ أن يمتصَّ تعاستهم. وفي الأشرطة السينمائيَّة والرسوم المتحرِّكة التي كانت بيري تشاهدها، كان البشر الفانون يُصابون بعضَّات العناكب ولدغات الزنابير ليتحوَّلوا من بعدها إلى أبطال خارقين يعيشون حياة مثيرة. أمَّا في حالتهم هم فكان الوضع معكوسًا. فالقمل والبقّ يتحوَّلان بعد اتِّصالهما بأسرة نالبانتوغلو إلى أساليب البشر، وينسحقان تحت ثقل مشاعر لا ترحم.

في تلك الأيَّام تقريبًا، بدأت بيري تُعيد صياغة علاقتها بالربّ، فتوقَّفت عن الصلاة قبل الخلود إلى النوم بخلاف ما علَّمته إيَّاها والدتُها، بيد أنَّها رفضت أن تكون غير مبالية تجاه الربّ على النقيض من نصيحة أبيها. وعوضًا عن ذلك، حوَّلت كلّ العذاب والأذى اللذين لم تتجرَّأ على الإفصاح عنهما على مقربة من والديها إلى قذائف من كلمات، قذفتها مباشرة في صفحة السماوات.

بدأت خصامها مع الربّ.

وجادلته في كلّ شيء، وطرحت أسئلة كانت تعلم بأنَّ الأجوبة عنها ليست سهلة، غير أنَّها ظلَّت تسأل وتسأل بصوت خفيت كي لا يسمعها أحد: كيف يُسمح بحدوث مثل هذه الأشياء لأولئك الذين لا يستحقُّونها؟ هل في وسع الله أن يسمع من خلال جدران السجن وما وراء قضبان الزنازين؟ فإذا كان لا يسمع، فذلك لا يعني أنَّه قادر على كلّ شيء وقدير، وإذا كان يسمع ولا يفعل شيئًا لأولئك المحتاجين إليه، فأين الرحمة؟ وفي كلتا الحالتين، لا يبدو أنَّه كما يقول.

مكتبة الفكر الجديد

وهكذا، كان الغضب الذي لم يكن في مقدور بيري أن توجِّهه إلى والدتها وإلى معلِّمها أوزومباز أفندي، والإحباطُ بسبب عجزها عن الوقوف في وجه أبيها وعاداته في الشراب، والحزنُ الذي لم تستطع نقله إلى أخيها الأكبر سنًّا، والإعياءُ الذي شعرت به تجاه شقيقها الأصغر سنًّا، وقد عمدت إلى مزج هذه المشاعر جميعًا لتصبح مادَّة سائلة تصبُّها على أفكارها، ولتنضج في حرارة ذهنها، وتكبرَ ببطء، وتقطرَ في وسطها وتحترق عند حافَّاتها. وفي حين بدت صديقاتها غير مشوَّشات نفسيًّا وخفيفات مثل طائرات ورقيَّة يتركنها تطير في الجوِّ، ويلعبن في الشوارع ويلهين في المدرسة ويتقبَّلن كلّ يوم بكلٍّ بساطة، فإنَّ نازبيري نالبانتوغلو، الطفلةَ الانطوائيَّة والانفعاليَّة على نحو غير معهود، كانت منشغلة بالبحث عن الربّ.

الربّ كلمة بسيطة ذات مفهوم غامض. فهو القريب بما يكفي كي يعرف كلّ ما يعرفه المرء ـ أو ما ينوي فعله ـ لا يمكن الوصول إليه. غير أنَّ بيري كانت قد وطَّنتِ العزم على إيجاد وسيلة ما إلى ذلك، لأنَّها بدأت تؤمن من خلال منطق معوجّ خاصّ بها بأنَّها لو تمكَّنتْ من الجمع بين خالق أمّها وخالق أبيها، فلربَّما استطاعتِ استعادة الانسجام بين أَبويها. إذ بالتوصُّل إلى صيغة متَّفَق عليها بين ما هو كائن أو لم يكن، سيكون التوتُّر أقلّ حدَّة في بيت أسرة نالبانتوغلو، بل في عموم العالم.

كان الربّ في رأيها يشبه متاهة من دون خارطة: دائرة من دون مركز؛ أحجية لا يمكن لمُّ أطرافها. لو كان في وسعها أن تحلّ هذا اللغز لتمكَّنت من إضفاء المعنى على اللامعنى، والعقل على الجنون، والنظام على الفوضى، ولربَّما تعلَّمتْ بدورها أيضًا أن تكون سعيدة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الـــمـــفـــكِّـــرة

إسطنبول ـ ثمانينيَّات القرن العشرين

قال منصور لابنته في مساء يوم قد لا يتكرَّر عندما كان جالسًا إلى مائدة العشاء:

ـ تعالي واجلسي معي يا حبيبتي.

أسرعت بيري إلى تنفيذ ما طلبه منها والدها، إذْ كانت مشتاقة إليه شوقًا كبيرًا. فعلى الرَّغم من وجوده في البيت نفسه، فإنَّه كان بعيدًا عنها، مستغرقًا في أفكاره. بات قشرةً خارجيَّة لرجل كان قويَّ الحضور، منذ اليوم الذي أُلقي فيه القبضُ على أوميد.

قال منصور:

ـ اسمحي لي بأنْ أروي لك قصَّة. في يوم من الأيَّام، كان ثمَّة عازف على الناي يعيش في مدينة إسطنبول، وكان متصوِّفًا، لكنَّه من النمط الخارج عن جماعته والمستقلّ عنها. وكلَّما كان يشاهد زجاجة عرق أو نبيذ تجدينه يؤنِّب أولئك الملتفِّين حوله قائلًا: «ألا تعرفون أنَّ قطرة من هذا الشراب هي إثم؟» ثم يفتح الزجاجة ويحشر إصبعه داخلها، وينتظر بضع ثوان، ثم يُخرجها وهي تقطر ويقول: «لقد رفعت تلك القطرة الآثمة، وفي وسعنا الآن أن نحتسي الشراب في هدوء».

وضحك منصور لمَّا تفوَّه بذلك ضحكة خافتة وحزينة. تفحَّصت

مكتبة الفكر الجديد

بيري والدها، وشعرت بأنَّ سؤاله ينطوي على تمرُّد مستوحد، لكنَّه في وجه مَنْ، ولماذا؟ وسألته على نحو متردِّد:

ـ هل يمكنني أن أجرِّبه يا أبتي؟

ـ ماذا؟ أتريدين أن تشربي العرق؟

أومأت بيري برأسها موافقة، ولم تكن في السابق قد فكَّرت لحظة واحدة في ذلك، لكنَّها الآن إذْ فكَّرت وقالت إنَّها تريد أن تجرِّبه، فقد كانت تعني ما تقصده. فتلك وسيلة للارتباط بأبيها.

هزَّ منصور رأسه معترضًا، وقال:

ـ إنَّك في سنِّ السابعة لا غير. مستحيل.

صحَّحت بيري كلامه بالقول:

ـ الثامنة. سأبلغ الثامنة في هذا الشهر.

قال منصور مفكِّرًا:

ـ حسنًا، يُستحسن أن تتناولي أوَّل رشفة من المشروب في المنزل مع والديك بدلًا من الشراب سرًّا خارجه. غير أنَّني عادة سوف أنتظرك حتى تبلغي سنَّ الثامنة عشرة. لكن من يدري إن كانت المشروبات الكحوليَّة ستظلّ في ذلك الوقت متوافرة بفضل هؤلاء المتديِّنين المتشدِّدين. لعلَّهم سوف يعرضون زجاجة أو زجاجتين في مكان ما من متحف الموادّ المنحلَّة! شأنُهم في ذلك شأنُ النازيّين. هه؟ ولهذا أعتقد أنَّني سوف أسمح لك برشف رشفة واحدة قبل أن يفوت الأوان.

بعد أن قال منصور هذا الكلام، ملأ قدحًا بالماء وأضاف إليه كمِّيَّة لا بأس بها من العرق. وفي حين كانت بيري تراقب الكحول يمتزج بالماء، راقبها والدها بقسمات وجه رقيقة.

رفع منصور كأسه وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أترين هذه القطرات؟ إنَّها أنا ورفاقي. إنَّنا نذوب في بحر من الجهل. في صحَّتك!

ابتسمت بيري وابتهجت عندما رأت والدها يعاملها معاملة مَنْ هي في سنِّ البلوغ، وقالت:

ـ في صحَّتك!

ـ لو شاهدتنا والدتك فسوف تسلخ جلدي وأنا حيّ.

رشفت بيري مسرعة رشفة ملأت فمها، لكن سرعان ما التوت قسمات وجهها اشمئزازًا. مشروب فظيع. أسوأ من أيِّ شيء سبق لها أن جرَّبت شربه. ففيه طعم اليانسون، بل أحدّ من رائحته. فقد أحرق لسانَها وداعب أنفها وجعل الدمع يترقرق في عينيها. كيف يمكن لأبيها أن يشرب هذه المادَّة الكريهة، كلَّ مساء، بكلِّ هذه المتعة؟

قال منصور من دون أن يلتفت إلى ردَّة فعل ابنته:

ـ أريد وعدًا منك بأنَّك لن تصدِّقي خرافات النساء العجائز وقصصهنّ. هل فهمت؟

قالت بيري بعد أن احتست كأسًا من الماء وأكلت قطعة من الخبز للتخلُّص من المذاق العالق في فمها:

ـ نعم، نعم. ذلك يشبه ما يقلنه: لا تقفز فوق طفل وإلَّا فسيتوقَّف عن النموِّ. وإذا ما فرقعت أصابعك فإنَّك سوف تكسر جناحي ملاك. وإذا ما صفَّرت في الظلمة، فإنَّك سوف تستدعي الشيطان... وهلمّ جرًّا.

ـ هذا الهراء كلّه صحيح. أَصغي إليَّ. ثمَّة قاعدة حرصت على احترامها، وأنصحك بأن تحترميها أيضًا. لا تصدِّقي أيَّ شيء لم تريه بأمِّ عينيك، وتسمعيه بأذنيك، وتلمسيه بيديك، وتفهميه بعقلك. وعد؟

مكتبة الفكر الجديد

قالت مبتهجة وتوَّاقة إلى إدخال السرور إلى قلب أبيها:

ـ وعد يا أبتي.

قال منصور مسرورًا وهو يهزّ بسبَّابته في الهواء ليؤكِّد كلماته:

ـ العلم هو الذي سوف يُنقذنا! وهو الطريق الوحيد إلى أمام. فعليك الالتحاق بأفضل جامعة في العالم.

ثم توقَّف هنيهة عن الكلام مفكِّرًا في اسم تلك الجامعة.

ـ أنتِ الوحيدة من بين أطفالي التي في وسعها أن تفعل هذا الشيء. اشتغلي بجِدٍّ وأَنقذي نفسك من الجهل. أمل كبير؟

ـ أمل كبير.

أضاف منصور:

ـ غير أنَّ هنالك مشكلة واحدة. فالرجال لا يريدون النساء اللواتي يتمتَّعن بجذوة من الذكاء وتفوُّق في التعليم. وأنا لا أريدك أن تموتي وأنت عانس.

ـ حسنًا. لن أتزوَّج وسأبقى معك.

انفجر منصور ضاحكًا.

ـ صدِّقيني، إنَّك لا تريدين أن تفعلي ذلك. حسبك أَلَّا تهبي فؤادك لأيِّ شخص لا يهتمّ بالعلم... وبالمعرفة.

ـ أمل أكبر؟

أجابت بيري وهي تغور في مقعدها في حين خطرت في بالها فكرةٌ جديدة.

ـ أمل أكبر. والآن أَخبرني عن الربّ. فنحن لا نستطيع أن نراه، ولا أن نسمعه، ولا أن نلمسه... لكن هل يتعيَّن علينا الإيمان به بالرَّغم من ذلك؟

مكتبة الفكر الجديد

بدا منصور آسفًا ومكتئبًا وهو يجيب:

ـ سأخبرك بسرٍّ من الأسرار. عندما يخصّ الأمرُ العليَّ القدير فإنَّ البالغين ليسوا أقلّ اضطرابًا من الصغار.

غير أنَّ بيري ألحَّت على السؤال:

ـ لكن، هل الربّ موجود؟

ـ نعم، والأفضل أن يكون موجودًا. وحين ألتقيه في الحياة الآخرة، سوف أسأله عن المكان الذي كان فيه طوال هذا الوقت. لقد تركنا وشأننا نفعل ما نشاء زمنًا أطول ممَّا يجب.

وهنا دفع منصور شريحة من الجبنة في فمه وبدأ يمضغها بسرعة.

ـ لماذا لم يساعد الله أوميد يا بابا؟ لماذا سمح بحدوث هذه الأمور كلّها؟

غشيهما الصمت، فكوَّرت بيري أصابع قدميها وضغطت بخفّها على السجَّادة وهي تشعر بأنَّه يستحسن تغيير دفَّة الحديث، فقد زاد ذكر شقيقها الأكبر في حالة الوجوم السائدة الآن، كأنَّ سحابة سوداء تحجب القمر الباهت الضياء.

ـ وما رأيك في الجنَّة والجحيم؟

كانت قد سمعت أشياء عن الجحيم؛ أشياء كثيرة. واستبدَّ بها الذعر والهلع خشية أن يُلقى والدها في مأوى الملعونين بما فيه من مراجل تغلي وألسنة لهب مستعرة وملائكة غلاظ يُدعون «الزبانيَّة».

ـ حسنًا، أنا لست من أهل الجنَّة حقًّا. صحيح؟ ثمَّة احتمالان اثنان: إذا لم يلطف الربّ بي فسوف أكون من الهالِكين. قطار سريع إلى الجحيم. أمَّا إذا كان لطيفًا، فثمَّة أمل. وقد ألتقيك في الجنَّة. يُقال إنَّ ثمَّة أنهارًا تجري بأجود أنواع الخمر!

مكتبة الفكر الجديد

استبدَّت ببيري موجة من الخوف وهمست:

ـ لكن إذا كان الربّ شديد العقاب كما تقول أمّي دومًا؟

قال منصور مجيبًا:

ـ لا تخافي. لدينا الخطَّة ب. تأكَّدي من وضع فأس في قبري، وعندئذ سوف أحفر نفقًا وأخرج إلى أيّ مكان!

اتَّسعت عينا بيري.

ـ الجحيم شديد العمق، وإذا رميت حصاة فسوف تستغرق سبعة أعوام للوصول إلى القعر. هذا ما أخبرتني به أمّي.

تنهيدة صامتة.

ـ أنا متأكِّد من أنَّها أخبرتك بذلك. لكن هذا هو الشيء الحسن. إنَّ السنة الواحدة على الأرض ليست سوى دقيقة واحدة في الآخرة. لكنَّني سوف أحضر وأجدك في أيٍّ حال من الأحوال.

وهنا أشرق وجهه وانفرجت أساريره، وأضاف:

ـ آه، كدت أنسى. لديَّ شيء ما لك.

أَخرج منصور من حقيبة جلديَّة رزمةً مغلَّفة، وفيها علبةٌ فضِّيَّة مربوطة بعقدة ذهبيَّة.

أمعنت بيري النظر إلى الرزمة.

ـ أهي لي أنا؟

ـ ألن تفتحيها؟

كان في داخل الرزمة مفكِّرةٌ، مفكِّرة جميلة يدويَّة الصنع وشذريَّة اللون، مزيَّنة الغلاف بنثار معدنيّ لمَّاع وفسيفساء مزركشة.

قال منصور مستغرقًا في التفكير:

ـ أعلم بأنَّك منشغلة الذهن بالربّ، لكنَّني لا أستطيع الإجابة عن

مكتبة الفكر الجديد

كلّ أسئلتك. صراحة، لا أحد يستطيع، حتى لو كانت والدتك أو ذلك الخطيب الأحمق.

وهنا أفرغ بقيَّة العرق في فمه في جرعة واحدة.

ـ أنا لست متعاطفًا مع الدين أو مع المتديِّنين، لكن هل تعلمين ما سبب حبِّي للربّ حتى الآن؟

هزَّت بيري رأسها بالنفي.

ردَّ منصور:

ـ لأنَّه وحيد مثلي... مثلي ومثلك. وحيد في مكان ما في الأعالي. لا يُحدِّث أحدًا سوى بعض الملائكة. لكن، هل في وسعك المرح مع الملائكة. مليارات الناس يتضرَّعون إلى الربّ: آه، انصرني، ارزقني، أَعطني سيَّارة نوع فيرّاري، افعل هذا وافعل ذلك... الكلمات نفسها تُعاد مرارًا وتكرارًا، غير أنَّ أحدًا لا يكلِّف نفسه عناء معرفة الربّ.

ملأ منصور قدحه مجدَّدًا ولاحت في عينيه ومضةُ حزن.

ـ فكِّري في ردَّة فعل الناس عندما يشاهدون حادثًا مؤسفًا على الطريق. إنَّهم يقولون من فورهم: «آه، لا سمح الله». هل يمكنك أن تصدِّقي ذلك؟ إنَّ أوَّل ردَّة فعل تصدر عنهم هي التفكير في أنفسهم وليس في الضحايا. لهذا، فإنَّ الكثير من الأدعية ليست سوى نسخة مكرَّرة عن بعضها البعض. احمِني، أحبِبْني، ساعدْني، كلُّها أدعية عن الذات. وهم يردِّدون أنَّها من التقوى. أمَّا أنا فأقول إنَّها أنانيَّة مقنّعة.

في هذه اللحظة، مدَّت بيري رأسها إلى أحد الجانبين، توَّاقة إلى بثِّ السلوى في نَفْس أبيها، لكن من دون أن تعرف كيف. وغرق البيت في صمت وهدوء بالغين إلى درجة أنَّ أيّ تنهيدة حسرة تبدّدهما.

مكتبة الفكر الجديد

وتساءلت بيري إن كانت والدتها تصغي إلى هذا الحديث من وراء الجدار أو من على سريرها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يدور في ذهنها؟

ـ من الآن فصاعدًا، إذا فكَّرت في الربّ ـ أو في نفسك ـ فعليك أن تدوِّني ذلك في مفكِّرتك.

ـ كأنَّها يوميَّات؟

قال منصور معتدلًا:

ـ نعم، لكنَّها ستكون يوميَّات مميَّزة. يوميَّات على مدى العمر.

ـ لكن لن تكون هنالك صفحات كافية.

ـ حسنًا، نعم... أفكار متشائمة جديدة خير من أفكار متشائمة قديمة.

في تلك الليلة، جلست بيري على سريرها وفتحت المفكِّرة ودوَّنت افتتاحيَّتها الأولى: أعتقد أنَّ الربّ يتجلَّى في مختلف الأشكال والألوان. يمكنني أن أجعل الربّ مسالمًا، محبًّا، أو أن أجعله غاضبًا، معاقِبًا. أو ربَّما لا أجعل هنالك أيّ شيء، فالربّ مجموعة أشياء.

سجِّلي واشطبي. اكتبي وامحي. صدِّقي أو لا تصدِّقي. أهذا ما كان والدها يرمي إليه حقًّا؟ قلَّما كان الأمر مهمًّا في نهاية المطاف، لأنَّ ذلك هو ما استقرَّ عليه تفكير بيري عمَّا سمعته وهي تتذكَّر ذلك اليوم بعد مرور أعوام. لقد عزَّزت معلوماتُ والدها ما كانت تشكّ فيه بخصوص نفسها وهو: في حين تجد بعض الناس مؤمنين متحمِّسين للإيمان، وآخرين غير مؤمنين متحمِّسين لعدم الإيمان، فإنَّها لبثت دومًا عالقة في منتصف الطريق.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الـــصـــورة

إسطنبول ٢٠١٦

اندفع المتشرِّد بقوَّة في اتِّجاه بيري وهو يهزّ سكِّينه على نحو سريع ومتهوِّر، لكنَّها تمكَّنت من تفاديه بأعجوبة، فقد أخطأها النصل بمقدار بضع بوصات لكنَّه أصاب راحة كفِّها اليمنى بجرح. فأطلقت صرخة تصمُّ الآذان، متصدِّعةً بالألم. وسال الدم إلى رسغها وراح يقطر على ثوبها الحريريّ البنفسجيّ.

دفعت الرجل بكلِّ ما أُوتيت من قوَّة، وقلبها يخفق خفقانًا قويًّا. قفصها الصدري يعرق والعرق ينزّ من على جبينها. لم يتوقَّع المتشرِّد أيّ مقاومة منها ففقد توازنه وتأرجح من فوره، فكانت تلك فرصة استغلَّتها بيري للاستحواذ على السكِّين من يده، فثارت ثائرته وضربها على صدرها ضربة شديدة أفقدتها القدرة على التنفُّس برهةً وجيزة ملؤها الرعب. فكَّرت في ابنتها وهي تنتظرها في السيَّارة، كما فكَّرت في ولديها الصغيرين وهما يشاهدان برنامجها التلفازيّ المفضَّل في البيت. وتراءت أمامها صورةُ زوجها: في حفل عشاء يُحيط بهما غيرهما من الضيوف، وينظر إلى ساعته كلّ بضع دقائق، وقد استبدَّ به قلق مَرَضيّ. ترقرقت عيناها بالدموع عندما أدركت أنَّها قد لا تشاهد أحبَّتها مجدَّدًا. كم هي غبيَّة إذ تموت تلك الميتةَ. فالناس يواجهون الموت دفاعًا عن

مكتبة الفكر الجديد

بلادهم وراياتهم وشرفهم. أمَّا هي فتموت دفاعًا عن حقيبة مزوَّرة عن علامة هَرميس المكتوبة بخطأ مطبعيّ. لكن ربَّما كان كلّ شيء بلا معنى.

ضربها المتشرِّد ضربة أخرى في معدتها هذه المرَّة، فهوت على الأرض وهي تسعل، وتلاشت كلّ قوَّتها.

غير أنَّها استجمعت آخر ما تبقَّى لديها من احتياطي قوَّة إرادتها وصاحت كأنَّها توبِّخ طفلًا مشاكسًا:

ـ توقَّف! أقول لك توقَّف الآن!

كانت ترتعش، وبدا جسدها ينتفض وهو يرفض أوامر عقلها بعدم الخوف والهلع. وحتى إن كانت خائفة وهلوعة فلا ينبغي لها أن تُظهر ذلك. وهمست بصوت أجشّ:

ـ انظر! لو ألحقتَ أيّ أذى بي، فسوف تواجه مشكلة عويصة. إذْ سيزجُّون بك في الحبس. وسوف يحطِّمون. . .

كانت عازمة على أن تقول: «روحك»، لكنَّها عوضًا عن ذلك قالت:

ـ عظامك. صدِّقني سوف يحطِّمونك.

صرّ المتشرِّد أسنانه وقال:

ـ أيَّتها العاهرة! من تظنِّين نفسك؟

لم يسبق لأحد أن وصف بيري بالعاهرة. فاخترقتها الكلمة اختراق فِلقة من الثلج. فبذلت محاولة أخرى، مختارة هذه المرَّة تسوية الموضوع.

ـ حسنًا، احتفظ بالحقيبة؟ واذهب وشأنك، وأذهب أنا وشأني.

مكتبة الفكر الجديد

فكرَّر المتشرِّد وقد علقت الشتيمة في فمه:

ـ أيَّتها العاهرة!

اكفهرَّت قسمات وجهه وضاقت عيناه وأخذ نَفَسًا، واستثارته أفكاره. ثمَّة سيَّارة اقتربت من المدخل قادمة من وراء الزقاق، وتراءت لبيري أضواؤها الكاشفة مفسحة المجال برهة وجيزة لطريق الهروب. تمنَّت لو استطاعت أن تصرخ طالبة النجدة، لكنَّ الأوان كان قد فات، فقد توارت السيَّارة عن الأنظار وغشيت الظلمةُ المكانَ مجدَّدًا، فتراجعت خطوة إلى الوراء.

دفعها المتشرِّد إلى أسفل بعد أن أمسك بها من رقبتها، فانساب شعرها وسقط الدبُّوس الذي كان يثبِّت تسريحتها. صوتٌ واهٍ، معدنيٌّ، ملأ المكان. وحين سقطت إلى الخلف، اصطدم رأسها بإسفلت الشارع، لكنَّها لم تشعر، يا للغرابة، بأيّ أذًى. ومن مكانها، وجدت السماء بعيدة جدًّا وأشبه ما تكون بصفحة من البرونز. ساكنة وصلبة وباردة. حاولت النهوض، فتلطَّخت يدها بالدم، وفي غمضة عين رأته فوقها يجاهد كي يمزِّق ثوبها. فاحت رائحة كريهة من فمه: رائحة الجوع والسجائر والموادّ الكيميائيَّة. إنَّها رائحة العفن. كادت بيري تتقيَّأ، فالجسد الذي حاول أن يخترق جسدها كان جثَّة.

كان مثل هذا الأمر يحدث طوال الوقت في مدينة التلال السبع والقارَّتين، والأفواه التي يصل عددها إلى خمسة عشر مليونًا. يحدث من وراء أبواب مُوصَدة وفي الفضاءات المفتوحة، في غرف الموتيلات الرخيصة وأجنحة الفنادق الفارهة ذات النجوم الخمس. في منتصف الليل أو في رابعة النهار. في وسع أماكن البغاء في هذه المدينة أن تروي عديد الحكايات لو وجدت آذانًا مستعدَّة للإصغاء. فبغايا الهاتف

مكتبة الفكر الجديد

والغلمان والمومسات المعمّرات يضربهنّ الزبائن ويلحقون الإهانة بهنّ ويهدِّدونهنَّ بحثًا عن أتفه عذر كي يفقدوا أعصابهم. أمَّا المثليُّون، فلا يقصدون مراكز الشرطة أبدًا لأنَّهم يعلمون بأنَّهم قد يتعرَّضون للإساءة مجدَّدًا. أطفال خائفون من أفراد أسرة محدَّدين، وعرائس حديثات العهد بالزواج يخشين أزواجهنّ وإخوانهم. ممرِّضات ومعلِّمات وسكرتيرات يضايقهنَّ عشَّاق مغرمون بهنّ لأنَّهنَّ رفضن مواعدتهنَّ في ما مضى من الزمان. ربَّات بيوت لا يجرؤن على التفوُّه بكلمة واحدة لأنَّه لا توجد في هذه الثقافة أيُّ كلمات لوصف الاغتصاب الزوجيّ. حدث هذا في كلّ وقت. فمدينة إسطنبول ليست غريبة عن التحرُّش الجنسيّ تحت غطاء من السرِّيَّة والصمت اللذين يُلحقان العار بالضحايا ويُفلتان الجانين من العقاب. في مدينة يخشى فيها كلُّ فرد الغرباءَ، كانت معظم الاعتداءات تأتي من أشخاص معروفين جيِّدًا وقريبين جدًّا أيضًا.

في الدقائق التالية، وفي ذلك الزقاق الهادئ، كان تصوُّر بيري لما حدث متشظِّيًا إلى طبقات متفاوتة، كأنَّها استيقظت من حلم لتجد نفسها في كابوس آخر. فردَّت على الهجوم بهجوم مماثل، فهي امرأة قويَّة، وكان المتشرِّد بدوره قويًّا أيضًا على نحو غير متوقَّع ولا توحي به قامته النحيلة. سدَّد إليها ضربة برأسه، فطرحها أرضًا فاقدةً الوعي ثوانيَ معدودة. كان في وسعها أن تستسلم، فقد كان الألم مبرِّحًا، وكان الدافع إلى ترك اليأس يستولي عليها لا يُقاوَم.

في تلك اللحظة، شاهدت من طرف عينها صورة مظلَّلة. فعرفت على الفور أنَّه هو: ناعمٌ وحريريٌّ وملائكيٌّ، بعيدٌ البعدَ كلَّه عن كونه بشرًا. رضيعٌ في الضباب. خدَّان متورِّدان. ذراعان نحيلتان، وساقان مكتنزتان وقويَّتان. شعر ذهبيّ خفيف لم يتحوَّل لونه إلى أسود بعد. طفل

مكتبة الفكر الجديد

رضيع بهيّ الطلعة لكنَّه ليس طفلًا. إنَّه جنّيّ. روح من الأرواح. هلوسة من بنات خيالها المرعب، وإن لم يكن هذا أوّلَ لقاء بينهما.

سبَّها المتشرِّد بصوت خفيت ممسكًا بسرواله، غير مدرك وجود الشبح من ورائه، ولفَّ الحبل من حول سرواله كما يلفّ الحزام وهو في غمرة نفاد صبره. لا بدّ من أنَّه شدَّه شدًّا محكمًا أكثر ممَّا يجب؛ إذْ لم يقدر على حلّه بيد واحدة وهو يمسك ببيري باليد الثانية.

ضحك الطفل في الضباب ضحكة ملؤها البهجة. وشاهدت بيري في عينيه البريئتين المأزقَ الذي جرَّت نفسها إليه، وتعاستَه الباعثة على الضحك. فضحكت ضحكة قصيرة، عالية وجريئة. فأثارت ردّةُ فعلها حيرةَ المتشرِّد الذي توقَّف هنيهة.

قالت بيري مومئة إليه:

ـ دعني أساعدك في هذا.

فالتمعت عيناه، غير مصدِّق، ومشتّتًا. وارتسمت على قسمات وجهه ومضةُ الامتنان. فقد أفلح في إثارة رعبها، وكان يعلم، من تجارب سابقة، بأنَّ الخوف هو المطلوب كي يهبط الشخص، أيُّ شخص، من عليائه ويجثو على ركبتيه. فابتعد قليلًا، بوصةً أو بوصتين، لا أكثر.

هنا اندفعت بيري اندفاعة قويَّة في اتِّجاه الرجل، فتعثَّر إلى الوراء وسقط على ظهره بعد أن تملَّكته الدهشة. ثم وثبت على قدميها بكلٍّ خفَّة ورشاقة وركلته على منفرج ساقيه، فصرخ صرخة حيوان جريح. أمَّا بيري، فلم تشعر بأيِّ شيء. لم تشعر بالرحمة تجاهه ولا بالغضب. إنَّ الإنسان يتعلَّم دومًا من الآخرين. بعض الناس يعلِّمون الآخرين الجَمال، والبعضُ الآخر يعلِّمهم القسوةَ. ولم تعرف إن كانت المادَّةُ

مكتبة الفكر الجديد

المخدَّرة التي أخذ يتنشَّقها قبل قليل قد أدَّت مفعولها في بدنه، مُضعفةً إيَّاه، أم أنَّ قوَّة هائلة ومجهولة هي التي شدَّت من أزرها، غير أنَّها شعرت بأنَّها ذات قوَّة جبَّارة، وأنَّها أُصيبت بلوثة في عقلها، وأنَّها خطرة.

ثم ركلتْه بقدمها على وجهه مركِّزة كامل قوَّتها في ذلك الفعل، فندَّت عنه صرخةٌ تُثير الغثيان وتقزِّز النفس؛ صرخةٌ ناجمة عن حدوث كسر في أنفه. وبدلًا من أن يستبدّ بها الخوف لمرأى الدم الغزير المتدفِّق منه هذه المرَّة، فإنَّه دفعها إلى أن ترفسه رفسًا أشدّ عنفًا. وقبل أن تدرك ما حدث، راحت تركله وتسدِّد اللكمات إلى كلّ جزء من أجزاء جسده.

أمسك المتشرِّد ببطنه، بعد أن دفع معطفه إلى أعلى وبان جسمه النحيل من تحته. وتحمَّل الضربات بفتور همَّة كأنَّه أُصيب بالإعياء من جرَّاء المطاردة والسرقة والإجهاد والتفاهة بعد كلّ ما حدث.

قالت بيري بصوت خافت:

ـ يا ابن العاهرة!

لم يسبق لها أن سبّت وشتمت طوال تلك السنين، منذ أيَّام دراستها في أوكسفورد. وشعرت بأنَّ السبّ والشتم أمر سهل وجميل، يا للدهشة، كأنَّه للمرَّة الأخيرة.

انسلَّ الطفل الرضيع في الضباب مارًّا من أمامها، مضمحلًّا اضمحلالَ همسة، تمثالًا صغيرًا مصنوعًا من أرقّ أنواع الحرير والشاش. الابتسامة غائبة عن وجهه هذه المرَّة، وقسمات وجهه المنحوتةُ من شمع بلون العسل ساكنةٌ. لم يبدُ عليه أنَّه كان يقدّر ما حدث، فهو بعيد عن مثل هذه الأمور. هو من عالم خارج عن هذا العالم. وبعد أن مدّ يد العون لبيري أسرع في التواري عن الأنظار.

مكتبة الفكر الجديد

وتحلَّل البخار في ظلمة المساء المدلهمَّة من دون أن يترك أثرًا وراءه.

سرعان ما توقَّفت بيري عن تسديد ضرباتها إلى المتشرِّد. هبَّت نسمة قويَّة فتطاير شعرها، وحام في الأعالي طائر نورس زاعق، ربَّما كان سليلًا ينحدر من سلالة طائر آخر ازدرد منذ دهور طويلة لسان شاعر، أو كان غاضبًا من أمر ما، أو من أحد ما في هذه المدينة المزدحمة بالسكَّان وغابات الإسمنت.

كان الرجل متقطِّع الأنفاس، كلّ نَفَسٍ كأنَّه نشيج. الدماء تغطِّي وجهه، وشفته العليا مشقوقة.

فكَّرت بيري في سرِّها وكادت تقول: آسفة، لكنَّ الكلمات غصَّت في حلقها. في تلك اللحظة، تذكَّرت، كأنَّها معتادة على الاستجابة التلقائيَّة، صوتًا لطيفًا ومؤنِّبًا هذه المرَّة يقول لها: ألا تزالين تعتذرين إلى كلِّ من هبَّ ودبَّ يا عزيزتي؟

إذا كان الأستاذ آزور قد نقل عمله إلى إسطنبول، فهذا ما سيقوله لها الآن على الأرجح. كم هو غريب مجيء ذلك الزمن الماضي متدفِّقًا كالطوفان في اللحظة نفسها التي خرقت فيها الفوضى ضفافَ الحاضر. إنَّ الذكريات الاعتباطيَّة تقمع القلق والأسرارَ الخفيَّة والخطايا، الكثيرَ من الخطايا. ضعفت كلّ حواسّها، وبات العالم ستارةً خلفيَّة مشوَّشة. تذكَّرتْ بيري أمورًا من حياتها ظنَّت أنَّها تركتْها خلفها إلى ما لا نهاية، بعد أن غمرها إحساسٌ بالهدوء أشبهُ ما يكون بالخدر، فصلها عن كلّ شيء آخر، بما في ذلك الألمُ الذي كانت تحسُّ به في منطقة ما من جسدها لم تتمكَّن من تحديدها.

وراح المتشرِّد يبكي. لقد ولَّى إمبراطور الشوارع الشحَّاذ، المدمن، اللصّ والمغتصب... تلك الأدوار كلّها انسلخت عنه، تاركة وراءها

مكتبة الفكر الجديد

صبيًّا يبكي في الظلام، مستجديًا لمسة حنان لن يحصل عليها أبدًا. وهكذا، حلّ الألم الجسديّ محلّ الهلوسات بعد أن تلاشى مفعول الصمغ تلاشيًا تامًّا.

اقتربت بيري منه، والدم يتدفَّق في أذنيها، مذعورةً ممَّا اقترفت يداها. وكادت تمدّ له يه المساعدة لولا وصولُ ابنتها في تلك اللحظة.

ـ ماذا حدث يا أمَّاه؟

استدارت بيري إلى الوراء بسرعة السهم واحتفظت برباطة جأشها، باذلةً أقصى جهدها كي تستجمع أفكارها.

ـ لماذا لم تنتظري في السيَّارة يا حبيبتي؟

قالت دينيز:

ـ إلى متى يمكنني أن أنتظر؟

وغاب عن ذهنها أيّ تأنيب، فأضافت:

ـ آه، يا الله! أنت تنزفين دمًا. ما الذي حدث؟ أأنت بخير؟

قالت بيري مجيبة:

ـ إنَّني بخير. لقد حدث شجار بسيط.

نهض المتشرِّد هادئًا تمامًا، ومترنِّحًا. حاول الوقوف على قدميه وتعثَّر في سيره نحو ناصية الزقاق، مُظهرًا لامبالاته بكلتيهما. فما كان من الأم والابنة إلَّا أن التقطتا الحقيبة وما استطاعتا العثورَ عليه من محتوياتها المبعثرة.

تمتمت دينيز في نفسها، وهي تلتقط بطاقات الائتمان عن الأرض: «لماذا لا أحظى بأمٍّ اعتياديَّة كبقيَّة البنات؟».

كان سؤالًا لم تستطع بيري الجواب عنه، فلم تحاول الردّ.

مكتبة الفكر الجديد

فقالت دينيز:

ـ لنذهب.

قالت بيري:

ـ ثانية واحدة.

ثم رشقتِ المكان حولها بنظراتها، باحثةً عن الصورة، لكنْ يبدو أنَّها اختفت.

هتفت دينيز:

ـ هيَّا بنا. ما خطبك؟

انطلقتا عائدتين إلى السيَّارة بعد أن غادرتا الزقاق. كانت السيَّارة «رينج روڤر» الزرقاء في انتظارهما، من دون أن يسرقها أحد. يا للعجب.

التزمت الأمّ وابنتها الصمت طوال ما تبقَّى من المشوار. كانت الابنة تقضم أظافرها، والأمّ ثابتة العينين على الطريق أمامها. لم تتذكَّر بيري إلَّا في وقت لاحق أنَّها لم تستعد هاتفها. لعلَّ المتشرِّد لا يزال يحتفظ به في جيبه. لعلَّه سقط على الأرض في مكان ما في ذلك الزقاق خلال عراكهما، وراح يومض ويرنّ، فكان رنينه صرخة أخرى لا تجد من يسمعها في إسطنبول.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الـــحـــديـــقـــة

إسطنبول ـ ثمانينيَّات القرن العشرين

كانت بيري في سنِّ الثامنة عندما شاهدت أوَّل مرَّة «الطفلَ في الضباب». وكان من شأن ذلك اللقاء أن يغيِّرها إلى ما لا نهاية، إذ ظلَّ يلتفّ مثل تعريشة كروم حول الأجزاء اللولبيَّة من حياتها. وكان أيضًا بداية سلسلة من التجارب التي على الرَّغم من أنَّها مألوفة بسبب تشابهها، إلَّا أنَّها لن تصبح أقلّ مدعاة إلى الخوف على مدى سنين.

وبخلاف معظم البيوت المجاورة في الحيِّ، كان منزل أسرة نالبانتوغلو مُحاطًا من جهاته الأربع بحديقة خضراء يانعة. وكان أفرادها يمضون معظم أوقاتهم في قسمها الخلفيّ، حيث كانوا يعلِّقون الفلفل الأحمر والباذنجان والبامية في خيوط كي تجفّ تحت أشعَّة الشمس، ويحضِّرون عبوات صلصة الطماطم المتبَّلة ورؤوس الأغنام المسلوقة في قدور كبيرة في عيد الأضحى. وكانت بيري تبذل قصارى جهدها حتى لا تنظر إلى عينَيْ الخروف المفتوحتين واللتين لا ترمشان. وكان من شأن حنجرتها أن يصيبها الشَّلَلُ عند التفكير في أنَّ كلّ من سيأكل هاتين العينين، سوف يُدرك الأهوال التي شهدتهما قبل الذبح. وكانت الفكرة تزداد هولًا ما دامت تُدرك أنَّ والدها هو الذي سوف يلتهم ذلك الطعام الشهيّ والمترف في ذلك المساء وهو جالس إلى مائدة عرقه.

مكتبة الفكر الجديد

في هذا المكان أيضًا كانوا يجمعون الصوف الخام الذي يُنشر بعد ذلك على الهواء ويُغسَل ويُنفَض بالعصيّ قبل إعادة حشوه في حشيات النوم. وبين الفينة والفينة تنسلّ خصلة من الصوف وتسقط، في رقّة، على كتف أحد ما، سقوطَ ريشة من حمامة أطلق عليها صيّاد النار.

حين اعترفت بيري لأبيها بأنَّ الصوف الخام يذكِّرها بالطيور النافقة وبعيني الخروف المحدِّق إليها تحديقة تنطوي على اتِّهام، كان يبتسم لها، ويعاجلها بقبلة على وجنتها قائلًا: «لا تكوني حسَّاسة إلى هذا الحدّ يا لبّ فؤادي، ولا تنظري إلى الحياة بمثل هذه النظرة الجادَّة»، كأنَّه هو نفسه يختلف عنها.

كان ثمَّة سياج خشبيّ بلا طلاء، متباعد الأوتاد كأنَّه فم من دون أسنان، يفصل حديقتهم عن العالم الخارجيّ. وبين كلّ الأعمال التي كانت تجري في الفناء الخلفيّ، فإنَّ العمل المفضَّل لدى بيري بعد الألعاب التي تمارسها برفقة أقرانها الأطفال، كان غسلَ البُسط والسجَّاد. كانت تشتاق إلى حلول ذلك اليوم الذي يجيء عادة مرَّةً كلَّ بضعة أشهر. فالطقس يكون معتدلًا، ليس جافًّا أكثر ممَّا يجب، ولا شديدَ الرطوبة، والسجَّاد فيه ما يكفي من الوساخة، وكلّ فرد يكون رائق المزاج.

في مثل هذا اليوم، كانت البسط والسجَّاد تُلَفّ وتُسحَب إلى الخارج، وتوضَع على العشب جنبًا إلى جنب. تحتاج كلّها إلى الغسل. عددها اثنا عشر بساطًا وسجَّادة، ويلزمها كلَّها الغسلُ، وهي إمَّا محاكة يدويًّا، وإمَّا مسطَّحة، وإمَّا إنتاج المصانع. وكانت بعقدها المتناسقة الحياكة، ونقوشها البارزة ورموزها الخفيَّة، تطلق العنان لمخيِّلات أطفال شارع «الشاعر الصامت»، فيثبون ويطلقون ضحكاتهم المدوِّية، ويُبحرون

مكتبة الفكر الجديد

على امتداد محيطات ومرافئ، ويتخيَّلون أنَّهم فوق بسطهم الطائرة.

في هذه الأثناء، وفي ركن منفصل، كانت الماء تغلي في قِدْر من دون غطاء، فوق نار متوهِّجة. وكانت المغارف تغرف الماء منها وتصبُّه على السجَّاد ليصبح نسيجًا ناعمًا. ثم تُغْسَل كلُّ سجَّادة بالصابون وتُفْرَك بالفرشاة، وتُحَكّ حكًّا قبل أن تُشطَف، مرارًا وتكرارًا. ولم تكن النساء جميعهنَّ يُسْهمن في ذلك العمل الشاقّ. فعلى سبيل المثال، كانت والدة بيري تنتظر جانبًا، إذْ كانت ترى العمل مُضجرًا ومُمِلًّا، ولا يناسب ذوقها، لما ينطوي عليه من فساد. أمَّا الأخريات، الشجاعات والمجتهدات، فكنَّ يرفعن سراويلهنَّ وتنانيرهنَّ إلى أعلى، محمرَّات الوجوه لأهمِّيَّة العمل الذي يتولَّينه، من غير لفَّاعات تلفّ رؤوسهنّ، حافيات الأقدام وهنَّ يطأن بقوَّة على السجَّاد، كأنَّهنَّ يطأن على حقل من حقول الشعير الحديث النموّ.

وفي خلال الساعات القليلة المقبلة، يُشيِّد الأطفال قلاعًا من الطين، ويضعون الذباب في علب الكبريت الملطَّخة بالمربَّى، ويأكلون المشمش (ويسحقون ما فيه من نوى)، والبطِّيخ الأحمر (ويجفِّفون بذْرَه)، ويصنعون الأكاليل من الأناناس، ويطاردون قطَّة مغبرَّة اللون، مثقلة بحملها أو مكتنزة. ثم يتوقَّفون عن تلك الأعمال بعد أن يكونوا قد مارسوها كلّها، لكن عندئذٍ لا يكون سوى ثلث السجَّاد قد نُظِّف تنظيفًا تامًّا. وتذهب صديقات بيري إلى بيوتهنَّ ليرجعن في وقت متأخِّر من اليوم، في حين تمكث هي هنا، فالحديقة حديقتها، والبيت بيتها.

يا له من يوم جميل، معتدل ومشرق. عبقه المنتشر في كلِّ مكان مشبع بخرير المياه، تتجاذب فيه كلّ النساء القيل والقال، ويضحكن ويغنِّين. تروي إحداهنَّ، أو أكثر، النكات البذيئة التي لم تكن بيري

مكتبة الفكر الجديد

تفهمها، لكنَّها كانت تخمِّن أنَّها فاحشةٌ بلا ريب نظرًا إلى ما كان يظهر على قسمات وجه أمِّها من عبوس وتقطيب.

وتأخذ منظِّفات السجَّاد استراحة بعد الظهيرة لتناول طعام الغداء، الذي سبق أن انهمكن في إعداده، والمؤلَّف من أوراق الكرنب المحشوَّة، والبورك بجبنة الفتَّا، والخيار المخلّل، والتبُّولة، واللحم المشويّ، ولفائف فطائر التفَّاح... وثمَّة صينيَّة كبيرة الحجم أُعِدَّت لوضع الطعام عليها، فيوضع كلّ طبق عليها وسط مجموعة من أقراص الخبز وشراب اللبن البارد الذي تعلوه رغوة كأنَّها كتل من سحاب من صنع ربّ سخيٍّ كريم.

وكانت بيري تخطف قطعة بورك من فوق طبق وهي في غمرة جوعها الشديد. لكن ما إن تعضّ عضَّة منها حتى تجد أمّها وقد صرخت صرخة تشقّ عباب السماء. فقد صدَمَتْ، في عجالة أمرها وتشتّت ذهنها، القِدْرَ التي تغلي، لكنَّها تمكَّنت، ويا للدهشة، من عدم قلبها عليها، غير أنَّ ذراعها اليسرى أُصيبت بحروق من مرفقها إلى أناملها. فما كان من النسوة إلَّا أن تركن عملهنَّ وكلّ ما في أيديهنَّ واندفعن إلى مساعدة سلمى.

قالت إحداهنَّ:

ـ ضعي ماءً باردًا على ذراعها كلّها.

ـ معجون أسنان! ادهني به كلّ بقعة الحرق.

ـ بل الخلّ! فنحن عالجنا حروق خالتي به، وكانت حروقها أشدّ.

هرولتِ النساء جميعًا إلى داخل البيت للعناية بسلمى على أفضل وجه يقدرن عليه، في حين لبثتْ بيري وحيدة في الحديقة. وسقط شعاع الشمس على وجهها، وحلَّقتْ حشرة طنَّانة على مقربة منها، ناعسة.

مكتبة الفكر الجديد

وتحت شجرة تين في الجهة المقابلة من الشارع، لمحت القطَّة مُغمضةً عينيها اللتين بلون اليَشْبِ. فكَّرت في أن تُطعم القطَّة، فأمسكت كرة لحم وتسلَّقت السياج وقفزت من فوقه. وفي لمح البصر، باتت خارج البيت.

ـ ما اسمك أيَّتها البنت الصغيرة؟

استدارت بيري لتجد رجلًا شابًّا مرتديًا قميصًا مصمَّمًا بمربَّعات حمر وبيض، وسروالًا من الجينز الأزرق بدا كأنَّه لم يُغسَل قطّ. ولاحت قبَّعة البيريه التي يعتمرها كأنَّها توشك أن تنزلق من على رأسه. لم تردّ بادئ الأمر، إذْ كانت تعلم جيِّدًا بأنَّ من المستحسن ألَّا تكلِّم الغرباء. غير أنَّها لم تبتعد أيضًا، فقد جذبت البيريه نظرها، مذكِّرة إيَّاها بالملصق في حجرة أوميد. لعلَّ هذا الغريب كان ثوريًّا. لعلَّه قد تناهى إلى سمعه ما حدث لشقيقها، ومصيره. فقرَّرت أنَّها ما لم تخبره بالحقيقة، فإنَّ ذلك لا ينطوي على إعطائه معلومات عنه. ولهذا السبب قالت:

ـ إنَّني روزا.

قال وقد أشاح بوجهه ناحية الشمس:

ـ آه، لم يسبق لي أن التقيت روزا، ولم ألتق واحدة بهذا الجمال. سوف تحطِّمين قلوب الرجال عندما تكبرين.

لم تنبس بيري بحرف، على الرَّغم من أنَّ شيئًا ما دغدغها، يشبه نوعًا من الشعور الحسِّي، قوَّة لم تستيقظ بعد. استثارها الإطراء بالقدر نفسه الذي صدَّها فيه.

قال:

ـ أرى أنَّك معجبة بالقطط.

مكتبة الفكر الجديد

كان صوته خافتًا وحادًّا. وفي وقت لاحق، وليس في تلك اللحظة، سوف تشبِّه بيري الصوت بحبَّة الفاصوليا التي احتفظت بها داخل قطعة رطبة من الصوف فوق قاعدة النافذة. وكما هو شأن حبَّة الفاصوليا، كان صوت الرجل خفيًّا، متغيِّرًا ودائم النموّ.

قال لها:

ـ رأيتُ قطَّة حول الناحية، وقد ولدت خمسة جراء صغيرة على ما يبدو. صغيرة جدًّا وجميلة مثل فئران... ورديَّة العيون.

تظاهرت بيري باللامبالاة، وقدَّمت إلى القطة آخر كرة من كرات اللحم.

فاقترب منها الرجل أكثر، وكانت تنبعث منه رائحة التبغ والعرق والتربة الرطبة، ثم جلس وابتسم لها، فأصبح الاثنان في مستوى النظر.

ـ ما يبعث على الأسى أنَّ الأمّ ستُغرق صغارها.

حبست بيري أنفاسها. ففي الطرف الجنوبيّ من الحقل حيث الكلابُ الشاردة تهيم على وجهها، وبضع عنزات ترعى الكلأ، ثمَّة خزَّان ماء لم يعد أحد يستخدمه لأنَّه يتلوَّث بمياه الصرف الصحِّي كلَّما أمطرت السماء أكثر من ثلاث بوصات. نظرت نظرة خاطفة إلى ذلك الاتِّجاه متوقِّعة أن تشاهد جثث القطط تطفو على الماء.

قال الرجل متنهِّدًا:

ـ هذا ما تفعله القطط.

لم تستطع بيري منع نفسها من السؤال:

ـ لكن ما سبب ذلك؟

ردّ عليها:

ـ القطط لا تعجبها العيون الورديَّة.

مكتبة الفكر الجديد

كانت عينا الرجل بنِّيَّتين فاتحتين، على بشرة جوفاء، ووجهه نحيل. أضاف:

ـ القطط تخشى أن تلد مخلوقات غريبة مثل صغار الثعالب، لهذا تقتل صغارها.

فكَّرت بيري إن كان لصغار الثعالب عيونٌ ورديَّة. وإذا كان كذلك، فما رأي الأمَّهات في صغارها؟ كانت بيري الوحيدة بين أفراد أسرتها خضراء العينين، وشعرت بأنَّها محظوظة لعدم اعتقاد أيّ واحد من أسرتها أنَّ ثمَّة مشكلة في ذلك، في الأقلِّ حتى الآن.

تنبَّه الرجل لدهشتها فمسَّد رأس القطَّة قبل أن ينهض واقفًا.

ـ يُستحسن بي أن أنصرف الآن وأتأكَّد من حال القطط الصغيرة. فهي في حاجة إلى مَن يعتني بها. هل تحبِّين مرافقتي؟

قالت متسائلة:

ـ مَن؟ أنا؟

فهي لم تعرف ما تقول غير ذلك.

أمَّا هو، فقد زمّ شفتيه، متمهِّلًا في الإجابة عن سؤالها، كأنَّها هي التي اقترحت عليه أن ترافقه:

ـ يمكنك أن تأتي إن شئت، لكنَّ القطط متناهية في الصغر، وأريد وعدًا منك بألَّا تمسِّيها بأذى.

قالت بابتهاج ومرح:

ـ أعدك.

في مكان ما، فُتحت نافذة، وصرخت امرأة في وجه الريح مهدِّدة ابنها بأنَّها سوف تكسر له ساقيه إن لم يأت في تلك اللحظة بعينها لتناول طعام الغداء. جال الرجل ببصره يمينًا ويسارًا. وبعد أن انقلب متوتِّرًا

مكتبة الفكر الجديد

بغتة، تقلَّص وجهه وهو يقول:

ـ لا ينبغي لأحد أن يشاهدنا معًا. سوف أسير أمامك، وأنت من ورائي.

ـ والقطط؟ أين هي؟

ـ إنَّها ليست بعيدة، لكن يُستحسن أن نذهب بسيَّارتي المركونة عند الناصية.

ثم أشار بيده إشارة غامضة إلى مكان السيَّارة قبل أن يسرع في خطاه.

بدأت بيري تسير خلف الرجل الذي كان يعرج بوضوح. وعلى الرَّغم من أنَّ الشكَّ خامرها بشأن ما سوف تفعله، فإنَّ هذا هو أوَّل قرار تتَّخذه من دون تدخُّل والديها. وها إنَّها قد دنت كثيرًا من الإحساس بالحرِّيَّة. وصل الرجل من فوره إلى سيَّارته واتَّخذ مكانه في مقعد السائق منتظرًا إيَّاها وهو ينظر نظرة خاطفة ومراوغة من فوق أحد منكبيه. توقَّفت بيري متنبِّهة لسبب غريزيّ لا جسديّ. وارتعدت فرائصها كأنَّ ريحًا صرصرًا لامست بشرتها. إلَّا أنَّ الشيء الذي أثار وَجَلَها أكثر من أيّ شيء آخر، تمثَّل في الضباب الذي خيَّم على المنطقة من دون أن تعرف مصدره. ستارة من ضباب، طبقة من فوق طبقة، رماديَّة اللون أشبه ما تكون بلفَّة قماش انفتحت في متجر ثياب. أربكها هذا الضباب موقَّتًا، ودفعها إلى التفكير في المكان الذي ستذهب إليه، وسبب ذهابها. كان في وسعها أن تلاحظ الخطوط العامَّة الحليبيَّة الشكل لإحدى الأشجار القريبة، بيد أنَّ العالم القائم من ورائها لم يعد مرئيًّا، ومن ضمنه الرجل نفسه، الذي لا يبعد عنها سوى بضعة أمتار.

شاهدت بيري داخل السحابة الرماديَّة اللون مشهدًا هو الأغرب:

مكتبة الفكر الجديد

شاهدت طفلًا رضيعًا، مدوَّرَ الوجه، مكشوفًا ومفعمًا بالثقة، وثمَّة بقعةٌ أرجوانيَّة اللون ممتدَّة من إحدى وجنتيه إلى أسفل عنقه، وسائل ما يقطر من إحدى زاويتي فمه كأنَّه تقيَّأ قليلًا قبل لحظات.

هتفت أمّها من المنزل المطليّ بطلاء يشبه لون الكرز، وكان صوتها ملؤه الذعرُ والهلع:

ـ أين أنت يا بيري؟

لم تتمكَّن بيري من الجواب، فقد كان قلبها يدقّ في تجويف حلقها وهي ترمش عينيها دهشة للطفل في الضباب. كادت تصدِّق أنَّ ما تراه يكاد يكون شبحًا أو جنِّيًا، فقد سبق لها أن سمعت عن الأشباح والجانّ، وهي مخلوقاتٌ من نار بلا دخان، تسكن هنا حتى قبل أن يُطرد آدم وحوَّاء من جنَّة عدن. لهذا، فالأرض ملكها تاريخيًا. أمَّا البشر فقد حلُّوا فيها في مرحلة لاحقة، وقاموا بغزوها. وعاش الجانّ في مناطق نائية، في جبال مكسوَّة بالثلوج، وفي كهوف مظلمة وأرضٍ قاحلة. لكنَّهم كانوا يجدون في أغلب الأحيان طريقهم إلى المدينة للسكن في المرافق الصحِّيَّة النتنة والأقبية القذرة والقناطر العطنة. وبما أنَّ هذه المخلوقات تهيم على وجهها بكامل حرِّيَّتها، فإنَّه يتعيَّن على المرء أن يحاذر في سيره لأنَّه إذا وطأ على مخلوقة من هذه المخلوقات عن غير عمد، فإنَّ الأمور سوف تنتهي به إلى ما هو سيِّئ، وقد يُصاب بالشلل. وربَّما كان هذا ما حدث لها أيضًا، فقد عجزت عن الحراك تمامًا.

صرخت سلمى بصوت عال:

ـ ردِّي عليَّ يا بيري!

تكوَّر الطفل في الضباب كأنَّه استدلَّ على الصوت، وبدأ الضباب ينقشع، كذلك الطفل نفسه، رويدًا رويدًا، مثل سديم الصباح من تحت

مكتبة الفكر الجديد

أشعَّة الشمس وهي تبزغ في الأفق.

استدارت بيري على عقبيها وركضت بأسرع ما تستطيع في اتِّجاه حديقة منزلها، وهي تقول:

ـ أنا هنا يا أمَّاه!

وراحت تسأل بعدئذٍ إن كان أحد في الحيّ قد شاهد أيّ قطط صغيرة ذات عيون ورديَّة. إلَّا أنَّ الجواب كان بالنفي.

* * *

في وقت متأخِّر، متأخِّر جدًّا من حياتها، أدركت بيري أنَّها نجتْ من حادث كاد يجعلها مضغة الأفواه في الصحافة: فتاة مجهولة الاسم، باستثناء الحرفين الأوَّلين المطبوعين من اسمها، وصورتها بالأسود والأبيض وعصابة سوداء على عينيها. كان يمكنها أن تكون على صدر الصفحات إلى جانب تقارير عن هجوم دمويّ على زعيم من زعماء المافيات في إسطنبول، والاشتباكات بين الجيش التركيّ والانفصاليين الأكراد في بلدة تقع على الحدود الجنوبيَّة الشرقيَّة، وقرار المحكمة حظر كتاب «مدار السرطان» للكاتب هنري ميلر[1]. وكان من شأن الأمّة كلّها

(١) هنري ميلر (Henry Miller، ١٨٩١ ـ ١٩٨٠): روائيّ أميركيّ وُلد في مدينة نيويورك ونشأ في بروكلين. وبعد مدَّة من عمله في شركة يونيون تلغراف، انتقل إلى باريس في سنة ١٩٣٠، حيث كتب «مدار السرطان»، (١٩٣٤) التي تنحو منحى السيرة الذاتيَّة ـ الروائيَّة أسوة ببقيَّة كتبه. وتدور عن حياته في باريس، وهو فنَّان وأديب مُعدَم. فيها كثير من تقاليد الرواية الأوروبيَّة البذيئة وروح الفكاهة الأميركيَّة، الكلمات الفاحشة فيها يراها النقد الأدبيّ ثوريَّة تعكس بواقعيَّة جديدة أحاديثَ الذكور المتهوِّرة والقوَّة التدميريَّة لمثل هذه الأحاديث. أثَّر تأثيرًا كبيرًا في جيل الخمسينيَّات والستينيَّات، وكانت مؤلَّفاته في موقع الصدارة بين صفوف القرَّاء الذين رأوا في صراحة ما يكتبه عن الحبِّ والجنس قيمةً إيجابيَّة في عالم الأدب (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

أن تقرأ تفاصيل إجهاضها، فيدقّ الناس على الخشب، ويهزُّون رؤوسهم، ويطقطقون بألسنتهم حامدين الله أنَّ الطفلة ليست طفلتهم، وإنَّما طفلة أسرة أخرى.

أطلقت بيري عن منقذها عبارة «الطفل في الضباب»، وتركته على حاله، غير قادرة على فهم المكان الذي جاء منه، أو راغبة في ذلك. غير أنَّ صورته ظلَّت ملازمة إيَّاها، وفي أوقات لم تُتوقَّع، طوالَ سني حياتها. ولم تكن تلك الصورة تظهر أمامها في أوقات الخطر فحسب، وإنَّما في لحظات اعتياديَّة أيضًا. تشاهد داخل البيت وخارجه، صباحًا ومساءً، الضبابَ الذي قد يهبط في أيّ وقت وأيّ مكان، محيطًا بها من كلّ جانب كأنَّه يريدها أن تعترف اعترافًا واحدًا ونهائيًّا بأنَّها كانت وحيدة تمامًا.

في سنوات لاحقة، سوف تحمل هذا السرَّ معها في حقيبتها عندما تذهب إلى جامعة أوكسفورد أوَّلَ مرَّة في حياتها وهي في سنِّ التاسعة عشرة. صحيح أنَّ المرء لا يستطيع دخول إنكلترا حاملًا معه اللحوم ومنتوجاتِ الألبان إن كان من خارج الدول الأوروبيَّة، لكن لم يمنعها أحد من إدخال مخاوفها وصدماتها النفسيَّة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الـــحـــاجّ

إسطنبول ـ ثمانينيَّات القرن العشرين

لمَّت بيري أطراف شجاعتها بعد مرور أسبوع لتكشف سرَّها لأبيها. سألها منصور والصحيفة مفروشة في حضنه:

ـ هل قلت إنَّ الأحلام تراودك؟

ـ ليست أحلامًا، بل شيء واحد يا بابا. إنَّه طفل صغير.

ـ أين هو هذا الطفل تحديدًا؟

احمرّ وجه بيري وقالت:

ـ في الهواء، كأنَّه يطفو في الجوِّ.

مرَّت لحظة ولم تفصح قسمات وجهه عن أيّ شيء، لكنَّه قال في نهاية المطاف:

ـ يا ابنتي المتوقِّدة ذكاءً، هل تريدين أن تصبحي مثل والدتك؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس، اذهبي واملئي دماغك بالخزعبلات. لقد توقَّعت أن تكوني في حال أفضل من ذلك.

خانتها شجاعتها، لكنَّها استسلمت، مصمِّمة على ألَّا تُخيِّب ظنَّه. لم يكن الأمر صعبًا. فعلى الرَّغم من كلّ شيء، فإنَّها لم تلمس ذلك الطيف، لكنَّها شاهدته، وفي وقت لاحق سوف تسمع صوته، ولن تستطيع الوثوق بحواسّها إذا ما أخذت في الاعتبار غرابة تلك التجربة.

مكتبة الفكر الجديد

وبسبب قانون والدها المستند إلى التجربة العمليَّة، فإنَّ طفل الضباب ليس له أيّ وجود إلَّا في مخيِّلتها. هذا ما خلصت إليه. أمَّا سبب وجوده في مخيِّلتها، فهذا ما لم تستطع أن توضحه بصورة مقنعة.

ـ إنَّ العالم المتمدِّن يا لبّ قلبي لم يُشيَّد على معتقدات لا أساس لها من الصحَّة، وإنَّما على قاعدة من العلم والأسباب والتكنولوجيا. وأنا وأنت ننتمي إلى هذا العالم.

ـ أعرف هذا يا بابا.

ـ حسنًا. إذًا، أَهملي هذا الموضوع، ولا تذكريه لوالدتك أبدًا.

لكن ذكر الموضوع لوالدتها كان أمرًا محتَّمًا. فإذا كان لفيزياء والدها قوانينُ عامَّة، فإنَّ الشيء نفسه ينطبق على نفسيَّة الإنسان. ففي اللحظة التي يُقال فيها لشخص لا تفتح الباب الأربعين أو لا تتلصَّص داخل الصندوق، فإنَّ ذلك الباب سوف يُفتَح لا محالة، وسوف يُفْتَح الصندوق بدوره أيضًا. لكن من الإنصاف القول إنَّ بيري حافظت على وعدها قدر المستطاع، لكن طفل الضباب الصغير لاح لها، فهرولت إلى والدتها مستغيثة تنشد العون.

قالت سلمى وقد تغضَّن جبينها بسبب انشغال بالها:

ـ لماذا لَمْ تُخبريني بالموضوع من قبل؟

بلعت بيري ريقها بصعوبة وقالت:

ـ لقد أخبرت والدي.

قالت سلمى:

ـ والدك؟ وماذا يعرف هو؟ أَصغي إليّ. يبدو أنَّ هذا من عمل الجنِّ. فبعض الجنّ يسلك سلوكًا حسنًا، والبعض الآخر شرِّير تمامًا. والقرآن يحذِّرنا من الخطر. فالجانّ يفعلون أيّ شيء لمواجهة مثل هذه

مكتبة الفكر الجديد

الهجمات. وعلينا أن نتوخَّى الحيطة والحذر.

مالت سلمى إلى أمام وأعادت خصلة من شعر ابنتها وراء أذنها، فأطلقت بيري تلك الإشارة البسيطة المشحونة بكثير من الحنان والرقَّة النابعين من أعماقها، فسألت أمّها:

ـ ما الذي ينبغي لي أن أفعله؟

ـ أمران اثنان: عليك دومًا أن تخبريني بالحقيقة. إنَّ الله يشهد على كلّ كذبة، وإنَّ الأبوين هما عينا الله على الأرض. ثانيًا، يجب أن نعثر على مطهِّر للأرواح.

في صباح اليوم التالي، انطلقت الأمّ وابنتها لمقابلة الحاجّ الذي ذاع صيته بسبب قواه الخارقة في تطهير المرء من تلبُّس الشيطان. كان رجلًا وقورًا وبدينًا، أسود الشارب، ذا صوت يبعث أزيزًا. ويمسك بيده سبحة من العقيق اليماني، يسبِّح فيها بتؤدة. وكان رأسه يفتقر إلى التناسق قياسًا ببقيَّة جسمه، كأنَّه زُرع له في عجالة بعد تفكير لاحق. أمَّا قميصه فكان مزرَّرًا من أعلاه إلى أسفله، شديد الضيق حتى ابتلع رقبته.

حملق في بيري مستقصيًا، وطرح أسئلة تخصّ طعامها ولعبها ودراستها ونومها وعاداتها في ارتياد المرافق الصحِّيَّة. وبسبب إمعانه في الاستفسار، انشغلتِ الفتاة قلقة، لكنَّها لبثت ساكنة في كرسيِّها، باذلةً أقصى جهدها كي تُجيب أجوبة جادَّة. سألها إن كانت قد قتلت مؤخَّرًا عنكبوتًا أو دعسوقة أو سحلية أو صرصورًا أو جرادة أو يرقانة أو زنبورًا أو نملة. وكان ذكره النملة قد جعلها تتردَّد في الجواب، إذْ من يدري، فلربَّما داست على نملة، أو على كثيب النمل، وهذا هو الأسوأ. وأكَّد لها الحاجّ أنَّ الجانّ، بما عُرف عنهم من مراوغة وخداعْ، يستطيعون أن يتَّخذوا شكل حشرات، وإذا ما داس المرء عليهم من دون أن يذكر اسم

مكتبة الفكر الجديد

الله، فسوف يصبح متلبِّسًا بالشيطان في ذينك الزمان والمكان.

التفت الرجل إلى سلمى، وبعد أن قال كلّ ما قال، سألها:

ـ هل لقَّنت الفتاة أنَّ هذا الأمر سيحدث لها إذا ما خرجت من المنزل من دون أن تقرأ سورة الفاتحة؟ لديَّ خمسة أطفال، ولم يُقلق الجنُّ راحةَ أيّ منهم. لماذا؟ الجواب بسيط، لأنَّهم يعرفون كيف يحمون أنفسهم. ألم تعلِّميها شيئًا ما يا أختاه؟

ـ تحوَّلت نظرات سلمى من الرجل إلى ابنتها قبل أن تحدِّق إليه مجدَّدًا.

ـ إنَّني أحاول، لكنَّها لا تُصغي إليّ. إنَّ لوالدها أثرًا سيِّئًا فيها.

قالت بيري محتجَّة:

ـ ليس للأمر صلة بأبي.

ثم أردفت بصوت هادئ:

ـ ما الذي يحدث الآن؟

بدلًا من أن يجيب الرجل عن تساؤلها، أمسك بكتفي الطفلة ودنا من وجهها دنوًّا طويلًا كأنَّه دهر، وهمس:

ـ سوف أكتشف اسمكَ مهما يكن، وستكون بعدئذٍ عبدًا لي. أعرف أنَّك نجس أيُّها الخسيس، الشرِّير. اترك هذه البنت البريئة. إنَّني أحذِّرك.

أغمضتْ بيري عينيها إغماضةً قويَّة، وارتخت أصابع الرجلُ من على كتفيها، ونثر ماء الورد على رأسها، وتلا بعض الأدعية لطرد الشرِّ عنها. وطلب منها أن تبلع قصاصات صغيرة من الورق، تحتوي كلّ واحدة منها على حروف باللغة العربيَّة، فصبغ الحبر لسانها بلون أزرق شديد اللمعان استمرَّ عدَّة أيَّام. فلم يحدث شيء. في تلك الليلة، وبناء

مكتبة الفكر الجديد

على تعليمات الحاجّ وإصرار أمّها، أمضت بيري ساعة في الحديقة بمفردها، تجفل عند كلّ صوت مهما يكن عاديًّا. ملامح الخوف ماثلة في كلّ ضوء باهت ينبعث من مصباح الشارع. وفي صباح اليوم التالي، أرسلوها لتطارد مجموعة من الكلاب الشاردة، لكن بدلًا من ذلك طاردتْها الكلاب.

قال المطهِّر حين ذهبتا لزيارته في المرَّة الثانية:

ـ آه، أيُّها الجنِّي. إنَّني أمنحك فرصة أخرى.

ثم أمسك بيده عصا طويلة مصنوعة من غصن شجرة صفصاف، وقال:

ـ إمَّا أن تخرج سَمعًا وطاعة، وإمَّا سأضربك ضربًا مبرّحًا.

وقبل أن تتمكَّن بيري من استيعاب ما سمعته، ضربها الرجل على قفاها، فصرخت البنت.

امتقع وجه سلمى.

ـ هل هذا ضروري أيُّها الأفندم؟

ـ هذا هو العلاج الوحيد لأنَّ الجنِّي في حاجة إلى من يخيفه. وكلَّما زاد مكوثه في جسدها ازداد قوَّة ومنعة.

قالت سلمى وهي تزمّ شفتيها:

ـ نعم، ولكن... لا يمكنني أن أسمح بحدوث هذا. يجب أن ننصرف وشأننا.

قال الرجل بصوت رتيب:

ـ هذا اختيارك. لكن اسمحي لي بأن أحذِّرك يا أختاه. فهذه الطفلة تميل إلى الكآبة. وحتى لو تخلَّصتْ من الجنِّيّ الآن، فيمكن أن تقع أسيرة جنِّيّ آخر على نحو سهل سهولةَ التنفُّس. فراقبيها مراقبة جيِّدة.

مكتبة الفكر الجديد

أسرعت الأمّ والابنة في الخروج من المنزل في عجالة من أمرهما خائفتين من الرجل أكثر من خوفهما من الجنِّيّ المفترض.

قالت بيري لدى وصولهما إلى نقطة توقُّف الحافلة:

ـ لا تقلقي، سوف أكون بخير.

ثم أمسكت بيد أمِّها والإحساسُ بالذنب يتَّضح على وجهها، وأضافت:

ـ أمَّاه، ماذا كان الرجل يعني بقوله إنَّني أميل إلى الكآبة؟

لاح القلق على محيَّا سلمى، لا بسبب السؤال الذي طرحته ابنتها، وإنَّما بسبب عجزها عن تقديم إجابة.

ـ هذه هي حال بعض الناس، وأظنّ هذا يوضح الأمور التي فعلتِها عندما كنت صغيرة السنّ.

ثم أمسكت عن الكلام بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع. أمَّا بيري، التي لم تفقه ما الذي كانت تعنيه والدتها، فقد ساورها الإحساس بأنَّها قد اقترفت خطأً فادحًا، فادحًا جدًّا، فقالت:

ـ أعدك بأن أكون فتاة طيِّبة.

وهكذا كان الوعد سببًا لأن تبذل قصارى جهدها كي تحافظ عليه منذ ذلك الوقت فصاعدًا، وتلتزم، نتيجة طاعة تامَّة، بما يُنتظر منها أن تفعله، وتعود إلى جادَّة الصواب التي حادت عنها، محاذرة حذرًا تامًّا حتى لا تتسبَّب بحدوث أيّ مفاجآت، أو أحداث مرعبة، وألَّا تسترعي تصرّفاتها الانتباه. وتعهَّدت بأن تكون، من الآن وصاعدًا غير مهدِّدة وغير متوعِّدة قدر استطاعتها.

طبعت سلمى قبلة على جبينها قائلة:

ـ لنتأمَّل أن يكون هذا الموضوع قد انتهى يا حياتي، لكن حذار! فقد

مكتبة الفكر الجديد

يعود. وإذا عاد، فعليك إخباري. فالجانّ حقودون، ذوو روح انتقاميَّة.

وعاد الجنِّيّ حقًّا، لكن بيري التي تعلَّمت درسًا صعبًا لم تذكر الموضوع لأحد. فوالدتها مؤمنة بالخزعبلات والخرافات أكثر ممَّا يجب، ووالدها عقلانيّ إلى أبعد الحدود، فلا يمكن توقُّع أيّ عون من أيّ واحد منهما في مثل هذه القضيَّة غير الواقعيَّة.

كانت سلمى تعزو أيّ شيء غريب، حتى إن كان غير اعتياديّ قليلًا، إلى الدِّين، في حين كان منصور يعزوه مباشرة إلى الجنون. أمَّا بيري، فكانت لا تعزوه إلى أيٍّ من هذين السببين.

كلَّما زاد تفكير بيري في الخيارات المطروحة أمامها، ازدادت اقتناعًا بضرورة الاحتفاظ برؤاها في قرارة نفسها. وعلى الرَّغم من أنَّ تلك الرؤى كانت مثيرة للقلق إلى حدٍّ كبير، فإنَّها تقبَّلتها على أنَّها من غرائب الأمور في الحياة، مثل عظم سمكة عالق في بلعومها: شيء لا تقدر على بلعه ولا على إخراجه، من دون أن يترك لها أيّ خيار باستثناء خيار تعلُّم كيفيَّة التأقلم معه. وهكذا، تخفّى طفل الضباب ـ جنِّيًّا كان أم شيئًا آخر مختلفًا تمامًا ـ في تلافيف دماغها، مثل لغز بلا حلّ.

بعد مرور سنوات، وقبل أن تسافر إلى أوكسفورد بمدَّة قصيرة، كتبت في مفكِّرتها:

أَمَا من وسيلة أخرى، مكان آخر للأمور التي لا تقع ضمن نطاق الإيمان أو اللاإيمان، ولا الدين الخالص أو العقل الخالص؟ طريق ثالث لمن يشبهني من الناس؟ لا أولئك الذين لا تناسبهم مثل هذه الثنائيَّات التي يرونها جامدة أكثر ممَّا يجب؟ أشعر أحيانًا كأنَّني أفتِّش عن لغة جديدة، لغةٍ وحيدة لا يتكلَّمها أحد سواي...

* * *

مكتبة الفكر الجديد

حـــــوض الأســـــمـــاك

إسطنبول ـ ٢٠١٦

كانت الساعة التاسعة إلَّا ربعًا مساءً حين وصلت الأمّ والابنة إلى شاطئ البحر. ثمَّة شرفات مصنوعة من الحديد ولها درجٌ رخاميّ أبيض ونافورات مزيَّنة بالفسيفساء، ومزوَّدة بآلات تصوير أمنيَّة دقيقة، وبوَّابات كهربائيَّة وسياج ذي أسلاك شائكة. كانت المنطقة لا تشبه مطعمًا مخصَّصًا لتقديم الطعام والاستجمام، بقدر ما تشبه جزيرة من الجزر، أو قلعة حصينة رحبة نأت بنفسها عن المدينة، إن لم تكن المدينة هي التي نأت بنفسها عنها. وقد اتُّخذت كلّ خطوة من الخطوات الأمنيَّة لضمان عدم عبور «جنّتها» من أيٍّ من الباعة الجوَّالين أو اللصوص والمجرمين، أو أيّ نمط من أنماط الحياة غير المرحَّب بها.

أبقت بيري يدها اليمنى المصابة بجرح قريبة من صدرها، وممسكة بعجلة القيادة بيدها اليسرى. وفي الطريق، توقَّفتا قرب إحدى الصيدليَّات، وطلبت من الصيدلانيّ، وكان رجلًا في خريف العمر ذا شارب أشيب، أن يعالجها. ولمَّا سألها مستفسرًا عن سبب إصابتها، قالت بيري في حدَّة:

ـ كنت منهمكة في تقطيع الخضار، وهذا ما يحدث حين تطبخ الطعام وأنت في عجالة.

فضحك الرجل. كان الصيدلانيُّون في إسطنبول من ذوي الحكمة.

مكتبة الفكر الجديد

ولا يتركون كذبة تمرُّ من دون تدقيق وتمحيص، ولا يرضون بمعالجة حالات لا تبعث على الارتياح. فالعاهرات المصابات بجروح بسبب زبائنهنّ، والقوّادون الفاسدو الأنفس، والنساء اللواتي يضربهنَّ أزواجهنَّ، وسائقو السيَّارات الذين يصدمهم سائقو سيَّارات آخرون، يمكنهم كلّهم أن يلوذوا بالصيدليّات ويكذبوا من غير رويَّة، وهم يدركون جيِّدًا أنَّهم لن يكونوا موضع تحقيق حتى لو لم يصدِّقهم أحد.

تيقَّنت بيري من حُسنِ وضع الضماد، وَلَوَتْ قسماتِ وجهها عند رؤيتها اللطخةَ القرمزيَّة التي تسرَّبت من خلال قطعة الشاش، وفضَّلت أن تنزعها قبيل دخولها الحفلة كي تتفادى أيّ سؤال، إلَّا أنَّ الألم والدم وخطورة الإصابة بالالتهاب كانت كلّها كافية لتغيير رأيها.

ما إن توقَّفت السيَّارة أمام البوَّابة حتى ظهر للعيان حارس أمنيّ ضخم الجثَّة، مرتديًا بذلة سوداء ومعطَّرًا بعطر ما بعد الحلاقة. وفي الوقت الذي أخذ يركن السيَّارة، اجتازت بيري ودينيز الحديقة المشذَّبة وذاتَ التعاريش المحتشدة بجفنات العنب، وانسابت ريح لطيفة وسط أوراق شجر الدُّلب.

قالت بيري منهية الصمتَ:

ـ ما كان ينبغي لي يا حبيبتي أن أُطارد ذلك الرجل. فِيمَ كنت أفكِّر؟

ثم لمست بيدها الرقيقة يدَ ابنتها لمسة خفيفة كأنَّ الفتاة غاية في الهشاشة، وغضبها سرعان ما قد ينفجر. كان من دأبهما أن تكونا قريبتين، إحداهما من الأخرى. في الماضي، كانت لهما قوانينهما. أمَّا الآن، فيصعب أن نصدِّق أنَّ هذه الفتاة هي نفسها التي كانت تنفجر ضاحكة لنكاتها السمجة وتمسك بيدها عند بكاء إحدى شخصيَّات ديزني. لقد توارت عن الأنظار تلك الفتاةُ، تاركة هذه الغريبة في

مكتبة الفكر الجديد

محلِّها. وقد أخذ هذا التحوُّل ـ الذي لا تملك وصفًا آخر غيره ـ بيري على حين غرَّة على الرَّغم من أنَّها قرأت عشرات المقالات عن بلوغ سنّ الرشد في وقت مبكر، ولاسيَّما لدى البنات. كانت قد وطَّنت العزم على أن تكون علاقتها بابنتها أفضل كثيرًا من تلك العلاقة التي كانت بينها وبين أمّها. ففي نهاية المطاف، أليس ذلك هو الأمل الحقيقيّ الذي سيتحقَّق في الحياة: وهو أنَّنا كنَّا أحسن صنعًا من آبائنا، وهكذا سيكون أطفالنا أولياء أمور أفضلَ منَّا. إلَّا أنَّ ما نكتشفه عوضًا عن ذلك هو أنَّنا نكرِّر، من غير عمد، الأخطاءَ نفسها التي اقترفها الجيل السابق. وكانت بيري تعلم أيضًا بأنَّ الغضب يخفي وراءه في أغلب الأحيان الخوفَ، فقالت في رقَّة:

ـ آسفة إن كنت قد أفزعتك.

قالت دينيز:

ـ لقد أفزعتني حقًّا يا أمَّاه، إذ كان يُحتمل أن تلقي مصرعك!

كانت الابنة على صواب، إذْ كان من الممكن أن تلقى حتفها في ذلك الزقاق على يد ذلك المتشرِّد. غير أنَّ ما لم تعرفه دينيز هو أنَّ العكس صحيح أيضًا، إن لم يكن أكثر، فقد كان محتملًا أن تقتل المتشرِّد.

قالت بيري لدى وصولهما إلى الدرج المؤدِّي إلى المنزل:

ـ لن أفعل مثل هذا الشيء مستقبلًا أبدًا.

ـ وعد؟

ـ وعد يا حبيبتي، لكن لا تخبري والدك بأيِّ شيء، لأنَّه سوف يقلق.

أمسكت دينيز عن الكلام. لحظة من التردُّد تلاشت بالسرعة نفسها التي ظهرت فيها، وهزَّت رأسها قائلة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لديه حقٌّ في أن يعرف.

كادت بيري تقول شيئًا ما ردًّا على ذلك، لكنَّ البابَ الضخم المصنوعَ من خشب البلُّوط والمنقوشَ بالزهور والنباتات، فُتح لهما من الداخل، وبانت للعيان خادمة ترتدي تنُّورة سوداء وقميصًا أبيض من الشيفون، وانسابت إلى أنفيهما روائحُ الطعام ممزوجة بروائح العطور. وقفت عند العتبة مبتسمة. وتناهت إليهما أصوات من الداخل.

ـ مرحبًا. تفضَّلا من فضلكما.

كانت الخادمة تتكلَّم بلكنة مدهشة، لعلَّها المولداڤيَّة أو الجيورجيَّة أو الأوكرانيَّة، وهي واحدة من عديد النساء الأجنبيَّات اللواتي يعملن في بيوت إسطنبول، في حين يربِّي أقرباؤهنَّ وصديقاتُهنّ أطفالَهنَّ في أوطانهنّ، وينتظر أزواجهنّ وصول الراتب الشهريّ إليهم.

ما إن خطتِ الأمّ وابنتها خطوة واحدة داخل المنزل حتى رأت بيري زوجها يندفع من وسط الضيوف ويتقدَّم نحوهما، وقد اكتست ملامح وجهه بمزيج من التوجُّس والاستياء. كان عدنان يهتمّ اهتمامًا شديدًا بمظهره، فارتدى سترة بندقيَّة اللون ضيِّقةً وقميصًا أبيض اللون أنيقًا، وربطة عنق رفيعة لونها أزرق وبنِّيّ فاتح. كان رجلًا عصاميًّا، شقَّ طريقه إلى القمَّة بعد بداية متواضعة ليجمع ثروته من تشييد العقارات. وغالبًا ما كان يردِّد أنَّه ليس مَدينًا لأحد في نجاحه إلَّا لله القدير. أمَّا زوجته بيري، فعلى الرَّغم من احترامها الشديد للجهد الشاقّ الذي بذله زوجها وذكائه، فإنَّها كانت لا تعرف السبب الذي جعل الخالق يُؤْثِره على غيره من الرجال. كان عدنان أكبر منها بسبعة عشر عامًا، لكن فارق العمر بدا لها واضحًا كلَّما استاء من شيء ما، فتزداد الغضون على جبينه عمقًا، وهو ما حدث الآن.

ـ أين كنتِ؟ لقد اتَّصلت بك خمسين مرَّة؟

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيزي بأعذب صوت تمكَّنت من التفوُّه به:

ـ آسفة يا حبيبي. لقد فقدت هاتفي. إنَّها قصَّة طويلة، وأرجو ألَّا نتحدَّث عنها الآن.

قالت دينيز وقد لمعت عيناها لدى رؤيتها والدَها:

ـ أتعلم لماذا تأخَّرنا يا أبي؟ لأنَّ أمِّي كانت منشغلة بمطاردة اللصوص.

ـ ماذا؟

دفعت دينيز خصلة شعر بعيدًا عن عينيها. كان أنفها يشبه أنف والدها، طويلًا ومعقوفًا، ومعتدَّة بنفسها مثله، وقالت قبل أن تتوجَّه إلى فتاة في مثل سنِّها، يظهر عليها السأمُ والملل إذْ وجدت نفسها وسط ضيوف أكبر سنًّا منها:

ـ اسألها هي.

لكن لم يكن ثمَّة فسحة من الوقت للإيضاح. فقد تقدَّم نحوها مالك المنزل بعد أن قطع حديثه إلى صحافيّ ذائع الصيت. كان عريض المنكبين، صلبَ البنية، أصلعَ الرأس، متورِّد السحنة لإسرافه في الشراب. لا غضون على وجهه، فكلّ بوصة منه مشبعة بآخر المستحضرات المضادَّة للشيخوخة. وإذا ما ابتسم، فإنَّ ملامحه تظلّ ساكنة كالصنم، باستثناء ارتعاشة صغيرة في زاويتي شفتيه.

قال رجل الأعمال هادرًا وعيناه تتألَّقان بألق خبيث متأمِّلًا إيَّاها ليقدِّر مزاياها وصفاتها:

ـ لقد فعلتها! ماذا حدث ليدك؟ هل حاول أحد أن يخطفك؟ الغلطة غلطتك. ما كان ينبغي لك أن تتمتَّعي بكلِّ هذا الجمال!

ابتسمت بيري على الرَّغم من أنَّ المزحة جعلتها تشحب. وتمنَّت ألَّا يعلِّق هو أو أيُّ شخص آخر على ما أصاب ثوبها من تمزُّق في

مكتبة الفكر الجديد

حاشيته وبقع بسبب القهوة. لكن ما يرحم أنَّ بقع الدم كانت تبدو مثل علامات بنِّيَّة اللون غير متناسقة.

قالت:

ـ حدث لنا حادث طفيف في الطريق إلى هنا.

قطَّب عدنان جبينه قلقًا:

ـ حادث؟

قالت بيري وهي تلمس مرفق زوجها في إشارة إلى التوقُّف عن طرح أسئلة أخرى:

ـ لا شيء يُثير الاهتمام، صدِّقني.

ثم التفتت إلى رجل الأعمال وأضافت بلطف:

ـ يا لروعة منزلك!

ـ شكرًا يا عزيزتي. لسوء الحظّ، لدينا ما يكفي من الأسباب للاعتقاد أنَّ عين حسود أصابتنا. كارثة في إثر كارثة. في البدء، تفجَّرت أنابيب المياه، فغرقت الطبقة الأرضيَّة بمياه وصلت إلى كواحلنا. ثم ضربتنا صاعقة وسقطت شجرة على سطح بيتنا. أيمكنك أن تتخيّلي ذلك؟

ـ حدث ذلك كلّه في غضون الأشهر القليلة المنصرمة.

قال عدنان مقترحًا:

ـ يجب أن يكون لديك خرزة لطرد الحسد.

ـ حسنًا، لدينا ما هو أفضل من ذلك، فقد دعونا وسيطًا روحانيًّا إلى الحضور الليلة!

قالت بيري مستفسرة، لا بسبب اهتمامها بالموضوع، وإنَّما لأنَّها كانت تعلم بأنَّهما ينتظرانها كي تقول شيئًا:

ـ آه، حقًّا؟

مكتبة الفكر الجديد

ساورها شعور بأنَّ الاهتمام العامّ بالوسطاء الروحانيين والمنجِّمين ازداد مؤخَّرًا ازديادًا فظيعًا. وربَّما ليس من قبيل المصادفة أن ينتشر هذا الهوس بالنبوءات والتكهُّنات التي تطلقها النساء في الأغلب، وإن كان يطلقها أفراد من كلا الجنسين، في بلد بات فيه عدمُ الاستقرار عُرفًا سائدًا. ففي خضمّ الغموض السياسيّ المزمن وانعدام الشفافيَّة، كان المحدِّقون إلى الكرات البلُّوريَّة، المزيَّفة أو الحقيقيَّة، يؤدُّون وظيفة اجتماعيَّة بتحويل اللايقين إلى ما يشبه اليقين.

قال رجل الأعمال:

ـ يقول الناس إنَّه رائع، فهو لا يكلِّم الجانّ وحدهم، وإنَّما يأمرهم، وينفِّذون ما يأمرهم به على ما يبدو. ولديه زوجات جنِّيَّات، مجموعةٌ كاملة من الحريم!

نخر وهو يتلفَّظ بالكلمة الأخيرة، لكنَّه ركَّز عينيه في بيري عندما رآها لا تشارك في الحديث، وأضاف:

ـ ما خطبك؟ تبدو ملامحك كأنَّك شاهدت قبل قليل طيفًا.

ارتدَّت بيري غريزيًّا إلى واقعها، فقد كانت أحيانًا تفكِّر في احتمال أن يستطيع الناس قراءة ملامح وجهها، وكانت تعلم بأنَّ الرؤى تظهر لها بينما لا يستطيع الآخرون رؤيتها. لحسن الحظِّ، لم يرغب رجل الأعمال في الإصغاء إلى أيّ صوت سوى صوته شخصيًّا.

ـ أعرف أنَّ هناك سماسرة يستشيرون هذا الرجل قبل أن يشتروا الأسهم. جنون، صحيح؟ وسطاء روحانيُّون وأسواق الأوراق الماليَّة.

ثم ضحك واسترسل في كلامه:

ـ إنَّها فكرة زوجتي. لا ألومها. مسكينة، جُنَّ جنونها في إثر الأزمة الماليَّة.

انتشر ذلك النبأ في كلّ مكان انتشارَ النار في الهشيم. فقبل ستَّة

مكتبة الفكر الجديد

أشهر تقريبًا، جنحت سفينة شحن يبلغ طولها مئة متر ومترين، عند واجهة المبنى البحريَّة، وكانت مبحرة وهي رافعة عَلَمَ سيراليون، فحطَّمت السياج البحريّ والشرفة الجنوبيَّة المتقنة البناء، والتي يعود تاريخ بنائها إلى القرن الأخير من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

وكان القيصر ويلهلم الثاني قد احتسى الشاي في هذه الشرفة بصحبة باشا من الباشوات، معروف عنه شدَّة طموحاته وإعجابه بالثقافة والبسالة العسكريَّة الألمانيَّتين. وروَّج ذلك الباشا نفسُه شائعات مفادها أنَّ القيصر مسلم وأنَّ الآيات الأولى من سورة الفاتحة قُرئت في أذنه همسًا عند ولادته وقبل أن تلامس شفتاه ثدي أمِّه. وكان اسمه الحقيقيّ الحاجّ ويلهلم، صديق الإسلام وحارسه العنيد طوال عمره، وكان ذلك ذريعة تكفي لدخول العثمانيين الحرب إلى جانب ألمانيا عندما حان وقت الحرب.

وعلى تلك الشرفة التاريخيَّة أيضًا، وضع وريث تركيّ شابّ متيَّم براقصة من روسيا البيضاء هربت إلى إسطنبول في أعقاب الثورة البلشفيَّة ـ بعد أن أخفق في إقناع أسرته بتقبُّل حبيبته ـ مسدَّسَه في رأسه وانتحر. وبعد أن اخترقت الرصاصة دماغة وهشَّمت جمجمته، خرجت من خلف أذنه اليسرى واستقرَّت في شرخ في الجدار طوال ثلاثة عقود من الزمان من دون أن يعرف بها أحدٌ.

لقد شهد القصر في خضمّ أحداثه التاريخيَّة العاصفة أبطالًا يظهرون ويسقطون، وإمبراطوريَّاتٍ تنشأ وتنهار، وخرائطَ تتوسَّع وتنكمش، وأحلامًا تتحوَّل إلى هشيم. لكن، لم يسبق له أن صدمته باخرة، وشقَّت مقدِّمتها السياج واخترقت لوحة تمثِّل فخر النساء زيد من دون أن تحطِّم، ويا للعجب، ثريّا مورانو. واليوم، وتخليدًا لذلك اليوم، تتدلَّى سفينة مصغَّرة من الثريّا نفسها، مانحة بذلك الفرصةَ للضيوف لرواية القصص مرارًا وتكرارًا.

مكتبة الفكر الجديد

هتف صوت من ورائهم:

ـ آه، ها أنت هنا!

كانت صاحبة الصوت زوجةَ رجل الأعمال التي لمحت بيري، بعد أن خرجت من المطبخ بعدما أصدرت فيه الأوامر للطاهي لإعداد الطعام. كانت ترتدي ثوبًا مزركشًا باللون الأخضر الفاتح، عالي الياقة، مقوَّرَ الظهر، مصمَّمًا بحزام عند الخصر. وكان في إصبعها خاتم باللون نفسه، يسطع لمعانًا، وفيه حجر بحجم بيضة طائر السنونو. وشفتاها بلون قرمزيّ برَّاق، وشعرها معقوص عاليًا في كعكة محكمة الشدّ ذكَّرت بيري بجلد الماعز الذي يُشَدّ على آلة العزف المعروفة بالنقَّارة.

قالت بيري مقبِّلة مضيفتها على كلتا وجنتيها:

ـ حركة المرور...

كان ذلك هو العذر الوحيد الذي يلقى قبولًا مهما تأخَّر المرء. وما إن تفوَّهت بالعبارة حتى بات كلّ إيضاح آخر إطنابًا لا فائدة تُرجى منه. تأمَّلت بيري وجهَي مضيفَيْها، وارتاحت لأنَّ كلامها أقنعهما. لكن بدا واضحًا أنَّ زوجها لم يقتنع، وهو أمر قرَّرت أن تعالجه في وقت لاحق.

قالت المضيفة وهي تتأمَّل ثوب بيري بما فيه من تمزُّق وبقع:

ـ لا تقلقي يا حبيبتي، فكلُّنا نعرف هذا الشيء.

قالت بيري:

ـ لم تسنح لي الفرصة لتغيير ثوبي:

صحيح، فقد شعرت بأنَّها عارية تحت أنظار الحاضرين، لكنَّها في الوقت نفسه استمدَّت رضًا خفيًّا من إثارة كلّ فرد ولو قليلًا في حفلة محتشدة بحقائب يد من تصميم مصمِّمين عالميين، وثياب غالية الثمن.

قالت المضيفة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ استريحي، فأنت في حضرة أصدقاء. هل ترغبين في أن أُعيرك ثوبًا من ثيابي؟

تخيَّلت بيري بعد أن ظهرت بهذا المظهر في هذا المساء أنَّها على الأرجح سوف تسكب صلصة الطماطم على ثوب المرأة فهزَّت رأسها قائلة:

ـ سأكون على ما يرام. شكرًا على اقتراحك.

فقالت المرأة:

ـ حسنًا، تعالي لتناول بعض الطعام. لا بدَّ من أنَّك تتضوَّرين جوعًا.

فسأل رجل الأعمال:

ـ ماذا في وسعي أن أقدِّم لك من شراب؟ أحمر؟ أبيض؟

قالت بيري:

ـ هذا لطف منك، لكن ينبغي لي أن أذهب إلى دورة المياه.

ثم اقتفت أثر خادمة توغَّلت في أعماق القصر، وهي تشعر طوال الوقت بأنَّ عيني زوجها تخترقان ظهرها باتِّقادهما.

* * *

أوصدت بيري الباب بعد أن دخلت الحمَّام وأغلقت غطاء مقعد المرحاض وجلست عليه. وبعد أن ملأت رئتيها بالهواء مسّدت أحد صدغيها بأطراف أناملها وقد أخذ الإعياء منها كلّ مأخذ. لم تكن تملك من القوَّة والإرادة ما يجعلها قادرة على الخروج ومواجهة كلّ أولئك الناس، إلَّا أنَّها على الرَّغم من ذلك، أدركت بعد برهة وجيزة أنَّه لا بدَّ لها من أن تخرج وتواجههم. وتمنَّت لو كان في مستطاعها أن تنسلّ من نافذة الحمَّام.

مكتبة الفكر الجديد

أزاحت الضمَّاد متمهِّلة فرأت أنَّ السكِّين قد شرخت راحة كفِّها من جانب إلى الجانب الآخر. لم يكن الجرح غائرًا، ولم تكن ثمَّة ضرورة لدرزه. لكن بالرَّغم من ذلك، كان يؤلمها نتيجة أقلّ حركة، وبدأ ينزف مجدَّدًا، وينبض عند كلّ خفقة من خفقات قلبها، فارتعدت فرائصها، وشعرت بفداحة ما حدث لها. كان حلقها جافًّا كالغبار، فما كان منها إلَّا أن ضمَّدت الجرح مجدَّدًا.

حين وقفت بيري لتغسل وجهها، اتَّسعت عيناها في ذهول. فعلى مسافة قريبة منها، ثمَّة حوض ماء كبير الحجم ويحتوي على شُعَب مرجانيَّة، وفوقه نصب حوض غسل الصحون فضلًا على صنبور مياه. وفي ذلك الحوض، لاحت عشرات الأسماك الغريبة الأشكال والألوان، المتدرِّجة من اللونين الأصفر والأحمر، وهما لونا فريق كرة القدم الذي يشجِّعه رجل الأعمال. الكلّ يعرف أنَّه مشجِّع كبير له، ولديه مقصورة خارجيَّة خاصَّة به في ملعب الفريق، ويستمتع بالتقاط الصور مع أعضائه في كلّ مناسبة. وكان عازمًا على أن يكون يومًا ما رئيس النادي، ويناور بنشاط من وراء الستار ليحقِّق هذا الهدف الذي يشغل ذهنه.

رنَتْ بيري إلى الأسماك في عالمها الخاصّ بها، محميَّة ومحتفظة بنقائها وصفائها. وكان على كِلَا جانبي حوض الغسيل طاسات حمَّام فضِّيَّة ذات نقوش بارزة، تحتوي على مناشف يد مطويَّة بعناية لا تشوبها شائبة. وكانت الأرضيَّة مُحاطة بعدد من الشموع ذات اللهب المتوهِّج، الطويل والمتذبذب. تنشَّقتْ مزيجًا من روائح طيِّبة، عذبة ومفرطة في شذاها. وتنبَّهت لرائحة نفَّاذة لمزيج من المنظِّفات منبعثة من بين كلّ تلك الروائح، جعلتها تتذكَّر رائحة كريهة شبيهة بتلك التي كانت تنبعث من صمغ المتشرِّد.

مكتبة الفكر الجديد

استبدَّ بها حافز قويّ لعمل شيء ما غير متوقَّع. فقد أرادت أن تهشِّم حوض الأسماك فيتطاير الزجاج في كلّ حدب وصوب، وتنزلق الأسماك على الأرضيَّة الرخاميَّة، وهي تهزّ ذيولها، تشهق من أجل التقاط نَفَس واحد، ويُحيق بها هوس الهروب. وستمرّ في انزلاقها على امتداد الممرّ، وتمضي متعرِّجة بين أقدام الضيوف ومن حولهم، وضوء الثريَّا ينعكس على رؤوسها، وستخرج من الباب الخلفيّ وتقطع مسافة من طرف إلى طرف، وحين يتملَّكها الخوفُ من الموت المحتوم، فإنَّها سوف تعمد إلى القفز في عمق البحر حيث تجد أصدقاء وأقرباء قدامى من معاشر الأسماك، بقيت في المياه نفسها ضجرةً، ومن دون أن تشهد حياتها أيّ جديد.

وستخبر الأسماكُ القادمةُ الأسماكَ الأخرى بشعورها خلال العيش في ذلك القصر المنيف فوق البحر، مضحِّية بتلك الزرقة الشاسعة من أجل ألَّا تقلق بشأن وجبة طعامها المقبلة. وسرعان ما ستبتلع الأسماك الكبيرةُ الأسماكُ الهاربة، إذْ كيف يمكن للأسماك الصغيرة المدلَّلة الساكنة في حوض ماء رجل واسع الثراء أن تعيش في حياة خطرة؟ في أيّ حال، فهي لن تستبدل دقيقةً واحدة من الحرِّيَّة بكلِّ سنوات الأَسْر.

آه لو عثرت على مطرقة... كان عقلها أحيانًا يثير خوفها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

مـــائـــدة الـــفـــطـــور

إسطنبول ـ تسعينيَّات القرن العشرين

سلَّط اعتقالُ أوميد الضوءَ على أركان مظلمة من حالات الضعف والإخفاقات التي كانت أسرة نالبانتوغلو تُخفيها عن نفسها وعن الآخرين، على حدٍّ سواء. فكلّ من رأى أفراد هذه الأسرة، لاحظ النقص الذي شاب حياتهم بسبب غياب أوميد، لكنَّهم اختاروا أن يتظاهروا بعدم وجود تلك الثغرة الجوفاء. ولم يكن إقبال منصور على الإسراف في تناول المُسْكرات في تلك الأيَّام إلَّا نتيجةَ تلك الظروف، مثلما لم يكن شحوب وجنتي سلمى واصفرارهما اصفرارَ المصاب بفقر الدم بسبب قلَّة النوم وقلَّة الطعام المغذِّي بعد أيَّام من الصيام، في أعقاب ليالٍ أمضتها في الصلاة، إلَّا مصادفةً أيضًا.

وغدت أحلام بيري تزيدها اضطرابًا، وباتت صرخاتها أعلى صوتًا. فكانت تنام من دون أن تُطفئ الأنوار، وتحتفظ بقلادة كهرمانيَّة قرب رأسها بعد أن قرأت أنَّ الكهرمان يطرد الشياطين. لكن من دون جدوى. ففي الأحلام التي راودتها مدارسُ تشبه السجون، والسجَّانون بملامح أبيها أو أمِّها. ورأت نفسها مغطَّاةً باليرقات وفضلات الجسم، صلعاءَ الرأس، معتقلةً وسجينةً بسبب جريمة لم تعرف أنَّها اقترفتها. وكانت تستيقظ من هذه الكوابيس وقلبُها يخفق خفقانًا شديدًا، وتحتاج

مكتبة الفكر الجديد

إلى ثوان إضافيَّة لتعود إلى عالم الواقع.

تغيَّر منصور. لم يعد ذلك الشابّ الذي يحتسي الشراب برفقة عدد من أصدقائه مستدفئًا عذوبةَ الأغاني الشعبيَّة القديمة والنقاشات السياسيَّة الحيَّة، بل آثر أن يسكر منفردًا، وأن يكون الصمتُ رفيقَه الوفيَّ. مرّ زمن طويل، لكن جسده القويّ والسليم لم يُظهر ما يشير إلى تدهور صحَّته، باستثناء أنصاف الدوائر تحت عينيه، بدت كأنَّها أهلَّة قاتمة في سماء شاحبة.

ثم وقع المحظور. فقد راح منصور يستيقظ في صباح كلّ يوم ينزّ عَرَقًا ويتألَّم، وعلى مُحيَّاه ما يشير إلى إعياء، كأنَّه كان يكسِّر الأحجار في نومه. وغالبًا ما كان مشوَّش الفكر ويشعر بالغثيان. وفي محاولة لإخفاء الارتعاش الذي شَابَ جسده، نأى بنفسه عن كلّ شيء، ودفن نفسه في الصمت، أو راح يثرثر أكثر ممَّا يجب ثرثرةً لا سبيل له إلى السيطرة عليها. فقرَّرت الشركة التي يشتغل فيها إحالته على التقاعد مبكرًا حين اتَّضح أنَّه في حالة لا تسمح له بالعمل. ولمَّا أصبح بلا عمل، صار ينفق وقتًا أطول في المنزل، فشهد وضعه تغيّرًا لم ترحّب به زوجتُه أو ابنه الأصغر. وفي غمرة توجُّسه وإرهاقه العصبيّ وتهيّجه واضطرابه، أضحى أشبه ما يكون بإمبراطوريَّة مترامية الأطراف تحارب على جبهتين: الجبهةِ الشرقيَّة القديمة والمتمثِّلة في زوجته، والجبهةِ الغربيَّة الحديثة العهد والمتمثِّلة في ولده حقًّا، لكنَّه كان يخسر حربه في كِلتا الجبهتين.

كان الأب وابنه يتشاجران باستمرار، شجارًا عنيفًا ومُرًّا، ويتعالى صوتاهما الذكوريَّان المضطربان، ويتبادلان صيحات الاتِّهامات المسيئة والتي تتعالى أصداؤها من فوق مائدة الفطور علوَّ أسماك نافقة طفت على

مكتبة الفكر الجديد

سطح الماء بعد انفجار إصبع ديناميت. ظاهريًا، كان الشجار يدور بسبب قضايا تافهة، مثل ملاحظة تُثار عن قميص يفتقر إلى الذوق أو الإشراق عند شرب الشاي، إلّا أنَّ الهوّة بينهما كانت تزداد عمقًا أكثر ممَّا ينبغي لها.

كانت سلمى تقف إلى جانب ولدها الأصغر دومًا، وفي كلّ الأحوال، تقاتل بضراوة دفاعًا عن ذرِّيَّتها وليس دفاعًا عن نفسها. كانت في عنفوانها وشدَّتها أشبهَ بأُنثى الباز المدافعة عن فراخها في وجه كلّ طير كاسح معاد. وهكذا يصبح هناك اثنان في مواجهة واحد، معادلة أرغمت بيري على اتِّخاذ مواقف والاندفاع إلى نجدة أبيها، لا لشيء إلَّا لإحداث نوع من التوازن. غير أنَّها لم تكن راغبة حقًّا في الفوز، بل كلّ ما أرادته أشبه ما يكون بوقف إطلاق نار: تعليق الألم موقَّتًا.

وبُعَيد ذلك بوقت قصير جدًّا، أعلن هاكان، الذي لم يقدِّر في حياته قيمةَ التعليم الجيِّد، أنَّه سيترك الجامعة ولا ينوي العودة إلى «سقيفة الأبقار التي لا جدوى منها». وبين عشيَّة وضحاها، وفي ظلّ الغمّ والكدر اللذين كانا يخيِّمان على أبويه، أنهى أيَّام دراسته، وأحكم إغلاق عقله قبل أن يفتح. وكانَ في وسعهما أن يريا مدى استيائه من حياته ومن أولئك الذين عدَّهم مسؤولين عن تعاستها.

كان هاكان يأتي في أغلب الأيَّام ليملأ معدته الخاوية ويبدِّل ثيابه ويحظى بقسط من النوم. وكما هو شأن المنطاد الذي لا وجهة له في مهبّ الريح، حاول أن يجرِّب حظَّه في أكثر من عمل من دون أن ينجح، حتى وجد أخيرًا ضالَّته في قضيَّة من خلال مجموعة من الأصدقاء سمَّاهم «الإخوان»، وهم عدد من زملائه لديهم أفكار طنَّانة رنَّانة عن أميركا وإسرائيل وروسيا والشرق الأوسط، وكان يرى وجود نظريَّات

مكتبة الفكر الجديد

المؤامرة والجمعيّات السرّيّة في كلّ مكان. وكان هؤلاء الإخوان يسلّم أحدهم على الآخر بملامسة صدغ واحدهم لصدغ الثاني، ويتفوّهون بألفاظ رنّانة، مثل «الشرف» و«الموالاة» و«الحقّ». وأثبت هاكان في رفقتهم سرعةَ تعلُّمه، وكانت سخرية الحلقة الجديدة وتشاؤمها مناسبين له. وتمكّن بمساعدة «الإخوان» من اصطياد وظيفة في صحيفة موغلة في توجّهها القوميّ. وعلى الرّغم من إهماله المخزي في النحو واللغة، فإنّه كان يتمتّع بمهارة فطريّة في الكلمات، وتلك موهبة من مواهب الخطابة الملهبة والمثيرة. وطفق يكتب باسم مستعار أعمدة صحافيّة غدت على نحو متزايد حادّة ومتوعِّدة وهجوميّة في فحواها. وكان يميط اللثام أسبوعيًّا عن خَوَنة الأمّة؛ التفّاحِ العفن الذي سوف يُفسد كلّ ما في السلّة إن لم يعالَج أمرُه: اليهود والأرمن واليونانيّين والأكراد والعلويّين. . . ولا توجد جماعة عرقيّة واحدة يمكن لأيّ مواطن تركيّ أن يُوليها ثقته إلّا إذا كانت تركيّة. فكانت القوميّة مُناسِبة لمزاجه تمامًا كأنّها بذلة موصًى عليها بخلاف البذلة الجاهزة. كما أنّها أكّدت له أنّه ابنُ أمّة متفوّقة وسليلُ عِرْقٍ نبيل، وَقَدَرُه تحقيقُ الأعمال العظيمة من أجل الشعب، لا من أجله هو شخصيًّا. وشعر، تحت ستار هويّته تلك، بأنّه قويّ وذو مبادئ ولا يُقهَر. وبدأت بيري، وهي تشاهد التحوُّل الذي طرأ على أخيها، تُدرك أنْ لا شيء ينفخ الغرور كما تنفخه قضيّة يحفِّزها وَهْمُ إيثار الغير الخالص على نفسه.

صرخ الابن في وجه أبيه في إثر مشادّة أخرى عند تناول الفطور:

ـ أتظنّ أنّك لا تملك سوى ولد واحد في السجن؟ إنّني في هذا البيت أشبهُ ما أكون بالسجين أيضًا. إنّ أوميد محظوظ غير مضطهَد، فهو غير مضطر إلى سماع خطبك الحماسيّة في كلّ يوم.

مكتبة الفكر الجديد

فصرخ منصور وصوته يهتزّ أكثر من اهتزاز يديه:

ـ أتقول إنَّ شقيقك محظوظ أيُّها التعس الحقير؟

أصغت بيري مطأطئة الرأس، متخشِّبة الكتفين. ثمَّة شيء يرتبط بالخلاف الأُسري يشبه الإحساس بقرب حدوث انهيار جليديّ. كلمة واحدة، وإذا بالكرة الثلجيَّة تتحوَّل إلى أيّ شيء هائل في حجمه يحطِّم كلّ فرد.

غمغمت سلمى مخاطبة زوجها:

ـ دعه وشأنه، فهو شابّ لا أكثر.

ردَّ منصور:

ـ شابٌّ عديم المسؤوليَّة يعيش على مال أبيه.

ـ آه، أنت لا تريد أن أتناول طعامك. صحيح؟ حسنًا، من الآن فصاعدًا، لن أتناوله.

ثم قذف سلَّة الخبز الفارغةَ على الجدار، فنطَّت مثل كرة مطَّاطيَّة، وتناثر فتات الخبز على الأرض. وأضاف:

ـ في أيّ حال، مَن ذا الذي يريد أن يأكل خبز سكِّير؟

لم يحدث أن تفوَّه أحد بالكلمة الأخيرة من قبل. كان وصف ربّ الأسرة بالسكِّير وصفًا لا يقبله العقل، ولفظًا لا يمكن التفوُّه به، وخطأً لا يمكن تصحيحه. لكنَّ الكلمة خرجت من فم الابن الذي اندفع إلى الخارج لا يتحمَّل الصمت الذي شاع مليًّا في المكان.

انخرطت سلمى في البكاء، وراح صوتها يرتفع وينخفض في أثناء نوبات إجهاشها في مناحة وتفجُّع:

ـ حلَّت علينا اللعنةُ. على الأسرة كلّها! نعم... إنَّها لعنة.

وقالت إنَّها كانت ترى في مصيبة ولدها الأكبر عقابًا من الله

مكتبة الفكر الجديد

وتحذيرًا منه. وبما أنَّهم لم يعيروا أهمِّيَّة للرسالة الربَّانيَّة فإنَّها متأكِّدة من أنَّ لعنات أخرى سوف تحلّ على الأسرة.

قال منصور:

ـ هذا هو أسخف شيء أسمعه. لماذا يريد الربّ أن يدمِّر أسرة نالبانتوغلو؟ أعتقد أنَّ لديه أعمالًا أفضل من هذا العمل كي ينجزها.

ـ إنَّ الربّ يؤثِّر فينا في أكثر من طريقة، ويتمنَّى أن يلقِّننا... أن يلقِّنك أنت... درسًا.

ـ وما هذا الدرس؟

قالت سلمى مجيبة:

ـ أن ترى الخطأ في سلوكك. وما لم تفهم ذلك، فإنَّنا لن ننعم بالسلام.

جلس منصور متوتِّرًا في كرسيِّه.

ـ إذا كنت تعتقدين حقًّا أنَّ ما حدث لأوميد إنَّما هو عمل من صنع الربّ، وأنَّ الربّ في حاجة إلى سجون وإلى معذِّبين لتنفيذ تعاليمه، فإمَّا أنَّك مضطربة عقليًّا أيَّتها المرأة. اللعنة. وإمَّا أنَّ مفهومك عن الربّ خاطئ.

فتمتمت سلمى:

ـ التوبة! التوبة!

ولأجل أن تكفِّر سلمى عن غضب الربّ، فقد أنفقت أيَّامًا، وأحيانًا أسابيعَ، من دون تناول ما يكفي من الطعام، وكانت تكتفي بشريحة خبز وتمر وماء. تضحيات. مفاوضات معمَّقة مع الربّ. وفي الليل كانت قليلًا ما تنام، تنفق وقتها في أمرين اثنين يهدِّئان روعها: الصلاة والتنظيف. فقد كانت تلمح من على سريرها طبقة رقيقة من الغبار

الناعم على كلّ قطعة من قطع الأثاث. وكانت تُصيخ السمع إلى الأرضة وهي تقضم الخزانات الخشبيَّة. لماذا لم يتمكَّن الآخرون من سماعها؟ مسحوق الأسبرين والخلّ الأبيض وعصير الليمون وبيكربونات الصودا المستعملة في الخبز، لجأت إليها كلّها، تفرك وتشطف وتمسح وتنظِّف. وكان أفراد الأسرة يستيقظون صباحًا على رائحة المنظِّفات.

كانت سلمى تغسل يديها باستمرار، وبإلحاح يجعل رائحة المعقِّمات تنبعث منها طوال الوقت. كانت الشقوق تنتشر على جلدها الذي كان ينزف في بعض الأماكن، فازداد خوفها من التلوُّث ودفعها إلى غسل يديها مجدَّدًا وبإصرار أكبر. ولأجل أن تُخفي ما وصلت إليه حال يديها، راحت تضع قفَّازين أسودين، وتلبس حجابًا ومعطفًا طويلًا وفضفاضًا أسود اللون أيضًا يصل حتى قدميها. وفي مساء أحد الأيَّام، وفي أثناء رجوع سلمى وبيري من السوق، نظرت بيري إلى الوراء، وفي لحظة عابرة لم تستطع مشاهدة أمِّها، فقد امتزجت كلِّيًّا بالليل.

شعر منصور بالخزي والعار لما آل إليه مظهر زوجته، وتمنَّى ألَّا يراه أحد في صحبتها بعد الآن. فكان يذهب للتبضُّع بمفرده، وتذهب بمفردها بدورها. وبات مظهرها الخارجيّ تتويجًا لكلِّ ما كان يشمئزّ منه ويحتقره ويواجهه في الشرق الأوسط: جهل المتديِّنين وافتراض أنَّ حياتهم هي الأفضل، لسبب واحد لا غير، هو أنَّهم وُلدوا في كنف هذه الثقافة وتقبَّلوا من دون تمحيص كلَّ ما كانوا يُلَقَّنون به. وإلَّا فكيف تجدهم واثقين إلى هذا الحدِّ بتفوُّق معتقداتهم، في حين أنَّهم لا يعرفون إلَّا النزر اليسير، إن كانوا يعرفون حقًّا، من الثقافات الأخرى، والفلسفات الأخرى، وأساليب التفكير الأخرى؟

في حين أنَّ سلوك منصور كان يجسِّد لسلمى كلَّ ما كان يستفزّها

مكتبة الفكر الجديد

ويثيرها: التشاوف الواضح في عينيه، ونبرة الحسم في صوته، والصواب في هزَّة ذقنه. غطرسة الحداثويين العلمانيين، وسهولة الادِّعاء الرنَّان بوضع أنفسهم خارج المجتمع وفوقه، والانتقاص من إرث موغل في القِدَم. كيف يمكنهم وصف أنفسهم بأنَّهم متنوِّرون في حين أنَّهم لا يعرفون إلَّا الشيء القليل، إن كانوا يعرفون شيئًا حقًّا، عن ثقافتهم وعن ديانتهم؟

صار العبوس يلفّ وجهَي الزوج والزوجة خشية أن يضطر أحدهما إلى أن يكلِّم الآخر، فكانا يمرَّان، أحدها قرب الآخر، من دون أن يتلامسا. وصارا يعوِّضان افتقارهما إلى الحبِّ، بالاشمئزاز. في الأثناء، وجدت بيري عزاءً في الأدب: قصص قصيرة وروايات وقصائد ومسرحيَّات... وراحت تلتهم كلّ ما يقع تحت يديها في المكتبة المتواضعة في المدرسة.

وحين لم تجد شيئًا آخر للقراءة، تقرأ دوائر المعارف. وعرفت أمورًا أخرى، بدءًا بآرد فارك وانتهاء بزومبي[1]، وإن لم تعد هذه أمورًا

(١) آردڤارك وزومبي (Aardvark to Zombie): آردفارك هو خنزير الأرض، أو ما يُعرف بأبي ذقن، وهو حيوان ثديي أفريقيّ من آكلات النمل، كثيف الشعر، ضخم البدن والأذنين، قوي المخالب. المقطع الأوَّل من الكلمة أفريقيّ الأصل، قديم الاستعمال ويعني الأرض، ودخل الاستعمال في اللغة الهولَّنديَّة الوسيطة. أمَّا المقطع الثاني منها فيعني خنزيرًا بالهولَّنديَّة أيضًا، في حين أنَّ كلمة زومبي ذات معان مختلفة، منها: ١ ـ الأفعى المؤلَّهة في الديانة الودونيَّة (voodooism)، وتنتشر في أفريقيا الغربيَّة وهايتي وجنوبي الولايات المتَّحدة الأميركيَّة؛ ٢ ـ قوَّة طبيعيَّة يزعم المعتقد الودوني أنَّها تدخل أجساد الموتى فتحييها. لكن هؤلاء الأحياء لا يستعيدون القدرة على الكلام وحرِّيَّة الإرادة، والشخص الزومبي يتحرَّك كما لو كان شخصًا آليًّا؛ ٣ ـ أخيرًا تعني الكلمة شرابًا مُسْكرًا يتألَّف من عصير الفاكهة ومزيج من الخمور المختلفة. يرجّح أنَّ أصل الكلمة من الكونغو (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

قيد الاستعمال الراهن في حياتها، لكنَّ الأمل ساورها في أن تستفيد منها يومًا ما في القريب العاجل.

بيد أنَّها واظبت على القراءة حتى إن كانت الأشياء التي تطَّلع عليها بلا فائدة، مدفوعةً إلى ذلك بحبِّ التعلُّم وتعطُّشها إليه. كانت الكتب سببًا من أسباب التحرُّر، وهي مفعمة بالحياة. وكانت تفضِّل أن تكون في أرض الرواية لا في أرض الأمّ. لهذا تراها ترفض مغادرة حجرتها في عطلات نهاية الأسابيع، تقضم التفَّاح وحبوب زهر دوَّار الشمس، وتنهي قراءة الروايات المستعارة، الواحدة تلو الأخرى. واكتشفت أنَّ الذكاء، شأنه شأنُ العضلات، يحتاج إلى تمارين ومستويات أعلى من الجهد إذا ما أرادت لذلك الذكاء أن ينمو نموًّا كاملًا. وبسبب عدم قناعتها ورضاها عن الحفظ غيبًا من غير فهم في المدرسة، فقد ابتكرت طرائقَ لفظيَّة وصُوَريَّة من عندها لحفظ المعلومات: أسماء الكواكب باللغة اللاتينيَّة؛ أبيات من الشعر باللغة الإنكليزيَّة؛ تواريخ الحروب ومعاهدات السلام وحروب أخرى يحفل بها التاريخ العثمانيّ. ووطَّنت العزم على التفوُّق في كلّ مادَّة وموضوع، بدءًا بالأدب والرياضيَّات والفيزياء، وانتهاءً بالكيمياء. وتخيَّلت موضوعات مختلفة، مثلَ الطيور المداريَّة المحفوظة في أقفاص منفصلة جنبًا إلى جنب. وفكَّرت في ما قد يحدث لو أنَّها صنعت ثقوبًا في الشبكة السلكيَّة وهربتِ الطيور محلِّقة إلى الأقفاص المجاورة، واحدًا في إثر الآخر. وتاقت نفسها إلى رؤية الرياضيَّات، وقد أضحت رفيقةَ الأدب، والفيزياء رفيقة الفلسفة. في أيّ حال، مَنْ ذا الذي قرَّر أنَّه لا يمكن الجمع بينها؟

أدركت بيري أنَّ هوسها بالدراسة نأى بها بعيدًا عن أندادها، وجعلها موضع حسد وضغينة وخصومة. غير أنَّ الوضع كان يناسبها

مكتبة الفكر الجديد

تمامًا. وكما هو شأن أفراد أسرتها، كانت تنزع إلى الوحدة والتوحُّد. ولم تمانع في أن تطلق عليها البناتُ صفةَ طفلة المعلِّمة المدلَّلة؛ ولم تمانع إذا لم توجَّه إليها دعوة إلى حضور حفلات عيد ميلاد البنات، أو ألَّا يطلب منها صبيان محبوبون الخروجَ وإيَّاهم وارتيادَ دُور السينما. كانت حياة التنوير العقليّ، أو المُثل العليا، أو الحبّ، ذات مغزى في نظرها، أمَّا التسليةُ فغيرُ مخلوقة لها.

وكما هي حال كلّ منبوذ، فإنَّها سرعان ما سوف تكتشف أنَّها ليست بمفردها على هذه الحال. ففي كلّ فصل مدرسيّ، ثمَّة عدد من هؤلاء الذين ظلُّوا في أماكنهم خارج التاريخ والزمان لمختلف الأسباب، ولم يصادقوا أحدًا. وكان كلّ واحد من هؤلاء يستدلّ من فوره على أمثاله. فالمنبوذ يعرف غيره من المنبوذين على وجه السرعة. مثلًا: صبيٌّ كرديٌّ يصبح موضع سخرية زملائه بسبب لكنته، أو فتاةٌ نما الشعر في وجهها، أو فتاةٌ أخرى في مرحلة دراسيَّة أدنى لا تقدر على التحكُّم في مثانتها حين يساورها القلق في الامتحانات، أو صبيٌّ راجت شائعات بأنَّ أمّه منغمسة في المتع الحسِّيَّة... وهكذا، عقدت صداقات جيِّدة مع هؤلاء جميعًا، إلَّا أنَّ الرفاق الحقيقيِّين كانوا الكتبَ بالرَّغم من ذلك كلّه، وكان الخيال ملاذَها وبيتَها ووطنَها ومنفاها.

وهكذا، انهمكت في القراءة والدراسة وانتهى بها المطاف إلى أن تكون متفوِّقة والأُولى في صفِّها المدرسيّ، فصلًا من بعد فصل. وكلَّما وجدت نفسَها في حاجة إلى تعزيز ثقتها بنفسها، كانت تلجأ مسرعة إلى والدها. وكان منصور يُسدي إليها النصيحة نفسها: «التعليم يا روحي. التعليم هو الذي سينقذنا. أنتِ فخر أسرتنا التي لا تعرف الفرحة، والآن ينبغي لك أن تتلقِّي تعليمك في بلاد الغرب. هناك عدد كبير من

مكتبة الفكر الجديد

الجامعات الممتازة في أوروبا، لكنَّني أريدك أن تذهبي إلى أوكسفورد. وهناك ستملئين رأسك بالمعرفة، وبعدها سوف ترجعين إلينا. أمثالك من الشبَّان هم وحدهم القادرون على تغيير مصير هذا البلد العجوز».

كان منصور قد التقى في أيَّام شبابه طالبًا من أوكسفورد ممَّن يحملون حقائبهم على ظهورهم. وكان الرجل ممَّن يُعرفون بالهپيين، نحيلَ الجسم، ممتقعَ الوجه، فشعر منصور من فوره بألفة ووئام تجاهه. وكان هذا الرجل يخطِّط للسفر إلى تركيا بمفرده على متن درَّاجته، وتباهى بأنَّه يحتفظ بكلِّ نقوده داخل جاربيه ليصدّ عنه النشَّالين ولصوص الفنادق. وقد أصرّ منصور على مرافقته خشية أن يحدث شيءٌ ما لهذا الأجنبيّ الساذج، وهكذا اجتاز الاثنان شبه جزيرة الأناضول معًا، وبعدها عبر البريطاني الأشقر الشعر الحدود إلى إيران. ولم يعرف منصور ماذا جرى له، إلَّا أنَّه لم ينسَ دهشته لرؤية بلده في عيون هذا المواطن الغربي. وكانت المرَّة الأولى التي أدرك فيها أنَّ ما يبدو اعتياديًّا له قد لا يكون كذلك بالضرورة في عيون الغرباء. وأدرك أوَّل مرَّة أيضًا أنَّ هناك «عالَمًا خارجيًّا». وها هو الآن يريد أن يعلِّم ابنته هناك. تلك رغبته الجامحة: أن تنقذ بيري، ومئات الشبَّان من أمثالها، المتخرِّجين المتعلِّمين والمثاليِّين والتقدُّميين في تفكيرهم، هذا البلدَ من تخلُّفه.

كانت بيري تفهم وتتقبَّل أنَّ بعض الفتيات وُلدنَ ليحقِّقن رسالة: أن ينقذن أحلامَ آبائهنّ. وبهذا ينقذن بلدَهنَّ أيضًا.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

رقصة تانغو برفقة عزرائيل

إسطنبول ـ تسعينيَّات القرن العشرين

في فصل الصيف الذي بلغت فيه بيري سنّ الحادية عشرة، حقَّقت والدتها حلمًا طال انتظاره، وذلك بالذهاب إلى المملكة العربيَّة السعوديَّة لأداء فريضة الحجّ. كان شقيقها الأكبر لا يزال رهن السجن، وشقيقها الأصغر يسكن في بيت لا يعلمه إلَّا الله، فبقيت هي ووالدها يدبِّران أمور المنزل. فكانا يُعِدَّان بنفسيهما طعامَهما المؤلَّفَ من الكفتة والبطاطس المقليَّة ظهرًا، والكفتة والمعكرونة عشاءً، ويغسلان الصحون ويشطفانها قليلًا، ويشاهدان أيّ برنامج يروق لهما من على شاشة التلفاز كأنَّهما في إجازة، بل أفضل حالًا من أيّ إجازة.

في يوم الذهاب إلى السوق المحلِّيَّة، استيقظت بيري من نومها في إثر شعورها بالغثيان. فأمسكت بطنها يساورها الظنّ أنَّ الكفتة والمعكرونة أثّرتا فيها أخيرًا، وعليها أن تذكِّر والدها بتغيير الطعام. إلَّا أنَّ المفاجأة كانت في انتظارها في الحمام، إذْ شاهدت بقع الدم على لباسها الداخليّ، حمراء داكنة أكثر ممَّا ينبغي لها، لكنَّها كانت تعرف أنَّها دماء. كانت أمّها قد حذَّرتها من أنَّ هذا الأمر سيحدث لها، وإذا ما حدث فعلًا، فعليها أن تكون حذرة مع الصبيان، قائلة: لا تدعيهم يلمسونك. كان ذلك سابقًا لأوانه! ففي المدرسة، كانت تسترق السمع

مكتبة الفكر الجديد

وهي تصغي إلى فتيات أكبر سنًّا منها، يتذمَّرن قائلات بابتهاج ومرح: «لقد عادت عمَّتي!» وكانت إحداهنَّ تطلب من الأخرى، وهنَّ مسرعات على الدرج: «هل في وسعك أن تنظري إلى ظهري؟». ثمَّة فتاة معيَّنة في صفِّها زعمت أنَّها تمرُّ بالدورة الشهريَّة على الرَّغم من أنَّها كانت تكذب. وأصبحت بيري في ذلك، كما هو شأنها، الأولى بين زميلاتها. فقد نضجت بسرعة أكبر ممَّا ينبغي لها في العام الماضي، بغض النظر عن الجهد الذي بذلته في إخفاء ذلك. وقيل لها مرَّات ومرَّات إنَّها جميلة، وعليها أن تفهم أنَّ هذا هو تصوُّر الناس عنها. إلَّا أنَّ تصوّرها كان مختلفًا حقًّا، وكانت تتمنَّى لو أنَّ شعرها أسود كالليل بدلًا من البنِّي الفاتح، وأن يكون جسدها مستقيمًا بدلًا من هذه التقوُّسات التي بدأت تظهر مؤخَّرًا. وكانت تتمنَّى لو أنَّها وُلدت طفلًا ذكرًا ثالثًا في الأسرة، لأنَّ من شأن الحياة حينها أن تكون أسهل لو كانت صبيًّا.

عثرت على ملاءة سرير قديمة ونظيفة وقصَّتها شرائط صغيرة. فلو استعملتها بَقْدر وحكمة لما اضطرَّت إلى أن تخبر أمّها بأيِّ شيء، إذْ في وسعها أن تغسلها وتجفِّفها وتستعملها مجدَّدًا على النحو الذي كانت تعلم بأنَّ عددًا كبيرًا من نساء البلد يلجأن إليه. وبهذه الطريقة، يمكنها أن تخفي الحقيقة إلى أن تبلغ سنّ الرابعة عشرة، وهي السنّ التي عدّتها ملائمة لحدوث أوّل دورة من دوراتها الشهريَّة. لا بدَّ من أنَّ ثمَّة خطأً ما في الحسابات، فقرَّرت أن تصحِّحه.

عادت سلمى بعد مضيّ أسبوعين أشدَّ هَزْلًا ونحولًا، وأكثر سمرة. وتهالكت على الأريكة وراحت تروي قصَّة رحلتها إلى مكَّة. كلماتُها تتسارعُ تَسارعَ جيادها الخزفيَّة إن كانت فيها ذرَّة من الحياة.

واسترسلت موضحة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ في السنة الفائتة، حدث تدافع داخل نفق المشاة في المدينة المقدَّسة، فلقي أكثر من ألف شخص حتفهم. واليوم أصبح السعوديُّون حذرين، لكنَّهم لا يستطيعون الحيلولة دون الإصابة بالأمراض. فقد مرضتُ مرضًا شديدًا جعلني أفكِّر في أنَّني سوف أموت، في ذينك المكان والزمان تمامًا.

قال منصور:

ـ آه، يسرّني أنَّك لم تموتي، ويسعدني أنَّك رجعت.

قالت سلمى متنهِّدة:

ـ أشكر الله أنَّني عدت. لو لم أتماثل إلى الشفاء لكنت وُوريت في الثرى في المدينة على مقربة من مرقد النبي ﷺ.

فقال منصور هازئًا:

ـ إنَّ مقابر إسطنبول ذات إطلالة أجمل، فنحن لدينا هواء بحري نقي. ولو دُفنت في المدينة لغطُّوك بجذع نخلة. أمَّا في إسطنبول فيمكن وضع المصطكاء أو الزيزفون أو القبقب... أمَّا الياسمين فهو رائع. وستجدين نفسك تستحمِّين بالعطور طوال السنة.

جفلت سلمى من عبارات زوجها كأنَّها جمرات حارقة مقذوفة عليها من النار، فتدخَّلت بيري في الحديث خشية أن يتشاجرا مجدَّدًا:

ـ ماذا يوجد في حقيبتك يا أمَّاه؟ هل أحضرت لنا أيّ شيء؟

فجاءها الجواب:

ـ لقد أحضرت كلّ ما في مكَّة!

تربَّع منصور وبيري في مجلسيهما، مُشرقَي الوجهين، كأنَّهما طفلان مترقِّبان. وبدأ فتح الرزم: تمر وعسل ومسواك وعطور وسجَّاد

مكتبة الفكر الجديد

صلاة ومسك وسبَّحات ولفَّاعات وماء زمزم في قنانٍ صغيرة.

استفسر منصور وهو يهزّ إحدى القناني:

ـ كيف تعرفين أنَّ هذا الماء مقدَّس؟ هل ثمَّة من يصدِّق عليه؟ ربَّما باعوك ماء صنبور.

وهنا أمسكت سلمى بالقنِّينة وفتحتها وشربت محتوياتها بجرعة واحدة، وقالت:

ـ إنَّه ماء زمزم نقيّ، لكن عقلك هو الوسخ.

هزّ منصور كتفيه قائلًا:

ـ لا بأس.

ثم أشارت بيري إلى علبة وسألت:

ـ وماذا في هذه العلَّبة يا أمِّي؟

اتَّضح أنَّ العلَّبة تحتوي على ساعة جداريَّة مصنوعة من البرونز بهيئة مسجد وبأبعاد مقدارها ٤٥ × ٥٠ سم، وفيها رقَّاص يتمايل، ومنائر على كلا الجانبين. وأوضحت سلمى أنَّ في الإمكان برمجة الساعة كي تُعلن عن مواقيت الصلاة في ألف مدينة في مختلف أرجاء العالم. ثم علَّقتها بمسمار في حجرة الجلوس في اتِّجاه القبلة وقبالة لوحة تمثِّل أتاتورك.

قال منصور:

ـ لا أريد مسجدًا تحت سقفي.

فردَّت سلمى جوابًا سريعًا ولاذعًا:

ـ آه حقًّا؟ أمَّا أنا فمضطرَّة إلى العيش مع ملحد تحت سقفي.

ـ حسنًا، إنَّ نصف آثامي الآن هي آثامك. فلو لم تُحضري هذا الشيء لما كفرت. ارفعي الساعة من مكانها.

مكتبة الفكر الجديد

صرخت سلمى:

ـ لن أرفعها. فأنا التي اخترتها ودفعت ثمنها وحملتها على امتداد الطريق من الأرض المقدَّسة. لقد داهمني المرض هناك، وكنت أوشك على الموت. إنَّني حاجّة، فأظَهِرْ لي قَدْرًا ضئيلًا من الاحترام!

كانت تلك المرَّة الأولى التي سمعت فيها بيري والدتها تزعق في وجه أبيها زعيقًا يشبه الانفجار، وخصوصًا أنَّه صادر عن امرأة كان تمرُّدها الأساس على مدى سنوات يتمثَّل إمَّا في صمت رزين، وإمَّا في أسلاك شائكة منخفضة العلوّ بينها وبين زوجها. وظلَّت الساعة في موقعها ـ على الرَّغم من صمتها ـ فكان ذلك تنازلًا لم يُدخل السعادة قلبَ أيٍّ من الاثنين.

حبس منصور نفسه بقيَّة النهار، واستسلم للعبوس والسكوت. وفي مساء ذلك اليوم، حدث قطع في التيَّار الكهربائيّ استمرَّ ساعات. فما كان من منصور إلَّا أن اتَّخذ مجلسه من حول مائدة العرق في وقت مبكر على خلاف عادته، وبين صورة أتاتورك وساعة الصلاة، تراءى وجهه الشاحب تظلِّله ظلال شمعة موقدة. قال إنَّه يشعر بأنّه ليس على ما يرام، ثم وضع يده على موضع قلبه كأنَّه يلقي التحيَّة على مخلوق غير مرئيّ ومال برأسه إلى الجانب وسقط.

كانت نوبة قلبيَّة.

لن تنسى بيري طوال السنوات التي عاشتها كيف أنَّ الليلة ازدادت اكتئابًا واكفهرارًا بمرور الدقائق. وبينما هي تراقب في هلع والدها وقد هوى مثل مانيكان من دون حياة، وضرب رأسه المائدة، ومنها حُمل ونُقل إلى الأريكة، وبعد ذلك وُضع فوق مِحَفَّة وأُدخل سيَّارة إسعاف هرعت به إلى جناح الطوارئ وبعدها إلى صالة العمليَّات ذات الآلات

مكتبة الفكر الجديد

التي تتردَّد أصواتها من كلّ جانب، فإنَّ الشيء الوحيد الذي تمكَّنت من التفكير فيه، مرارًا وتكرارًا، هو أنَّ كلّ ما حدث كان عقابًا من الله. لقد كان مثل هذا التساؤل يوقع الرهبة في النفس وقعًا لا يمكن الإفصاح عنه بصوت مرتفع، بل يجب ازدراده. كانت تودّ لو كان في وسعها أن تطرحه على أمّها التي كانت تجهش باكية إلى جانبها، إلَّا أنَّها كانت تهاب الإجابة التي قد تسمعها منها. هل هذا هو أسلوب الله؟ ففي البدء يسمح لك بالتجديف وإلقاء النكات من غير حسيب، ثم يجعلك تدفع الثمن. لاح الأمر لبيري كأنَّه كان ينتظر حتى تأثم ليتمكَّن من صبِّ جام غضبه عليك. هل لغة الربّ هي لغة انتقام؟

ثمَّة فكرة ملحَّة أخرى تضايقها وتنخر فيها. فقد كانت بيري مقتنعة في أعماقها بأنَّ النوبة القلبيَّة التي أصابت والدها إنَّما كانت بسبب دورتها الشهريَّة، وذلك من خلال سلسلة دائريَّة من الأسباب في الكون، إذْ ما سبب نزفها على هذا النحو المبكر في حين أنَّ والدتها خارج البلد؟ لقد كان الخطأ، كلّ الخطأ، متمثِّلًا في محاولتها أن تصبح ستّ البيت. وفكَّرت في أنَّ السبب يرجع أيضًا إلى أنَّها كلَّما أسرعت في النضوج والتقدُّم في السنِّ فإنَّ والدها قد يموت في وقت أقرب.

جلست بيري وسلمى في حجرة الانتظار في المستشفى، فوق أريكة متهالكة، واخترق خيط من نور القمر النوافذَ ليطغى عليه وهج مصابيح الفلورسنت الكهربائيَّة. كان التلفاز يعرض، وإن صامتًا، صورة امرأة ترتدي ثوبًا أحمر اللون وتدير عجلة الحظّ، فخاب أملها لمَّا رأتها توقَّفت عند كلمة «مفلسة». فانفجر الحارس المكلَّف بالحراسة في ذلك الوقت ضاحكًا ضحكة ملؤها السرور، وكان الرجل ضخمًا كثّ الشارب، والوحيدَ الذي يشاهد البرنامج في الغرفة.

قالت سلمى:

ـ سأذهب للصلاة.

ـ هل لي أن آتي وإيَّاك.

حدَّقت سلمى إلى ابنتها، إذ لم تكن تتوقَّع هذا الطلب إلَّا نادرًا.

ـ سيكون ذلك أمرًا حسنًا، فالله يصغي إلى صلوات الصغار.

أومأت بيري برأسها كما ينبغي للطفلة المطيعة أن تومئ. فهي، باستثناء بعض الأذكار التي تعلَّمتها استظهارًا في المدرسة، لم تؤدِّ شعائر الصلاة قطّ في ضوء رغبتها في أن تلتزم جانب والدها في كلّ القضايا التي تخصّ الدين. أمَّا منصور، فكان على العكس من زوجته، يصلِّي صلاة موجزة تخلو من المظهر الاحتفاليّ. ولم يستعمل كلمة الله (Allah) إلَّا نادرًا، مفضِّلًا استعمال كلمة Tanri المرادفة لها. أمَّا الآن، فقد أصبحت بيري مستعدَّة لأن تفعل ما تفعله بحسب طريقة أمّها، وهي مستعدَّة لفعل أيّ شيء لإنقاذ حياة أبيها، حتى خداعه.

في المرافق الصحِّيَّة عمدت المرأة والابنة إلى الوضوء والمضمضة وغسل الوجهين والأيدي والأقدام. كان الماء شديد البرودة، قارسًا، غير أنَّ بيري لم تتذمَّر، إذْ عدّت هذا الطقس مقدّمة للحديث مع الربّ. لم تكن هناك غرف مخصَّصة للصلاة في هذه الردهة من المستشفى، فلجأتا بدلًا من ذلك إلى ركن من أركان غرفة الانتظار، وكان التلفاز لا يزال يعرض البرنامج صامتًا، والمرأة ذات الرداء الأحمر ما زالت مصمِّمة على الربح.

ولمَّا لم تكن هنالك أيّ سجَّادة للصلاة، استخدمتا كنزتيهما وفرشتاهما على الأرض. وكرَّرت بيري كلّ ما كانت تفعله والدتها كأنَّها صدًى متأخِّر. وهكذا، كما شبكت سلمى يديها على صدرها، شبكت

مكتبة الفكر الجديد

بيري يديها أيضًا. وركعت سلمى ووقفت معتدلة وسجدت ولامس رأسها الأرض، ففعلت بيري مثلها. إلّا أنَّ هناك فارقًا جوهريًّا واحدًا، فقد كانت شفتا سلمى تتمتمان على الدوام في حين لبثت شفتا بيري من دون حراك. وفكَّرت في أنَّ مثل هذا التصرُّف قد لا يُرضي الله، لأنَّ الصلاة الصامتة ترقى إلى مستوى الرسالة الفارغة، وتشبه مظروفًا فارغًا لا شيء في داخله. ولمَّا لم يكن هناك أحد مهتمّ بتسلُّم مثل هذه الرسالة، فقد فكَّرت في أنَّه يتعيَّن عليها أن تقول شيئًا ما. وهكذا، وبعد تفكير طويل، جاءت كلماتها على هذا النحو:

«أيُّها الربّ العزيز

«تقول أمّي إنَّك تراقبني طوال الوقت، وهذا أمر لطيف، أشكرك عليه، لكنَّه يثير الأعصاب لأنَّني أحيانًا أرغب في أن أنفرد بنفسي. وتقول أمّي إنَّك تسمع كلّ شيء، حتى عندما أُكلِّم نفسي، وحتى الأفكار التي تدور في رأسي. فأنت تشاهد كلّ هذه الأمور وهي تحدث. هل يمكنك رؤية طفل الضباب؟ لا أحد يراه سواي على الرَّغم من أنّني متأكِّدة من أنَّك تراه.

«في أيّ حال، إنَّني أفكِّر في أنَّ أعيننا الصغيرة سوف تستغرق منَّا ثانيةً واحدة كي ترمش، أمَّا عيناك فلا بدَّ من أنَّهما كبيرتان، ولا بدَّ من أنَّك تستغرق في الأقلّ ساعة كي تُطبق جفنيك، وربَّما في ذلك الوقت لا يمكنني النظر إلى أبي. عندما أزعل من شخص ما، يقول لي أبي: «أنت لست طفلة، وفي وسعك أن تغفري». فإذا كنتَ غاضبًا من أبي، فإنَّني أتوسَّل إليك أن تغفر له وتمنحه الصحَّة والعافية، فهو رجل طيِّب. وهل يمكنك من الآن فصاعدًا أن تغضّ البصر عنه كلَّما ارتكب خطيئة؟

«أعدك بأنَّني سوف أبدأ الصلاة من جديد. سوف أصلِّي في كلّ

ليلة طوال ما تبقَّى من حياتي. آمين».

لاحظت بيري، وهي جاثمة على كنزتها الصوفيَّة، أنَّ أمَّها تُدير رأسها يمنة ويسرة وتفرك يديها على وجهها منهية صلاتها بذلك، فما كان منها إلَّا أن كرَّرت ذلك، ومختتمة رسالتها السرِّيَّة على ذلك النحو.

في صباح اليوم التالي، أجلسوا منصور معتدلًا على السرير، محاطًا بالوسائد، مناكدًا زوَّارَه. وبعد مضيّ بضعة أيَّام، خرج من المستشفى بعد دفع مبالغ طائلة، ووضع منظِّم ضربات القلب الذي يعمل بالبطَّاريَّة في قلبه. ونصحوه بالإقلاع عن الشراب والنأي بنفسه عن الإجهاد، كأنَّ الإجهاد قريب بغيض من الأقرباء يمكن للمرء ألَّا يوجّه إليه دعوة إلى حضور العشاء. في أيّ حال، لم يأخذ منصور بالنصائح. وبعد أن رقص رقصة التانغو برفقة ملك الموت عزرائيل، زعم أنَّه لم يعد يخشى شيئًا بعد الآن.

كان هذا المشهد يتسرَّب في أحلام بيري، مشهدُ والدها الشاحب يرقص رقصة سريعة مفعمة بالحيويَّة بصحبة هيكل عظميّ، ليتبيَّن بعد ذلك أنَّها أحلامه أيضًا.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

القصيدة

إسطنبول ٢٠١٦

وقفتْ بيري ساكنة داخل حمَّام المنزل البحريّ، محدِّقة إلى نفسها في مرآة مزركشة، فرأتْ أنَّ مظهر الهدوء ورباطة الجأش اللذين احتفظت بهما قرب ابنتها قد اختفيا الآن، وحلَّ محلَّهما جَزَعٌ وقلق. فوحدة الأسماك في حوضها دفعتها إلى التفكير في الأشكال التي تراها في أفلام الرسوم المتحرِّكة، العالقةِ في يأس في جزيرة صحراويَّة، ومع هذا لم تفكِّر في الهروب. هل في وسعها السباحة والابتعاد عن هذا المكان؟ إنَّ العادات اليوميَّة تتغيَّر وتتبدَّل، والشخصيَّاتِ تتلبَّس أشكالًا جديدة، والولاءات تُنبَذ، والصداقاتِ تنهار، بل إنَّ حالات الولع الشديد والإدمان على شيء معيَّن تتعرَّض للازدراء. غير أنَّ أصعب شيء يُراد تغييره في الحياة كان متمثِّلًا في التصاق المرء بمكان من الأمكنة.

تناهى إلى سمعها صوتُ ضحكة خافتة منبعثة من الجانب الآخر للباب. فقد كان رجل الأعمال يلقي نكتة، بصوت يعلو أصوات الضجيج. وفاتت على بيري العبارةُ المهمَّة التي تُحدث الأثرَ المطلوب في النكتة، والتي كانت بسبب ردَّة الفعل فجَّةً، نابيةً وبذيئة.

وطرق سمعها صوتٌ أنثويّ، مؤنِّبًا ومناكدًا في الوقت نفسه:

ـ آه، أيُّها الرجال!

مكتبة الفكر الجديد

أطبقت بيري شفتيها، فهي لم تكن يومًا امرأةً في وسعها أن تقول للحاضرين كي يسمعوا كلّهم، وبهذه النبرة الغزليَّة: آه، أيُّها الرجال!

كانت دومًا تنجذب إلى الناس، رجالًا كانوا أم نساءً، الذين يتَّصف ماضيهم بتجارب قاسية، وثمَّة شكٌّ في عيونهم، وجروحٌ غير مرئيَّة في أرواحهم. كانت قويَّة في زمنها ووفيَّة إلى أبعد الحدود، تصادق هذه القلَّة القليلة بحبٍّ والتزام لا يعرفان الكلل. لكن يُضاف إلى كلّ هؤلاء، الذين يشكِّلون أغلبيَّة إلى حدٍّ ما، أنَّ اهتمامها سرعان ما انقلب إلى سأم وضجر. وفي هذه الحالة، فإنَّ كلّ ما كانت تبغيه هو الهروب: تحرير نفسها من ذلك الشخص؛ من ذلك الحديث؛ من تلك اللحظة. وساورها تخمين، أو حَدْس، في تلك الليلة، بأنَّ السأم سيكون قرينها في ذلك العشاء البورجوازيّ، ولأجل معادلته أو موازنته، وعدت نفسها بأن تجد لها بعض الألعاب الصغيرة كي تلعبها، تسليةً لها وحدها.

أسرعت في سكب الماء على وجهها. ولو لم يكن قلم حمرتها قد تهشَّم وعلبةُ ألوان ظلال العين قد ضاعت في الزقاق، لرغبت حقًّا في وضع مساحيق التجميل مجدَّدًا. وبعد أن مشَّطت شعرها بأصابع يديها سريعًا، تفحَّصت شكلها في المرآة مرَّة أخرى، فرأت الوجه الذي ينعكس عليها وينظر إليها وجهًا ممتقعًا، جَزِعًا، وجهَ امرأة فقدت شيئًا من دون أن تعرف ما هو. فتحت الباب، فرأت لدهشتها ابنتها واقفة تنتظرها.

ـ أبي يسأل أين أنت؟

ـ كنت مضطرَّة إلى أن أغتسل قليلًا.

ثم استأنفت كلامها بعد هنيهة:

ـ ماذا قلت له؟

مكتبة الفكر الجديد

شاهدتْ بيري في عينَيْ دينيز ومضةَ مودَّة وحنان قبل أن تحلّ محلَّها لامبالاةٌ. قالت:

ـ لا شيء.

ـ شكرًا لك يا حبيبتي. لندخل.

قالت دينيز ممسكة بشيء ما بيدها:

ـ انتظري، لقد نسيت هذه.

لم تكن بيري مضطرَّة إلى أن تنظر نظرة أكثر دنوًّا حتى تعرف أنَّها الصورة المفقودة. لقد فتَّشت عنها في كلّ أرجاء ذلك الزقاق الخانق، غير أنَّ دينيز هي على الأرجح التي لمحتها أوَّلًا ودسَّتها في جيبها. والآن سألت الابنةُ أمَّها:

ـ كيف شاءت الظروف ألَّا يكون لي علم بها؟

ثمَّة أربع شخصيَّات في تلك اللقطة. الأستاذ وطالباته، شخصيَّاتٌ سعيدةٌ مفعمة بالأمل والاستعداد لتغيير وجه العالم، وغيرُ مدركات، لفرط بهجتهنَّ، ما يخبِّئه الغد لهنَّ. وتذكَّرت بيري اليوم الذي التُقطت فيه الصورةُ، كان أسوأَ فصل شتاء يمرُّ على أوكسفورد طوال عقود من الزمان. تذكَّرت ذلك كلّه: صباحات باردة تسحق العظام، وأنابيب مياه متجمِّدة، وضفاف مكسوَّة بالثلوج، وإكسير الحبّ المنعش يسري في جسدها. ولم تشعر بأنَّها أكثر حيويَّة ونشاطًا من ذلك الوقت.

ـ من هؤلاء الناس يا أمَّاه؟

قالت بيري محتفظة بهدوئها، هدوئها التامّ:

ـ إنَّها صورة قديمة.

قالت دينيز بصوت مثقل بحبِّ الفضول والشكّ:

ـ أهذا هو السبب الذي يدفعك إلى حملها في حافظة نقودك؟ إلى جانب صور أبنائك؟ من هؤلاء إذن؟

أشارت بيري إلى إحدى الفتيات في الصورة، وكانت تضع على رأسها وشاحًا قرمزيًّا بهيئة عمامة أنيقة الشكل، وعيناها يُحيط بهما الكحل الغامق الذي يصل إلى حاجبيها.

ـ هذه منى. طالبة أميركيَّة من أصل مصريّ.

تأمَّلت دينيز صامتة ومركِّزة في الصورة في حين أردفت بيري بعد أن سلَّطت نظرتها إلى شخصيَّة مدهشة، لافتة للنظر، ذات شعر أسود كثيف، تعلو وجهها مساحيقُ التجميل، وتنتعل حذاء طويل الساقين وعالي الكعبين:

ـ الفتاة الأخرى هي شيرين، وهي من أسرة إيرانيَّة، لكنَّ الأسرة تنقَّلت كثيرًا حتى لم تعد الفتاة تشعر بأنَّها تنتمي إلى أيّ مكان.

ـ وكيف التقيتهما؟

مرَّت لحظة من الزمان قبل أن تُجيب بيري:

ـ كنَّا صديقات جامعيَّات. نسكن في البيت نفسه، وندرس في الكلِّيَّة نفسها، ونتلقَّى المحاضرات نفسها، لكن ليس كلّنا في الوقت نفسه.

ـ وما كان موضوع المحاضرات؟

ابتسمت بيري ابتسامة باهتة، ولاحت الذكريات في كلّ قسمات وجهها:

ـ كانت محاضرات عن الربّ.

قالت دينيز:

مكتبة الفكر الجديد

ـ عظيم!

كانت تستخدم هذه الكلمة ردًّا اعتياديًّا على الأشياء التي ليس لديها اهتمام بها. ثم نقرت بإصبعها على صورة الرجل الواقف في الوسط. كان شعره البنّي الأشقر جعدًا وطويلًا فيبدو ذا لفائف. أمَّا عيناه فكانتا تتألَّقان تحت قبَّعة مسطَّحة؛ دقيق الذقن، حسن الملامح؛ قسمات وجهه هادئة وإن لم تكن وديعة.

ـ من هو؟

شعرت بيري بقشعريرة تنمُّ عن ضيق تسري في ملامحها، إلَّا أنَّها كانت قشعريرة واهية تكاد تكون غير مرئيَّة.

ـ إنَّه أستاذنا.

ـ حقًّا، لكنَّه يبدو أشبه بطالب متمرِّد.

ـ كان أستاذًا متمرِّدًا حقًّا.

سألت دينيز:

ـ وهل هناك أستاذ متمرِّد؟ ما اسمه؟

ـ كنَّا نسمِّيه آزور.

ـ يا له من اسم غريب. أين التقطت الصورة؟

ـ في إنكلترا... في أوكسفورد.

ـ ماذا؟ لماذا لم تخبريني قطّ بأنَّك ذهبت إلى أوكسفورد؟

تلفَّظت دينيز بالكلمة الأخيرة بنبرة مبالغ فيها.

تردَّدت بيري، لا تعرف ما تقول. لماذا لم تخبر أحدًا بها، ومن ضمنهم أطفالها؟ صحيح أنَّها كانت تفكِّر في شيء ما، لكنَّ الوقت والمكان غيرُ مناسبين لإماطة اللثام عن ذلك. فقالت بصوت يضعف ويتضاءل تدريجيًّا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ذهبتُ مدَّة قصيرة، ولم أُنْهِ الدراسة.

ـ وكيف حصلت على القبول في الجامعة؟

بدت دينيز متعجِّبة، لكن بيري شعرت بمسحة من الحسد مشوبة بالامتعاض في ملاحظة ابنتها التي بدأت تشعر بالقلق من الامتحانات الجامعيَّة، وإن كانت تفصلها عنها بضع سنوات. ربَّما كان نظام التعليم الذي يهدف إلى جعل عقول الشباب تنافسيَّة أكثر، مفيدًا لطالبات مثل بيري، لكنَّه غاية في التعاسة لمن هو حرّ الإرادة، متمتِّع بالحرِّيَّة الشخصيَّة، مثل دينيز.

ـ قد لا تصدِّقين ما حدث، فقد حصلت على أعلى العلامات طوال سني دراستي في المدرسة. وأراد أبي أن أحصل على أفضل تعليم. . . في أوروبا، فساعدني في التقديم للجامعة، وانطبقت عليَّ شروط القبول.

سألت دينيز وهي تجد صعوبة في التوفيق بين العجوز الأخرق الواهن الذي انطبعت صورته في ذهنها، وهذا العاملِ القويّ جدًّا في التغيير:

ـ جدِّي؟

فابتسمت لها بيري قائلة:

ـ نعم، كان فخورًا بي.

فسألت دينيز متبيِّنة وجود اختلاف:

ـ وجدَّتي؟ ألم تكن كذلك؟

ـ كانت قلقة خشية أن أضيع في بلد أجنبيّ غريب، إذْ كانت تلك أوَّل مرَّة أُغادر فيها البيت. أمر ليس بالشيء اليسير.

مكتبة الفكر الجديد

وهنا تشجَّعت بيري واستبدَّت بها الدهشة لما أبدته من ملاحظة ولتعاطفها مع أمِّها.

وفكَّرت دينيز مليًّا في هذا الكلام وسألت:

ـ متى حدث هذا كلّه؟

ـ في الحادي عشر من أيلول تقريبًا، إن كان هذا التاريخ يعني أيّ شيء لك.

قالت دينيز مشرقة الوجه، منفرجة الأسارير لهذه المعلومة الجديدة:

ـ أعرف هذا التاريخ، الحادي عشر من أيلول. إذن حدث هذا قبل معرفتك بأبي. ثم تركتِ الدراسة في أوكسفورد ورجعت إلى إسطنبول وتزوَّجت وتخلَّيت عن دراستك وأنجبت ثلاثة أطفال، الواحدَ تلو الآخر، وتحوَّلت إلى ربَّة بيت. يا للأصالة. ممتاز!

قالت بيري:

ـ لم أكن أسعى لذلك.

لكنَّ دينيز تجاهلت ردّ أمِّها وعضَّت على شفتها السفلى.

ـ لماذا تخلَّيت عن الدراسة؟

لم تكن بيري مستعدَّة للإجابة عن ذلك السؤال لأنَّ الحقيقة كانت مؤلمة أكثر ممَّا تحتمل.

ـ كانت الدراسة صعبة عليّ، فلم أحتملها: الفصول الدراسيَّة والامتحانات...

رشقت دينيز والدتها بنظرة جانبيَّة خاطفة من دون أن تنبس بكلمة، واكتست قسمات وجهها بما يُشير إلى أنَّها ميَّالة إلى الشكّ. فللمرَّة الأولى في حياتها، خُيّل إليها أنَّ المرأة التي أنجبتها، المرأةَ التي كانت تراها يوميًّا طوال حياتها، وتوقَّعت منها أن تلبِّي كلّ حاجة من حاجاتها

مكتبة الفكر الجديد

وتستجيب لكلِّ نزوة من نزواتها، قد تكون امرأةً مختلفة قبل ولادة أخويها. تلك فكرة غير مريحة. فقد كانت أمُّها حتى هذا اليوم ميدانًا معروفًا عرفت فيه دينيز كلَّ واد بهيج، وكلَّ بحيرة هادئة، وكلَّ جبل بارد مُوحٍ بالشتاء. ولم يَرُق لها احتمال أنَّ ثمَّة أجزاء من تلك القارَّة لا تزال غير مؤشَّرة على الخارطة.

سألت بيري:

ـ هل لي أن آخذ الصورة الآن؟

ـ انتظري لحظة.

قرَّبت دينيز الصورة من وجهها فرمشت عيناها عندما لامست رموشها النور المنبعث من المصباح المتدلِّي من السقف، وكادت تصبح حولاء العينين، كأنَّها تتوقَّع اكتشاف شيفرة سرِّيَّة في مكان ما من الصورة. وبحركة غريزيَّة، رَنَتْ إلى ظهر الصورة فشاهدت بعض الكتابة مدوَّنة عليها بخطّ متكلِّفٍ لشخص ما حاول جهد استطاعته أن يكون خطّه أنيقًا وجميلًا:

«من شيرين إلى بيري مع كلّ المشاعر الأخويَّة. تذكَّري يا ماوس لم يعد في وسعي أن أقول إنَّني رجل، أو امرأة، أو ملاك، أو حتى روح نقيَّة».

استفهمت دينيز ضاحكة ضحكة قصيرة:

ـ من هي ماوس؟

ـ هكذا كانت شيرين تناديني.

ـ إنَّه آخر لقب يمكن أن ألقِّبك به.

قالت بيري:

ـ حسنًا، أظنّني تغيَّرت. هيَّا بنا، لنذهب.

مكتبة الفكر الجديد

غير أنَّ دينيز ظلَّت هازئة متسائلة:

ـ وما معنى عبارة: لم يعد في وسعي أن أقول إنَّني رجل، أو امرأة، أو ملاك... ما هذا الهراء؟

ـ مقطع من قصيدة... أعطني الصورة يا حبيبتي.

تصاعد من حجرة الجلوس صوتُ تصفيق وهتاف. هنالك من تعرَّض للمضايقة أو التحدِّي للقيام بعمل ما. فاستبدَّ حبّ الاستكشاف بدينيز. وبعد لحظة من التردُّد، أعادت الصورة إلى أمّها وانطلقت إلى الحفلة.

لبثت بيري بمفردها في الممرّ فأمسكت بالصورة بقوَّة، وتملَّكتْها دهشة، إذْ شعرتْ بالدفء الذي كان يشعّ منها، كأنَّها حيَّة. يا للغرابة! ففي حين يفكِّر المرء في الأشياء، يجد أنَّ اللحظات تضمحلّ وتتلاشى، والأفئدةَ تقسو، والأجسادَ تشيخ، والوعودَ تموت، بل إنَّ أقوى المعتقدات تبهت، بينما تبقى الصورة ذاتَ بعدين يمثِّلان حقيقة وكذبة، من دون أيّ تغيير، ووفيَّةً إلى الأبد.

أعادت الصورةَ إلى حافظة نقودها، محاذرة كي لا تحدِّق إلى أيّ وجه من الوجوه الظاهرة في اللقطة، مقاوِمةً تلك النظرةَ المحدِّقة القادمة من الماضي، مقاوِمةً الحكمَ الذي أَصدرته بيري أيَّام كانت صبيَّة في مقتبل العمر، على المرأة التي آلت إليها شخصيًّا. اعتدلت وباتت مستعدَّة للقاء بقيَّة الضيوف، العديدُ منهم ليسوا في الحقيقة أكثرَ من غرباء، وسارت بتؤدة تجاههم.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

العـــهـــد

إسطنبول ـ تسعينيَّات القرن العشرين

مرَّت بيري في أثناء المدرسة الثانويَّة في مراحل من الإيمان ومراحل من الشكّ. ولبثت من دون علم أبيها وفيَّةً للعهد الذي تعهَّدت به أمام الله. ففي كلّ ليلة، وقبل أن تخلد إلى النوم، كانت تؤدِّي شعيرة الصلاة متفوِّهة بكلمات مختارة بعناية، وبحماسة عظيمة. بذلت قصارى جهدها. فلو ضحَّت بعدم إيمانها على مذبح الحبّ وأصبحت ورعةً وَرَعَ كلّ أولئك الوعَّاظ الذين يجمعون الناس من تحت سماء إسطنبول، فإنَّ الربّ سيكون راضيًا عن أسرتها ويرأف بأبيها، كما ظنَّت هي. ذلك هو عهد لاعقلانيّ، لكن أليس كلّ عهد يتعهَّد به المرء أمام الله من شأنه أن يكون كذلك؟

إلَّا أنَّ المشكلة في الصلاة تمثَّلت في ضرورة أن تكون صلاة خالصة وبصوت منفرد، صوت واحد متَّسق من البداية إلى النهاية. أمَّا عندما تكلِّمُ اللهَ، فإنَّ عقلها يتشظَّى إلى عدد من المتكلِّمين: البعض يُصغي، والبعض يُبدي ملاحظات فطنة، والبعض الآخر يعبِّر عن اعتراضات. الأسوأ من هذا أنَّ الصور غير المرغوب فيها كانت تغزو عقلها، وكانت صورًا عن الموت والظلام والعنف والإبادة الجماعيَّة، بل عن الجنس على وجه الخصوص. كانت تغمض عينيها وتفتحهما، جاهدة كي تمحو الأجساد

مكتبة الفكر الجديد

العارية المرتعشة في خيالها. وفي غمرة إحساسها بالخزي والعار لعجزها عن السيطرة على عقلها، ولقلقها من أنَّ ذلك يُفسد صَلاتها، كانت تُعيد الصلاة مرَّات ومرَّات، في عجالة من أمرها، كي تفرغ منها قبل أن تستولي عليها أفكارٌ قذرة مجدَّدًا. كان الاستعداد لأداء الصلاة أشبه ما يكون بإعادة كلّ أكوام الموادّ المستعملة إلى الخزانة قبل أن يأتي الله لزيارة البيت الذي يضمّ عقلها. وفي حين كانت ترغب في أن تبدو في أفضل حال، فإنَّها ظلَّتْ واعية وعيًا حادًّا لما أخفته عن عينيه.

فلو لم تؤدِّ فريضة الصلاة وحيدةً منفردة في المنزل وصلَّت عوضًا عن ذلك وسط الجماعة، فقد تنجح في كبت الأصوات التي تخلبها عقلَها كما كانت تعتقد. وأصبحت معتادة على ارتياد المساجد القريبة برفقة عدد من الفتيات اللواتي يفكِّرن مثلها. وكانت تعتزّ بالنور الساطع المنبعث من خلال النوافذ العالية المقوَّسة والثريَّات والخطّ والعمارة التي أبدعها سنان(١)، إلَّا أنَّها كانت تضطرب لأنَّ الأقسام المخصَّصة للنساء، كانت إمَّا في مؤخِّر المسجد وإمَّا في الطبقة العليا من وراء ستائر منعزلة ومنفصلة وصغيرة.

وفي أحد الأحياء السكنيَّة، لحق بهنَّ رجل في خريف العمر إلى داخل المسجد، ثم إلى الفناء. وقال وهو يسرح ببصره إلى تضاريس نهودهنَّ الخارجيَّة:

---

(١) سنان (١٤٨٩ ـ ١٥٨٨): أكبر مهندس معماري تركيّ، صاحب مدرسة معماريَّة. خدم سليمانَ الأوَّل وبنى عشرات المساجد، منها السليمانيَّة في إسطنبول، والسليميَّة في أدرنة. راجع رواية «الفتى المتيَّم والمعلِّم» للروائيَّة أليف شافاك، الصادرة بترجمتنا عن «دار الآداب» البيروتيَّة، للتعرُّف إلى تفاصيل مهمَّة ومثيرة في حياته (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ على الفتيات أن يصلِّين في بيوتهنّ.

فقالت بيري:

ـ هذا هو بيت الربّ.

فتقدَّم خطوة منها دافعًا صدرَه إلى الأمام، فكان جسمه تذكرة وتحذيرًا وجبهة، وأردف:

ـ ليس هذا المسجد كبيرًا بما يكفي، بل إنَّ الرجال يضطرُّون إلى الصلاة على الرصيف، فلا توجد فسحة هنا لفتيات المدارس.

سألته بيري:

ـ إذًا، المساجد مملوكة للرجال؟

فضحك كأنَّه مندهش من احتمال أن تكون قد ظنَّت أنَّ المساجد للنساء. وخاب ظنّ بيري لأنَّ إمام المسجد الذي طرقت سمعَه هذه المحادثةُ لم يقل شيئًا دفاعًا عنهنَّ في أثناء مروره بهنّ.

وفي وقت آخر، وفي حيّ أُسكودار القديم على البوسفور، فتحت بيري الستائر في الطبقة العُليا المخصَّصة لصلاة النساء، للاستمتاع بجمال المسجد في أثناء الصلاة. لكن سرعان ما جذبت سيِّدة أكبر سنًّا منهنَّ ومجلَّلةٌ بالسواد من قمَّة رأسها حتى أخمص قدميها، الستائرَ وأغلقتها متمتمةً بصوت خافت عباراتٍ تعبِّر فيها عن غضبها. وهكذا، لم يكن الرجال وحدهم راغبين في عدم مشاهدة النساء، بل إنَّ بعض النساء أيضًا كنّ يتمتعنَّ بالعقليَّة والتفكير نفسيهما.

نعم، لقد حاولتْ، لكن ثمَّة فجوة دائمًا بينها وبين الممارسات الدينيَّة، مطبوعة على بطاقتها الشخصيَّة الورديَّة اللون. مَن الذي فكَّر في

مكتبة الفكر الجديد

تخصيص خانة لتثبيت الديانة في البطاقات الشخصيَّة؟ من ذا الذي قرَّر أنَّ الطفل الحديث الولادة مسلم أو نصرانيّ أو يهوديّ؟ المؤكَّد أنَّه ليس ذلك الطفل.

لو سُمح لبيري بأن تملأ بنفسها الحقل المخصَّص لذكر الديانة فلربَّما كتبت: «لم أقرِّر بعد»، فذلك أقرب إلى الصدق. ولو أنَّ المطاف سينتهي بوالدتها إلى الجنَّة ووالدها إلى الجحيم، فإنَّ مأواها يجب أن يكون «المطهر»، المنطقةَ الواقعة بين الجنَّة والجحيم.

امتنعت بيري من الخوض في هذه المواضيع مع المتديِّنين، لأنَّهم كانوا عند إدراكهم تردُّدَها بين الشكِّ والإيمان، يصرُّون على بذل محاولة لكسبها إلى جانبهم. ولم يكن الملحدون الذين التقتهم يختلفون عنهم. وسواء باسم الله أو باسم العِلْم، لم تكن ثمَّة قناعة للذات تشبه قناعة جذب شخص ما إلى جانبك. غير أنَّ موضوع الهداية كان آخرَ شيء ترغب فيه بيري. أفلا يفهم هؤلاء الناس أنَّها ترغب في الوصول إلى قرار يتعلَّق بفهمهم للدين؟ إنَّ كلّ ما كانت تريده هو أن تتحرَّك. فلو اتَّخذت هذا الجانب أو ذاك، فإنَّها تهاب أن تتحوَّل إلى شخص آخر، وعندئذٍ ستكون نهايتها.

وكتبت في مفكِّرتها قائلة:

«إنَّني على الدوام في مرحلة وسطى. لعلِّي أريد شيئًا أكثر ممَّا يجب على الفور، ولا شيء يكفيني عاطفيًّا».

* * *

في اليوم الذي تخرَّجت فيه بيري من المدرسة الثانويَّة متفوِّقة على دفعتها في تلك السنة، أعدَّت هي ووالدها طعام الفطور معًا. وبعد

مكتبة الفكر الجديد

تقطيع الطماطم والكرفس وخفق البيض، صنعا طبقًا كثير التوابل، كلّ لقمة منه تحرق اللسان. وعملا معًا، متعاونَين، بكلٍّ يسر وسهولة. راقبت بيري والدها وهو يقطع البصل ولاحظت، في ارتياح، أنَّ رعشة يديه بدت كأنَّها خفَّت وهدأت. إلَّا أنَّه كان يتفصَّد عرقًا، وغطّت جبينَه طبقةٌ رقيقة من العرق. وأدركت أنَّه لو كان بمفرده في المطبخ لسكب لنفسه كأسًا من الشراب.

بعد ذلك، اصطحب منصور ابنته إلى وكالة تربويَّة تساعد الطلاب الأتراك على الالتحاق بالمدارس خارج البلاد. وكان الاثنان قد ارتادا تلك الوكالة الخانقة والمعتمة بضع مرَّات في الأشهر السابقة، ووقفا في صفٍّ طويل قوامه طلَّاب في سنِّ المراهقة يحدوهم الأمل، غير قادرين على تحويل نظريهما إلى تلك الوجوه المشرقة التي تملأ الكرّاسات الخاصَّة بالجامعات الغربيَّة. وكان يبرز من على تلك الصفحات الصقيلة تنوُّعٌ رائع ـ أممٌ متّحدة ظاهريًّا ـ من الطلبة، تبدو وجوههم طافحة بالبِشْر والسعادة من دون استثناء.

وفي الطريق، توقَّفا عند إشارة مرور إلى جانب مسجد عثمانيّ اشتهر بكونه قد شُيِّد على البحر. كانت النوارس قد استقرَّت في محيط قبَّته كأنَّها مجموعة من اللآلئ.

سألت بيري والدها محدِّقة إلى المسجد:

ـ كيف شاءت الظروف يا أبتاه أن تكون غير متديِّن؟

ـ لقد سمعت من تلك الخطب الزائفة أكثر ممَّا ينبغي لي، ورأيت من الخطباء الكذَّابين أكثر من اللزوم.

ـ والربّ؟ أعني، أما زلت تؤمن بوجوده؟

مكتبة الفكر الجديد

أجاب منصور إجابة قصيرة غير متحمّسة:

ـ نعم، ما زلت أؤمن بالتأكيد، لكن هذا لا يعني أنّني أفهم مقاصده.

كان رجل وامراة من السيَّاح ـ يبدو من مظهريهما أنَّهما أوروبيَّان ـ يلتقطان الصور في فناء المسجد. كانت المرأة قد غطَّت رأسها بوشاح طويل من تلك الأوشحة المتوافرة في مدخل المسجد. ولا بدَّ من أنَّ شخصًا ما ـ لعلَّه أحد المارَّة ـ حذَّرها من أنَّ ثوبها أقصر من اللزوم، فما كان منها إلَّا أن شدَّت وشاحًا آخر من حول خصرها لتغطِّي به ساقيها من فوق الركبة. أمَّا الرجل، فعلى العكس منها، كان ينتعل صندلًا وسروالًا قصيرًا من طراز برمودا، ولعلَّ أحدًا لم يَرَ فيه أيّ مشكلة.

أبدى منصور ملاحظة وهو يشير إلى الرجل والمرأة:

ـ لو كنتُ امرأة لانتقدت الدين ضعفَ ما أنتقده وأنا رجل.

فسألته بيري وإن كانت تخمِّن الإجابة:

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ لفظ الربّ مذكَّر... هكذا جعلنا الأولياء نُؤمن به.

توقَّفت سيَّارة على مقربة منهما، تصدح منها أغنيةٌ بصوت سانتانا، تقول: «توقَّفوا عن السلب والنهب، توقَّفوا عن القتل. فالأغنياء يزدادون غنًى والفقراء يزدادون فقرًا».

استرسل منصور في حديثه قائلًا:

ـ أرأيتِ يا لبّ فؤادي! إنَّني مولع بالتقاليد البكتاشيَّة أو المولويَّة أو

مكتبة الفكر الجديد

الصوفيَّة الملامتيَّة[١]، بما تنطوي عليه من روح إنسانيَّة وفكاهة. وكان الرند متحرِّرين من كلّ أنواع التعصُّب واللاتسامح. فكم من الناس يتذكَّرون هؤلاء اليوم؟ لقد اختفت تلك الفلسفة الموغلة في القدم في هذا البلد. ليس هنا فحسب، بل في كلّ مكان من بلاد العالم الإسلاميّ بعد أن تعرَّضت للقمع وكمّ الأفواه والإبادة. لماذا؟ إنَّهم باسم الدين يقتلون الله، وباسم النظام والسلطة ينسون الحبّ.

تغيَّر لون إشارة المرور إلى الأخضر، وكانت السيَّارات خلفهما قد بدأت قبل ثوان، وليس بعدها، تُطلق أبواقها، فما كان من منصور إلَّا أن ضغط على دوَّاسة البنزين وتمتم في نفسه: كيف انتظر هؤلاء الحمقى في أرحام أمّهاتهم؟

ـ ألا يمنحك الدين إحساسًا بالأمن يا أبتاه؟ شأنه شأن قفّاز يحمي اليد؟

(١) البكتاشيَّة: نسبة إلى حاجي بكتاش (أو بكداش)، وليّ متصوِّف تركيّ عاش في أماسيَّة، في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر ميلادي. ضريحه في مدينة إسطنبول. أمَّا المولويَّة فهي طريقة صوفيَّة تُنسب إلى جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣)، الشاعر المولود في مدينة بلخ، والمستقرّ لاحقًا في بلدة قونيَّة. كان أتباعه يقيمون «حلقات الذكر» بالأناشيد والرقص على إيقاع آلات الطرب. وفي ما يتعلَّق بالملامتيَّة، فهم أتباع أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصَّار، ويُطلق عليهم القصاريَّة أيضًا. وطريقتهم تتمثَّل في إظهار: «الملامة» ونشرها. وعلى الصوفيّ الملامتي أن يترك السلامة، ويعرِّض نفسه للبلايا، ويؤدِّب النفس بالتحقير والإهانة التي توجَّه إليه من الخلق. وكان حمدون القصَّار يقول: «ينبغي أن يكون علم الله بالنسبة إليك أحسن من علم الخلق بك، أي يجب أن تعامل الله في الخفاء أكثر من معاملتك للخلق في الملأ، لأنَّ الحجاب الأعظم عن الحقّ هو انشغال قلبك بالخلق». للوقوف على شرح أحوال الملامتيَّة، ارجع إلى الفصلين الثامن والتاسع من كتاب «عوارف المعارف» للسهروردي، أبو حفص عمر (ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م)، الفقيه الشافعي وأحد كبار الصوفيَّة وشيخ الشيوخ في بغداد (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ ربَّما، لكنَّني لا أريد جِلدًا آخر، فإذا لمستُ النارَ أحترقُ، وإذا أمسكتُ ثلجًا شعرتُ بالبرودة. العالم هو على حاله. وسنموت كلّنا. فما فائدة الأمان في خضمّ الجمع المحتشد؟ لقد وُلدنا وحيدين وسنموت وحيدين.

مالت بيري إلى أمام، توشك أنِ تقول شيئًا ما، إلّا أنَّ والدها استرسل في الكلام.

ـ حين كنت صغيرة السنّ، سألتني إن كنت أخشى الجحيم.

ـ وأخبرتني بأنَّك ستبحث لك عن منفذ للخروج منه.

انفرجت أسارير منصور عن ابتسامة.

ـ أتدرين سبب عدم تحمُّسي للجنَّة؟

ـ أخبرني.

ـ إنَّني أنظر إلى الناس الذين سيذهبون إليها، أولئك الذين يصلّون ويصومون ويفعلون على ما يبدو كلّ ما يفترض بهم أن يفعلوه. أعداد كبيرة منهم أدعياء! وأنا أردِّد في نفسي إذا كان هؤلاء سيدخلون الجنَّة، فهل أُريد حقًّا أن أكون فيها؟ إنَّني أفضِّل أن أحترق بهدوء في جحيمي. صحيح أنَّه حارّ، لكن في الأقلِّ لا يوجد نِفاق.

ـ آه يا بابا، أرجو ألّا تتكلَّم مثل هذا الكلام في صحبة الآخرين، لأنَّك بذلك ستواجه المتاعب.

ـ لا تقلقي عليّ. فلساني ذرب عندما أكون في رفقتك أنت فحسب، أو بعد أن أكون قد احتسيت مقدارًا من الشراب. أمَّا أولئك المتشدِّدون فلن يجلسوا وإيَّاي من حول مائدة العرق. فأنا في مأمن.

ثم ضحك ضحكة صغيرة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد مدَّة قصيرة، وصلا إلى قصر دولما بخجة[1] المشهور بأقواس النصر وبرج الساعة. سأل منصور:

ـ أتعرفين ما قصَّة السمك هنا؟

قال إنَّ السلطان مراد الرابع كان يجلس في ليلة عاصفة على مقربة من هذه المنطقة لقراءة ديوان شعر «سهام النحس» Arrows of Misfortune للشاعر الكبير نافع. ولم يكد يبدأ في القراءة حتى ضربت صاعقة شجرة كستناء في حدائق القصر، فكان ذلك نذير شؤم على وجه التوكيد. فجزع السلطان جزعًا شديدًا ولم يُلق الكتاب فحسب، وإنَّما وقَّع رسالة منح فيها أعداء نافع الموافقة على معاقبته وتأديبه بحسب مشيئتهم. وبعد بضعة أيَّام، قُذف بالشاعر بعد خنقه بأنشوطة في المياه نفسها التي ذابت فيها أشعاره، بيتًا فبيتًا.

ـ وهكذا ترين أيّ مزيج سامّ هو الجهل والسلطة. لقد عانى العالم على أيدي رجال الدين أكثر ممَّا عانى على أيدي أمثالي من البشر، الذين يمكنك أن تطلقي عليهم أيّ صفة مهما تكن مضحكة!

رَنَتْ بيري إلى ما وراء النافذة، في اتِّجاه الموج الفضِّيّ يتلألأ من تحت نور شمس الأصيل، آملة أن تشاهد سمكة أو سمكتين تثبان من

---

(١) قصر دولما بخجه (Dolmabache palace): شُيِّد هذا القصر بأمر من السلطان عبد الحميد بين سنتي ١٨٤٨ و١٨٥٦، ونفَّذه المعمار كره بيت باليان. المساحة المستخدمة هي ٤٥٠٠٠ م٢، طول واجهته الممتدَّة على طول المرفأ المتعرِّجة تعرُّجًا متناسقًا ٢٨٤ مترًا، ما يُضفي عليه قدرًا من الانسيابيَّة. معروف أنَّ أتاتورك توفِّي في غرفته في هذا القصر حيث كان يستقبل فيه رؤساء الدول الأجنبيَّة. القصر في يومنا هذا يُستخدم متحفًا تابعًا لرئاسة القصور القوميَّة وإدارتها. أمَّا برج الساعة فقد شُيِّد بين سنتي ١٨٩٠ و١٨٩٤، وافتُتح سنة ١٨٩٥. يبلغ ارتفاعه ٢٧ مترًا، وشُيِّد على قاعدة مربَّعة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

على صفحة المياه. وبعد أن عرفت الآن ما حلّ بالشاعر، أدركت أنَّها لن تتمكَّن من نسيان قصَّته. كانت تأخذ أحزان الآخرين كأنَّها أحزانها الشخصيَّة، وتعلِّقها حول رقبتها كأنَّها قلادات من أبر الصنوبر التي كانت تصنعها أيَّام طفولتها. صحيح أنَّها كانت تؤذيها وتوخز جلدها، إلَّا أنَّها كانت ترفض خلعها إلى أن تتيبَّس وتتفتَّت قطعًا صغيرة ودقيقة كالغبار.

تابع منصور نظرتها المحدِّقة.

ـ لهذا السبب ترين الأسماك في هذه البقعة من البوسفور سوداء اللون. فقد أسرفت في شرب القدر الكبير من الحبر. يا للأسماك المسكينة، فهي لا تزال تبحث عن مفردات من القصائد وقطع من لحم الشاعر. إنَّه الشيء نفسه عندما تفكِّرين في الموضوع.

كانت بيري تعشق حكايات والدها، فقد نشأت عليها، وكبرت معها. غير أنَّ الحزن الذي يشوبها كان يعذِّب روحها، وكان ثمَّة شظيَّة في جسدها باتت جزءًا لا يتجزَّأ من أعضائها. تخيَّلت أحيانًا أنَّ الشظايا تغطِّيها في كلّ مكان، في جسدها وفي تلافيف دماغها.

قال منصور في حدَّة غريبة:

ـ لماذا تجدينني أتكلَّم على هذه الأشياء؟ ألست متحمِّسة للذهاب إلى أوكسفورد؟

كانت بيري قد رشَّحت نفسها للقبول في عدد من الجامعات في أوروبا والولايات المتَّحدة وكندا. أماكن ذات أسماء بالغة الغرابة، فلا يستطيع أيّ لسان أن يتلفَّظ بها. لكن منصور ظلَّ يردِّد على الدوام: أوكسفورد.

ـ إنَّ ذهابي ليس مؤكَّدًا.

مكتبة الفكر الجديد

فقال منصور:

ـ آه، بل مؤكَّد. لقد اجتزت الامتحانات وأكملت المقابلة، وها أنت الآن قد حصلت على القبول.

قالت بيري بصوت واهن:

ـ وكيف ستتمكَّن من دفع النفقات يا بابا؟

ـ كفاكِ قلقًا. لقد دبَّرت هذا الموضوع.

كان قد عرض سيَّارته للبيع، فضلًا على الاستثمار الوحيد الذي يملكه، وهو حقل ليس ببعيد عن بحر إيجه، حيث كان خطَّط لزرعه بالزيتون يومًا ما. وامتلأ قلب بيري همًّا وحزنًا وهي ترى أنَّ والدها يتخلَّى عن أحلامه من أجلها. ومع هذا، فقد ابتسمت له عندما التقت عيونهما لقاءً ينمُّ عن فهم مشترك. وبالرَّغم من أنَّها لم تحاول الحديث عن ذلك فالحقّ أنَّها كانت لا تطيق الانتظار حتى تسافر إلى إنكلترا.

ـ هل أنت متأكِّد يا والدي من أنَّ أمِّي ستكون على ما يرام على هذا الأساس؟ أعني، هل كلَّمتها على الموضوع؟

أجاب منصور:

ـ لم أكلِّمها بعد، لكنَّني سوف أكلِّمها في وقت ما. كيف يمكنها أن تعترض على ذهاب ابنتها للدراسة في أفضل جامعة في العالم؟ إنَّها تشعر بالبهجة!

أومأت بيري برأسها على الرَّغم من أنَّها كانت تعلم بأنَّه يكذب لأنَّ أيّ واحد منهما لن يُخبر سلمى بأنَّ ابنتها ستسافر إلى أن تحين اللحظة الأخيرة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

العشاء الأخير

إسطنبول ـ ٢٠١٦

رأت بيري لدى دخولها غرفة الطعام المترامية الأطراف الضيوفَ متحلِّقين من حول الموائد، يتجاذب كلّ طرف منهم أحاديث منفصلة عن الآخرين. فكان عدنان يحدِّث صديقًا من أصدقاء الأسرة يعمل مديرًا تنفيذيًّا في مصرف استثماري عالمي. وبدا من خلال النظرات المرتسمة على وجهيهما أنَّهما كانا منهمكين في الحديث عن السياسة أو كرة القدم، وهما موضوعان يتحدَّث الرجال عنهما بكلِّ حرِّيَّة وحماسة في حضرة الآخرين. وكان يجلس عند كلّ طرف من طرفي المائدة أحد المضيفين. فكان الجالسون من حول رجل الأعمال يستمعون إليه وهو يحكي لهم حكاية عن عطلة استجمام يتمتَّع بها بثقة رجل دمث اعتاد أن يجعل الآخرين يصغون إليه في حين كانت زوجته تراقبه من دون اكتراث من على مسافة. خطت بيري خطوة إلى الأمام مدركة في غمضة عين أنَّ كلّ الرؤوس سوف تلتفت إليها. وفكَّرت هنيهة في السير على أطراف أصابع قدميها إلى أن تصل إلى المدخل الخشبيّ حيث يمكنها الهروب.

قالت زوجة رجل الأعمال لدى مشاهدتها بيري:

ـ لماذا تقفين هناك يا عزيزتي؟ تعالي واجلسي وإيَّانا.

اغتصبت بيري ابتسامة وهي تنسلّ إلى المقعد الشاغر المخصَّص

لها. فعندما كانت في الحمَّام، سمع معظم الضيوف، إن لم يكن كلّهم، عن الحادث الذي تعرَّضت له. ولهذا، بدأ الكلّ يحدِّق إليها بنظرات تنمُّ عن حبّ استكشاف وتعاطف، وتوق إلى سماع القصَّة.

سألت امرأة تُدير مكتبًا للعلاقات العامَّة، صُفِّف شعرها في هيئة تسريحة بومبادور، إذ يُرفَع فيها الشعر عاليًا فوق الجبين ويُثبَّت بدبوس كبير على هيئة خرتيت سرعان ما ذكَّر بيري بسفود كباب، فمنح المرأة مظهرًا خطيرًا:

ـ قلقنا عليك.

قال المدير التنفيذي مضيفًا:

ـ نعم، ماذا حدث لك يا عزيزتي؟

التقت عينا بيري عيني عدنان، فلاحظت مسحة قلق في تحديقة زوجها الحنون عمومًا. كان أمامه طبق طعام أتى عليه كلَّه وقدح ماء، إذْ كان يمتنع من تناول المسكِّرات لأسباب صحِّيَّة ودينيَّة. كان عدنان رجلًا متديِّنًا.

قالت بيري بعد أن التفتت إلى المدير التنفيذي:

ـ لا شيء جديرًا بالذكر من حول هذه المائدة الشهيَّة. وأنا مهتمَّة أكثر بما كنتم تتحدَّثون عنه بهذه الحماسة.

قال المدير:

ـ آه، الرشوة والفساد في اتّحاد كرة القدم. حسنًا، تبدو بعض الفرق عازمة على خسارة مبارياتها. ولو لم أكن واسع الاطّلاع لقلت إنَّ الرشوة دُفعت إليها كي تخسر.

ثم ألقى نظرة خبيثة إلى مضيفه:

مكتبة الفكر الجديد

قال رجل الأعمال:

- كلام فارغ. إذا كنت تحاول أن تطعن في فريقي فإنّ في مستطاعي أيُّها الصديق أن أؤكِّد لك أنَّنا سوف نفوز بعرق جبيننا.

اتّكأت بيري في جلستها، مرتاحة لأنَّها تمكَّنت من تحويل الحديث بعيدًا عن نفسها، وإن لم تكن تعرف إلى أيّ مدى.

بعد أن فرغ الآخرون من تناول الشوربة، بانت خادمة للعيان حاملة طاسة إضافيَّة لبيري، قوامها شوربة جزر وشوندر مع مقدار من جبنة الماعز. وملأ أحدهم كأسها من دون أن يسألها. نابا فالي، أحمر. وقبل أن ترفع الشراب إلى شفتيها، أرسلت تحيَّة صامتة إلى روح أبيها.

رشقت بيري الغرفة من حولها بنظرة خاطفة بعد أن بدأت تتناول طعامها رويدًا رويدًا. أثاث إيطالي، ثريَّات إنكليزيَّة، ستائر فرنسيَّة، وسجَّاد فرنسي، وشتَّى أنواع الزينة ووسائد ذات نقوش عثمانيَّة. وعلى الرَّغم من أنَّ المنزل كان فخمًا ومترفًا أكثر من المعتاد، فإنَّه كان مزخرفًا بالأسلوب والطراز نفسيهما لعدد كبير من البيوت في إسطنبول، فنصفه شرقيّ ونصفه الآخر أوروبي. وكانت الجدران مكسوَّة بلوحات فنِّيَّة لفنَّانين عظيمي الشهرة، وآخرين يُنتظر لهم مستقبل مرموق من بلاد الشرق الأوسط. وخمَّنت بيري أنَّ عددًا كبيرًا من تلك اللوحات حُدِّد لها ثمن فاحش أو ثمن أقلّ ممَّا تستحقّ، إذْ إنَّ حالة اللوحات الفنِّيَّة، والتي لا تختلف في شيء عن السياسة، كانت لا تزال في وضع تقلّب مستمرّ.

في ما مضى من الزمان، حضرت بيري حفلات عشاء أكثر ممَّا تستطيع عدّها، وكان المسلمون المحافظون لا يرون بأسًا في الاختلاط بشاربي الخمرة الليبراليين، فكانوا يرفعون بأدب جمّ كؤوس مائهم لربِّ

مكتبة الفكر الجديد

النخب، منضمِّين بذلك إلى مبادرة الشراب. كان الدين في هذه البقعة من العالم خليطًا من كلّ الأصناف. ولهذا لم يكن من غير المألوف شرب الكحول طوال السنة، والإعلان عن التوبة في ليلة القدر عندما تُمحى خطايا المرء، بشرط أن تكون توبة المرء حقيقيَّة.

ثمَّة عدد كبير من الناس الذين كانوا يصومون في شهر رمضان من أجل تجديد إيمانهم وتخفيض وزنهم. وكان المقدَّس يتوافق مع الدنس. وفي ثقافة هجينة، كان أشدّ الناس عقلانيَّة يصدِّق وجود الجنّ ويحتفظ على مقربة منه بتعويذة زجاجيَّة زرقاء؛ تعويذة يُنظَر إليها باحترام في عموم البلاد كونها تقي المرء من عين الحسود. وفي الوقت نفسه، كان أشدّ الناس ورعًا وتقوًى يستمتع بحلول رأس السنة الجديدة وهو يشاهد التلفاز، ويصفِّق على إيقاع راقصة شرقيَّة. شيء من هذا وشيء من ذلك؛ مسلم عصري. غير أنَّ الأمور تغيَّرت تغيّرًا جذريًّا في غضون الأعوام الأخيرة. فالألوان انعقدت في الأسود والأبيض، وانخفضت حالات الزواج التي تشبه حالة زواج أمِّها وأبيها انخفاضًا مطّردًا، إذ يكون أحد الزوجين وَرِعًا والآخر ليس وَرِعًا. واليوم تجد المجتمع منقسمًا إلى غيتوهات غير مرئيَّة. ولا تبدو إسطنبول عاصمة كبرى بقدر ما تبدو خليطًا مدنيًّا أو حضريًّا من جماعات منفصلة، الواحدة عن الأخرى. فالناس إمَّا «متديِّنون متشدِّدون»، وإمَّا «علمانيُّون متشدِّدون». أمَّا الذين ظلُّوا بين بينْ، فقد تواروا عن الأنظار، أو التزموا الهدوء على نحو غريب.

لهذا السبب، فإنَّ تجمُّع هذه الليلة كان غير مألوف، بحيث إنَّه لمّ شملَ أناس من معسكرَيْن متناقضَيْن. وقدَّرت بيري المشهد البلاطيّ الفخم أمامها بلوحة من لوحات عصر النهضة، ولو أنَّها كانت هي الفنَّانة

مكتبة الفكر الجديد

لأطلقت عليه «العشاء الأخير للبورجوازيَّة التركيَّة»[1]. وأحصت عدد الملتمِّين حول المائدة، فوجدت عددهم ثلاثة عشر من ضمنهم هي نفسها.

قالت مديرة مكتب العلاقات العامَّة:

ـ آه، إنَّها حتى لا تُصغي إلينا.

فابتسمت بيري مدركة أنَّ الحديث يدور عنها:

ـ ماذا تقولين؟

ـ أخبرتني ابنتك بأنَّك ذهبت إلى أوكسفورد.

تجهَّم وجه بيري، وفتَّشت عيناها عن دينيز، غير أنَّ ابنتها كانت تتناول الطعام مع صديقة في الحجرة المجاورة.

قالت زوجة رجل الأعمال:

ـ أنت صموتٌ حقًّا يا عزيزتي. لماذا لم تخبرينا بذلك؟

فأجابت بيري:

ـ ربَّما لأنَّني لم أتخرَّج...

فقاطعها الصحافيّ:

ـ ومن يعير أهمِّيَّة لذلك؟ فأنت بالرَّغم من كلّ شيء جديرة بالتباهي.

---

(١) العشاء الأخير (The Last Supper): إشارة إلى وجبة الطعام الأخيرة التي تناولها السيِّد المسيح برفقة حوارييه في الليلة التي سبقت الصلب. وما لوحة ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) ذائعة الصيت، إلَّا استلهام لتلك الوجبة، وهي مرسومة على جدار حجرة الطعام في دير سانتا ماريًّا ديل غرازيا في مدينة ميلانو الإيطاليَّة سنة ١٤٩٧. وعلى الرَّغم من أنَّ حجرة الطعام أصبحت أثرًا بعد عين بسبب غارات الحلفاء في آب/أغسطس ١٩٤٣، إلَّا أنَّ الجدار الذي رسمت عليه اللوحة لم يتضرَّر كثيرًا، وبقيت اللوحة سليمة، وإن تضرَّرت بسبب تقادم الزمان عليها، وأُدخلت عليها ترميمات للحيلولة دون اضمحلالها (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

قالت مديرة مكتب العلاقات العامَّة:

ـ أخي يتباهى بذلك، وأوَّل ما يردِّده للناس هو قوله: عندما كنت في أوكسفورد. . .

ثم التفتت إلى بيري مستفسرة:

ـ في أيّ سنة كنت هناك؟

ـ بحدود العام ٢٠٠١.

ـ العام نفسه الذي كان فيه أخي هناك!

انتاب بيري شعور بعدم الارتياح ازداد تأثيره عندما انضمّ زوجها إلى الحديث.

ـ قالت لنا دينيز إنَّ لديك صورة. لماذا لا تُطلعين الحاضرين عليها؟

فهمت بيري أنَّ زوجها تعمَّد ذلك القول، مستفزًّا إيَّاها أمام الآخرين. فقد استاء إذْ علم بأنَّها لا تزال تحتفظ بتلك الصورة. كان يعرف بالتأكيد، ليس كلّ شيء، لكن معظم القصَّة. فقد كان هو الذي لَمْلَمَ الجراح بعد أن غادرت أوكسفورد.

قال أحدهم متحمِّسًا:

ـ هيّا بالله عليك، دعينا نطَّلع عليها!

حاولت بيري أن تبذل قصارى جهدها لتغيير دفَّة الحديث من دون جدوى. ففي هذه المرَّة كانوا عازمين على أن يروا كيف كان شكلها أيَّام سنوات دراستها في الكلِّيَّة، ومدى التغيير الذي طرأ عليها.

جذبت الصورة من حقيبتها ووضعتها على المائدة. فأصبح في الإمكان رؤية أربعة أشخاص تحت نور الشمعة، أربعة وجوه باسمة من ماض منبوذ، يقف أصحابها في مبنى مكتبة بودليان الرباعيَّة الزوايا والمكسوَّة بالثلوج، والكتل الجليديَّة المدلَّاة من أفاريز برج الدخول من

مكتبة الفكر الجديد

ورائهم. جرى كلّ ضيف ببصره مطوَّلًا إلى اللقطة قبل أن يمرِّرها إلى من يجلس إلى جانبه ويُبدي ملاحظة.

ـ آه، كم كنت شابَّة يافعة!

ـ ممتاز! انظروا إلى ذلك الشعر، أليس مموَّجًا؟

حين وصلت الصورة إلى مديرة مكتب العلاقات العامَّة، وضعت نظَّارتها على عينيها وأنعمت النظر فيها. وقالت في دهشة:

ـ لحظة! يبدو الرجل مألوفًا.

فتوتَّرت أعصاب بيري.

ـ كنت أزور أخي كلّ عام، وأنا متأكِّدة من أنَّه أطلعني على صورة هذا الرجل. أين...

تجمَّدت ملامح بيري وقسمات وجهها.

ـ آه، نعم. لقد تذكَّرت الآن! لقد كان الخبر منشورًا في الصحف. فهذا الرجل أستاذ عظيم الشهرة، لكنّ الخزي والعار لحقا به، إذْ طُرد من جامعة أوكسفورد! وكان حديث الناس في كلّ مكان، وكانت ثمَّة فضيحة.

ثم نقلت بصرها إلى بيري وأضافت:

ـ المؤكَّد أنَّك سمعت بما حدث.

لبثت بيري ساكنة، غير قادرة على اختراع كذبة، وغير قادرة على قول الحقيقة. وارتاحت ارتياحًا كبيرًا لدى رؤيتها الخادمة تتقدَّم من الجالسين حاملة المقبِّلات التي كانت روائحها تملأ الأجواء. وفي أثناء تقديم الأطباق، تمكَّنت بيري من استعادة الصورة. وحين وضعتها في حقيبتها، كانت يداها ترتعشان ارتعاشًا شديدًا، فاضطرَّت إلى إخفائهما تحت الطاولة برهة وجيزة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

القسم الثاني

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الجـــامـــعـــة

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

في اليوم الذي وصلت فيه نازبيري نالبانتوغلو المتخرِّجة حديثًا من المدرسة الثانويَّة إلى مدينة أوكسفورد، كانت في رفقة أبيها المصحوب بالقلق، وأمّها المشغولة البال أكثر منه. كانت خطَّة الأبوين تقتضي قضاء اليوم الأوَّل معًا. وبعد أن يطمئنّا إلى استقرار ابنتهما في حياتها الجديدة، يستقلَّان القطار عائدين إلى لندن مساءً. ومن هناك سيغادران جوًّا إلى إسطنبول التي كانا قد أمضيا فيها معظم سنوات زواجهما المقلقل الاثنتين والثلاثين، كأنَّها سلالم عفا عليها الزمن، ولا تزال صامدة في وجه عاديّات الدهر، على الرَّغم من تداعيها وتزعزعها. غير أنَّ الأمور أثبتت أنَّها أشدّ تعقيدًا ممَّا كان متوقَّعًا لها، إذ انهارت سلمى مرَّتين وأجهشت بالبكاء، وتأرجحت حالتها النفسيَّة بين سلسلة من التشوُّش الفكريّ والإشفاق على الذات والفخر. وراحت المرأة بين الفينة والفينة تمسك طرف منديلها لتمسح على ما يبدو وجهها، غير أنَّها في حقيقة الأمر كانت تكفكف دمعة. كانت، إلى حدٍّ ما، مبتهجة بما حقَّقته ابنتها وأنجزته، إذْ لا أحد في الأسرة الكبيرة حصل على مقعد في أيّ جامعة أجنبيَّة، فكيف إن كانت الجامعة هي جامعة أوكسفورد، فمثل هذا الاحتمال لم يخطر في بال أحد منهم قطّ، لأنَّ

مكتبة الفكر الجديد

«هذا المكان» بعيد جدًّا عن «ذلك المكان».

بيد أنَّها كانت، من جهة ثانية، ترى أنَّه يستحيل أن توافق على أن تعيش ابنتها، وهي أصغر أبنائها، في قارَّة بعيدة، وحيدةً، وفي منطقة كلّ ما ومَنْ فيها أجنبيّ. وشعرت باستياء شديد لأنَّ ابنتها بيري كانت قد قدَّمت طلب الالتحاق بالجامعة من دون معرفتها أو موافقتها، وراودها إحساس بأنَّ ظلّ والدها يكمن وراء هذا الأمر المنتهي. ولم يخبرها الاثنان إلَّا بعد أن اكتمل كلّ إجراء وانتهى، وكلّ ما كان في وسعها فعلُه هو أن تتمتم باعتراضٍ واهٍ خشية أن تنأى ابنتها بنفسها عنها نأيًا قد يمتدّ طوال حياتها. تمنَّت لو كان لديهم أحد من الأقرباء، أو قريب بعيد، أو أيّ شخص يمكن أن توكل إليه بيري، بشرط أن يكون مسلمًا وسنِّيًّا، ويتكلَّم التركيَّة، ويخاف الله، ويقرأ القرآن، ويسهل الاتِّصال به هاتفيًّا في هذه المدينة الغريبة. غير أنَّها لم تكن تعرف أحدًا تنطبق عليه هذه الصفات.

في هذه الأثناء، وعلى الرَّغم من أنَّ منصور كان توَّاقًا إلى رؤية ابنته متفوِّقة تفوُّقًا أكاديميًّا، فإنَّه لم يكن أقلّ خوفًا على ذهابها إلى هناك. فمن الناحية الظاهريَّة، كان رابط الجأش، هادئًا، يتكلَّم على نحو غير مترابط ومتلعثم، وبالنبرة نفسها التي قد يتكلَّم بها عن زلزال بعيد: راضيًا مَرْضيًّا، لكن بشيء من الألم. تفهَّمت بيري دوافع قلق والديها، وشاطرتهما قلقهما إلى حدٍّ ما. فهي لم تنفصل في أيِّ يوم عنهما، ولم يسبق لها أن ابتعدت عن أسرتها وبيتها ووطنها.

قالت بيري:

ـ انظرا كم هي جميلة هذه المدينة.

لم يردعها الضغط المتنامي في صدرها، عن الإحساس بالتحمُّس

لما هي مُقبلة عليه، ولم تستطع الحيلولة دون الاستعداد لرؤية حياتها منطلقةً في العلوّ.

أرسلتِ الشمس شعاعَ ضوء دافئًا من بين السحاب، مانحةً الإحساسَ بأنَّ موسم الصيف قد عاد على الرَّغم من ريح خريفيَّة باردة ومتقطِّعة. كانت أوكسفورد، في شوارعها المرصوفة بالحجارة، وأبراجِها المزوَّدة بفرجات، وأروقتِها المعمَّدة والمسقوفة، ونوافِذِها الناتئة، وواجهاتِ مبانيها المنقوشة، تُشبه صورةً من كتب الأطفال المصوَّرةِ، فكلُّ شيء في دائرة الرؤية عابقٌ بالتاريخ على نحو يجعل حتى المقاهي والمتاجرَ الكبيرة تبدو جزءًا من وقف موغل في التاريخ. أمَّا في إسطنبول، فإنَّ الماضي فيها يُعامَل كأنَّه زائر طال بقاؤه على الرَّغم من قِدَمها. وأمَّا في أوكسفورد، فهو، على ما يبدو، ضيفُ شرف.

أمضى أفراد أسرة نالبانتوغلو بقيَّة النهار، يتسكَّعون في المدينة، معجبين بحدائقها المشيَّدة من وراء مساحات مربَّعة الشكل، أكل عليها الدهرُ وشرب، مكسوَّةٍ بالثلوج واللبلاب، أقدامُهم تشحط شحطًا من فوق هذه الحجارة المرصوفة، غير واثقين إن كان يحقّ لهم دخولُ هذه الفضاءات من دون إذن أحد يطلبون منه الموافقة على ذلك. كانت بعض أجزاء المدينة تبدو مُقفرة، ورقائقُ الصخور الكلسيَّة التي تكسو الجدران الممتدَّةَ على طول الأزقَّة القديمة تئنُّ متوجِّعة من إهمال البشر.

وبعد أن هدَّهم التعب والجوع، لمحوا حانة في شارع ألفريد، كانت ذات سقف واطئ، وألواحُ أرضيَّتها تصرّ مقلقلة، وزبائنُها صخَّابون، فاتَّخذوا مجلسهم من حول طاولة منعزلة قريبة من النافذة. كان الزبائن منهمكين في احتساء الجعة بكؤوس تناسب أيدي العمالقة. ولمَّا جاءتهم النادلة، وكانت شابَّة مثقوبة الشفة السفلى، طلب منصور

مكتبة الفكر الجديد

طبقًا من السمك والبطاطس لكلٍّ واحد منهم، وزجاجةَ نبيذ.

قال منصور:

ـ تصوَّروا هذا المكان الموغلَ في الزمان...

ثم رنا إلى ألواح خشب البلُّوط كأنَّها تحتوي على شيفرة يمكن أن يفكّ رموزها إذا ما بذل جهدًا جهيدًا واستغرق زمنًا طويلًا.

أومأت سلمى برأسها، إلّا أنّها كانت سارحة ببصرها إلى أشياء أخرى من حولها: طلَّابٍ يحتسون الجعة في ركن من الأركان، امرأةٍ بلباس قصير يصلح أن يكون قميصًا من قمصان النساء الداخليَّة، ورجلٍ يعلوه الوشمُ يداعب صديقتَه، تضاريسُ جسدها المرن أعمقُ من الهوَّة الكائنة بين سلمى وزوجها. وفكَّرت سلمى: كيف ستترك بيري وحيدةً فريدة وسط هولاء الناس؟ صحيح أنَّ الغربيين قد يكونون متقدِّمين في العلوم والتعليم والتكنولوجيا، لكن ماذا عن أخلاقهم؟ وانزعجتْ لأنَّها مضطرَّة إلى الاحتفاظ بأفكارها في دخيلة نفسها، وإلَّا فسوف تزعج زوجها وابنتها. وتغضَّنَ فمها بملاحظات لاذعة لم تتفوَّه بها لأنَّ من غير الإنصاف أن تكون على الدوام الأمَّ المبدئيَّةَ المملَّة.

قال منصور غير مُدرك مشاغلَ زوجته الساذجةِ الأفكار:

ـ إنَّنا فخورون بك يا روحي.

كانت تلك هي المرَّة الثانية التي تسمع فيها بيري هذا الكلام من أبيها، وابتهجت به بقدر ابتهاجها لمّا سمعته أوَّل مرَّة. فقد استفادت في تعليمها فائدة تفوق موارد أبويها المتواضعةَ، ولهذا صمَّمت على ألَّا تخيِّب أملهما.

هتف منصور لدى وصول النبيذ:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا بدَّ لنا من أن نشرب النخب؛ نخبَ ابنتنا الذكيَّة.

تجهَّم وجه سلمى وهي تقول:

ـ أمَّا أنا، فإنَّ الربّ يمنعني من الشراب.

قال منصور:

ـ حسنًا، سأكون أنا الآثم. وعندما أموت أَرسلي إليّ بطاقة من الجنَّة.

قالت سلمى:

ـ آه لو كان الأمر بهذه البساطة، لأنَّ عليك أن تشقّ طريقك بنفسك، في نظر الربّ.

لاكَ منصور باطن فمه لحظةً قصيرة. كان يعتبر أنَّ الاستماع إلى نصائح زوجته، بكلماتها المنمَّقة، له الأثرُ نفسه عند رؤيته صفًّا من قطع الدومينو المتراصَّة. ولم يستطع الحيلولة دون كبت حافز استبدَّ به لإسقاط إحدى تلك القطع.

ـ أنت تتكلَّمين كأنَّك تعرفين مسبقًا ما يفكِّر فيه الربّ. من أين لك معرفة ما يريد؟

قالت سلمى:

ـ لأنَّه يخبرنا بذلك في القرآن. ليتك تهتمّ بقراءته.

قالت بيرى متوسِّلة:

ـ آه، ألا يمكنكما التوقُّفُ عن الجدال يومًا واحدًا؟

ثم أضافت لتغييرِ دفَّة الحديث، وتقليلِ التوتُّر:

ـ كي أتمكَّن من الرجوع إلى إسطنبول من فوري وحضور الزفاف.

كان هاكان مقبلًا على الزواج على الرَّغم من أنَّ أوميد لا يزال

مكتبة الفكر الجديد

أعزب بعد أن انزوى في مدينة على البحر المتوسِّط في أعقاب إطلاق سراحه من السجن، وبعد أن رفض الولد الأصغر الانتظار حتى يحين دوره ويتزوَّج متحدِّيًا بذلك نظامَ الأسرة.

في البدء، ساورتِ الشكوك كلّ فرد بأنّ وراء نفاد صبره تفسيرًا مثيرًا للحرج، وانتفاخًا في البطن يتعذَّر على العروس إخفاؤه. إلَّا أنَّ الواضح أنَّ السبب الوحيد للإسراع في الزواج هو شخصيَّة العريس نفسه.

فرغ الثلاثة من تناول طعامهم في جوٍّ غشيه الصمت تقريبًا.

وفي أثناء انتظار قائمة دفع الحساب، أمسكت سلمى بيد ابنتها وقالت لها:

ـ ابتعدي عن أولئك السيِّئين.

ـ نعم، أُدرك ذلك يا أمَّاه.

ـ التعليم مهمّ، لكن ثمَّة أمرًا أكثر أهمِّيَّة للفتاة. أتفهمين؟ وإذا فقدت ذلك الشيء، فلن تُفيدك أيّ شهادة. أمَّا الرجال فليس لديهم شيء يفقدونه. فعلى البنات أن يكنّ أكثر حذرًا.

قالت بيري وهي تشيح بنظراتها:

ـ حسنًا.

إنَّ العذريَّة حكمة لا يمكن التلفُّظ بها، وإنَّما الإيحاء بها. وهي تحوم في الأجواء في كثير من الأحاديث بين الأمَّهات والبنات، العمَّات والحفيدات. موضوع يجب أن يُثار على مهل، مثل نائم متقلِّب المزاج في وسط حجرة لا يجرؤ أحد على إقلاق راحته.

قال منصور، الذي فرغ من احتساء معظم النبيذ وحده وبدا ثملًا قليلًا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنَّني أثق بابنتي. . .

وقالت سلمى:

ـ وأنا أيضًا، لكنَّني لا أثق بالآخرين.

قال منصور:

ـ كلام سخيف. إذا كنت تثقين بها، فما الذي يدفعك إلى التفكير كثيرًا في الآخرين؟

كشَّرت سلمى عن شفتيها، قائلة:

ـ إنَّ الإنسان الذي يحتسي الخمرة كلّ يوم حتى الموت لا يمكن أن يصف أحدًا بالسخف سوى نفسه.

بعد أن أصغت بيري إلى والديها وهما يتشاجران مجدَّدًا، من دون أن يربح أحدهما الحرب، ومن دون تسوية الخلاف، لم يعد أمامها ما تفعله سوى أن تحدِّق إلى خارج النافذة؛ إلى المدينة التي ستصبح، في السنوات الثلاث القادمة على الأقلّ، جامعتَها وملاذَها وبيتها. ازداد التوجُّس في أعماقها، وطافت في ذهنها الأفكارُ السود. وتذكَّرت الزعفران الغالي الثمن ـ الحقيقيَّ وليس المزيَّف ـ يُباع في عبوات زجاجيَّة صغيرة في سوق التوابل في إسطنبول. هكذا كان تفاؤلها: محدودًا، ومحصورًا، وقابلًا للموت.

مكتبة الفكر الجديد

الخارطـــة

أوكسـفورد ــ ٢٠٠٠

ــ مرحبًا!

هتف صوت من ورائهم بعد ثوانٍ من وصولهم إلى واجهة الكلِّيَّة، حيث كانت تنتظر زميلة بيري ــ وهي طالبة في المرحلة الثانيَّة من الدراسة ــ لأخذهم في جولة استطلاعيَّة في أرجاء المكان.

التفتوا إلى الوراء، فشاهدوا امراة شابَّة، فارعةَ القدّ، يبدو عليها مظهر سلطانة لو كانت في زمان آخر، وبلد آخر، ترتدي تنُّورة ورديَّة مثل الكعكة بماء الورد التي كانت بيري تحبّها أيَّامَ طفولتها. وشعرُها الطويل ينساب على ظهرها في لفائف متقنة التصفيف. أمَّا شفتاها فكأنَّهما مطليَّتان بلون قرمزيٍّ صارخ، وحاجباها بمستحضر تجميل ورديّ اللون. إلَّا أنَّ أجمل ما فيها عيناها السوداوان المتباعدتان والمحدَّدتان بقلم أرجوانيّ، والمظلَّلتان بلون شذريّ باهر. كان ماكياجها أشبه براية بلد غير مستقرّ، لا يعلن عن استقلاله فحسب، وإنَّما عن عدم إمكان توقُّع أفعاله أيضًا.

قالت مبتسمة وهي تمدّ يدها ذات الأظافر المهذَّبة والجميلة:

ــ مرحبًا بكم في أوكسفورد. اسمي شيرين.

تلفَّظت باسمها متعمّدة مدّ حرفي العلَّة إلى أبعد ما تستطيع. كانت

مكتبة الفكر الجديد

تحيط بها هالةٌ مهيبة يمكن أن تضيف إليها جمالًا أخّاذًا على الرَّغم من أنفها المعقوف وذقنها اللافت للنظر، واللذين ربَّما يراهما البعض مفتقرين إلى الجمال بالمعنى التقليديّ. حضورها الطاغي أخذ بيري على حين غرّة، فتقدَّمت من المرأة مبتسمة ابتسامة عريضة قائلة:

ـ أهلًا بك، إنَّني بيري، وهذان هما والدايَ. ثم فكَّرت في نفسها: سوف نتظاهر بأنَّنا أسرة طبيعيَّة ليوم واحد.

قالت شيرين:

ـ يسرّني أن ألتقيكم كلّكم. عرفت أنَّكم أتراك. لقد وُلدت في طهران، لكنَّني لم أرجع إليها قطّ.

ثم هزَّت يدها موحية بأنّ طهران قريبة وتنتظرها من حول الناصية، واسترسلت:

ـ أعتقد أنَّ هذا هو السبب الذي جعلهم يطلبون منِّي أن أصحبكم في جولة، إذ يُعجبهم أن نتمشَّى كلّنا معًا. هل أنتم على استعداد لجولة؟

أومأت بيري ومنصور بالموافقة بحماسة، أمَّا سلمى فقد لاح عليها الاستهجان بسبب ارتداء المرأة تنُّورةً قصيرة وكعبين عاليين، وعليها كمِّيَّةٌ كبيرة من مساحيق التجميل، فبدت في نظرها كأنَّها ليست طالبة، وليست إيرانيَّةً على وجة التوكيد.

تمتمت سلمى باللغة التركيَّة:

ـ أيّ طالبة هذه؟

فهمست بيري لأمِّها بصوت خفيض، إذْ استبدَّ بها القلق من أن تكون الفتاة البريطانيَّة، الإيرانيَّة الأصل، تفهم التركيَّة:

ـ من فضلك يا أمَّاه!

مكتبة الفكر الجديد

هتفت شيرين:

ـ لنذهب! ولنبدأ أوَّلًا بزيارة كلِّيَّتنا. وبعد ذلك نطوف في بقيَّة أرجاء المدينة، غير أنَّني لا أفعل أيّ شيء وفق نظام صحيح. فذلك لا يتَّفق وطبعي. هيَّا بنا.

بعد هذا، انطلقت شيرين في حديثها الطويل عن تاريخ أوكسفورد. وبينما هي تتحدَّث، رافقتهم إلى أكثر أحياء المدينة القديمة عمقًا والتواءً. كانت تتكلَّم بحيويَّة ومرح وسرعة، فتخرج كلماتها تيَّارًا قويًّا متدفِّقًا، فوجدت أسرة نالبانتوغلو صعوبة في متابعتها، وخصوصًا سلمى التي لم تجد أيّ تشابه بين اللغة الإنكليزيَّة القديمة المستندة إلى النحو والتي تعلَّمتها قبل سنوات في المدرسة ـ ونسيتها بعد ذلك بسرعة البرق ـ والهذيانِ الذي تسمعه الآن. فأدَّت بيري دور المترجمة لمساعدتها، وإن كانت ترجمتها بتصرُّف، تخفِّف وطأة الكلمات، وتُعيد صياغة العبارات، وتحذف، عند الضرورة، كلَّ ما من شأنه أن يخدش سمع والدتها.

أوضحت شيرين للأسرة أنَّ كلّ الكلِّيَّات في جامعة أوكسفورد تتمتَّع باستقلال ذاتيّ، وأنَّها مؤسَّسات تحكم نفسها بنفسها، وتُدير شؤونها، ما جعل منصور مشوَّش الفكر، فاعترض قائلًا، بلغة إنكليزيَّة ركيكة:

ـ لكن يجب أن يكون هناك رئيس جامعة، سلطتُه فوق كلّ شيء.

ثم أرخى بصره من حوله كأنَّه كان يخشى أن تنزلق المدينة إلى فوضى.

فقالت شيرين:

ـ إنَّني مضطرَّة إلى عدم موافقتك على رأيك. فبحسب تجربتي،

مكتبة الفكر الجديد

أجد أنَّ السلطة مثل الثوم؛ فكلَّما أكثرت من استعماله، أثقلت رائحتُه أنفاسك.

رفع منصور بصره إلى أعلى مذعورًا، وهو الذي أمضى معظم سني حياته الراشدة متطلِّعًا إلى سلطة مركزيَّة، قويَّة وثابتة وعلمانيَّة، بحيث تتمكَّن من وقف تقدُّم التطرُّف الديني. فكانت السلطة عنده رابطة، وهي المِلاطِ الذي يُعِين على تماسك المجتمع في نظام تامّ. ومن دونه، فإنَّ الآجر سوف يهوي وينهار البناء.

أصرّ منصور قائلًا:

ـ المؤكَّد أنَّ السلطة ليست سيِّئة في كلّ الأحوال. ما رأيك في حقوق الإنسان؟ ما رأيك عندما يدافع زعيم قويّ عن المرأة؟

ـ حسنًا، أمَّا أنا فأقول: شكرًا جزيلًا، فأنا يمكنني أن أدافع عن حقوقي دفاعًا جيِّدًا، ونحن لا نريد سلطة عُليا لتُدافع بالإنابة عنَّا!

ما إن فرغت شيرين من التفوُّه بهذه الكلمات حتى رشقتْ سلمى بنظرة خاطفة، شملتْ حجابها ومعطفَها الطويل المفتقر إلى أيّ تصميم يُذكَر. أمَّا بيري، الحسَّاسةُ دومًا تجاه سلبيَّة الآخرين، فقد لاحظت أنَّ امتعاض أمّها من شيرين متبادل. فالفتاة البريطانيَّة، الإيرانيَّة الأصل، بدت مترفِّعة ومستخفَّة بالنساء اللواتي يغطِّين رؤوسهنَّ بالحجاب، وهو ما لم تضطرّ إلى مداراته وإخفائه.

جذبتْ بيري والدتها من ذراعها برفق ـ الذراعِ التي تحمل ندبة الحرق، تذكارًا من يوم غسيل السجَّاد قبل سنوات مضت ـ فتلكَّأت الاثنتان قليلًا في سيرهما.

لاحظت الأمّ وابنتها فتاة وفتًى يتبادلان قبلات حميمةً على درجات

مكتبة الفكر الجديد

المدخل إلى متحف اشموليان، فتورَّد وجه بيري حياءً وخجلًا كأنَّها هي التي ضُبِطت متلبِّسةً في أحضان الفتى. ورأت بطرف عينها أمَّها متجهِّمةَ الوجه.

فهذه هي المرأة نفسُها التي لم تعلِّمها شيئًا عن الجنس، ولا تزال تتذكَّر عندما سألت أمَّها يومًا في الحمَّام العموميّ وهي طفلةٌ صغيرة، عن الجزء المتدلِّي من بين ساقَي أيّ صبي، فما كان من سلمى عندئذٍ إلَّا أن اندفعت في اتِّجاه أمّ الصبي وراحت تقرِّعها تقريعًا مطوَّلًا وخشنًا، وإن لم يتجاوز بعلوِّه ضوضاءَ الماء المنبعث من النافورة الرخاميَّة. وشعرت بيري بالدهشة والذنب لأنَّها كانت مُحبَّة لاستكشاف شيء لم يكن من حقِّها على ما يبدو أن تكتشفه.

وبمرور الوقت، استبدَّ بها حبّ الاستطلاع مرَّة أخرى. فقد سألت ذات مرَّة أمَّها إن كانت قد فكَّرت يومًا ما في الإجهاض، آخذة في الحسبان المدَّةَ الزمنيَّة الطويلة الفاصلة بين حملها الأوَّل وحملها الأخير، إذْ يُحتمل أن يكون والداها قد فكَّرا في أنَّ أسرتهما اكتملت وقرَّرا عدم إنجابها.

قالت سلمى يومئذٍ:

ـ حسنًا، إنَّه سؤال محرج. فقد كنت في سنّ الرابعة والأربعين عند ولادتك.

فقالت بيري متسائلة:

ـ لماذا لم تتوقَّفا عن الإنجاب؟

ـ لم يكن ذلك قانونيًّا، والمؤكَّد أنَّه إثم. ثمَّة وسائل للتوقُّف عن الإنجاب، لكنَّني قلت في نفسي: إنَّ الإثم في نظر الله أسوأ من العار في

مكتبة الفكر الجديد

عيون الجيران. لهذا استمررتُ في حملك.

لم تخبر بيري والدتَها بمدى امتعاضها من هذا الردّ، إذْ توقَّعت أن تقول شيئًا أرقّ وألطف، مثل: «لم أفكِّر أبدًا في وضع حدّ لذلك الحمل، فقد أحببتك حبًّا جمًّا منذئذٍ»، أو «حصلتُ على موعد مع العيادة الطبِّيَّة، لكنَّك في الليلة التي سبقت الموعد راودتني في حلمي، فتاةً صغيرة خضراء العينين». . . غير أنَّ بيري استنتجت، بحسب ما آلت إليه الأمور، أنَّها طفلة وُلدت بين الإثم والعار، وهما طبقتان من طبقات العوز.

* * *

زاروا الكليَّة حيث ستُقيم بيري. بناء رائع من الدرجة الأولى، بدا في أنظار أسرة نالبانتوغلو متحفًا أكثر ممَّا هو بناء لسكن الطلَّاب. وعلى قدر ما استبدَّت الدهشة ببيري لمرأى السقوف العالية والتغليف برقائق خشب البلُّوط وعراقة الموروث، فإنَّ خيبة الأمل تملَّكتها وهي صامتة بسبب حجم غرفتها وبساطتها، فقد كانت تشتمل على حوض غسيل ودُرج وسرير وطاولة كتابة وخزانة. هذا كلّ ما هنالك ـ يا له من أمر يناقض المظهر الخارجي تناقضًا صارخًا ـ لكن على الرَّغم من ذلك، فهناك حرِّيَّةُ العيش بمفردها أوّلَ مرَّة، وهذا أمر يبعث على النشوة.

في أثناء هبوطهم الدرجَ الضيِّقَ وإفساحهم المجال للطلبة للمرور إلى جانبهم، التفتت شيرين وغمزت بيري، وقالت:

ـ إذا أردت أن تعقدي صداقاتٍ سريعةً فاتركي باب غرفتك مفتوحًا، وبهذا سيدخل الناس ويقولون لك: مرحبًا. أمَّا الباب المغلق فيعني: لا تدخل، فأنا لا أريد الإزعاج.

مكتبة الفكر الجديد

فهمست بيري حتى لا يسمع والداها هذا الكلام:

ـ حقًّا؟ لكن، كيف يمكنني الدراسة على نحو متقطِّع؟

ضحكت شيرين، كأنَّ كلمة الدراسة هي أكثرُ الكلمات التي تسمعها اليوم إثارةً للضحك.

في بقيَّة عصر ذلك اليوم، أطلعت شيرين أُسرة نالبانتوغلو على كاميرا رادكليف المدوَّرة ومسرحِ شليدونيان ومتحفِ التاريخ الطبيعيّ وأدواتِه العلميَّة البدائيَّة. وكانت محطَّتُهم التالية مكتبةَ بودليان، فأوضحت شيرين لهم أنَّ «بود»، على حدِّ تعبير الطلبة والأساتذة، تحتوي على ما يزيد على مئة ميل من الرفوف تحت الأرض، وكان على المرء في مرحلة من المراحل أن يقسم اليمين على عدم مدّ يده وسرقةِ الكتب. وفي بعض مكتبات الكلِّيَّة ثمَّة كتبٌ مقيَّدة بالسلاسل، وهو ما حدث في العصور الوسطى.

أشار منصور إلى كتابة على شعار مجسَّد على الجدار:

ـ ما معنى هذه الكتابة؟

قالت شيرين مبصرة إلى السماء من دون أن يعرف أحدٌ إن كانتْ ساخرةً أو غير متعمَّدة:

ـ الربّ هو نوري.

استدلَّت سلمى على الإشارة أكثر ممَّا استدلَّت على الكلمات، فلكزت زوجها في صدره.

ـ هل رأيتَ؟ لو أنَّ جامعة تركيَّة رفعت مثل هذه العلامة على جدارها عن الله، فسوف تغضب وتتكدَّر. وسوف تنظر إليها على أنَّها مأوًى للمتشدِّدين! معسكرٌ إرهابيٌّ للانتحاريين! أمَّا هنا فليست لديك

مكتبة الفكر الجديد

مشكلة مع الكتابات الدينيَّة!

فردَّ منصور ناهرًا:

ـ السبب هو أنَّ للدين طبيعةً مختلفة هنا في أوروبا.

قالت سلمى:

ـ وكيف، فالدين هو الدين!

أجاب منصور وقد بدا حتى لنفسه أشبهَ بطفل نَكِدِ المزاج:

ـ هذا غير صحيح. فبعض الأديان متشدِّدةٌ أكثر من غيرها. انظري، الدينُ في أوروبا لا يحاول الهمينة على كلّ شيء وكلّ فرد. والعلمُ في متناول الكلِّ!

قالت سلمى:

ـ ازدهرتِ العلوم في بلاد الأندلس. وقد أوضح لنا ذلك أوزومباز أفندي، رحمه الله. مَنْ تظنّ هو مخترعُ علم الجبر؟ أو الطاحونةِ الهوائيَّة؟ أو فرشاةِ الأسنان؟ القهوةِ؟ التلقيحِ؟ غسولِ الشعر؟ المسلمون! وفي الوقت الذي كان فيه الغربيُّون نادرًا ما يغتسلون، كانت لنا حمَّاماتٌ كبيرة معطَّرةٌ برائحة ماء الورد. إنَّنا نحن الذين علَّمنا الغربيين النظافةَ، وها هم الآن يعيدون بيع بضاعتنا إلينا.

قال منصور:

ـ مَنْ ذا الذي يهتمّ بهويَّة المخترع قبل ألف سنة؟ اسألي نفسك أيّتها المرأةُ: من استفاد من العلم الاستفادةَ كلَّها؟

غمغمت بيري في دهشة عندما لاحظت أنَّ المرأةَ الغريبة تشاهد المشاجرة بين والديها:

ـ كفى يا أمِّي ويا أبي!

مكتبة الفكر الجديد

أمَّا شيرين، فقد استرسلت في شرحها، إمَّا لأنَّها أدركت التوتُّر وأرادت أن تزيد الطين بلَّةً، وإمَّا مصادفةً لا غير، وأوضحت أنَّ أعدادًا كبيرة من مباني الكلِّيَّات القديمة في أوكسفورد نشأت بسبب وجود الأديرة النصرانيَّة. إلَّا أنَّ بيري لم تترجم لأمِّها شيئًا من هذا الكلام إلى اللغة التركيَّة.

وبينما هم يرتقون الدرجَ في مكتبة بودليان، توقَّفت بيري كي تقرأ أسماءَ الرعاة مكتوبةً على لوح من ذهب. فمنذ عصور سحيقة، ومن دون انقطاع، دعم الأثرياء والأقوياء هذه المجموعة الرائعة. وشعرت بالأسى عند تفكيرها في أنَّ هذه المكتبة لو شُيِّدت في إسطنبول في حدود الحقبة الزمنيَّة نفسها، لكانت قد مُحيت من على وجه الأرض، أكثرَ من مرَّة ربَّما، وشُيِّدت محلَّها في كلّ مرَّة عمارةٌ مختلفة، بتصميم مغاير واسم جديد، وذلك بحسب الأيديولوجيا السائدة وقتَ كلّ بناء، إلى أن يأتي اليوم الذي تتحوَّل فيه إلى ثكنة عسكريَّة، ومن بعد ذلك إلى مركز تسوُّق تجاريّ. وهنا أطلقت حسرة طويلة.

فسألتها شيرين وهي تقف إلى جانبها:

ـ هل أنت بخير؟

أجابت بيري:

ـ نعم، كم كنت أتمنَّى لو أنَّ عندنا مثلَ هذه المكتبات الجميلة في إسطنبول.

ـ استمرِّي في تمنِّياتك يا أختاه! إنَّ أوروبا تطبع الكتب منذ العصور الوسطى. إنَّني لا أعرف متى بدأ الشرق الأوسط يطبع الكتب تحديدًا، لكنَّني أعرف تمامًا أنَّ النحس يخيِّم علينا. أعني لا بأس بإيران وتركيا ومصر. أفهم أنَّ لهذه الدول ثقافاتٍ غنيَّةً وموسيقى رائعةً وطعامًا

مكتبة الفكر الجديد

جيِّدًا، لكنَّ الكتبَ معرفةٌ، والمعرفةُ قوَّةٌ. صحيح؟ كيف يمكن ردم هذه الهوَّة؟

قالت بيري بهدوء:

ـ ٢٨٧ عامًا:

ـ ماذا؟

أجابت بيري:

ـ آسفة، اخترع غوتنبرغ الطباعة نحو العام ١٤٤٠، وطُبعت بعض الكتب العربيَّة في إيطاليا في العقد الأوَّل من القرن السادس عشر، إلَّا أنَّ المسلمين بدأوا يطبعون مع متفرِّقة[1] في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، في ظلِّ رقابة مشدَّدة وصارمة بطبيعة الأحوال. في أيّ حال، يُضاف هذا إلى فارق مقداره ٢٨٧ عامًا.

ـ أنت غريبة الأطوار، وسوف تتمكَّنين من العيش في أوكسفورد مؤكَّدًا.

ابتسمت بيري وقالت:

ـ أهذا هو رأيُك؟

شعروا بالعطش، فتوقَّفوا لتناول القهوة في السوق القريبة. وبينما كانت بيري وشيرين تبحثان عن طاولة شاغرة، ذهب منصور وسلمى يبحثان عن مرافقَ صحِّيَّة، وهما يسيران منفصلين ومتباعدين، أحدهما عن الآخر.

قالت شيرين على حين بغتة:

---

(١) إبراهيم متفرِّقة (نحو ١٦٧٤ ـ ١٧٤٥): ترجمان الباب العالي، مجريُّ الأصل، أنشأ الطباعة بالحرف العربي في الآستانة، فكان «صحاح الجوهريّ» أوَّل كتاب طُبع فيها سنة ١٧٢٨ (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ إذا تحدَّثنا عن الفجوة، فأنا أرى أنَّ ثمَّة فجوة كبيرة بين والديك، يبدو أنَّ والدك يساريّ الهوى، صحيح؟ أمَّا والدتك فهي. . .

ـ لن أصفه بأنَّه يساريّ الهوى، لكنَّه علمانيّ. . . من أنصار كمال أتاتورك، إن كنت تعرفين شيئًا عن تركيا. أمَّا أمِّي. . . .

وهنا تركت العبارة ناقصة من دون أن تكملها، تمامًا كما فعلت شيرين نفسُها. وبتؤدة، التقطت بيري نُسالة من على رَدَنها ولفَّتها بين أصابعها، فهي لم تُصادف في حياتها فتاةً بمثل هذه الحدَّة وهذا الفضول، إلَّا أنَّها لم تشعر بالإهانة على النحو الذي ينبغي لها أن تشعر به. ومع هذا، فقد غيَّرت دفَّةَ الحديث قائلةً:

ـ إذن، أنت مولودة في طهران؟

ـ نعم، وكنت أكبرَ البنات الأربع. مسكين بابا! كان يتحرَّق شوقًا إلى صبيّ، إلَّا أنَّ الشيطان كان ينسلّ إلى سريره. وكان بابا مفرطًا في التدخين، لكنَّه يأكل كالطائر، وغالبًا ما كان يردِّد: إنَّه يقتلني، ويقصد بذلك نظامَ الحكم وليس نحن. وأخيرًا عثر له على منفذ. لم ترغب مدرجان في الرحيل، لكنَّها وافقت أخيرًا عن حبٍّ. وسافرنا إلى سويسرا. هل سبق لك أن زرتِها؟

أجابت بيري:

ـ لا، هذه هي أوَّل مرَّة أُغادر فيها إسطنبول.

ـ حسنًا، سويسرا جميلة، جميلةٌ أكثر ممَّا يجب. مغمورةٌ في جمال كاراميل مذاب. أتعرفين ما أعني؟ أربعة أعوام من عمري في مدينة سيون(١) الهادئة. صدِّقي أو لا تصدِّقي، في يوم من الأيَّام، طرق

---

(١) سيون (sion): مدينة سويسريَّة في وادي الرون قاعدة مقاطعة فاليه، تشتهر بصناعة الخمور (المترجم).

سمعي صوتُ فتاة تتذمَّر وتشكو أمرها إلى أبيها لأنَّ متجر التسوُّق لا تتوافر فيه مجموعتُها المفضَّلة من الكرز. أعني، أنَّ العالم يغلي ويفور، فجدار برلين انهار، وأنت تتكلَّمين على الكرز. على الرَّغم من أنَّني كنت طفلة صغيرة، فإنَّني كنت قادرة على أن أشمّ في الأجواء رائحةَ ما هو مثير للمشاعر. إنَّني أعشق الجدران عندما تتداعى وتنهار. حسنًا، الحياة جيِّدة في سويسرا، إلَّا أنَّها ذاتُ إيقاع بطيء لا يلائم مزاجي. ومنذ ذلك الوقت، فإنَّني في عجالة من أمري كي أعوِّض عن الوقت الذي فاتَني.

أصغت بيري، وانفرجت أساريرها عن بهجة بعد أن كان قد استبدّ بها حبُّ الاستطلاع.

ـ وبعد ذلك سافرنا إلى البرتغال التي راقت لي كثيرًا، إلَّا أنَّ بابا لم تَرُقْ له. وكان لا يزال مفرطًا في التدخين، ومتذمِّرًا، أمضينا عامين في لشبونة، وفي الوقت الذي بدأتُ فيه أتعلَّم ما يكفي من اللغة البرتغاليَّة، إذ بأبي يقول لنا: هيَّا أيُّها الصغار، سوف نسافر إلى إنكلترا، فالملكةُ في انتظارنا! كنت يومئذ في الرابعة عشرة، وعندما تكونين في سنّ الرابعة عشرة، يتعيَّن عليك معالجةُ شؤونك وليس شؤونَ الأسرة. في أيّ حال، في السنة التي وصلنا فيها إلى لشبونة، توفِّي أبي، وقال الأطبَّاء إنَّ رئتيه تفحَّمتا. ألا تعتقدين أنَّ ثمَّة غرابة إلى حدٍّ ما في استعمال الطبيب مثلَ ذلك التشبيه، أتراه يظنّ أنَّه شاعر أم ماذا؟

وهنا ضربت شيرين بأصابعها على الطاولة وتفحَّصت أظافرها المشذَّبةَ، واسترسلت قائلة:

ـ كانت إنكلترا حلمَ أبي وليست حلمي أنا، وها أنذا هنا بريطانيَّة كالفطيرة المكسوَّة بالعسل الأسود، لكنَّني غريبة مثل قالب حلوى محشوٍّ ومكسوٍّ بالتمر! قالت بيري متسائلة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ما المكان الذي تعتقدين أنَّه بيتُك؟

قالت شيرين وهي تصرّ أسنانها مستهجنة:

ـ بيتي؟ سوف أخبرك بقاعدة عامَّة: البيتُ حيث توجد جدَّة المرء.

فابتسمت بيري.

ـ جميل. وأين جدّتُك؟

ـ على عمق ستِّ أقدام تحت سطح الأرض. لقد توفِّيت قبل خمسة أعوام، وكانت تهيم بي حبًّا، وكيف لا وأنا أُولى حفيداتها؟ وقال الجيران وقتئذٍ إنَّها كانت تأمل برجوعنا إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرةَ. ذلك هو البيتُ في رأيي! لقد ووريتِ الثرى مع أمِّي في طهران، لهذا فإنَّني من الناحية العمليَّة بلا بيت.

قالت بيري متلعثمةً وهي تشعر، في تردُّدها، بالعجز في مسايرة المتفائلات البسيطات، اللواتي كانت شيرين واحدةً منهنَّ على ما يبدو:

ـ أنا... آه... آسفة.

ـ أتعرفين ماذا يطلقون على المقبرة هناك؟ جنَّة الزهراء. لامبالاةٌ، صحيح؟ يجب أن يُطلَق على كلّ مقبرة مصطلحُ «جنَّة»، وليس ثمَّة ضرورة لإزعاج الله بيوم الدينونة والقدورِ المغليَّة والجسورِ الدقيقة كالشعرة وما إلى ذلك، فإذا ما وافتك المنيَّةُ، فإنَّك تذهبين إلى الجنَّة. نهاية الحكاية!

لبثت بيري ساكنة من دون حراك، مندهشةً ومحتارة بالدرجة نفسها، إذْ بدت لها صديقتُها الجديدة، وهي في سنِّها نفسها، قد عاشت ضعفَ ما عاشته هي، وأنَّها رأت من العالم أكثرَ ممَّا رآه كلّ أفراد أسرتها قاطبةً. كما أنَّ بيري لم يسبق لها أن سمعت أحدًا يتحدَّث مثلَ

مكتبة الفكر الجديد

هذا الحديثِ عن الحياة الآخرة، ولا حتى والدها الذي كان يعبِّر عن امتعاضه من كلّ ما يتعلَّق بالدين.

عاد منصور وسلمى بعد برهة قصيرة، ويبدو أنَّهما قد وجدا في نهاية المطاف شيئًا ما يتَّفقان بشأنه: شيرين. والأسباب متباينة، وإن كانت بالقوَّة نفسها. كانت هذه الفتاةُ قد ضايقتهما وجرحت مشاعرهما، فراحا يخطِّطان لإخبار ابنتهما بالابتعاد عن الفتاة البريطانيَّة الإيرانيَّة الأصل، لأنَّها ستكون ذاتَ أثر سيِّئ في ابنتهما.

بعد مرور ساعة تقريبًا، وبعد أن ساروا في حلقات كثيرة الدوائر، انتهى بهم المطافُ إلى اتِّحاد أوكسفورد. وقبل أن تفترق الفتاة عنهم، عانقت بيري كأنَّهما صديقتان لم تشاهد إحداهما الأخرى منذ زمن بعيد. كان عطرُها مسكيَّ العبير، يُثير النشوة، له من القوَّة ما أفقد بيري القدرةَ على التركيز مدَّة قصيرة وأصابها بالدُّوار.

قالت شيرين إنَّ الإنكليز قوم مؤدَّبون ومهذَّبون، لكنَّهم شديدو التحفُّظ والحذر إذا ما رأوا أجنبيًّا مستوحدًا في بلد جديد. لذلك فإنَّه يُستحسن ببيرى أن تخرج في صحبة غيرها من الطَّلَبة الأجانب، أو من ذوي الأصول الثقافيَّة المختلطة، مثلها.

قالت بيري:

ـ إذن، أخمِّن أن أراك قريبةً منِّي؟

كانت بيري تعني ما تقول لأنَّها على الرَّغم من هيمنة شخصيَّة شيرين قليلًا، فإنَّها لم تستطع الحيلولة دون انجذابها إلى ثرثرتها التي لا نهاية لها، وإلى ثقتها بنفسها وتحرُّرِها. إنَّ المرء يتطلَّع دومًا إلى ما هو في حاجة إليه، وكلُّ ممنوع مرغوبٌ فيه.

مكتبة الفكر الجديد

سألت شيرين مقبِّلةً سلمى ومنصور على خدَّي كلّ واحد منهما، وإن لبث الأبُ وزوجتُه جامدين في وقفتيهما:

ـ سوف نلتقي؟ أتراهنين؟ نسيت أن أُخبرك بأنَّنا في المربَّع نفسه.

سألت بيري:

ـ صحيح؟

أشرقت شيرين مبتهجةً وقالت:

ـ نعم. الحقَّ أنَّ غرفتك مجاورة لغرفتي. وإذا ما تجرَّأتِ وأصدرت صوتًا فسوف أُقيم الدنيا وأُقعدها، وأطبق السماء على الأرض... مزاح لا أكثر. تركيا وإيران جارتان كما هما على الخارطة. سنكون صديقتين رائعتين، أو عدوَّتين لدودتين. ربَّما سنشنّ حربًا: الحربَ العالميَّةَ الثالثة، لأنَّك تعلمين بأنَّ هذا هو ما سيحدث. صحيح؟ ستنشب حرب دمويَّة أخرى لأنَّ الشرق الأوسط كلَّه في فوضى تافهة. المعذرة على هذه اللغة.

ثم التفتت شيرين إلى والدَيْ بيري المندهشين، وقالت مخطئة في لفظ لقبيهما:

ـ لا تقلقا يا سيِّد ويا سيِّدة ناوباو قتلو على ابنتكما، فهي في يدٍ أمينة. ومهمَّتي من الآن فصاعدًا الاهتمامُ بها.

* * *

الصـــــــــمت

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

بعد أن غادر الأَبوان إلى محطَّة القطار، عادت بيري التي استبدَّ بها إحساسٌ مقرف بالوحدة إلى السلالم في الجناح الأماميِّ من كلِّيَّتها. وعلى الرَّغم من الإحساس بالنشوة لتملُّصها من مشاجراتهما وجدالهما مرَّة واحدة، فإنَّهما كانا في الأقلِّ قريبين منها. وفي ظلِّ غيابهما، تملَّكها شعور مقلق كأنَّ بساطًا قد جُذب من تحت قدميها، فباتت مضطرَّةً إلى السير على أرض وعرة. وبعد أن تلاشى الفخر والإثارة اللذان كان نهارُ ذلك اليوم مفعمًا بهما، كأنَّ اضطرابًا عميقًا غشيها وجعلها تُدرك أنَّها ليست مستعدَّة بعدُ للمرحلة الكبرى المقبلة من حياتها كما خُيِّل إليها، وقفت رابطة الجأش في وجه الريح المختلفة تمامًا عن النسيم اللاذع الذي تتَّصف به أوقات الأصيل في إسطنبول، وتنفَّست تنفُّسًا عميقًا ثم تنهَّدت.

كان أنفها يفتِّش عن روائح مألوفة: حيواناتِ بلح البحر المقليَّةِ جيِّدًا، والكستناءِ المشويَّة، والحلوى بالسمسم ومصارين الغنم المشويَّةِ المتبَّلة برائحةِ أشجار الزمزريق الأرجوانيَّة الأزهار في فصل الربيع ونباتات الغار في الشتاء. وكما هو شأن ساحرة فاقدةٍ العقلَ نسيت مكوِّنات جرعاتها السحريَّة، فإنَّ إسطنبول كانت تمزج عطورًا بعيدة

مكتبة الفكر الجديد

الاحتمال في القِدْر نفسه: زنخةً وطيِّبةً، تُثير الغثيان وتُسيل اللعاب.

أمَّا هنا في أوكسفورد، فإنَّ الروائح الراتينجيَّة المعبَّقَ بها الجوُّ، فتبدو ثابتة وجديرة بالثقة. ارتقتِ الدرج الخشبيّ المعتم المؤدِّي إلى غرفتها حيث فتحت حقيبتها وأخرجت ثيابها وعلَّقتها في الخزانة، ورتَّبت أدراجها ووضعت صور أفراد أسرتها على الطاولة. أمَّا مفكِّرتها، فوضعتْها إلى جانب سريرها.

كانت بيري قد أحضرتْ معها بضعة كتب مفضَّلةٍ لديها، بعضُها باللغة التركيَّة والبعضُ الآخر باللغة الإنكليزيَّة.

ومنها: «البومةُ العمياء» لصادق هداية، و«غرامُ امرأة طيِّبة» لأليس مونرو، و«أسنانٌ بيض» لزادي سميث، و«الساعاتُ» لمايكل كنينغهام، و«إلٰهُ الأشياء الصغيرة» لأرونداتي روي، و«عن التاريخ الطبيعي للتدمير» لدبليو. جي. سيبالد، و«توتونا مايانلار» لاوغوز أتاي، و«مدنٌ لامرئيَّة» لإيتالو كالفينو، و«فنَّانُ العالم العائم» لكازو إيشيغورو. وفي مرَّة من المرَّات، سألها الصديق الوحيد الذي عرفته:

ـ لماذا تطالعين دومًا مؤلَّفات الأدباء الغربيِّين؟

كانت يومئذ طالبة في الثانويَّة العامَّة، في آخر سنة من سنوات تلك الثانويَّة، أمَّا هو فكان أكبر منها سنًّا بثلاثة أعوام، طالبًا يدرس علم الاجتماع في الكلِّيَّة. وقد فاجأها الاتِّهام المنطوي عليه سؤالُه. كانت بيري حقًّا تقرأ الأدب المحلِّي والأدب العالمي. وكانت نزَّاعة إلى أن تُغرق نفسها في أيّ كتاب يستحوذ على خيالها ويُثير حبّ استطلاعها، من دون اعتبار لجنسيَّة مؤلِّفه، غير أنَّ قائمة كتبها كانت أوروبيَّة أكثر ممَّا ينبغي لها مقارنة بصديقها الذي كانت رفوف كتبه تُظهر عناوين تركيَّة وبعضَ الروايات الروسيَّة والأميركيَّة اللاتينيَّة، والتي وصفها بأنَّها غيرُ

مكتبة الفكر الجديد

مفسدة ما دامت لم تُكْتَبْ «من وجهة نظر الإمبرياليَّة الثقافيَّة». وقال لها يومئذ:

ـ حين أنظر إليك، أجد أمامي مثقَّفةً شرقيَّة نموذجيَّة في طور التكوين، مغرمةً بأوروبا، وعلى طرفَي نقيض مع جذورها.

لم تفهم بيري قطُّ السبب في كون الجذور ذاتَ قيمة عالية مقارنة بالأغصان أو الأوراق. فللأشجار فروع وأغصان رفيعة كثيرة، تمتدّ في كلِّ اتِّجاه، تحت تربة الأرض الموغلة في القِدَم وفوقها. فإذا كانت الجذور ترفض البقاء ثابتة، فلماذا نتوقَّع ما هو مستحيلٌ من البشر؟

ومع هذا، فقد كانت بيري تشعر، في ولهها به، بالذَّنْب يدبّ فيها. فعلى الرَّغم من أنَّها كانت أكثر ميلًا إلى المطالعة منه، فإنَّها بدت وقد ضيَّعت وقتها في التجوال في الشوارع الفرعيَّة والأزقَّة الخلفيَّة في مدينة الكتب التي تُغويها نكهاتُها وميولُها. لقد حاولت مدَّةً وجيزة من الزمان ألَّا تصرف نقودها على شراء الكتب الغربيَّة، إلَّا أنَّ قرارها الجديدَ سرعان ما انهار، فالكتابُ الجيِّد جيِّدٌ، وهذا هو كلّ ما يهمّ. يُضاف إلى ذلك، أنَّ بيري لم تستطع طوال حياتها أن تفهم الاتِّجاه الرجعيّ للقراءة. ففي مختلف أرجاء العالم، تتحدَّد هويَّتك بما أنت عليه وما فعلته وما قرأتُه أيضًا، أمَّا في تركيا، كما هو شأنُ البلدان المسكونة بأسئلة تخصّ الهويَّة، فإنَّ هويَّتك تحدَّد أساسًا بما ترفضه. وبدا لها أنَّ زيادة تعلُّق الناس بكاتب ما تعني أنَّ مطالعتهم مؤلَّفاته أقلُّ احتمالًا.

لهذا، كان لا بدَّ لعلاقتهما من أن تصل إلى خاتمة المطاف، وهي العلاقة التي لم يقوّضها ذوقاهما المتباينان في الأدب بقدر ما قوَّضها نزوعهما المختلف نحو الألفة والجنس. فثمَّة نموذج من الأصدقاء في الشرق الأوسط ينزعج إذا رفضتِ تلميحاته الجنسيَّة، لكنَّك في الوقت

مكتبة الفكر الجديد

نفسه تفقدين اهتمامه في اللحظة التي تبدئين فيها بالاستجابة بكلٍّ جوارحك لرغباته. وهكذا ينتهي بك الأمر إن قلتِ «لا» أو قلت «نعم». وفي الحالتين، تكونين في وضع الخاسرة.

ما إن فرغت بيري من ترتيب غرفتها حتى فتحت النافذة ذاتَ الإطار الرصاصيّ، والمطلَّةَ على العشب النقيّ الممتدّ في حديقة الكلِّيَّة. ثمَّة إحساس بالخواء يُخيِّم على الأجواء، يشوِّش الخطوط العامَّة لكلٍّ شكل محسوس من على مسافة بعيدة. ارتعدت فرائصها لدى تحديقها في ظلال الأشجار القريبة كأنَّ طيفًا أو جنِّيًّا رقَّ لوحدتها ورثى لحالها، مرَّ إلى جانبها مرورًا سريعًا لائمًا إيَّاها برقَّة متناهية. أتراه طفل الضباب؟ لا تظنّ ذلك، فهي لم تره منذ زمن طويل. ربَّما كان شبحًا إنكليزيًّا، فقد بدت لها أوكسفورد مكانًا يمكن للأشباح أن تحوم من حوله في الظلام من دون أن يمنعها مانع أو أن تكون مخيفةً بالضرورة. أوَّلُ شيء جذب بيري في أوكسفورد هو الصمتُ المطبق، وكان ذلك وسيظلّ، على مدى الأشهر المقبلة، الصفةَ الوحيدةَ التي وجدت صعوبة بالغة في اعتيادها: غيابَ الضوضاء. كانت إسطنبول مدينة مفعمة بالصخب والضجيج ليلًا ونهارًا. وإذا ما أغلق المرء النوافذ وأسدل الستائر، ووضع سدَّادة الأذن، وغطَّى نفسه بدثار حتى ذقنه، فإنَّ الطنين الذي قلَّما يهدأ سوف ينساب من خلال الجدران ويتسلَّل إلى نوم المرء. وستظلّ معلَّقةً في الهواء ورافضةً التبخُّرَ صيحاتُ الباعة الجائلين الأخيرةُ في الشوارع، وهديرُ عربات آخر الليل، وصافراتُ سيَّارات الإسعاف أو المراكب في البوسفور، والأدعيةُ والتجديفُ التي تتضاعف بعد منتصف الليل. كانت إسطنبول ترفض الخواء شأنُها في ذلك شأنُ الطبيعة. حين جلست بيري فوق سريرها، شعرت بحيرة في أعماقها، إذْ بدا قلق أبويها وقد لحق بها

مكتبة الفكر الجديد

وإنْ كانت أسبابُه خاصَّةً بها، شعرت بأنَّها أشبه ما تكون بفتاة منتحلة شخصيَّةً أخرى، وخشيت أن تفشل في دراستها هنا، وسط طلبة يتَّصفون بتعليم أفضل وفصاحةٍ أكبرَ منها، فاللغة الإنكليزيَّة التي تعلَّمتها في المدرسة وهذَّبتها طوال ليالٍ طويلة من القراءة بمفردها، قد لا تكون كافية لمتابعة دراسة متقدِّمة للحصول على درجة في الفلسفة والسياسة والاقتصاد، وإذا كانت بيري قد تألَّمت كثيرًا في مداراة خوفها من الفشل بأقصى درجة ممكنة، «فإنَّ ذلك الخوف كان عميقًا جدًّا. انكمش عنقها، وفوجئت بالسرعة التي ترقرق فيها الدمع في مآقيها. وعندما انسابت دموعها، شعرت بها دافئةً ومألوفة وغير حزينة قطّ.

أعادتها طرقة على الباب إلى اللحظة الراهنة، لكن من دون انتظار جواب. فُتح الباب ودلفت شيرين، وهي تقول:

مرحبًا أيَّتها الجارة!

شهقت بيري لاإراديًا، وابتسمت تحاول أن تستجمع رباطة جأشها. أمَّا شيرين، فلبثت واقفة في منتصف الغرفة واضعة ذراعيها على خاصرتيها ومردِّدة:

ـ قلت لك اتركي الباب مفتوحًا. أهو فتًى؟

ـ ماذا؟

ـ أنت تبكين، فهل انفصلت عن صديقك؟

ـ لا.

ـ حسنًا، لا ينبغي لك أن تذرفي الدمع من أجل رجل. إذن، ما الأمر؟ هل انفصلت عن إحدى صديقاتك؟

ـ ماذا؟ كلَّا!

مكتبة الفكر الجديد

فقالت شيرين رافعة يديها معتذرة اعتذارًا ساخرًا وهازئًا:

ـ لا بأس، هوِّني عليك، يمكنني أن أرى أنَّك باستقامة معكرونة يابسة طويلة الأعواد، رفيعتها، في حين أنّني أشبه بمعكرونة الباستا الطازجة.

اتَّسعت عينا بيري، فقالت شيرين مضيفةً هازَّةً رأسَها قليلًا:

ـ إذا لم تكن هذه الدموع من أجل حبيب، فليس هناك بدٌّ من أنَّك تحنِّين إلى الوطن. أنت محظوظة!

ـ محظوظة؟

ـ نعم، فإذا كنت متشوِّقة إلى الوطن، فهذا يعني أنَّ لديك بيتًا في مكان ما.

جلست شيرين على الكرسيّ ذي المرفقين إلى جانب الطاولة، وأخرجت من جيبها زجاجة صبغ أظافر لونه أحمر صارخ أكثر ممَّا ينبغي حتى يُخيَّل إلى المرء أنَّ عددًا من المخلوقات ذُبح من أجل صناعته، وقالت:

ـ أتمانعين؟

مرَّة أخرى، خلعت شيرين خفَّها من دون انتظار جواب، وبدأت بطلاء أظافر قدميها، ففاحت في الغرفة رائحةٌ كيماويَّة لاذعة، وقالت:

ـ الآنَ، وبعد أن رحل والداك، أيمكنني أن أطرح عليك بعض الأسئلة؟ هل أنت متديِّنة؟

أجابت بيري باذلةً قصارى جهدها، كأنَّها تكشف عن أمر ما استغرق منها وقتًا كي تفهمَه:

ـ أنا، لا، لست كذلك، غير أنَّ الربَّ موضعُ عنايتي واهتمامي.

مكتبة الفكر الجديد

ـ همم: أرغب في تفاصيلَ أخرى. مثلًا، هل تأكلين لحم الخنزير؟

ـ لا.

ـ والخمرة؟ هل تشربينها؟

ـ نعم، أحيانًا، بصحبة أبي.

ـ هه، هذا ما لم أفطن له. أنت متناصفة إذن، نصفُك الأوَّلُ من شيء ما، ونصفُك الآخرُ من شيء مختلف.

عقدت بيري حاجبيها مقطّبةً، وسألت:

ـ ماذا تعنين؟

إلَّا أنَّ شيرين لم تعد مصغيةً إليها، إذْ بدت كأنَّها تبحث عن شيء في جيوبها، ولمَّا عجزت عن إيجاده، لَوَتْ أنفها ونهضت واقفة واتَّجهت إلى غرفتها في الطرف المقابل للدرج، سائرةً على كعبيها كي لا تلطِّخَ أظافر قدميها المطليَّةَ قبلَ قليل.

استبدّ حبّ الاطِّلاع ببيري وانزعجت قليلًا، فما كان منها إلَّا أن أسرعت في اقتفاء أثر شيرين إلى غرفتها التي كان بابها مفتوحًا على مصراعيه، فتوقَّفت بغتة وذُهلت من مرأئ الفوضى أمامها: محفظةِ مستحضرات التجميل، كريماتٍ للوجه، قفَّازينِ بشريطين، زجاجاتِ عطر، تفَّاحةٍ مأكولٍ نصفُها، أغلفةِ حلوى، أكياسِ رقائق ذرة فارغةٍ، علبِ كوكا كولا مجعَّدةٍ، كتبٍ وصفحاتٍ مأخوذةٍ من مجلَّات مبعثرة هنا وهناك. بعض هذه الصفحات ملصقةٌ على الجدران، إلى جانب ملصق عن كولد بلاي وصورة بالأسود والأبيض لامرأة ذات شعر أسود، مغريةِ النظرات، كُتب عليها: فوروفارو قزاد. وفي الطرف الآخر من الغرفة

مكتبة الفكر الجديد

ملصقٌ كبير الحجم للفيلسوف نيتشه بشاربه الكثّ يحملق فيها، وإلى جانبه صورةٌ مستنسخة، ملوَّنةٌ ومكبَّرة لمنمنمة فارسيَّة ذهبيَّة الإطار، كانت شيرين تقف تحتها تفتِّش في حقيبة ظهرها.

كرَّرت بيري سؤالها:

ـ ماذا كنت تعنين بكلامك؟

ـ نصفُك امرأةٌ مسلمةٌ ونصفُك الآخرُ امرأة عصريَّةٌ. لا تطيقين رؤية لحم الخنزير، وتصومين لكنَّك تحتسينَ النبيذ، أو الڤودكا، أو شرابَ التكيلا المكسيكي... هل أدركتِ ما أرمي إليه؟ أمَّا في شهر رمضان، فالأمر مختلف. تصومين هنا وهناك، لكن، بالرَّغم من ذلك فأنت تتناولين الطعام في بعض الأيَّام خلال الشهر. لا تُهملين شأن الدين، إذْ من يدري، فربَّما كانت هناك حياةٌ بعد الموت، ولهذا يُستحسَن اتِّخاذُ جانب الحيطة والحذر، كما أنَّك لا تريدين أن تضيِّعي الحرِّيَّة. شيء من هذا، وشيء من ذلك. إنَّه اتِّحاد الأزمنة العظيمُ: مسلمون عصريُّون.

قالت بيري:

ـ هيه، إنَّني أشعر بالإهانة.

ـ بالطبع تشعرين بالإهانة، هذه هي حالُ المسلمين العصريِّين.

هنا، جذبت شيرين من حقيبة ظهرها زجاجةً شفَّافة تحتوي على طبقة خارجيَّة من طلاء لأظافرها، وهتفت:

ـ وجدتُها!

تفرَّست بيري في وجه شيرين وقالت:

ـ إذا كنت أنا كما تقولين، فماذا عنك أنت؟

أجابت شيرين:

مكتبة الفكر الجديد

ـ آه يا أختاه! إنَّني لست سوى تائهة لا أنتمي إلى أيّ مكان.

وبعد أن وضعت شيرين مقدارًا من الطلاء الخارجيّ على أظافر قدميها، استرسلت في التندُّر على المتعصِّبين والمنافقين والملتزمين بالأعراف والتقاليد، وعلى مَنْ سمَّتهم فئة الجَهَلة.

وتدفَّقت أفكارُها تدفُّقَ مياه النهر، كلماتٍ سيّالةً، تُرغي وتُزبد، متناثرةً وباحثة. قالت إنَّ الناس الذين يؤمنون أو لا يؤمنون بالشغف نفسه، إنَّما يستحقُّون القَدْرَ نفسَه من الاحترام في نظرها. إلّا أنَّ الشيء الذي لا يمكنها أن تسامحَه هو أولئك الناسُ الذين لا يفكِّرون، وأطلقت عليهم عبارةَ «المقلِّدين».

في أثناء الصمت الذي أعقب ذلك، وجدت بيري نفسها منجذبةً إلى وجهتين متناقضتين، فثمَّة جانب فيها يروق له زَهْوُها الجدليُّ، كان في وسعها الإحساسُ بغضب الفتاة، لكنَّ الغضب على أيّ شيء: وطنِها، والدِها، دينِها، الملالي في إيران، هذا ما لم تستطع التأكُّد منه.

أمَّا الجانب الآخر منها، فقد استمتع بالإصغاء إلى شيرين التي وجدت في حديثها أصداءَ صوت والدها. وفي كلتا الحالتين، لم يكن ذلك الحديثُ من النمط الذي توقَّعت أن تجد نفسها مشاركةً فيه في أوَّل ليلة وهي بعيدةٌ عن بيتها. كانت تريد أن تتحدَّث عن الفصول الدراسيَّة؛ عن الأساتذة؛ أين تذهب لاحتساء فنجان قهوة؛ أين يمكنها الحصولُ على ألذّ سندويتشة، وعن تفاصيل الحياة اليوميَّة في أوكسفورد؟

بدأت السماء تمطر مطرًا ملأت ضرباتُه الثابتة أجواءَ الغرفة. لا بدَّ من أنَّ للصوت أثرًا مهدِّئًا في شيرين لأنَّها عندما استرسلت في الحديث مجدَّدًا، جاء صوتها أكثرَ هدوءًا، وإن كان لا يزال مشوبًا بالعاطفة والتحمُّس.

مكتبة الفكر الجديد

ـ آسفة لأنَّني أمطرتُك بوابل من تفاهاتي، والأمر متروك لك كي تختاري ما تؤمنين به، فهذا شأنك أنت وليس شأني. لا أدري سببًا في اندفاعي على هذا النحو.

قالت بيري:

ـ لا بأس، يسرُّني أنَّ والدتي ليست هنا.

فضحكت شيرين ضحكةً بهيجة تكاد تكون طفوليَّةً.

قالت بيري:

ـ أخبريني عن بقيَّة الطلَبَة، هل هم أذكياء جدًّا؟

قالت شيرين مركِّزةً في كلمة آينشتاين:

ـ أتظنِّين أنَّ كلّ طالب في أوكسفورد هو آينشتاين؟ انظري. الطلَّابُ أشبهُ ما يكونون بشراب الحليب المخفوق، لكلّ واحد نكهتُه الخاصَّةُ به. ثمَّة ستَّة أنواع من هؤلاء الطلَّاب في هذا المكان، بحسب اعتقادي. وأخذت شيرين توضِّح قائلة إنَّ النموذج الأوَّلَ يتمثَّل في الطلبة من أنصار البيئة والمجتمع والعدالة، وهم عادة طلبةٌ ثرثارون وجادُّون وحادُّو الطباع، ومنغمسون في حملات مثل إنقاذ الغابات المطيرة في بورنيو أو الرهبانِ البوذيِّين المضطَهدين في نيپال. ويمكن التعرُّفُ إليهم من كنزاتهم الصوفيَّة الفضفاضة، وقلائدِ الخرز التي يتقلَّدونها، وقصَّاتِ الشعر السيِّئة، وبناطيلِ الجينز المثنيَّةِ إلى أعلى، وقسماتِ وجوههم الهادفةِ ذاتِ المغزى، وأقلامِ الحبر الجافّ وأوراقِ الكتابة التي يحملونها دومًا لجمع التواقيع. وينظِّمون سهرات ليليَّة. أمَّا في أثناء النهار، فليصقون المنشورات في كلّ مكان، وينهمكون في نقاشاتٍ حاميةٍ، الواحد في إثر الآخر، ويحبُّون أن يجعلوكِ تشعرين بالدين لأنَّك

مكتبة الفكر الجديد

لست جزءًا من شيء أكبرَ وأغزر معنًى من حياتك التافهة.

وهناك النموذج الثاني، ويتمثَّل في الدهماء الأوروپيّين المتحدِّرين من أُسر أوروپيَّة غنيَّة، والذين يبدون كلّهم كأنَّ أحدهم يعرف الآخر، وفي أثناء الإجازات يذهبون للتزحلق في المصايف نفسها ويرجعون كاشفين عن سحَنَاتهم التي لوَّحتها الشمس ويُطلعون الآخرين على صورهم، ويمارسون نمطًا معقَّدًا من أنماط التزاوج بين الأقرباء، ويقتصرون في المواعدة على بعضهم بعضًا، ويستهلكون في أثناء الفطور المطوَّل كمِّيَّاتٍ كبيرةً من الخبز وقوالب الزبدة، لكنَّهم يحتفظون، بالرَّغم من ذلك، برشاقتهم، ويروقُهم التشكّي والتذمُّرُ من أنَّ كعكة الكرواسان الهلاليَّةَ، الرقيقةَ الشكل، بائتةٌ، وأنَّ قهوة الكاباتشينو زائفةٌ، ولا يتوقَّفون عن الحديث عن الطقس.

أمَا الفئةُ الثالثة، فتمثِّل مجموع المدرسة الداخليَّة الثانويَّة الأهليَّة، وهي مجموعة مختارة من المشاركين في النشاطات الاجتماعيَّة. وفي وسعهم تشكيلُ زمر وجماعات بسرعة كبيرة، مختارين أصدقاءهم في الأعمّ الأغلب على أساس المدارس التي كانوا ملتحقين بها. ولأنَّهم مفعمون بالحيويَّة والنشاط والثقة بالنفس، فإنَّهم يشاركون في أنشطة لاصفِّيَّة خارج حدود المدرسة، وبذلك فهم يجذِّفون ويقودون المراكب، ويشاطرون الآخرين المبارزةَ والتمثيلَ ولعبَ الكريكت والغولفِ وكرةِ المضرب والركبي وكرةِ الماء، ويلعبون التاي - تشي أو الكاراتيه في أوقات فراغهم. ولا بدّ من أنَّ كلّ هذه الأعمال تتركهم ظمأى لأنَّهم كانوا يتجمَّعون في «نوادي الشراب»، حيث يرتدون ربطات العنق السودَ ويُغرقون أنفسهم في المشروبات الكحوليَّة، ويجدون متعة بالغة في تهميش أولئك الذين يفتقرون إلى الجذور الاجتماعيَّة التي تؤهِّلهم

مكتبة الفكر الجديد

للانضمام إلى نواديهم. وينبغي للمرء أن يترشَّح كي ينضمَّ إليهم، ويمكن لأيّ مرشَّح محتمل أن يُرفض طلب انتسابه.

ثم هناك الطلَبَةُ من جنسيَّات عالميَّة: كالهنود والصينيِّين والعربِ والإندونيسيين والأفارقة... وينقسم معظم هؤلاء إلى قسمين اثنين: القسمُ الأوَّل يشبه المغناطيسَ، فينجذبُ أحدهم إلى الآخر، باحثًا عن المألوف، وهم يتناولون طعامهم ويدرسون ويدخِّنون ويتسكَّعون في مجموعات، بحيث يمكنهم التحدُّثُ بلغتهم الأمّ. ويمثِّلُ القسمُ الثاني مَنْ يخالفون القسم الأوَّل في أفكارهم، بشكل كلِّيٍّ، ويسعون إلى النأي بأنفسهم بقَدْرِ ما يستطيعون عن أقرانهم وزملائهم، ولهؤلاء لكناتٌ متغيِّرة، متقلِّبةٌ دومًا تقلُّبًا دراميًّا في محاولة منهم كي يظهروا في مظهر البريطانيين، وأحيانًا في مظهر الأميركيين.

خامسًا، هناك نموذجُ الطلبة البغيضين، الذين يتَّصفون بالجدِّ والمثابرةِ والذكاءِ وحبِّ الاستطلاع، وهم جديرون بالاحترام إلَّا أنَّه يستحيل مصادقتُهم. وهم في الرياضيَّات والفيزياء والفلسفة يثبون عاليًا كأنَّهم نباتُ فطر برِّي، ويفضِّلون زواياهم الهادئةَ الظليلةَ على الأماكن المكشوفة والمغمورة بنور الشمس. وهم يدرسون موضوعاتهم بشغف يقترب من الاضطراب العصبي الوظيفي. ويمكنك الاستدلالُ عليهم حتى لو كانوا في وسط حشد من الطلَبَة، فهم يَغذُّون السيرَ من المكتبة إلى دروسهم، توَّاقين إلى مناقشة قضايا مع أساتذتهم في الأروقة المعمَّدة والمسقوفة، أو تجدينهم راضين مَرضيِّين بعزلهتم تمامًا. والحقُّ أنَّهم أكثر مدعاة إلى الراحة في صحبة كتبهم ممَّا لو كانوا في صحبة أندادهم في نادي الكلِّيَّة أو غرفة الاستراحة.

راود بيري الإحساسُ بالإثارة المشوبة بالقلق، في الوقت الذي

مكتبة الفكر الجديد

استرسلت فيه شيرين في الشرح والتفاصيل، فبيري مستعدَّة وخائفة في الوقت نفسه من اكتشاف هذا العالم الجديد الذي تحتاج فيه إلى القوَّة كي تتمكَّن من السير.

فسألت:

ـ كيف شاءت الظروف أن تعرفي كلّ هؤلاء؟

فضحكت شيرين:

ـ لأنَّني واعدتُ فتيانًا وفتياتٍ من كلّ مجموعة.

ـ واعدت فتياتٍ؟

ـ مؤكَّد. فأنا يمكنني أن أُغرَم بامرأة، ويمكنني أن أُغرَم برجل، ولا أُعير أيَّ أهمِّيَّة للتوصيفات.

قالت بيري بقلق:

ـ حسنًا... والنموذجُ السادس؟

قالت شيرين وعيناها السوداوان تشعَّان بوميض كهرمانيّ:

ـ ها! هؤلاء هم الذين يصلون إلى هذا المكان على نحوٍ يختلف اختلافًا بيِّنًا عمَّا سيصبحون عليه لاحقًا. فتتحسَّنُ أحوالهم ويتحوَّلون من بطٍّ صغير قبيح الشكل إلى بجع؛ من سندريلَّات إلى بطلات. إنَّ أوكسفورد، في نظر بعض الطلَبَة، تعمل عملَ صولجان سحريّ، إذْ ما إن تلمسكِ حتى تتحوَّلي من ضفدعة إلى أميرة.

هزَّت بيري رأسها، وسألت:

ـ كيف؟

ـ حسنًا، يحدث هذا الأمر بطرائق متعدِّدة، لكنَّ المعتاد أن يحدث بفضل أستاذ على الأرجح؛ شخصٍ ما يتحدَّاك ويجعلك تنظرين إلى

مكتبة الفكر الجديد

نفسك بقصد معرفتها. شيء ما في نبرة شيرين جذب انتباه بيري.

ـ أهذه هي تجربتُك؟

أجابت شيرين:

ـ نعم، لقد فهمتِني، فأنا من النموذج السادس. لو كنتِ هنا قبل عام مضى لما استدللتِ عليَّ، إذْ كنت كتلة من الغضب.

ـ ماذا حدث؟

أجابت شيرين:

ـ ما حدث هو الأستاذ آزور، إذْ فتح عينيَّ وعلَّمني أن أنظر إلى الداخل. أمَّا اليوم، فأنا أكثر هدوءًا.

إذا كانت هذه هي شيرين الأكثر هدوءًا، فإنَّ بيري لن ترغب في معرفة كيف كانت قبل الآن، وسألت:

ـ من هو الأستاذ آزور؟

تمنطقت شيرين بشفتيها كأنَّ شيئًا حلوًا على لسانها، وأجابت:

ـ ألا تعرفينه؟ إنَّ آزور أسطورةٌ متنقِّلة من حولي.

ـ وماذا يدرِّس؟

أشرق وجه شيرين بابتسامة، وقالت:

ـ الربّ.

ـ حقًّا؟

أجابت شيرين:

ـ حقًّا، إنَّه لا يشبه البشر. لقد أصدر تسعة كتب، وتجدينه على الدوام في مؤتمر أو في هيئة مستشارين. نجم من النجوم. هذا ما يجب عليَّ أن أُخبرك به. في العام الماضي، نشرت مجلَّة «التايم» اسمه بين

مكتبة الفكر الجديد

الأسماء المئة الأشدّ تأثيرًا في العالم.

كانت الرياح خارج المبنى تشتدّ وتقوى، وتدفع نافذة فتفتحها على مصراعيها، وتغلقها في جانب من جوانب المبنى.

أفاضت شيرين في كلامها قائلة:

ـ صعب عليّ أن أكون طالبة من طالباته، فقد دفعنا إلى أن نقرأ باستمرار قراءةً مجنونة! قراءة كلّ الموضوعات الغريبة: الشعرِ والفلسفةِ والتاريخِ. أعني، أنا شخصيًّا، ميَّالةٌ إلى قراءة هذه الموادّ. أرجو ألَّا تُسيئي فهمي. ما الذي يدفعني إلى دراسة الإنسانيَّات إن كانت لا تروقُني؟ هه! كان يبحث لنا عن هذه النصوص التي لا يعرف أحد عنها شيئًا ويطلب منَّا مناقشتَها. ومع هذا، فقد كان الأمر مثيرًا، وعندما أنهيتُ قراءاتي فيها، كنت قد أصبحت شخصًا آخر.

لاحظت بيري أنَّ شيرين ما إن بدأت بالكلام على آزور حتى استرسلت فيه من دون توقّف كأنَّها سيَّارة ذاتُ مكابحَ رديئة، لا تستطيع تخفيض سرعتها، ناهيك عن التوقُّف، إلَّا إذا كانت هناك قوَّةٌ خارجيَّة توقفها. وها هي الآن تردِّد:

ـ ينبغي لكِ أن تلتحقي بفصل من فصوله الدراسيَّة طوعًا. حسنًا... هذا إن سمح لك آزور بذلك، إذْ يصعب كثيرًا إقناعُه. الأسهلُ من هذا إقناعُ جَمَل بعبور ترعة.

فابتسمت بيري.

ـ لدينا مِثْلُ هذا المَثَلِ في تركيا. ما وجه الصعوبة في الالتحاق بفصله الدراسيّ؟

ـ يتعيَّن عليك أن تكوني جديرة بذلك، وأن تتوفَّر فيك الشروطُ

مكتبة الفكر الجديد

المطلوبة. بمعنى أنَّك يجب أن تناقشي الموضوع مع مستشارك الجامعي، إلخ، وإذا وافق، فعندئذٍ اذهبي إلى آزور. الأمر يحتاج إلى خبرة ومهارة إلى حدٍّ ما، فالأستاذ يصعب إقناعه. وهو يسألك أغرب الأسئلة.

ـ عن؟

ـ عن الربّ... الخيرِ والشرِّ... العلمِ والإيمانِ... الوجودِ والموتِ...

هنا، عبسَت شيرين باحثة عن الكلمات، ثم أردفت:

ـ وعن كلّ شيء. الأمر يشبه اختبارًا أكاديميًا. وأنا شخصيًا لم أفهم ما الذي كان يبحث عنه. وفي نهاية المطاف، لا يختار إلّا مجموعةً صغيرة.

قالت بيري يساورها إحساس يشبه الحسد الزاحف إلى أعماقها من دون سبب إطلاقًا:

ـ يبدو كأنَّك أخذت حصَّتك مرَّتين.

وردَّت شيرين على نحو يستحيل معه عدم الإحساس بالاعتزاز بنبرتها:

ـ صحيح!

ران صمت قصير، ثم استأنفت شيرين كلامها من غير أن تقدر على البقاء هادئة أكثر من دقيقة واحدة:

ـ ما زلت ألتقيه طلبًا للنصح والإرشاد مرَّة واحدة في الأسبوع في أقلّ تقدير. الحقّ أنَّني مخبولة به قليلًا. وهو بهيّ الطلعة على نحو يثير الاستهزاء. لا، ليس بهيُّ الطلعة فحسب، بل هو شهوانيٌّ أيضًا!

جلست بيري متوتِّرة في كرسيِّها لا تدري بِمَ تجيب. فمن الناحية

مكتبة الفكر الجديد

الظاهريَّة، جاءت الفتاتان من بلدين مسلمين، ومن ثقافتين متشابهتين، لكن هذه الفتاة تختلف اختلافًا شديدًا عنها، وتبدو من كلّ الأوجه في غير حرج عند الحديث عن نفسها وعن الجنس.

قالت بيري:

ـ عظيم. يبدو أنَّك متيَّمة بأستاذك.

ولم تستطع الحيلولة دون أن تضيف قائلة:

ـ أليس هذا خطأً؟

طوَّحت شيرين برأسها إلى الخلف وانفجرت ضاحكة وقالت:

ـ آه، خطأ فادح جدًّا جدًّا. احجزيني إلى أَجَل غير مسمَّى.

هزَّت بيري كتفيها وهي تشعر بالارتباك بسبب سذاجتها:

ـ حسنًا... يبدو أنَّ الفصل الدراسيّ تعوزه الحيويَّة. لكنْ عليَّ أن أركِّز في أمور أخرى.

قالت شيرين مركِّزة نظراتِها المحدّقةَ في صديقتها الجديدة:

ـ معنى كلامك أنَّك مشغولة أكثر من اللازم لأنَّك من البشر الفانين. على الربّ أن ينتظر.

وعلى الرَّغم من أنَّ شيرين كانت تمزح، فإنَّ ملاحظتها كانت غير متوقَّعة وقويَّةً، على نحوٍ أثار ارتباك بيري، فأشاحتْ بوجهها بعيدًا ورنَتْ إلى النافذة والسماء الرماديَّة التي كان يتلاشى منها آخرُ ضياء. كانت الريح والمطر وضرباتُ مصراعَيِ النافذة وبرودةُ الشتاء في الأجواء، على الرَّغم من أنَّ الفصل لا يزال في مطلع الخريف، من الأمور التي سوف تتذكَّرها على مدى سنوات قادمة. إنَّها لحظة حاسمة من لحظات حياتها لم تفهمها إلَّا بعد فوات الأوان.

مكتبة الفكر الجديد

التسلية

إسطنبول ـ ٢٠١٦

اختفت وسط عبارات الشكر والتقدير للشيف أطباقُ باذنجان مدخَّن بصلصة الطماطم، دجاج جركسي بالثوم والجوز، خرشوفٍ بالبلاقاء وزهور القرع المحشوَّة، أخطبوطٍ مشويّ بصلصة الليمون والزبدة. وحين وقعت عينا بيري على الطبق الأخير، اكتست قسمات وجهها بظلال معيَّنة، فقد مضى زمن طويل منذ أن عدّت الأخطبوط غذاءً، ودفعته بعيدًا عنها في رفق بشوكتها.

بعد حديث الضيوف عن عالم كرة القدم والدسائس التي تُحاك فيه، انقلبوا إلى الحديث عن موضوع آخر، من المواضيع الأثيرة في حفلات العشاء الإسطنبوليَّة، وهو السياسة. وكان السؤال المحتَّم الذي يُطرح كلّ مرَّة اجتمع فيها معًا ثلاثةٌ من الأتراك، هو: إلى أين نتَّجه؟

فكَّرت بيري في أنَّ شيئًا ينطوي على النفاق يُحيط بالطبقة الرأسماليَّة في هذا الجزء من العالم. فمن الناحية الخارجيَّة، تجد أفراد هذه الطبقة يعلنون أنَّهم محافظون ومؤيِّدون للوضع الراهن، أمَّا في أعماقهم فهم يغلون كالمرجل من شدَّة الغضب والإحباط.

فأهل النخبة ـ وخصوصًا نخبةَ رجال الأعمال ـ يُمضون حيواتهم متغاضين عن الآخرين، مع الاحتفاظ بفسحة صغيرة بين شخصيَّاتهم

مكتبة الفكر الجديد

العامَّة وشخصيّاتهم الخاصَّة. فأمام الناس، تجدهم يحتفظون بأفكارهم لأنفسهم، ويمتنعون من الخوض في الأحاديث السياسيَّة، هذا ما كانت بيري تراه، إلَّا إذا كانوا مضطرِّين إلى ذلك. وفي هذه الحالة، كانوا يُبدون بعض الملاحظات البريئة لا أكثر. وكانوا يطوفون بتؤدة في أرجاء المجتمع تشوبهم مسحة من عدم اكثراث، شأنُهم في ذلك شأنُ زبائن يسيرون الهوينى من أمام متاجر من غير اهتمام واضح. وإذا ما صادفوا في طريقهم شيئًا ما يُثير انزعاجهم، وهو ما يحدث في الأعمّ الأغلب، تراهم يُغمضون عيونهم، ويصمُّون آذانهم، ويطبقون أفواههم، لكنَّهم ضمن جدران بيوتهم، يسقط عن وجوههم قناعُ اللامبالاة وعدم الاكتراث، ويمرُّون في مرحلة تحوُّل. وتتحوَّل لامبالاتهم وعدمُ اكتراثهم إلى صفاقة ووقاحة، وغمغماتُهم إلى صراخ، وتعقُّلُهم إلى تهوُّر. وفي الحفلات الخاصَّة، قلَّما يتمكَّن البورجوازيُّون الإسطنبوليُّون من التشدُّق والتبجُّح بما يكفي في القضايا السياسيَّة كأنَّهم يعوِّضون في ذلك عن صمتهم خارجًا.

درست بيري في أوكسفورد كيف أدَّت البورجوازيَّة في الغرب ـ بقيمها الفرديَّة الحرَّة ومعارضتِها الإقطاعيَّة ـ دورًا تقدُّميًّا في مجرى التاريخ. أمَّا هنا، فقد كانت الفكرة الرأسماليَّة فكرةً تخطر في البال لاحقًا، خاتمةً لحدث لم يُردّ بعد. ومن وجهة نظر ماركس، كانتِ البورجوازيَّة قد خلقت عالمًا يناسب صورتها. ولو أنَّ البيان الشيوعيّ كُتب في تركيا وعنها، لكانت تلك الأطروحة مغايرة إلى حدٍّ ما. وقد رضخ البورجوازيُّون المحلِّيُّون، بما عُرف عنهم من مراوغة سيِّئة الصيت، للثقافة التي كانت تحيط بهم. وكما هو شأن رقَّاص الساعة الذي لا يعرف الراحة، لبثوا يتأرجحون بين نخبةٍ تؤكِّد ذاتها وسيادةِ دولة

مكتبة الفكر الجديد

خجول. وكانت الدولة ـ بكلِّ ما في الكلمة من معنى ـ بداية كلّ شيء ونهايَته. ومثلما توجد السحب الرعديَّة في السماء، فإنَّ سلطة الدولة تحوم حول كلّ بيت في البلد، سواء كان البيت قصرًا منيفًا أو كوخًا متواضعًا. رمقت بيري الوجوه من حول المائدة بنظراتها. الأثرياء والطامحون إلى أن يكونوا أثرياء، والأثرياء جدًّا، ليسوا في مأمن على حدٍّ سواء، ويعتمد قَدْرٌ كبير من راحة بالهم على نزوة الدولة، ويقلق حتى أشدُّ الناس قوَّة وسطوة خشيةَ فقدان سيطرتهم، ويهاب أكثر الناس ثراءً الصعوبات. ويُتوقَّعُ منك أن تؤمن بالدولة للسبب نفسه الذي يُتوقَّعُ منك أن تؤمن بالربّ، وهو: الخوفُ. إن البورجوازيَّة، بالرَّغم من ألقها وجاذبيَّتها، تشبه طفلًا يخاف أباه؛ الأبَ الخالد، البابا. وفي خضمّ الافتقار إلى اليقين، وبخلاف النظراء في أوروبا، لا يملك البورجوازيُّون المحلِّيُّون الجرأة والاستقلالَ الذاتيَّ ولا الموروثَ ولا الذاكرةَ. وهم منحشرون بين ما يُتوقَّعُ أن يصيروا إليه وما يتمنُّون أن يكونوا عليه. وهم، في هذا، أليسوا مختلفين عنِّي؟ وهو ما فكَّرت فيه بيري.

كانت روائح الشموع والبهارات الممتزجة، بعضها ببعض، والشبيهةُ بضباب كثيف، تنتشر من فوقهم، ولاح جوّ الغرفة أشدّ كثافة وحرارة، على الرَّغم من ريح باردة تهبّ من خلال الشرفة التي خرج إليها بضعةُ رجال للتدخين. ولم يفت على بيري أنَّ جوًّا من التوتُّر يسود بين أوساط بعض الضيوف، فقد حوَّلت السياسةُ الأصدقاءَ إلى أعداء، والعكسُ صحيحٌ أيضًا، فالسياسة توحِّد الناس الذين لا يجمع بينهم سوى قاسم مشترك ضئيل، جاعلةً من الأعداء رفاقًا.

في ربع الساعة المقبل، وبعد أن استُهلكت المقبِّلاتُ، تغيَّرتِ الأوضاعُ وقستِ الوجوهُ وازدادتْ رصانةُ الابتسامات، وراح الحاضرون

مكتبة الفكر الجديد

يتحدَّثون عن مستقبل تركيا بعلامات تعجُّب تتخلَّل توكيداتهم. وبما أنّ مستقبل تركيا مرتبط بمستقبل العالم، فقد شرعوا في الحديث عن أميركا وأوروبا والهند وباكستان والصين وإسرائيل وإيران. الواضح أنَّهم كانوا لا يولون كلّ هذه البلدان أيَّ ثقة، وإن كان عدم ثقتهم يتباينُ بين دولة وأخرى. فثمَّة تكتُّلاتٌ بشعة تتآمر مع عملائها ضدّ تركيا، وإمبرياليُّون يستغلُّون عملاءَهم، وأيادٍ خفيَّة تهيمن على كلّ شيء من بعيد. وناقشوا أيضًا العلاقات الدوليَّة، بنوع من الحذر احتفظوا به لأولئك الذين يتنشَّقون الصمغ والمدمنين على المخدَّرات في الشوارع، متوقِّعين في أيّ لحظة أن يتعرَّضوا للهجوم والسلب.

أصغتْ بيري في هدوء، وإن كانت في أعماقها مفعمة بعواطفَ متشابكةٍ استبدَّت بها. تاقت نفسها إلى أن تكون في البيت، وحيدةً من تحت دثار، تقرأ رواية من الروايات. كانت من ناحية مرتبكةً لأنَّها لا تعرف كيف تستمتع بالأمسية وبالطعام اللذيذ والنبيذ الرائق، وأيضًا لأنَّها لم تجد ما يكفي من المرح، وهو ما كانت ابنتها تذكِّرها به، أمَّا من الناحية الأخرى، فكانت ترغب في أن تشرب حتى الثمالة، وأن تعود إلى الحمَّام وتحطِّم حوض الأسماك. لا تزال القصَّة التي رواها لها والدُها حيَّةً في ذاكرتها؛ قصَّةُ مجموعة من الأسماك السود كالقِير تقضم أبياتَ قصيدة شاعر وعينيه.

هكذا كان شعورها في هذه الليلة: إسطنبول تقضم روحَها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

العـــدّاءة

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

كان هنالك أثران مباشران في نازبيري نالبانتوغلو، وهي طالبة تدرس في أوكسفورد. الأثر الأوّل سينماتوغرافي. فالكلِّيّات المربَّعة العريقة، والحدائقُ الساكنة، والأبراجُ المستدقَّة، والأسوارُ المفرجة في القلاع، وقاعاتُ الطعام الرسميَّة، والكنائسُ الصغيرة الجديرة بالتوقير، أثارت في نفسها إحساسًا بالانفتاح والجمال والمعنى. كأنَّ كلّ نقطة تفصيليَّة كانت جزءًا من بانوراما متقنة في تصميمها. قصَّة سينمائيَّة مثلَّثْ فيها وهي حديثةُ العهد بها. إحساسٌ بالنشوة، وتوقُّع حدوثِ أمرٍ ما بالغِ الأهمِّيَّة وهي في وسطه. كانت بيري تستيقظ في صباحات تلك الأيَّام منتشيةً، تتفجَّر حيويَّة ونشاطًا وطموحًا، كأنَّه لا يوجد شيء لا تقدر على إنجازه ما دامت تبذل ما يكفي من قصارى جهدها، ورسمت خططها على أن تبقى بعد تخرُّجها في الوسط الأكاديمي، أو أن تعثر لها على وظيفة في مؤسَّسة دوليَّة مرموقة الشأن، وسوف تجني أموالًا طائلة وتشتري منزلًا كبيرًا لوالديها يطلّ على البحر، وسيسكن كلّ واحد منهما في طبقة من طبقاته، فلا يضطرَّان إلى الشجار.

وفي غمرة إصرارها على أن تجعل والدها فخورًا بها، كانت ترى منذ الآن شهادتَها الجامعيَّة مؤطَّرةً، برَّاقةً، ومعلَّقةً على جدار غرفة

مكتبة الفكر الجديد

معيشتهم، إلى جانب لوحة أتاتورك. أمَّا في الأماسي، حين يرفع منصور كأسه ليشرب نخب البطل القومي، فإنَّه سوف يُلقي التحيَّة على ما أنجزته ابنته.

أمَّا الأثر الثاني الذي أحدثته أوكسفورد في بيري، فكان متمثِّلًا، بعكس الأثر الأوَّل، في أثر رهاب الاحتجاز؛ وهو الخوفُ المَرَضي من الأماكن المقفلة أو الضيِّقة. وهو نوع من الانغلاق الداخليّ يشبه التهرُّب والابتعاد. فالمكان أكبر ممَّا يمكن فهمه، ولا يمكن فكَّ مغالقه إلَّا جزءًا جزءًا. وفي مثل هذه الصباحات، انقلبت يري إلى فتاة انطوائيَّة، منطوية على أعماقها، تقضّ مضجعَها صعوبةُ دروسها، أو طرائقُ تدريس أساتذتها والطابعُ الرسميّ الذي يزعمون أنَّه جوهريّ في الدراسة الجامعيَّة.

وسرعان ما أدركت بيري أنَّ الطقس ليس بالبرودة التي تستدعي منها امتلاكَ كنزات صوفيَّة فضفاضة ودفيئة تمثِّل دببة ومزخرفة باسم الجامعة، لأنَّ هذه غيرُ مخصَّصة إلَّا للسيَّاح، لكنَّها لم تكن قادرة على مقاومة شراء كوب عليه اسم جامعة أوكسفورد. وحين ذهبت إلى المنزل لحضور حفل زفاف أخيها، قرَّرت أن تأخذه وإيَّاها وتُهديه إلى أمِّها. فلربَّما تضعه سلمى على الرفّ إلى جانب الجياد الخزفيَّة وكتب الأدعية الإسلاميَّة.

في صباح أحد الأيَّام، وكان القمر لا يزال منيرًا في السماء، راقبت بيري من نافذتها طالبةً تضع سمَّاعتين على أذنيها، وكانت متورِّدة الخدَّين، تعدو إلى داخل المبنى. لقد حاولت، هي شخصيًّا، أن تفعل فعلَ تلك الطالبة مرَّات ومرَّات في أثناء وجودها في إسطنبول على الرَّغم من العقبات التي كانت مزروعة في مسار عَدْوِها. أمَّا هنا، فالامتياز

مكتبة الفكر الجديد

يتمثَّل في عدم القلق من الأرصفة المكسَّرة، والحُفَرِ في الطريق، والتحرُّشِ الجنسيّ، والسيَّاراتِ التي لا تخفِّف سرعتها حتى في النقاط المخصَّصة لعبور المشاة. وفي اليوم نفسه، اشترت لنفسها حذاءً رياضيًّا.

بعد محاولات ناجحة وفاشلة، عثرت بيري على طريقها المثاليّ، فقرَّرت أن تعدو عابرةً جسرَ المجدليَّة وتسلك الطريق الممتدّ على طول ميرتون فيلدز، وتجتاز مروج كنيسة المسيح، وتعود أدراجها من حول ممشى أديسون اعتمادًا على قدرتها على الاحتمال. بدت أحيانًا حجارةُ الرصيف ممهَّدةً من تحت قدميها، يساورها الشعور بأنَّها عند نهاية واحد من هذه الدروب الصغيرة والقديمة سوف تصل إلى بلدٍ آخر. أدركت أنَّ الخطى الإيقاعيَّةَ هي الشيءُ الأصعب، إلَّا أنَّها ما إن تحطّ قليلًا حتى تمكَّن من الاستمرار زهاء الساعة تقريبًا. وبعد أن سارت عَدْوًا مدَّةً لا بأس بها، وانساب شعرها المبلَّل على رقبتها وخفق قلبها خفقانًا آلمها، راحت تشعر كأنَّها دخلت منطقة أخرى، عتبةً تفصل بين الأحياء والأموات.

أدركت أنَّها فكَّرت في الموت أكثر ممَّا ينبغي لها وهي في هذه السنِّ المبكرة من حياتها.

كانت أعداد لا تُحصى من الناس تمارس رياضة العَدْو في أوكسفورد. أكاديميُّون وطلبة وموظَّفون إداريُّون، يَعْدُون، وكان يسيرًا على المرء أن يعرف مَنْ هم الذين كانوا يستمتعون بهذه الرياضة، والذين كانوا يرون فيها عبئًا، ولا يمارسونها إلَّا لأنَّهم قطعوا وعدًا لشخص ما: طبيبهم أو شريكِ حياتهم، أو لنموذج أفضل من أنفسهم. تملَّكَ الحسدُ بيري تجاه هؤلاء العدَّائين الذين كانوا، على ما يتَّضح، أفضلَ منها، إلَّا

مكتبة الفكر الجديد

أنَّها في الأعمّ الأغلب كانت راضية مَرْضيَّة عن أدائها، سواء في عطلات نهاية الأسبوع أو خلاله بكلٍّ تأكيد. فإذا كانت مضطرَّة إلى العمل في الصباح، فإنَّها تمارس رياضتها بعد الأصيل. وإذا كانت أماسيها مفعمةً بالعمل، فإنَّها تُجبر نفسها على النهوض من النوم عند شروق الشمس، وتخرج أحيانًا في أوقات متفرِّقة، فلا يمكن أن تتحوَّل إلى عادة، لا لشيء إلَّا كي تجعل ذهنها صافيًا حيث يغشى الصمتُ الثقيل الليلَ، فلا تسمع شيئًا سوى صوت أنفاسها في أثناء عَدْوها خلال مركز المدينة. إنَّ مثل هذا النظام الذاتيّ الحديديّ سوف يفيدها عاطفيًّا، وليس جسديًّا فحسب. هذا ما أكَّدته لنفسها.

وكانت أحيانًا، وخصوصًا في أثناء مصادفتها عدَّاءً أو عدَّاءةً، تفكِّر في الشيء الذي يمكن أن يشغل تفكيره أو تفكيرها آنئذ. ربَّما لا شيء. كانت بيري ترى في هذه الرياضة الوقتَ الوحيد الذي تتمكَّن فيه من تهدئة أعصابها وتبديد مخاوفها. وكانت في أثناء عبورها المروجَ وتنشُّقِها الهواءَ الرطبَ الذي يمكن أن يتحوَّل في أيّ لحظة إلى مطر، تشعر بخفَّة الوجود التي لم تشعر بها من قبل، كأنَّها ـ بيري، نازبيري، روزا ـ لم تدَّخر كلّ متاعبها طوال تلك الأعوام على النحو الذي جمع فيه الآخرون أغلفة الحلوى الذهبيَّةَ والطوابعَ الأجنبيَّة، وقد شعرت بأنَّها روح مرحة، كأنَّها بلا ماضٍ، وبلا ذكرى عن الماضي.

مكتبة الفكر الجديد

صـــــيَّاد السمـــــك

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

كانوا يُطلقون عليه تعبيرَ «أسبوع الطلَبَة الجدد». فقبل أن يبدأ فصل القدِّيس ميكائيل في تلك الأيَّام من شهر تشرين الأوَّل بدايةً جادَّة، كانت مجموعة من الأحداث الاجتماعيَّة والمرحة قد حُشرت في أيَّام قليلة لمساعدة الطلبة الجدد على التعرُّف إلى الجامعة والمدينة وما يحيط بها، إضافة إلى عقدِ صداقات جديدة ـ وربَّما عداواتٍ أيضًا ـ وإظهارِ توتُّرها بالسرعة التي تنفض فيها شجرة الجنكة أوراقَها العريضة لدى أوَّل هبة من الصقيع، إضافة إلى حفلات الباربيكيو، والاجتماعات بالأساتذة، والمسابقاتِ في طهو الطعام وتناوله، وشربِ الشاي عصرًا، وحفلاتِ الرقص وموسيقى الكاريوكي والثيابِ التنكُّريَّة. هامت بيري على وجهها مرتديةً قميصَها القطنيَّ الجديد، وتجاذبت أطراف الحديث مع الطلبة وأعضاء الهيئة التدريسيَّة. وكلَّما تحدَّثت أكثر مع هؤلاء الناس، ازدادت اقتناعًا بأنّ كلّ واحد منهم كان يعرف ما يفعله. كلُّ واحد باستثنائها هي.

علمت بيري قبل الآن بأنَّ الجامعة ـ في غمرة عزمها على تغيير تصوُّرها بأنَّها مخصَّصة للقلَّة من أصحاب الامتيازات، ولخلق تنوُّع في قبول طلَّابها وفي البيئات المنحدرين منها ـ أعلنت عن مشروع منحة

ماليَّة لتشجيع المرشَّحين من ذوي الأصول المعدمة على التقديم، فراحت الآن تتفرَّس في الوجوه من حولها، ملاحظة تعدُّدَ الإثنيَّات والجنسيَّات، غير أنَّه كان يصعب معرفة ظروفهم الاقتصاديَّة.

ولاحظت أنَّ وراء هذا الضجيج نظراتٍ مختلسةً قصيرة، وتنبَّهت إلى أنَّ أحد الفتيان بدا مهتمًّا بها. كان فارع القَدّ، قويَّ الفكَّين، أشقر الشعر، متين الكتفين، مهيب الشكل ـ من أثر السباحة أو التجذيف كما ظنَّت ـ فابتسم لها ابتسامةَ خبير تغذية لدى رؤيته طبقًا شهيًا. وتناهى إلى سمعها صوتٌ يحذِّرها بالقول:

ـ ابتعدي عنه!

فما كان من بيري إلَّا أن التفتت، فشاهدت فتاة محجَّبة، مقوَّسةَ الحاجين، تظلِّل عينيها بكحل أسود غامق، وتزيِّنُ أنفها بخرزة على هيئة هلال فضِّيٍّ صغير.

قالت الفتاة:

ـ إنَّه من نادي القوارب الجامعيّ، يصطاد الطالبات الجديدات.

ـ عفوًا؟

ـ الواضح أنَّ هذا الشابّ يكرِّر ما يفعله في كلِّ عام، ثم يسير متباهيًا بعدد الأسماك التي اصطادها في أسبوع واحد. أخبرني شخص بأنَّه عقد العزم على تحطيم رقمه القياسيّ الذي سجَّله في العام المنصرم.

ـ أتعنين أنَّ الأسماك هي الفتيات الجديدات؟

ـ نعم، والمفارقة تكمن في أنَّ بعض الفتيات لا يجدن أيّ مشكلة في حال معاملتهنَّ معاملةَ الأسماك الغبيَّة المتلألئة. جميلات، لكنَّهنَّ خفيفات طائشات العقل.

مكتبة الفكر الجديد

ثم انسابت نبرة تنمّ عن النكد إلى صوتها، وقالت:

ـ يصعب علينا تحطيم أغلالنا عندما يحبّ البعض منَّا أن يكون مقيَّدًا.

اتَّسعت عينا بيري محاولةً أن تتخيَّل صورة سمكة مقيَّدة. واسترسلت الفتاة في شرحها:

ـ اسألي الناس من حولك هنا: مَنْ هي التي في حاجة إلى مفهوم النسويَّة؟ سيقولون لك: آه، النساء في باكستان ونيجيريا والعربيَّة السعوديَّة، لكن ليس النساء في إنكلترا، فنحن قد اجتزنا تلك المرحلة: والمؤكَّد ليس في أوكسفورد، هه؟ إلَّا أنَّ الواقع مختلف. أتعلمين بأنَّ الطالبات ضعيفات جدًّا في دراستهنَّ هنا؟ وثمَّة هوَّة كبيرة في نتائج الامتحانات بين البنين والبنات. إنَّ الطالبة الحديثة العهد بالجامعة في أوكسفورد تحتاج إلى النسويَّة بقدر ما تحتاج إليها المرأةُ الفلَّاحة في مصر الزراعيَّة. إذا كنت تؤيِّدين كلامي فوقِّعي على التماسنا. ثم قدَّمت إلى بيري قلمًا ومجموعة من الأوراق كُتبت على رأسها عبارة: «فريق أوكسفورد النَّسَويّ».

سألتها بيري، في حيطة وحذر، إذ وجدتْ صعوبة بالغة في التوفيق بين العبارة ومظهر الفتاة:

ـ وأنت من أنصار النسويَّة؟

فأجابت الفتاة:

ـ على وجه التوكيد، إنَّني نَسَويَّة مسلمة. وإذا رأى بعض الناس أنَّ هذا مستحيل، فالمشكلة مشكلتهم وليست مشكلتي.

تذكَّرتْ بيري فجأةً، وهي توقِّع، صديقَها السابق في تركيا، فهو لم

يكن مناهضًا لقراءة الأدب الأوروبيّ فحسب، وإنَّما كان أيضًا مناهضًا لكلِّ الأيديولوجيَّات الغربيَّة، وأشار إلى أنَّ النسويَّة هي الخطر الأكبر، وأنَّها شيء يُراد به صرفُ الأنظار عن القضيَّة الحقيقيَّة، أَلَا وهي الصراعُ الطبقيُّ. فلا ضرورة لنشوء حركة نسائيَّة منفصلة عن بقيَّة الحركات ما دام وضعُ حدٍّ للاستغلال الاقتصاديّ سيُفضي في النتيجة إلى وضع حدٍّ لكلِّ أنواع التمييز. أمَّا تحرُّر النساء فسيحدث بتحرُّر البروليتاريا.

قالت الفتاة وهي تسترجع قلمها وأوراقها:

ـ شكرًا لك. اسمي منى، فما اسمك؟

ـ بيري.

قالت منى:

ـ يسرُّني التعرُّف إليك.

كانت ابتسامتها مشرقة، وضَّاءة.

علمت بيري بأنَّ منى أميركيَّة من أصول مصريَّة. وبعد أن وُلدت في نيوجرسي، انتقلت وأسرتَها إلى القاهرة وهي في سنِّ العاشرة تقريبًا، وكان والدها يردِّد: «ينبغي لأطفالنا أن ينشأوا في ظلِّ ثقافة إسلاميَّة». وبعد مرور بضع سنوات، وبعد أن اكتشفوا أنَّ الحياة في مصر أصعب وأقسى ممَّا كانوا يتصوَّرون ـ أو لأنَّهم أميركيُّون صادِقو الولاء ـ عادوا أدراجهم إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. وها هي الآن في السنة الثانية من دراستها في أوكسفورد، وفي صدد تغيير فرع دراستها إلى الفلسفة. وقالت إنَّ أمّها محجَّبة بينما أختها الكبرى غير محجَّبة، وأضافت:

ـ لكلِّ واحدة منَّا خيارُها المختلف في هذه الحياة.

كانت منى مشاركة في سلسلة من النشاطات الطوعيَّة فضلًا عن دعم

مكتبة الفكر الجديد

النَّسَويَّة: مساعدةِ جمعيَّة البلقانيّين، وأصدقاءِ جمعيَّة فلسطين، وجمعيَّةِ الدراسات الصوفيَّة، وجمعيَّةِ دراسات الهجرة، وجمعيَّةِ أوكسفورد الإسلاميَّة، التي هي واحدةٌ من أبرز أعضائها. وكانت أيضًا توشك أن تؤسِّس جمعيَّة «هب ـ هوب» لأنَّها تعشق الموسيقى. وألَّفت مجموعة من الأغاني المستوحاة من تعرُّفها إلى مختلف الثقافات، آملةً أن يغنِّيها شخص ما يومًا ما.

سألت بيري:

ـ عظيم! من أين لك الوقتُ لكلٍّ هذه النشاطات؟

هزَّت منى رأسها وأجابت:

ـ القضيَّة لا تتحدَّد في إيجاد الوقت، وإنَّما في تنظيمه. ولهذا، أمرنا الربّ بأن نصلِّي خمسَ مرَّات في اليوم، كي نهيكل حياتنا.

زمَّت بيري شفتيها، وهي التي لم تلتزم يومًا ما بأداء الصلوات الخمس، ولا بأداء صلاة واحدة حتى في مرحلة تديُّنها في إثر إصابة أبيها بالنوبة القلبيَّة، وقالت في رقَّة:

ـ يبدو أنَّك مطَّلعة على قضايا الدين.

فأجابت منى:

ـ أعتقد أنَّ في وسعك القولَ إنَّني في حالة مودَّة وسلام واطمئنان مع نفسي.

ثم رَنَتْ إلى ساعتها وأضافت:

ـ إنَّني مضطرَّة إلى الذهاب، لكنَّني متأكِّدة من أنَّنا سوف نلتقي في هذا المكان. إنَّني أجمع التواقيع باستمرار لهذه القضيَّة العادلة أو تلك.

تصافحت الفتاتان قبل أن تفترقا مصافحةً قويَّة، فذلك هو طبع منى.

مكتبة الفكر الجديد

في تلك الليلة، كتبت بيري في يوميّاتها المخصَّصة للربّ:

«يريد بعض الناس تغيير العالم، بينما يريد آخرون تغيير أزواجهم أو أصدقائهم. أمّا أنا، فأودّ أن أغيِّر فكرتي عن الربّ، وسيكون حدثًا قائمًا في ذاته، فهل يستفيد أحد من ذلك؟».

* * *

عندما عادت بيري إلى إسطنبول، حاولت من دون أيّ نجاح، أن تسلك سلوك الفتاة المنشرحة في حين أنّها ليست كذلك. وشاركت في أنشطة اجتماعيَّة أكثر ممَّا كانت تهتمّ بها. أمّا في أوكسفورد، فقد استمتعت بعد أن زال العبء من على كتفيها، أو قل احتفظت بالعزلة، ولم يكن الانطواءُ السببَ الأوحد الذي جعلها تنأى بنفسها عن مرح أسبوع الطلبة الجدد، فقد وجدت أنَّ بعض المناسبات (مثل شرب الشاي في نادي الطلبة، والاجتماعاتِ التي تُعْقَد مع الأساتذة) كانت مجّانًا، في حين أنَّ مناسبات أخرى (مثل الكعك النباتيّ والحلوى الخطميَّةِ الحلال والبيتزا النباتيَّةِ) تتطلَّب مبلغًا من المال، لهذا وجدت أنَّ المستحسن أن تكتفي بميزانيَّتها المقتصدة إذا ما تجنَّبت الضجيج والضوضاء. وبدلًا من ذلك، ركَّزت في قائمة متطلِّباتها الخاصَّة بها، وهي: الحصولُ على بطاقة الطلبة، وشراءُ الكتب المنهجيَّة، وخصوصًا إذا كانت مستعمَلة، وفتحُ حساب مصرفيّ طلّابيّ. وفي غمرة تفكيرها في أنسب الطرائق للعيش، بدأت تقارن الأسعار في الدكاكين والمتاجر.

لعلَّ بيري كانت واحدة من الطلبة القلائل الذين ارتاحوا عندما انتهى ذلك الأسبوع بكلِّ ما فيه من مرح وضجيج، ثم بدأ الفصل الدراسيّ بعده مباشرة، وفي ظلِّ ارتياحها الكبير، اعتادت على النمط الرتيب المتمثِّل في حضور المحاضرات والدروس والكتب المطلوب

مكتبة الفكر الجديد

منها مطالعتُها والمقالاتِ التي يجب أن تكتبها. وفي ذلك الوسط الغريب تمامًا عنها، كانتِ الدراسةُ أشبهَ بحبل متين يتعيَّن عليها التشبُّثُ به، وهو ما فعلته بأقصى ما لديها من قوَّة.

كانت شيرين تأتي وتذهب في ساعات متباينة، مخلِّفةً وراءها عبيرًا يفوح في الأجواء، جزيئات تبعث على النشوة من ورد المنغوليَّة والسدر. وعلى الرَّغم من أنَّ إيقاع حياة الطلبة اليوميَّة يستند إلى عادات لا يتناغم بعضها مع بعض، فإنَّهم راحوا، على نحو مطَّرد، يتناولون فطورهم وغداءهم معًا، ويتناقشون في أمور تخصّ المحاضراتِ، والأساتذةَ، وأحيانًا ذلك الموضوعَ الأثيرَ، المثيرَ للاهتمام على الدوام، وهو الفتيان. وكان على بيري، غير الخبيرة في هذا الميدان، أن تُصغي إلى شيرين تثرثر من دون توقُّف في موضوع مواعدة الذكور من كلّ الأجناس، فتهبط معنويَّاتُها أكثر وأكثر. ففي صحبة صديقات من ذوات الخبرة والتجربة في المغازلة، ثمَّة قنوط وجزع يهبطان على الطالب المبتدئ نوعًا ما، وشعور بأنَّه متأخِّر جدًّا عن هذا الرَّكْب فيصبح متفرِّجًا لا أكثر.

بحثت بيري عن المنهج الدراسيّ الذي أتت على ذكره شيرين، فوجدته في قائمة من الموضوعات المقدَّمة من قسم الفلسفة وسط عناوين معقَّدة تثير الإعجاب، منها: نقدُ المؤمنين للمذهب الذرِّيّ؛ موضوعُ الخلق؛ القداسةُ في علم النفس الرواقيّ ونظريَّة المعرفة؛ ملوكُ أفلاطون من الفلاسفة؛ الحياةُ الطيِّبة والكذبة النبيلة؛ توما الأكويني: نقَّاده القروسطيُّون وزملاؤه السكولاستيُّون؛ المثاليَّة الألمانيَّة وكانط وفلسفة الدين؛ موضوعاتٌ فلسفيَّة في العلوم المعرفيَّة.

وفي أسفل تلك القائمة موضوع قصير العنوان: الربُّ. وإلى جانبه

مكتبة الفكر الجديد

الوصف الآتي: يبحث هذا المنهج في ما نتحدَّث عنه حين نتحدَّث عن الربّ، اعتمادًا على مراجع من قديم الزمان إلى يومنا الراهن، ومن الفيلولوجيا إلى الشعر، ومن الصوفيَّة إلى علم الأعصاب، ومن الفلاسفة الشرقيِّين إلى نظرائهم الغربيِّين.

وكان اسم الأستاذ أنطوني زكريَّا آزور مذكورًا في المنهج الدراسيّ، بين قوسين، ومكتوبًا تحته ملاحظة مفادها: الأماكن محدودة، تحدَّث إلى الأستاذ أوَّلًا. تحذير: قد يكون، أو لا يكون، هذا المنهج ملائمًا لك.

وجدت بيري في هذا التوصيف جاذبيَّة، كما أنَّ التشامخ من ورائه جذَّاب ومنفِّر في الوقت عينه. وفكَّرت في ضرورة القيام بمزيد من الاستفسار، إلَّا أنَّها سرعان ما نسيت هذا الأمر في غمرة التوتُّر الملازم لتلك الأيَّام الأولى من الدراسة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الكافيار الأسود

إسطنبول ـ ٢٠١٦

قُدِّم الطبق الرئيس ـ المؤلَّفُ من أرزيَّة الفطر ولحمِ الضأن المشويّ بالزعفران وصلصةِ العسل والنعناع ـ في صحون فضِّيَّة كبيرة الحجم مزيَّنة عند الحافَّات بخضراوات مشويَّة. وكان مشهد النُّدُل ببزَّاتهم المميَّزة للخدم، وهم يدخلون ويرفعون الأغطية من فوق أكداس اللحوم المتصاعد عليها البخارُ الحارّ، مسرحيًّا على نحو جعل بعض الحاضرين يصفِّق تصفيقًا ملؤه البهجة والحبور. وانتفخ الضيوف بالخمرة وبما لذّ وطاب من الطعام، فازداد مرحهم وعلا صخبهم واشتدَّت جرأتهم.

قال مهندس معماريّ قصيرُ الشعر، مهذَّبُ اللحية قصيرُها:

ـ صراحة، أنا لا أؤمن بالديموقراطيَّة.

كانت شركته قد جَنَتْ أرباحًا طائلة من مشاريع البناء والتشييد على امتداد المدينة. وأضاف:

ـ انظروا إلى سنغافورة، نجاح في ظلّ غياب الديموقراطيَّة. الصين، الأمر نفسه. إنَّه عالم سريع الحركة، ولا بدَّ من تنفيذ القرارات بسرعة البرق. أمَّا أوروبا، فإنَّها تضيِّع الوقت في جدل تافه لا معنى له، في حين تنطلق سنغافورة إلى الأمام، لماذا؟ لأنَّهم في سنغافورة يتمتَّعون بالتركيز، في حين أنَّ الديموقراطيَّة هدر للوقت وللمال.

فهتفت خطيبة المهندس المعماريّ والزوجة الموعودة الثالثة له،

مكتبة الفكر الجديد

وهي مهندسة تصاميم داخليَّة:

ـ ممتاز. إنَّني دائمًا أردِّد أنَّ الديموقراطيَّة في بلد مسلم فائضة عن الحاجة، بل هي صداع حتى في الغرب، لنعترف بذلك. أمَّا هنا فهي غير ملائمة أبدًا.

وافقت زوجة رجل الأعمال على رأيها، مؤكِّدة:

ـ تصوَّروا أنَّ ابني حصل على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال، وزوجي لديه آلاف الموظَّفين، لكنَّنا لا نملك في الأسرة سوى ثلاثة أصوات انتخابيَّة، في حين أنَّ شقيق سائقنا لديه ثمانية أطفال في القرية، ولست واثقة إن كان أحد منهم قد قرأ كتابًا واحدًا في حياته، لكنَّهم يتمتَّعون بعشرة أصوات انتخابيَّة! في أوروبا، نجد الناس متعلِّمين، والديموقراطيَّة لا تُلحق الضرر بهم. أمَّا في الشرق الأوسط، فالقصَّة مختلفة! إنَّ منح الجَهَلة صوتًا متساويًا يشبه إعطاء طفل صغير علبةَ كبريت، وبهذا يمكن للبيت أن ينهار حرقًا.

قال المهندس المعماريّ، وهو يمسِّد الشعر على ذقنه ببرجم سبَّابته:

ـ حسنًا، إنَّني لا أعني أنَّنا يجب أن نهمل صندوق الاقتراع، فنحن لا نقدر على تفسير ذلك للغرب. أعتقد أنَّ الديموقراطيَّة شيء جيِّد إن كانت تحت المراقبة، وبإشراف مجموعة من البيروقراطيين والتكنوقراط في ظلِّ زعيم قويٍّ وذكيٍّ. وإنَّني أرضى عن السلطة إن كان الزعيم في قمَّة الهرم يعرف ماذا يفعل، وإلَّا فكيف سيأتي المستثمرون الأجانب للاستثمار؟

التفت الجالسون وأَطْمحوا أبصارَهم إلى الأجنبيّ الوحيد الجالس إلى المائدة، وهو مدير صندوق مضاربات أميركيُّ الجنسيَّة يزور المدينة حاليًّا. كان يحاول متابعة النقاش بمساعدة ترجمات متقطِّعة يُهْمَس بها

مكتبة الفكر الجديد

في أذنه، ولمَّا وجد نفسه وقد أضحى تحت الأضواء، تململ في كرسيِّه تململًا ينمُّ عن عدم ارتياح، وقال:

ـ إنَّني متأكِّد من أنَّ أيّ أحد لا يرغب في أن تكون المنطقة مضطربة. أتدرون أيُّها الناس ماذا يُسمِّي الأميركيُّون الشرقَ الأوسط؟ يسمُّونه الشرقَ الفوضويَّ! آسف أيُّها الأخوة، لكن فعلًا ثمَّة فوضى. وهنا ضحك بعض الضيوف، بينما لوى البعض الآخر قسماتِ وجهه. وتابع حديثه: صحيح أنَّ ثمَّة فوضى، لكنَّها من صنع أيديهم، وفي وسعهم توجيهُ النقد إلى الزعيم ما شاء لهم النقد، لكن لا ينتقدون أيّ أميركيّ ثريّ. وحين شعر مدير المضاربة الماليَّة بردّة الفعل السلبيَّة، أطبق شفتيه.

قال المهندس المعماريّ وفمه مملوء بالطعام:

ـ وهذا سبب يكفي لدعم أقوالي.

كان المهندس المعماريّ رجلًا لا صلة له بالسياسة منذ سنوات. وبالرَّغم من أنَّ الدماء الكرديَّة تسري في عروقه، فإنَّه راح يكشف عن ميوله الشوفينيَّة مؤخَّرًا.

قال مدير المصرف الإداريّ:

ـ حسنًا، إنَّ المنطقة برمَّتها ستُدرك هذا الشيء قريبًا. فبعد الفشل الذريع الذي أحدق بالربيع العربي، فإنَّ أيّ شخص عاقل ينبغي له أن يُدرك فوائد القيادة القويَّة والاستقرار.

قال المهندس المعماريّ بعد أن أحسّ بأنَّ أفكاره تحظى بالتأييد:

ـ الديموقراطيَّة يعلوها غبار الماضي وقد فات أوانها. أعرف أنَّ كلامي قد يبدو صدمة للبعض، لكن فليكن كذلك، وأنا أؤيِّد الدكتاتوريَّة التي تؤدِّي إلى النفع العام.

قال متخصِّص بالجراحة التجميليَّة يملك عيادة في إسطنبول، لكنَّه

مكتبة الفكر الجديد

يعيش في ستوكهولم:

ـ مشكلة الديموقراطيَّة تتمثَّل في كونها حاجة كماليَّة، شأنُها شأنُ الكافيار البلغاريّ. أمَّا في الشرق الأوسط، فهي صعبة المنال.

وقال الصحافيّ، وهو يغرز شوكته في قطعة من لحم الضأن:

ـ إنَّ أوروبا نفسها لم تعد تؤمن بها، والاتِّحاد الأوروبي في حال يُرثى لها.

قال المهندس المعماريّ متباهيًا بالعظمة:

ـ وتصرَّفت الأقطار الأوروبيَّة تصرُّفَ الهرَّة الصغيرة حين تحوَّلت روسيا إلى نمر في أوكرانيا. شئتم أم أبيتم، هذا هو قرن النمور. صحيح أنَّهم لن يحبُّوك إن كنت نمرًا، لكنَّهم سوف يهابونك. وهذا هو جوهرُ القضيَّة.

وقالت مديرة العلاقات العامَّة:

ـ إنَّني شخصيًّا سعيدة لأنَّهم لم يوافقوا على انضمامنا إلى الاتِّحاد الأوروبيّ، فتخلَّصنا بذلك خلاصًا جيِّدًا، وإلَّا لكنَّا الآن مثلَ اليونان.

ثم جذبت شحمة أذنها، ونقرت على الطاولة نقرتين.

فقال المهندس المعماريّ ضاحكًا ضحكةً قصيرة:

ـ اليونانيُّون؟ إنَّهم يتوقون شوقًا إلى عودة العثمانيِّين، إذْ كانوا أكثر سعادة عندما كنَّا نحكمهم.

وهنا أمسك عن الكلام عندما لاحظ التعابير التي اكتست بها قسماتُ وجه بيري، ثم التفت إلى عدنان وغمزه وأضاف:

ـ أظنّ أنَّ زوجتك غير معجبة بنكاتي.

فابتسم له عدنان، الذي كان مصغيًا وواضعًا إحدى يديه تحت ذقنه، ابتسامةً مكفهرَّة ومتعاطفة في آن، وقال:

ـ إنَّني متأكِّد من أنَّ هذا غير صحيح.

مكتبة الفكر الجديد

وقعَ نظر بيري، في هذه اللحظة، على الأرزّ المتجمِّد في طبقها. كان في وسعها أن تدع الملاحظة تمرّ مرورًا عابرًا، شأنها شأنُ دخان سجائر بعض الجالسين إلى حدٍّ ما، فهو دخان غير مرغوب فيه، لكنَّه مسموح به بعض الشيء، غير أنَّها كانت قد وعدت نفسها منذ سنوات، بعد رحيلها عن أوكسفورد، بألَّا تكون صامتة مجدَّدًا.

أومأت إلى زوجها إيماءة قويَّة، وقالت له:

ـ بل صحيح، فأنا لا أهوى مثل هذا الحديث، فالديموقراطيَّة أشبه ما تكون بالكاڤيار الأسود، والدول كالنمور.

التفت الحاضرون إليها، إذ كانت هذه هي المرَّة الأولى التي تتكلَّم فيها منذ مدَّة لا بأس بها، وبادلتهم النظرات وقالت:

ـ أتدرون؟ لا يوجد شيء اسمه دكتاتوريَّة مطبوعة على حبِّ الخير.

قال المهندس المعماريّ:

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنَّه لا يوجد شيء اسمه إلٰه صغير، فما إن يبدأ المرء بأداء دور الربّ حتى تبدأ الأمور بالخروج عن سيطرته.

في هذه الأثناء، كان فكرها منشغلًا تمامًا بالأستاذ آزور. فهو أشبه بإلٰه. ولو أنَّه أقرَّ بأنَّه ليس سوى بشر لما ارتبكت الأمور.

تدخَّل المهندس المعماريّ قائلًا:

ـ كوني واقعيَّة، فهذه ليست أوكسفورد الخياليَّة، وإنَّما نحن نتحدَّث عن قضايا سياسيَّة عمليَّة، والدول التي تجاورنا هي سوريا وإيران والعراق، وليست فنلندا والنروج والدنمارك. لهذا، لا يمكنك أن تحظي بديموقراطيَّة على الطراز الإسكندنافيّ في الشرق الأوسط.

قالت بيري:

ـ ربَّما كان هذا صحيحًا، لكنَّك لا تستطيع منعي من تمنِّي ذلك،

ولا تستطيع منعنا كلّنا من تمنّي ما نفتقر إليه.

قال المهندس المعماريّ منحنيًا إلى الأمام بعد أن بسط كفَّيه على الطاولة:

ـ التمنّي؟ يا لها من كلمة! ها أنت الآن تدخلين منطقة المياه الخطرة.

هزَّت بيري رأسها نافيةً، مدركةً أنَّ أعضاء نادي السيِّدات التركيَّات المحترمات لم يتمكَّنَّ من الدفاع أمام الملأ عن فوائد «التمنّي»، بحسب كتاب: «مرشد المتعلِّم المتقدِّم إلى النظام الأبويّ». غير أنَّها تمنَّت، بألم، أن تُلغى عضويَّتها. وإذا لم تتمكَّن من الاستقالة، فيجب عندئذ أن تُطرَد. فكَّرت في شيرين، فالمؤكَّد أنَّ صديقتها تستطيع أن تردّ على كلامه المشين، فقالت، في رقَّة، بعد أن التمعت هذه الفكرة في ذهنها:

ـ إذا كنت تريد أن تخبرني بأنّني يجب أن أتقبَّل الأمور كما هي، فإنَّ على تلك الأمم التخلّي، كالزوجة الطيِّبة المطيعة، عن أحلامها... عن أوهامها... وعندئذٍ، فإنَّ فهمك للعلاقات الدوليَّة ـ وخصوصًا للنساء ـ أضعفُ ممَّا توقَّعْتُه منك.

شاع الصمت مليًّا برهة وجيزة، إذ لم يعرف أحد ما يقول. وفي اللحظة الثقيلة حتى الإرهاق، رفع رجل الأعمال ذقنه وعدَّل منكبيه وصفَّق بيديه، كأنَّه راقص فلامنغو يوشك أن يحتلّ باحة الرقص الوسطى، وهدر سعيدًا ومَرِحًا كما كان في سابق عهده:

ـ أين طبق الطعام التالي بالله عليكم؟

فانفتح الباب الدوَّار الفاصل بين المطبخ وغرفة الجلوس، ودخل الخدم مسرعين، مضطربين.

مكتبة الفكر الجديد

الاحـــــتفـال

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

كانت شيرين تحتفل بعيد مولدها العشرين في حانة تورف التي تبلغ من العمر قرونًا، والمكسوَّةِ إلى منتصفها بالخشب، والواقعةِ في نهاية زقاق ضيِّق تحت أسوار المدينة القديمة. سارت بيري المتأخِّرةُ عن موعد الحفل سيرًا ينطوي على عزم وتصميم، وتحت إبطها هديَّةٌ إلى صديقتها، احتارت كثيرًا في اختيارها، حتى استقرَّ رأيها على شيء علمت بأنَّ شيرين سوف تحبّه، ويتمثَّل في سترة جينز مرصَّعة بخرزات ساطعة الألوان، كلَّفتها مبلغًا لا بأس به من المال. عندما دخلت بيري الحانة المغلَّفةَ بألواح البلُّوط الخشبيَّة، غمرتها رطوبة دافئة سببُها المشروباتُ الكحوليَّة والأنفاسُ المتصاعدة في ضحكات المدعوِّين والضحك تحت السقف الواطئ. توقَّعت أن يكون عدد الحاضرين غفيرًا نظرًا إلى ما تتمتَّع به شيرين من شعبيَّة كبيرة، وكان الأمر كذلك حقًّا، فقد أحاط بها جمع صاخب من الأصدقاء، فوقف صديقها الجديد إلى جانبها، واضعًا ذراعه فوق كتفها. أمَّا صديقها القديم، وهو طالب في المرحلة الثانية في قسم الفيزياء، ذكيّ ورقيق الحاشية، فقد بالغ في التخطيط لهذا اللقاء مبالغة شديدة، بحسب شيرين، التي قالت إنَّها قرَّرت أن تهجره بعد رؤية جدوله الأسبوعيّ: أوقات لحضور محاضرات صباحيَّة، وساعات

مكتبة الفكر الجديد

للذهاب إلى المكتبة والنادي الرياضيّ والفصول الدراسيَّة، ووجدت اسمها محشورًا في الفترة المحصورة بين الرابعة والربع والخامسة والربع عصرًا، وثمَّة وقت آخر محجوز لها في مساء يوم الجمعة: هل تصدِّقين يا ماوس؟ لقد حشرني بين السابعة والنصف والعاشرة والنصف مساء؟ عشاء وشريط سينمائيّ وجنس.

أيقظ صوت شيرين العالي بيري من أفكارها:

ـ هه! ها هي جارتي الجديدة، أهلًا بك.

كانت شيرين تبدو رائعة في سترتها اللؤلُئيَّة وبنطالها الجينز الأبيض المفرط في ضيقه والواطئ الخصر. أمسكتِ الهديَّة وقبَّلت بيري وطوَّقتها بذراعها، وهتفت:

ـ أين كنتِ؟ لقد فاتك ضيفُ الشرف الذي انصرف قبل قليل.

ـ مَنْ هو؟

قالت شيرين مغمضة العينين:

ـ آزور، لقد جاء إلى الحفل، ولا أستطيع أن أتصوَّر أنَّه حضر. كان في منتهى الهدوء. كلّ ما فعله هو أنَّه توقَّف قليلًا، وشرب النخب، وانصرف.

كان يبدو على شيرين أنَّها تريد أن تتكلَّم أكثر، إلَّا أنَّ ثمَّة من جذبها من ذراعها كي تطفئ الشموع المثبَّتة على قالب الحلوى. ألقت بيري نظرة خاطفة من حولها من دون أن تتوقَّع معرفة أيّ من أصدقاء شيرين المحتشدين في وقوفهم واحتسائهم الشرابَ وحديثهم بأصوات مرتفعة. لكنَّها رأت مندهشةً وجهًا مألوفًا: منى. كانت الفتاة مرتدية قميصًا برتقاليًّا طويل الكمَّين وبنطالًا، وعلى رأسها وشاح ملائم،

مكتبة الفكر الجديد

وكانت تجلس من حول مائدة ركنيَّة ترشف من كأس كولا.

ـ مرحبًا يا منى.

قالت منى وقد بدا على وجهها الارتياح، إذ وجدت من تكلِّمه أخيرًا:

ـ يسعدني كثيرًا أن أراك.

فقالت بيري وهي تجلس إلى جانبها:

ـ لم أكن أعرف أنَّك صديقة من صديقات شيرين.

فقالت منى بصوت يتلاشى وقعه في الضجيج:

ـ حسنًا، إنَّنا لسنا بصديقتين تمامًا، غير أنَّها وجَّهت الدعوة إليّ، ففكَّرت في أن...

أدركت بيري ما كانت تعنيه الفتاة عندما تلاشى صوتها، إذْ ليس سهلًا رفضُ دعوة من واحدة من أكثر الطالبات شعبيَّة في المدينة. وهكذا حضرت منى ـ المنشرحة والواثقة بنفسها ـ من دون أن تدري ماذا تتوقَّع أن ترى. والآن، ها هي لا تشعر بالارتياح، ولا تجرؤ على إظهار انزعاجها وسط عشرات من المدعوِّين المرحين والذين لا يكبح جماحَهم كابحٌ، وهم يتمايلون على إيقاع لا يسمع صوتَه سواهم.

انهمكت الفتاتان في حديث، من فوق شرائح قالب حلوى عيد الميلاد، بينما كانت شيرين وأصدقاؤها يمرحون على نحوٍ صاخبٍ.

قالت بيري متسائلة:

ـ أيمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟ عندما التقينا أوَّل مرَّة، قلت لي إنَّ خياراتك تختلف عن خيارات أختك. فهل يعني هذا أنَّك تفضِّلين الحجاب؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ بالتأكيد! لقد منحني والدي الخيار دومًا. إنَّ حجابي هو خياري الشخصيّ، وشاهدٌ على دیانتي، ويمنحني الهدوء والثقة.

وهنا اكفهرَّ وجه منى، وهي تضيف:

ـ لكنَّني، على الرَّغم من ذلك، تعرَّضت للأذى مرارًا بسببه.

ـ صحيح؟

ـ نعم، إلَّا أنَّني لم أمتنع من ارتدائه. فإذا لم أعترض أنا بحجابي على النماذج النمطيَّة، فمن ذا الذي سيعترض عليها؟ إنَّني أُريد أن أُحدث رجَّة.

الناس ينظرون إليَّ كأنّني ضحيَّة سلبيَّة وقنوعة لسلطة الرجل. حسنًا، أنا لست كذلك، إذ لديَّ عقلي الذي أفكِّر به، كما أنَّ حجابي لم يقف يومًا عائقًا في طريق استقلالي.

أصغت بيري في اهتمام ورغبة، إذ وجدت في هذه الفتاة نسخة أكثر شبابًا من والدتها، بالتحدِّي الواضح والصريح نفسه، وبالعزم والإصرار ذاتيهما. وكان ذلك إحساسًا أدركت أنَّها تعرفه معرفة جيِّدة أكثر ممَّا يجب. لقد كانت معتادة على سماع أُناس يمضون في كلامهم متشدِّقين بتحمُّس وبثقة عالية بالنفس، لكنَّ ما لم تستطع تفسيره هو قدرتها على إلهام الآخرين بالإفصاح عن مشاعرهم الفيّاضة أمامها، هي الإنسانة المتناقضة المتذبذبة.

ـ هل الأشعار التي تَنْظُمِينها أشعارٌ دينيَّة؟

فضحكت منى وقالت:

ـ أشعاري عن الحبِّ، وربَّما تنطوي على قَدْر من الغضب الموجَّه إلى الظلم واللامساواة، إنَّها تعزز...

مكتبة الفكر الجديد

غير أنَّ ضحكة مجلجلة في مؤخِّرة الحانة جعلتها تُحجم عن إكمال عبارتها. فقد دعا شخص ما صديق شيرين، في نبرة تحدٍّ، إلى منازلة في احتساء الجعة، فملأ كوبًا يبلغ من الطول مقدارَ قدمين اثنتين بالجعة وراح الفتى يحتسي ما فيه بأسرع ما يستطيع، وتمكَّن من إفراغه في جوفه، فانفرجت أسارير وجهه عن ابتسامة عريضة، وتبلَّل قميصه. وأمام هتافات المحتشدين، منح الشابّ شيرين قبلة طويلة ورطبة، تنمّ عن سعادته الغامرة، إلَّا أنَّه توقَّف ليندفع إلى خارج الحانة بعد أن استبدَّت به حالةُ الغثيان والرغبةُ في التقيُّؤ.

قالت منى:

ـ أعتقد أنَّه يُستحسن بي الانصراف.

فقالت بيري:

ـ سوف أرافقك.

لم يكن سببُ رغبة بيري في الخروج من الحانة انزعاجَها من الكحول أو من سلوك منى الواضح، وإنَّما كان انزعاجُها مغايرًا في طبيعته. فلدى مواجهتها حيويَّةَ الآخرين ونشاطَهم، وعدمَ قدرتها على التكيُّف معهم، فإنَّها تنكمش وتصبح مثل قنفذ مُنطوٍ على نفسه كالكرة، دلالةً على منع نفسها من الفرح.

* * *

كان القمر بدرًا مكتملًا حين خرجت بيري ومنى من الحانة من دون أن ينتبه لخروجهما أحد. وبعد أن سارت الفتاتان تحت جسر التنهُّدات، بدأتا تشقَّان طريقهما المتعرِّج وسط الشوارع الجانبيَّة المعتمة.

قالت منى:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنَّني لا أفهم سبب دعوة شيرين لي.

كانت بيري تفكِّر في الشيء نفسه، في ما خصَّها هي، فقالت:

ـ إنَّها تهوى عقد صداقات جديدة.

إلَّا أنَّ منى هزَّت رأسها رافضةً الفكرة، وردَّت:

ـ لا، ثمَّة سبب آخر، لا أستطيع معرفته. لقد مضت على معرفتنا مدَّةٌ غيرُ قصيرة، غير أنّني أشعر دومًا، بأنَّها لا تستلطفني بسبب حجابي على الأرجح.

لاذت بيري بالصمت متذكِّرة شيرين عندما حدَّقت إلى أمِّها، فمضت منى في كلامها، وعلى وجهها أماراتُ الفخر والكبرياء:

ـ إذا كان ذلك هو السبب، فلا بأس، وأنا غير مهتمَّة بالأمر، لكن ما السبب الذي يدفعها إلى مصادقتي؟ أتظنِّين أنّني مغرورة؟

قالت بيري:

ـ لا، أعني: نعم قليلًا. إنَّني متأكِّدة من أنَّ في وسعكما أن تكونا صديقتين.

قالت منى:

ـ لا بأس، سوف نرى. إنَّ شيرين تلحّ عليَّ إلحاحًا شديدًا كي ألتحق بمنهاج الأستاذ آزور الدراسيّ.

توتَّرت أعصاب بيري كأنَّ جسدها استشعر خطرًا، لكنَّ عقلها لم يفهمه بعدُ، وقالت:

ـ حقًّا؟ إنَّها تلحّ عليَّ أيضًا، وتردِّد: اذهبي إلى آزور.

فقالت منى مشتَّتة الانتباه:

ـ إذن، لست أنا الوحيدة...

مكتبة الفكر الجديد

ثم أشارت إلى شارع تورل وأضافت:

ـ في أيّ حال، سأسلك هذا الطريق.

ـ حسنًا، لا بأس، طابت ليلتك.

فردَّت منى:

ـ طابت ليلتك أنت أيضًا يا أختاه، ينبغي لنا أن نلتقي مرَّات ومرَّات.

ثم أمسكت يد بيري بيديها بحرارة، وصافحتها مصافحة مفعمة بالحيويَّة قبل أن يطويها الظلام.

انعطفت بيري إلى شارع برود بعد أن أمست وحيدة مع أفكارها، إلَّا أنَّها لاحظت أمامها في جوف الليل البهيم شبحًا تحت أنوار الشارع الصفراء بلون الصوديوم. امرأة متشرِّدة مسنَّة تدفع أمامها عربة طفل يكسوها الصدأ وتتكدَّس فوقها الثيابُ والعلبُ والأكياس البلاستيكيَّة. رحَّالة متنقِّلة على الدوام من هنا إلى المجهول. تأمَّلتها بيري، فشاهدت ثيابها قذرة، ملتصقةً بجسدها بسبب تعرُّقها ورطوبتها، وشعرها ينضفر بالأوساخ وبما يشبه الدم اليابس المتخثِّر، ورويدًا رويدًا بدأت بيري تلتقط مزيدًا من التفاصيل: تيبُّس راحتي كفَّيها، وكدمة على عظم وجنتها اليمنى، وانتفاخ عينيها. إنَّ المرء ليجد دومًا في إسطنبول وجوه مشرَّدين: البعض منهم مكوَّرٌ في زوايا كي يتوارى عن أنظار الغرباء، ومعظمهم يلتمس اهتمام عابري السبيل والطعامَ والنقود. إلَّا أنَّ رؤية شخص بلا مأوى هنا في أوكسفورد تُثير الحيرة والريبة. فمشهد المتسكِّع المشرَّد يناقض تناقضًا صارخًا هدوءَ المدينة الرائع.

شعرت بيري بأنَّها منجذبة انجذابًا غريبًا إلى المرأة التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

تحظو أمامها خطوات قصيرةً، متمهِّلةً ومحترسة، فبدأت تقتفي أثرها. وامتلأ أنفها برائحة كريهة وزنخة كلَّما غيَّرت الريح بين لحظة وأخرى وجهتَها. رائحة قوامها مزيجٌ من البول والعرق والبراز.

كانت المرأة المتشرِّدة تحدِّث نفسها بصوت متوتِّر منهَك، متسائلة: «كم مرَّة ينبغي لي أن أُخبرك؟ اللعنة!» وبينما راحت تنتظر جوابًا عن تساؤلها، قست ملامح وجهها وضحكت في سرِّها في غبطة وانشراح، بيد أنَّ غضبها سرعان ما ازداد: «لا، أيُّها السافل!» تملَّكَ بيري إحساسٌ بحزن عميق يكاد يصل إلى حدّ انقباض الصدر. وفكَّرت: ما الذي يفصلها يا ترى ـ وهي الطالبةُ في جامعة أوكسفورد ذاتُ المستقبل المشرق ـ عن هذه المرأة المجهولة التي لا تعرف عنها أيَّ شيء؟ هل ثمَّة حافَّة تخشى الأوساط الراقية أن تسقط فيها، مثل حافَّة العالم المنسرح الذي ملأ يومًا ما قلوب البحَّارة القدامى رعبًا وهلعًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأين هو الحدّ الفاصل بين سلامة العقل والجنون؟ وتذكَّرت ما قاله الحاجّ لمَّا زارته هي وأمُّها. لعلَّه كان على حقّ. لعلَّها نزَّاعة إلى الاكتئاب.

توقَّفت المرأة والتفتت إلى الوراء وحملقت في بيري، وقالت كاشفةً عن أسنان ملوَّثة بالنيكوتين:

ـ أتبحثين عنِّي أيَّتها العزيزة؟ أم أنَّك تبحثين عن الربّ؟

امتقع وجه بيري، وهزَّت رأسها نافيةً، لا تقوى على الردّ، ثم تقدَّمت منها، وفتحت قبضة يدها لتناولها النقود التي أعدَّتها لها، فما كان من المرأة إلَّا أن مدَّت يدها من باطن كمّ معطفها وأطبقت على النقود بسرعة توازي سرعة إطباق لسان سحلية على حشرة واقفة على ورقة شجرة، ثم استدارت بيري من فورها، وانطلقت نحو كلِّيَّتها، تكاد

مكتبة الفكر الجديد

تعدو عَدْوًا في طريقها، مرتعدةَ الفرائص من دون أن تعرف السبب، آملةً أن تُبعدها كلّ خطوة عن المرأة المشرَّدة، وعن الشكِّ الذي راح يساورها في أنَّهما تنتميان إلى المكان نفسه.

لبثت بيري تقرأ حتى ساعة متأخِّرة من تلك الليلة، ولو أنَّها رَنَتْ إلى العشب خارج غرفتها فلربَّما شاهدت شيرين التي أخفقت في دخول الكلِّيَّة بمفتاحها المتأخِّر وهي تخلع حذاءها الوتديّ بالكعبين الممتدَّين من مؤخّرتي القصبتين إلى مقدّميهما، ولشاهدت أيضًا صديق شيرين الثمل مثلها وهو يساعدها على الوثوب من فوق سور الحديقة الحجريّ البالغ طوله ١٢ قدمًا ـ الأمر الذي أدَّى إلى تمزُّق بنطالها الجينز الأبيض الضيِّق وتلويثه بالبقع ـ لتقع على مستنبت الأزهار، ثم تنهض على قدمها وتقرع على نافذة من نوافذ إحدى حجرات الطبقة الأرضيَّة، وهي غارقة في أثناء ذلك في الضحك، مدندنة بأغنية فارسيَّة ذات إيقاع مرح.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

المعجـــــــم

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

لا تعاني مدينة أوكسفورد قلَّةَ الحانات والمطاعم الملائمة لميزانيَّة الطلَبَة، إلَّا أنَّ بيري قلَّما تجاوزت عتبةَ أيٍّ من هذه الأماكن. وفي حين أنَّ هناك أكثر من مئة نادٍ وجمعيَّة تستطيع الانضمام إليها، فإنَّها نأتْ بنفسها بعيدًا عن كلّ واحد منها، بما في ذلك جمعيَّةُ «الجماعة النَّسَويَّة»، وذكَّرتْ نفسها بأنَّها يجب أن تصمد حتى النهاية، وإلَّا فإنَّ أيَّ شيء غير ذلك سوف يؤدِّي إلى إبعاد ذهنها عن الدراسة. ومن بين تلك الأشياء أيضًا الفتيانُ، لأنَّ الحبّ عبث، والفراق من بعده أشدُّ عبثًا أيضًا، إضافة إلى العواطف المشبوبة، والاتِّفاقِ والاختلاف، ووجباتِ الغداء والعشاء والنزهاتِ، والشجارِ لأسباب تافهة والمصالحةِ. باختصار، كان وجود إنسان آخر، قريبًا من مركز حياتها، إن لم يكن بالقرب منها، يتطلَّب جهدًا جهيدًا، وهي لا تملك الوقت لذلك. كما أنَّ للصداقات متطلِّبات أيضًا، وعملًا شديد التركيز، فكانت بين الحين والآخر تصادق من الطلبة من تظنّ أنَّه صديق ملائم لها، إلَّا أنَّها تتفادى تعميق تلك الرابطة. فثمَّة تصلُّب وآليَّة، بل دوغمائيَّة في أسلوب بيري الذي انتهجته ونظَّمت حياتها وفقًا له. أسلوب لا يتضمَّن سوى شعار واحد في الأسابيع المبكرة من حياتها في الكلِّيَّة، وهو: الدراسةُ، الدراسةُ، الدراسة.

مكتبة الفكر الجديد

ولمَّا كانت طالبة ناجحة في كلّ حياتها الدراسيَّة، فقد أدركت إدراكًا زاد في ألمها، نقاطَ الضعف الأكاديميَّة التي اكتسبتها مؤخَّرًا. لم تكن تعاني أيَّ مشكلة في متابعة المحاضرات، غير أنَّ صعوبتها كانت في المشاركة في الحلقات الدراسيَّة والنقاشاتِ وإنجازِ الفروض التحريريَّة، وكان التحدِّي الكبير أمامها يتمثَّل في التعبير عن أفكارها على الورق، وبلغة غير لغتها الأمّ. لهذا السبب، وفي غمرة إصرارها وعزمها على النجاح، اندفعت اندفاعًا شديدًا في دراستها، غير راضية عن نفسها.

وفهمت جيِّدًا ضرورةَ تمكُّنِها من إجادة اللغة الإنكليزيَّة إذا شاءت أن تتفوَّق في أوكسفورد. كان عقلها يحتاج إلى مفردات لتعبِّر بها تعبيرًا جيِّدًا عمَّا يجول في ذهنها، تمامًا مثلما تحتاج الشتلة إلى قطرات المطر لتنموَ وتقوى. لهذا السبب، اشترت رزمة من أوراق الملاحظات الملوَّنة، وبدأت تدوِّن عليها الكلماتِ التي تصادفها، والتي تحبّها، والتي قرَّرت أن تستخدمها في أقرب فرصة ممكنة. وهذا ما يفعله كلُّ أجنبي على نحو ما.

ـ البتر الذاتيّ (autotomy): التخلُّص من جزء من أجزاء البدن يعمد إليه حيوان ما لدى إحساسة بالخطر.

ـ محشور في شَقّ (cleft stick) (عن رواية «سيِّد الخواتم» للمؤلِّف تولكين): أن يكون المرء في وضع حرج وصعب.

ـ متبجِّح (rantipole) (عن أسطورة الخواء النائم): من هو متبجِّحٌ وطائش، وأحيانًا محبٌّ للخصام.

وكتبت في أوَّل مقالة لها في الفلسفة السياسيَّة:

«في تركيا، حيث السياسةُ اليوميَّة تبجُّحٌ، ويكون النظام في كلّ مرَّة

مكتبة الفكر الجديد

محشورًا في شَقّ، فإنَّ الديموقراطيَّة هي أوَّل الأشياء التي تتعرَّض للقطع، ويضحَّى بها في عمل من أعمال البتر الذاتي».

وعندما حان دورها لقراءة المقالة بصوت مرتفع أمام مدرِّسها، أوقفها في منتصف القراءة وبدا ذاهلًا مسرورًا، وقال لها: «وهل هذه لغة إنكليزيَّة؟».

ذُهلت بيري، فالجملة التي بدت بارعة وأنيقة ودقيقة في أذنيها لم تكن سوى كلام فارغ في نظر ابن البلد، وتساءلت في نفسها: كيف يمكن للأجنبيّ ولابن البلد أن يسمعا الكلمات نفسَها بهذه الدرجة من الاختلاف؟ غير أنَّها رفضتِ الإحباط وظلَّت مهووسة بظلال الفوارق وواصلت جمع المفردات المدهشة، فقد ذكَّرتها تلك المفردات بالأصداف اللولبيَّة والمرجانِ الورديّ المصقولِ صقلًا جيِّدًا نتيجة أعداد لا تُحصى من حالات المدّ، والذي دأبت على جمعه عندما كانت طفلة في أثناء ذهاب أسرتها إلى شاطئ البحر. بيد أنَّ المفردات كانت مفعمة بالحياة، تنشر عبيرها، بخلاف تلك التذكارات الجميلة الساكنة.

* * *

لم يكن الإحساس بمعرفة الاتِّجاهات يلائم بيري كثيرًا. كانت أحيانًا تضيع في طريقها. وفي إحدى تلك النزهات، اكتشفت مكتبة لبيع الكتب اسمها «نوعان من الذكاء»، وما إن أخذتْ تجتاز الغرفة الأماميَّة من المكتبة حتى انبعث صرير الألواح الخشبيَّة على نحو ينمّ عن تعاطف متخيَّل. كانت رفوف الكتب تلامس السقف على كلّ جدار، وثمَّة مدفأة جداريَّة في الركن الذي يضمّ مطبوعات أوكسفورد القديمةَ. وهناك غرفتان صغيرتان يمكن الوصول إليهما بارتقاء درج خشبيّ، تحتوي كلّ واحدة منهما على مجموعة من المجلَّدات المختارة والتي تعكس هوى

مكتبة الفكر الجديد

مالكي المكتبة الغريبَ في موضوعات الفلسفة وعلم النفس والأديان والسحر. وسرعان ما أصبح هذا المكان مفضَّلًا لدى بيري نظرًا إلى ما يتمتَّع به من مزايا، كالصور الفوتوغرافيَّة المعلَّقة على الجدران، والأرائكِ الخفيفة الموضوعةِ على الأرض كي يتمكَّن الزبائن من الجلوس فوقها، وآلةِ صنع القهوة التي توفِّر قهوة مجَّانيَّة طوال النهار.

أُعجب بها مالكا المكتبة (المرأةُ الأسكتلنديَّةُ والرجلُ الباكستانيُّ) عندما أدركا أنَّها تعرف الأصل في تسمية المكتبة، وهو عنوان قصيدة من قصائد جلال الدين الرومي، وكانت بيري تتذكَّر بضعة أبيات من شعره:

«هناك نوعان من الذكاء: أحدهما مكتَسب كما في حالة الطفل الذي يحفظ عن ظهر قلب... من الكتب وممَّا يقوله المعلِّمون... أمَّا الثاني فهو الذكاء الذي ينساب مثل نافورة تنبعث من أعماقك وتتدفَّق».

قالت المرأة:

ـ يا لجمال هذا الكلام! تعالي بهدف المطالعة متى تشائين.

وقال الرجل:

ـ لتقوية ذكائك، بنوعيه.

وهذا ما أقدمت عليه بيري، وسرعان ما أصبح عادة ملازمة لها، فكانت تمسك فنجان قهوتها وتضع قطعة نقود في صندوق الإكراميَّات، وتجلس فوق إحدى الأرائك وتقرأ إلى أن يسري الألم في ظهرها وتتخشَّب ساقاها. ودأبت على التردُّد إلى مكتبة بودليان، حيث تفتِّش عن زاوية بعيدة، وتكدِّس أكوامًا من الكتب تفوق كثيرًا قدرتها على قراءتها، وتفتح خلسة كيسًا يحتوي على أعواد من بسكويت مملَّح، وتدفن رأسها في موج من المفردات.

مكتبة الفكر الجديد

اشترت بطاقات تهنئة تشتمل على مناظر طبيعيَّة لمدينة أوكسفورد، مثل شوارعَ ترقى إلى العصور الوسطى مضاءةٍ بنور الشمس، ومبانٍ مشيَّدةٍ بحجر عسليّ اللون، وحدائقِ الكلِّيَّة الظليلة. وأرسلت عددًا من تلك المناظر إلى أبويها. أمَّا البقيَّة الباقية فقد احتفظت بها لشقيقها أوميد الذي كانت تراسله طوال الوقت على الرَّغم من أنَّ ردوده كانت غير منتظمة ومقتضبة، ومع هذا لم تيأس، ولبثت تكتب عبارات خفيفة ومرحة، من غير ضرورة لذكر مخاوفها أو لإخباره بداء الشقيقة الذي كان يداهمها، أو كوابيسها أو وحدتها التي أصبحت اليوم، كما تعرف، لعنةً ورفيقة. وعوضًا عن ذلك، تحدَّثت عن أساليب البريطانيين الجذَّابة على نحو غريب، وعن براغماتيَّتهم وثقتهم بمؤسَّساتهم التي تُجَلّ عن الوصف، وحسِّ الفكاهة الموارِبِ الذي يتمتَّعون به.

وردّ أوميد على رسائلها برسائل مكتوبة على ورق مخطَّط أو على قصاصات مأخوذة من علب البسكويت، أو التقاويم، أو أكياس البقالة، لكنَّه أرسل ذات مرَّة بطاقة تهنئة تمثِّل بحرًا أزرق اللون وقاربَ صيَّاد سمك أحمرَ اللون، ونسيمَ البحر المتوسِّط المهدِّئ ورمالًا ناعمة نعومة الوعود... كأنَّه يحاول بدوره أن يجرِّب الكتابة عن فنّ التظاهر بالسعادة.

في البهو الرئيس ـ القاعة الكبرى التي يرقى تاريخها إلى العام ١٣٧٩ ـ كانت بيري تجلس مُحاطة بلوحات رؤساء الجامعة السابقين، على مقاعد من خشب البلُّوط موغلةٍ في القِدَم، والطاولاتُ مزيَّنة بفضِّيَّات الكلِّيَّة، ويسهر على الخدمة فيها كشَّافةٌ يرتدون سترات بيضًا، فتشعر بأنَّها انتقلت إلى زمن آخر. كانت بيري شخصيَّةً من الشخصيَّات المرسومة في إحدى اللوحات، سورياليَّةً ورومانسيَّة، في الوقت نفسه،

مكتبة الفكر الجديد

ثمَّة أقسام من الكلِّيَّة لم تتغيَّر على مدى قرون من الزمان، فأُغرمت بأثر التاريخ ونكهته وديمومته، وكانت في كثير من الأوقات ترتاد المكتبة القديمة كي تتنشَّق العبق اللذيذ المنبعث من رفوف الكتب المتراصَّة، وكانت تهبط إلى السرداب حيث تدير مقبضًا لتحرِّك الرفوف حتى تصل إلى الكتب التي تحتاج إليها. وفي خضمّ تلك الألوف المؤلَّفة من الكتب التي كان كلّ واحد منها يمثِّل ملاذًا لها، تشعر بأنَّها مكتملة، غير أنَّ الشيء الذي يبعث على الاستغراب هو أنَّ فكرة واحدة لبثت تطفو على سطح دماغها عندما تكون داخل تلك المعرفة الواسعة، وهي فكرة الربّ.

وقد احتارت لأنَّ هذه الفكرة لبثت على هذه الحال، ما دامت أيُّ صفة من بين كلّ صفاتها المميَّزة التي تزعمها لنفسها لم تقترب ممَّا هو «دينيّ» أو «روحيّ». إنَّها لا تقدر على البوح لأمِّها، إلَّا أنَّ ثمَّة لحظات خالجها فيها الشكّ في أن تكون مؤمنة بأيٍّ شيء إطلاقًا، فهي تنظر إلى نفسها على أنَّها مسلمة بطبيعة الحال، وكانت تحبّ شهر رمضان والعيد، إذ كانا يملآن قلبها دفئًا، وعقلَها بذكريات عميقة عن الروائح والأذواق. وكان الإسلام يذكِّرها بذكريات الطفولة، الشخصيَّة والمألوفة لديها. غير أنَّها، من جهة أخرى، بعيدةٌ زمنًا ومكانًا، وإن كان ذلك على نحو مبهم، وكما هو شأن مكعَّب من السكَّر المُذاب في قهوتها، تجدها هناك وليس هناك. وكانت بيري تستغرب دومًا لأنَّ أعدادًا غفيرة من الأتراك يحفظون عن ظهر قلب الصلوات باللغة العربيَّة من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عمَّا يتفوَّهون به. غير أنَّها كانت تعشق المفردات، إنكليزيَّة كانت أم تركيَّة، وتحتضنها في راحتي كفَّيها مثل بيض يوشك أن يفقس، قلوبُها الصغيرة تضرب على جلدها، مفعمة بالحياة.

مكتبة الفكر الجديد

وبحثت عن معانيها ـ الخفيَّةِ منها والظاهرة ـ ودرست تاريخها وأصولها، أمَّا عند الأعداد الغفيرة من المؤمنين، فإنَّ المفردات في الصلوات تمثِّل أصواتًا مقدَّسة لا يُتوقَّع من الفرد أن يتوغَّل في معناها بقدر ما يهتمّ بتقليدها ويردِّدها. فهي صدى من دون بداية أو نهاية، ويكون فعل التفكير أقلّ أهمِّيَّة من فعل التقليد. فيجد المرء، في حضن الإيمان، أجوبةً، بعد أن يترك الأسئلة جانبًا، ويتقدَّم فقط عندما يستسلم.

وكتبت بيري في مفكِّرتها الخاصَّة بالربّ:

يفضِّل المؤمنون الأجوبة على الأسئلة، والوضوح على الشكّ. أمَّا الملحدون، فينطبق الشيء نفسه عليهم تقريبًا. إلَّا أنَّ المثير للضحك هو أنَّنا إذا ما وصلنا إلى موضوع الربّ، الذي لا نعرف عنه شيئًا تقريبًا، فإنّ أعدادًا قليلة جدًّا منَّا هي التي تقول عادة: «لا أدري».

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الملاك

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

دأبت بيري منذ وصولها إلى مدينة أوكسفورد على أن تكلِّم والدها هاتفيًّا على نحو منتظم، متَّصلةً به عن عمد في ساعات تعلم جيِّدًا بأنَّه على الأرجح سوف يلتقط سمَّاعة الهاتف ويكلِّمها فيها، أمَّا اليوم، فإنَّ والدتها هي التي ردَّت على مكالمتها عندما اتَّصلت بإسطنبول من كشك الهاتف.

قالت سلمى في حنان:

ـ يا روحي...

بيد أنَّها سرعان ما بدَّلت لهجتها وأضافت:

ـ هل تحضرين زفاف شقيقك؟

ـ نعم يا أمِّي، أخبرتك بأنّني سأحضر.

ـ أُخبرك بأنَّها ملاك.

ـ من؟

ـ العروس أيَّتها الغبيَّة.

أثنت سلمى وأطرت متوتِّرة الأعصاب بشأن الاستعدادات على كنّتها وفضائلها على نحو مبالغٍ فيه لم يغب عن ذهن بيري.

فقالت بيري:

مكتبة الفكر الجديد

ـ عظيم، يمكننا التعامل مع ملاك في الأسرة.

كان في وسعها أن تستطعم التلميحات المغلَّفة في ثنايا مديح أمِّها مثل قطع الحلوى الصغيرة التي تُخفي مذاقًا كريهًا من تحت غلافها اللمَّاع، فقد كانت العروس ابنةً لم تحظ بمثلها سلمى: وَرِعَةً، ليِّنَةَ العريكة ومطيعةً. وسألت سلمى:

ـ ما خطبك؟

ـ لا شيء.

تنهَّدت سلمى:

ـ ينبغي لك السفر كي تحضري ليلة الحنّاء.

كانت ليلة الحنّاء من مهمَّات أسرة العروس، بخلاف الزفاف الذي هو من مسؤوليَّة العريس.

ـ لقد تحدَّثنا في هذا الموضوع يا أمَّاه، فأنا لا أستطيع إلَّا حضور الزفاف لا أكثر.

ـ هذا لا ينفع، وسوف يثير الناسُ الأقاويلَ. لهذا ينبغي لك الحضور مبكرًا.

أشاحت بيري بعينيها، إذْ لا تزال تثير دهشتَها مقدرةُ أمّها على تكدير مزاجها، وكأنّ سلمى، ولا أحد غيرها، تعرف جيِّدًا أين الموضع الذي تضغط عليه في قلبها كي تعجِّل في تدفُّق الدماء.

قالت بيري بإصرار:

ـ لا يمكنني أن أضيِّع مزيدًا من المحاضرات.

وانقلبت المحادثة بينهما إلى خصام، كلّ واحدة منهما تنحو على الأخرى باللائمة، متَّهمةً إيَّاها بالأنانيَّة. وبعد أن انتهت المكالمة،

مكتبة الفكر الجديد

شعرت بيري بالاشئمزاز من كلّ ما قيل وما لم يُقل، ومن كلّ ما انفصمت عراه بينهما ولم يعد في الإمكان إصلاحُه.

* * *

نامت بيري في تلك الليلة نومًا متقطِّعًا، واستيقظت بسبب نوباتِ صداع قاتل ألمَّ بها وكاد يصل إلى مرحلة الشقيقة. بحثت في الأدراج، غير أنَّها لم تستطع العثور على أيّ مسكِّنات، فراحت تمسِّد صدغيها وتضغط قاعدة علبة معدنيَّة على عينها اليمنى التي كانت ترفّ، وهو ما كان يُفيدها دومًا، ثم زحفت إلى سريرها وتكوَّرت على نفسها، ولم تتوقَّع أن تنام، إلَّا أنَّها قبل أن تُدرك ذلك، استسلمت للنوم وراحت تحلم:

حديقة ذات أشجار كثيرة العقد، تمشي فيها بيري بتؤدة مرتديةً ثوبًا يتماوج في النسيم، وشاهدت شجرة بلُّوط ضخمةً بالقرب من جدول مياه، وكان ثمَّة طفل رضيع في سلَّة تدلَّى من أحد الأغصان، مغطَّى نصفُ وجهه بقطعة قماش من الساتان الأسود. تنبَّهت بيري، في هلع، إلى أنَّ الشجرة تحترق، وألسنةَ اللهب تمتدّ من الأرض إلى الجذع، فما كان منها إلَّا أن أمسكت بدلو وراحت تملأه بالماء من الجدول، وسرعان ما غطَّى الماء كلّ شيء، يُرغي ويُزبد مهتاجًا من حول قدميها، وحين رفعت بصرها إلى الطفل الرضيع مجدَّدًا، لم تعثر له على أثر في الشجرة، فقد حملته المياه التي تحوَّلت إلى نهر جارف. وهنا صرخت بيري، إذ فكَّرت في أنَّها ارتكبت خطأً شنيعًا لا سبيل إلى تقويمه.

ترامى إلى أذنَي بيري صوتُ طَرْقٍ في مكان ما؛ طرقٍ خفيف لكنَّه متواصل، فحاولت أن تفتح عينيها، لا تدري إن كان هذا الصوت أيضًا

مكتبة الفكر الجديد

جزءًا من الحلم. في هذه اللحظة، انساب إلى سمعها صوتٌ قادم من جهة الباب الأخرى:

ـ هذه أنا شيرين، لقد أفزعتني، هل أنت بخير؟

جلست بيري فوق السرير ترمش عينيها في ارتباك وتقول:

ـ إنَّني بخير.

وشعرت بحنجرتها جافَّةً ومتيبِّسةً مثل أوراق شجرة ميتة، وتملَّكها الرعبُ عندما تيقَّنت بأنَّها قد صرخت صرخةً كان لها من الدويّ القويّ ما جعلها مسموعة في الغرفة المقابلة لغرفتها.

ـ لن أغادر المكان حتى أراك بأمّ عيني.

نهضت بيري بتؤدة من فوق سريرها وفتحت الباب، وشاهدت شيرين مرتديةً منامةً حريريَّة بلون الخوخ، وقناعَ عينين ملائمًا جذبته إلى أعلى فغطَّى جبينها. كانت عيناها تخلوان من مساحيق التجميل، ومن حولهما طبقة سميكة من الكريم، فبدت أقصرَ قامة وأشدّ سمرة.

قالت شيرين:

ـ تبًّا، كنت أَشبه بامرأة في شريط من أشرطة الرعب، بطلةً خرساء من البطلات اللواتي يهرعن من فوق السلالم عند مشاهدتهنَّ محلِّلًا نفسيًّا بدلًا من فتح الباب لمعرفة ما يحدث.

ـ آسفة إذ أيقظتك.

فقالت شيرين شابكةً ذراعيها من فوق صدرها الناهد:

ـ لا تقلقي بشأني، هل تراودك الكوابيس دومًا؟

قالت بيري معترفة:

ـ أحيانًا...

مكتبة الفكر الجديد

ثم تفرَّست في السجَّادة المثبَّتة على الأرضيَّة، فلاحظت لطخة لم يسبق لها أن تنبَّهت لوجودها، وأضافت:

ـ أحلام سخيفة لا أكثر.

ـ وهل يتكرَّر حدوثها؟

ـ نعم، إلى حدٍّ ما.

دفعت شيرين بخصلة شعر إلى ما وراء أذنها، وقالت بصوت لا يحتمل المعارضة:

ـ لقد رأيت في حياتي ما يكفي من الجنون، والله يعلم بأنّني حمقاء وفي وسعي الاستدلالُ على الحمق عندما أراه.

ـ أتعنين أنّني مجنونة؟

ـ لستِ مجنونة على وجه اليقين، لكنَّ الصرخة التي صكَّت سمعي كانت تدلّ على شيء ما حقًّا، فإذا كنت تعانين مشكلة نفسيَّة فعندئذٍ ينبغي لك معالجتُها.

ـ ليست لديّ مشكلةٌ نفسيَّة.

فأطلقت شيرين صرخة تشبه صرخة حيوان مفترس اخترقه سهم، وقالت:

ـ إنَّني أنزعج انزعاجًا شديدًا عندما يشعر الناس بالإهانة بسبب كلمة «نفسيّ». أراهنك على أنَّك ما كنت لتنزعجي لو قلت إنَّك بواسيريَّة.

فصحَّحتْ لها بيري الكلمةَ قائلة:

ـ مصابة بداء البواسير.

فردَّت شيرين وهي ترنو إلى قصاصات الورق الصغيرة الملصقة على الجدران:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ليكن ما يكون. أنت فتاة المعجم.

ـ استمعي إليّ، يسرُّني أنَّك أتيت لتتأكَّدي من حالتي، لكنّني على ما يرام.

ألقى القمر من خلال إطار النافذة مستطيلًا غير منتظم الأضلاع من الضياء على وجهها، وأضافت:

ـ سوف أُسافر إلى بلدي لحضور زفاف شقيقي. لا أستطيع ترك المحاضرات تفوتني، غير أنَّ الالتزامات الأُسَرِيَّة لها الأولويَّةُ وأنا أشعر بقدر من الضيق.

أومأت شيرين برأسها، وقالت:

ـ حسنًا، اذهبي لحضور ذلك الزفاف. لكن عندما تعودين، ينبغي لك أن تخرجي من غرفتك أوقاتًا أطول، لا بأس إذا فرحت ومرحت، فأنت فتاة شابَّة، هل نسيت ذلك؟

قالت بيري بهدوء:

ـ إنَّني لا أشبهك.

ـ أتعنين أنَّك تستمتعين بالتعاسة؟

ـ لا، مطلقًا.

فقالت شيرين:

ـ استمعي إليَّ، ثمَّة وسيلتان لمعالجة داء السويداء، إمَّا أن تجلسي في مقعد السائق وتضغطي على دوَّاسة البنزين فيجنَّ جنون الاكتئاب، وإمَّا أن تتركي له القيادة فيُثير هلعك بدلًا من ذلك.

فسألت بيري:

ـ ما وجه الاختلاف في ذلك إن كان المطاف سينتهي بك إلى

مكتبة الفكر الجديد

الاصطدام بشجرة من الأشجار في كلّ الأحوال؟

ـ نعم، لكنْ ستكونين أنتِ بنفسك من يقود السيَّارة، لا هذا البائسُ المُسمّى بالسيد اكتئاب. أليس هناك فارق؟

شعرت بيري بأنَّها لا تستطيع الفوز في هذه المناقشة، فحاولت أن تغيِّر دفَّة الحديث إلى الوجهة الوحيدة التي تستطيع التفكير فيها، فقالت:

ـ بالمناسبة، لقد اطَّلعت على منهاج الأستاذ آزور الذي ذكرته لي.

ـ حقًّا؟

فتورَّد خدَّا شيرين وقالت مضيفة:

ـ ألم تجديه رجلًا جذَّابًا؟

ـ الحقّ أنني لم أُقابله، وإنَّما قرأت مواصفات المنهج في القائمة.

فقالت شيرين:

ـ آه، حسنًا، ما رأيك؟

ـ يبدو مثيرًا للاهتمام.

خَطَتْ شيرين في اتِّجاه الباب واستأنفت كلامها:

ـ هل لي بتقديم نصيحة من صديقة إلى صديقة؟ من فتاة إيرانيَّة إلى أخت تركيَّة. سجِّلي هذا من أجل المودَّة بين الأخوات: إذا أفلحت في الالتحاق بمنهاج آزور، فلا تستعملي أبدًا تعبير «مثير للاهتمام»، فهو ينفر منه نفورًا شديدًا، ويؤكِّد أنَّه لا يوجد ما يُثير الاهتمام في تعبير «مثير للاهتمام».

وخرجت شيرين وأغلقتِ الباب وراءها تاركة بيري وحدَها برفقة كوابيسها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

صندوق الموسـيقى

إسطنبول ـ ٢٠١٦

جيء بالحلويات في أطباق بلُّوريَّة: قالب حلوى بالقشدة والبيض المخفوق والبندق، وفي الوسط كاسترد بالشوكولاتة، والسفرجل المشويّ بالفرن ومن فوقه الكريمة البقريَّة، فراح الضيوف يهتفون هتافًا ملؤه الامتنان والشكر من جهة، والقلق وانشغال البال من جهة أخرى.

فقالت مديرة العلاقات العامَّة وهي تربِّت على بطنها:

ـ آه، لا بدَّ من أنَّ وزني ازداد بمقدار رطلين في هذه الليلة. فقالت لها زوجة رجل الأعمال مؤكِّدة:

ـ لا تقلقي، سوف تحترق كلّ هذه السعرات لدى وصولك إلى البيت.

وقال الصحافيّ:

ـ استمرُّوا في الحديث عن السياسة، فهذا هو أسلوبنا في حرق السعرات في هذا البلد.

عندما اقتربت الخادمة من بيري، تمتمت الأخيرة قائلة:

ـ لا، شكرًا لك.

فردَّت عليها الخادمة بصوت خفيت ينمّ عن الإذعان:

ـ بالتأكيد أيَّتها السيِّدة.

مكتبة الفكر الجديد

لكنَّ المضيفة تدخَّلت عندما تناهى إلى سمعها الكلامُ الذي دار بين بيري والخادمة:

ـ لا يا عزيزتي، أنا لم أزعل عندما عارضت وجهة نظري، لكنَّني لن أكون سعيدة إذا لم تتذوَّقي من الحلوى.

رضخت بيري، وهو ما كان عليها فعله، فسوف تأكل من الحلوى والسفرجل، ولم تكفَّ عن الاندهاش من السبب الذي يجعل النساء حريصات الحرصَ كلَّه على تحريض إحداهنّ الأخرى على السمنة، إنَّه أمر يخصّ «قانون علم الجمال المقارن»، فعندما تكون الكثيرات سمينات فلن تظهر أيّ منهنّ سمينةً حقًّا. لكن ربَّما كانت تسخر في كلامها. وراح صوت شيرين الضائع منذ زمن طويل يتردَّد صداه في رأسها: «صدِّقيني يا ماوس، لست ساخرة بما يكفي».

حين حوَّلت المضيفة، راضية مرضيَّة الآن، من اهتمامها إلى الضيفة الأخرى، أمسكت بيري كأس نبيذها، وهي التي أسرفت في الشراب أكثر من المألوف في هذا المساء، وإن لم يتنبَّه إليها أحد، بمن في ذلك هي نفسها. لقد حدث تصدُّع في السدّ الذي شيَّدته طوال سنوات للحيلولة دون تدفُّق عواطف غير مرغوب فيها إلى فؤادها، وبدأت تتسرَّب إلى أعماقها من ذلك الصدع الصغير قطراتٌ من الاكتئاب وانقباض الصدر. في الوقت نفسه، كان جزء آخر منها مدركًا الخطرَ والدمار اللذين قد يسبِّبان ذلك؛ جزء في حالة يقظة تامَّة، يحاول بقوَّة أن يسدّ ذلك الصدع كي يعود كلّ شيء إلى طبيعته.

قالت صديقة الصحافيّ بصوت أجشّ يشبه صوت المدمنين على التدخين:

ـ ظننت أنَّ وسيطًا روحيًا سيحضر اليوم.

مكتبة الفكر الجديد

كان الحاضرون يعلمون جيِّدًا بأنَّها مهتاجة في صدد الشائعات. وآخرها نُشر على موقع إعلاميّ، ومفادها أنَّ الصحافيّ شوهد وهو يتناول عشاء رومانسيًّا برفقة زوجته السابقة، وأنَّ الاثنان قد يلتئم شملهما مجدَّدًا.

قال رجل الأعمال:

ـ كان يُفترض به أن يكون هنا منذ ساعات. الواضح أنَّ المسكين عالق في زحمة السير.

سخر مدير المضاربات الماليَّة الأميركيّ:

ـ هه! الوسطاء الروحانيُّون أنفسهم لا يعرفون أيّ الطرائق يسلكون في إسطنبول.

قال رجل الأعمال متحدِّثًا بكلمات، بعضها إنكليزيّ والبعض الآخر تركيّ:

ـ إنَّه تنبَّأ بالأزمة الماليَّة.

وقالت مديرة العلاقات العامَّة:

ـ ربَّما يتعيَّن علينا كلّنا أن نشاور الوسطاء الروحانيين ما دام الخبراء السياسيُّون ليسوا أهلًا لذلك. وإنَّ خبراء المال أسوأ منهم.

على حين بغتة، استأذنت بيري ونهضت من على المائدة، فقال المهندس المعماريّ مستغرقًا في احتساء الشراب ومتَّقدَ العينين:

ـ آه، لا، هل أصبناك بالسأم فأعياك الملل منَّا؟

كان المهندس المعماريّ رجلًا ذا شهوة تافهة للانتقام، إذ لم يغفر لها تحدِّيها إيَّاه، غير أنَّ بيري حدجته بنظرة وقالت:

ـ إنَّني ذاهبة لإجراء مكالمة هاتفيَّة للتأكُّد من أحوال الأطفال.

قال رجل الأعمال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أكيد، لماذا لا تذهبين إلى مكتبي في الطبقة العليا؟ فهنالك ستحظين بالهدوء والأمان.

أخذت بيري هاتف زوجها وارتقت الدرج إلى الطبقة العليا وهي تسترق السمع على ما يدور من أحاديث من حول مائدة العشاء.

* * *

كان مكتب رجل الأعمال يزدهي بنوافذ طويلة تمتدّ من السقف إلى الأرضيَّة، موفِّرةً بذلك إطلالةً رائعة على البوسفور. كان المكتبُ، بما فيه من جدرانٍ مغلَّفة بالجلد وسقفٍ خشبيّ ومنضدةٍ كتابة كبيرة من خشب الماهوغني والرخام ومقاعدَ بمساندَ مرتفعة بلون صفار البيض وتحفٍ فنِّيَّة موغلة في القِدَم ولوحاتٍ جميلة، أشبهَ ما يكون بغرفة استراحة خاصَّة لزعيم مبذِّر من زعماء المافيا، وليس مكتب عمل.

وكان ثمَّة ركن تزيِّنه صور رجل الأعمال وهو في صحبة سياسيين ومشاهير وبعض الأوليغركيين، وتبيَّنت بيري من بين هؤلاء الابتسامةَ الشفَّافة المنفرجة عن أسارير دكتاتور من الشرق الأوسط لم يعد في السلطة، وهو يصافح مضيفها أمام خيمة بدو كبيرة. وثمَّة صورة أخرى من ورائها، يتألَّق فيها وجهٌ حديديٌّ صارم يمثِّل حاكمًا استبداديًّا راحلًا من حكّام آسيا الوسطى، عُرف عنه إغراق مسقط رأسه بصوره وتسمية أحد شهور السنة باسمه وآخر باسم أمِّه. تنشَّقت بيري الهواء عميقًا متخيِّلةً سحابةَ دخان في رئتيها غير قادرة على نفثها، وفكَّرت: ما الذي تفعله في هذا القصر المنيف المشيَّد بأموال تتدفَّق خِفْية وتحوم الشكوك من حولها؟ في تلك اللحظة، شعرت كأنَّها حصاة في نهر قُذفت مرَّات ومرَّات وسط التيَّار. لو كان الأستاذ آزور هنا لابتسم لها واقتبس مقتطفًا من كتابه:

مكتبة الفكر الجديد

«ليس هنالك حكمةٌ من دون حبّ، ولا حبٌّ من غير حرِّيَّة، ولا حرِّيَّةٌ ما لم نتجرَّأ ونخرج عن النمط الذي آل إليه مآلنا».

أسرعت في الاتِّصال برقم هاتف منزلها كأنَّها تفرّ من دماغها.

مالت برأسها من على النافذة وتأمَّلت المشهد الذي تطلّ عليه كأنَّها تنتظر أمّها، التي جاءت لرؤية الأطفال، حتى ترفع السمَّاعة وتردّ عليها. كانت المدينة تمتدّ امتدادًا شاسعًا من وراء النافذة الزجاجيَّة وتحت نور القمر الهلالي الذي لاح كأنَّه غير حقيقيّ نظرًا إلى شدَّة تألُّقه. البيوت تميل إلى جهة كي يفشي أحدها للآخر على ما يبدو، ببعض الأسرار، الشوارع منعطفة انعطافات حادَّة صعودًا إلى أعلى التلال. آخر ما تبقَّى من مقاه يغلق أبوابه، وآخر ما تبقَّى من الروَّاد يلملم نفسه ويمضي في سبيله. فكَّرت في ما يفعله الأطفال الذين سرقوا حقيبة يدها. هل تراهم قد خلدوا إلى النوم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل ناموا جياعًا؟ فكَّرت بيري في أنَّهم ربَّما يحلمون الآن، وأنَّها ربَّما تساورهم في أحلامهم، امرأة مخبولة تحمل بيديها حذاءها العالي الكعبين وتطاردهم جيئة وذهابًا.

ردَّت سلمى على الهاتف عند الرنَّة الرابعة:

ـ هل انتهى العشاء؟

ردَّت بيري:

ـ لا، لم ينته بعد، نحن لا نزال هنا، هل الولدان بخير؟

ـ بالتأكيد، ولماذا لا يكونان بخير؟ لقد استمتعا بوقتيهما مع الجدَّة، وهما الآن مستسلمان للنوم.

ـ هل تناولا طعامهما؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ أتظنِّين أنّني سأتركهما ينامان جائعين؟ لقد أعددت لهما طبقًا من كرات العجين المحشوَّة باللحم، فأكلا حتى شبعا. يا للطفلين المسكينين! إنَّهما مشتاقان إلى ذلك الطبق كما يبدو. تبيَّنت بيري نبرة التأنيب في صوت أمّها، وخصوصًا أنَّها ترث عن سلمى مواهبها في الطبخ، وقالت:

ـ شكرًا لك، إنَّني متأكِّدة من أنَّ الطعام راق لهما كثيرًا.

ـ على الرحب والسعة، إلى اللقاء في الصباح، فقد أستسلم للنوم عند رجوعك.

ـ لحظة يا أمِّي، هل في وسعك أن تصنعي لي معروفًا؟

ثمَّة خشخشة منبعثة من الهاتف، فأدركت بيري أنَّ والدتها حوَّلت السمَّاعة إلى الأذن اليسرى كي تسمع على نحو أفضل. لقد شاخت منذ رحيل زوجها على ما يبدو. ومَا يبعث على الاستغراب أنَّ عالم سلمى قد تداعى وانهار في اليوم الذي وافت فيه المنيَّةُ منصور بعد كلّ تلك السنوات التي كان يكنّ فيها أحدهما العداء للآخر، كأنَّ الخصام مع زوجها هو الذي جعلها مفعمة بالحيويَّة والنشاط.

قالت بيري:

ـ ثمَّة مفكِّرة في الدرج الثاني في حجرة النوم بغلاف جلديّ شذريّ اللون.

ـ المفكِّرة التي أهداك إيَّاها والدك؟

تفوَّهت سلمى بهذه العبارة بنبرة تشوبها المرارة حتى بعد مرور كلّ تلك السنين، إذ كانت تمتعض من العلاقة بين زوجها وابنتها، ولم يغيِّر موت منصور مشاعرها، فقد كانت تعرف من تجربتها أنَّ الشعور بالحسد

مكتبة الفكر الجديد

تجاه الموتى ممكن، وكذلك تأثيرهم في الأحياء.

قالت بيري:

ـ نعم يا أمَّاه، الدرج مقفل، لكنَّ المفتاح في الدرج الأسفل، تحت المناشف، وستجدين رقم هاتف على الصفحة الأخيرة باسم شيرين، هلَّا أعطيتني إيَّاه.

فسألتها سلمى:

ـ أَلَا يمكن الانتظارُ حتى الصباح؟ أنت تعلمين بأنَّ عينيَّ ليستا بالحدَّة التي كانتا عليهما في سالف الأيَّام.

فتوسَّلت إليها بيري:

ـ أرجوك يا أمَّاه، إنَّني أُريد أن أُكلِّمها في هذه الليلة.

فقالت سلمى متنهِّدة:

ـ لا بأس، انتظري قليلًا، دعيني أفعل ما أستطيع.

ـ آه يا أمِّي...

ـ نعم؟

ـ وهل يمكنك بعد ذلك إعادة المفكِّرة إلى الدرج وقفله بالمفتاح؟

قالت سلمى منهكة:

ـ رويدًا رويدًا، لا تشوِّشي أفكاري.

ترامى إلى أذن بيري صوتُ وضع سمَّاعة الهاتف جانبًا، وصوتُ وقع أقدام تخطو بعيدًا، ثقيلة ومسرعة.

انتظرت وهي تعضّ على شفتها السفلى. على مسافة بعيدة، لاح البحر من تحت أضواء الجسر الثاني أزرقَ اللون مائلًا إلى الخضرة، بلون الانتظار. تأمَّلت انعكاس صورتها على النافذة الزجاجيَّة وتبيَّنت

مكتبة الفكر الجديد

مستهجنة بطنَها المترهِّلة، ومع هذا عليها أن تُدرك أنَّها سوف تشيخ بسرعة، وهو ما كانت تخشاه. ثمَّة وسائل متباينة للتقدُّم في السنِّ كما يبدو، فالبعض يذوي جسديًا، والبعض الآخر ذهنيًّا، والبعض الآخر روحيًّا.

ثمَّة صندوق صغير داخل ذلك الجزء من الدماغ الذي يحفظ الذاكرة؛ صندوقٌ موسيقيٌّ، مثلومٌ في صبغته التي تحميه، ونغمتُه الموسيقيَّة تُثير اللوعة والقلق، وفيه كلُّ الأشياء التي لا يريد الدماغ أن ينساها أو يجرؤ على تذكُّرها. في لحظات الصدمات النفسيَّة، أو الشدَّةِ والضيق، أو ربَّما بلا أيّ سبب واضح، ينفتح الصندوق وتتبعثر كلّ محتوياته. هذا هو ما شعرت بحدوثه لها في هذه الليلة.

قالت سلمى وهي تتنفَّس بصعوبة بفعل الإجهاد:

ـ لم أستطع العثور عليه.

ـ هلَّا فتَّشتِ مرَّة أخرى؟ أرجو إبلاغي إن عثرت عليه.

اعترضت سلمى قائلة:

ـ كنت أشاهد التلفاز.

ثم قالت بنبرة استرضائيَّة:

ـ حسنًا، سأبذل ما في وسعي.

كانت الأمور قد تحسَّنت بينهما للسبب نفسه الذي جعلهما متباعدتين: منصور. فبعد أن كان سببًا في الشقاق والنزاع، قرَّبهما موتُه أكثر من ذي قبل. أسرعت بيري بالقول:

ـ ثمَّة أمر آخر، لقد سُرق منِّي هاتفي. أرسلي رسالة نصِّيَّة إلى عدنان، لكن لا تخبريه بهذا الموضوع.

مكتبة الفكر الجديد

حسبك أن تكتبي له: اتّصل بالبيت، وسوف أتَّصل بك.

سألت سلمى:

ـ ما الذي يجري؟

توقَّفت هنيهة إذ ساورها الشكّ، ثم أضافت:

ـ ألم ترجع تلك الفتاة الحقيرة شيرين إلى إنكلترا؟

شعرت بيري بأنَّ فؤادها تخلَّى عنها ساعةَ الضيق، إلَّا أنَّ سلمى ألحَّت عليها:

ـ لماذا تريدين أن تكلِّميها؟ إنَّها ليست صديقتك.

فكَّرت بيري في نفسها: «كانت صديقتي المفضَّلة»، إلَّا أنَّها لم تشأ الإفصاح عن ذلك. «هي ومنى وأنا، نحن الثلاث: الآثمة والمؤمنة والمشوَّشة».

غير أنَّها بدلًا من ذلك قالت:

ـ كان ذلك منذ زمن بعيد يا أمَّاه، ونحن الآن في سنّ الرشد. فلا تقلقي. إنَّني متأكِّدة في أنَّ شيرين تركت كلّ شيء وراءها.

وعلى الرَّغم من أنَّ بيري تلفَّظت بهذه الكلمات وأرغمت نفسها على تصديقها، فإنَّها كانت تعلم بأنَّها ليست صادقة، فشيرين فتاة لا يمكنها ترك الماضي خلفها، ليس أكثر ممَّا كانت بيري قادرة على تركه وراءها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

حـــــــزام البتولة

أوكسفورد ـ إسطنبول ٢٠٠٠

وصلت بيري إلى مدينة إسنطبول لحضور حفل زفاف أخيها في عصر يوم من أيَّام منعطف فصل الشتاء، وكانت الريح آنئذٍ يشوبها مذاق ملح البحر والكبريت. كانت مشتاقة كثيرًا إلى مسقط رأسها بالرَّغم من الوحدة التي شعرت بها أيَّام معيشتها فيها، والوحدةِ الأشدّ قسوة التي عاشتها بعيدةً عنها. ومنذ اللحظة التي وضعت فيها حقيبةَ ثيابها على الأرض أغرقتْ نفسها بالتزامات كثيرة، قوامُها زيارةُ الأقرباء وشراءُ هدايا وأعمالٌ ينبغي لها القيام بها، كأنَّها كانت تريد الحيلولة بينها وبين الاستغراق في أفكار توقع الكآبة في النفس وتسبِّب ضيق الصدر.

لم تستغرق بيري وقتًا طويلًا كي تشعر بأنَّ توتُّرًا هائلًا قد خيَّم على أسرة نالبانتوغلو في مدَّة غيابها، فبات الجوّ ثقيلًا، وصَعُبَ فيه التنفُّسُ. كانت بعض المشاعر غير الودِّيَّة قديمةً، كالمشادَّات المريرة والنكدة المتبادلة بين والديها، غير أنَّ قسمًا كبيرًا من تلك المشاعر كان حديث العهد، عجَّلت فيه الاستعداداتُ للزواج؛ فقد أصرَّت أسرةُ العروس على إقامة حفل باذخ، جدير بابنتها، وفي اللحظة الأخيرة، استبدلت قاعة الزفاف بقاعة أكبر، ما يعني دعوة عدد أكبر من الناس إلى حضور الحفل، وزيادةَ عدد وجبات الطعام، وبالتالي إنفاق مبالغ أكبر من

مكتبة الفكر الجديد

المال. ومع هذا، لم يقتنع أحد. وفي حين دأبت الأسرتان على تبادل عبارات المزاح والشكر، إلَّا أنَّ موجة من الامتعاض والنفور ظلَّت طافية بين الجانبين من تحت قشرة المعاملة الرقيقة.

في صباح يوم الزفاف، استيقظت بيري تتنشَّقُ روائحَ تبعث الحيويَّة في النفس، منسابةً من داخل المنزل. ولمَّا خطت إلى المطبخ، رأت والدتها مرتدية صدريَّةً مطبوعًا عليها زهورُ الأقحوان، ومنهمكةً في إعداد ثلاثة أنواع من البورك المحشوِّ بالسبانخ والجبنة البيضاء واللحم المفروم. كانت سلمى تنظِّف وتصقل بالشمع وتمسح وتغسل وتكدّ وتجتهد بسرعة خارقة. بدت عاجزة تمامًا عن خفض سرعتها في العمل.

قال منصور لابنته:

ـ أخبري تلك المرأة بأنَّها سوف تقتل نفسها من كثرة العمل.

كان منصور جالسًا إلى طاولة المطبخ، ولم يرفع عينيه من على الجريدة، وهي واحدة من الجرائد اليوميَّة التي تنحو منحى يسار الوسط، والتي دأب على الاشترك فيها وقراءتها منذ زمن بعيد لا تتذكَّره بيري.

ردَّت سلمى:

ـ أخبري ذلك الرجل بأنَّ ابنه سوف يتزوَّج، وهذا لا يحدث سوى مرَّة واحدة في العمر.

فأجابتْ بيري متنهِّدة:

ـ أنتما الاثنان أشبه بطفلين صغيرين. لِمَ لا يكلِّم أحدكما الآخر؟

في هذه اللحظة، قلب الأب الصفحة بينما راحت الأمّ ترقِّق قطعة أخرى من العجين. جلستْ بيري على مقعد بينهما كأنَّها تريد إيجاد منطقة عازلة بين الأب والأمّ، وسألت:

ـ كيف كانت ليلة الحنَّاء؟

مكتبة الفكر الجديد

زمَّت سلمى شفتيها وحدَّقت إلى ابنتها بنظرات حادّة حدّةَ شظيَّةِ زجاج مكسور، وقالت:

ـ فاتَتْك، كان ينبغي لك أن تحضريها.

ـ أخبرتُك يا أمِّي بأنّني لن أقدر بسبب دراستي.

ـ حسنًا، كما تعلمين، كان الناس يستفسرون عنك، وكانوا يتهامسون بالقيل والقال من ورائي. الولد ليس حاضرًا، والبنت ليست حاضرة... ما هذه الأسرة؟

سألت بيري:

ـ ألم يأتِ أوميد؟

ـ قال إنَّه سيأتي، ووعدنا بذلك، وأعددت بدوري أطباقَه المفضَّلة، وأخبرت الناس بأنَّه سيحضر. إلَّا أنَّه اتَّصل هاتفيًّا في اللحظة الأخيرة، وقال: «لديَّ أعمال مهمَّة يا أمِّي». ما هي تلك الأعمالُ المهمَّة؟ يظنّني بليدة؟ إنَّني لا أفهم ذلك الفتى.

بيد أنَّ بيري كانت تفهمه. فمنذ أن أُطلق سراحُ أوميد من السجن، بدأ يفضِّل الحياة الهادئة في إحدى البلدات الجنوبيَّة، فيصنع الحليَّ الرخيصة والصغيرة للسيَّاح في كوخ صغير يسمِّيه بيتًا، وعلى وجهه ابتسامةٌ لا تقلّ هشاشة عن أصداف البحر التي يعتمد عليها في سدّ رمقه، وتوفير لقمة عيشه. سبق لهم أن زاروه مرَّات ومرَّات في ما مضى من الزمان، فوجدوه دومًا فتًى مؤدَّبًا وقليلَ الكلام كأنَّه يكلِّم غرباء. وقالت المرأة المطلَّقة التي تعيش وإيَّاه برفقة ولديها إنَّه لطيف المعشر، غير أنَّ مزاجه يتلبَّسه الاكتئابُ في بعض الأحيان على نحو غير متوقَّع، وأصبح فظًّا، سريع الغضب والاهتياج، عاجزًا عن النهوض من سريره وعاجزًا أيضًا عن غسل وجهه. وقالت تلك المرأة إنَّه كان أحيانًا يُصاب بانهيار

مكتبة الفكر الجديد

شديد، ما يضطرُّها إلى مراقبته ليلًا ونهارًا، لا خشيةَ أن يؤذيَها هي أو طفليها، وإنَّما خشيةَ أن يؤذيَ نفسه، لهذا كانت تحتفظ بشفرات الحلاقة بعيدةً عن متناول يديه لأنَّها أدوات جارحة، وليس سهلًا تماثل جروحها إلى الشفاء. ولم تُسهب في الحديث عن الموضوع، كما أنَّ أسرة نالبانتوغلو لم تحقِّق في الموضوع أكثر خشيةَ أن تكون حالته أصعبَ من قدرتها على إيجاد حلٍّ لها. قالت بيري:

ـ آسفة، لو كان في استطاعتي لجئت في وقت مبكر.

لم يكن في نيَّتها مخاصمةُ أمّها، فأضافت:

ـ أخبريني: كيف كانت؟

أجابت سلمى:

ـ آه، كالمعتاد، لا جديد، وكان أهل العروس يتوقَّعون منَّا أن نُمطرهم بالجواهر.

كانت سلمى أشبهَ بمحاسب دقيق، تُدوِّن المبالغ التي صرفوها بإزاء نفقات أسرة العريس، وعددَ الناس الذين سيدعوهم العريس في مقابل أعداد الضيوف الذين ستوجَّه إليهم دعوةُ أهل العروس. وهكذا، بدا الأمر كأنَّ ميزان البقَّال قد ظهر للعيان في وسط حياتهم، فكلّ ما تصرفه إحدى الأسرتين في كفَّة الميزان، لا بدَّ من موازنته من الأسرة الثانية. وإذا كانت هذه اللعبة تشبه لعبة جرّ الحبل، فإنَّها كانت تُمارَس على أتمّ وجه. واستبدَّت الدهشة ببيري لملاحظتها أنَّ والدتها كانت في لحظة واحدة تنهمك في المقارنه والتذمُّر، لكنَّها في اللحظة التالية تُسهب في الحديث مبتهجة مع والدة العروس عند الاتِّصال الهاتفيّ، فتضحك وتمزح مثل تلميذة مدرسة.

إذا ما وضعنا النفقات جانبًا، فإنَّ ثمَّة سَجايا أثارت سرور سلمى

مكتبة الفكر الجديد

إلى أبعد الحدود، ومنها أنَّ أسرة العروس متديِّنة.

قالت سلمى:

ـ كي أكون مُنصفة، لا بدَّ من القول إنَّ أسرة الفتاة أحضرت مؤذِّنًا في ليلة الحنَّاء، وكان ذا صوت رخيم يشبه صوت العندليب، ما دفع الكلّ إلى البكاء. إنَّ أسرة العروس أشدُّ تديُّنًا من أجدادنا على مدى سبعة أجيال. وهي تتحدَّر من حجَّاج وشيوخ.

لفظت سلمى الكلمتين الأخيرتين بنبرة توكيديَّة لتطمئنّ إلى أنَّهما وصلتا إلى مسمعي أذني زوجها المفتقر إلى الاستنارة.

غير أنَّ منصور قال من مكانه:

ـ عظيم جدًّا، فهذا يعني أنَّ نَسْلَهم يضمّ أيضًا عددًا موازيًا من المهرطقين. اشرحي لأمّك يا بيري قانون الديالكتيك، نفي النفي، فكلّ معتَقد يخلق ما يناقضه، فإذا كان هناك أعداد غفيرة من الأولياء، فلا بدّ من وجود أعداد كبيرة أيضًا من الخطّائين!

قطَّبت سلمى جبينها وقالت:

ـ قولي له يا بيري إنَّه يتحدَّث حديثًا بلا معنى.

قالت بيري:

ـ كفى يا أمِّي ويا أبي، إنَّنا محظوظون لأنَّ أخي عثر له على شريكة حياته لتجعله إنسانًا سعيدًا، هذا هو أهمّ شيء.

سبق لها أن التقت العروس مرَّتين، كانت فتاة شابَّة ذات غمَّازتين وعينين بندقيَّتين تتَّسعان لدى أيّ مفاجأة، وولعٍ شديد بالأساور الذهبيَّة. بدت لها يومئذ فتاة خجولة، محجَّبة بحجاب على طريقة فتيات دبي، بحسب معرفة بيري. فالحجاب على طريقة إسطنبول يلائم الوجوه المدوَّرة، وطريقةُ دبي تلائم الوجوه البيضاويَّة، والطريقةُ الخليجيَّة تلائم

مكتبة الفكر الجديد

الوجوه المربَّعة. وتملَّكت الدهشة بيري وهي تكتشف مجموعة من الأزياء الإسلاميَّة التي أخذت بالظهور مؤخَّرًا أو أنَّها لم تنتبه لها. فكانت الأنماط المتوافرة والسائدة تتمثَّل في «الحجاب العالي المستوى»، و«ثوب السباحة»، و«البنطال الحلال»، وكلّها صناعة مطلوبة على نطاق واسع.

وبخلاف أعداد كبيرة من العلمانيين الذين كانت بيري تعرفهم، ومن ضمنهم والدُها، فإنَّها لم تكن تعارض معارضة شديدة ومستمرَّة النساءَ المحجَّبات، لهذا كانت صداقتها سهلة مع منى، إذْ كانت تفضِّل التفكير في ما يدور داخل رؤوس الناس وليس في ما يعتمرونه، وهذا هو جوهر مأزقها، ولم تكشف عنه لأبويها قطّ، كما أنَّها وجدت صعوبة بالغة إلى حدٍّ كبير في الإقرار، في قرارة نفسها، بأنَّها تنظر إلى العروس في أعماقها نظرةً تنتقص من شأنها على الرَّغم من تقبُّلها مظهرَها. فالفتاة ليست مثقَّفة، ولعلَّ آخر كتاب أمسكت به كان في مرحلة الدراسة الثانويَّة، كما لم تستطع الاثنتان الاستمرارَ في الحديث إلَّا إذا كان يدور عن موضوعات لا تحبِّذها بيري ولا تهتمّ بها، مثل المسلسلات الدراميَّة التلفازيَّة الشعبيَّة والأغذيةِ المستخدمة في الحمية. ومن الإنصاف القول إنَّ العروس لم تكن أكثر جهلًا من زوج المستقبل الذي كانت بيري تقلِّل من شأنه سرًّا، فهي لا تستطيع أن تتذكَّر التحدُّثَ إلى أخيها الأصغر حديثًا مباشرًا ومناسبًا.

إلَّا أنَّ هذا التعالي الثقافيّ الذي اتَّصفت به كان منحصرًا في فئة الشباب، فهي لم تنزعج قطّ من كبار السنّ الجَهَلةِ والذين لم يحظوا بالتعليم، بل كانت تحتقر، إلى حدٍّ ما، أيَّ شخص في مثل سنِّها يبدو وقد عامل الكتبَ على أنَّها من مستلزمات الزينة لتناسب أثاث المنزل.

مكتبة الفكر الجديد

ولهذا وعدتْ نفسها قائلة: «إذا ما أُغرمت يومًا ما بشخص من الأشخاص، فلا بدَّ من أن يكون مثقَّفًا. إنَّني لن أهتمّ بمظهره أو مكانته أو عمره، بل بعقله».

* * *

كانت القاعةُ المستأجَرَةُ لإقامة حفل الزفاف فيها القاعةَ الكبرى في فندق من فنادق النجوم الخمس، يطلّ إطلالة رائعة على البوسفور: أغطيةُ موائد مزخرفة من الساتان اللامع؛ أعدادٌ كبيرة من الزهور الحريريَّة؛ مقاعدُ مؤطَّرة ذاتُ ثنايا ذهبيَّة؛ قالبُ حلوى من ثماني طبقات مزيَّنٌ بأقواس وأوراق مصنوعة يدويًا من السكَّر؛ شجرةٌ بلُّوريَّة متغيِّرة الألوان في الوسط. كانت بيري تُدرك أنَّ تلك الأمسية كلَّفتْ والديها مقدارًا كبيرًا من مدّخراتهما، فالنفقات التي تسدِّدها في أوكسفورد أضافت قبل الآن عبئًا ثقيلًا إلى ميزانيَّةِ الأسرة. وفي غمرة مشاهدتها البذخَ من حولها، عزمَتْ على العثور على وظيفة لها بساعات دوام قليلة بعد عودتها إلى إنكلترا مباشرة.

بدأ الضيوف بالوصول إلى القاعة بعد وقت قصير، واتَّخذ أقرباء الأسرتين وجيرانُهم وأصدقاؤهم أماكنهم من حول الموائد الموشَّحة بالزهور، والممتدَّة في جميع أرجاء قاعة الاحتفال الرحيبة. في هذه الأثناء، بدا العريس والعروس متوتِّرين، فالعريس يلوِّح بيده إلى الناس أجمعين والعروسُ تُخفض بصرها إلى أسفل. هو كثير الصخب وهي هادئة أكثر ممَّا ينبغي لها أن تكون. كانت العروس ترتدي ثوبًا من قماش التفتة الحريريّ الصقيلِ الطويلِ الكمَّيْن والمزيَّنِ بالمخرَّمات والمزركشِ بالفضَّة والمرصَّعِ بماس زائف. ثوب مصنَّف في كراريس البيع على أنَّه «ثوب محتشم أنيق ورفيع المستوى». صحيح أنَّه كان ثوبًا جميلًا، بيد

أنَّه سميك إلى حدٍّ جعل العروس تنزّ عرقًا من تحت الأضواء الساطعة. أمَّا العريس، فكان يرتدي بذلة سوداء ويبدو أكثر ارتياحًا من العروس، إذْ خلع سترته عندما شعر بحرارة المكان. اقترب الضيوف منهما، واحدًا في إثر الآخر، لتقديم التهاني والهدايا المتمثِّلةِ في النقود الذهبيَّة والعملاتِ الأخرى (الليرة والدولار)، وأصبح ثوب العروس مغطًّى بأعداد لا تُحصى من النقود الورقيَّة والنقود الملفوفة بأشرطة، بحيث إنَّها، لمَّا نهضت على قدميها لالتقاط صورة تذكاريَّة، لاحت كأنَّها تمثال من النحت المعاصر يجمع بين الفنَّين الطليعيّ والجنوبيّ جمعًا دقيقًا.

في الجزء الخلفيّ من القاعة، راحت فرقة موسيقيَّة من الهواة تعزف مختلف الألحان، بدءًا بالأغاني الشعبيَّة الفولكلوريَّة الأناضوليَّة وانتهاءً بأجمل أغنيات فريق البيتلز. وبين هذه وتلك، شرعتِ الفرقة تغنِّي أغنياتٍ خاصَّة بها، وإن كانت لا تتناغم وبقيَّةَ الأغاني. وعلى الرَّغم من احتجاج أسرة العروس فإنَّ المشروبات الكحوليَّةَ كانت متوافرةً في كلّ ركن من أركان القاعة، وكان منصور قد تمسَّك بموقفه وهدَّد بعدم الحضور إلى أسعد أيَّام ولده إذا لم يكن رفيقُ عمره، العرقُ، متوافرًا. واختار معظم الضيوف احتساءَ المشروبات الغازيَّة، إلَّا أنَّ عددًا كافيًا منهم بدا وقد عثر على المشروب المدنَّس. وكان بين روَّاد هذه المنطقة المحرَّمة، ويا للدهشة، عمُّ العروس. وفي ضوء السرعة الفائقة التي كان يحتسي فيها كؤوسَ الشراب فإنَّه لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى ثَمِلَ، وذلك مشهد طفق منصور يشاهده مغتبطًا.

اضطرَّت بيري، خلال تأدية دور المضيفة، إلى أن تكلَّم مختلف الضيوف منفرجةَ الأسارير في أغلب الأحيان، وكانت مرتدية ثوبًا أزرقَ اللون يصل إلى ركبتيها، وشعرُها مصفَّفٌ في هيئة كعكة كبيرة جعلت

مكتبة الفكر الجديد

رأسها مركَز الجاذبيَّة. وفي حين راحت تُناغي الأطفال وتقبِّل أيادي كبار السنِّ وتصغي إلى الأقاويل التي تتردَّد على شفاه أندادها، فقد تنبَّهت إلى أحد الشبَّان وهو يحدِّق إليها بنظرات ذات مغزى، ولم تكن تلك بنظرات ذكر تنطوي على الجاذبيَّة وتتوقَّف عند نقطة فاصلة، لكنَّها كانت جريئة وملحَّة ومتميِّزة. وبدا الشابّ أنَّه لا يفهم أنَّ خطوة صغيرة وتافهة كانت تفصل بين إصراره واعتدائيَّته. وكلَّما التقت عيناه عيني بيري قطَّبت جبينَها، في إشارة تريدُ أن توضح له منها أنَّها غير مهتمَّة به. أمَّا هو فقد ابتسم إعجابًا بنفسه تاركًا إشارتَها معلَّقةً في منتصف المسافة بينهما من دون أن يصل إليه معناها.

بعد مرور نصف ساعة، وحين توجَّهت إلى مرافق السيِّدات، اعترض الشابّ طريقَها واضعًا يده على الجدار كي لا تتمكَّن من المرور، وقال لها:

ـ أنتِ تُشبهين الملاك. الواضح أنَّ أبويك كانا على حقٍّ في تسميتك بهذا الاسم.

ـ معذرةً، أليس لديك ما هو أفضل من هذا العمل؟

فردَّ عليها، وهو ينظر إليها نظرة فاضحةً ذاتَ مغزى:

ـ لا تلوميني، إذْ ما كان ينبغي لك أن تكوني بهذا الجمال.

شعرت بيري بالدم يفور في عروقها، فقالت وهي تتلعثم بالكلمات:

ـ اتركني وشأني. لم يمنحك أحد الحقّ في إزعاجي.

رمشت عينا الفتى وقد أُخِذ على عين غرَّة، وراح يخفض من ذراعه بمجهود مبالَغ فيه. أمَّا وجهه الذي كان منفرجًا قبل لحظات عن ابتسامة واثقة، تحوَّل الآن إلى وجه ينطوي على عداوة. وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ يقولون إنَّك مغرورة ومعتدَّة بنفسك، وكان يتعيَّن عليَّ أن أفهم ذلك. أنت تظنِّين أنَّك أفضل منَّا لأنَّك تدرسين في أوكسفورد.

فقالت بهدوء:

ـ ليس لهذا شأن بأوكسفورد.

فردَّ بصوت خفيض، لكنَّها سمعته:

ـ أيَّتها الفاجرة المتعجرفة!

امتقع وجه بيري التي راقبته وهو يبتعد. كم يسهل على المرء أن يتحوَّل من الحبِّ إلى الكراهية! إنَّ قلب الذَّكَر في بلاد الشرق أشبهُ بالكرة في نهاية رقَّاص الساعة، يتأرجح من طرف أقصى إلى آخر. والرجالُ يعشقون عشقًا مبالَغًا فيه، ويثورون ثورة مبالَغًا فيها، ويكرهون كراهية أكثرَ ممَّا يجب لها، دومًا أكثر ممَّا يجب، فيتذبذبون بين أداء دور العاشق الولهان ودور الشخص المسرف في الاحتقار، معلَّقين فوق الحطام العاطفيّ الذي كان في يوم مضى شغفًا وحبًّا.

لدى عودة بيري إلى القاعة، وجدت العروس والعريس يرقصان رقصةً طال انتظار الضيوف لها. فجمدت عيون الحاضرين عليهما من كلّ حدب وصوب، وهما، المنتصبان في رقصهما، المتصلِّبان في أيديهما، والمتأرجحان من غير ملامسة تأرجحًا متناغمًا، أشبهُ بشخصين يسيران وهما نائمان، يساورهما حلم واحد.

انتاب الحزنُ بيري. فالهوَّة ظلَّت عميقة بين شخصيَّتها الدفينة في أعماقها وشخصيَّتِها التي يتوقَّعها الغير. وشعرت بالفارق الكبير والمسافة التي يتعذَّرُ ردمها، بين البيئة التي تحدَّرت منها والبيئةِ التي تطمح إلى التوجُّه نحوها، فهي لن تكون مثل هذه العروس، ولن تعيش الحياةَ التي

مكتبة الفكر الجديد

عاشتها أمّها، ولن تكون أمامها محظوراتٌ، ولا حدودٌ، ولن تختزل نفسها في امرأة لم تُخلَق لها.

استبدَّت بها فكرةٌ بسرعة البرق: «لن أتزوَّج رجلًا من هذا الجزء من العالم»، لأنَّه يتنافى مع كلّ ما تعلَّمته في حياتها، وهو خطأ فادح، وتجديف يتعذَّر الإفصاحُ عنه، وعليها أن تخفض بصرها خشية أن يرى الآخرون ذلك في عينيها. ستختار لها زوجًا ينتمي إلى ثقافة بعيدة ومختلفة عن ثقافتها بقدر المستطاع، ربَّما زوجًا من بلاد الأسكيمو؛ زوجًا قد يكون اسمه إقبال باكتوك.

ابتسمت ابتسامة عريضة حين تخيَّلت والدَها وهو يدعو زوجَها مستقبلًا إلى احتساء بضع كؤوس من الشراب معًا، وتكون شوربةُ رأس السمكة، ولحمُ الحوت النيءُ، وزعانفُ الفقمة المتخمِّرة، مقبِّلاتِ طعامه الجديدةَ. وستصرّ والدتها على أن يشهر زوج المستقبل إسلامَه، وأن يكون مختونًا، وما إلى ذلك، ويصبح اسمه عبد الله، وبعدها سيأخذه شقيقها هاكان ليعلِّمه الفتوَّة التركيَّةَ، وسيملأ ساعات طويلةً من البطالة في المقهى يمارس لعب الورق ويدخِّن النارجيلة. وقبل أن يمضي وقت طويل سوف يضطرّ إلى اتِّباع أساليب الذكور في المدينة، إذا ما أمضى ما يكفي من الوقت برفقة الأشرار، مطالبًا بالامتيازات التي يستحقُّها جنسُه. وسرعان ما سيذوب حبّهما القطبيُّ تحت حرارة العادات الأبويَّة.

* * *

انتهى الحفل بُعَيْدَ منتصف الليل، وراح مَنْ تبقَّى من الضيوف يُلقون تحيَّة الوداع، ولملم أعضاء الفرقة الموسيقيَّة أدواتِهم وخرجوا تاركين وراءهم أفرادَ الأسرة المقرَّبين. وفي صباح اليوم التالي، بدأ الزوجان

مكتبة الفكر الجديد

بقضاء شهر العسل الذي لم يزد على أسبوع واحد، وكانت وجهتُهما أحدَ الفنادق في مصيف يقع على شاطئ المتوسِّط التركي، تمكَّن من أن يحرز لنفسه شهرةً ذائعة الصيت، وبعضَ الجدل بصفته يحتوي على مطاعم تقدِّم وجباتٍ حلالًا، وفيه مسابحُ حلالٌ ومراقصُ حلالٌ ذاتُ قسمين منفصلين، للرجال وللنساء، كما أنَّه فصل الشاطئ وفصل البحر إلى قسم خاصّ بالرجال، وقسم آخر للنساء.

أمَّا في هذه الليلة وبسبب إلحاح سلمى، ومن أجل الاستمتاع بالراحة، فقد تقرَّر أن يمضي الزوجان الليلة في منزل أسرة نالبانتوغلو القريب من المطار. أمَّا والدا العروس، اللذان يقطنان في الجانب الآخر من المدينة، فقد دُعيا أيضًا إلى المنزل. وهكذا انحشر الكلّ في السيَّارة، هم وحقائبُهم وسِلالُهم وباقةٌ حريريَّة تجعَّدت ونسلت خيوطُها بعد مرور ساعات على حياكتها.

كان الجوّ باردًا في هذا الوقت على غير عادته، والريح تضرب النوافذ ضربًا انتقاميًّا كأنَّها روح مظلومة.

وفي حين انطلقتِ السيَّارة مسرعة وسط شوارع زَلِقَة بسبب مياه الأمطار، لاحظت بيري والدة العروس وهي تأخذ قطعة قماش ذاتَ لون أحمر برّاق ـ حزامَ البتولة ـ من حقيبة يدها وتضعها حول خصر ابنتها. وهنا احتارت بيري، وإن كانت تعلم بأنَّ هذه العادة مألوفة في مناطق واسعة من البلد. وحاولت أن تكلِّم هاكان من دون أن تستغرق في هذا الموضوع. كان شقيقها يبدو منهَكًا وهو جالس إلى جوارها، مشتَّتَ الأفكار، تغطِّي جبينَه طبقةٌ رقيقة من العرق. لكن سرعان ما لاذت بيري بالصمت.

* * *

المستشفى

إسطنبول ـ ٢٠٠٠

لدى الوصول إلى المنزل، خُصِّصت غرفة النوم الرئيسيَّة للزوجين الشابَّين، في حين نزل والدا العروس في غرفة بيري. أمَّا سلمى ومنصور، فلم يكن أمامهما أيُّ خيار سوى النوم في غرفة ولدهما في سرير واحد، في حين اضطرَّت بيري إلى النوم على الأريكة في غرفة الجلوس.

حالما وضعت بيري رأسها فوق الوسادة شعرت بالإنهاك يقضّ مضجعَها، وراحت بين اليقظة والنوم تسمع همهمة بعيدةً، وكلماتٍ تطفو في الهواء قبل إطفاء الضوء الأخير. ثمَّة من يصلِّي، فحاولت أن تعرف من هو، غير أنَّ الصوت لم يدلّ على العمر والجنس. لعلَّها بدأتِ الآن تحلم، وانسابت مع الحلم على صوت تكَّات الساعة في الردهة، وعجزت لفرط نعاسها حتى عن غسل أسنانها، فراح صدرها يعلو ويهبط عند كلّ نَفَسٍ من أنفاسها.

بعد ساعة أو أكثر، وفي جوف الليل البهيم، استيقظت بيري فَزِعَةً، وظنَّت أنَّها سمعت صوتًا ما، غير أنَّها لم تكن متأكِّدة، فنهضت قليلًا من على الأريكة واعتدلت معتمدة على مرفقها متصلِّبةَ الذراعين وساكنةً. حاولت بجهد أن تصيخ السمع وانتظرت، وساورها الشكُّ إن كانت هي

مكتبة الفكر الجديد

التي تصغي إلى الظلمة أم أنَّ الظلمة هي التي تصغي إليها. عدَّت نبضاتِ قلبها حابسةً أنفاسَها... ثلاثًا... أربعًا... خمسًا.

ترامى الصوت إلى أذنيها مجدَّدًا، ثابتًا، متَّصلًا كأنَّه ريح وسط أكمَة من الأشجار قبل هبوب العاصفة، ثم صكّ سمعَها صوتُ باب يُفْتَح ويُغْلَق بعنف بيد غاضبة إن لم يكن مصادفة.

على الرَّغم من أنَّ بيري ساورها شعورٌ بأنَّ ثمَّة خطبًا ما، فإنَّها استلقت على الأريكة آملةً أن يتلاشى الصوت تلقائيًّا مهما يكن مصدره، غير أنَّ الأصوات تضاعفت وعلتِ الهمساتُ وانقلبت إلى زعيق، وتردَّد صدى وقع الخطوات على امتداد الممرّ. وفي خضمٍّ هذا كلّه، لم تعد تسمع نشيجًا، بل آهاتٍ، ونداءَ روح معذَّبة.

هتفت بيري بأعلى صوتها وهي تنهض واقفة:

ـ ماذا يجري؟

تردَّد صوتها في أنحاء البيت قبل أن يصل إلى الغرفة التي كان يُفْتَرض بأبويها أن يكونا نائمين فيها، فوجدت والدتها مستيقظة، ممتقعةَ الوجه. أمَّا والدها فكان يذرع الغرفة يمنة ويسرة شابكًا يديه، أشعثَ الشعر، وكان إلى جانبهما شقيقُها هاكان، وفي يده سيجارةٌ مشتعلة بين أصابعه، يدخِّنها على نحو يشي بيأس مبالغ فيه. ولمَّا نظرت بيري إليهم، انتابها إحساس غريب بأنَّها لا تعرف أيًّا من هؤلاء الناس، فهم أشخاص في دَور أحبَّائها الذين كانت تعرفهم.

سألت بيري:

ـ لماذا أنتم مستيقظون؟

حدَّق شقيقها فيها بعينين ضيِّقتين كحدِّ شفرة، وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ اذهبي إلى غرفتك!

ـ لكن...

ـ قلت لك اذهبي!

تراجعت بيري خطوة إلى الوراء، فهي لم يسبق لها أن شاهدت هاكان كما تشاهده الآن. فعلى الرَّغم من أنَّ نوباتِ حدَّة المزاج والسبّ والقذف كانت تجتاحه، فإنَّ غضبه في هذه المرَّة كان من القوَّة والهيجان ما جعله يبدو مثل حيوان شرس في الغرفة.

وعوضًا عن أن تذهب بيري إلى غرفة الجلوس، اتَّجهت إلى غرفة النوم الرئيسيَّة لتجد الباب مواربًا، والعروس جالسة على حافَّة السرير مرتديةً ثوبَ نومها وشعرُها منسدلٌ فوق كتفيها. أمَّا والداها، فكانا جالسين إلى جانبيها وصامتين.

قالت العروس:

ـ أقسم إنَّ ذلك غير صحيح.

وقالت أمّها بصوت أجشَّ ومبحوحٍ:

ـ لماذا يتفوَّه بمثل هذا الكلام، إذن؟

ـ أتصدِّقينه، أم تصدِّقين ابنتك؟

لبثت الأمّ هادئة برهة وجيزة من الزمن، ثم قالت:

ـ أصدِّق ما يقوله الطبيب.

رويدًا رويدًا، فهمت بيري كأنَّها في غيبوبة السببَ الكامنَ من وراء الضجَّة التي سمعتها قبل قليل. فقد اندفع شقيقها خارج غرفة النوم معتقدًا الاعتقادَ كلَّه أنَّ زوجته ليست عذراء.

سألت العروس:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أيُّ طبيب؟

حملقت بعينيها الحمراوين المتَّقدتين رعبًا وهلعًا خارج النافذة في اتِّجاه المدينة. كانت السماء الفاحمة والقمر المتواري من وراء إحدى السحب يُضفيان لونًا أرجوانيًّا على الأفق، مبشِّرَين بولادة فجر جديد.

قالت المرأة وهي تنهض على قدميها وتمسك بيد ابنتها وتجذبها من فوق السرير:

ـ هذا هو الأسلوب الوحيد للتوصُّل إلى الحقيقة.

فهمت العروس بصوت واهن:

ـ لا يا أمِّي، أرجوك!

غير أنَّ الأمّ لم تستمع إلى ابنتها، وخاطبت زوجها بقولها:

ـ اذهب وأحضر معاطفنا.

فما كان من الزوج إلَّا أن امتثل للأمر وأومأ برأسه كما هو ديدنُه، إن لم يكن دليلَ موافقته.

تورَّد وجه بيري وهي تسرع إلى والديها وقالت:

ـ أَوْقِفْهما يا أبي، إنَّهم سيذهبون إلى المستشفى!

بدا منصور في منامته القطنيَّة كأنَّه ممثِّل دُفِع دفعًا إلى أداء دور في مسرحيَّة، لم يحفظه. رمق ابنته بنظرة خاطفة، ثم رنا إلى العروس وأمّها اللتين مرَّتا من أمامهما في هذه اللحظة وهما في طريقهما إلى الباب الخارجيّ. كان عجزه يشبه العجزَ الذي أظهره قبل سنوات في تلك الليلة التي داهم فيها رجالُ الشرطة بيتَهم.

قال منصور:

ـ أرجو أن نلتزم الهدوء، ولا ضرورة لإقحام الغرباء. لقد أصبحنا أسرة واحدة الآن.

مكتبة الفكر الجديد

إلَّا أنَّ الأمّ لوَّحت بيدها، في إشارة تنمّ عن رفضها كلامَه، وقالت:

ـ إذا كانت ابنتي مخطئة، فسوف أعاقبها بنفسي. أمَّا إذا كان ولدك كذَّابًا، فالله يشهد على أنَّني سأجعله يندم على ذلك. فقال منصور:

ـ أرجوك، لا ينبغي لنا أن نتصرَّف تحت وطأة الغضب...

تدخَّل هنا هاكان ودخانُ سيجارته ينبعث سحبًا من منخريه:

ـ فليفعلوا ما يشاؤون، فأنا أيضًا أريد معرفة الحقيقة، ولديَّ حقٌّ في معرفة نوع المرأة التي تزوَّجت بها.

فغرت بيري فاها مندهشةً من كلام أخيها، وقالت:

ـ كيف يمكنك التفوُّه بمثل هذا الكلام؟

قال هاكان بصوت لا طعم له، ولا يناسب حدَّة الرسالة التي ينطوي عليها:

ـ اسكتي! قلت لك ابتعدي عن هذا الموضوع.

بعد أقلّ من نصف ساعة كانوا قد اتَّخذوا أماكنهم من فوق مصطبة في أقرب مستشفى. كلُّهم باستثناء العروس. ستظلّ في ذاكرة بيري تفاصيلُ من تلك الليلة على مدى السنوات القادمة: الصدوعُ في السقف الشبيهةُ بخارطة قارة منسيَّة؛ حذاءُ الممرِّضة الذي يضرب بشدَّة على الأرضيَّة الإسمنتيَّة؛ رائحةُ المطهَّرات الممتزجة بروائح الدم والالتهابات؛ الطلاءُ الأخضر الذي يشبه الطحالب والذي طُليت به الجدرانُ، علامة تشير إلى «قسم الطوارئ» بعد أن سقط عنها حرف الميم من كلمة «قسم»، فضلًا عن فكرة مؤرّقة حفرت عميقًا في عقلها، وهي: بغضِّ النظر عن سرياليَّة كلّ ما شاهدته يحدث أمامها، فقد كان

مكتبة الفكر الجديد

سهلًا إخضاعُها شخصيًّا لمثل هذا التحليل الطبِّي لو أنَّ والديها زوَّجاها لأسرة تهتمّ بمثل هذه الأمور. نعم، لقد أدركت بيري ذلك بقلب مثقل بالهمِّ والغمِّ.

كانت بيري قد تناهى إلى سمعها أزماتٌ تحدث في ليلة الزفاف، غير أنَّها افترضت على الدوام أنَّ مثل هذه الأمور تحدث لغيرها من الناس، كالفلَّاحين في قرى موحشة وكئيبة، وأبناءِ الريف الأقلّ تعقُّلًا وحكمة. أمَّا أسرتها فليست تلك الأسرة التي تتورَّط في إجراء تحليل طبِّي عن العذريَّة في مستشفى مهلهل. فمنذ طفولتها، عُوملت معاملةً موازية لمعاملة أخويها إن لم تكن أفضلَ منها. كان والداها يعتزَّان بها، وأغدقا عليها حبًّا جمًّا، وكانت موضع عنايتهما الفائقة. كما أنَّ ترعرعها في حيٍّ محافظ كانت العيون فيه مسلَّطةً عليها من وراء كلّ ستارة مخرَّمة، وكونها موضعَ مراقبة وتحكيم، أمرٌ جعلها تحرص الحرصَ كلَّه على عدم تجاوز الحدود، وعدمِ ارتداء ما لا ينبغي لها أن ترتديه من الثياب، وعلى الجلوسِ في الأماكن العامَّة على نحو لائق، والعودةِ إلى البيت في الوقت المحدَّد دائمًا بعد قضاء أمسية خارجه، في معظم الأوقات. وفي سنتها الأخيرة في المدرسة الثانويَّة، كانت دوَّامةُ التمرُّد والتحدِّي التي أطبقت على معظم زميلات فصلها الدراسيّ وجرفتهنَّ مع التيَّار وانطلقت بهنَّ بعيدًا إلى كلّ حدب وصوب، قد تركتها من دون إلحاق أيّ أذًى بها، وعلى قمَّة أرضيَّة أخلاقيَّة عالية. وفي حين انتهكت زميلاتُها كلَّ المحرَّمات، وحطَّمت إحداهنَّ قلوبَ الأخريات، عاشت بيري حياة هادئة. إلَّا أنَّها أُغرمت أيضًا، وحطَّم ذلك الحبُّ كلَّ حدودها الحصينة، وإن كان حبًّا قصيرًا وجسورًا. فقد كان والداها يجهلان أنَّها اتَّخذت لها صديقًا يساريًّا، وها هي الآن ترى هشاشة موقفها بصفتِها

مكتبة الفكر الجديد

«البنتَ المحبوبة». ساورها الشعور بأنَّها أشبه بمنافقة، وها هي الآن تنتظر نتيجة اختبار البتولة الذي يجري لامرأة شابَّة أخرى في حين أنَّها هي ليست عذراء.

قال والد العروس واثبًا على قدميه ليجلس مجدَّدًا بعد قليل:

ـ لماذا يستغرق التحليل كلّ هذا الوقت؟

فزجرته زوجته قائلة:

ـ لا، لم يستغرق وقتًا طويلًا.

كانت المرأة متوتِّرة الأعصاب توتُّرًا دفع الممرِّضة المناوبة إلى المجيء إليها مرَّتين وإبلاغِها أن تخفض صوتها. مرَّت ساعة ـ أو ما يبدو أنَّه ساعةٌ ـ وأخيرًا ظهرتِ الطبيبة للعيان. كان شعرها مشدودًا إلى أعلى، وعيناها الرماديَّتان تتَّقدان من وراء نظَّارتها الطبِّيَّة. ألقت عليهم نظرة متفحِّصة تنمّ عن احتقار واضح وازدراء ظاهر. الواضح أنَّها اشمأزَّت ممَّا فعلت، وأشمأزَّت منهم أكثرَ لأنَّهم طلبوا منها إجراء الفحص.

قالت الطبيبة:

ـ ما دمتم تريدون أن تعرفوا، فهي عذراء. بعض الفتيات يولدن من دون غشاء البكارة، وبعض هذه الأغشية يمكن أن يتمزَّق عند ممارسة الجنس أو القيامِ بأدنى نشاط بدنيّ من دون أيّ نزف.

بدت الطبيبة تتكلَّم على هذا النحو عن عمد، مستخدمة حقائقَ طبِّيَّة للحطّ من قَدْرهم، انتقامًا منهم بسبب الجرح الذي تسبَّبوا به للعروس، واستأنفت قائلة:

ـ لقد حطَّمتم نفسيَّة امرأة شابَّة، وأنصحكم بأخذها إلى طبيب

مكتبة الفكر الجديد

معالج من دون عقاقير إن كنتم تهتمُّون بها. والآن، أطلب منكم كلِّكم أن تنصرفوا من هنا، فنحن لدينا مرضى يشكون من عِلَلٍ حقيقيَّة، أمَّا أنتم فتهدرون وقتنا.

ثم استدارت الطبيبة من دون أن تضيف أيّ كلمة أخرى، ومضت في سبيلها. مرَّت دقيقة كاملة لم ينبس فيها أحد ببنت شفة، غير أنَّ والدة العروس هي التي مزَّقت حجابَ الصمت بقولها بصوت عال:

ـ الله أكبر! لقد حاولوا تشويه سمعة ابنتي، لكن الله ربِّي وجَّه إليهم صفعةً على الوجه وقال لهم «كيف تتجرَّأون على تلويث سمعة عذراء؟ كيف تتجرَّأون على تلويث برعم وردة؟»

شاهدت بيري، في نطاق مدى رؤيتها، والدَها يخفض رأسه ويثبت بصره على الأرض الكونكريتيَّة كأنَّه يريدها أن تبتلعه.

أردفت أمّ العروس قائلة:

ـ اسمعوا! ولدكم هو الفاشل. كيف يمكنكم لومُ ابنتي إذا لم يكن ولدكم رجلًا بمعنى الكلمة؟ كان ينبغي لكم أن تأخذوه إلى حيث تعرفون!

فتمتم زوجها وقد ظهر على وجهه القلقُ والشكّ لأنَّه اعتقد أنَّ هذا الكلام قد لا يكون المناسبَ الآن:

ـ التزمي الهدوء أيَّتها الزوجة!

إلَّا أنَّ تدخُّل زوجها في الحديث أثار غيظها أكثر من ذي قبل:

ـ لماذا؟ لماذا ينبغي لي أن أُجنِّبَهم الخزيَ والعار؟

فُتح في هذه الأثناء بابٌ في نهاية الممرّ وخرجتِ العروسُ وتقدَّمت منهم تخطو خطوات محسوبةً وبتؤدة. وفي غمضة عين، اندفعت أمُّها

مكتبة الفكر الجديد

نحوها تضرب على كلتا فخذيها بقبضتيها كأنَّها تلطم في حداد، وتقول:

ـ يا وردتي! ماذا فعلوا بك؟ ليسقطوا في الوحل الذي أرادوا لنا أن نتمرَّغ فيه!

غير أنَّ العروس تجاهلت أمَّها وخَطَتْ في اتِّجاه باب الخروج من المستشفى. وفي أثناء مرورها بأسرة نالبانتوغلو وبزوجها الذي كانت ساقاه ترتعشان ارتعاشًا شديدًا اهتزَّت معه المصطبةُ الجالسُ فوقها، شمخت برأسها رافضة أن تواجه عيني أيّ واحد منهم.

لاحظت بيري أنَّ يدي العروس كانتا مقلَّمتي الأظافر ومطليَّتين بالحنَّاء. أمَّا راحتا كفَّيها فكانتا مرصَّعتين بأهلَّة حمراء اللون. هذه النقطة بالذات هي التي أثَّرت في بيري أكثرَ من أيّ شيء آخر شهدتْه في تلك الليلة الليلاء، إذْ كانت علامةً تدلّ على أنَّ الصبيَّة تحفر بأظافرها في أثناء فحص البكارة.

ـ انتظري يا فريدة.

كانت تلك أوَّلَ مرَّة تلفظ فيها بيري اسم العروس، إذْ كانت حتى ذلك اليوم تستخدم إمَّا الضمائرَ العائدة إليها، أو تستخدم بكلٍّ بساطة كلمةَ «العروس».

وبالرَّغم من أنَّ العروس خفضت سيرها، فإنَّها لم تتوقَّف ولم تلتفت إلى الوراء، بل لبثت تسير إلى أمام وتجتاز الباب الذي يُفتح ويغلَق على نحو آليٍّ، وتوارت عن الأنظار برفقة والديها.

تملَّك بيري إحساسٌ عارم بالغضب من أخيها الذي تسبَّبت أنانيَّته وعدمُ ثقته بهذه الحال التعسة، ومن والديها اللذين لم يحاولا بذل أيّ جهد للحيلولة دون حدوث هذه الإساءة، ومن التقاليد الموغلة في القِدَم

مكتبة الفكر الجديد

والتي تبحث عن أهليَّة امرأة بين ساقيها. لكنَّ الغضب الأكبر كان موجَّهًا إلى نفسها هي، إذْ كان في مقدورها أن تفعل شيئًا ما لمساعدة فريدة، لكنَّها لم تفعل شيئًا. كانت الأمور تنحو دومًا على هذا النحو. ففي لحظات القلق الشديد، وفي اللحظة التي توشك فيها أن تتَّخذ قرارًا وتفعل شيئًا ما، تجد نفسها وقد انكمشت على نفسها لا تقوى على عمل أيّ شيء، كأنَّ يدًا خفيَّة تمنعها من ذلك، من المكان الذي كانت تراقب فيه العالم من حولها وهو يتحوَّل إلى غمامة، ويستبدّ الوجوم بها كأنَّ مصابيح كهربائيَّة أُطفئت، واحدًا في إثر الآخر.

* * *

في طريق العودة إلى البيت، كانت الأسرة وحدها في السيَّارة المستأجَرة للزفاف، يتولَّى هاكان قيادتها وإلى الخلف جلس والده يحدِّق إلى ما وراء النافذة. أمَّا بيري فجلست إلى جانب أمِّها.

سألت بيري:

ـ ماذا سيحدث الآن؟

قالت سلمى:

ـ لا شيء، إن شاء الله. سوف نشتري الحلوى والحرير والمجوهرات... ونعتذر. سوف نبذل قصارى جهدنا لإصلاح ذات البَين على الرَّغم من أنَّ فكرة الذهاب إلى المستشفى كانت فكرتَهم هم وليست فكرتَنا.

فكَّرت بيري لحظة ثم قالت:

ـ كيف يمكن لأيِّ زواج أن يستمرّ إن كانت هذه بدايتَه؟

ابتسمت أمّها ابتسامة مخاتلة في اللحظة التي كان فيها نور مصباح

مكتبة الفكر الجديد

الشارع يفلق وجهَها إلى فِلْقتين، الأولى مضيئةٌ والثانية معتمةٌ مكسوَّةٌ بالظلِّ.

ـ صدِّقيني يا حبيبتي أنَّ زيجات كثيرة مرَّت في تجربة أسوأ من هذه. سيكون كلّ شيء على ما يرام، إن شاء الله.

حدَّقت بيري في أمِّها، ولعلَّها رأت في تحديقتها هذه أمَّها أوَّلَ مرَّة. وفطنت إلى أنَّ زواج والديها قد لا يكون كما يبدو عليه فعلًا، وأنَّ والدها العزيز ليس بالرجل النبيل الذي كانت تعتقده.

انتقلت بأفكارها إلى صورة زفاف والديها المحفوظةِ في الخزانة بإطارها من دون أن تُعلَّق على الجدار. كان منصور وسلمى شابَّين نحيفين يقفان ساكنين متجهِّمين كأنَّهما صُدما بسبب خطورة ما أقدما عليه. وكان من ورائهما بستانٌ عبثيٌّ يمثِّل أشجارًا بريَّةً وإوزًّا طائرًا، وكان رأس سلمى التي لم تكن قد ارتدت الحجاب بعدُ مزيَّنًا بإكليل من زهور الأقحوان المضفورة. جمالها البلاستيكيُّ ليس أقلَّ زَيفًا من سعادتهما.

أمسكت بيري بيد والدتها غريزيًّا، وليس عن عمد، وضغطت عليها في رفق. فكَّرت في أنَّ الأمّ التي لطالما رأتها هشَّةً ونزَّاعةً إلى البكاء قد تمتلك في أعماقها مرونةً خاصَّة بها. كانت سلمى تعامل الأزمات العاطفيَّةَ على النحو الذي كانت تؤدِّي فيه أشغالَ المنزل المرهقةَ، إذْ كانت تلتقط كلّ شيء بكدٍّ ومثابرة مثلما كانت ترتِّب كلّ الأشياء المبعثرة على الأرض في البيت.

قالت سلمى كأنَّها شعرت بما يدور في خلد ابنتها:

ـ لديَّ إيمان يقوِّي عزيمتي. لا بدَّ من وجود سبب لما حدث لنا، ونحن لا نعرفه حتى هذه اللحظة، لكنَّ الله يعرفه.

مكتبة الفكر الجديد

كان في مستطاع بيري أن تتبيَّن من تورُّد خدَّي والدتها ووميض عينيها أنَّ أمَّها كانت صادقة القول. فقد كان الإيمان، بغض النظر عن أسلوب سلمى في فهمه، يُشيع فيها إحساسًا بالاستسلام، قد يكون سببًا للضعف فلا تبدو قويَّة. هل يمدّ الدين النساء بالقوَّة وهنَّ اللواتي لا يتمتَّعن إلَّا بقدر ضئيل من القوَّة في مجتمع خلقه الرجال بأنفسهم، ولأنفسهم، أم أنَّه أداة أخرى لتعليمهم الاستسلامَ والخضوع؟

في اليوم التالي، سافرت بيري جوًّا إلى إنكلترا متَّقدةَ الذهن بأسئلة لا تملك أدنى فكرة عمَّا إن كان الأفضل أن تبحث عن أجوبة لها، أو تركها على ما هي عليه.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

امرأة تقتات على الأقاويـــــل

إسطنبول ـ ٢٠١٦

بعد أن أغلقت بيري سمّاعة الهاتفِ غداة اتِّصالها بأمِّها، عادت أدراجها إلى مائدة العشاء، بعد أن هبطت الدرج الرئيس المزيَّن بجِرار إغريقيَّة، واجتازتِ الأرضيَّة الرخاميَّة الصقيلةَ. كانْت من جهة أولى خائبةَ الأمل لأنَّها لم تحصل على رقم هاتف شيرين، في حين شعرت، من جهة ثانية، بالارتياح لأنَّها لم تكن تملك أدنى فكرة عمَّا كان من شأنها أن تقوله. وحتى إذا عثرت على الكلمات المناسبة، فلربَّما لن تصغي إليها شيرين، فقد اتَّصلت بها بضع مرَّات في ما مضى من الوقت، وذلك بعد أن تركت الدراسة في أوكسفورد، لكن شيرين كانت غاضبة لا تريد أن تحدِّثها، إذْ لم يكن الجرح قد اندمل بعد. وبالرَّغم من أنَّ سنوات قد انقضت على ذلك، فإنَّه لا يوجد أيّ ضمان يدلُّ على أنَّ الوضع بات مختلفًا الآن.

كانت ضحكات الضيوف تخدش أذنيها. وعندما دلفت إلى حجرة الطعام وجدت مديرة العلاقات العامَّة تقف قرب المَشرب منتظرةً إيَّاها.

قالت المرأة مبتسمة ابتسامة مقتضبة لم تصل إلى أعماق عينيها:

ـ هه! لقد اتَّصلت بشقيقي عندما ابتعدت عن هنا، وانتابه سرور غامر لمَّا سمع أنَّك كنت في أوكسفورد في الوقت نفسه تقريبًا الذي كان

مكتبة الفكر الجديد

فيه هناك. إنَّنيَ متأكِّدة من أنَّكما تعرفان الأشخاص أنفسهم فيها.

ردَّت بيري على تحديقة المرأة بنظرة حادَّة، وقالت:

ـ ربَّما، لكن أوكسفورد مدينة كبيرة.

ـ أخبرته بأنَّ لديك صورة الأستاذ الذي تسبَّب بحدوث فضيحة، فاستبدَّتْ به الدهشة.

أطبقتْ بيريِ فكَّيها واستعدَّت لسماع ما ستقوله المرأة.

ـ ماذا كان اسمه؟ لقد أتى شقيقي على ذكره، لكنَّني نسيته.

قالت بيري بنبرة جعلت لسانها يتَّقد عند لفظ الاسم كأنَّه لهبٌ من نار:

ـ آزور!

فقالت مديرة العلاقات العامَّة وهي تفرقع أصابعها لتوكيد وجهة نظرها:

ـ تمامًا. كنت أعلم بأنَّه اسم غريب. هه! لقد تملَّك أخي الفضولُ وطلب منِّي أن أسألك إن كنت طالبة من طلَّابه.

قالت بيري من دون أن تخطئ هدفها:

ـ لا، لم أكن أعرف الأستاذ معرفة جيِّدة. أمَّا الفتاتان اللتان ظهرتا في الصورة فهما طالبتان من طلَّابه. كنتُ صديقة لا أكثر، ولم يعد بيننا أيُّ اتِّصال اليوم.

قالت مديرة العلاقات العامَّة وقد اكفهرَّت قسماتُ وجهها لخيبة أملها، إلَّا أنَّها لم تستسلم بعد:

ـ آه، حاولي الاتِّصال عن طريق «الفيس بوك»، فأنا شخصيًّا أعدت الاتِّصال بكلِّ أصدقائي في الكلِّيَّة، وكذلك بصديقاتِ المدرسة

مكتبة الفكر الجديد

الابتدائيَّة. وقد تناولنا وجبة طعام من الفاصوليا والأرزّ واللحم بالتوابل...

أومأت بيري برأسها متطلِّعة إلى التخلُّص من هذه المرأة التي كانت تسلُبها خصوصيَّتَها وتنبش ماضيها، كأنَّها جيش مُعادٍ اقتحم بلادها. وعزمت على ألَّا تُخبرها بعدد المرَّات التي بحثت فيها عن اسم آزور ومنجزاتِه وكتبِهِ وصُوَرِهِ، وتفرَّست في مئات الموضوعات عنه، وبالتالي، عن الفضيحة التي توقَّف في إثرها عن التدريس، إلَّا أنَّه واصل الظهور في المقابلات وتقديمَ المحاضرات.

ـ قال أخي إنَّه تناهت إلى سمعه شائعاتٌ راجت يومئذ عن فتاة تركيَّة تدرس منهاج هذا الأستاذ. وأضاف أنَّها كانت محور حديث المدينة.

امتلأت الفسحة الكائنة بين بيري والمرأة بالتوتُّر كأنَّها بركة قذرة. ثم سألت بيري المرأة مأخوذةً بالدهشة للبرودة التي شابت صوتها:

ـ ما قصدك من هذا الكلام؟

ـ لا شيء، إنَّني فضوليَّة لا أكثر.

هنا التمعت صورةُ المتشدِّد أمام عيني بيري، وقوامُه الهزيل، وعيناه النفَّاذتان، ويداه المكسوَّتان بالكريما، إذْ كانت مديرة العلاقات العامَّة لا تقلّ عنه إدمانًا بالرَّغم من مركزها ومالها. تخيَّلت بيري المرأة حاملةً بين يديها حقيبةً مملوءة بمحن الناس وبلاياهم وأسرارِهم المصونةِ، فتحشر أنفها فيها وتتنشَّق منها كأنَّها تنشد استراحة موقَّتة من حياتها الخاصَّة.

قالت بيري:

ـ ليتني كنت أملك شيئًا أكثرَ إثارة للاهتمام كي أُخبرك به.

مكتبة الفكر الجديد

ثم توقَّفت هنيهة، وكانت ملاحظتها تبدو كأنَّها غير موجَّهة إلى أحد سواها، وإن كانت النيَّة معقودةً على إيصالها إلى هذه المرأة الفضوليَّة المتطفِّلة، وأردفت:

ـ كنت طالبة هادئة ولست من نمط اللواتي يتورَّطن في فضائح.

أطبقت مديرة العلاقات العامَّة شفتيها، كأنَّها متعاطفة وإيَّاها. قالت بيري:

ـ إذا اتَّصل بك شقيقك مرَّة أخرى فأخبريه بأنَّه يعني فتاة أخرى بالتأكيد.

ـ آه، بالتأكيد.

تفادت بيري طوال جلسة العشاء النظرَ إلى عيني مديرة العلاقات العامَّة. لم تشعر بالذنب وهي تكذب. فهي مصمِّمة على عدم الكشف عن ماضيها أمام امرأة غريبة، وخصوصًا إذا كانت هذه المرأة الغريبة من نمط جامِعات القاذوراتِ الباحثاتِ عن القيل والقال لتغتذيَ عليهما.

يُضاف إلى ذلك أنَّ التفكير في ما حدث لا يعني حقًّا أنَّها كانت تكذب، فهي أوَّلًا وأخيرًا فتاة مختلفة عن المرأة التي آلت إليها اليوم، والتي كانت يومًا ما طالبةَ الأستاذ آزور المفضَّلةَ، والتي باتت في وقت لاحق سببًا في تحطيم حياته وسمعته.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

رياضة العَدْو وقــت الغسق

أوكسفورد ــ ٢٠٠٠

استكنّت بيري في دراستها بعد عودتها إلى الكلِّيَّة. وفي صباح كلّ يوم، وبعد تناول قهوتها ـ المختلفة اختلافًا واضحًا عن القهوة التركيَّة الحلوة والمركَّزة ـ كانت تراقب طَلَبَة سنوات الدراسات الجامعيَّة الأولى والأساتذةَ الذين تعلو وجوههم أماراتُ الاستغراق في التفكير، وهم يتشبَّثون بالكتب والدفاتر على صدورهم في أثناء إسراعهم من مبنى إلى مبنى. كانت تفكِّر في نفسها متسائلةً عن عدد الذين يستطيعون الحياة في مكان آخر، من بين كلّ هؤلاء. كم يسهل الافتراض أنَّ أوكسفورد ـ أو أيّ مكان آخر ـ هي مركزُ العالم.

في يوم الأربعاء، غادرت المكتبة وقتَ الغسق بعد أن أمضت نحو ثلاث ساعات في القراءة حتى تُشبع ذهنَها بالأفكار، وتخيَّلتْ ذهنها أشبهَ بمنزل كثيرِ الغرف والدهاليز المبعثرة من دون انتظام. وقد خزَّنتْ فيه كلّ الأشياء التي قرأتْها وسمعتها وشاهدتها، ومتى كان يفتِّشها ويعالجها ويدوِّنها كاتب ضئيل، قزم، يسهر على راحتها سهرًا غير دارٍ به. بيد أنَّها اعتقدت أنَّ في وسع المرء أن يُخفي أفكاره حتى عن نفسه.

قرَّرت أن تخرج لممارسة رياضة العَدْو. وبعد أن توقَّفتْ وقفة قصيرة عند السلالم لتزيح عن كاهلها الكتب التي استعارتها ولترتدي

مكتبة الفكر الجديد

ثياب الرياضة، انطلقتْ إلى نهاية شارع هوليويل متلمِّسةً على مهل إيقاعَها الخاصّ بها في حين كانت الريح تلامس وجهها مثلَ بلسم.

مرّ بها راكبو الدرَّاجات الهوائيَّة صامتين، في حين كانت إشاراتهم الضوئيَّة تومض في الظلام ومضاتٍ توحي بأنَّها تدبِّر المكائدَ في الظلمة. كان الأهالي يركبون الدرَّاجات إلى كلّ حدب وصوب ـ إلى المتاجر والمطاعم والحلقات الدراسيَّة ـ وكان أحد المَشاهد الأثيرة لنفسها يتمثَّل في رؤية المدرِّسين القدامى وهم يركبون درَّاجاتهم الهوائيَّةَ وثيابُهم تنتفخ في رقَّة بفعل الريح. لم تكن بيري راكبةَ درَّاجة ماهرةً، وكان ذلك أحد الأمور التي ينبغي لها أن تتعلَّمها، مثل السعادة تمامًا.

انحرفتْ عن مسارها المألوف واندفعتْ خلال شوارع وأزقَّة بدت لها مهجورة وموحشة. وتنشَّقت رائحة نباتات الشتاء التي لا تعرف لها اسمًا، وانعطفتْ إلى ناصية وتوقَّفتْ مبهورةَ الأنفاس، فقد وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام ملصق على الجدار:

جامعة أوكسفورد

متحف التاريخ الطبيعي

يقدِّم

مناظرة في موضوع «الربّ»

الأستاذ روبرت فاولر والأستاذ جون بيتر

والأستاذ

أي. زد. آزور

أنتم مدعوُّون إلى الانضمام إلى هذه المناظرة القيِّمة

بين أذكى عقول هذا الزمان

مكتبة الفكر الجديد

اتَّسعتْ عينا بيري، ثم تبيَّنتِ الزمان والمكان المؤشَّرَ إليهما على الملصق، فكان اليوم نفسه في الساعة الخامسة عصرًا، في مبنى متحف التاريخ الطبيعيّ.

كانت المناظرة قد بدأت قبل قليل، غير أنَّ المكان يبعد عنها مسافة ميلين في الأقلّ وليست لديها تذكرةُ دخول ولا تحمل نقودًا لشرائها إن كانت التذاكر لم تنفد بعد، ولا تمتلك أيّ فكرة عن طريقة الدخول، إلَّا أنَّها سرعان ما استدارتْ نحو موقع المتحف، وأخذَتْ نَفَسًا عميقًا، وبدأتْ تركض.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الطـريـــــق الثالث

أوكسفورد ـ ٢٠٠٠

في الوقت الذي وصلت فيه بيري إلى هدفها، منكوشةَ الشعر، تتصبَّب عرقًا ينزّ إلى رقبتها، كانت الشمس قد أزفَّتْ إلى المغيب في السماء كهرمانيَّةً مكفهرَّة. اقتربتْ من المبنى المشيَّد على الطراز القوطيّ، والذي صُمِّم ليكون «كاتدرائيَّة للعلوم». ينقسم فنّ العمارة في مدينة أوكسفورد إلى قسمين: القسمُ الأوَّل هو الذي يخلد في الذاكرة، والقسمُ الثاني هو الذي يحلم. أمَّا مبنى متحف التاريخ الطبيعيّ فيجمع بين هذين القسمين. فكَّرت بيري في أنَّ صوت وقع الأقدام على حصباء الشوارع يعني أنَّ المبنى ـ المستقلَّ عمَّا في داخله من تجمُّعات ـ يطلب من زوَّاره الرهبةَ والاحترام.

ثمَّة مراقبان اثنان، فتى وفتاةٌ، يقفان إلى جانب المدخل الرئيسيّ، يدلُّ مظهراهما على أنَّهما طالبان، يرتديان قميصين أزرقين زاهيين، وتوحي قسماتهما بالسأم. أومأ أحدهما إلى بيري، فقالت محاولة أن تلتقط أنفاسها:

ـ جئت لحضور المناظرة.

فسألها الفتى، وكان شابًّا طويلًا كنخلة، ناتئَ الشفة السفلى وضيِّقَ الجبين، كثيفَ الشعر أحمرَه:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل لديك تذكرة دخول؟

قالت بيري في قلق:

ـ لا، كما أنَّ حافظة نقودي ليست معي.

فهزَّ رأسه وقال:

ـ هذا غير مهمّ، فالتذاكر نفدت منذ أسابيع.

فانطلقت الكلمات من فم بيري من تلقاء نفسها:

ـ لكنَّني قطعت مسافة طويلة ركضًا إلى هذا المكان!

في هذه اللحظة، ابتسمت الفتاة ابتسامة تنمّ عن تعاطف لمَّا سمعت بيري تردّ بصوت عال وتلقائيّ:

ـ في أيّ حال، المناظرة توشك أن تنتهي. لقد جئت متأخِّرة.

تشبَّثت بيري ببارقة أمل وسألت:

ـ هل يمكنني في الأقلِّ إلقاءُ نظرة؟

هزَّتِ الفتاة كتفيها، فهي لا تعترض، غير أنَّ الفتى اعترض قائلًا:

ـ لا يمكننا أن نسمح بذلك.

كانتْ نبرة صوته تشير إلى أنَّه شخص وجد نفسه، على نحو غير متوقَّع، في موقع سلطة، فقرَّر أن يستغلّ ذلك إلى أبعد الحدود.

فقالت الفتاة:

ـ لقد سُجِّلت المناظرةُ، وستُعرض لاحقًا من دون مقابل.

إلَّا أنَّ بيري لم تقتنع، لكنَّها على الرَّغم من ذلك قالتْ:

ـ لا بأس، شكرًا.

استدارتْ وعادتْ أدراجها متجهِّمةً تحت وهج الغسق الخافت، ومظهرُها يدلُّ على أنَّها أشبهُ بطفل خائب الرجاء. ولو أنَّ أحدًا سألها

مكتبة الفكر الجديد

عن سبب إصرارها على الدخول، فإنَّ جوابها الوحيد الذي يمكنها أن تنطق به هو: الغريزة؛ فقد أدركت أنَّ الأسئلة الكثيرة التي تحتشد بها تلافيفُ دماغها كانت موضعَ نقاش هناك، فكان هذا الاعتقاد هو الذي دفعها إلى أن تفعل ما فعلته بعدئذ.

وبدلًا من أن تذهب مباشرة إلى الطريق الرئيسيّ، هامت على وجهها بحثًا عن باب جانبيّ للدخول، لكن تبيَّن لها أنَّ ذلك غير ضروريّ، إذْ سنحت لها فرصة أخرى للدخول عندما لاحظت، وهي تنظر من فوق منكبها إلى المدخل، أنَّ الفتاة قد توارتْ عن الأنظار. أمَّا الشابّ، فقد انتظر بضع ثوان ثم دخل المبنى.

انتهزت بيري فرصةً في عدم وجود من يحرس الباب الأماميّ، فدخلت المتحف. وما إن أصبحت بين جدرانه حتى سارت محاذرةً، متنبِّهةَ الحواسّ، إذْ توقَّعت أن يظهر لها الفتى ذو الشعر الأحمر من أحد أركان المبنى ويطردَها. إلَّا أنَّها لم تجد له أثرًا، فسارت مقتفية علامات الدلالة المشيرة إلى «مناظرة في موضوع الربّ»، إلى أن وجدت نفسها في قاعة كبيرة محتشدة بالجمهور.

كان الطلبة والأكاديميُّون قد اتَّخذوا أماكنهم بالجلوس في صفوف ضيِّقة، يصغون مفتونين منتشين، وأبصارُهم معلَّقة على الأشخاص الأربعة الجالسين على خشبة المسرح. كان أحدهم صحافيًّا بارزًا من هيئة الإذاعة البريطانيَّة يُدير الندوة، وقد بدا عليه أنَّه شرع في اختتام النقاش. أمعنتْ بيري النظر إلى الأساتذة الثلاثة متسائلة في نفسها عمّن هو آزور.

كان الأستاذ الأوَّل ـ وهو رجل هزيل القامة، طويلُها، ذو عينين لوزيَّتين تُفصحان عن جذوة ذكاء ـ أصلعَ الرأس، ذا لحية، هي مزيج

مكتبة الفكر الجديد

متساوٍ من اللونين الأبيض والأسود، يعبث بها متوتِّرًا كلَّما ترامى إلى أذنيه كلامٌ لا ينسجم وذوقَه. وكان يرتدي بذلة رماديَّة وقميصًا ورديًّا محقّقًا وحمّالةَ بنطال حمراءَ اللون ومعدنيَّةَ المشابك. وكان وجهه يشي بين حين وآخر بحبِّه الخصامَ والشجارَ من خلف ابتسامته المحكمة. وكان يتطلَّع في معظم الوقت إلى يديه كأنَّهما تمسكان بسرٍّ من الأسرار يأمل في فكِّ مغالقه.

أمَّا الأستاذ الثاني، وهو أكبر الثلاثة سنًّا، فكان عريض الوجه، متورِّدَ الملامح، رماديَّ الشعر قصيره، ذا كرش ينسى أن يخفيها عن الأنظار حين ينفعل. وكان يرتدي سترة خمريَّة اللون يحسّ بأنَّها ضيِّقة أو غير مريحة على نحو ما، لأنَّه كان يبدو منزعجًا، مقوَّسَ الظهر في جلسته، حائرَ النظرات لا يقدر على التركيز. بدا مظهره لبيري من نمط الرجال المهذَّبين على أهبَّة الاستعداد لإنفاق وقته برفقة طلّابه أو أحفاده، وليس في مناظرة عن الربّ من فوق منصَّة.

أمَّا المتحدِّث الثالث، الجالس على بعد مسافة من الآخرين وإلى يسار مدير الندوة، فكان ذا شعر أشقر يميل إلى البنِّي، ويسترسل في موجات جميلة فوق ياقته، وأنفٍ بارز يجمع بين القبح والجمال، وعينين تتألَّقان مثلَ ذرَّات زجاج بركانيٍّ داكن معروف باسم أوبسيدان من وراء نظَّارته ذات الإطار الكلاسيكيّ الأسود والسلحفاتيِّ الشكل وهو ينظر متفرِّسًا في الجمهور، مبتسمًا ابتسامةً ملؤها ضجرٌ من الحياة والوجود. لم تستطع بيري أن تقرِّر إن كانت رزانته ووقاره يدلّان على روح متصالحة ومنسجمة ونفسَه، أم أنَّهما انعكاس لغطرسة وغرور صقيلين. كما صَعُبَ عليها أيضًا تحديدُ عمره، فهيئته الرشيقة والمشدودة تشير إلى أنَّه أصغر سنًّا من الآخرين، كما عكس سلوكه حيويَّة ونشاطًا قد

مكتبة الفكر الجديد

يكونان، أو لا يكونان، سببًا من أسباب صِغَر سنِّه النسبيّ. وأصبحت بيري متيقِّنة من أنَّه الأستاذ الذي كانت شيرين تُطريه وتتحدَّث عنه بإسهاب وافتتان.

قال مدير الندوة متحمِّسًا:

ـ أعتقد أنَّني أتحدَّث بالإنابة عن كلّ مَن حاضر في هذه الندوة عندما أقول إنَّ النقاش الذي استمعنا إليه كان غاية في الروعة لما فيه من أفكار استفزازيَّة تستحقّ التأمُّل.

بدا على مدير الندوة أنَّه منهَك القوى، وأنَّه ارتاح كثيرًا لأنَّ الندوة شارفت على النهاية. فكَّرت بيري في ما يمكن أن تكون قد تمخَّضت عنه قبيل وصولها، إذْ إنَّها شعرت بتفجُّر التوتُّر من خلف مظهر اللباقة الأكاديميَّة الخادع، ثم استرسل قائلًا:

ـ حان الآن الوقتُ لإفساح المجال أمام الجمهور، وأودّ أن أُشير قبل كلّ شيء إلى ضرورة الالتزام ببعض القواعد، وهي: أن تكون الأسئلة قصيرة ومباشرة. كما أرجوكم انتظار لاقطة الصوت، ولا تنسوا ذكر أسمائكم قبل البدء بالكلام.

ساد القاعةَ شيءٌ من الحماسة كأنَّه نسمة تمرّ فورًا من فوق حقل مزروع قمحًا. ارتفعت بعض الأيادي، هي أيادي الشجعان والجسورين.

كان أوَّلَ المتحدِّثين طالبٌ من الذكور، قدَّم نفسه باختصار قبل أن يشنّ هجومًا عنيفًا على ثنائيَّة الخير والشرّ، بادئًا ببلاد الإغريق القديمة وروما وصولًا إلى العصور الوسطى. وعند وصوله إلى عصر النهضة، كان الجمهور قد أصابه الملل، فقاطعه الصحافيّ قائلًا:

ـ حسنًا يا سيِّدي... ألديك سؤالٌ يدور في ذهنك أم أنَّك تريد إلقاء موعظة علمانيَّة؟

مكتبة الفكر الجديد

أمَّا الشخص الثاني الذي نهض ليتحدَّث فكان رجلَ دين يرتدي ثوب كاهن، أو لعلَّه راعي كنيسة أنغليكانيَّة، وهو ما لم تتمكَّن بيري من معرفته. قال إنَّه استمتع بهذه المناظرة، لكنَّه استغرب عندما سمع المتحدَّثَ الأوَّل يزعم أنَّ الدين يضيق ذرعًا بالنقاش الحرّ ولا يتحمَّله. وأضاف أنَّ تاريخ الكنيسة النصرانيَّة يحتشد بأمثلة تؤيِّد قوله. فبذور الجامعات المتعدِّدة والمنتشرة في أوروبا، وضمنها جامعتُهم، زُرعت من خلال اللاهوت، وخلص إلى القول إنَّ للملحدين الحقَّ في الاحتفاظ بآرائهم شرط ألَّا يشوِّهوا الحقائق.

حدث جدال بعد ذلك بين رجل الدين والأستاذ ذي اللحية، والذي أدركت بيري أنَّه هو المقصود بـ «الملحد». وقال الأستاذ إنَّ الدين البعيدَ البُعدَ كلَّه عن كونه حليفَ النقاش الحرّ، كان خصمَه الرهيب على مرِّ العصور. فعندما طرح سبينوزا[1] شكوكه في تعاليم الحاخامات فإنَّه لم يحصل على المديح والثناء، وإنَّما طُرد من المعبد اليهوديّ. ويمكن ملاحظة النموذج عينه في تاريخ كلٍّ من النصرانيَّة والإسلام. ولمَّا كان ينظر إلى نفسه على أنَّه كرَّس نفسه للعلم والبصيرة، فإنَّه لا يمكن أن

---

(١) باروك سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧): فيلسوف هولَّنديّ من أصل يهوديّ، نبذه أهله والجالية اليهوديَّة في أمستردام بسبب آرائه التي تجعل الله مرادفًا للطبيعة الكاملة. عرف فلاسفةَ العرب واليهود ومؤلَّفات ديكارت. صدر له في أثناء حياته «مبادئ فلسفة ديكارت» (١٦٦٣) و«مقالة في اللاهوت والسياسة» (١٦٧٠). امتاز باستقامة أخلاقه، وخطَّ لنفسه نهجًا فلسفيًّا يعتبر أنَّ الخير الأسمى يكمن في «فرح المعرفة»، أي في «اتِّحاد الروح بالطبيعة الكاملة». والله، في نظره، جملةُ صفات لا حدَّ لها، نعرف منها الفكرَ والمكانيَّة. ويرى أنَّ أهواء الإنسان الدينيَّةَ والسياسيَّة هي سببُ بقائه في حالة العبوديَّة. وقد دفعت به إرادة المعرفة والعيش في الحرِّيَّة إلى وضع أسس نظريَّة حلوليَّة في المعرفة في كتابيه: «مقالة في إصلاح الإدراك» (١٦٦٢) والنظام الأخلاقيّ» (١٦٦١ ـ ١٦٦٥) (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

يوضع تحت نفوذه الدينيّ.

كان المتحدِّث التالي الذي أمسك لاقطة الصوت، امرأةً في خريف العمر على قدر من الأناقة، أفادتْ بأنَّ العلم والدين لا يمكن أن يكونا رفيقين، وبدأت تطرح أمثلة على فلاسفة وعلماء، من الشرق والغرب، اضطهدتهم السلطاتُ الدينيَّة على امتداد التاريخ، ثم عنّفتِ الأستاذَ الثاني الذي أدركت بيري أنَّه رجل وَرِعٌ ومتديِّن وأستاذ مشهور.

على الرَّغم من أنَّ هذا الأستاذ الثاني لم يكن فصيحَ اللسان مثل الأستاذ الملحد، فإنَّه تكلَّم بلهجة إيرلنديَّة قويَّة، متلفِّظًا كلَّ كلمة بتؤدة كأنَّه يستذوق طعم قطعة من الحلوى. قال إنَّه يعتقد، من وجهة نظره، عدمَ وجود أيّ خلاف بين الدين والعلم، ويمكن للاثنين أن يسيرا جنبًا إلى جنب شرط أن نتوقَّف عن الكلام عليهما بصفتهما زيتًا وماءً. وأضاف أنَّه يعرف عددًا من العلماء والخبراء في مجال اختصاصهم وهم وَرِعُون ومتديِّنون، وكلٌّ منهم متمسِّكٌ بدينه. وكما قال داروين في مناقشاته، وهو الذي لم ينظر إلى نفسه على أنَّه ملحد، فإنَّ العبث الذي لا طائل من ورائه هو الشكُّ في أنَّ الإنسان يمكن أن يكون ملحدًا ومؤمنًا بنظريَّة النشوء تمامًا. فثمَّة عدد كبير من العلماء الذين يُعَدُّون اليوم «ملحدين شرسين»، لكنَّهم كانوا يؤمنون بوجود إلٰه في أعماقهم.

في هذه الأثناء، اتَّكأت بيري على الجدار بعد أن فشلت في العثور على مقعد شاغر لها، وتأمَّلت وجه آزور الذي كان مصغيًا إلى تبادل الآراء، وشعرُه يتطاير من على جبينه، ووجهُه وضَّاء بألق مبهَم وذقنُه يستند إلى راحة كفِّه. لم يكن قادرًا على المكوث على هذا الوضع مدَّة طويلة على ما يبدو، فجاء السؤال التالي موجَّهًا إليه.

فقد نهضت شابَّة في الصفِّ الأماميّ واقفةً على قدميها. كانت

عريضة المنكبين، ينعكس الضوء الساقط من السقف على تسريحة شعرها الشبيهة بذيل الحصان. وقفتْ معتدلة القامة، فعرفتْ بيري أنَّها شيرين، وإن كانت موليةً ظهرَها لها، وقالتْ:

ـ حضرة الأستاذ آزور، إنَّني بصفتي روحًا متحرِّرة، لديَّ مشكلةٌ متأصِّلة مع الدين منذ الولادة. فأنا لا أطيق غطرسة أولئك الذين يوصفون بأنَّهم «خبراء»، أو «مفكِّرون»، أو أئمَّةٌ وكهنةٌ وحاخامات. أعتذر بسبب لكنتي الفرنسيَّة فذلك زيف تمامًا. حين أقرأ ما تكتب فإنَّني أجد صوتًا موجَّهًا إلى غضبي. إنَّك تتكلَّم في القضايا الحسَّاسة كلامًا ينمُّ عن إيمان قاطع. كما أنَّك تعلِّمني كيف أتعاطف مع الآخرين. فهل من قارئ محدَّد يشغل ذهنك عندما تجلس لتكتب؟

مال الأستاذ آزور برأسه إلى أحد الجانبين مبتسمًا ابتسامةً لطيفة تنمُّ عن فهم وتأييد، وتلك أمارة فاتت على عين بيري، فقد شتَّت انتباهَها قميصٌ أزرقُ، هو قميص المرافق الشابّ الذي صادفته خارج المبنى! وفي غمرة خوفها من أن يكتشف أمرها، التصقت بالجدار، إلَّا أنَّ الشابّ كان ينظر متَّقد الوجه وبعدائيَّة، لا تخفى على أحد، في اتِّجاه المنصَّة، وقد أطبق فكَّيه وثبَّت عينيه على متحدِّث واحد لا غير، ألَا وهو آزور.

بعد أن اتَّخذت شيرين مجلسها مجدَّدًا، تقدَّم الفتى إلى أمام من فوره سالكًا طريقًا متعرِّجًا وسط الجمهور، وتوقَّف قرب شيرين ومال إلى أمام عندما طلب الميكروفون. لم تفهم بيري ما جرى بينهما، إلَّا أنَّها تمكَّنت من رؤية شيرين قد تخشَّب ظهرها بعد أن أمسك الشابُّ لاقطة الصوت، والتفت نحو المتحدِّثين، وخاطبهم بصوت هادر يصل إلى حدَّ الزعيق:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لديَّ سؤال موجَّه إلى الأستاذ آزور!

اكفهرَّ وجه آزور الذي أومأ برأسه إيماءةً بطيئة ومتعمَّدة موحية بأنَّه يعرف الشابّ، وقال:

ـ إنَّني أستمع إليك يا تروي!

ـ لقد كتبت أيُّها الأستاذ، في واحد من بواكير مؤلَّفاتك ـ وأعتقد أنَّه كتاب بعنوان «حطِّموا الازدواجيَّة» ـ أنَّك لن تخوض غمار أيّ جدال مع الملحدين أو المؤمنين، لكن ها أنت هنا تخوض مثل ذلك الجدال، اللهم إلَّا إذا كنتُ أنا أخاطب شخصًا آخر مستنسَخًا عنك. فما الذي تغيَّر؟ هل كنتَ على خطأ في تلك الأيَّام، أم أنَّك تقترف خطأً الآن؟

فابتسم له آزور ابتسامةً تختلف عن تلك التي وجَّهها إلى شيرين، أفصحت عن ثقة لامبالية، وقال موضحًا:

ـ يحقّ لك أن تنتقد كلماتي إذا كنت تقتبس منها اقتباسًا صادقًا وصحيحًا. فأنا لم أقل إنَّني لن أجادل الملحدين والمؤمنين، بل إنَّ ما قلته هو...

وهنا رفع حاجبَه وأضاف:

ـ هل لدى أحدكم نسخةٌ من ذلك الكتاب؟ فأنا في حاجة إلى قراءة ما كتبت.

وهنا غصَّت القاعة بالضحك.

فمدَّ مدير الندوة يده مسلِّمًا إيَّاه كتابًا. وعلى الفور، عثر آزور على الصفحة التي كان يفتِّش عنها، وقال:

ـ ها هي!

تنحنح ـ على نحو مصطنع، كما ظنَّت بيري ـ وبدأ يقرأ:

مكتبة الفكر الجديد

«إنَّ السؤال الشائع في خصوص وجود الربّ يُثير واحدةً من أكثر القضايا المملَّة، وغير المنتجة، وغير الحكيمة التي انشغل بها الأذكياء. من نَواحٍ أخرى، فقد رأينا في أغلب الأحيان أنَّ المؤمنين والملحدين، على حدٍّ سواء، ليسوا مستعدِّين للتخلِّي عن هيمنة اليقين. وما خلافُهم الظاهر سوى دائرة من العبارات المكرَّرة. كما أنَّه ليس دقيقًا وصفُ هذه المعركة، بالكلمات، بأنَّها «جدال»، ما دام المشاركون فيها، بغضّ النظر عن وجهات نظرهم، معروفين بصلابة آرائهم وشدَّةِ شكيمتهم وعنادِهم في مواقفهم. وإذا لم يكن هناك احتمال في التغيّر، فإنَّه لا توجد أرضيَّة لإجراء حوار حقيقيّ».

أتلعَ آزور عنقَه وتأمَّل في الجمهور قبل أن يغلق الكتاب، وقال مصغيًا:

ـ هل ترون؟ إنَّ المشاركة في مناظرة مفتوحة أشبهُ بالغرام.

كان صوته هادئًا، وإشارات يديه توكيديَّة وناعمة تغرِّر سامعيه، وأردف يقول:

ـ إنَّ الإنسان يصبح مختلفًا عندما تصل الأمور إلى خاتمة المطاف. لهذا السبب أيُّها الأصدقاء، إذا كنتم لا تريدون أن تتغيَّروا فلا تنهمكوا في مجالات فلسفيَّة. هذا ما قلته في الماضي، وهذا ما أقوله الآن.

وهنا صدحت القاعة بموجة من هتافات الحاضرين، فقال مدير الندوة:

ـ أعتقد أنَّ الوقت يداهمنا. سؤال أخير من المستمعين.

فنهض رجل متقدِّم في العمر، وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل لي أن أوجّه سؤالًا إلى حضرات الأساتذة إن كانت لديهم أيُّ قصيدة جيِّدة عن الربّ، سواء أكانوا يؤمنون به أم لا؟

تململ الجالسون في مقاعدهم متطلِّعين إلى الجواب.

قال الأستاذ الأوَّل في إجابته:

ـ القصائد المفضَّلة لديَّ تتغيَّر بتغيُّر الأزمان... إلَّا أنَّني في هذه اللحظة أفكِّر في بضعة أبيات من قصيدة «بروميثيوس»، للشاعر لورد بايرون:

«أيُّها الجبَّار! الذي يرى بعينيه الخالدتين

عذابات الموت

على حقيقتها المُرَّة

ليست كأشياء تحتقرها الآلهة،

ما جزاءُ رحمتك؟

معاناةٌ صامتة، وشديدة.

الصخرة والعقاب والسلسلة».

أمَّا الأستاذ الثاني، فقال:

ـ لست بحافظ جيِّد للقصائد، لكنَّني سأحاول أن أقتبس من الشاعر تي. أس. إليوت:

«كثيرون هم الذين يرغبون في رؤية أسمائهم مطبوعةً،

كثيرون هم الذين لا يقرأون سوى تقارير البشر.

كثيرة هي قراءاتُكم، وليست كلمةَ الربّ

كثير هو بناؤكم، لكنَّه ليس بيتَ الربّ».

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرَّغم من أنَّ دور آزور حان، فإنَّه التزم الهدوء لحظة قصيرة، لكنَّها بدت أطول ممَّا ينبغي لها، ثم كسر الصمت الشائع:

ـ أمَّا أنا، فالقصيدة التي سأُلقيها مأخوذةٌ من الشاعر الفارسيّ الكبير حافظ. ربَّما سأغيِّر في المفردات إلى حدٍّ ما، ما دمتم تعلمون بأنَّ كلّ عمليَّة ترجمة ما هي إلَّا خيانةُ الحبيب.

تكلَّم آزور في رقَّة بالغة دفعت بيري إلى أن تميل إلى أمام كي تسمعه. وتنبَّهت إلى أنَّ عددًا غير قليل من الحاضرين فعلوا فعلَها.

«تعلَّمت القَدْرَ الكثير من الربّ

حتى لم يعد في وسعي أن أصف نفسي

بأنَّني نصرانيٌّ أو هندوسيٌّ أو مسلمٌ أو بوذيٌّ أو يهوديٌّ

فالحقيقة تشاطرني في الكثير من الأشياء

حتى لم يعد في وسعي أن أصف نفسي

بأنَّني رجلٌ أو امرأةٌ أو ملاكٌ أو حتى روحٌ خالصةً».

رفع آزور بصره بعد أن ألقى هذه الأبيات وتفرَّس في وجوه الجمهور. صحيح أنَّه كان لا يسدِّد نظراته إلى شخص بذاته، وبدا على مسافة متساوية من معجبيه ونقَّاده، إلَّا أنَّ بيري لم تستطع في تلك اللحظة أن تحول بينها وبين الإحساس بأنَّ كلماته كانت موجَّهةً إليها.

اختلس مدير الندوة نظرةً خاطفة إلى ساعته، وأعلن:

ـ لدينا وقت نستمع فيه إلى ملاحظة واحدة وأخيرة من كلّ من المتكلِّمين الثلاثة. حضرات السادة الكرام، كيف تلخِّصون وجهات نظركم في جملة واحدة؟

فقال الأستاذ الملحد:

مكتبة الفكر الجديد

ـ سوف أكرِّر اقتباسًا واحدًا ذائعَ الصيت، وأنتهي من كلّ شيء: إنَّ الدين حكاية من حكايات الجانّ والعفاريتِ، موجَّهةٌ إلى أولئك الذين يهابون الظلامَ.

فردَّ عليه الأستاذ المؤمن قائلًا بلكنته الإيرلنديَّة التي تفخِّمُ حرف الراء:

ـ في تلك الحالة، فإنَّ الإلحاد حكاية من حكايات الجانّ والعفاريت موجَّهةٌ إلى أولئك الذين يهابون النورَ.

ثم التفتت الرؤوس في اتِّجاه آزور الذي قال مشاكسًا ومشاغبًا:

ـ الحقّ أنَّني أهوى حكايات الجانّ والعفاريت. فزميلاي هنا على قَدْر متساوٍ من الضلال. فأحدهما يروقه أن يُنكر الدينَ، والآخرُ ينكر الشكَّ، ولا يبدو أنَّهما قد فهما أنَّني بصفتي كائنًا بشريًّا بسيطًا، فأنا في حاجة إلى كلٍّ من الدين والشكّ. أيُّها السادة، إنّ اللايقين نعمة من النِّعَم، ونحن لا نستحقه وإنَّما نحتفل به. هذا هو أسلوب الطريق الثالث.

في هذه اللحظة، تدخَّل مدير الندوة قَلِقًا خشيةَ أن تشعل ملاحظةُ آزور شرارةَ نقاش جديد، وقال:

ـ هنا أودّ أن أوجِّه شكري إلى الضيوف الأكارم، وأختتم بذلك هذه الندوة.

ثم علَّق بقوله إنَّ هذه الندوة كانت مثالًا جيِّدًا جدًّا على النقاش المخلص والمفتوح من دون أيّ رقابة، وفق أفضل التقاليد المعروفة في أوكسفورد وبريطانيا.

ـ لنصفِّق جميعًا بحرارة لمتحدِّثينا جميعًا، ولا تنسوا أنَّهم الآن

مكتبة الفكر الجديد

سيوقِّعون على كتبهم التي سوف تشترونها.

فصفَّق الجمهور تصفيقًا حارًّا ومطوَّلًا، ثم اندفع أولئك الراغبون في حيازة نسخ موقَّعة من كتب الأساتذة الثلاثة، إلى منصَّة تعلوها كتبُهم، في حين اتَّجه آخرون إلى خشبة المسرح بأمل الحصول على حكمة شخصيَّة من أحد المتحدِّثين، ولبثوا في أماكنهم يتهامسون بين أنفسهم. أمَّا بقيَّة الحاضرين فقد شقُّوا طريقهم في اتِّجاه باب الخروج.

في هذه الأثناء، انتقل الأساتذة الثلاثة إلى الطاولة الجانبيَّة المخصَّصة لهم، وكانت ثمَّة وردة صفراء قد وُضعت أمام كلّ واحد من منظِّمي الندوة. خَطَتْ بيري بتؤدة وسط حشد الجمهور تسترق السمع إلى ما يدور من حديث، يمنةً ويسرةً. وقبل أن تُدفع دفعًا إلى خارج القاعة، توقَّفت والتفتت إلى الوراء كأنَّها تتمنَّى أن تجمع كلّ التفاصيل ضمن نطاق بصرها. فشاهدت مدير الندوة يحشر ملاحظاته في حقيبة يده، وشاهدت الأستاذين الأكبرَ سنًّا يتجاذبان أطراف الحديث مع قرَّائهما، كما شاهدت أيضًا صفًّا يفتقر إلى النظام من المعجبين، وقد بدأ يتشكَّل أمام آزور، إلى أن توارى عن الأنظار رويدًا رويدًا وسط الأجساد المتدافعة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الباعث على التفاؤل

إسطنبول ـ أوكسفورد ٢٠٠١

انتهى الفصل الدراسيّ الأوَّل نهايةً مشوَّشة، فقد اقتنعت بيري، التي عادت أدراجها إلى أهلها لقضاء عطلة الكريسمس، بأنَّ صحَّة والدها لم تتدهور وأنَّ انشغال أمِّها بما هو صحِّي لم ينقلب هَوَسًا. كان المنزل كلّه معبَّقًا برائحة البودرة المطهِّرة والكولونيا بعطر الليمون، وكان فوق كلّ مدفأة زيتيَّة مشعَّة ثيابٌ جافَّة منشورة عليها، بهت لونها ونقوشها لكثرة ما غُسلت، في حين تجمَّعت برك صغيرة من الماء المتجمِّع تحتها كأنَّها دموع ذُرفت على أشياء مضت.

في عشيَّة عيد رأس السنة، تجمَّعا أمام التلفاز ـ الأبُ والابنة يقضمان الكستناء المشويَّةَ وهما يشاهدان امرأة تؤدِّي وصلة من الرقص الشرقيّ ـ وهذا أسلوب منصور التقليديّ في الاحتفال بقدوم سنة جديدة. أمَّا سلمى فكانت، كدأبها، قد لزمت غرفتها منذ وقت مبكر لأداء الصلاة وليس للنوم. ولمَّا كان كلٌّ من أوميد وهاكان قد ذهبا، كلٌّ في سبيله، فلم يعد في المكان سوى الأب والابنة، كما هو عهدهما في الماضي. لم يتكلَّما كثيرًا، كأنَّ الصمت الذي عمّ بينهما له لغتُه الخاصَّة به. كانت الطقوس، الطقوسُ الخاصَّة بهما، هي التي اشتاقت إليها بيري أكثرَ من أيّ شيء آخر: النزهاتُ الطويلة بمحاذاة ساحل البحر، ولعبُ

مكتبة الفكر الجديد

النرد على منضدة اللعب إلى جانب شجرة الصبَّار القريبة من النافذة، والطبخُ.

بعد مرور أسبوع، عادت بيري إلى أوكسفورد وقرَّرت أن تبحث عن عمل لها من دون تفرُّغ له بعد أن أتت رحلتان متعاقبتان إلى إسطنبول على ميزانيَّتها.

* * *

بدأ الفصل الدراسيّ الربيعيّ مفعمًا بآمال عريضة وقرارات جديدة. فقد طلبت بيري تحديد موعد لها لمقابلة أستاذها طلبًا لمشورة أكاديميَّة. كان الدكتور رايموند قصير القامة، قويَّ الفكَّين؛ رجلًا يضع نظّارة ذاتَ سلك معدنيّ رفيع، ويبدو مشتَّت الانتباه دومًا كأنَّه منشغل بحلٍّ معادلة تربيعيَّة في ذهنه. وكان معروفًا بتشجيعه كلَّ طالب يعمل وإيَّاه لإيجاد الجدول المثاليّ لبثّ روح التفاؤل في خبراته العقليَّة. لهذا، كان طلبة السنوات الأولى للدراسة الجامعيَّة يلقّبونه بلقب الأستاذ «الباعث على التفاؤل».

تحدَّث الدكتور رايموند وبيري مطوَّلًا عن المنهاج الدراسيّ الذي يتعيَّن عليها أن تتلقَّاه في سنتها الدراسيَّة الثانية، غير أنَّه لم تكن ثمَّة مرونة واسعة في المنهاج لأنَّ البرنامج كان مُعَدًّا أساسًا، فلا يجوز إجراء أيّ تغييرات إلَّا بالقدر اليسير.

قالت بيري في حيويَّة ونشاط:

ـ ثمَّة منهاج دراسيّ أتمنَّى أن ألتحق به، فالجميع يردِّد أنَّه منهاج رائع. حسنًا، ليس الجميع، بل فقط إحدى صديقاتي قالت لي ذلك.

فسألها الدكتور رايموند وهو يخلع نظَّارته.

مكتبة الفكر الجديد

ـ وما هذا المنهاج الدراسيّ؟

كان الدكتور رايموند قد رأى على مدى سنوات، مرّة تلو الأخرى، الطلّابَ وهم يضلّلون بعضهم بعضًا. فالمنهاج الذي يصلح لأحد الطلبة قد يتسبَّب بتعاسة طالب آخر. علاوة على ذلك، كان الدكتور رايموند يرى أنَّ للطلبة مَيْلًا إلى تغيير آرائهم بقدر ما يغيِّرون أفضل خمس أغنيات. والمنهاج الدراسيّ الذي يتوجَّهون إليه في غبطة وحبور في مطلع الفصل الدراسيّ، يُشبعونه نقدًا وتعنيفًا في نهاية المطاف. وفي السنوات الثلاث والعشرين التي أمضاها زميلًا في التدريس في الكلّيَّة، توصَّل إلى نتيجة مفادُها أنَّه يُستحسن عدمُ إعطاء الطلبة خياراتٍ أكثرَ ممَّا ينبغي لهم، لأنَّ الخيار والتشوُّش توأمان لا ينفصلان.

لم تتنبَّه بيري إلى الأفكار التي كانت تدور في رأس أستاذها، فاسترسلت في الكلام:

ـ المنهاج يخصّ موضوع الربّ. أمَّا اسم الأستاذ فهو آزور. هل تعرفه؟

افترّ ثغر الدكتور رايموند عن ابتسامة ودّ إلى أن تهدَّلت شفته السفلى على نحو غير محسوس، غير أنَّ رعشة بسيطة استبدَّت بأحد حاجبيه كشفت عن انزعاجه.

ـ آه، أعرفه. ومن ذا الذي لا يعرفه؟

تسارع ذهن بيري وهي تحاول أن تفكِّك نبرة الملاحظة البسيطة على ما يبدو. لقد بدأت تُدرك أنَّ للإنكليز أسلوبًا غير مباشر في التعبير عن أفكارهم. وبخلاف الأتراك، فهم لا يعبِّرون عن الامتعاض بالامتعاض، ولا عن الغضب بالغضب المزدوج. لا، فهنالك طبقات في الحديث: إذْ يمكن التعبير عن أعمق درجات الانزعاج بابتسامة متحفِّظة.

مكتبة الفكر الجديد

كما أن الإنكليز يجاملون[1] عندما يريدون أن يشجبوا، وهم يغلِّفون نقدهم بإطراء مستغلَف غير مفهوم. فكَّرت بيري في نفسها: «لو كنت مغنِّيةً بائسة على خشبة المسرح، لقذفوا عليَّ أغصان شجرة الآس البرِّي كثيرةَ الشوك في تركيا، ولرموا عليَّ الزهور في إنكلترا، وهم واثقون بأنّه ستصل إليَّ رسالة من الأشواك. إنَّهما أسلوبان مختلفان الاختلافَ كلّه».

في هذه الأثناء، تريَّث الدكتور رايموند متأمِّلًا كيفيَّة معالجة قضيَّة بالغة الدقَّة. وحين تكلَّم من جديد، وضّح مخارج حروف كلّ كلمة من كلماته، مثل أب يشرح لطفل متجهِّم الوجه حقيقةً من حقائق الحياة غيرَ مرغوب فيها:

ـ إنَّني لست مقتنعًا اقتناعًا كاملًا بأنَّ هذا المنهاج سيكون الخيار الصحيح لك.

ـ غير أنَّك ذكرت أنَّ في وسعي أن أختار موضوعًا مثيرًا للاهتمام ما دام مدوَّنًا في قائمة الخيارات، وهذا الموضوع مدوَّن. وقد تأكَّدت من ذلك.

ـ لعلَّ في إمكانك أن تخبريني بسبب رغبتك في دراسة هذا المنهاج.

ـ إنَّ الموضوع... مهمّ لي لأسباب أُسريَّة.

---

(١) في النصِّ الإنكليزيّ الذي نعرِّب عنه، ترد كلمة complemented، ومعناها، كما لا يخفى على أحد، هو «أكمل» أو «أتمّ»، وهي لا معنى لها في هذا السياق. والواضح أنَّ المراد هو كلمة complimented، التي تعني يمدح أو يُطري أو يجامل، وهو المطلوب في هذا السياق. لذا، استخدمنا «يجاملون» بدلًا من «يكملون» لتقويم النصّ وتصحيح الخطأ في الطبعة الإنكليزيَّة من هذه الرواية (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ أسباب أسريَّة؟

ـ كان موضوع الربّ دومًا قضيَّةً مثار خلاف في بيتنا؛ أو الدين على وجه الدقَّة. فأبي وأمِّي يحملان وجهتَيْ نظر متباينتين، وأنا أريد دراسته دراسةً صحيحة.

تنحنح الدكتور رايموند وأضاف:

ـ إنَّنا محظوظان لامتلاكنا واحدةً من أكبر مجموعات الكتب عن هذا الموضوع، وفي ميسورك أن تقرئي عن الربِّ بقدر ما تشائين.

ـ أَلَا يُستحسن أن أقرأ ذلك بإشراف أحد الأساتذة؟

كان سؤال بيري من الأسئلة التي آثر الدكتور رايموند ألَّا يُجيب عنها، ولم يجب، بل قال:

ـ آزور واسع المعرفة. هذا أمر مؤكَّد. لكنَّني يجب أن أُحذِّرك من أنَّ طريقته في التدريس خارجة عن العرف والتقاليد، وهي طريقة لا تصيب النجاح مع كلّ طالب. فهذا الفصل الدراسيّ يقسم الطلبة إلى قسمين: قسم يستمتع به؛ وقسم آخر تزداد تعاسته وكآبته إلى حدٍّ كبير، فيأتي طلَّابه إليَّ متذمِّرين.

لبثت بيري ساكنة في جلستها، فقد شحذ افتقار أستاذها إلى التحمُّس حبَّ الفضول لديها، فأصبحت الآن أكثر توقًا إلى دراسة المنهاج.

ـ تذكَّري أنَّه فصل صغير الحجم، إذْ إنَّ آزور لا يقبل إلَّا عددًا قليلًا من الطَّلَبَة، ويتوقَّع منهم إكمال منهاج المحاضرات والدروس كلّها، وذلك يتطلَّب جهدًا كبيرًا.

فقالت بيري:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنّني لا أنأى بنفسي عن العمل المجهد.

تنهّد الدكتور رايموند تنهيدة مسموعة وأضاف:

ـ حسنًا، في أيّ حال، اذهبي وكلِّمي آزور واطلبي منه أن يطلعك على تفاصيل المنهاج.

ولم يتمكّن من الحيلولة دون إضافة عبارة أخرى:

ـ هذا إن كانت لديه أيُّ تفاصيل.

ـ ماذا تعني أيُّها الأستاذ؟

تريَّث الدكتور رايموند، وبانت على قَسَمات وجهه البشوش عادةً ملامحُ القلق، ثم أقدم على فعل شيء لم يفعله طوال سني تدريسه في أوكسفورد، إذْ بدأ يتكلَّم إلى طالبة كلامًا سلبيًّا عن زميل له من وراء ظهره:

ـ انظري! يعتقد الناس هنا أنَّ آزور غريب الأطوار. فهو يظنّ نفسه عبقريًّا، والعباقرة يعتقدون أنَّ قوانين عامَّة الناس لا تحكمهم ولا تنطبق عليهم.

فشهقت بيري وقالت:

ـ آه، لكن هل هذا صحيح؟

ـ ما الصحيح؟

ـ هل هو عبقري؟

أدرك الدكتور رايموند أنَّ سخريَّته قد أثارت ردَّةَ فعل معاكسةً، وأنَّ كلّ ما سيقوله بعد الآن قد يحشره أكثر في الزاوية. فتغيَّرت ملامح وجهه الرزينةُ إلى ملامح تنمُّ عن جذل وخلوٍّ من الهموم، وقال:

ـ كان القصد على سبيل الدعابة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ نكتة؟ فهمت. . .

فقال الدكتور رايموند مُعيدًا نظَّارتَه فوق أنفه ومنهيًا بذلك النقاش:

ـ تمهَّلي ولا تتعجَّلي. تأكَّدي من مشاعرك أوَّل الأمر. وإذا ما ساورك أيُّ شكّ، فما عليك إلَّا أن توافيني وتحدِّثيني، وسنتمكَّن من إيجاد خيار آخر بكلٍّ سهولة؛ منهاج يناسبك أكثر.

وثبت بيري على قدميها بعد أن سمعت ما أرادت أن تسمعه:

ـ عظيم، شكرًا لك أيُّها الأستاذ!

بعد أن انصرفت بيري، التوت شفتا أستاذها إلى أسفل متأمِّلًا ومفكِّرًا. وأطبق فكَّيه أكثر من ذي قبل، وانتفخ منخرا أنفه، ووضع أصابعه تحت ذقنه، ولبث ساكنًا في كرسيِّه. وأخيرًا، هزّ كتفيه، مُقرًّا بأنَّه فعل ما في وسعه، وإذا أقدمت تلك البنت الغبيَّة على ما لا طاقة لها به فلا يمكنها سوى أن تلوم نفسها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الشباب

إسطنبول ـ ٢٠١٦

مالت دينيز الواقفة وراء كرسيّ بيري، وطبعت على وجنتها قبلةً عجلى، وهمست في أذن أمها:

ـ أريد أن أذهب يا أمَّاه.

سقط ضوء ثريّا المورانو على وجهها، وصديقتها إلى جانبها تبرم خصلة شعر من حول إصبعها. بدت المراهقتان ضَجِرتين، إذ إنَّ القَدْر الكبير ممَّا كانتا تتطلَّعان إليه في عالم البالغين وجدتاه، كما يبدو، مثيرًا للسأم، وربَّما متوقَّعًا.

أضافت دينيز:

ـ سوف يقلّنا سليم إلى المنزل.

لم تكن تطلب من والدتها الإذن، وإنَّما كانت تُبْلغها فحسب. كانت الفتاة الأخرى قادمة معها؛ ضيفةً تنام في الدقيقة الأخيرة. كانتا قد رسمتا خططهما، فربَّما تبقيان مستيقظتين حتى ساعة متأخِّرة من الليل، تستمعان إلى الموسيقى وترسلان الرسائل النصِّيَّة إلى صديقتهما، وتأكلان أكلات منتصف الليل الخفيفة، وتضحكان من صور الناس في الإنستغرام. ومع هذا، فإنَّ دينيز سوف تتذمَّر، إذ تراكمت في صدرها مجموعةٌ من المشاغل كأنَّه معسكرُ اعتقال تعيش فيه، وليس منزلَ أبويها المحبوبين.

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري:

ـ حسنًا يا حبيبتي.

كانت تُولي ثقتَها سائقَ زوجها سليم الذي لازم الأسرة منذ سنوات طويلة. وأضافت:

ـ يمكنك الذهاب مبكرًا، ولن أتأخَّر أنا ووالدك.

ابتسم الضيوف وجال بعضهم ببصره، فمثل هذا الحديث مألوف لكلٍّ من لديه أبناء في سنِّ المراهقة.

لوَّحت مديرة العلاقات من مكانها في الركن:

ـ تشاو أيَّتها البنتان.

قالت بيري وهي تدفع كرسيَّها إلى الوراء:

ـ سأصحبكما إلى الخارج.

أمَّا عدنان، فنهض واقفًا على قدميه وقال:

ـ لا، لا تخرجي يا عزيزتي، فسوف أصطحبهما أنا.

أشرقت عيناه عندما التقت نظراتهما، ولم يبدُ أنَّه منزعج بشأن الصورة بعد الآن، فقد أهمل الموضوع، وهو ما يعرف كيف يداريه ويترك الأمورَ وشأنها، على العكس من بيري. وابتسم لها ابتسامة عفويَّة؛ ابتسامةً كانت تعني أنَّه يتحمَّل المسؤوليَّة ويضع الأمور في نصابها. كان عدنان رجلًا يستمتع بحلِّ المشكلات. وهو رجل هادئ ومتَّزن، لا يفقد رباطة جأشه أبدًا. وإذا لم يستطع حلّ المشكلات، فإنَّه يعرف كيف يعالجها. إنَّه يختلف الاختلافَ كلَّه عن بيري التي ترى في المشكلات عضَّاتِ حشرات، فتظلّ تحكّ وتحكّ باستمرار، فلا تتركها تتماثل إلى الشفاء ولا تدعها وشأنها. أمَّا هو، فكان يهوى معالجة الكسور والناس المصابين بقلوب محطَّمة. فكَّرت بيري: كيف يمكن

مكتبة الفكر الجديد

توضيح انجذابه إلى عدم الاستقرار، وكيف يمكن تفسير انجذابه إليَّ بغير ذلك؟

نهضت بيري واقفة على قدميها لدى اجتياز زوجها وابنتها لها، فقبَّلت شفتَي عدنان حتى وإن كانت تعلم بأنَّ بعض الضيوف سينظر إلى ذلك على أنَّه ليس من ضرورات اللباقة، في حين ينظر إليه آخرون على أنَّه سلوك غير لائق.

ـ شكرًا يا حبيبي.

عندما كانت توجِّه إليه أحيانًا كلماتِ الشكر والعرفان لإنجازه بعضَ الأعمال الصغيرة في الحياة، كان الإحساس يراودها بأنَّها تشكره على أعمال أكبرَ يُستحسن عدمُ الإفصاح عنها. نعم، إنَّها ممتنَّة له؛ ممتنَّةٌ للقَدَر الذي أتى به إليها. لكن، مرَّة أخرى، كانت تعلم بأنَّ الامتنان ليس حبًّا.

ـ أَصغي إليَّ يا ماوس. ثمَّة نمطان من الرجال: يتمثَّل الأوَّل في أولئك الذين يحطِّمون القلوب، والثاني في الذين يبثُّون فيها الأمل. ونحن نُغْرَم بالنمط الأوَّل. لكنَّنا نتزوَّج بالنمط الثاني. كانت تكره أن تفكِّر في أنَّ الحياة، حياتَها، برهنت على صحَّة نظريَّة شيرين.

ابتسمت بيري لابنتها ابتسامةً فاضت فيها عيناها حبًّا ومودَّةً. كانت توشك أن تعانق دينيز، إلَّا أنَّ أمارات الابنة كانت تقول: لا، يا أمِّي، ليس أمام هذا الحشد.

فقالت بيري بهدوء:

ـ أحبِّك.

تريَّثت دينيز برهة وجيزة وقالت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ وأنا أيضًا أحبّك. كيف حال يدك؟

قلبت بيري الضماد فوجدته جافًّا عند الحافَّات، فقالت:

ـ لا بأس، سيتماثل إلى الشفاء غدًا، وكأنَّه لم يكن جرحًا.

فهمت دينيز، كأنَّها هي الأمُّ القلقة، وكأنَّ بيري هي الابنةُ الصعبةُ المراس:

ـ حسبك ألَّا تفعلي ذلك مجدَّدًا.

ثم التفتت إلى الضيوف وقالت بحبور:

ـ طابت ليلتُكم جميعًا. لا تدخِّنوا، وتذكَّروا أنَّ التدخين يُضِرّ بصحَّتكم.

فندَّ عن الحاضرين صوتٌ واحد:

ـ طابت ليلتُك.

قالت زوجة رجل الأعمال بعد انصراف الفتاتين:

ـ آه، يا للشباب. يا ليتني أستطيع أن أُعيد أيَّام الشباب وأرجعَ بالزمن إلى الوراء. العامُ الستُّون هو العامُ الأربعون الجديد... يا لها من كذبة.

قال رجل الأعمال لزوجته:

ـ تكلَّمي عن نفسك، فأنا شابّ فتيٌّ مثل قطعة نقد صُكَّت حديثًا. تنبَّهي لكلامك، فقد أطلِّقك وأتزوَّج بعارضة أزياء شابَّة.

فضحك الصحافيّ ضحكةً مصطنعة، وقال:

ـ أعتقد أنَّ الشيخوخة المبكرة ظاهرة من ظواهر المجتمعات الشرقيَّة. انظروا إلى الغربيِّين. كلّ التجاعيد والشعر الأشيب لا تزال تستمتع بالسياحة خارج البلاد. ولا يسبِّب الحرج أن نرى العجائز الأميركيَّات يحتشدن من

مكتبة الفكر الجديد

حول الحاجَّة صوفيا[1] ويثبنَ من فوق صخور أفسس[2]. ماذا يُسمّين أنفسهنَّ؟ نمورًا رماديَّة؟ ما زلت أنتظر مشاهدة امرأة شرق أوسطيَّة في السبعين من عمرها تجوب أنحاء العالم. أتراك وعرب وإيرانيُّون وباكستانيُّون. . . لدينا أفكار عظيمة عن العالم، لكنَّنا لا نراها!

حدّق المهندس المعماريّ إليه بانشداه، وهو الذي كان يُظهر حساسيَّة قوميَّة طوال المساء.

وهنا رفعت زوجة رجل الأعمال رأسها وانفرجت أساريرها وهي منشغلة بغتة بإرسال رسالة نصِّيَّة من هاتفها الخلويّ، وهتفت:

ـ نبأ سارٌّ أيُّها الحاضرون. الوسيط الروحانيّ على بعد عشر دقائق من هنا، وصلت إليَّ رسالته الآن.

قالت مديرة العلاقات العامَّة متَّكئة على كرسيِّها:

ـ رائع! لدينا كثير من الأسئلة لطرحها عليه. لقد مضت الفتاتان الصغيرتان في سبيلهما، وجُدِّدَت مشروباتُنا، وفي وسعنا الآن أن نتكلَّم كلامًا بذيئًا، فأنا أودّ أن أبوح ببعض الأسرار في هذه الليلة.

بعد أن تفوَّهت المرأة بهذه العبارات، غمزت بيري، فكانت إشارة من غير جواب.

* * *

---

(١) المقصود، كما هو واضح، كنيسة آيا صوفيا التي بناها يوستينيانوس الأوَّل البيزنطيّ في سنة ٥٣٢ م، وحوَّلها محمَّد الثاني العثمانيّ إلى جامع (١٤٥٣) وأصبحت متحفًا في سنة ١٩٣٥. تُعَدّ من أروع نماذج الفنّ المعماريّ البيزنطيّ (المترجم).

(٢) أفسس (Ephesus): مدينة قديمة في آسيا الصغرى على بحر إيجه. أنقاضها قرب سلجوق التركيَّة. اشتُهرت بهيكل أرطميس، إحدى عجائب الدنيا في العالم القديم، وهي من عواصم المسيحيَّة في القرون الأولى (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الغريبة النابضة بالحياة

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

احتارت بيري في أيّ مكان تبحث عن عمل، وهي التي لم يسبق لها أن عملت في أيّ وظيفة من قبلُ. ومع هذا، فقد صمَّمت على إيجاد وظيفة ما على الرَّغم من كثرة متطلِّبات جدول أعمالها، فضلًا عن أنَّ تأشيرة دخولها بصفتها طالبة لا تسمح لها إلَّا بعدد قليل من ساعات العمل أسبوعيًّا. لهذا السبب، توجَّهت إلى صديقتها التي تفيض حيويَّةً ونشاطًا، والتي تملك فكرة عن كلّ شيء، وضمنها القضايا التي لا تعلم شيئًا عنها.

فأدلت شيرين برأيها قائلة:

ـ يجب أن تكون لديك سيرة ذاتيَّة توضح تجاربك السابقة في العمل.

ـ لكنَّني لا أملك أيّ تجربة سابقة.

ـ اختلقي! فمن الذي سيدقِّق إن كنت اشتغلت نادلة في مطعم بيتزا في إسطنبول؟

ـ أتريدين منِّي أن أكذب؟

جالت شيرين ببصرها وقالت:

ـ آهٍ من سطوة المعاني. كلامك فظيع عندما تتحدَّثين بهذا المعنى.

مكتبة الفكر الجديد

استعملي خيالك! هذا كلّ ما أقوله لك، فالأمر يبدو كوضع مساحيق التجميل على سيرتك. لا تقولي إنَّك ضدَّ استخدام هذه المساحيق.

لبثتِ المرأتان تحدِّق إحداهما إلى الأخرى، واحدةٌ تملأ وجهَها مساحيقُ التجميل، والأخرى من دونها. وهنا خرقت شيرين الصمت قائلة:

ـ أعتقد أنَّه يُستحسن أن أمدّ لك يد العون.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، عثرت بيري على مظروف دُفع من تحت باب غرفتها. الواضح أنَّ شيرين أعدَّت لها سيرة ذاتيَّة.

بعد مرور دقيقة واحدة، كانت بيري تقرع باب غرفة صديقتها، وفي اللحظة التي ترامى إلى أذنيها صوتٌ واهٍ منبعثٌ من الداخل، اندفعت ملوِّحةً بورقة في يدها قائلةً:

ـ ما هذا؟ إنَّني لم أعمل في أيّ من هذه الأعمال.

فجاءها صوت شيرين قادمًا من تحت وسادة، وهي على السرير:

ـ كنت أعلم بأنَّه لا سبيل إلى ردِّ المعروف.

فقالت بيري:

ـ إنَّني أقدِّر لك مساعدتَك، لكنَّ السيرة تقول إنّني اشتغلت ساقية في حانة أنيقة في إسطنبول إلى أن شبَّت فيها النيران والتهمتها من جرَّاء هجوم متعمَّد! وإنَّني اشتغلت في مكتبة مخطوطات عثمانيَّة متخصِّصة بمهرِّجي القصر وخِصْيَتِه. آه أمرٌ آخر. إنَّني كنت في فصول الصيف أعتني بأخطبوط في معرض خاصّ بالأحياء المائيَّة.

جلست شيرين في فراشها وهي مرتدية منامتها الورديَّة بلون سمك السلمون، ونحَّت عصابة عينيها جانبًا وضحكت قائلة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ كان في وسعي أن أسترسل في النقطة الأخيرة.

ـ النقطة الأخيرة وحدها؟ كيف تظنِّين أنَّ هذا الكلام، الذي لا معنى له، سوف يساعدني في إيجاد عمل موقَّت؟

ـ إنَّه لن يساعدك، لكنَّه سيجعل منك تحفةً غريبة. ثقي بي، إنَّ البريطانيين تثيرهم الثقافات المتعدِّدة؛ ليس الكثير منها، بل القليل. الناس، مثلي ومثلك، مسموح لهم بأن يكونوا غريبي الأطوار إلى حدٍّ ما. ونصبح بذلك محطَّ الأنظار. لهذا، يمكنك المبالغة والاستفادة من ذلك. وإذا لم يحقِّق الأجانب الإثارة، ويقدِّموا الطعام اللذيذ، فمن ذا الذي يريد منهم البقاءَ في إنكلترا؟

لزمت بيري الصمت.

ـ أَصغي إليّ! ما الذي يعرفه المواطن الإنكليزيّ الاعتياديّ عن بلدك في رأيك؟ إنَّهم يظنُّون أنَّ كلّ فرد هناك إمَّا منشغل بالسباحة مع الدلافين، وإمَّا يأكل الحبَّار، وإمَّا يُنشد الأناشيد الإسلاميَّة، وإمَّا أنَّ النساء مبرقعات.

رمشت عينا بيري في حين ملأت رأسَها صورٌ متتالية.

ـ أقول إنَّهم إمَّا لديهم انطباعات مشرقة ـ شواطئُ رمليَّة وضيافةٌ شرقيَّة وما أشبه وإمَّا انطباعاتٌ توقع الكآبةَ في النفس ـ متشدِّدون إسلاميُّون ووحشيَّةُ رجال الشرطة وقطارُ منتصف الليل. وإذا أرادوا أن يكونوا لطيفين معك، فإنَّهم يطرحون الملاحظة الأولى. أمَّا إذا أرادوا تحدِّيك، فإنَّهم يطرحون الملاحظة الثانية. كما أنَّ أكثرهم تعليمًا وثقافة لا يمتلكون حصانة تحول بينهم وبين استخدام التعابير المبتذلة.

نهضت شيرين لتغسل وجهها في المغسلة المستندة إلى الجدار، وأضافت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ شئتِ أم أبيت أيَّتها الأختُ، فإنَّ ما ينطق به لساني يمثِّل الحقيقة الصعبة والباردة. لا بدَّ لك من الوقوف ضدّ النماذج النمطيَّة.

فنظرت بيري نظرة خاطفة إلى ورقة السيرة الذاتيَّة التي تمسك بها، وقالت:

ـ وهذه هي الطريقة لتحقيق ذلك، باللجوء إلى الكذب؟

فقالت شيرين وهي تخلِّل أصابعهَا في شعرها بينما علقت بضع قطرات من الماء على ذقنها:

ـ هذه هي إحدى الطرائق.

خرجت بيري إلى الشارع مثقلةً بالذنب، وحاملةً ورقةَ السيرة الذاتيَّة، فبحثتْ أوَّلَ الأمر عن علامات ملصقة على واجهات المحال تقول: «مساعدة مطلوبة»، لكنَّها لم تعثر على شيء، ثم استجمعت شجاعتها ودلفت إلى دكَّان يبيع الحلوى وكلَّمت مديره، فرفض طلبها بأدب جمّ. فحاولت أن تجرِّب حظَّها في حانة سبق لها أن ارتادتها برفقة والديها، إلَّا أنَّ النتيجة لم تختلف عن محاولتها الأولى أمَّا المكان الثالث الذي لجأت إليه فكان مكتبتَها المفضَّلة ـ «نوعان من الذكاء» ـ ولم تستبدّ الدهشة بمالكي المكتبة عندما سمعا من بيري ما كانت تنشده. فالطلَّاب دائمًا يتوقَّعون بحثًا عن عمل موقَّت.

سألها الزوج:

ـ هل سبق لك أن اشتغلت في أيّ مكان يا عزيزتي؟

تردَّدت بيري:

ـ لا، لم أشتغل. لكنَّك تعرف أنَّني أعشق الكتب.

فابتسمت لها الزوجة وقالت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هذا هو يوم سعدك! كنَّا نبحث عن شخص يساعدنا في أثناء غيابنا في الأسابيع القليلة المقبلة. إنَّنا لا نعدك بالاستمرار في عملك بعد ذلك، بل ربَّما نطلب منك العمل بين حين وآخر عندما يزداد العمل. ما رأيك؟

قالت بيري غير مصدِّقة ما سمعته:

ـ عظيم!

في أثناء خروجها من المكتبة، لاحظت على أحد الرفوف كتابَ «رباعيّات عمر الخيام»؛ شاعر والدها المفضَّل. ووجدت نفسها لا تقدر على مقاومة شراء نسخة منه، وخصوصًا أنَّه يحتوي على مقدِّمة بقلم المترجم إدوارد فيتزجيرالد، ويحتشد بالصور الإيضاحيَّة. نسخة قديمة وجميلة. ولحسن الحظّ، منحها مالكا المكتبة خصمًا جيِّدًا.

بدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا خارج المكتبة، قطرات دافئة أبهجت نفسها ومزاجها، فابتسمت ووضعت السيرة الذاتيَّة داخل دفَّتَي الكتاب وألقت نظرة إلى ساعتها لتعرف الوقت. لا تزال أمامها ساعةٌ على موعد درسها المقبل. فكَّرت في أنَّ لديها ما يكفي من الوقت للذهاب والبحث عن آزور والحصولِ على مقتطفات من المنهاج المخصَّص لدراسة موضوع الربّ. تملَّكها شيءٌ من الخوف لموافاته شخصيًّا بعد كلّ الذي قالته عنه شيرين، فضلًا على مشاعرها التي اختلطت فيها العواطف عندما شاهدته في المناظرة.

لبثت منشغلة البال بالأستاذ عندما فتحت عشوائيًّا ديوانَ الشعر الذي يمثِّل الخيام نَفْسًا وروحًا:

«آه أيُّها الحبُّ أيمكننا أن نتضافرَ أنا وأنت والقدر

حتى نفهم كلَّ نظام هذه الأمور المؤسفة»

قرأت البيتين قراءةً متأنِّية وبطيئة. هل ثمَّة إشارة إلىٰ ما سيحدث مستقبلًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو هذا الشيء؟ لو رآها والدها تفتِّش عن علامة في كلمات شاعر عاش قبل زهاء ألف عام لما اغتبطَ بذلك. لم تفكِّر بيري في أنَّها تَحَدَّتْ قاعدة والدها الذهبيَّة في أخذ المشورة من الخيّام، فتمتمت في سرِّها:

ـ لهذا أعشق الشعر، كي ألمس القصائد وأراها، وأسمعها، وأشمّها، وأتذوَّقَها. إنَّ كلّ حواسِّي منشغلة الآن. ثق بي يا بابا!

لهذا السبب، حان الوقت الآن كي تلتقي الأستاذ أخيرًا، وجهًا لوجه.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

القسم الثالث

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

طائر السيسكين

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

لم تعرف بيري أين تعثر على الأستاذ آزور، فغامرت بالظنِّ أنَّ في وسعها أن تبحث عنه في كلِّيَّة اللاهوت لأنَّه لا بدَّ من أن يكون فيها ما دام يدرِّس موضوع الربّ.

كان هذا المبنى الرائعُ والبسيط، والذي يرجع إلى القرون الوسطى، أقدمَ مباني أوكسفورد المشيَّدة لأغراض التدريس وإلقاء المحاضرات. وكان، بأقواسه وأبوابه الخشبيَّة المنقوشة وأنصافِ قناطره التي تُدعَّمُ بها الجدرانُ، يشبه من مسافة بعيدة لوحةً مائيَّة بهيجة رسمها فنَّان حالمٌ أكثرَ ممَّا يشبه مأثرةً من مآثر فنّ العمارة. وثمَّة ترقُّب خامل يخيِّم على الأجواء كأنَّ الحجارة الموغلةَ في القِدَم، والمنهَكَةَ بسبب تقادم عقود زمنيَّة من الهدوء والسكينة، كانت في انتظار شيء ما، أو هذا ما بدا لبيري لدى اقترابها منه في ذلك اليوم المشهود.

شيء ما دفعها إلى الولوج داخل المبنى؛ شيء ما شاهق وروحيّ في الخطوط الساميَّة لذلك السقف الذي يرقى إلى القرن الخامس عشر والمعقودِ كالمروحة. لم يردعها أحد عن الدخول، وتبيَّن لها أنْ لا أحد في القاعة الطويلة المضاءة بنوافذ عموديَّة، باستثناء طالب جالس على الأرض، متصالب الساقين، ومستغرقٍ في قراءة كتاب من الكتب، ولدى

مكتبة الفكر الجديد

سماعه وقعَ خطوات بيري، رفع بصره إلى أعلى، فبدت قسماته مشوَّشة برهة وجيزة من تحت الضوء المائل المتسرِّب من إحدى النوافذ العالية، إلَّا أنَّ ملامحه اتَّضحت، فلاحَ ضيِّقَ الجبين، أحمرَ الشعر، يكسو النمش وجنتيه. كما اتَّضح أنَّه ذلك الفتى الذي حال دون دخول بيري القاعةَ التي كانت تجري فيها المناظرة الخاصَّة بموضوع الربّ؛ الفتى الذي انتقد الأستاذ آزور انتقادًا عنيفًا على مرأى من كلّ الحاضرين. وتذكَّرت اسمه، لا لشيء، سوى أنَّه يشبه المدينة التركيَّة القديمة تروي[1]. قالت بيري في حيطة وحذر:

ـ مرحبًا.

عَلَتْ وجهَه ابتسامةٌ تشير إلى أنَّه استدلَّ عليها، وقال:

ـ أهلًا بك.

فسألته بيري:

ـ كنتَ في مبنى المتحف في ذلك اليوم، فهل تشتغل فيه؟

ـ لا، تطوُّعًا لا أكثر، فأنا طالب متواضع من طلَّاب الدراسات الأوَّليَّة، مثلك تمامًا.

توقَّعتْ بيري، إلى حد ما، أن يوبِّخها لأنَّها انسلَّتْ خلسة إلى المناظرة، لكن يبدو أنَّه لم يتنبَّه لها آنئذٍ، كما ظنَّت، أو آثر عدم إثارة الموضوع. وعوضًا عن ذلك، راح يتجاذب وإيَّاها أطراف الحديث من غير اكتراث، سائلًا إيَّاها عن المكان الذي أتت منه، وعن موضوع دراستها.

---

(١) تروي هي طروادة أو إليون، المدينةُ القديمة في غرب تركيا، ازدهرت في الألف الثالث ق.م، وخرَّبتها حروب وزلازل عديدة أشهرها حرب أسطوريَّة شنَّها اليونانيُّون وحاصروها (١١٩٣ ق.م. ـ ١١٨٤ ق.م). تغنَّى هوميروس بمعاركها في «الإلياذة» (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ووجدتْ أنَّ في وسعها التحدُّثَ إليه، بل إنَّه يتَّصف بالكياسة بعد أن فقد أيّ صفة سلطويَّة.

قالتْ بيري عندما حلَّ السكون بينهما:

ـ إنَّني أبحث عن الأستاذ آزور. أتعلم أين مكتبه؟

لبث وجه تروي ساكنًا لحظة وجيزة، وبدا صوته عند كلامه أجوفَ مثل منطاد أخفق بعد نجاح قصير في التحليق:

ـ لن تعثري عليه هنا. فهنا مكاتب الجامعة لا غير. في أيّ حال، لماذا تبحثين عنه؟

تلعثمت بيري في الكلام، إذْ لم تتوقَّع أن يوجِّه إليها الفتى السؤال:

ـ إنَّني مهتمَّة بمنهاجه.

ـ لا تقولي إنَّك سوف تدرسين موضوع الربّ.

فسألته بيري:

ـ لماذا؟ ما وجه الخطأ في ذلك؟

فقال:

ـ كلّ شيء، فهذا الرجل ذئب في ثياب أستاذ!

ـ أَلَا يروقُ لك؟

ـ لقد طردني من منهاجه، ورفعتُ عليه قضيَّة، وسوف يمثل أمام المحكمة.

فقالت بيري:

ـ مدهش! لم أعرف أنَّ في وسع الطلَّاب القيامَ بذلك، أعني. . . يؤسفني أن أسمع أنَّ لديك مشكلة.

ردَّد تروي الكلمة باحتقار:

مكتبة الفكر الجديد

ـ مشكلة؟ آزور هو الشيطان بعينه، إنَّه مفيستوفليس. أتعلمين من هو مفيستوفليس؟

ـ بالتأكيد. إنَّه من مسرحيَّة فاوست.

بدا الفتى في دهشة تبعث على السرور لأنَّ فتاة تركيَّة تعرف شيئًا عن فاوست، فقال:

ـ انظري! أنت فتاة لطيفة كما يبدو، لكنَّك أجنبيَّة. ولا يمكنك أن تعرفي مدى جنون هذا الرجل، عليك أن تستمعي إليّ: ابتعدي عن آزور!

فقالتْ بيري وقد انحسرت العاطفة بينهما على ضآلتها:

ـ حسنًا، شكرًا لك على التحذير، لكنَّني أنا من يقرِّر ذلك بنفسي.

هزّ تروي كتفيه وقال:

ـ لا بأس، الخيار خيارك، فهو لديه حجرات في كلِّيَّته، والمدخل في أقصى شارع ميرتون. في المربَّع الأماميّ ثمَّة درج ثالث إلى جهة الشمال، وعند المدخل المفتوح، ستجدين قائمة بأسماء مكتوبة بالخطّ الأبيض على أرضيَّة سوداء.

شكرتْه بيري، وإن كانتْ في أعماقها تعتقد أنَّ الغريب في الأمر هو أنَّه كان توّاقًا إلى إرشادها إلى رجل عدّه الشيطانَ بعنيه.

* * *

كانت كلِّيَّة الأستاذ آزور تقع في نهاية زقاق قديم مرصوف بالحجارة، ومتفرِّعٍ عن هاي ستريت الذي يمكن دخوله من خلال قنطرة قوطيَّة الطراز تنسجم وإيّاه انسجامًا تامًّا، وباحةٍ حجريَّة.

عثرتْ بيري بسهولة على الدرج الذي دُوِّنتْ بالطباشير على كلا

مكتبة الفكر الجديد

جانبَي جداره الخارجيّ نتائج سباق القوارب الأخير الخاصّ بالكلّيَّة، وفوقها زوجٌ من المجاذيف المتقاطعة. وقرأت داخل البهو أسماء سُجّلت على شريط رقيق من خشب مثبت على لوح: الأستاذ تي. جيْ. باترسون. جي. أل. سبنسر؛ الأستاذ أم. ليتزينجر... والأستاذ أي. زد. آزور، على الطبقة الأولى. فما كان منها إلَّا أن شقَّت طريقها في دهليز مظلم، ضيِّق ومرصوف بالبلاط. وإلى اليمين، مدخل ذو عتبة ذاتِ زوايا مثقلة بتقادم الزمن. كان الباب مواربًا، وملصقة عليه ورقةٌ كُتب عليها:

«الأستاذ أي. زد. آزور

الدوام: الثلاثاء ١٠ ـ ١٢ صباحًا

الجمعة ٢ ـ ٤ بعد الظهر

النظريَّة: إن كان لديك استفسار فالزيارة في أثناء ساعات الدوام.

النظريَّة المضادَّة: إن كان لديك استفسار، عاجل خارج ساعات الدوام، فادخل لترى ماذا سيحدث.

اختر بعناية إن كانت النظريَّةُ أو النظريَّة المضادَّة هي التي تنطبق عليك.»

بما أنَّ اليوم لم يكن يومَ ثلاثاء ولا يومَ جمعة، فقد أدركتْ بيري أنَّه ينبغي لها أن تمضي في سبيلها وتعود في وقت آخر، بيد أنَّها تشجَّعتْ، لِما تنطوي عليه الملاحظةُ آنفة الذكر من إبهام، فطرقت على الباب، وكانت طرقتُها إشارةً بلا معنى في ضوءِ الصمت الشائع في الداخل، وشعرتْ بأنَّ المكان لا أحد فيه كي يردَّ على طرقها، فنقرتْ مجدَّدًا كي تتأكَّد، فترامى إلى أذنيها من أعماق الغرفة صوتٌ أعذب من أن يكون صوت بشر؛ صوتٌ مثير لعلَّه خنفساء تبحث عن رفيق أو فراشةٌ

مكتبة الفكر الجديد

تتحرَّر من شرنقتها. أصاختْ بيري السَّمْعَ متعمِّدةً، ومتوتِّرةَ الأعصاب، إلَّا أنَّ الصمت كان شاملًا مجدَّدًا. فاستبدَّت بها موجةٌ من الفضول، وتعطُّشٌ إلى أمور لا تصل إليها. وفي غمضة عين، قرَّرت أن تتلصَّص وتنصرف بعد ذلك بالهدوء نفسه الذي جاءت به، فدفعت الباب وفتحته بلطف، لكن صوت صرير ندّ عنه.

لم يكن هناك أيّ شيء أعدّ العدَّة للمشهد الذي كان ينتظر بيري. فمن خلال النور الزعفرانيّ المتسلِّل من النافذة الكبيرة ونصف المفتوحةِ، والمطلَّةِ على حديقة إنكليزيَّة جميلة، شاهدت أبراجًا من الكتب، وملاحظاتٍ مدوَّنةً باليد، ومخطوطاتٍ ونقوشًا. كانت الجدران تحتشد بخزَانات الكتب من الأرض إلى السقف، وعلى امتداد الغرفة وبين الرفوف المتقابلة خيوطٌ ملوَّنة كثيرة العدد، تشبه حبال الغسيل في أحياء إسطنبول الفقيرة، وعليها ملاحظات وخرائطُ مثبَّتة بملاقط غسيل. وفي الجهة المقابلة للباب، مكتبٌ قديم بأرجل تشبه المخالب وبلون زهريّ، وكلّ بوصة مغطَّاةٌ بكتب أخرى. ورأتْ قصاصاتٍ حمراءَ اللون من الورق بارزةً بين الصفحات كأنَّها ألسنة مصغَّرة ممتدَّة في حركة ساخرة إلى أمام. أمَّا الكرسيُّ ذو المرفقين والأريكةُ ومنضدة القهوة، بل حتى السجَّادةُ القرمزيَّة المُحاكة يدويًّا، فكانتْ بدورها تحتشد بمجلَّدات ومجلَّدات. لو أنَّ هناك معبدًا مخصَّصًا للكلمة المطبوعة لكان هذا هو المعبد.

إلَّا أنَّ الذي جعل بيري تجمدُ في مكانها لم يكن وفرة الكتب ولا فوضى الغرفة، بل طائر السيسكين بريشه الأخضر المصفرّ وذَنَبِه الشبيه بالشوكة، السجينُ في الداخل. لا بدَّ من أنَّه دخل الغرفة وراح يحلِّق فيها بحثًا عن الحرِّيَّة التي فَقَدَها قبل قليل. خَطَتْ بيري خطوات متمهِّلة

مكتبة الفكر الجديد

وحبستْ أنفاسها، وكوَّرتْ يديها في محاولة للقبض على الطائر الصغير بأقصى ما يمكنها من حيطة وحذر، إلَّا أنَّ الطائر الذي استبدَّ به الفزعُ من حضورها، جُنَّ جنونه، وراح يندفع اندفاعًا جنونيًّا من ركن إلى آخر، واقترب أحيانًا من النافذة المفتوحة غير أنَّه أخفق في العثور على طريق الخروج. تحرَّكتْ بيري في خفَّة ووضعتْ نسخة ديوان «رباعيّات عمر الخيَّام» على مجموعة من الكتب، وحاولتْ أن تدفع النافذة القديمة والثقيلة إلى أعلى، لكن يبدو أنَّ إطار النافذة الخشبيَّ كان عالقًا من الجانب العلويّ لأنَّها لم تستطع دفع مصراع النافذة إلى أعلى أكثرَ من ذلك. هزَّتْه بكلِّ ما أوتيتْ من قوَّة، فاندفع الطائر المذعور بسبب ما أحدثتْه من ضوضاء إلى جانبها وقذف بنفسه إلى زجاج النافذة التي كانت السماء الشاسعة تمتدّ من ورائها قريبةً وبعيدةً في آن. وارتعش بسبب الصدمة وحطَّ فوق رفٍّ قريب، فاستطاعتْ بيري بذلك أن تشاهد عينيه الشبيهتين بالخرز وهما تلمعان هلعًا. سرحتْ ببصرها إلى الطائر الرقيق متعاطفةً وإيَّاه، وأدركتْ أنَّ محنته في تلك الأجواء الغريبة مألوفةٌ تمامًا لديها.

فتَّشتْ بيري من حولها عن أداة قد تساعدها في فتح النافذة، وفي حين أخذتْ عيناها تبحثان يمنةً ويسرةً، تنبَّهت إلى رائحة لم تستطع أن تستدلّ عليها تمامًا، فقد اختلطت برائحة الكتب العفنة رائحةٌ أخرى حلوةٌ ولاذعةٌ، منبعثةٌ من عنب متعفِّن في طاس من خيزران، وكان لمعانها الخفيف يناقض الألوان الترابيَّة المهيمنة على الغرفة. وبخلاف ذلك، ثمَّة رائحة أخرى. ولم تستغرق وقتًا طويلًا حتى اكتشفت مصدرَها، إذْ رأت على حافَّة ناتئة عودَ بخور مثبَّتًا في حامل برونزيّ تشكَّلت داخله قطعةُ رماد في هيئة إصبع.

مكتبة الفكر الجديد

عثرت أيضًا على أداة معدنيَّة لفتح المظاريف الورقيَّة حافَّتُها الحادَّةُ ملائمة لخلع المسامير اللولبيَّة المثبَّتة بها النافذةُ. وبعد أن تمكَّنتْ من فتح الإطار من كلتا النهايتين، دفعته دفعة أخيرة، فانزلقت النافذة قليلًا إلى أعلى على نحو أسهل ممَّا كانتْ تتخيَّل، وكلّ ما تبقَّى أمامها الآن هو إرشادُ الطائر إلى طريق الخروج الذي بات الآن فرصةً أكبر لهروبه، فما كان منها إلَّا أن خلعتْ كنزتها الصوفيَّة وراحت تلوِّح له بها في الجوِّ.

ترامى إلى أذنيها صوتٌ من ورائها:

ـ أهذه رقصة جديدة، أم ماذا؟

جفلتْ بيري في مكانها وشهقتْ، وعندما استدارتْ شاهدتِ الأستاذ آزور يقف عند عتبة الباب، وقد أسند إحدى ذراعيه إلى إطار الباب مراقبًا إيَّاها، منفرجَ الأسارير، وكان شعره الطويل البُنِّيُّ قد اكتسى بلونٍ ذهبيٍّ مثل خيوط مذهَّبة محبوكة على تطريز غامق اللون. إلَّا أنَّ نظَّارته لم تكن على عينيه في هذا اليوم.

قالت بغير تبصُّر وهي تخطو نحوه خطوةً واحدة قبل أن تتراجع مجدَّدًا إلى الوراء:

ـ آه، آه، آه. آسفة جدًّا، فأنا حقًّا لم أقصد اقتحام المكان من دون إذن.

فسألها وقد بدا أنَّه يريد حقًّا معرفةَ السبب:

ـ لماذا اقتحمتِه إذن؟

ـ لأنَّني شاهدت هذا الطائر.

ـ أيّ طائر؟

مكتبة الفكر الجديد

أشارت إلى ناحية الشمال حيث كان الطائر قد حطَّ قبل لحظة واحدة، لكن لم يكن هناك أيّ طائر، أطمحتْ بصرَها من حولها متوتِّرةً، فرأت أنَّ الطائر قد توارى عن الأنظار من دون أن يترك أيّ أثر، وأضافت:

ـ لا بدَّ من أنَّه خرج من النافذة في أثناء كلامنا.

لبث الأستاذ واقفًا وصامتًا دقيقة كاملة، مثبِّتًا عينيه عليها وهما تكشفان عن ألفة غريبة، كأنَّها كتاب آخر سبق له أن طالعه في ما مضى من الزمان وراح يتذكَّره الآن. أخيرًا قال:

ـ على فكرة، ذلك هو العنبر.

ـ معذرة؟

أجاب:

ـ البخورُ الذي كنت تنظرين إليه. أيَّام الخميس هي العنبر، وأنا أحرق أنواعًا مختلفة في أيَّام مختلفة، أتحبِّين العنبر؟

توقَّف قلب بيري لحظة، فهي تعرف جيِّدًا قوَّة العنبر.

قال:

ـ كانت نساء روما يحملن كرات العنبر، بعضهنّ يردِّدن أنَّه يُستخدم في صنع العطور، وبعضهنَّ يؤكِّدن أنَّه يُستخدم للوقاية من سحر الساحرات.

اتَّسعت عينا بيري وارتبكت، لكنَّها لم تستطع أن تعرف سبب ذلك، أهو من تأثير تحذير الفتى تروي أم من أثر حضور آزور.

فسألها وهو يحسّ باضطرابها:

ـ لا تقولي لي إنَّك خائفة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ من العنبر؟

ـ بل من الساحرات.

ردَّت بيري بسرعة:

ـ لا بالتأكيد.

أخبرها صوت من أعماقها بأنَّ الأستاذ الذي شاهدها تتأمَّل البخور، لا بدَّ من أنَّه أُتيح له الوقت الكافي لرؤية الطائر، وقالت:

ـ مرَّة أخرى، أنا آسفة جدًّا أيُّها الأستاذ لدخولي غرفتك من غير استئذان.

فسألها آزور:

ـ كم مرَّة تعتذرين؟ مرَّتين في ثلاث دقائق. فإن كان هذا هو معدَّلك، فلا بدَّ من أنَّه أكثر ممَّا ينبغي له، أَلَا تظنِّين ذلك؟

احمرَّ وجه بيري خجلًا، فهو صادق، فقد اعتذرت على نحو مبالغ فيه: لتأخُّرها عن موعد ما؛ لترك الباب الذي كانت ممسكة به للشخص التالي قبل الأوان بلحظة واحدة؛ لمرورها من أمام شخص على الرصيف؛ لملامستها أحد المتبضِّعين بعربة تبضّعها في المتجر... كانت تقول دومًا: «معذرة».

قال آزور وهو يدفع شعره عن عينيه:

ـ اسمعي هذه النظريَّة: إنَّ الناس الذين يعتذرون من غير ضرورة ميَّالون أيضًا إلى الامتنان على نحو غير ضروريّ.

ازدردت بيري ريقها بصعوبة بالغة، وقالت:

ـ ربَّما كان هؤلاء الناس أرواحًا توَّاقة إلى المرور، ويفعلون ما في وسعهم كي يلحقوا بالآخرين، وهم يعلمون بأنَّ ثمَّة فجوة دومًا.

مكتبة الفكر الجديد

فسألها آزور:

ـ أيّ فجوة؟

أجابت بيري:

ـ مثلًا أنَّنا لامنتمون.

بيد أنَّها سرعان ما ندمت على ما تفوَّهت به، إذْ ما الذي يدفعها إلى البوح بمكنونات فؤادها ومشاعرها لهذا الرجل الذي لم يكن غريبًا فحسب، وإنَّما أيضًا كان أستاذًا بعيدًا البعدَ كلَّه عن عالمها؟

مرَّ آزور من أمام بيري وجلس وراء مكتبه، وكتب ملاحظة على قصاصة ورق وثبَّتها على حبل الغسيل فوق رأسه، وتساءل:

ـ إذن أنت قلقة خشية أن يعتقد غيرك من الطلبة أنَّك لست واحدة منهم؟ أو أنَّك تمارسين الدجل بالتظاهر بأنَّك تشبهين الكلّ؟ أتعتقدين أنَّك.... مختلفة؟ وأنَّك مُصابةٌ بمسّ؟ غريبة الأطوار؟ مجنونة؟

اعترضتْ بيري قائلة:

ـ أنا لم أقل ذلك.

كانت كلّ عضلة من عضلات جسدها متوتِّرةً، وانتظرت الضربة المقبلة. غير أنَّ الأستاذ مضى يقول متجاهلًا ردّة فعلها:

ـ أخبريني، ما الذي يجعلك تعتقدين أنَّك لا تستحقِّين أوكسفورد؟

ـ أنا لم أقل ذلك أيضًا.

في هذه اللحظة، سقطتْ أنظارها على السجَّادة القرمزيَّة التي ذكَّرتها بالسجَّاد في منزلها، وقالت وهي ترنو إلى قدميها:

ـ الناس جذوة من الذكاء في هذا المكان.

ـ وأنتِ، أَلست كذلك؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنَّني ذكيَّة، لكن ينبغي لي أن أعمل بجدّ. بقيَّة الطلبة يتأقلمون مع حياة الكلِّيَّة بسهولة، أمَّا أنا، فأجد صعوبة في ذلك.

وهنا تذكَّرت السبب الذي دفعها إلى المجيء إلى غرفته، فأضافت:

ـ الحقّ أنَّني أرغب في قراءة تفاصيل المنهاج الخاصّ بموضوع الربّ، وقد طلب منِّي الدكتور رايموند أن أكلِّمك في هذا الخصوص مباشرة.

ـ آه، دكتور رايموند!

بدا آزور كأنَّه لا يُقيم وزنًا كبيرًا لأستاذها المعنويّ ـ مستشارِها الأكاديميّ ـ لكنَّه لم يعوِّل على ذلك، بل جذب ورقة من كتاب ذي غلاف جلديّ ورنا إليها مقطِّبًا، ثم دعكها ورمى بها في سلَّة المهملات، وقال:

ـ أعتقد أنَّك تفكِّرين فيه من أجل فصل القدِّيس ميكائيل الدراسيّ في الخريف المقبل. المنهاج مزدحم وثمَّة قائمة انتظار.

لم تكن بيري تتوقَّع هذا الشيء، وبعد أن عرفتْ أنَّ المنهاج أصبح خارج متناولها ألحَّت كي تلتحق به.

غير أنَّ آزور قال عندما شاهد خيبة أملها:

ـ لكن، على الرَّغم من ذلك، فإنَّه يتعيَّن على أحد الطلبة التنصُّلُ من هذا المنهاج، ولهذا قد تصبح أمامنا فرصة.

أشرق وجه بيري وشعرتْ من وراء لهفتها بشيء من القلق، إذ فكَّرت في أنَّ الطالب المقصود بكلامه قد يكون تروي.

ـ ثمَّة فتى...

فقال آزور:

مكتبة الفكر الجديد

ـ نعم. . . إنَّه غاضب وعدائيٌّ السلوك، ومَنْ كان غاضبًا وعدائيًّا فإنَّه لا يستطيع دراسة الربّ.

شاع الصمت بينهما كأنَّه مخطوطة مفتوحة، فثبَّت آزور عينيه على بيري من خلف مكتبه، وقال:

ـ أخبريني الآن: لماذا ترغبين في الالتحاق بهذا المنهاج؟

ـ موضوع الدين في أسرتي مسبِّبٌ للنزاع والشقاق، فوالدي. . .

ـ والدك ليس هنا. أنا أوجِّه السؤال إليكِ أنتِ.

ـ حسنًا، كنت دائمًا أشعر بالتناقض في القضايا الدينيَّة، وبحبِّ الاستطلاع أيضًا. وأنا أريد أن تتوضَّح أفكاري.

فقال آزور وهو يُعيد أفكاره التي أفصح عنها في المناظرة:

ـ حبّ الاستطلاع مقدَّس، والشكّ نعمة، أمَّا بخصوص توضيح أفكارك، فأنا آخر شخص في أوكسفورد ينبغي لك أن تأتي إليه.

غرَّد طائر خارج الغرفة، ففكَّرتْ بيري إن كان ذلك هو طائر السيسكين الذي عاد إلى الطبيعة، ملاذِه، وإن كان ملاذًا خطرًا ومتوحِّشًا. وفي غمرة شرود ذهنها، لم تتنبَّه بيري إلى أنَّ الأستاذ مال إلى أمام ومدَّ يده إلى ديوان الشعر الذي وضعته فوق الكتب، ثم قال:

ـ هه: ماذا لدينا هنا؟ نسخة قديمة من «الرباعيَّات»!

وقبل أن تتمكَّن من الجواب، كان قد فتح الكتاب وعثر على سيرتها الذاتيَّة داخله.

تلعثمت في كلامها:

ـ آه. . . إنَّه فقط. . .

رمق الأستاذ الورقة التي كانت شيرين قد أعدَّتها لها بمزيج من البهجة وعدم التصديق، وسأل:

مكتبة الفكر الجديد

ـ حسنًا، حسنًا. إذن كنت مهتمَّة بأخطبوط؟

تجمَّدت بيري في مكانها، فسألها:

ـ مخلوق غريب، غاية في الذكاء، يكمن نحو ثلثي خلاياه العصبيَّة في مجسَّاته، وانا متأكِّد من أنَّك تدركين ذلك.

وافقت بيري على كلامه وهي التي لم تجد أمامها أيَّ خيار آخر.

فسألها آزور:

ـ أتظنِّين أنَّ لِأَذْرُع الأخطبوط عقولًا خاصَّة بها؟

كان ارتياح بيري كبيرًا لأنَّه لم يتوقَّع ردًّا منها، إذ مضى مسترسلًا في كلامه:

ـ اعتقد الناس على مدى عقود من الزمان أنَّ ذكاء الحيوان يزداد حدَّة كلَّما كبر حجم الحيوان نفسه، فقرنوا الذكاء بحجم الدماغ، يا له من تحيُّز جنسانيّ: فللرجال أنسجة دماغيَّة أكثر من النساء، ثم يأتي الأخطبوط الرائع الذي يفضح زيف الأسطورة بأذرعه الستّ، وليست الثماني، إذ يحسب الناس خطأً الساقين أيضًا، فإذا كانت الخطوة المقبلة في النشوء والارتقاء تكمن في شبكة معقَّدة من الأدمغة المتعدِّدة بدلًا من عقل مركزيّ واحد، كبير ومُهلهل، فماذا سيحدث عندئذٍ؟

سرتْ في أوصال بيري موجةٌ من الإثارة رغمًا عنها، فأدركت أنَّها كانت مستمتعة بالإصغاء إليه.

ـ بما أنَّ الأخطبوط يزداد ذكاءً بتقدُّم العمر، فإنَّه لو عاش زمنًا أطول لأصبح أذكى أنواع المخلوقات على وجه الأرض، إلَّا أنَّ أرسطو، أعظمَ الفلاسفة، اعتقد أنَّ الأخطبوط أخرس، فماذا يعني هذا بخصوص أرسطو؟

مكتبة الفكر الجديد

تملَّك بيري شعور غريب. فهذا النقاش، بغضّ النظر عن الوجهة التي يتَّجه إليها، فإنَّه لن يقود إلى فيلسوف أو إلى حيوان رخويّ، وإنّما إلى آزور وإليها شخصيًّا، فقالت:

ـ قد يكون أرسطو مُخطئًا، أو مُتحيِّزًا، فهو اعتقد أنَّه لا يوجد ما يُثير الاهتمام بالأخطبوط، وكان يعرف أصلًا صفاته المعروفة، ولهذا أخفق في ملاحظة الأعاجيب الكثيرة التي يملكها.

ابتسم الأستاذ، وقال وهو يرنو إلى اسمها المدوَّن على السيرة الذاتيَّة:

ـ هذا صحيح... يا بيري، إنَّ الربّ لغز يتطلَّب الاستكشاف، شأنُه شأن أخطبوط أرسطو.

ـ لكنَّه مختلف، فنحن لسنا مضطرِّين إلى الإيمان بوجود أخطبوط لأنَّنا نعلم بأنَّه موجود. أمَّا الربّ، فإنَّنا لا نتَّفق أساسًا إن كان موجودًا أو غير موجود.

قطَّب آزور جبينه وعقد حاجبيه، وقال موضحًا:

ـ إنَّ منهاجي الدراسيّ لا علاقة له بالإيمان لأنَّنا ننشد المعرفة.

ثمَّة إيمان قويّ يفصح عنه صوته؛ وتأمُّلٌ ونفاد صبر. ساور بيري الشكّ في أنَّه عندما كان يتحدَّث مع نفسه، في أثناء عمله حتى ساعة متأخِّرة من الليل، أو خلال نزهاته الصباحيَّة المشبَّعة بالندى، فإنَّما كان يستعمل تلك النبرةَ نفسَها.

ـ إنَّ المنهاج المخصَّص لدراسة موضوع الربّ يمثِّل نقطة التقاء عقول متطلِّعة إلى حبِّ الاستكشاف. فنحن نتحدَّر من مختلف الأوساط، لكنَّنا نشترك في شيء واحد أَلَا وهو روح البحث: إنَّه برنامج يتطلَّب

مكتبة الفكر الجديد

الكثير من القراءة والبحث. وأنا لا يهمّني إن كنتِ مؤمنة أو غيرَ مؤمنة، ولا يوجد في أوساط طَلَبَتِي سوى خطيئة واحدة، هي الكسل.

سألت بيري في احتراس:

ـ وماذا عن مخطَّط المنهاج الدراسيّ؟

قال آزور بصوت هادر:

ـ آه، تستفسرين عن مخطَّط المنهاج الدراسيّ المقدَّس! إنَّ الوسط الأكاديميّ يمقت الارتجال، ويجب إخبار طَلَبَة السنوات الجامعيَّة الأولى بما يتعيَّن عليهم قراءتُه أسبوعيًّا. ولا بدَّ للمرء من أن يمنحهم فرصة أَمَدُها أسبوعٌ واحد مقدَّمًا. وبخلاف ذلك، فإنَّ الذعر والهلع سوف يستبدَّان بهم!

بعد أن قال قوله، فتح دُرْجًا وأخرج منه ورقة وحشرها في داخل كتاب «الرباعيَّات»، وسلَّمه لها قائلًا:

ـ تفضَّلي إن شئت.

أمَّا سيرتها الذاتيَّة فقد احتفظ بها لنفسه.

ساور بيري الشكّ في أنَّ الوثيقة التي حشرها في الكتاب وأصبحت تحملها الآن لا تمثِّل الحقيقة، شأنُها شأن السيرة الذاتيَّة التي أعدَّتها لها شيرين.

قال آزور:

ـ قبل أن تمضي في سبيلك، قلت إنَّك مشوَّشة ومحبَّة للاستكشاف، وإنَّك على ما يبدو تزيدين في تعقيد الأمور على نفسك، وهذه هي القضايا الجوهريَّة الثلاث في دراسة نزيهة عن الربّ.

ـ أتعني التشوُّشَ وحبَّ الاستكشاف...

فأضاف آزور:

مكتبة الفكر الجديد

ـ وتعقيدَ الأمور: البعض يصف ذلك بأنَّه فوضى. مَنْ يملكْ هذه الخواصّ يَكُن في موضع جيِّد لدراسة الربّ.

ابتسمت بيري ابتسامة رقيقة وأغلقت الباب من ورائها على آزور، وهي غير متأكِّدة إن كان كلامه يعني أنَّها سوف تُقبَل في المنهاج الدراسيّ، غير أنَّها، بالرَّغم من ذلك، شعرت بضرورة توجيه الشكر إليه. وبينما هي تجتاز المبنى، التفتت ورمقته بنظرة في محاولة للعثور على النافذه التي اصطادت طائر السيسكين. ثم جالت ببصرها نحو واجهة المبنى الذي تغيَّر لونه بتأثير الجوّ حتى استقرَّ على إطار نافذة واحدة شفَّافة لاح من ورائها شبحُ الأستاذ وهو يمرّ خلفها مرورَ فكرة عابرة، لكن ربَّما لم يكن ذلك سوى خيالها.

* * *

المنهاج الدراسيّ المقدَّس

ولوج عقل الربّ/ربّ العقل

دراسات شرف في الفلسفة واللاهوت

أيَّام الخميس ٢ ـ ٤,٣٠ بعد الظهر

قاعة المحاضرات

١٠ شارع ميرتون

مواصفات المنهاج

في هذا المنهاج الذي يشتمل على دروس أسبوعيَّة، سوف نناقش قضايا متعاظمة الصلة بعدد كبير من الناس في أرجاء العالم اليوم. ويتمثَّل هدفنا في تزويد أنفسنا بالأدوات العقليَّة الضروريَّة من أجل فهم أفضل، ولتشجيع النقاش الحرّ الخالي من كلّ أساليب التعصُّب

مكتبة الفكر الجديد

والتعسُّف. ونتوقَّع من الطلبة القراءة والبحث والتبصُّر واحترام الآراء التي قد لا يتَّفقون وإيَّاها.

إنَّ هذا المنهاج الدراسيّ لا يروِّج لأيّ ديانة محدَّدة، أو يشايع أيَّ وجهة نظر معيَّنة. وسواء أكنت يهوديًّا أم هندوسيًّا أم زرادشتيًّا أم بوذيًّا أم طاويًّا أم نصرانيًّا أم مسلمًا أم بوذيًّا من التبت أم مورمونيًّا أم بهائيًّا أم لاأدريًّا أم ملحدًا أم ممارسًا معتقدات العصر الحديث، أم توشك أن تؤسِّس ديانة خاصَّة بك، فسوف يكون لك صوتٌ مساوٍ للأصوات الأخرى، وستجري في مجرى الدرس مناقشاتُنا، جالسين في شكل حلقة كي يكون كلّ واحد متساوي البعد عن المركز.

أهداف المنهاج الدراسيّ:

١ ـ نشر التقمُّص العاطفيّ والمعرفةِ والتفاهم والحكمة في القضايا ذات الصلة بمفهوم الربّ.

٢ ـ تزويد الطلبة بمجموعة كبيرة من الإجابات عن أكثر الأسئلة إلحاحًا في عصرنا.

٣ ـ تشجيع الطلبة على التفكير النقديّ والمتأنِّي في الموضوع المهمّ، لا في اللاهوت أو الفلسفة فحسب، وإنَّما في جوانب بالغة الأهمِّيَّة من علم النفس وعلم الاجتماع والسياسة والعلاقات الدوليَّة.

٤ ـ الاقتراب من المعضلات العامَّة من دون تكرار آليٍّ وافتقارٍ إلى المعلومات وتشدُّدٍ وخوف من الإساءة إلى الآخرين.

٥ ـ باختصار: التشويش والتشوُّش.

موادّ المنهاج الدراسيّ:

ستُخصَّص قوائمُ الكتب المطلوب قراءتُها، بحسب الطلبة أنفسهم

مكتبة الفكر الجديد

وعلى أساس عزمهم وإصرارهم ومثابرتهم وأدائهم الأكاديميّ. وعلى الطالب أن يكون مستعدًّا لأنْ تُخصَّص له موادُّ قد تتعارض وما يؤمن به، وأن يُبدي ملاحظاته عنها (مثلًا: قد تُخصَّص للطلبة الملحدين كتبٌ بأقلام مؤلِّفين مؤمنين، وقد يدرس الطلبة المؤمنون مؤلَّفاتِ باحثين ملحدين. . . إلخ).

ماذا تتوقَّع من هذا المنهاج الدراسيّ:

بما أنَّ الربّ هو موضوعُ درسنا الرئيسُ، فإنَّ هذا المنهاج الدراسيّ مفتوح على نهايته، فهو بلا بداية، ويُحتمل أن يكون بلا نتائج. ويتوقَّف على الطالب نفسه قدرتُه على التعلُّم من التجربة والتعمُّقِ في الإبحار.

أ ـ الغرانيق: وهم الطلبة الذين لا يقتنعون بالطيران على ارتفاعات متوسِّطة أو عاديَّة، ويهدفون إلى الارتفاع فوق الكلّ، وضمنهم أساتذتُهم، وسيطلبون قراءات إضافيَّة، ويرتابون في الأسئلة، ويطالبون بتحدِّيات عقليَّة، ويحلِّقون فوق الممرَّات الجبليَّة.

ب ـ الأبوام: وهم الطلبة المعروفون بأنَّهم ليسوا بالطموح الذي يتَّصف به الغرانيق، إلَّا أنَّهم، على الرَّغم من ذلك، مفكِّرون عباقرة. وعوضًا عن التهام مئات الصفحات، فإنَّهم يفضِّلون أن ينبشوا في المادَّة المتوافرة بين أيديهم، هادفين بذلك إلى الوصول إلى الأعماق. وسوف يُثيرون الريبة في المنهاج الدراسيّ وفي القراءات والأستاذ، بل في أنفسهم أيضًا، وسيكون إسهامهم في المجموعة هائلًا وفريدًا.

ج ـ خطاطيف الألب: لعلَّ الطلبة الذين يتَّصفون بهذا الوصف، ليسوا متحفِّزين تحفُّزَ الغرانيق، ولا أقوياءَ كالأبوام، لكنَّهم، على الرَّغم من ذلك، يحلِّقون في طيرانهم مسافات شاسعة. وسيواصلون القراءة في

مكتبة الفكر الجديد

الموضوع حتى بعد أن يكون المنهاج الدراسيّ قد انتهى بمدَّة طويلة، بل بعد تخرُّجهم بمدَّة طويلة أيضًا.

د ـ طيور أبي الحنَّاء: إنَّ الطلبة الذين يوصفون بهذا الوصف، القانعين بالنزر اليسير، والمهتمِّين بالمرتبة التي سوف يحصلون عليها أكثرَ من اهتمامهم بالتحدِّيات العقليَّة الماثلة في طريقهم، هم مخلوعو الأفئدة ومتردِّدون في تجاوز مستوى التفكير السطحيّ. ولهذا، فإنَّهم سوف يستفيدون من المنهاج الدراسيّ أقلَّ استفادة ممكنة في كلّ الأحوال.

هـ ـ قواعد السلوك الصفيَّة: إنَّ كلّ الأفكار موضعُ ترحيب شرط أن تكون مدعَّمة بالبحث والعرض الجيِّد جدًّا وانفتاحِ العقل. وبخلاف الفصول الدراسيَّة الأخرى، فإنَّ تناول الطعام في أثناء الفصل الدراسيّ لا يشكِّل مشكلة، بل إنَّ الطعام (ضمن نطاق المعقول، ومن دون مبالغة) والمشروباتِ (غيرَ الكحوليَّة لأنَّنا نريد أن تبقى عقولنا واعية) موضعُ تشجيع، ليس لأنَّها ترفع الحالة المزاجيَّة وتساعد الفكر على التركيز فحسب، بل أيضًا لأنَّه يصعب الإحساس بالعدوانيَّة تجاه شخص تشاركه في طعامه. وهكذا، عليك المشاركة في طعامك مع زملاء صفِّك، وخصوصًا أولئك الذين يعارضون أفكارك.

ولن يُسمح لك، في أيّ حال من الأحوال، بالسلوك الاستبداديّ المتنمِّر والكلام الذي ينطوي على كراهية وحقد ضدّ الطلبة الآخرين (كما لن يُسمح بذلك تجاه أستاذك، وهذا ما لا داعي لتوضيحه)، كما لن يُسمح بتقبُّل الإهانة أيضًا. إنَّ موافقتك على الالتحاق بهذا المنهاج تعني موافقتك الضمنيَّة على إعطاء حرِّيَّة الكلام الأولويَّةَ على حساب الحساسيَّات الشخصيَّة. وإذا كنت لا تقدر على الاستماع إلى

مكتبة الفكر الجديد

الأفكار المعارضة، فإنَّنا لا نستطيع أن نُجري حوارًا حرًّا. وإذا شعرت بالإساءة، وهذا من طبع البشر، فتذكَّر نصيحة الرجل العاقل: «إذا انزعجت في كلّ فركة، فكيف ستلمّع المرآة؟»[1].

إذا كنت تعتقد أنَّك تعرف كلّ ما تحتاج إلى معرفته عن الربّ، وأنَّك غير مهتمّ بحشو دماغك بمعلومات جديدة، فنرجو منك «الابتعاد عن نوري»،[2] فالوقت ثمين؛ وقتي ووقتك. فهذا المنهاج الدراسيّ خُصِّص للباحثين الذين «يرغبون في أن يكونوا مبتدئين في صباح كلّ يوم»[3]. وإذا كان هذا كلُّه يبدو مشقَّةً ورتابة أكثر ممَّا تحتمل، فعليك أن تتذكَّر أنَّ «أعلى مرحلة من النشاط يمكن أن يصل إليها البشر هي التعلُّمُ من أجل الفهم، لأنَّ الفهم يعني التحرُّر»[4].

---

(١) جلال الدين الرومي.

(٢) ديوجنييس.

(٣) إيكهارت.

(٤) سپينوزا (المؤلفة).

مكتبة الفكر الجديد

إستراتيجيَّة التسويق

إسطنبول ـ ٢٠١٦

دلفت خادمتان تحملان طبقين بلُّوريين من الكمأة بالشكولاتة، وترتديان بزَّتين سوداوين منشَّاتين وصدريَّتين بيضاوين، أنيقتين ونظيفتين.

قالت زوجة رجل الأعمال:

ـ ليجرِّب كلّ واحد أن يتناول من هذه الكمأة، فهي أطفالي الصغار!

ورد هذا في الصحف أيضًا. فقد استحوذ رجل الأعمال على مصنع شوكولاتة أصابه الإفلاس، وجعل زوجته مسؤولة عن الإنتاج والتسويق فيه ليكون تعيينه لها في موقع المسؤوليَّة ذلك هديَّةَ ذكرى سنويَّة، فما كان منها إلَّا أن غيَّرت اسم المصنع إلى «أتيليه،» وأطلقت على المنتوج عبارةَ Les Bonbons du harem، أي «حلوى الحريم» بالفرنسيَّة، ولم يتمكَّن الزبائن الأتراك من لفظ الاسم كاملًا، إلَّا أنَّ صفة الحلوى الفرنسيَّة والأوروبيَّة وغيرِ التركيَّة كانت كلّها كافية لجعل المنتج مرغوبًا فيه وعصريًّا وملائمًا لذوي الثقافة الرفيعة.

وهنا تحمَّستِ المضيفة وقالتْ:

ـ حسبكم أن تتذوَّقوا قطعة واحدة. أعتقد أنَّكم ستأكلون أصابعكم أيضًا.

مكتبة الفكر الجديد

مال الضيوف إلى أمام ليتأمَّلوا الحلوى المرتَّبة ترتيبًا أنيقًا من فوق مناديل ورقيَّة صغيرة مخرَّمة.

ـ لقد أطلقنا على هذه الحلوى أسماءَ مدن من العالم.

فالحلوى بتوتِ العلِّيق هي أمستردام، والتي تحتوي على مسحوق اللوز هي مدريد، والتي لها مذاقُ الجعة والزنجبيل هي برلين. أمَّا لندن فهي بالويسكي المعتَّقة. حين يتعلَّق الأمر بالمكوِّنات، فإنَّنا لا نبخل في شيء!

تدخَّل رجل الأعمال قائلًا:

ـ يمكنك أن تكرِّري هذا القول مرَّة أخرى! لقد ألحَّت على استخدام الجعة المعتَّقة منذ ثمانية عشر عامًا، سوف تدمِّرني!

فضحك الضيوف.

قالتِ المضيفة متجاهلةً مقاطعةَ حديثها:

ـ لم يعد اسمي هو زوجة رجل الأعمال، بل منذ الآن فصاعدًا، أنا سيِّدة أعمال عن حقّ.

فهتف الضيوف وهلَّلوا. وهنا تشجَّعتْ سيِّدة الأعمال واسترسلتْ في كلامها:

ـ أمَّا الحلوى بطعم شراب الكرز فهي البندقيَّةُ، والتي بنكهة شراب اللوز المسكر ميلانو، والتي بنكهة شراب الكونياك وثمرةِ الآلام هي زيورخ، والتي بنكهة الشامپانيا هي باريس.

فقال رجل الأعمال:

ـ أخبريهم عن إستراتيجيَّتك الخاصَّة بالتسويق.

فأوضحت سيِّدة الأعمال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لدينا صنفان من العلب. الصنفُ الأوَّل مخصَّصٌ للمدمنين على شرب الخمور، والصنفُ الثاني خاصٌّ بالممتنعين من شربها. العلبة هي نفسُها، لكنَّ المنتوج مختلف. ونحن نصدِّر إلى أوروبا وروسيا الكمأة بالكحول، أمَّا صادراتنا إلى الشرق الأوسط فتخلو منها. عمل ذكيّ، صحيح؟

فسأل الصحافي:

ـ وهل للشوكولاتة الحلال اسمٌ خاصّ بها؟

وهنا أشارت سيِّدة الأعمال إلى الطبق البلُّوريّ الثاني، وقالت:

ـ مؤكّد يا عزيزي، الشوكولاتة المصدَّرة إلى المدينة المنوَّرة محشوَّة بالتمور، وتلك المصدَّرة إلى دبي محشوَّة بكريمة جوز الهند، وتلك المصدَّرة إلى عُمان محشوَّة بالكاراميل والبندق. أمَّا الورديَّة اللون والمصنوعة بماء الورد، فهي تصدَّر إلى أصفهان.

فسألت بيري:

ـ وإسطنبول؟

أجابت سيِّدة الأعمال:

ـ هه! كيف يمكننا أن ننسى إسطنبول؟ إنَّ الحلوى الخاصَّة بإسطنبول تعتمد على نوعين مختلفين من الموادّ: كاسترد الفانيلا ومسحوق الفلفل الأسود.

وفي حين استرسل الضيوف في تجاذب أطراف الحديث والتهام الكمأة، بدأت الخادمات بتقديم المشروبات الساخنة، واختارت معظم النساء البابونج أو الشاي الأسود، في حين اختار معظم الرجال القهوة، بنوعيها الإسبريسّو والأميركانو، ولم يطلب أحد من الجالسين قهوة تركيَّة

مكتبة الفكر الجديد

باستثناء مدير صندوق المضاربات الأميركيّ الذي كان مصمِّمًا على التمسُّك بالمثل القائل «إذا كنت في روما. . .»[1]، على الرَّغم من أنَّ أهل روما في هذه الحالة تصرَّفوا كأنَّهم ليسوا في روما.

وسأل الأميركيّ متطلِّعًا إلى ما هو محلّيّ:

ـ هل يمكن لأحدكم أن يقرأ فنجاني لاحقًا؟

فردَّت سيِّدة الأعمال باللغة الإنكليزيَّة:

ـ لا تقلق، فأنت غير مضطرّ إلى الاحتفاظ بثُفل القهوة لأنَّ الوسيط الروحانيّ قادم في أيّ لحظة.

فقالت صديقة الصحافي:

ـ لا يمكنني الانتظار حتى يصل، إنَّني في حاجة إلى وقت أمضيه معه.

جالت بيري ببصرها. من حولها النساء ورعات وخائفاتٌ من الربّ ومن الأزواج والطلاق والفقر والإرهاب والزحام والعار والجنون. بيوتهنّ نظيفة لا تشوبها شائبة، وعقولهنّ مدركة ما يتوقَّعنه من المستقبل. في بواكير حيواتهنَّ، استبدلن «فنّ استرضاء الأب» بعبارة «فنّ استرضاء الزوج». واللواتي تزوَّجن منذ عهد بعيد ازدادت شجاعة أفكارهنَّ ومفاهيمهنّ وجرأتها، لكنَّهنّ، بالرَّغم من ذلك، كنَّ يعرفن متى لا يحقّ لهنّ تجاوزُ الخطّ الأحمر.

أمَّا بيري، فلم تشاطرهنّ مشاغلَهنَّ، فهي لم تستبدّ بها الخشية أبدًا

(١) لم يقل مدير صندوق المضاربات سوى نصف المثل السائر: «إذا كنت في روما، فتصرَّف كما يتصرَّف أهلها». وهذه هي الترجمة الحرفيَّة. أمَّا في اللغة العربيَّة، فيقابله: «نصف العقل مداراة الناس»، أو «إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم»، أو «دِراهِمْ ما دمتَ في دارهم» (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

من أبيها ولا من زوجها. أمَّا بخصوص الربّ، فكانت مصمِّمة على ألَّا تخشاه، وإنْ كانت علاقتها به طيِّبة جدًّا. غير أنَّ السبب الحقيقيّ الكامن وراء اضطرابها وقلقها ذو طبيعة مختلفة. السبب هو نفسها هي، كآبتُها وغموضُها، ما أشاع فيها الذعر والهلع.

قال رجل الأعمال:

ـ هه. إنَّنا لن نسمح للوسيط حافيّ بأن يختلي في جلسات خاصَّة بكلِّ النساء الفاتنات.

ثم أضاف بصوت خفيت متفوِّهًا بدعابة سمجة طعَّم فيها حديثه، وردَّ عليها الذكور بقهقهات عالية، في حين تظاهرت الإناث من الضيوف بالصمم.

تذكَّرت بيري كيف كان يسهل على شيرين السبّ والشتم علانيَّة، وتلويح يديها كأنَّها تضرب ذبابة بمذبَّة بعد أن لبثت تقلق راحتها، وتذكَّرت أنَّها كانت بدورها تسبّ وتشتم عندما كانت في أوكسفورد، وإنْ مرَّة واحدة لا أكثر، حين انزعجت من الأستاذ آزور. كم هو سهلٌ على المرء أن يكره شخصًا يحبّه!

هنا، في هذا البلد، ثمَّة ضربان من النساء: اللواتي يلجأن إلى البذاءة بتحمُّس ولا يُعرن أهمِّيَّة لقلَّة اللباقة (وهنَّ أقلِّيَّة صغيرة)، واللواتي لا يلجأن إلى مثل ذلك (وهنَّ الغالبيَّة). وتنتمي سيِّدات الطبقة الوسطى والعليا، المتحلِّقات حول مائدة العشاء، إلى المجموعة الثانية، فهنَّ لا يستنزلن اللعنات إلَّا إذا تكلَّمن باللغة الإنكليزيَّة أو الفرنسيَّة أو الألمانيَّة. صحيح أنَّه لا بأس في السَّبِّ والشتم بلغة أجنبيَّة، فبالبذاءة التي لا يحلمنَ بالتفوُّه بها بلغتهنّ الأمّ، يعمدنَ إلى التغنِّي بها بلغة أوروبيَّة من دون إحساس بالذنب. يبدو أنَّ ما لا يُقال باللغة الأمّ يسهُل قولُه بلغة

مكتبة الفكر الجديد

أخرى، فيغدو أقلَّ إساءة، مثل تلك التي تذهب إلى حفلة تنكُّريَّة وتتخلّى عن احتراسها من وراء زيِّها وقناعِها.

من جهة أخرى، كان الرجال أحرارًا في استعمال صيغ اللعن أو التجديف استعمالًا مفرطًا، وإن لم يكن دائمًا بدافع الغضب. فالشتائم تتعدَّى الفوارق الطبقيَّة، وتوحِّد الجنس الذكوريّ بروابط وثيقة، وترتبط بجنس الذكور ربطًا وثيقًا.

قالت سيِّدة الأعمال:

ـ على فكرة، ثمَّة نوعان آخران من الحلوى لم نطلق عليهما أيَّ اسم بعد. الأوَّل بنكهة نبيذ الشري والليمون. وفي هذه الليلة، أيُّها الأعزَّاء، منحتموني فكرة أن نطلق على هذا النوع اسم أوكسفورد.

بعد أن نطقت سيِّدة الأعمال بهذه العبارات، نهضت واقفة وأخذت تفتِّش في الطبقين.

ـ هه! ها هي!

ثم التقطت بإصبعها الصغيرة قطعة شوكولاتة على شكل كرة وقدَّمتها إلى بيري قائلة:

ـ تذوَّقيها!

فما كان من بيري إلَّا أن التقمتها تحت أنظار الكلّ المحدِّقة إليها، وراحت النكهات تتحلَّل وتذوب على لسانها، غير أنَّ لسعة حامضيَّة كامنة وراء عذوبتها الأوَّليَّة لسعت سقف حلقها، مغريةً ومضلِّلةً في آن، كما هي حال فصول الأستاذ آزور الدراسيَّة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

قبلة مُهلكة

أوكسفور ـ ٢٠٠١

لم تذهب بيري إلى أهلها في إجازة عيد الفصح، فقد كان عليها أن تعتاد على انقسام العام الدراسيّ إلى ثلاثة فصول في إنكلترا. وكانت العطلات الطويلة الأمد تحوِّلها عن اتِّجاهها. لم يكن السبب متمثِّلًا في عدم قدرتها على السفر إلى أهلها باستمرار، مثل بقيَّة الطلبة، ولا في أنَّها غير منشرحة وغير مُحبَّة للاستكشاف، ولهذا أحجمت عن التوغُّل في محيطها لمعرفته، وإنَّما لأنَّها كانت تشعر أيضًا بالفجوة الهائلة بين نفسها والآخرين؛ وهو شعور يزداد حدَّة في أثناء تلك الأوقات. وحين كان كلّ طالب منهمكًا في كتابة المقالات وحضور المحاضرات، كانت هي عاجزة عن مجاراة التيَّار، بيد أنَّها لم تكن تدري ماذا تفعل بنفسها في وقت كانت تتوقَّع فيه الاسترخاء والاستمتاع قليلًا.

ومع ذلك، تلقَّت في ذلك الأسبوع دعوةً غير متوقَّعة. فقد كانت لمنى ـ التي بقيت هي الأخرى في أوكسفورد، تتنقَّل من نشاط اجتماعيّ إلى آخر ـ قريبتان جاءتا من أميركا بهدف الزيارة. وكنَّ قد وضعن خططهنَّ للسفر إلى ريف مقاطعة ويلز حيث استأجرن نُزُلًا.

قالت منى:

ـ لماذا لا تأتين معنا؟ سوف تستمتعين كثيرًا، وتتنشَّقِين هواءً نقيًّا.

ملأت بيري حقيبة ثيابها بكتب أكثر من قدرتها على قراءتها في

مكتبة الفكر الجديد

أسبوع، وضمنها كتابان من تأليف الأستاذ آزور، بعد أن وافقت على السفر وإيَّاهنَّ. وخمَّنت أنَّ منى سوف تكون منشغلة معظم الوقت برفقة قريبتيها، وأنَّها ستكون وحيدة وفي رفقة الفتيات في آن معًا، غير أنَّ الوضع كان مُرْضيًا لها.

فوجئت بيري مفاجأة كبرى لمَّا شاهدت أوَّلَ مرَّة علاماتِ الطرق مكتوبةً بالويلزيَّة والإنكليزيَّة. لم يخطر في بالها حتى تلك اللحظة أنَّ هناك أكثر من لغة رسميَّة واحدة داخل البلد نفسه. ففي تركيا، لم تصادف قطّ علاماتٍ مكتوبةً بالتركيَّة والكرديَّة، وكانت شدَّة دهشتها قد دفعتها إلى التوقُّف في كلّ مرَّة لمشاهدة مثل هذه العلامات، وتصويرها.

قالت منى ضاحكة:

ـ أنت مخبولة، الطبيعة ساحرة وأنت منهمكة في التقاط صور علامات الطرق.

كانت المناظر مدهشة، حقًّا، فالأغنام ترعى الكلأ في المراعي المختلفة الألوان برفقة صغارها، والخضرة المنتشرة مرصَّعة بزهور بنفسجيَّة متباينة. خليج وجرسي وحلف المروج. واتَّضح أنَّ النُّزُل المستأجَرَ لا يعدو كونه كوخًا صغيرًا مؤطَّرًا بالخشب ومطليًّا باللون الأبيض، ويقع في أعلى الجانب الغربيّ من أحد الوديان. وكانت الشمس المذهلة تغمره في الصباح، وفي أوقات العصر يسوده سكون مطبق. وعلى مسافة بعيدة، كان نهر واي يجري كأنَّه خيط متعرِّج، يشقّ طريقه بصعوبة بين سفوح التلال.

أحبَّت بيري الكوخ وما فيه من مدفأة مصنوعة من الحديد المقوّى، وسقفٍ واطئٍ، وأخشابٍ مكدَّسة خارجه، وأرضيَّاتٍ حجريَّة، وبرودة الملاءات التي جعلتها تحسّ ببرودة الثلج عندما تخلد إلى النوم. شاركت منى في إحدى الحجرات، في حين استقلَّت القريبتان في حجرة أخرى

مكتبة الفكر الجديد

مجاورة. وعلى الرَّغم من أنَّ أقرب قرية كانت تبعد مسافة ميل واحد، فقد كان أمامهنَّ الكثير من العمل الذي يتطلَّب الإنجاز في أثناء النهار، لهذا لم يكن أمامها سوى وقت قليل للقراءة. وأخذت، وهي بنت المدينة، تراقب الطبيعة عن كثب، ببهجة غريبة، وتشاهد السحر في الأشياء الصغيرة. وساورها الإحساس بأنَّ هذا هو أهمّ شيء ـ هذه الأشياء الصغيرة تتحوَّل دائمًا إلى أفكار سلبيَّة ـ. وتخيَّلت أنَّ كارثة قد حلَّت ـ قنبلةً نوويَّة ـ وأنَّهنَّ الباقيات الوحيدات في قيد الحياة، بعيداتٌ عن مظاهر المدنيَّة. كانت تعلم بأنَّ والدتها سوف تُصدَم إذا ما رأت ابنتها تُقيم بهذا المكان: أربع بنات في وسط المجهول.

في إحدى الليالي، شاهدت منى تؤدِّي الصلاة في ركن من الأركان، وقِبلتُها مكَّةُ. لم يسبق لهما أن تحدَّثتا في الدين، إذْ تفادت الاثنتان الخوض في هذا الموضوع، ولو كانت شيرين برفقتهما لكانت قد ثارت حتمًا.

حين أطفأت منى النور، استقرَّ صمت مفاجئ في أرجاء الحجرة. تقلَّبت بيري وتململت في فراشها، وتمتمت في هدوء كأنَّها تزيل غبارًا عن ذاكرتها:

ـ حين كنت طفلة صغيرة، لسعتني نحلة على شفتي، فتورَّم فمي حتى بدا مثل منطاد ماء، وقال أبي إنَّ النحلة كانت مغرمة بي وإنَّها أرادت أن تقبِّلني، وتساءلتُ دومًا إن كانتْ تعرف أنَّها سوف تموت بعد أن تستخدم إبرتها؟ يا للغرابة: صحيح؟ إنْ كانت تعرف، ومع هذا تستخدم الإبرة. تدميرٌ ذاتيٌّ.

انقلبت منى إلى جهتها. وتحت نور القمر المتسلِّل من النافذة، بدا وجهها كأنَّه تمثال قُدَّ من صخر، وقالت:

ـ وحدهم البشر يملكون وعيًا. نظام إلٰهيّ، لهذا يجعلنا الله

مسؤولين نحن البشر عن أفعالنا.

ـ لكن، أَلَا ترين أنَّ الحيوانات لا تريد أن تموت؟ فلديها غريزة حبِّ البقاء، ولهذا تذهب وتلدغ وتلسع. لا بدَّ من أنَّها تعلم بأنَّها تنتحر بذلك. أعني، انظري إلى الطبيعة وفكِّري: كم هي رائعة وجميلة، لكنَّها في الحقيقة قاسية جدًّا.

قالت منى متنهِّدة:

ـ تذكَّري أنَّك لست حاكمة هذا العالم. الربّ هو المسؤول عن كلّ شيء، ولستِ أنتِ. كوني مؤمنة.

كيف يمكن لبيري أن تثق بنظام يحكم على النحل بالموت قبل أن يُغرَم بالحُبِّ؟ وإذا كان هذا هو النظام الإلٰهيّ الذي يتحدَّث عنه الناس، فكيف يمكن أن يصفوه بأنَّه نظام عادل ومقدَّس؟ وما لبثت أن جذبت اللحاف إلى ذقنها بعد أن شعرت بالبرد.

في تلك الليلة، صرخت بيري وتلفَّظت بكلمات في أثناء نومها، بلغة تركيَّة، بدت مثل طنين ألف نحلة تحاول التحرُّر.

استيقظت القريبتان من نومهما على صوت الضجيج، وضحكتا ملء قلبيهما من غرفتهما المجاورة. أمَّا منى، فقد جلست في فراشها مندهشة، وصلّت، ودعت الله أن يطرد أيّ شياطين تزعج صديقتها وأن يُبعدها عنها. وفي صباح اليوم التالي، عادت الفتيات إلى أوكسفورد. وكلَّما تحدَّثت بيري ومنى عن رحلتهما إلى ويلز، كان حديثهما ينطوي على ابتسامة بهيجة، وإن شعرت كلّ واحدة منهما، على نحو خاصّ بها، بأنَّ ثمَّة ما هو أدهى وأمرُّ يكمن في ثنايا تلك اللحظات المميَّزة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

صفحة بيضاء

إسطنبول ـ صيف ٢٠٠١

أمضت بيري إجازتها في إسطنبول بعد أن انتهت سنتها الدراسيَّة الأولى في أوكسفورد، وكانت والدتها تنوِّه لها بهذا الشابّ أو ذلك تنويهًا عابرًا، مستخدمة المجموعةَ نفسها من الأوصاف، وترى تعليم ابنتها بيري فاصلًا قصيرًا قبل حلول موعد زفافها أكثر ممَّا هو يقظة عقليَّة أو مقدّمةٌ لحياة عمليَّة واعدة، فذهبت إلى سبعة مزارات في هذا الشهر وحده، وأشعلت فيها الشموع، وربطت أشرطة من حرير وتمتمت بأمنيات عن زواج مقبل وسعيد لابنتها.

قالت سلمى وهي تقطع كومة من الباقلاء لإعدادها لطعام العشاء:

ـ انتقل جيران جدد إلى هنا حين كنتِ خارج البلد، أسرةٌ كريمة ونبيلة، ولديها ابنٌ، جذوةٌ من الذكاء، بهيُّ الطلعة، مستقيم الأخلاق...

فتمتمت بيري:

ـ أتعنين أنَّك عثرت على زوج مناسب لي؟

ثم جدَّلت خصلة من شعرها من حول إحدى أصابعها وجذبتها على نحو مرتبك، فلاحظت أنَّها أقصر من بقيَّة خصلاتها، واستولى عليها شكٌّ مفاجئ في أنَّ أمّها قد قصَّت خصلة من شعرها في أثناء نومها.

مكتبة الفكر الجديد

فتعكَّر مزاجها قليلًا عندما راودتها فكرة مفادها أنَّ شعرها مدفون الآن في تراب واحد من تلك المزارات برفقة نذور سلمى.

قال منصور من مكانه على الكرسيّ:

ـ اتركي الفتاة وشأنها أيَّتها المرأة، فأنت تشوِّشين فكرها، في حين ينبغي لها أن تركِّز في دروسها. إنَّنا نريد أن تحصل على شهادة الدبلوم وليس على زوج.

فقالت سلمى محتجَّة:

ـ لدى الشابّ شهادة دبلوم، وتخرَّج من الجامعة، وفي وسعهما أن يرتبطا بالخطوبة الآن، ويتزوَّجا بعد تخرُّجها. فهل لديها ما تخسره؟

قالت بيري:

ـ لن أخسر سوى حرِّيَّتي وشبابي وعقلي.

فردَّت سلمى:

ـ أنت تتحدَّثين حديثَ والدك.

ثم عادت إلى تحضير الباقلاء كأنَّها أثبتت وجهة نظرها.

ثم أُغلق الموضوع، لكن ليس لمدَّة طويلة.

* * *

خرجت بيري للتبضُّع في يوم معتدل ومنعش من أيَّام إسطنبول في أواخر الصيف. معطفٌ مطريٌّ، وزوج جديد من أحذية العدْو الرياضيَّة، وحقيبة ظهر... كان عليها أن تشتريها قبل سفرها إلى أوكسفورد. وحين ترجَّلت من الحافلة قرب ساحة تقسيم، لمحت حشدًا من الناس على الرصيف أمام مقهى يرتاده الطلَّاب، يحدِّقون من خلال الواجهة الزجاجيَّة المشرَّعة إلى التلفاز وهو يصدح من الداخل. تراقصت ظلال

مكتبة الفكر الجديد

غمرها ضوء بلون المشمش حين لامست أشعَّة الشمس ملامحهم العامَّة.

ثمَّة رجل عريض المنكبين وضع يديه على جبينه وعقد حاجبيه، وفتاة شدَّت شعرها في هيئة ذيل حصان لاح عليها الذهول، وتخشَّب بدنها. شقَّت على بيري التعابيرُ الواضحة على وجهيهما، فتقدَّمت ببطء وسط الحشد وقد استبدَّ بها حبّ الاستطلاع.

لاحظت ما كان يعرضه التلفاز: طائرة صدمت ناطحة سحاب من تحت سماء زرقاء ساطعة تكاد تغشى بصرها. أُعيد المشهد مرَّات ومرَّات كأنَّه بالتصوير البطيء وإن بدا في كلّ مرَّة مشهدًا يفتقر إلى الواقعيَّة، وارتفعت في الأجواء كتل الدخان منبعثة من المبنى، وتطايرت الأوراق من غير هدف في مهبِّ الريح.

بدأت الأشياء تسقط على الأرض، متتابعة كأنَّها مقذوفات يقذف بها منجنيق... شهقت بيري بعد أن أدركت الآن أنَّها ليست أشياء، وإنَّما بشر يرمون بأنفسهم إلى الموت.

غمغم رجل واقف إلى جانبها:

ـ أيُّها الأميركان... هذا ما يحلّ بكم عندما تتدخَّلون في ما لا يعنيكم.

وتساءلت امرأة هازَّة رأسها فتراقص قرطاها:

ـ حسنًا، إنَّهم يظنُّون أنَّهم حُكَّام على هذا العالم. صحيح؟ وها هم الآن يُدركون أنَّهم فانون، شأنهم شأننا كلُّنا.

التقت عينا بيري عينَي الفتاة ذات الشعر المصفَّف على هيئة ذيل حصان. وفي لحظة من الزمان بدت هي والفتاة وحدهما من استبدَّ بهما الحزن والذعر، وحلَّت عليهما الصدمة، إلَّا أنَّ الفتاة سرعان ما تفادت

مكتبة الفكر الجديد

ناظرَيْ بيري، ولم تمنحها سوى القليل من الألفة والمودَّة. ابتعدت بيري عن المكان بعد أن أربكها الحديث الدائر من حولها، وتفجَّر رأسها بالأسئلة، فحيثما التفتت وجدتِ الناس يفتِّشون عن نظريَّة مؤامرة يقتاتون عليها، مثل نحل يطنّ مفتِّشًا عن رحيق.

فكَّرت في نفسها: ينبغي لي أن أتَّصل بشيرين.

فاتَّصلت بها من هاتف عموميّ، إذْ كانت محتاجة إلى سماع صوت صديقتها المفعم بالثقة. ولحسن الحظّ، ردَّت صديقتها من فورها.

ـ أهلًا بك يا بيري، الفوضى تعمّ العالم، هه! ليتنا نحيا في عصر أكثر إثارة للاهتمام.

سألتها بيري:

ـ يا له من حدث فظيع، إنَّني لا أفهم شيئًا منه.

فقاطعتها شيرين وهي تكاد تصرخ:

ـ لقي أبرياء مصرعهم، لماذا؟ لأنَّ بعض الأوغاد المحرومين يعتقدون أنَّهم سيذهبون إلى الجنَّة إذا ما قتلوا باسم الربّ. سوف تزداد الأمور سوءًا، وستكونين شاهدة على ما أقول. أمَّا الآن، فإنَّ كلّ المسلمين سيتعرَّضون للسبِّ والقذف، وسيضطرّ أبرياء آخرون من كلّ الأطراف إلى المعاناة والألم.

لاحظت بيري أنَّ علكة صغيرة قد ألصقت من تحت جهاز الهاتف. عمل خبيث تافه، لكنَّه خبيث في كلّ الأحوال.

ـ فظيع! بشع! مثير للهلع، كيف يمكن لهذا الشيء أن يحدث؟

ـ حسنًا، إنَّني متأكِّدة من أنَّ الناس جميعًا سيتحدَّثون ويجادلون في هذا الموضوع، على مدى أشهر، بل سنوات. صحافيُّون وخبراء

مكتبة الفكر الجديد

وأكاديميُّون، لكن ليس ثمَّة ما يستدعي النقاش حقًّا. إنَّ الدين يغذِّي اللاتسامح، وهذا يؤدِّي إلى الكراهية، والكراهية إلى العنف. هذه هي نهاية الحكاية.

قالت بيري:

ـ لكن، أليس هذا ظلمًا؟ ثمَّة أعداد غفيرة من الناس المتمسِّكين بالدين، لكنَّهم لا يُلحقون الأذى بأحد. ليس الدين مسؤولًا عن ذلك، وإنَّما الشرّ الخالص.

ـ أتدرين يا ماوس؟ إنِّي لن أجادلك في النقاش، فأنا في هذا الوقت مشوَّشة الأفكار مثلك، وفي حاجة إلى أن أحدِّث آزور، وإلَّا فسوف يجنّ جنوني.

شعرت بيري بخضَّة في أحشائها، وسألت:

ـ هل ستوافينه؟ لكنَّ الفصل الدراسيّ لم يبدأ بعد.

ـ ثم ماذا؟ سوف أسافر إلى أوكسفورد غدًا، فأنا أعلم بأنَّه هناك، استبدلي تذكرتك ورافقيني.

قالت بيري:

ـ سوف أحاول.

لم تكن مضطرَّة إلى القول إنَّها لا تستطيع الحصول على تذكرة سفر في آخر لحظة، وحتى لو حصلت عليها، فإنَّها غير قادرة على دفع ثمنها.

وفي البيت، وجدت بيري والدها ووالدتها في ذهول يوازي ذهولها، وهما يشاهدان المشاهد نفسها تتكرَّر على شاشة التلفاز.

قال منصور:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنَّ المتشدِّدين يسيطرون على العالم.

كان منصور قد بدأ جولته الجديدة من الشراب في وقت مبكر، على غير عادته، وبدا من مظهره أنَّه قد أسرف فيه، وبدا أوَّل مرَّة في حياته متردِّدًا بشأن سفر ابنته إلى أوكسفورد، قائلًا:

ـ ربَّما ما كان ينبغي لنا أن نرسلك إلى خارج البلاد، إذ لم يعد أيّ مكان آمنًا بعد الآن. لم أعتقد أنّني سأقول هذا القول، لكن ربَّما أصبح الغرب أشدّ خطورة من الشرق.

قالت سلمى:

شرق أو غرب، ما الفارق؟ لا أحد يمكنه أن يهرب من قَدَره وقسمته، فإذا كان الله قد كتب ذلك على جبينك بحبره اللَّامرئيّ، فالأمر لا يعدو أن يكون مهمًّا، سواء أكنت هنا أم في الصين، فالموت سيأتي ويعثر عليك.

في هذه اللحظة، أمسك منصور القلم الجافّ الذي يستعمله في حلِّ الكلمات المتقاطعة، وكتب على جبينه بخطٍّ متعرِّج العددَ ١٠٠.

فسألته سلمى:

ـ ماذا تفعل؟

ـ إنَّني أغيِّر قدري! فأنا سوف أعيش ١٠٠ سنة.

لم تلبث بيري في مكانها حتى لا تسمع ردّ والدتها، فهي نافدة الصبر بسبب خصام والديها، وفي غمرة إحساس حادّ بالوحدة. دلفت إلى حجرتها وأخرجت مفكِّرتها، إلَّا أنَّها لم تتمكَّن من كتابة أيّ عبارة على الرَّغم من بذلها قصارى جهدها في تدوين شيء ما معقول. لا، ليس اليوم، فهي قد استحوذت عليها أسئلةٌ كثيرة تخصّ الدين والإيمانَ

والربَّ؛ الربَّ الذي يسمح بحدوث كلّ هذه الأعمال العدائيَّة ولا يزال يتوقَّع الطاعة.

حدَّقت إلى الصفحة التي ابتلعها الفراغ، وتساءلت في نفسها عمَّا سيقوله آزور لشيرين حين يلتقيان في مكتبه. كم ودَّت لو كان في ميسورها أن تنسلّ خلسة إلى تلك الغرفة انسلالَ طائر السيسكين وأن تسترق السمع، فهي بدورها لديها أسئلة ترغب في طرحها على الأستاذ. ربَّما كانت شيرين على حقٍّ في إصرارها، فبيري في حاجة إلى منهاج دراسيّ عن الربّ، لا من أجل اكتشاف حقائق جديدة عن الذات العليا، وإنَّما لفهم الشكوك المتأجِّجة في أعماقها.

ثم أقدمت على عمل ما من شأنها ألَّا تخبر أحدًا به:

أدَّت صلاة من أجل كلّ الناس الذين قُتلوا في البرجين التوأمين؛ صلاةً من أجل أُسرهم وأحبّائهم. وقبل أن تنتهي من أداء الصلاة، أضافت إليها دعاءً قصيرًا، تمنَّت فيه أن تحظى بالقبول في منهاج آزور الدراسيّ كي تتعلَّم الكثير من الأشياء عن الربّ، وتأمل في فهم الفوضى الضاربةِ أطنابُها داخل عقلها وخارجه.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الدائـــرة

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

في الأسبوع الأوَّل من الفصل الدراسيّ الجديد، وكان الوقت مبكرًا من عصر أحد الأيَّام، والسماءُ رائقةً مثلَ بحيرة من بحيرات القرى، استعدَّت بيري للحلقة الدراسيَّة الأولى من موضوع «ولوج عقل الربّ/ ربّ العقل»، وكانت قد عثرت قبل بضعة أيَّام على مظروف رسالة في المكان المخصَّص لها من غرفة الحارس أرسلها إليها الأستاذ آزور، ولا أحد غيره. كانت الرسالة التي في داخله مكتوبةً بخطٍّ مائل، وبعجالة، كما يظهر:

«عزيزتي الآنسة نالبانتوغلو

إذا كنت لا تزالين مهتمَّة بمنهاجي الدراسيّ، فإنَّه سيبدأ في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الخميس المقبل!

أَحضري الكهرمان معك إن كنت في حاجة إليه، لكن لا تحضري اعتذارات.

الأخطبوط ينتظرك.

أي، زد، آزور»

منذ أن وصلت إليها الرسالة، لم تسنح لها فرصة في التفكير في معرفة سبب ذهابها، وهي المنشغلة بدروسها وعملها في المكتبة، إلّا أنَّها اتَّجهت الآن إلى قاعة الحلقة الدراسيَّة ممسكةً بدفترها بقوَّة على

مكتبة الفكر الجديد

صدرها، مندهشة من مشاعر اللهفة التي ألمَّت بها.

حين دلفت إلى القاعة، أحصت في ذهنها عشرة طلبة: خمسة ذكور وخمس إناث، ووجدت في خضمّ دهشتها منى التي حيَّتها تحيَّةً تنمّ عن مفاجأتها هي الأخرى.

ألقت بيري نظرة فاحصة إلى بقيَّة الطلبة، وهضمت ابتساماتهم المرتبكةَ وطريقةَ جلوسهم متباعدين، أحدهم عن الآخر، وارتاحت إذْ وجدت أنَّها ليست الوحيدة التي بدت متوتِّرة الأعصاب.

كان بعض الطلبة مستغرقين في أفكارهم، في حين راح آخرون يثرثرون بأصوات خافتة أو يطالعون مفردات المنهاج الدراسيّ، ربَّما للمرَّة العاشرة، في حين بدا أحد الطلَّاب الذكور غافيًا، ورأسه فوق دفتر الملاحظات.

تربَّعت بيري على كرسيٍّ بالقرب من النافذة، وتفرَّست في شجرة بلُّوط كانت أوراقها الذابلة بلون الياقوت والذهب. وتساءلت في نفسها إن كان لديها متَّسع من الوقت للذهاب إلى حمَّام السيِّدات، إلَّا أنَّ خشيتها من العودة بعد أن تكون المحاضرة قد بدأت جعلتها لا تتزحزح من مقعدها. كان النهار خارج القاعة قد انقلب مكفهرًّا. وعلى الرَّغم من أنَّ الوقت كان باكورة العصر، فإنَّه بدا معتمًا كالغسق.

في تمام الساعة المحدَّدة فُتح الباب ودخل الأستاذ آزور حاملًا مجموعةً من الأضابير، وعلبةً كبيرة من أقلام التلوين، وشيئًا آخر بدا كأنَّه ساعة رمليَّة. كان يرتدي سترة زرقاء من القطيفة المضلَّعة، مزدانةً بقطعتي جلد عند المرفقين. وعلى الرَّغم من أنَّ قميصه الأبيض الأنيق جدًّا كان مكويًّا على نحو ممتاز، فإنَّ ربطة عنقه لم تكن مربوطة ربطًا محكمًا، كأنَّ السأم بلغ به مبلغًا أعجزه عن ربطها. أمَّا شعره، فكان أشعث وغير مهندم، فبدا كأنَّه كان يسير في مهبِّ ريح عاتية، إذ إنَّه كان

مكتبة الفكر الجديد

يمرِّر أصابعه فيه باستمرار.

وبسرعة السَّوْط، وضع كلَّ شيء على المنضدة، في حين وضع الساعة الرمليَّة على مِقْرأ وقلبها من فوره، فأخذت حبَّات الرمل تنزلق من الجانب العلويّ إلى الجانب السفليّ انزلاقَ حجَّاج في رحلة مقدَّسة، ثم وقف أمام السبُّورة البيضاء، فارعَ القدّ، رشيقًا، وقال بصوت أجشّ أنهى حالة الخمول التي كانت مهيمنةً داخل القاعة:

ـ مرحبًا بكم جميعًا! شالوم! سلام عليكم! ناماستي! جاي جينيدرا! سات نام سري أكا! إنَّني أتفوَّه بتحيَّاتي من دون انتظام معيَّن أو تفضيل أو أسبقيَّة، إن كنتم تتساءلون.

هتف أحدهم من مكانه:

ـ هالو!

فردَّ الآخرون مختلف التحايا، بأصوات متنافرة وضحك.

قال آزور وهو يفرك يديه:

ـ عظيم! أرى أنَّكم في منتهى الثقة، وهذه علامة تبشِّر بالخير، أو تنذر بكارثة، وسوف نرى أيّهما هي.

التمعت عيناه من وراء نظَّارته بلونيها الأسود ولون ظهر السلحفاة، كأنَّهما خرزتان لامعتان من خرز البحر. أمَّا نبرته، فكانت موجات من التحمُّس كأنَّه مستكشف عاد أدراجه في إثر رحلة استكشافيَّة من بلاد نائية، وبدأ الآن يقصّ نبأ مغامراته على أصدقائه، وهنَّأ كلَّ طالب وطالبة على امتلاك حبِّ الاستطلاع والجرأة اللذين دفعا بالطلَبَة إلى الالتحاق بهذا المنهاج. وأضاف، غامزًا بعينه، أنَّه يتوقَّع منهم أيضًا التحلِّي بقوَّة الإرادة التي تساعدهم على شقِّ طريقهم حتى بلوغهم نهايته. غير أنَّ سرعة كلامه وطلاقته أظهرتا صعوبة، إن لم يكن استحالة، لسبر غوره: متى كان يمزح ومتى كان جادًّا.

مكتبة الفكر الجديد

قال آزور:

ـ كما لاحظتم، فإنَّ عددكم هو أحد عشر. ولو كنتم عشرة لكان ذلك ممتازًا جدًّا، غير أنَّ الكمال مثير للملل.

ثم جال ببصره حوله وطقطق بلسانه، وأضاف:

ـ يمكنني أن أرى أنَّ أمامنا عملًا يجب إنجازه... لقد أبعدتم الكراسيَّ، بعضها عن بعض، كأنَّكم تخشون الإصابة بمرض ذات الرئة، وإذا كان لي أن أزعجكم قليلًا أيَّتها السيِّدات وأيُّها السادة، فهل في وسعكم الوقوف من فضلكم؟

استبدَّت الدهشة والسرور بالطلبة وامتثلوا لما طُلب منهم.

ـ يا لكم من مطيعين! وهذه أسمى فضيلة في عيني الربّ، كما يقولون. والآن هل يمكنكم إعادة ترتيب كراسيِّكم في شكل دائريّ، وهذا هو أفضل أسلوب للحديث في موضوع الربّ.

أوضح آزور قائلًا إنَّ الموضوعات المختلفة تتطلَّب ترتيبات جلوس مختلفة، فالجلوس في موضوعات تناقش السياسة يكون متفرِّقًا وغير محدَّد. وفي علم الاجتماع، يكون الجلوس على هيئة مثلَّث منتظم. وفي علم الإحصاء، يكون مستطيلًا. وفي العلاقات الدوليَّة، يجب أن يكون على هيئة متوازي الأضلاع. أمَّا في موضوع الربّ، فلا بدَّ من أن يكون النقاش في دائرة، بحيث يبعد كلّ فرد في محيطها مسافةً متساوية عن المركز، وينظر كلّ شخص إلى عينَي الآخر.

ـ من الآن فصاعدًا، أتوقَّع أن أجدكم عند دخولي القاعة أسبوعيًّا وقد جلستم في حلقة دائريَّة.

استغرق الطلبة بضع دقائق في تحريك مقاعدهم في القاعة إلى أن انتهوا من تنفيذ الواجب، فبدا المشهد مثل ثمرة ليمون وقد عُصِرت عَصْرًا، وليس حلقة دائريَّة منتظمة.

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرَّغم من أنَّ الأستاذ لم يقتنع اقتناعًا تامًّا بما فعلوه، فإنّه أثنى على جهودِهم وشكرهم، ثم سألهم بعد ذلك أن يعرِّف كلّ واحد نفسه ببضع جمل، وأن يذكر نبذة مختصرة عن سيرته، وعلى وجه الخصوص «السبب الذي يدفعه إلى الاهتمام بموضوع الربّ، في حين أنَّ ثمَّة ما هو أكثر إثارة للاهتمام لأمثالهم من الشباب خارج هذه القاعة».

كان أوَّل المتحدِّثين منى التي قالت إنَّها بعد أحداث الحادي عشر من أيلول استبدَّ بها قلق عنيف بشأن تصوُّر الغرب للإسلام، وأضافت، وهي تتأنَّى في اختيار مفرداتها، أنَّها تعتزّ بأنَّها شابَّة مسلمة، وتحبّ دينها من صميم قلبها، بيد أنَّها محبَطة بسبب هول التعصُّب الذي تضطرّ إلى مواجهته في كلّ يوم تقريبًا:

- إنَّ الذين لا يعرفون شيئًا عن الإسلام يطلقون آراء عموميَّة غيرَ صحيحة في ديانتي ورسولي ومعتقدي.

ثم سارعت إلى القول:

- وفي حجابي.

وأوضحت أنَّها جاءت إلى هنا للمشاركة في نقاشات صريحة عن طبيعة الربّ ما دام قد خلق كلّ شيء، وخلق الأشياء مختلفةً لسبب ما:

- إنَّني أحترم التنوُّع، لكنَّني أتوقَّع أن أحظى بالاحترام في مقابل ذلك.

حين جاء دور الشابّ الجالس بالقرب من منى للحديث، اعتدل في جلسته وتنحنح. كان اسمه إيد ويتحدَّر من جذور علميَّة، وأوضح أنَّه ينظر إلى الربّ نظرة يشوبها «حذر موضوعي وحياد عقلي»، وأنَّه يؤمن بإمكان اقتران العلم والإيمان، وهو اقتران مرجَّح، إلَّا أنَّ على المرء أن يشذِّب الدين ممَّا ينطوي عليه من لاعقلانيَّة، وهي ليست قليلة، وأضاف:

- والدي يهودي وأمِّي بروتستانتيَّة، لكنَّهما غير ملتزمين بالشعائر

مكتبة الفكر الجديد

الدينيَّة. إنَّني أفترض، كما افترضت منى، لكن على نحو مغاير، أنَّني مهتمّ بالهويَّة والمعتقد في العصر الحديث، على الرَّغم من أنَّ الربّ لا يشكِّل مسألة مطروحة على بساط البحث عندي.

فسأله شابّ مفتول العضلات، مجدّرُ الوجه إلى حدٍّ ما، ورمليُّ الشعر، وهو يعبث بقلم رصاص بين أصابعه:

ـ لماذا أتيت إلى هنا إذن؟ لقد ظننتُ أنَّ كلّ واحد في هذا الفصل الدراسيّ لديه مسألةٌ مطروحة على بساط البحث وتخصّ الربّ.

لاحظت بيري أنَّ إيد رمق الأستاذ آزور بنظرة، وأنَّ الأستاذ ردَّ عليه بإيماءة من رأسه لم يلحظها أحد. ثمَّة شي ما بينهما؛ رسالةٌ لم تستطع أن تفكَّ رموزها.

التفت آزور إلى الشابّ الرمليّ الشعر، وقال له:

ـ اعتدتُ دومًا أن أتوقَّع أن يُبدي كلٌّ من الطلبة رأيه في أقوال الآخرين، وأن أشجِّعهم على ذلك، لكن ليس في هذه المرحلة المبكرة، فنحن أشبه بفراخ الدجاج التي لم تولد بعد. لهذا دعونا نطلّ برؤوسنا أوَّلًا من البيضة.

كانت المتحدِّثة التالية هي روسيني؛ وهي فتاة حسناء ذات لَكْنَة إسپانيَّة واضحة، وعينين بنِّيَّتين واسعتين، وشعرٍ أسودَ ناعم الملمس، راحت خصلة منه تلامس شفتها بين حين وآخر في أثناء كلامها. قالت إنَّها نشأت نشأةً كاثوليكيَّة ودأبت على حضور القدّاس في كلّ أسبوع، وإنَّها محظوظة لأنَّها محاطة بأُناس مدهشين في الجمعيَّة الكاثوليكيَّة في أوكسفورد، إلَّا أنَّها تمنَّت أن توسع أفق مداركها:

ـ فكَّرتُ في أنَّ دراستي هذا المنهاجَ ستكون شيِّقة لأنَّني سأطَّلع على أسلوب مناقشة هذا الموضوع خارج نطاق حدود رفاهيَّتي ورغدي، ولهذا . . .

مكتبة الفكر الجديد

بيد أنَّها لم تكمل عبارتها كأنَّها كانت على ثقة بأنَّ الآخرين هم الذين سيكمِّلونها.

فقال الفتى ذو الشعر الرمليّ، وهو يعبث بقلم الرصاص عبثًا أسرعَ من ذي قبل:

ـ أعتقد أنَّ دوري حان في الحديث. إنَّني كيفْن؛ طالبُ منحة رودس من بلدة فريسنو في ولاية كاليفورنيا.

التوت قَسَماتُ وجه كيفْن العريض، وراح يجادل في أنَّ إيرنست همنغواي، الذي كان محقًّا في كلّ شيء، قد أصاب قلبَ الحقيقة عندما جاهر في رأيه في أنَّ كلّ المفكِّرين ملحدون، وكان هو نفسه واحدًا من الملحدين المتشدِّدين، وأردف قائلًا:

ـ إنَّني لا أؤمن بكلٍّ هذا الكلام الأجوف، ولهذا السبب أنا هنا. إنَّني أرغب في المشاركة في نقاش بنَّاء في موضوعات العلوم والنشوء والارتقاء، وما تدعونه دومًا الربّ. أعتقد أنَّني سرعان ما سأهزم الكلّ.

تنشَّق أحد الطلبة بشكل متعمَّد، إمَّا ازدراءً وإمَّا إحساسًا بالشفقة، وهو ما يصعب التكهُّن به. فقال:

ـ أهلًا بكم جميعًا، اسمي آفي، وأنا عضو في جمعيَّة تشاباد في أوكسفورد، كما أشتغل جزئيًّا في مكتبة شمشون اليهوديَّة، وهي أكبر مكتبة يهوديَّة في البلدة. ربَّما لا يعلم بعضكم بأنَّ أوكسفورد غنيَّة بالتراث اليهودي.

جادل آفي في أنَّ العالم فيه ما يكفي من الضغينة والكراهية لدفع البشريَّة إلى حرب عالميَّة ثالثة، وأنَّ شبح التاريخ يُخيِّم على اللحظة الراهنة. وأفاد بأنَّ الجنس البشريّ كان قادرًا على شنّ حروب رهيبة، كما حدث في الهولوكوست وفي تدمير البرجين التوأمين. من هنا، فإنَّ ضرورة تبنِّي حوار حقيقيّ بين الأديان قضيَّةٌ عاجلة، كما أنَّ خشية الربّ

مكتبة الفكر الجديد

كانت أقوى رادع ضدّ ممارسة العنف بين أبناء البشر. وفي العصر الحديث، أصبحنا في حاجة ماسّة إلى الربّ أكثر من أيّ وقت مضى.

بدا آفي متطلّعًا إلى الإطالة في حديثه، لكنَّ الطالبة الجالسة إلى جانبه قاطعته في حدَّة وقلق. كان اسمها سوجاتا، وبدأت تتحدَّث عن الفوارق بين الفلسفة الشرقيَّة ونظيرتها الغربيَّة، «أو الشرق أوسطيَّة إن صحَّ التعبير، لأنَّ كلّ الأديان الإبراهيميَّة نابعة من المنطقة نفسها، ولا بدَّ من رجل من غير المنطقة كي يُدرك مدى التشابه بينها».

أوضحت سوجاتا أنَّ شعارها في الحياة يتمثَّل في عبارة: «فكرتك هي التي تخلق حقيقتك». وبحسب رأيها، فإنَّه يصعب وصف الربّ، وهي لا تريد الإساءة إلى أحد، غير أنَّها وجدت في ربِّ إبراهيم ما يُشير إلى شدَّة الصراحة والحكم الإلٰهيّ والتشامخ، واسترسلت قائلة:

ـ أقول إنَّ كلّ شيء يتَّصل بالربّ. أمَّا أنتم، أيُّها السادة، فتقولون إنَّ كلّ شيء من صنع الربّ. وهذان القولان مختلفان اختلافًا واضحًا، ويشكِّلان فارقًا جوهريًّا.

بعد أن أظهرت سوجاتا قدرًا من التوافق والتحدِّي، اختتمت حديثها بالقول إنَّها تتطلَّع إلى مناقشة هذه الفوارق الفلسفيَّة نقاشًا مستفيضًا.

في هذه الأثناء، كانت بيري تغور في كرسيِّها. وتنكمش كلَّما تحدَّث أحد الجالسين من الطلبة، وتمنَّت لو كان في مقدورها أن تتوارى عن الأنظار تمامًا، وعصف بها شكٌّ مؤرِّق في أنَّ الأستاذ آزور قد انتقى الطلبة استنادًا إلى ما لديهم من موضوعات وطموحات شخصيَّة، وليس على أساس جدارتهم الأكاديميَّة. فبين هؤلاء الطلبة، لا يوجد طالبان اثنان يتحدَّران من أرضيَّة مشتركة، كما توجد اختلافات واضحة في الرأي بينهم، ما يشجِّع على تصعيد المناكفات. ولعلَّ هذا ما كان يرغب

مكتبة الفكر الجديد

آزور في الوصول إليه: صراع أو صراعات. لعلَّه كان يُجري التجارب على طلبته من دون أن يدركوا ما يفعله، كأنَّهم مجموعة متناثرة من الفئران، تدور وتشقّ طريقها داخل جدران مختبره العقليّ. وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي عساه أن يختبره: فكرة جديدة عن الربّ؟

ثمَّة أمر آخر أثار اضطراب بيري. فإذا كان كلّ شخص في هذا الفصل الدراسيّ قد اختاره آزور لإقامة برج بابل مصغَّر، فما سبب اختياره لها هي؟ ما الذي يمكن أن يعرفه آزور عنها في حين أنَّها لم تخبره إلَّا بالنزر اليسير عن نفسها؟ وكلَّما أعملت ذاكرتَها وقدحت زنادَ فكرها، ازدادت إحساسًا بالخطر وانعدام الأمان، وتردَّد صدى كلمات الدكتور رايموند في أذنيها: «طريقته في التدريس غير تقليديَّة، ولا تناسب كلّ طالب، ومنهاجه الدراسيّ يعتمد على تقسيم الطلبة، فالبعض يستمتع به، والبعض الآخر تزداد تعاسته عمقًا».

قالت فتاة ذات شعر أجعد تتواثب بضع خصلات منه كلَّما حرَّكت رأسها:

ـ مرحبًا، اسمي كيمبر، لديَّ إجابة طويلة وإجابة قصيرة.

فقال الأستاذ آزور:

ـ ابدئي بالجواب الطويل.

أوضحت كيمبر أنَّ والدها قسِّيس في كنيسة عيسى المسيح الخاصَّة بالمورمون، وهي طائفة نصرانيَّة، وأنَّ كلّ أفراد أسرتها وأصدقائها من المورمون. وقالت إنَّها مهتمَّة بهذا المنهاج الدراسيّ لأنَّ الربّ أضفى معنًى على حياتها وأنَّها تنوي زيادة فهمها له. وأضافت أنَّ الشبَّان في هذه الأيَّام لا يهتمُّون إلَّا بالمواعدة أو الدراسة لأداء الامتحانات أو العثور على عمل يجنون منه مقدارًا طيِّبًا من المال. أمَّا هي، فتؤمن بأنَّ الحياة فيها ما هو أكثر من ذلك. وأردفت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لدى كلّ واحد منّا هدف واضح على وجه البسيطة، أمَّا أنا فما زلت أبحث عن هدفي.

فسألها آزور:

ـ وما الإجابة القصيرة؟

ضحكت كيمبر وقالت:

ـ راهنت صديقتي التي قالت لي إنَّك أشدّ الأساتذة بخلًا في منح العلامات عندما تصحِّح المقالات التي نكتبها. إنَّني طالبة صريحة، ولم أُخفق في أيّ مرحلة دراسيَّة منذ تعليمي في الروضة، لهذا السبب وافقت على قبول التحدِّي.

انفرجت أسارير آزور عن ابتسامة هادئة:

ـ الحقيقة عملة نادرة، وقولها يثير البهجة.

لم تتمكَّن بيري من الحيلولة دون أن تتمتم بينها وبين نفسها ويدها على فمها:

ـ هذه عبارة من عبارات إميلي ديكنسون(١).

---

(١) إميلي دكينسون (١٨٣٠ ـ ١٨٨٦): شاعرة أميركيَّة، أمضت شطرًا من حياتها في مدينة آمهرست في ولاية ماساشوسيتس، أرسلت عددًا من قصائدها إلى الأديب المعروف توماس وينتورث هيغنسون، إلَّا أنَّ نقده العنيف لأسلوبها وبحورها الشعريَّة كان سببًا في إحباطها وعزلتها، فاحتفظت بقصائدها ولم تنشرها طوال حياتها، وكان بينها قصائدُ حبٍّ موجَّهةٌ إلى بينامين نيوتن، الطالب الذي كان يعمل في مكتب والدها، وقد راسلته حتى وفاته سنة ١٨٥٣، ومن بعد ذلك وجَّهت قصائدها إلى تشارلز وادزورث، رجل الدين المتزوَّج الذي قيل إنَّه رحل عن أميركا بسببها. في سنة ١٨٦٣ نظمت زهاء ١٤٠ قصيدة، وفي سنة ١٨٦٤ نحو ٢٠٠ قصيدة. يدور نتاجها الشعريّ الذي يبلغ زهاء ١٧٧٥ قصيدة، عن العلاقة بين الله والإنسان والطبيعة. أسلوبها قويٌّ ومتميِّز، يعبِّر أساسًا عن شخصيَّتها المعقَّدة. صحيح أنَّها كانت تبدو وديعة وهادئة، إلَّا أنَّها تجنَّبت كلّ ما هو تقليديّ (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

قال الأستاذ:

ـ لننتقل إلى طالب آخر.

كان آدم، ذو الأنف المدوَّرِ والذقنِ المشقوق والحاجبين العاليَيْن، يبدو كأنَّ العالم يُثير دهشته دومًا. قال إنَّه أنغليكانيّ، لكنَّه لا يرتاد الكنيسة. وأضاف أنَّ الذهاب إلى الكنيسة ليس ضروريًّا ما دام يؤمن بأنَّ الربّ يعني الحبّ، وأنَّ الربّ يحبّه على حقيقته:

ـ إنَّني أؤمن بمبدأ عام مفاده: «عِشْ وأحبَّ وتعلَّمْ». هذا كلّ ما لديّ.

سألت فتاة جالسة إلى جانبه:

ـ هل حان دوري؟ اسمي إليزابيث، وُلدت ونشأت في مقاطعة أوكسفورد شاير، ولم يسبق لي أن سافرت بعيدًا عن هذا المكان. تتحدَّر أسرتي من طائفة الكويكرز، وليس لديَّ ما أطرحه على بساط البحث بشأن الربّ، إلَّا أنَّ مشكلتي تنحصر في صفة ذكورة الربّ.

أوضحت إليزابيث أنَّ الجنس البشريّ فقد اتِّصاله بالطبيعة أو الأرض بصفتها إلٰهة. فعلى امتداد التاريخ، تعرَّضت الأنثى للقمع، وكان الثمن هو الحروب وسفك الدماء والعنف، وقالت إنَّها اطَّلعت على أديان قديمة مثل الشامانيَّة[1] والويكا والبوذيَّة التبتيَّة (وكلّ ما يساعدنا في إعادة ارتباطنا بأمِّنا الأرض)، وحثَّت كلّ فرد على التوقُّف عن التفكير في الربّ بوصفه ذكرًا، والبدء بالقول إنَّه انثى.

---

(١) الشامانيَّة (Shamanism): دين بدائيّ من أديان شمالي آسيا وأوروبا، يتميَّز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب؛ هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، = وبأنَّ هذا العالم لا يستجيب إلَّا للشامان، وهم الكهنة الذين يستخدمون السحر لمعالجة المرض وكشف المخبَّأ والسيطرة على الأحداث. وتؤمن بعض قبائل الهنود الحمر في أميركا الشماليَّة بهذه الديانة أيضًا (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

لم يبق من المتحدِّثين سوى بيري والفتى الجالس إلى جانبها، فأشارت بيدها إلى أنَّها تريد أن يبدأ بالحديث هو أوَّلًا، في حين أنَّه أشار إلى أنَّها يجب أن تتكلَّم أوَّلًا، فما كان منها إلَّا أن أذعنت وقالت:

ـ حسنًا، اسمي بيري...

فقاطعها آزور:

ـ وذلك الاقتباس مأخوذ عن إميلي ديكنسون، أحسنت!

كانت بيري تدرك أنَّها احمرَّت خجلًا، ولم تكن تعلم بأنَّ الأستاذ قد سمعها، فأضافت:

ـ لقد أتيت من إسطنبول و...

إلَّا أنَّها تلعثمت بعد أن انقطع حبل تفكيرها وراودها إحساس بالغباء لأنَّها ذكرت اسم المدينة التي وُلدت فيها بدلًا من أن تقول شيئًا جوهريًّا وأكثر أهمِّيَّة أسوة بالآخرين.

ـ أم.. م.. م. لا أدري، لا أدري سبب وجودي في هذا المكان.

فقال كيفن مشاكسًا:

ـ اتركي الفصل إذن، وعندئذ سوف يصبح عددنا عشرة. إنَّني أرغب في أن يكون العدد مثاليًّا!

انسابت ضحكة في أوساط الجالسين، فما كان من بيري إلَّا أن خفضت بصرها وفكَّرت كيف أنَّها تلعثمت بالكلمات وهي تُعَرِّف بنفسها تعريفًا بسيطًا، في حين تمكَّن الآخرون من الكلام في يُسْر وسهولة.

كان آخر المتكلِّمين فتًى اسمه برونو. قال إنَّه ليس ماركسيًّا أو ما يشبه ذلك، لكنَّه، في خصوص موضوع الدين، يتَّفق مع ماركس الذي قال إنَّ الدين سمّ الشعوب، ويتَّفق أيضًا مع الزعيم الألباني السابق أنور خوجا الذي قرأ ذات مرَّة أفكاره فوجدها مدعاة إلى الدهشة لما اتَّصفت

مكتبة الفكر الجديد

به من وضوح في موضوع الدين.

قال آزور:

ـ ممتاز أيُّها الشابّ، لكن عندما نقتبس عن الآخرين، وخصوصًا إذا كانوا فلاسفة أو شعراء، ممَّن تؤدِّي المفردات دورًا بالغ الحيويَّة في طروحاتهم، فإنَّ اقتباسنا يجب أن يكون دقيقًا جدًّا. إنَّ ما قاله ماركس حقًّا هو: «الدين حسرة المخلوق المضطهَد، وقلبُ العالم الذي لا قلب له، وروحُ الظروف التي لا روحَ لها، إنَّه أفيون الشعوب».

قال برونو، وهو لا يستطيع أن يُخفي انزعاجه لمقاطعة الأستاذ له في موضوع كان يشعر بأنَّه شغوف به:

ـ لا بأس، إنَّه الكلام نفسه.

كان ذقنه قد اندفع إلى أمام كأنَّه يستعدّ لتلقِّي ضربة، وقال إنَّ منى طلبت أن تكون المناقشات صريحة ونزيهة، وإنَّه سيكون كذلك إلى أبعد الحدود. وأضاف أنَّه يدرك أنَّ بعض الناس قد لا يروق لهم ما لديه من قول يريد الإفصاح عنه، إلَّا أنَّه يؤمن بأنَّ هذا المنهاج الدراسيّ يولي النقاشَ الحرَّ قيمةً حقيقيَّة، وأنَّ لديه مشكلة في قضيَّة الإسلام. وأضاف أنَّه كي يكون منصفًا، فإنَّه يختلف مع كلّ الأديان التوحيديَّة. وإذا كانت النصرانيَّة واليهوديَّة قد أُدخلت عليهما إصلاحات، فإنَّ الإسلام لم تدخل عليه إصلاحات. وجادل برونو بالقول إنَّ معاملة الإسلام للمرأة لم تكن مقبولة، ولو أنَّه وُلد أنثى على هذه الديانة لتخلَّى عن الإسلام بسرعة الضوء. وأضاف أنَّ الإسلام ينبغي له إدخال تغييرات عليه حتى يلائم عالم اليوم، لكن هذا غير قابل للتصوُّر في ظلِّ هذه الظروف، لأنَّ النظرة إلى الكتاب المقدَّس والأحاديث مطلقةٌ لا لبْسَ فيها. وإذا كان التغيير محرَّمًا، فكيف يمكننا أن نطوِّر هذا الدين؟

نظرت منى إليه من مكانها نظرةً جامدة، وقالت منبِّهةً:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ومن قال إنَّني محتاجة إليك كي أطوِّر ديانتي؟
فقاطعها آزور:
ـ عظيم، بداية مذهلة. شكرًا لكم على هذه المشاركة في الأفكار، وبهذه الصراحة. فبعد الاستماع إلى خطبكم الرنَّانة بشأن الدين بدلًا من الحديث عن موضوع الربّ، الذي يمثِّل موضوعنا الرئيس، فإنَّني مضطرّ إلى أن أوضح لكم وضوحًا جليًا لا غُبار عليه، ما ستناقشه هذه السلسلة من المحاضرات.
وسار الأستاذ في وسط الحلقة الطلَّابيَّة سيرًا دائريًّا ملؤه الثقة، وتكلَّم كلامًا ملتهبًا:
ـ إنَّنا لسنا هنا في مؤتمر عن الإسلام أو النصرانيَّة أو اليهوديَّة أو الهندوسيَّة. قد نأتي على ذكر هذه الأديان، لكن لن يكون ذكرها إلَّا بالقدر الذي يتطلَّبه موضوعنا الرئيس الذي هو التقصِّي العلميّ في طبيعة الربّ، لهذا لا يمكنكم حشرُ معتقداتكم الشخصيَّة في هذا الموضوع، وحين يستبدّ بكم التحمُّس لموضوع من الموضوعات، فتذكَّروا قول رسل[1] «إنَّ درجة تحمُّس المرء تختلف اختلافًا معاكسًا لمعرفة هذا المرء بالحقائق».

---

(١) برتراند رسل (Bertrand Russell، ١٨٧٢ ـ ١٩٧٠)، وُلد في مقاطعة ويلز البريطانيَّة وتلقَّى علومه في مدرسة خاصَّة، ثم في كلِّيَّة ترنتي في جامعة كيمبردج، حيث درس الرياضيَّات والعلوم الأخلاقيَّة. مساهماته مهمَّة في الرياضيَّات، لكن شهرته ذاعت لما أسهم به في تطبيق المنطق الرياضيّ على حلول المشكلات في العلوم الأخرى. عارض الدوغمائيَّة في السياسة والأخلاق والأديان، وكان لنشاطاته أبلغ الأثر في حركتين رئيستين، هما التعليم والسلام. طالب بحرِّيَّة الفكر والكلام، فزُجَّ به في السجن مدَّةً قصيرة في إبَّان الحرب العالميَّة الأولى، وكان واحدًا من أبرز المعارضين لتطوير الأسلحة النوويَّة منذ الحرب العالميَّة الثانية. زار الاتِّحاد السوفياتي، وقابل لينين وتروتسكي وغوركي، فأثمرت الزيارة نقدًا صريحًا دوَّنه في كتابه «البلشفيَّة: النظريَّة والتطبيق» (١٩١٩)، وعمل أستاذًا =

خفت الضوء وضعف عند مرور سحابة كبيرة أخفت الشمسَ من ورائها، فالتمعت عينا آزور وقال:

ـ هل اتَّضح الأمر لكم جميعًا؟

فقال الطلبة بصوت واحد:

ـ نعم.

إلَّا أنَّ بيري أجابت بعد بضع لحظات، وفي رقَّة:

ـ لا.

فقال آزور:

ـ ماذا قلت؟

ـ آسفة... لا أعتقد أنَّ ثمَّة خطأً في الاستجابة للعواطف.

ثم أردفت مؤشِّرة بيديها:

ـ نحن بشر، وهذا يعني أنَّ العاطفة تتحكَّم فينا أكثر ممَّا يتحكَّم فينا العقل، فلماذا نقلِّل من شأن العواطف؟

ثم رفعت بصرها إلى الأستاذ متوجِّسة من أن ترى قسمات وجهه، إلَّا أنَّه لاح هادئًا، رابطَ الجأش، بل ظهر عليه شيء من الإعجاب بسبب معارضتها، وقال:

ـ طيِّب أيَّتها الفتاة الإسطنبوليَّة، استمرِّي في التحدِّي.

قال آزور مخاطبًا الطلبة إنَّهم إذا لبثوا حتى نهاية سنوات دراستهم في أوكسفورد يردِّدون ويفكِّرون ويكتبون على النحو نفسه الذي بدأوا فيه

في بكِّين (١٩٢٠ ـ ١٩٢١)، وفي سنة ١٩٣٢، أصدر كتابه «الزواج والأخلاق»، فأثار ضجَّة كبرى بسبب آرائه الجريئة. عُيِّن أستاذًا في جامعة نيويورك، فثار رجال الدين عليه، ففصلته الجامعة. هاجم الفاشيَّة في كتابه «في مدح البطالة» (١٩٣٦)، وأنشأ مع سارتر وآخرين «محكمة رسل» لمحاكمة مثيري الحروب. حاز جائزة نوبل في الآداب (١٩٥٠) (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

دراستهم الجامعيَّة، فلن يكون ذلك غير مضيعة لوقتهم وهدرًا لأموال أُسرهم، ولهذا في وسعهم الرجوعُ إلى أُسرهم الآن. واسترسل:

ـ كونوا على استعداد للتغيير، كلُّكم. الجلاميد وحدها هي التي لا تتغيَّر. الحقّ أنَّها تتغيَّر بدورها.

وقال آزور إنَّهم هنا في أقدم جامعة من جامعات العالم الناطقِ بالإنكليزيَّة، فأوكسفورد لم تكن مركزَ الدراسة الأكاديميَّة والبحث العلميّ على مدى قرون من الزمان فحسب، وإنَّما أيضًا مركز الجدل اللاهوتيّ والنقاش الدينيّ، ثم أوضح:

ـ إنَّكم محظوظون! فأنتم في المكان المناسب للخوض في موضوع الربّ.

وفي حين استمرّ الأستاذ آزور في إلقاء محاضرته، تغيَّر سلوكه تغيّرًا كلِّيًا. فوجهه الذي كان حتى هذه اللحظة ثابتَ الجنان، أضحى الآن مفعمًا بالحيويَّة والنشاط، ولم تعد نبرته متأنِّيةً ومتحفِّظة، بل انقلبت إلى نبرة حادَّة. شفرة من حديد كان يحتفظ بها تحت الظلال وإن لم يحاول إخفاءها. وذكّر بيري بقطَّة شاردة في إسطنبول. قطَّة ليست من النمط الخائف المغطَّى بالكدمات والذي يتحاشى البشرَ ويتفاداهم، بل قطَّة من القطط المستقلَّة والماكرة والتي تزحف على امتداد الجدران، وتختال في مشيتها، وتتبختر بما ينمُّ عن اعتداد بالنفس، وتطلّ على الحيِّ كأنَّه مملكتها السرِّيَّة.

ـ حسنًا، لديَّ سؤال: لو ظهر أمامنا إنسانٌ من العصر البرونزيّ وطرح عليكم سؤالًا يطلب فيه منكم وصف الربّ، فماذا ستقولون؟

قالت منى:

ـ إنَّه رحيم.

وأضاف آفي:

مكتبة الفكر الجديد

ـ مُكْتَفٍ بذاته.

وأوضحت إليزابيث:

ـ إنَّها، وليس إنَّه.

وردّ كيڤن:

ـ ليس هو ولا هي، فتلك كلُّها أوهام.

فقطَّب الأستاذ آزور حاجبيه وقال: براڤو، لقد أخفقتم في الاختبار إخفاقًا فظيعًا. فاعترض برونو:

ـ لماذا؟

ـ تذكَّر أنَّك لا تتكلَّم اللغة نفسَها التي يتكلَّم بها جدُّك الكثيف الشعر.

ثم أخرج آزور مجموعة من الأوراق وعلبةَ أقلام تلوين، وطلب من روسيني أن توزِّعها.

قال برونو مندهشًا:

ـ ماذا؟ أتريدنا أن نرسم؟ هل نحن أطفال صغار؟

فأجاب آزور.

ـ يا ليتكم كذلك! لكان لكم خيال أوسع وفهم أعمق لما هو معقَّد.

رفعت منى يدها وقالت:

ـ إنَّ الإسلام يحرِّم الأصنام أيُّها الأستاذ، ونحن لا نجسِّد الله في الرسم، ونؤمن بأنَّه خارج نطاق تصوُّرنا.

ـ حسنًا، ارسمي ما ذكرتِه لي الآن.

تململ الجالسون وتحرَّكوا في أماكنهم في الدقائق العشر المقبلة، وتذمَّروا وتنهَّدوا، إلَّا أنَّهم بدأوا، بعد قليل، برسم مختلف الأشياء: صورةِ الكون ـ بما فيه من نجوم وكواكب وشُهُب ـ؛ مجموعةٍ من سحب

مكتبة الفكر الجديد

بيضاءِ اللون تخترقها صاعقة؛ صورةِ عيسى المسيح باسطًا ذراعيه؛ مسجدٍ ذهبيٍّ القباب تحت أشعَّة الشمس؛ لورد غانيشا برأس الفيل؛ ربَّةٍ ضخمةِ الثديين؛ شمعةٍ في الظلام؛ صحيفةٍ تُركت عمدًا فارغةً. تخيّل كلّ واحد الربَّ بأسلوبه الخاصّ.

أمّا بيري، فبعد تردُّد قصير، رسمت نقطة، حوَّلتها بعدئذٍ إلى علامة استفهام(١).

قال الأستاذ آزور:

ـ انتهى الوقت.

ثم وزَّع مجموعة أخرى من الأوراق، وقال:

ـ بعد أن رسمتم هذه التخطيطات، أُريد منكم أن ترسموا صورة لا تمثِّل الربّ.

ـ ماذا؟

عقد آزور حاجبيه، وقال:

---

(١) لا ينبغي لنا أن ننسى، ونحن نطلَّع على هذه الصور، أنَّنا أمام مجموعة من الطلبة من مختلف الأديان والأعراق، كما لاحظنا في بداية هذا الفصل، وأنَّ ما يقدِّمونه من تخطيطات إنَّما هو من وحي خيالهم الذي يفتقر إلى معرفة الخالق الذي تنصّ عليه الكتب السماويَّة، والذي لا يستطيع العقل أن يسبر غوره. تجدر الإشارة إلى أنَّ أليف شافاك درست التصوُّف الإسلاميّ وحازت شهادة الدكتوراه، وتحفل رواياتها بإشارات ونقاشات في هذا الشأن. ويذكِّرنا النقاش بين آزور وطلبته، مثلًا، بما تورده كتب التاريخ عن المغيرة بن سعيد البجلي المتوفَّى في سنة ١١٩هـ، وجاء فيها أنَّه كان يردِّد أنَّ الله «رجل من نور على رأسه تاج وله من الأعضاء مثل ما للرجل، وله جوف وقلب تنبع منه الحكمة» (انظر: أبو الحسن الأشعري: «مقالات الإسلاميين»، ج ١، ص ٦٧، تحقيق: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، مصر ١٩٦٩). أمَّا الحلَّاج، الذي اشتهر بقوله «أنا الحقّ» الوارد في كتابه «الطواسين»، فقد رأى أنَّ عبارة: «خلق الله آدم على صورته»، تعني أنَّ الضمير يعود إلى الله، وليس إلى الإنسان (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ توقَّف عن الكلام يا برونو وابدأ الرسم.

شيطانٌ بعينَي أفعى صفراوين؛ قناعٌ حديديٌّ مرعب؛ مستنقعٌ كريه الرائحة؛ مدفعٌ ينبعث منه دخان؛ سكِّينٌ ملطَّخة بالدماء؛ حريق؛ دمار؛ قطعة من الجحيم... وما يدعو إلى الغرابة، أنَّ عدم تصوُّر الربّ في أيِّ صورة من الصور، كان أصعب من تخيُّله على نحوٍ ما. وبدت إليزابيث وحدها، وقد وجدت المهمَّة سهلة، لهذا لم ترسم سوى صورة إنسان.

قال الأستاذ آزور:

ـ أشكر لكم تعاونكم. هل في وسع كلٍّ منكم رفعُ الصورتين جنبًا إلى جنب كي يرى ما رسمتم كلُّ من في الحلقة الدائريَّة؟

امتثلوا لأمره، وراح كلّ واحد يُنعم النظر إلى ما حقَّقه الآخر.

ـ والآن، ضعوا الصور في مواجهة عيونكم. حسنًا، عظيم! إنَّنا نوشك الآن أن نختبر قضيَّة طرحها فلاسفة وباحثون وصوفيُّون على امتداد التاريخ: ما العلاقة بين الصورتين؟

ـ هه!

لم يكن برونو وحده هذه المرَّة. بدأ آزور يذرع القاعة جيئةً وذهابًا:

ـ هل تجسِّد الصورةَ الأولى أو تستبعد الصورةَ الثانية؟ فعلى سبيل المثال، إذا كان الربّ كلِّيَّ الحضور وجبَّارًا، قويًّا وكثير النِّعَم، فهل هذا يعني أنَّه يجسِّد الشرَّ أيضًا، أم يعني أن لا صلة له بالشرِّ؟ وأنَّ الشرّ قوَّة خارجيَّة ينبغي له أن يحاربها؟ وما العلاقة بين ما هو الربّ وما ليس هو الربّ؟

ثم استرسل في حديثه:

ـ لقد رسم كلّ واحد منكم صورتين. أخبروني عن الصلة بينهما، اكتبوا مقالة، ويمكن أن تكون بأيّ أسلوب ما دامت مقالةً شجاعة

مكتبة الفكر الجديد

وجريئة وصريحة ومدعَّمة بالبحث الأكاديميّ!

لم ينبس أحد بكلمة. حتى الوقت الذي بدأوا فيه الرسم، استخفُّوا بالأستاذ وبهذا التمرين، ولم يهتمُّوا بالأمر كثيرًا. ولو علموا بأنَّه سيطلب من كلّ واحد منهم مقالة عن الصلة بين الصورتين، لكانوا أكثر اهتمامًا، غير أنَّ الأوان كان قد فات.

ـ عودوا إلى الفلاسفة والصوفيين والباحثين الذين عاشوا في ما مضى من الزمان، وابتعدوا عن عالم اليوم. ابتعدوا عن عقولكم.

فكرَّر كيڤن:

ـ نبتعد عن عقولنا؟

ـ هذا هو فرضكم الدراسيّ للأسبوع المقبل، ابذلوا قصارى جهودكم. انتزعوا إعجابي.

قال آزور ذلك وهو يمسك أضابيره وأقلامَ التلوين والساعةَ الرمليَّة التي سقطت آخرُ حبَّة من رملها في جزئها السفليّ، وأضاف:

ـ غير أنَّني أحذِّركم، إذ ليس من السهل انتزاعُ إعجابي(١).

* * *

---

(١) نوضح من جديد أنَّ ما يجري من نقاش في مثل هذه الأمور ذات الصلة بالدين، سواء الدين الإسلامي أو غيره من الأديان السماويَّة، ليس جديدًا على العقل البشريّ وذاكرته. فلقد انشغل فلاسفة الشرق والغرب والمتصوِّفة، على اختلاف أديانهم، بالبحث والكتابة عن طبيعة الذات الإلٰهيَّة وماهيَّتها. وما على القارئ إلَّا الرجوع إلى المصادر التاريخيَّة والدينيَّة والأدبيَّة (من شعر ونثر)، ليرى بنفسه عمق تلك الأفكار التي راودت الفلاسفةَ والمؤرِّخين والشعراء والمفسِّرين، قديمًا وحديثًا، بشأن مدارك العقل وشطحاته في التفكير والاستنتاج وصورة الخالق (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

مسرحيَّة الظلِّ

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

في مساء يوم الجمعة الذي يذهب فيه معظم الطلبة إلى الحانات والنوادي لقضاء وقت ملؤه تسلية يستحقُّونها، لبثت بيري في مكتبة الكلِّيَّة من أجل المطالعة. وعند مغادرة آخر مَنْ تبقَّى من الطلبة، تكاثف الصمت داخل المبنى ولم يعد يقطعه سعال أو همس أو تقليب صفحات. كان إحلال التسلية محلَّ الدراسة يشبه استبدال غذاء الحمية بمأدبة. وتحسَّرت، وإن لم يكن تحسُّرها أوَّل مرَّة، على نزعتها غير الاجتماعيَّة، بيد أنَّها استمتعت بما حولها من كتب كانت تمنحها إحساسًا بحرِّيَّة لم يستطع أيّ شيء آخر أن يمنحها إيَّاه. وحاولت أن تتفادى التفكير في أنَّ معظم قراءاتها في هذه الأيَّام كانت تخصّ الأستاذ آزور، كما أنَّها ضبطت نفسَها مرَّات ومرَّات في الأسابيع القليلة المنصرمة وهي تحلم بأن تتفوَّه بشيء غير متوقَّع في الحلقة الدراسيَّة؛ شيءٍ ينطوي على ذكاء وشجاعة يوقفانه في محلِّه، ويجعلانه ينظر إليها في صورة جديدة.

كانت إلى جانبها على المنضدة آلةُ التصوير البولارويد التي اشترتْها مؤخَّرًا، وكانت تصادف في أثناء ممارستها رياضةَ العَدْو سماءً مدهشة ـ من شروق شمسورديّ بلون المرجان، وغروبِها المصحوب بالرعد،

مكتبة الفكر الجديد

ومروج مكسوَّة بالصقيع ـ فترغب في التقاط صور لها. صحيح أنَّ ذلك كلَّفها مبلغًا لا بأس به من المال، إلَّا أنَّه يستحقّ ذلك. كما أنَّها أنفقت مبلغًا أكثر ممَّا يجب على الكتب، وخطَّطتْ لشراء حاسوب شخصيّ جديد، وفكَّرت: «تبًّا، حسبي أن أجتهد في عملي».

نهضت واقفة، ومدَّت ساقيها. كانت بمفردها في هذا القسم من المكتبة، وشعرت بأنَّها ربَّما كانت بمفردها في المبنى برمَّته. ولدى مرورها بين رفوف الكتب، شعرت بحركة مفاجئة، هادئةٍ هدوءَ ظلٍّ، فأسرعت في الالتفات إلى الوراء لتجد تروي.

ـ مرحبًا! لم أكن أنوي إثارة فزعك.

فسألته بيري:

ـ أرجو ألَّا تقتفي أثري. مفهوم؟

ـ حسنًا، نعم، لا تقلقي، فلن أُزعجك.

ثم ابتسم وأومأ إلى الكتاب الذي كانت تحمله بيدها، وسألها:

ـ ما هذا الكتاب الذي تقرئينه؟ «الإلحاد في بلاد الإغريق القديمة». أهو من أجل آزور؟

ـ نعم.

قالت بيري ذلك وهي متضايقة قليلًا.

ـ قلت لك إنَّ هذا الرجل هو الشيطانُ بعينه، لكنَّك لم تأخذي كلامي في الحسبان.

ـ لماذا تكرهه كلَّ هذه الكراهية؟

ـ لأنَّه لا يعرف حدوده. أعرف أنَّ هذا قد يبدو مستحبًّا في نظرك، لكنَّه ليس كذلك. فالأستاذ يتعيَّن عليه أن يتحلَّى بصفة الأستاذ. انتهى.

مكتبة الفكر الجديد

ـ وأنت لا تعتقد أنَّه كذلك؟

تنهَّد تروي، وقال:

ـ هل تمزحين؟ إنَّ هذا الرجل لا يدرس موضوع الربّ، لأنَّه يؤمن بأنَّه هو الربّ.

ـ يا له من كلام قاس.

فقال تروي:

ـ إنَّ غدًا لناظره قريب.

ثم تراجع خطوة إلى الوراء من فوره، كأنَّه كشف من المستور أكثرَ ممَّا كان ينوي كشفَه، ثم أردف قائلًا:

ـ في أيّ حال، إنَّني مضطرٌّ إلى الانصراف، فأصدقائي في انتظاري في حانة «ذا بير». هل يروقك الانضمامُ إلينا؟

قالت بيري متعجِّبة من أنَّه طلب منها ذلك الطلبَ:

ـ شكرًا لك، لكن لديَّ عمل ينبغي لي أن أُنجزه.

ـ لا بأس. أتمنَّى لك قضاء عطلة نهاية أسبوع طيِّبة. فكِّري في ما قلته لك.

في الوقت الذي خرجت فيه بيري من المكتبة، انقلبت السماء إلى زرقاء غامقة يشوبها السواد باستثناء الانعكاس الشبحيّ لأنوار الشارع، وبدت لها تلك السماءُ كأنَّها قريبة بما يكفي لأن تصل إليها وتجذبَها من فوق كتفيها مثل لفاع نيليّ اللون. سارت مرفوعة الرأس تختلس النظرات السريعةَ إلى المواسير ذات الأشكال البشريَّة أو الحيوانيَّة، وهي تميل إلى أسفل نحوها، من الشرفات المنفرجة التي تعلو المباني، كأنَّها تحافظ على أسرار مضت عليها قرون من الزمان. وأذهلتها في تلك اللحظة

مكتبة الفكر الجديد

الخلافات اللاهوتيَّة الموغلة في القِدَم، والتي كانت تنشب في المدينة، التي لا تزال عظام الأساتذة المتوجِّعة تطوف في حجرات مبانيها. أغلقت زمام سترتها إلى ذقنها، وقرَّرت أنَّها سرعان ما سوف تشتري لها معطفًا شتويًّا بعد أن ادَّخرت مبلغًا من المال.

حين انعطفت إلى ناصية أحد الشوارع، استبدَّت بها الدهشة لمَّا رأت مجموعة من الناس يحملون الشموع في ظلمة الليل. سهرة. فاقتربت منهم، وهي ترنو إلى صور وزهور موضوعة على الرصيف. وكان أحد الملصقات قد كُتبت عليه عبارةُ: «تذكَّروا سربرينيتشا».

تفحَّصت بيري في عناية في وجوه الموتى، من صِبْيَة وآباء وأزواج، وكان أحد هؤلاء الموتى يشبه شقيقها أوميد، وفي عمره نفسه، كما اعتقدت.

ورأت بيري بين هؤلاء الساهرين منى، ملتفَّة بحجاب أحمر ضارب إلى الأرجوانيّ، لفَّت به رأسها وكتفيها. وكانت منى قد لمحت بدورها بيري، فتقدَّمت إلى أمام لتكلِّمها وفي يدها شمعة.

أشارت بيري إلى الوجوه في الصور، وقالت:

ـ يا له من مشهد حزين.

فقالت منى:

ـ بل أكثر من حزين. إنَّها إبادة بشريَّة. لا ينبغي لنا أن ننسى.

ثم تريَّثت في كلامها ورنت إلى بيري باهتمام مفاجئ:

ـ لماذا لا تنضمِّين إلينا؟

فقالت بيري:

ـ صحيح سأنضمّ.

مكتبة الفكر الجديد

ثم أمسكت بشمعة وبصورة الفتى الشبيه بأخيها، واتَّخذت مكانها على الرصيف، لتجد الليل قد أطبق عليها مثلَ نهر في حالة فيضان.

سألت بيري:

ـ هل الطلبة المسلمون وحدهم الذين يسهرون هنا؟

ـ حسنًا، إنَّ مجلس الطلبة المسلمين هو الذي نظَّم هذه السهرة، لكن هناك آخرين حضروا لإظهار دعمهم ومساندتهم. وهناك أيضًا طلبة من حلقة آزور الدراسيَّة. انظري! ها هو إيد.

كان إيد حاضرًا حقًّا. فما كان من بيري إلَّا أن توجَّهت نحوه بعد أن تركتها منى بمفردها لانشغالها مع بعض زملائها من منظِّمي السهرة.

ـ مرحبًا يا إيد!

ـ مرحبًا بك يا بيري. يبدو أنَّني اليهوديّ أو نصفُ اليهوديّ الوحيد هنا.

فقالت له بيري، كأنَّ ذِكْرَه ديانته انتقالةٌ منطقيَّة في الحديث:

ـ هل تسمح لي بأن أسألك عن سبب اختيارك منهاجَ الدراسة الخاصَّ بالربّ؟

ـ السبب هو آزور. لقد غيّر هذا الرجل حياتي.

تذكَّرت بيري النظرة الخاطئة المتبادلة بين إيد والأستاذ، وسألت:

ـ حقًّا؟

ـ لقد ساعدني مساعدةً كبيرة في العام المنصرم. كنت أوشك أن أنفصل عن صديقتي.

ـ فأخبرك هو بألَّا تنفصل؟

فأجاب إيد:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا، ليس تمامًا، بل طلب منّي أن أفهمها أوّل الأمر. فقد كنّا أنا وهي صديقين متلازمين منذ أيّام الدراسة الثانويّة، إلّا أنّها تغيّرت، وانقلبت إلى فتاة متمسّكة بالدين، في غمضة عين، ولم أعد أستدلُّ عليها.

فقد قرّرت أن تلتزم بما جاء في التوراة، وقرّر هو أن يهب نفسه للعلم، فأصبحت الهوّةُ بين أولويّاتها وأولويّاته متعذّرةً على الردم. وأضاف:

ـ وهكذا ذهبت إلى آزور من دون أن أعرف السبب، وكان في وسعي أن أذهب إلى حاخام أو ما أشبه، لكنّي شعرت بأنّ آزور هو الرجلُ المناسب.

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال كلامًا غريبًا. أخبرني بأن أستمع إليها وإلى كلّ ما تنطق به طوال أربعين يومًا. شهر واحد وعشرة أيّام. إذا كان المرء مغرمًا بشخص فإنّ ذلك ليس بالأمر العسير على التنفيذ. وقال أيضًا: أمضِ وإيّاها عطلة يوم السبت، واتركها تأخذك إلى عالمها، وتُطلعك على كلّ شي تريد أن تُطلعك عليه، من غير اعتراض ولا إبداء أيّ ملاحظة.

ـ وهل نفّذتَ ذلك؟

ـ نعم، كان الأمر صعبًا ويُثير السخرية! كنت أستمع إلى كلام أجوف بلا معنى. معذرة، فذلك هو ما حدث، إذْ كان عقلي يرفض كلّ حديثها عن التديُّن، وقال لي آزور اترك الحكم للحكّام. فالفلاسفة لا يحكمون، وإنّما يفهمون.

ثم ضحك إيد ضحكة قصيرة مضيفًا:

ـ لكنّ الأمر لم يتوقّف عند ذلك الحدّ.

مكتبة الفكر الجديد

ـ ماذا حدث بعدئذٍ؟

ـ بعد مرور أربعين يومًا، استدعاني آزور وقال لي: أحسنت. الآن حان دور صديقتك. فسوف تتكلَّم أنت، وعليها أن تستمع إلى كلامك. وسوف تمرّ هي في مرحلة إزالة السموم الدينيَّة.

ـ وهل قبلتْ بذلك؟

هزَّ إيد رأسه نافيًا:

ـ لا، على وجه التأكيد، فانفصلنا. إلَّا أنَّني فهمت ما كان آزور يرمي إليه. لهذا السبب أُعجبت به كثيرًا.

أزعجها تحمّسُه، وثقتُه المفرطة ـ وهو الطالب ـ بأستاذه. فقالت:

ـ لكنَّنا لسنا فلاسفة، وإنَّما طلبة دراسات السنوات الجامعيَّة الأولى.

ـ هذا هو بيت القصيد. فكلّ الأساتذة يمنحوننا فسحة، إلَّا آزور الذي يدفع بنا دفعًا قويًّا. فهو يؤمن بأنَّنا يجب أن نكون فلاسفة مهما يكن مبرِّرُنا في الحياة.

ـ أليس توقُّعُ مثل هذا الشيء كثيرًا من طلبة اعتياديين؟

رمقها إيد بنظرة وأجاب:

ـ أنت لست فتاة اعتياديَّة، بل ليس ثمَّة من هو اعتياديّ.

أطبقت بيري شفتيها بإحكام، فسألها إيد:

ـ ما خطبك؟ أَلَا يعجبك؟

فازدردت ريقَها وأجابت:

ـ بل يعجبني، لكن... أتساءل إن كان يُجري تجاربه علينا، ولهذا فإنَّني أتضايق.

فقال إيد:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ربَّما كان يُجري تجاربه علينا، لكن من يهتمّ؟ لقد غيَّر حياتي نحو الأفضل.

بدأتِ السماء تمطر مطرًا خفيفًا يمكن أن يتحوَّل في أيّ لحظة إلى مطر مدرار. ولهذا بات لزامًا تأجيلُ السهرة، فانتزعوا الملصقات ورفعوا الشموعَ والصور، وبدأت منى تهرول يمنة ويسرة آخذةً على عاتقها أمرَ الاهتمام بكلٍّ شيء.

مدّت بيري يدها إلى إيد، فما كان منه إلّا أن تجاهلها وجذبها بدلًا من ذلك إليه وعانقها عناقًا حارًّا، وقال:

ـ احترسي وثقي بآزور، فهو رجل عظيم.

بعد أن لبثت بيري وحدها في الظلمة، عادت أدراجها إلى حجرتها. كان الهواء مفعمًا بروائح، هي مزيج من رائحة المطر وعبق الأرض. لم تعترض إذا ما تبلَّلت. وراحت تنظر نظرة متفحِّصة إلى المباني التي شهدت قرونًا من المناقشات الحامية الوطيس، وشهدتِ الجيرانَ ينقلبون إلى أعداء، والكتبَ وهي تُمَزَّق، والأفكارَ وهي تُقْمَع، والمفكِّرين يتعرَّضون للاضطهاد... وكلّ ذلك باسم الله.

مَنْ هو على حقّ: تروي أَمْ إيد؟ ففي ليلة واحدة، سمعت رأيين متعارضين في الأستاذ. إلّا أنَّ المشكلة تمثَّلت في أنَّها شعرت بأنَّ الاثنين ربَّما كانا على حقّ. وكما هي الحال في مسرحيَّة عثمانيَّة قديمة من مسرحيَّات الظلّ، ثمَّة ستارة تفصلها عن الواقع، ووجدت نفسها تتمسَّك بدلًا من ذلك بأفكار مفادها أنَّ آزور يحرِّك الدمى من وراء ستار، حاضرًا ومسيطرًا في كلّ الأوقات، لكنَّه، بالرَّغم من ذلك، مجهول، ولا يمكن الوصول إليه.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

المظلومون

إسطنبول ـ ٢٠١٦

لم يكد طبق «حلوى الحريم» ينفد ممَّا فيه من فوق المنضدة حتى دخل كلب من الباب المفتوح يهزّ ذيله في حيويَّة تعطي انطباعًا خاطئًا عن بنيانه الرشيق. فهو كلب من الكلاب البوميرانيَّة البالغة الصِّغَر، منكمشُ الرأس، عيناه مفعمتان بالعاطفة، وفروتُه كثيفةُ الشعر بلون أوراق الخريف الباهتة.

قالت سيِّدة الأعمال:

ـ هل اشتقت إليّ يا بوم ـ بوم؟

ثم التقطتِ الحيوانَ من على الأرض ووضعته في حضنها، فراح يراقب الضيوف ويرمش عينيه، في حين أنَّ ملامحه الثعلبيَّة الهادئة يمكن أن تنقلب إلى عداء سافر في أيّ لحظة.

قالت سيِّدة الأعمال من دون أن يكون سؤالُها موجَّهًا إلى أحد بعينه:

ـ أتعلمون متى فطنتُ إلى أنَّ هذا البلد قد تغيَّر؟ عندما أخذت بوم ـ بوم إلى الطبيب البيطريّ في الشهر الفائت.

وأوضحت أنَّ الطبيب البيطريّ كان معتادًا على المجيء في أوقات منتظمة إلى البيت، لكنَّه أُصيب قبل بضعة أسابيع بجرح في ساقه. وعلى

مكتبة الفكر الجديد

الرَّغم من أنَّه واظب على العمل كالسابق، فإنَّه لم يعد قادرًا على القيام بزياراته للبيت. فكانت تضع بوم ـ بوم تحت إبطها وتنطلق نحو العيادة.

كان أصحاب الكلاب، في ما مضى من الزمان، يتشابهون في كلّ شيء تقريبًا: فهم عصريُّون ومتمدِّنون وعلمانيُّون وينهجون نهجًا غريبًا. ولمَّا كان المسلمون المحافظون يُعِدُّون الكلاب من المنجِّسات، فإنَّهم لبثوا غير راغبين في مشاركة هذه الحيوانات في بيوتهم.

وقالت سيِّدة الأعمال:

ـ لا أعرف سبب اعتراضهم على هذه الكلاب، فهم يقولون إنَّ الملائكة ترفض دخول بيت فيه كلب، أو دخول بيت تعلَّق فيه الصور.

قال ملك الصحافة الذي انضمَّ إلى الجمع قبل قليل:

ـ هذا حديث ورد في «صحيح البخاري».

كان قميصه الأبيض الأنيق ومن دون ياقة يزيد في سواد شعره المشذَّب إلى حدٍّ معين من كلّ أطرافه، ولم يكن ذا شارب، أو لحية، بل كان حليق الذقن. وبخلاف كلّ من كان يتحلَّق حول المائدة، فقد كان من أبناء الطبقة البورجوازيَّة الإسلاميَّة التي ظهرت مؤخَّرًا. وعلى الرَّغم من توقه إلى التأقلم مع نخبة البلد ذاتِ العادات الغربيَّة، فإنَّه لم يكن يحلم باصطحاب زوجته معه إلى مثل هذا العشاء، وهي التي تضع الحجاب على رأسها. وكان يرى أنَّها سوف تتضايق في وسط هذا الجمع. أمَّا في الواقع، فإنَّه هو الذي يتضايق إن كانت في صحبته. لا شكَّ في أنَّه مسرور بها كزوجة ـ فالله يعلم أيّ أُمٍّ معطاء هي لأولادها الخمسة ـ لكنَّه كان يراها خارج البيت، وخصوصًا خارج حلقتهما، امرأةً غير مرهفة وغير لائقة. فكان يراقب كلّ حركة من حركاتها ويصغي إلى كلّ ملاحظة تبديها مندهشًا، وكان يفضِّل أن تلزم البيت.

مكتبة الفكر الجديد

وهنا استوى في جلسته وقال:

ـ إنَّ الحديث لا يعمّم المنع على كلّ الصور، وإنَّما يُشير إلى اللوحات الشخصيَّة حتى يمنع عبادتَها.

قال رجل الأعمال:

ـ حسنًا، نحن في ورطة إذن.

ثم بسط ذراعيه ضاحكًا ضحكةَ مجاملة، وأشار إلى اللوحات الفنِّيَّة المعلَّقة على الجدران، وأضاف:

ـ لدينا كلب وعدد كبير من اللوحات الشخصيَّة، وفي بعض منها صورُ عاريات. ربَّما ستنهال الحجارة على رؤوسنا في هذه الليلة.

وعلى الرَّغم من نبرته البهيجة، فإنَّ كلماته أقضَّت مضجع بعض الضيوف الذين ابتسموا ابتسامات تنطوي على ضِيق. وهنا زمجر بوم ـ بوم فبانت أنيابه وعليها لعابُه الأبيض.

قالت سيِّدة الأعمال مخاطبة الحيوانَ الصغير:

ـ صه! ماما هنا!

ثم التفتت إلى زوجها، وقالت بنبرة أقلَّ مودَّة:

ـ لا تؤجِّج القِدْرَ علينا، فقد يحدث لنا مكروه.

ثم كرعت كأسًا من الماء وكان الانزعاج أصابها بالجفاف، واسترسلت في الحديث:

ـ والآن، ماذا كنت أقول؟ آه، عندما زرتُ الطبيب البيطري حاقت بي الدهشة عندما رأيت نساء محجَّبات في حجرة الانتظار وكلابهنَّ رابضة عند أقدامهنَّ! الواضح أنَّ المسلمين يتغيَّرون.

فقال ملك الصحافة:

ـ لا أوافق على أنَّهم يتغيَّرون. انظروا! فنحن نتمسَّك بالديانة، إلَّا

مكتبة الفكر الجديد

أنَّنا لا نتمتَّع بالحرِّيَّات التي تتمتَّعون بها. لقد ظلمتنا النخبةُ العصريَّة من أمثالكم على مدى عقود من الزمان. معذرة، لا أقصد الإهانة.

تمتمت بيري بصوت مرتعش كأنَّها متردِّدة في البوح بما يدور في ذهنها، إلَّا أنَّها، مرَّة أخرى، لم تستطع منع نفسها من الكلام:

ـ حتى لو كان ذلك صحيحًا، فقد ولَّت تلك الأيَّام وأصبحت من الماضي.

غير أنَّ ملك الصحافة اعترض قائلًا:

ـ لا أوافق. فالمظلوم يظلّ مظلومًا. أنتم لا تعرفون طعم الظلم. علينا أن نتشبَّث بالسلطة وإلَّا فسوف تخطفونها من بين أيدينا وتستعيدونها.

هتفت صديقة الصحافيّ التي كانت معروفة بإسرافها في تناول الشراب، وأشّرت بيدها إلى ملك الصحافة، وقالت:

ـ أنت لست مظلومًا! وزوجتك ليست مظلومة! بل إنَّني أنا المظلومة!

ثم ضربت على صدرها واستطردت:

ـ أنا بشعري الأشقر وتنُّورتي القصيرةِ ومساحيقِ تجميلي وأنوثتي وكأسِ نبيذي... إنَّني أنا الأسيرةُ في هذه الثقافة الاستبداديَّة.

اتَّسعت عينا الصحافيّ ذعرًا وهلعًا، وحاول أن يركلها من تحت الطاولة، في غمرة قلقه من أن تُثير صديقته غضب ملك الصحافة وحنقه، فتتسبَّبَ بفقدانه وظيفتَه، إلَّا أنَّ قدمه لبثت تتأرجح في الهواء من دون طائل.

قالت المضيفة في محاولة واهية غيرِ مُقنعة لتخفيف حدَّة التوتُّر:

ـ حسنًا، نحن مظلومون كلّنا.

مكتبة الفكر الجديد

وقال المتخصِّص بالجراحة التجميليَّة:

ـ الأمر بسيط. ففي حين يجني الناس أموالًا طائلة، فإنَّهم يطمحون إلى نمط أفضل من الحياة. لديَّ أعداد غفيرةٌ من المريضات المحجَّبات. وحين يخصّ الأمر النهودَ المترهِّلة والأعناقَ المملوءة بالتجاعيد، فإنَّ النساء المسلمات المتديِّنات لا يختلفن كثيرًا عن سائر النساء.

وهنا تنهَّد رجل الأعمال من صميم قلبه، وأوضح:

ـ هذا الكلام لا يُثبت إلَّا نظريَّةً واحدة، وهي أنَّ الرأسماليَّة هي العلاجُ الوحيد لكلِّ مشكلاتنا، وأنَّ علاج التطرُّف يكمن في السوق الحرَّة. لو أنَّ الرأسماليَّة تمكَّنت من السير في طريقها من دون تدخُّل لحقَّقتِ النصر على أعتى العقول المتعنِّتة.

وبعد أن قال قولته هذه، فتح علبة لحفظ السيجار، تحافظ على رطوبة التبغ وتزيِّن غطاءها صورةُ فيدل كاسترو، وقدَّمها إلى الصحافيّ قائلًا وهو يغمزه:

ـ علبة نادرة من السوق الحرَّة في بيروت. خذ سيجارًا واحدًا أو اثنين.

رمق الضيوف الذكور المضيفَ بنظرة غبيَّة، وراح كلّ واحد منهم يأخذ سيجارًا لنفسه.

قال رجل الأعمال:

ـ لا تقلقوا بشأن زوجتي، فالحرِّيَّة مشهود لها في هذا البيت. لا أحد يتدخَّل.

ضحك الحاضرون، فاضطرب بوم ـ بوم لمَّا سمع الجلبة وزمجر غاضبًا.

انتهزت بيري الفرصة وأشعلت سيجارة وتنبَّهت إلى أنَّ الخادمة التي

مكتبة الفكر الجديد

رأتها أمام المدخل بدأت الآن تسير على رؤوس أصابعها من حول الجالسين، وتضع أمامهم منافض السجائر. وتساءلت ما عسى أن يكون تفكير هذه المرأة في الحاضرين. لعلَّ الأفضل ألَّا تعرف الإجابة.

قالت سيِّدة الأعمال:

ـ عزيزتنا بيري مستغرقة في التفكير في هذه الليلة.

ردَّت بيري منحرفة عن الملاحظة:

ـ كان نهاري حافلًا.

مال زوجها إلى أمام كأنَّه يريد من الحاضرين أن يشاركوه في سرٍّ يكشف عنه. كان من دأبه أن يحتسي قهوته مركَّزةً ومن غير حليب، وفي فمه قطعة صغيرة من السكَّر. وحين بدأ مكعَّب السكَّر يذوب على لسانه، قال:

ـ يُخيَّل إليَّ أنَّ بيري تروقها أحيانًا الشخصيَّاتُ الروائيَّة أكثر ممَّا تروقها الشخصيَّاتُ في الحياة الواقعيَّة. وبدلًا من مجاملة أصدقائها، فإنَّها تفضِّل تعليق قصائدها المفضَّلةِ على خيوط في حجرة نومنا.

ابتسمت بيري، فكانتِ ابتسامتها طقسًا آخر من الطقوس التي تعلَّمتها من الأستاذ آزور.

قالت مصمِّمة الأثاث:

ـ إنَّني أحسدك، فأنا لا أجد الوقت الكافي للقراءة.

وقالت مديرة العلاقات العامَّة:

ـ آه، إنَّني مغرمة بالشعر، وقراءتُه تجعلني أشعر كأنَّني تخلَّيت عن كلّ شيء وانتقلت إلى قرية من قرى صيد الأسماك. إنَّ إسطنبول تُفسد أرواحنا!

وقال رجل الأعمال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ تعالي إلى ميامي، فنحن اشترينا بيتًا يُطلّ على المحيط.

عقدت زوجته حاجبيها وأكَّدت:

ـ يا لوقاحة هذا الرجل! لا يملك أيَّ إحساس فنِّيّ. نحن نتحدَّث عن الشعر، وهو يتحدَّث عن ميامي.

فاحتجَّ رجل الأعمال قائلًا:

ـ ماذا فعلتُ في هذه المرَّة؟

لم ينتقده أحد، لأنَّ ما يملكه من ثراء فاحش يجعل انتقادَه علانيَّةً مستحيلًا.

في هذه اللحظة، رنَّ جرس الباب رنَّةً واحدة، رنَّتين، ثلاثَ رنَّات. مزيج من الإحباط والاعتذار وضيق الصبر. فوثبت سيِّدة الأعمال من على كرسيِّها قائلة:

ـ آه، أخيرًا! لقد وصل الوسيط الروحانيّ!

فندَّت عن الجالسين صرخةٌ واحدة:

ـ مرحى!

وهرع بوم ـ بوم ناحيةَ الباب ينبح ويزمجر في اهتياج.

وفي غمرة الجلبة التي حدثت بعد ذلك، تناهى إلى أذنَيْ بيري صوتُ هاتف يرنّ، فما كان منها إلَّا أن مدَّت يدها إلى هاتف زوجها وتفحَّصتِ الشاشة فوجدت رسالة مفصَّلة من والدتها، وإن كانت قد أخبرتها بألَّا تكتب لها سوى عبارة: «اتَّصلي بي». كانت الرسالة تقول: «عثرت على الرقم، ففاتني برنامجي التلفزيونيُّ المفضَّل». وتحت هذه العبارة معلوماتٌ تفيد: «رقم شيرين ١٨٦٥٠... تراقصت الأرقام أمام بصر بيري؛ مجموعةُ أرقام سرِّيَّة لفتح خزانة ظلَّت مقفلةً زمنًا طويلًا.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

مفسِّر الأحلام

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

وصل الأستاذ آزور إلى الفصل الدراسيّ متأبِّطًا عددًا من الكتب، وخلفه شخصٌ آخر ـ تبيَّن بعدئذٍ أنَّه البوَّاب ـ دافعًا أمامه عربةَ يد، فيها مدفأةٌ خزفيَّة ولفائفُ من ورق أسود وجهازُ تشغيل أقراص مدمجة وعددٌ من الوسائد كالتي يمكن العثور عليها في الطائرات. سار الرجلان إلى منتصف قاعة الدرس وأفرغا محتويات العربة.

فكَّرت بيري في نفسها: «كما المسرحيَّةُ، إنَّه ممثِّل على خشبة مسرح، ونحن النظَّارة».

قال آزور مخاطبًا البوَّاب:

ـ أشكرك على تجشُّمك كلَّ هذا العناء يا جيم. إنَّني مَدين لك هذه المرَّة.

ـ على الرحب والسعة أيُّها الأستاذ!

ـ لا تنسَ أن تحضُرَ وقت انتهاء الدرس.

فأومأ الرجل إيماءة لامبالية واستأذن بالانصراف. تفحَّص آزور الوجوه الشابَّة المفعمةَ بالانتظار وهي من حوله. بدت عيناه مرهقتين من تحت الضياء، لونهما الأخضر أشدّ حلكة؛ غديرُ ماء في غابة حرَّكتْه حلقاتٌ دائريَّة من التيَّار. وقال متسائلًا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ كيف حالكم في هذا الصباح؟

ـ فجاءه الردّ في جوقة مفعمة بالحيويَّة.

ـ حسنًا، إذا أردتم أن تكملوا ما فاتكم من نوم، وهو ما ثبتت استحالته علميًّا، فلدينا فرصة مُواتية هنا. هل يمكنكم توزيع هذه الوسائد بينكم؟

أخذ كلّ طالب وطالبة وسادة. وفي هذه الأثناء، شغل الأستاذ نفسه بالمدفأة.

فشرع كيڤن في الكلام:

ـ هل سنضرم النار في الكلِّيَّة يا حضرة الأستاذ؟

ـ كيف أدركت خططي الشيطانيَّة؟ لا، لن نحرق شيئًا.

بعد لحظات قصيرة، توهَّجت المدفأة الكهربائيَّة بوهج أحمر.

ـ حسنًا أيُّها الفتيان وأيَّتها الفتيات. دعونا نتظاهر بأنَّكم في حجراتكم الدافئة المريحة، والجوُّ في الخارج متجمِّد تمامًا. فماذا في وسعكم أن تفعلوا سوى الخلود إلى النوم؟

رمق الطلبة أحدهم الآخر بنظرة سريعة، فاستطرد آزور آمرًا:

ـ ضعوا رؤوسكم على وسائدكم.

امتثلوا لِما أمرَهم به. الكلُّ باستثناء بيري التي لبثت معتدلة مثل مِدَكٍّ، مفتوحةَ العينين، ملؤهما الشكُّ والارتياب.

ـ هذه هي الخلاصة يا بيري، احذري. فأنت لا تدرين، فقد أكون ملأت الوسائد بقطط غاضبة.

فاحمرّ وجهها خجلًا وامتثلت لأمره.

أمسك آزور بعدئذٍ الورقة السوداء وأخرج لفافة من شريط لاصق من

مكتبة الفكر الجديد

جيبه، وبدأ يغطّي النوافذ. فغرقت الحجرة في العتمة بعد أن غاب عنها الضوء المتسلّل من الخارج. ثم بدأ بتشغيل جهاز الأقراص المدمجة، فخيَّم على الجالسين صوتُ حريق متأجّج.

فسأل كيفن مجدَّدًا:

ـ ما نحن فاعلون أيُّها الأستاذ؟

ـ سوف نذهب إلى منطقة غالبًا ما كان رينيه ديكارت(١) يزورها. منطقة أحلام.

كتم أحد الطلبة ضحكته، غير أنَّ الاهتمام كان واضحًا على وجوه سائر أفراد المجموعة.

ـ كان في مثل سنِّكم هذا الفيلسوف العظيم. فهل حقَّق أيّ واحد منكم منجزًا رائعًا حتى الآن؟

لم يُجب أحد.

ـ كانت لديكارت طموحات عظيمة، أمَّا طموحاتكم فهي أعظم. وأنا واثق بكلامي. غير أنَّ طموحاته كانت تستند إلى البحث الطرائقيّ والفلسفيّ.

---

(١) رينيه ديكارت (René Descartes، ١٥٩٠ ـ ١٦٥٠)، فيلسوف ورياضيّ وفيزيائيّ فرنسيّ. خدم في الجيش وجال في أوروبا، واستقرّ في هولندا سنة ١٦٢٩ وأقام بها عشرين عامًا. توفِّي في ستوكهولم في أثناء زيارة قام بها تلبية لطلب من الملكة كريستينا. نسَّق رموز الجبر، ووضع القواعد الأساسيَّة للمعادلات، وابتكر الهندسة التحليليَّة مع فرما. له اكتشافات رياضيَّة وفيزيائيَّة مهمَّة. تستند فلسفته إلى التحرُّر من الفلسفة التقليديَّة المدرسيَّة، واعتماد طريقة الشكّ المنهجيّ وتحديد منطق الرأي الواضح الصريح المبنيّ على الحدس والاستنتاج. فاستنتج وجود الإنسان انطلاقًا من المبدأ القائل: «أنا أفكِّر، إذًا أنا موجود». كما استنتج وجود الله من تصوُّرنا لكماله الإلٰهيّ. أشهر كتبه «تأمُّلات في ما وراء الطبيعة» و«مبادئ الفلسفة» و«أهواء النفس»، فضلًا على «مقالة الطريقة»، وهو أشهر مؤلَّفاته (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

فقال برونو:

ـ كذلك شأن طموحاتنا.

جال آزور ببصره واستطرد:

ـ سوف نزور رؤى ديكارت. ففي الحلم الأوّل، نجد الفيلسوف الشابّ يشقّ طريقه صعودًا إلى أعلى تلّ. كان يخشى أن يتدحرج، ويعرف أيضًا أنَّه ينبغي له بذل جهود شاقَّة حتى يصل إلى أهدافه ومراميه، بيد أنَّه يعتقد أنَّه لا يمكنه تحقيق أيّ شيء من دون مساعدة قوَّة جبَّارة متمثِّلة في الربّ.

أصغت بيري ورأسُها فوق المخدَّة، وعيناها نصف مغمضتين.

ـ ويشاهد ديكارت كنيسة على مسافة بعيدة. إنَّها بيت الربّ، فتحمله الريح عاليًا بقوَّة ليصطدم بأسوارها. فينهض على قدميه وينفض الغبار عن نفسه، ويدخل الفناء حيث يجد رجلًا يحاول أن يعطيه ثمرة بطِّيخ، وهي ثمرة من بلد أجنبيّ.

فتمتم إيد الجالس إلى جانب بيري:

ـ يا له من حلم غريب.

كان إيد قد أحضر معه علبة بسكويت، فتحها وقدَّم إلى الجالسين إلى يمينه وشماله.

استرسل آزور في كلامه قائلًا:

ـ يستيقظ ديكارت من حلمه متألِّمًا. ينزّ عرقًا، وينتابه قلق خشية أن يكون الشيطان وراء ذلك الحلم. من أين مصدرُ الأفكار الشرِّيرة: من الخارج، أم من الداخل؟ يتضرَّع إلى الربّ أن يحميه. لكن ما هو

مكتبة الفكر الجديد

الربّ؟ قوَّة خارجيَّة أم نتاجٌ ذهنيّ؟ هذا هو السؤال الذي سيؤدِّي به إلى الحلم الثاني حين يتمكَّن من الخلود إلى النوم مجدَّدًا.

انتقل آزور إلى التسجيل التالي على القرص المدمج، فامتلأت الحجرة بصوت هزيم الرعد:

ـ ثمَّة عاصفة تضرب أطنابها من حول الفيلسوف. زوبعةٌ مدمِّرة توشك أن تصل إليه. وتساءل عن سبب حدوث الأمور المزعجة في الحياة. كيف يمكن للربّ أن يترك هذه الأمور تحدث؟ احتار ديكارت وتشوَّش فكره. كان وحيدًا وممتعضًا. فهذا الحلم يقبض النفس ويوقع الكآبة فيها.

فكَّرت بيري في شقيقها أوميد، لا كما آلت إليه حالته اليوم، محدودبًا، يجلس إلى طاولة حيث يصنع للسيَّاح الذين لن يعرفهم أبدًا، أجراسَ الريح من أصداف البحر، بل لأنَّه كان شابًّا مثاليًّا أراد ذات مرَّة أن يغيِّر وجه العالم ويضع كلّ حقٍّ في نصابه. وتذكَّرت الأحاديث التي كانت تتجاذبها مع والدها، محاوِلَةً أن تفهم السبب الذي جعل الربّ يتخلَّى عنهم كما تظنّ. شعرت بوجع في بلعومها، وكان الحزن الذي أطبق عليها من القوَّة ما جعل عينيها تترقرقان بالدمع. لم تعرف بماذا تؤمن. لعلَّ الأقدار كانت لعبة لا يلعبها إلَّا من كان سعيدًا في طفولته.

سارعت بيري في طرح سؤال لتوقف فيض المشاعر السلبيَّة:

ـ والحلم الثالث أيُّها الأستاذ؟

رمقها آزور بنظرة غريبة، وقال:

ـ حسنًا، الحلم الثالث هو أهمّ الأحلام، إذْ يشاهد ديكارت كتابًا فوق منضدة، معجمًا من المعاجم، ديوانَ شعر، فيفتحه على سجيَّته

مكتبة الفكر الجديد

ويقرأ قصيدة من نظم أوسونيوس[(١)].

فسأل برونو حائرًا ومرتبكًا:

ـ مَن؟

ـ ديسيموس ماغنوس أوسونيوس؛ الشاعرُ والنحويُّ والبلاغيُّ الرومانيُّ.

ثم أشار آزور بإصبعه إلى بيري وأردف:

ـ أتدرين أنَّه زار مدينتك القسطنطينيَّة؟ وأنّه درَّس ابن الإمبراطور قسطنطين؟

فهزَّت بيري رأسها نافية.

فقال آزور:

ـ كان أوَّل بيت شعر في قصيدته هو: «أيَّ طريق أسلك في الحياة»؟ فيظهر رجل للعيان ويسأل ديكارت عن رأيه فيه، غير أنَّ

(١) ديسيموس ماغنوس أوسونيوس (Decimus Magnus Ansonius، ٣٩٥ م تقريبًا): شاعر لاتينيّ، وُلد في بورديغالا (بوردو لاحقًا)، وتلقَّى تعليمه فيها وفي مدينة تولوز. مارس التعليم في مسقط رأسه ثلاثين عامًا، إذْ كانت يومئذ مركزًا ثقافيًّا بالغ الأهمِّيَّة في بلاد الغال. تلقَّى دعوة من البلاط الإمبراطوريّ إلى تعليم الإمبراطور، فكانت تلك نقطة التحوُّل في حياته، إذْ راح يتقلَّد منذئذ المناصب الرفيعة في الدولة، وضمنها منصبُ حاكم بلاد الغال وأفريقيا، إلَّا أنَّه عاد إلى بوردو بعد اغتيال الإمبراطور غراتيانوس في سنة ٣٨٣. أصبح كاتبًا غزير الإنتاج في نظم الشعر لكنَّه لم يكن موهوبًا في النقد الذاتيّ، فنشر ابنه هيسبيروس بُعَيْد وفاته الأعمال الكاملة لوالده وهي: ٣٠ قصيدة قصيرة عن الأصدقاء والأقرباء، قصائد لإحياء ذكرى أساتذة بوردو، والرسائل المتبادلة بين الإمبراطور المغدور وصديقه وتلميذه بوليانوس، وهي رسائل توضح الخلاف المُرّ بين الثقافتين النصرانيَّة والوثنيَّة، إضافة إلى قصيدة «موزيلا» التي تصف وصفًا مدهشًا نهر «موزيل» في فرنسا وما يجاوره من ريف ساحر. وقيل إنَّها أوَّل قصيدة في الأدب الفرنسيّ (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الفيلسوف لا يتمكّن من الإجابة. وفي غمرة خيبة أمله، يتوارى الرجل عن الأنظار، فيشعر ديكارت بالحرج والاضطراب. تستولي الشكوك عليه، شأنه في ذلك شأنُ كلّ المثقَّفين من بني البشر. والآن، مَنْ ذا الذي يريد أن يفسِّر هذا الحلم؟

فقال برونو:

ـ تلك البطّيخة تبدو مشاغبة. ربَّما كان ديكارت في ذلك المختلى، وكان مولعًا بذلك الرجل كائنًا من كان.

تنهَّد آزور وقال:

ـ ربَّما، أو ربَّما ليس كذلك. فالمعجم يمثِّل العلم والمعرفة، والشعرُ يرمز إلى الفلسفة والحبّ والحكمة. وظنَّ أنَّ الربّ طلب منه أن يجمع الثلاثة معًا بواسطة العقل، وأن يبتكر «علمًا مدهشًا». سؤالي الموجَّه إليكم هو: هل في وسعكم ابتكار علم مدهش خاصٍّ بكم لدراسة الربّ؟

فسألت منى:

ـ وكيف نبتكر ذلك؟

فردَّ آزور:

ـ بموسوعيَّة ثقافتكم. اجمعوا مختلف صنوف المعارف ولا تركِّزوا في موضوع الدِّين وحده، بل ابتعدوا عنه حقيقة، لأنَّه يفرِّق ويربك. الجأوا إلى الرياضيَّات والفيزياء والموسيقى والرسم والشعر والرقص... تقرَّبوا من الربّ من خلال قنوات أخرى بعيدة الاحتمال.

امتلأت بيري حماسة. فكَّرت إن كان في ميسورها أن تبتكر علمًا خاصًّا بها، عندئذ سيكون ذلك مدهشًا. هل يمكنها أن تضع في ذلك المزيج حبَّها وهيامها بالكتب، وشغَفها بالعلم والتعلُّم والشعر، وحزنَها الذي لا يكلّ ولا يفتر ولا ينضب، وأن تُضيف إليه روحَ شقيقها الأكبر

مكتبة الفكر الجديد

الكسيرةَ، وأحشاءَه الممزَّقة، وتجديفَ والدها وعاداتِه في الشراب، وصلواتِ أمّها، ونزفَ يديها، وغضبَ شقيقها الأصغر المتأجِّجَ، وتخلط ذلك كلَّه ليصبح مادَّة قويَّة يمكن الاعتماد عليها؟ هل يمكن صنع ما هو لذيذ من هذه المقادير البائسة؟

قال آزور:

ـ إنَّ الحلم الثالث يدفعني إلى التفكير إن كان الفيلسوف خائفًا من أن يُصدر الآخرون حكمًا عليه. في نظرنا، هو الفيلسوف العظيم رينيه ديكارت! إلَّا أنَّه عَدّ نفسه إنسانًا ضئيل القيمة، عديمَ الشأن. فإذا ما اعتقد أيّ واحد منكم أنَّه ليس شخصًا مميَّزًا بما يكفي، فليتذكَّر أنَّ ديكارت نفسه ساوره مثلُ هذا الإحساس في بعض الأحيان.

خفضت بيري بصرها، وفهمت ما كان يفعله آزور، فأحبَّته وكرهته لذلك. كان يخبرها، هي وحدها، أن تولي نفسها ثقةً أكبر، فهو لم ينسَ الحديث الذي دار بينهما في غرفته.

حين فرغ آزور من إلقاء محاضرته، بدأ بتشغيل جهاز الأقراص المدمجة ليُسمعهم الجزءَ الأخير منه، وهو موسيقى بيتهوفن[1] Missa Solemnis وقال:

ـ أَغرقوا أنفسكم فيها، اخلدوا إلى النوم مجدَّدًا!

وضعوا رؤوسهم على الوسائد وتذوَّقوا طعم الموسيقى، من دون أن ينبس أحد بكلمة.

ثم أعلن الأستاذ، وهو يضغط على زرّ التوقُّف: انتهت المحاضرة. في اللحظة نفسها تناهى إلى مسامع الجميع صوتُ قرع خفيف على

---

(١) بيتهوفن (Beethoven، ١٧٧٠ ـ ١٨٢٧): من كبار الموسيقيِّين الألمان. وُلد في بون. من أهمّ مؤلَّفاته السيمفونيَّاتُ التسع وأجملها الثالثة والسادسة والتاسعة، وخاتمتها «نشيد الفرح» (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الباب، فهتف آزور في اتِّجاهه:

ـ ادخل يا جيم. في الوقت المحدَّد دومًا.

فدخل البوَّاب، وتوجَّه مباشرة إلى المدفأة ليحملها.

قال آزور:

ـ حسنًا أيُّها الطلبة! اكتبوا، في ضوء نقاشنا لهذا اليوم، مقالةً عن ديكارت في «البحث عن اليقين والريب»(١). وقبل أن تبدأوا الكتابة، تأكَّدوا من البحث في المصادر، لأنَّ التفكير من دون معرفة ليس سوى إطلاق العنان للهذر. هل فهمتم؟

فهتف الطلبة بصوت واحد:

ـ نعم أيُّها الأستاذ!

*

عندما خرجت بيري من قاعة الدرس، كان رأسها يدقّ دقَّات عنيفة، وكانت ريح الأشياء وقوَّتُها خارج نطاق السيطرة، مثل: ثنائيَّة الخير والشرّ، وضرورة فهم الفوضى، والقوانين الضمنيَّة في الأحلام، ونوعيَّة الحياة التي تبدو كالحلم، ووحدة الفيلسوف الشابّ الباحثِ عن الحقيقة، والبيت الأوَّل من قصيدة قديمة لا تزال له قيمتُه حتى اليوم:

(١) أصل حكاية هذه الأحلام الثلاثة هو أنَّ ديكارت كان في العاشر من تشرين الثاني ١٦١٩ في نواحي مدينة أولم جنوبي ألمانيا، حيث سكن في غرفة تتوسَّطها مدفأة. وقد أطلق عليها ديكارت ومؤرِّخوه اسم «مدفأة ديكارت». وفي هذه الغرفة، في العاشر من تشرين الثاني، حدثت له رؤيا عجيبة هي رؤية علم رياضيّ. وفي الليلة نفسها، حلم بثلاثة أحلام فسَّرها بأنَّها دعوة له إلى إنشاء علم مدهش، فنذر أن يحجّ إلى كنيسة نوتردام دي لورت. وقد وَفَى بنذره هذا في ما بعد. ويبدو أنَّ هذه الأحلام أو الرؤى، كانت تخصّ ما سيقوم به مستقبلًا من إيجاد بعض الرموز (مثل الأسّ)، والمزج بين الجبر والهندسة، ما أدَّى به إلى وضع أساس الهندسة التحليليَّة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

أيّ طريق ينبغي لي أن أسلك في الحياة؟ شيء ما في داخلها تغيّر في أثناء إصغائها إلى آزور. تغيير طفيف يكاد يكون غير محسوس، لكنّه متعذِّر الإلغاء، يترك فراغًا تخشى أن تحدِّق فيه خشية أن ترى ما فيه. ومن خلال شخصيَّتها المتحفِّظة، حدث تصدُّع أماط اللثام عن قلبها المتسارع الخفقان، وتمنَّت لو أنَّه استطرد في الكلام، على مدى أيَّام من غير توقُّف، لها وحدها من دون سواها.

عندما تكلَّم آزور عن الربّ والحياة والإيمان والعلم، كانت كلماته متماسكة مثل حبَّات صغيرة من أرزّ مطبوخ على البخار، على استعداد لإطعام الأدمغة الجائعة. وشعرت بيري في صحبته بأنَّها مكتملة، غير مجزَّأة، كأنَّ ثمَّة وسيلة أخرى بعد هذا كلّه للنظر إلى الأشياء، تختلف اختلافًا بيِّنًا عن نظرة والدها وعن نظرة والدتها. لقد وجدت في كلمات آزور منفذًا يؤدِّي بها إلى خارج الثنائيَّة المرهقة التي نشأت وترعرعت فيها داخل أسرة نالبانتوغلو. فهي حين تكون على مقربة من آزور، يصبح في إمكانها أن تتقبَّل مظاهرها المتعدِّدة، وتظلّ بالرَّغم من ذلك موضعَ ترحيب. لم تكن مضطرَّة إلى أن تقمع أيّ مظهر من مظاهرها، ولا أن تسيطر عليه أو تُخفيه. كان عالم آزور خارج الثنائيَّات الجامدة، كثنائيَّة الخير والشرّ، الربِّ والشيطان، النورِ والظلام، الخرافةِ والعقل، الإيمانِ والإلحاد. كان آزور يسمو على كلّ الخلافات التي كانت تعكِّر حياة منصور وسلمى على مدى أعوام طويلة، وانتقلت بعد ذلك إلى ذرِّيَّتهما. شعرت بيري في صميمها، وإن لبثت تنكر ذلك أطولَ مدَّة ممكنة، بأنَّها مبهورة بأستاذها. ثمَّة شيء خطورته مثيرة للرعب والهلع في توقُّعها أنَّ شخصًا ما لديه الإجابةُ عن أسئلتنا، وأنَّ ثمَّة طريقًا مختصرة من خلال ذلك الشخص تؤدِّي إلى كلّ ما لم تجد له حلًّا حتى الآن.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

العباءة

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

ـ فكِّروا في موضوعات جديدة، تجمع دائمًا. إنَّنا غالبًا ما نسعى إلى اختزال فهمنا عن الربّ في جواب واحد، وفي صيغة واحدة. وهذا خطأ!

كان الأستاذ آزور يذرع قاعة الدرس ذهابًا وإيابًا، واضعًا يديه في جيبيه.

قال إنَّ أذكى الباحثين كانوا، إلى عقود قليلة خلت من الزمان، على يقين بأنَّ الدين سوف يختفي من على وجه البسيطة بحلول القرن الحادي والعشرين. إلَّا أنَّ التديُّن، بدلًا من ذلك، ظهر في أواخر سبعينيَّات القرن العشرين ظهورَ المغنِّية الأولى في الأوبرا. ومنذ ذلك اليوم، يبدو أنَّه جاء ليبقى، صوتُه أشدّ علوًّا على مرور السنين:

ـ وما المناقشات الحامية التي تدور في يومنا هذا إلَّا وهي تخصّ أمورًا ذات صلة بالدين.

كان يُفترض بهذا القرن من الزمان أن يكون أكثر تديُّنًا من القرن السابق، ديموغرافيًّا في الأقلّ، ما دام الأتقياء ميَّالين إلى إنجاب أطفال أكثر عددًا من العلمانيِّين. لكن في غمرة هوسنا بالخلافات الدينيَّة

مكتبة الفكر الجديد

والسياسيَّة والثقافيَّة، أغفلنا أحجية بالغةَ الأهمِّيَّة، وهي الربّ. ففي الماضي من الزمان، جاهد فلاسفة ـ وتلامذتُهم ـ في حلٍّ مشكلة الربّ أكثر من حلِّ مشكلة الدين. أمَّا اليوم، فالقضيَّة معكوسة. المناظرات بين المؤمنين والملحدين، التي غدت شائعة تمامًا في الأوساط الثقافيَّة على كِلَا جانبي المحيط الأطلسيّ، تدور عن السياسة والدين والوضع الدوليّ أكثر ممَّا تدور عن الربّ. إنَّنا، بإضعاف قدراتنا الإدراكيَّة من أجل طرح مشكلات وجوديَّة وإيبستيمولوجيَّة عن الربّ، وقطعِ صلاتنا بفلاسفة الأزمنة الماضية، نفقد قدسيَّة الخيال.

رأت بيري أنَّ معظم الطلبة يدوِّنون ملاحظات، عازمينَ على ألَّا تفوتهم كلمة واحدة ممَّا ينطق به آزور. أمَّا هي، فكانت تكتفي بالاستماع إليه.

قال آزور:

ـ أعداد من الناس أكثر ممَّا يجب يعانون مرضًا... أتعرفون ما هو؟

قال كيڤن:

ـ لعنة مرض السُّمنة!

وقالت إليزابيث:

ـ جنون العظمة عند المجانين؟

فابتسم آزور كأنَّه كان يتوقَّع هذين الجوابين، وقال:

ـ بل هو مرض اليقين.

كان اليقين يمثِّل حبّ الاستكشاف ما تمثِّله الشمس لجناحي

مكتبة الفكر الجديد

إيكاروس[1] المسرف في التحليق في الفضاء. فإذا ظهر طرفٌ ظهورًا قويًّا، فإنَّ الطرف الثاني لا يستطيع البقاء حيًّا. وجاء اليقين برفقةِ الغطرسة، ومع الغطرسة جاء العمى، وجاء برفقة العمر الظلامُ، وجاء مع الظلام يقينٌ أكبر. وهذا ما أسماه آزور الحشوَ في الإيمان.

وفي المحاضرات، لن يكونوا متأكِّدين من أيّ شيء، ولا حتى من مفردات المنهاج الدراسيّ الذي كان، أسوة بكلِّ شيء، قابلًا للتغيّر. وهم صيَّادون يُلقون شباكهم الواسعة في بحر المعارف. وفي نهاية المطاف، قد يصطادون سمكة سياف أو يعودون صفر الأيدي.

ثمَّة مسافرون أيضًا، رفاق في الدرب، ما زال أمامهم الوقت للوصول في أيّ لحظة إلى هدف معيَّن، وقد لا يصلون. حسبهم أنَّهم يبذلون محاولة في البحث، لأنَّه لا يتَّضح سوى هذا الشيء في عالم معقَّد مراوغ: المثابرة أفضل من الكسل، والروح المعنويَّة العالية أفضل من اللامبالاة وفتور الشعور. الأسئلة أهمّ من الأجوبة. وحبُّ الاستكشاف أسمى من اليقين. وهم باختصار «المتعلِّمون».

يمكن تخيُّل مرض اليقين على أنَّه عباءة يمكن خلعها، وإن كان يستحيل التخلِّي عنها مرَّة واحدة إلى ما لا نهاية.

ـ صحيح أنَّها استعارة. أنا أتَّفق وإيَّاكم، لكن لا تنتقصوا من شأن الاستعارات، لأنَّ كلّ استعارة تغيِّر صفةَ المتكلِّم. فكلمة استعارة، عند الإغريق، تعني «التحويل».

قال آزور إنَّه من الآن فصاعدًا يفضِّل أن يخلع كلّ واحد منهم

---

(١) إيكاروس نجل ديدالوس الذي حلَّق مع أبيه من جزيرة كريت، لكنَّ الشمس أدَّت إلى ذوبان الشمع الذي ثبَّت جناحيه فسقط في البحر الذي سُمِّي باسمه قرب اليونان (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

عباءته قبل دخوله قاعة الدرس. وهذا ينطبق عليه هو أيضًا لأنَّه كان بدوره ميّالًا أيضًا إلى ارتداء عباءة. واستطرد موضحًا:

ـ فكِّروا في العباءة على أنَّها معطف قديم، تعلِّقونه على حبل. أنا شخصيًّا علَّقت عباءتي خارج هذا الباب، وإذا أردتم الخروج وإلقاء نظرة، فعلى الرحب والسعة.

استغرق الطلبة دقيقة واحدة كي يدركوا أنَّه كان جادًّا في كلامه. فكانت سوجاتا أوَّل من نهض، واجتازت القاعة وفتحتِ الباب وخرجتْ إلى الردهة. وانفرجتْ أساريرها لما شاهدت ملقط الغسيل، فتظاهرت بأنَّها تملك عباءة تضعها على كتفيها، فخلعتها وعادت أدراجها منتصرة. ثم حذا بقيَّة الطلبة حذوها. وعندما حان دور بيري، قرأت الملاحظة المدوَّنة تحت الوتد: ملقط غسيل النفس.

أخيرًا، خطا الأستاذ آزور خارجًا. وتبيَّن من خلال الحكم على خبطه ذراعيه في الهواء أنَّ عباءته كانت ثقيلة إلى حدٍّ ما. وبعد أن تخلَّص منها، عاد إلى قاعة الدرس وصفَّق يديه:

ـ عظيم! بعد أن تخلَّصنا الآن من الأنا، وإن رمزيًّا، فما علينا سوى أن نبدأ.

تساءل برونو هازًّا رأسه:

ـ لماذا فعلنا ما فعلناه؟

أجاب آزور:

ـ الطقوس مهمَّة، فلا تبخسها حقَّها. والدِّينُ يفهم هذا الشيء. غير أنَّ الطقوس ليست مضطرَّة إلى أن تكون طقوسًا دينيَّة. إنَّنا سنشارك كلّنا في هذه الممارسة في هذه الحلقة الدراسيَّة.

مكتبة الفكر الجديد

ثم التقط قلمًا وكتب على السبُّورة: الربّ بصفته كلمة، وأوضح:

ـ الحضارة، كما نفهمها اليوم، تناهز الستَّة آلاف عام. لكنَّ الجنس البشريّ يتجاوز هذا العمر بكثير، إذ عُثر على جماجم ترجع إلى ٢٩٠ مليون عام خلت. وما نعرفه عن أنفسنا ضئيل الشأن مقارنة بما سنكتشفه مستقبلًا. إذْ توضح الأدلَّة الأثريَّة بجلاء أنَّ الجنس البشري لبث على مدى آلاف السنين يفكِّر في الإلٰه أو الآلهة في أشكال متعدِّدة: شجرةٍ وحيوانٍ وقوَّةٍ من قوى الطبيعة أو شخصٍ من الأشخاص. ثم حدثت طفرة في الخيال في وقت ما في أثناء سريان التاريخ، إذ تحوَّل البشر من التفكير في الإلٰه على أنَّه شيء محسوس إلى التفكير فيه بصفته كلمة. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد كلّ شيء كما كان سابقًا.

جال آزور ببصره حوله متنبِّهًا إلى أنَّ بيري كانت الوحيدة بين الجالسين التي لا تدوّن أيّ ملاحظات. فقال لها:

ـ هل أنت مصغية إليّ يا فتاة إسطنبول؟

حاولت بيري ألَّا تحمرّ خجلًا تحت نظراته، فاعتدلت في جلستها وقالت:

ـ نعم يا أستاذ!

لبثت أنظاره ثابتة عليها بضع لحظات أخرى، مفتوحةً وواثقةً كأنَّه كان يتوقَّع منها أن تقول شيئًا آخر مختلفًا. ولمَّا لم تقل شيئًا مغايرًا، خيَّبت آماله. فما كان منه إلَّا أن وجَّه ملاحظته التالية إلى بقيَّة الطلبة:

ـ لو أنَّني أخبرتكم بأنَّ الربّ ينتظرنا من وراء هذا الباب، فإنَّكم لن تتمكَّنوا من رؤيته، لكن في مستطاعكم أن تسمعوا صوته، فماذا تريدون منه أن يقول لكم؟ ليس بصفتكم ممثِّلين عموميِّين عن البشر، وإنَّما

مكتبة الفكر الجديد

بصفتكم أشخاصًا يمثِّل كلّ واحد منكم نفسه، لا شيئًا آخر؟

قال آدم:

ـ أودّ أن أسمع منه أنَّه يحبّني.

وقالت كيمبر:

ـ نعم، إنَّ الربّ يحبّني، وإنَّه سعيد لمعرفة أنّني أنا الأخرى أحبّه.

وكرَّر آخرون العبارة نفسها التي تتضمَّن المحبَّة.

أمَّا كيفن، فقال:

ـ إنَّه يتَّفق وإيَّاي على أنّ كلّ هذا الحديث الذي نتحدَّث به عنه تافهٌ.

وقال آفي:

ـ لحظة! لا يمكن للربّ أن يخبرك بذلك إلَّا إذا كان موجودًا. أنت تناقض نفسك.

قطَّب كيفن جبينه:

ـ إنَّني مستمرٌّ في هذه اللعبة السخيفة لا أكثر.

حان الآن دور مني:

ـ أودّ أن أسمع من الربّ أنَّ الجنَّة حقيقة، وأنَّ الناس الطيِّبين ستكون الجنَّة مأواهم، وأنَّ الحبّ والسلام سوف ينتشران في كلّ مكان إن شاء الله.

فالتفت آزور إلى بيري التفاتةً سريعة، فلم يتوافر لها الوقت الكافي لتفادي نظراته، ووجدت استحالة إبعادها عنها.

قال لها متسائلًا:

ـ وأنتِ؟ ماذا تريدين أن يقول الربّ لك يا بيري؟

مكتبة الفكر الجديد

قالت:

ـ أودّ أن أسمع منه اعتذارًا.

لم تعرف من أين صدرت تلك الكلمات، إلَّا أنَّها لم تبذل أيّ جهد في التوقُّف عن الكلام. فقال آزور:

ـ اعتذار؟ لماذا؟

فردَّت بيري:

ـ على ما يحدث من ظلم.

ـ أتعنين الظلم الذي حاق بك، أم بالعالم؟

فقالت بيري بهدوء أكبر ممَّا كانت ناوية عليه:

ـ كلاهما.

خارج المبنى، التوت ورقة منفردة من أوراق شجرة البلُّوط المعمِّرة تحت وطأة الريح التواءةً أخيرة وسقطت على الأرض. أمَّا داخل المبنى، فقد كان الطلبة مشدودي الانتباه انشدادًا جعل الصمت يبدو محسوسًا إلى أبعد الحدود.

قال آزور وسط السكينة والهدوء:

ـ العدالة! يا لها من كلمة وهميَّة من مبتكرات الخيال. العدالة، على أيّ أساس، أو في حكم مَن؟ إنَّ أشدّ المتعصِّبين، طوال التاريخ، ارتكبوا أشدّ المظالم فظاعة باسم العدالة.

ثم ازدادت حدَّة نبرة آزور وهو يسترسل في قوله:

ـ كما ترون، لقد أثمرت مناقشتنا في موضوع الربّ عن مقاربتين اثنتين. ونحن نشكر كيڤن على اللعب الذي مارسه في أثناء ذلك. المقاربة الأولى تقرن الربّ بالحبّ، فنحن إذْ نبحث عن الربّ، فإنَّما نبحث عن

مكتبة الفكر الجديد

الحبّ. ثم هناك مقاربة بيري المتمثِّلة في البحث عن العدالة.

ابتلعت بيري لعابها في صعوبة. كانت قد فتحت قلبها، وها هو آزور قد أمسك الآن بمبضع وراح يقطعه على مرأى من الجالسين. فإذا كان لا يسامحها على أفكارها، فما السبب الذي دفعه إلى تشجيعها على الإدلاء برأيها قبل كلّ شيء؟ زِدْ على ذلك، كيف يمكن أن تكون مهتمَّة بالتشدُّد والتطرُّف؟ فهي ابنة أبيها، والتعصُّب هو آخر شيء يمكن أن تتَّصف به!

لم يسمع آزور أيًّا من هذه الاحتجاجات الصامتة، فأشار بإصبعه إلى بيري ونبَّهها:

ـ ينبغي لك أن تكوني على حذر عند التفكير في كلمة «عدالة»، إذْ يُحتمل كثيرًا أنَّ الناس الذين يفكِّرون في أفكار مثلك، هم الذين يجعلون هذا العالم أسوأ! فكلّ المتشدِّدين يشتركون في أمر واحد، وهو العيش في الماضي، كما هو شأنك!

انتهتِ المحاضرة بعد هذا القول بقليل. فلم تسمع بيري الكلمات القليلةَ السابقة، إذْ كان عقلها في مكان آخر، ورأسها يدقّ دقًّا عنيفًا. فلم تستطع أن تتحرَّك أو أن تنظر إلى أيٍّ من زملائها خشية أن يفضحها الاستياء البادي على قسمات وجهها. وبعد أن انصرف الجميع، وضمنهم آزور، ألفت نفسها وحيدة برفقة منى.

قالت منى واضعة إحدى يديها على كتف بيري:

ـ مرحبًا يا بيري! أعرف أنَّه كان فظًّا تجاهك. تجاهليه. صدِّقيني!

فما كان من بيري إلَّا أن خفضت وجهها وشعرتْ بأنَّ الدموع تسيل من عينيها:

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنَّني لا أفهم. ظننته مدهشًا. وهذا ما كانت شيرين تؤكِّده لي، لكنَّه على درجة كبيرة من. . .

ـ الاستعلاء والغطرسة.

سارت الفتاتان خارج المبنى معًا، فقالت منى:

ـ في وسعك أن تتخلِّي عن دراسة هذا المنهاج. . . أعني إن كان قد ضايقك ووتَّرك.

فقالت بيري في احتقار وازدراء:

ـ نعم، ربَّما سأتخلَّى عن المنهاج، فأنا أكرهه!

* * *

لم تنم بيري نومًا هنيئًا في تلك الليلة. فقد كان عقلها المثقل طوال هذه السنين بشتَّى أنواع القلق والخوف، يركِّز في فكرة واحدة لا غير، وهي أنَّها لم تستطع التوقُّف عن التفكير في آزور مهما بذلت من قصارى جهدها. فهل لمحتِ الآن جانبًا فظيعًا من سلوكه كان يُخفيه وينتظر اللحظة المناسبة لتوجيه ضربته، أم أنَّ هذا هو أسلوبه في أن يكشف لها عن مدى اهتمامه بها وبتطوُّرها العقليّ؟

في صباح اليوم التالي، عثرت بيري على ملاحظ أخرى في صندوق بريدها:

«إلى بيري:

الفتاةِ التي تقرأ مؤلَّفات إميلي ديكنسون وعمر الخيَّام وتأخذ كلّ شيء على محمل الجِدّ؛ الفتاةِ التي لا تقدر على ترك بلدها وراءها فتحمله وإيَّاها في كلّ مكان؛ الفتاةِ التي لا تخاصم الآخرين بقدر خصامها مع نفسها؛ الفتاةِ التي تنقد نفسها أشدّ النقد؛ الفتاةِ التي تتوقَّع

مكتبة الفكر الجديد

أن تتلقّى اعتذارًا من الربّ في حين تعتذر من دون ضرورة إلى بني البشر. . .

يُحتمل أنَّك تظنّين أنَّني إنسان سيِّئ وأنَّك تفكِّرين في التخلِّي عن المنهاج الدراسيّ. لكن إذا تخلَّيتِ عنه الآن، فإنَّك لن تعرفي أبدًا إن كانت شكوكك في محلِّها. أليس البحث عن الحقيقة حافزًا يكفي لأن يدفعك إلى الاستمرار في السير إلى أمام؟ لا تتخلِّي عن المنهاج يا بيري، وتذكَّري أنَّ الجرأة في «معرفة نفسك» تعني الجرأة في «تحطيم نفسك». بداية، لا بدَّ من أن نمزِّق أنفسَنا إربًا إربًا، وبعدها نعمد إلى أطرافنا، وخلقِ نَفْسٍ جديدة. المهمّ هو إيمانك بما تفعلينه».

حشرتِ الملاحظة في جيبها، وانتعلت حذاءها الرياضيّ، وخرجت لممارسة رياضة العَدْو. ثم أخذت نَفَسًا عميقًا وأغلقت زمام كنزتها الرياضيَّة الفضفاضة إلى ذقنها، وخرجت. عضلاتها تؤلمها، ومفاصلُها المتخشِّبة والموجعة تشكو منها متذمِّرة. وبينما هي تَعْدو في مهبِّ هواء الصباح الذي كان يحمل عبق الأرض الرطبة وأوراق الخريف، أطلقت لعنة: «يا له من وغد متعجرف! من يظنّ نفسه! تبًّا له».

نعم، ها هي بيري تسبّ وتشتم أوَّلَ مرَّة في حياتها. كلُّ كلمة من كلماتها حبَّةُ ملح على لسانها، تُطلقها في الريح الباردة الشديدة البرودة. لماذا لم تسبَّ وتشتمْ قبل الآن؟ عندما تقترن الشتيمة بالعدوّ، فذلك شيء عظيم، لذيذ، يزيدها قوَّة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

التكهُّن بالمستقبل

إسطنبول ـ ٢٠١٦

شاع صمت مشوب بتوتُّر خيَّم على المكان في حين انتظر الضيوف ظهور الوسيط الروحانيّ. كان في وسعهم أن يسمعوا من خلال الباب المفتوح مضيفتهم وهي ترحِّب به بصوت يرنّ رنين أجراس من زجاج:

ـ أين كنت؟

فقال صوتُ ذكرٍ عالي النبرات، حادٌّ وثاقب:

ـ حركة السير! إنَّها كابوس.

فبادر رجل الأعمال إلى القول:

ـ أَلَا تعرف ذلك؟ هلّم يا عزيزي، فثمَّة أُناس داخل المنزل متشوِّقون إلى لقائك.

بعد مرور بضع لحظات، ظهر الوسيط الروحانيّ مرتديًا بنطالًا أسود اللون وقميصًا أبيضَ وصُدرة ذهبيَّة تشوبها خضرة ترجع إلى زمن غير هذا الزمان. وكان قصيرَ اللحية كأنَّها نَمَت وهو في طريقه إلى الحفلة، صغيرَ العينين متجاورَهما، مثلَّثَ الوجه، حادَّ الأنف حليقَه، وذقن يبدو طارئًا عليه، فلاحَ بكلٍّ هذه الأعضاء ذا مظهر يشبه مظهر الثعلب الذي يجوس بحثًا عن طريدة.

حين دلف، وهو يسير الهوينى، هتف قائلًا في عجب:

ـ يا لهذا العدد الكبير من الضيوف. سوف أضطرّ إلى أن أُعسكر

مكتبة الفكر الجديد

هنا إذا كنتم كلُّكم تبغون التكهُّن بمستقبلكم.

قالت سيِّدة الأعمال:

ـ هذا ما نرجوه منك!

فقال رجل الأعمال من زاويته:

ـ السيِّدات لا غير.

كان رجل الأعمال يرى، بقدر ما يتعلَّق الأمر به، أنْ لا شيء يبعث على الضجر والملل أكثر من الاستماع إلى مستقبل الآخرين. كان يريد أن يجني ثروته الخاصَّة به، ويريد أن يتحدَّث على انفراد مع المدير التنفيذيّ في حين تكون زوجته مشغولة بما لديها من هراء وكلام لا معنى له. لهذا قال مقترحًا عليهنّ:

ـ لماذا لا تنتقلن أيَّتها السيِّدات إلى الأرائك، فهي وثيرة وتريح الجسم.

امتثلت سيِّدة الأعمال له وأشارت إلى الوسيط الروحانيّ وإلى السيِّدات بالانتقال إلى الأرائك الجلديَّة، ثم لوَّحت لإحدى الخادمات قائلة:

ـ أحضري لضيفنا الجديد. . .

فقال الوسيط الروحانيّ:

ـ الشاي الساخن يفي بالمرام.

ـ ماذا؟ هراء! لا بدَّ من أن تحتسي شيئًا من الشراب، وأنا أُصرّ على ذلك.

فقال الوسيط الروحانيّ:

ـ بعد أن أفرغ من عملي. أمَّا الآن، فلا بدَّ من أن يكون قدحي صافيًا صفاءَ ذهني.

حين كانت بيري تسترق السمع إلى هذا الكلام، فكَّرت في نفسها:

«ليس الشاي صافيًا صفاءً تامًّا، وهذه حال هذا الرجل كما يبدو».

في هذه الأثناء، تكدَّس الضيوف الذكور تحت نصب فنِّي يمثِّل قطعة جداريَّة من النحت لسمكة عملاقة من أسماك عصر ما قبل التاريخ، ذات شفتين حمراوين وطربوش عثمانيّ بشراريب. بعد أن تحرَّر الرجال من المجاملات، بات في وسعهم أن يسبُّوا ويلعنوا ما شاء لهم السبّ واللعن، وألَّا يشعروا بالقلق بشأن الجهة التي سينفثون نحوها دخان سجائرهم. وأشار رجل الأعمال إلى الخادمة نفسها قائلًا:

ـ أَحضري لنا شراب الكونياك واللوز يا طفلتي.

بعد أن غادرت بيري المائدة أسوة بالأخريات، بدأت تتسكَّع في وسط القاعة الكبيرة، وشعرت بأنَّها ممزَّقة كما هو دأبها كلَّما أصبحت في مثل هذه المواقف. كانت تمقت الفصل بين الجنسين الشائعَ في اللقاءات الاجتماعيَّة في إسطنبول. وكان الفصل في البيوت المحافظة يصل إلى درجة تجعل الرجال والنساء قادرين على تزجية الليلة برمّتها من دون تبادل أيّ كلمة، وهم يتحلَّقون حول بعضهم بعضًا في أقسام منفصلة من البيت. وكان الأزواج ينفصلون عن بعضهم البعض لدى وصولهم ليلتقوا مجدَّدًا في نهاية الأمسية قبل أن يخرجوا من الباب.

ولم تكن الأوساط الليبراليَّة في منأى عن هذه الممارسة. فبعد تناول طعام العشاء، كانت النساء يجتمعن، كأنَّ كلّ واحدة منهنَّ محتاجة إلى الأخرى طلبًا للدفء والراحة والاطمئنان، يتحدَّثن في مختلف الموضوعات، ومزاجُهنَّ يتغيَّر تغيُّرًا ترادفيًّا: الڤيتامينات، وصفات الملحقات الغذائيَّة الخالية من الزلال النباتيّ، الأطفال والمدارس، اليوغا والرشاقة، الفضائح العامَّة والأقاويل الشخصيَّة... إنَّهنَّ يناقشن أمور الأصدقاء كأنَّهم من المشاهير.

أمَّا بيري، فكانت تفضِّل دائمًا أحاديث الذكور على أحاديث

مكتبة الفكر الجديد

الإناث، على الرَّغم من أنَّ أحاديث الذكور تميل إلى حزّ النفس وانقباض الصدر أكثر من أحاديث النساء. كانت في ما مضى من الأيَّام تتَّجه، على نحو اعتياديّ، إلى حلقة الرجال، فتنضمّ إليهم وتشاركهم في أيّ حديث يلهون به: السياسة والاقتصاد وكرة القدم... ولم يمانعوا حضورها، ناظرين إليها، على نحو ما، على أنَّها واحدة منهم، وإن لم يكونوا ليخوضوا في موضوعات الجنس في أثناء جلوسها معهم. كان سلوكها يجذب أنظار النساء الأخريات، إن لم يجذب حنقهنّ وغضبهنّ. ولاحظت، لدهشتها البالغة، أنَّ بعض الزوجات كنَّ يشعرن بعدم الارتياح إذا ما جلست بالقرب من أزواجهنّ، لكنَّها رويدًا رويدًا، تخلَّت عن تمرُّدها المتواضع. تضحية أخرى على مذبح التقاليد والأعراف.

أمَّا اليوم، فإنَّها لا تريد صحبة الإناث ولا صحبة الذكور، وإنَّما تريد أن تكون بمفردها. وهكذا انسلَّت، في حيطة وحذر، إلى الشرفة، لترتعش أوصالها بسبب ريح صرصر كانت تهبّ من جهة البحر. وشمَّت عبير المدِّ المنخفض، وشاهدت في الجانب الآخر من البوسفور، الجانبَ الآسيويّ من المدينة، والسماءَ وقد اكفهرَّت وبات لونها ظلًّا غامقًا من ظلال اللون الأزرق. واكتسى الماء بطبقة من ضباب يذكِّرها بقطع ممزَّقة من قماش الموسلين.

وفي مكان بعيد، لاح لها قارب صيد يستعدّ للإقلاع، ففكَّرت في الصيَّادين الصموتين، الخَشِنِي الملامح، المقموعِي الأصوات خشية أن يُثيروا وجل الأسماك إنْ هم تحدَّثوا. أنظارُهم مركَّزة في المياه التي كانت تمنحهم رزقَهم اليوميَّ. اشتاق جزء منها إلى أن تكون وإيَّاهم على متن ذلك القارب، وفي غمرة ذلك السكون المفعم بالأمل.

بعد ذلك بقليل، تغلغلت في الأجواء صافراتُ الشرطة قادمةٌ من مكان ما من الجانب الأوروبيّ للمدينة كأنَّها تسخر من أمانيها. وفي

مكتبة الفكر الجديد

حين لبثت واقفة تستوعب الطبيعة وتتخيَّل شخصًا ما يُضرب، وآخر يُقتل، وامرأة تُغتصب. . . نعم ـ في هذه اللحظة ـ ثمَّة من أصبح مولعًا بالحبِّ في إسطنبول.

كان هاتف زوجها في راحة كفِّها اليسرى، تشدُّ قبضتها حول إطاره المعدنيّ وهي تتَّخذ قرارًا. لقد مضت أعوام طويلة منذ أن كلَّمت شيرين آخرَ مرَّة. ربَّما يكون رقم هاتفها قد تغيَّر الآن، لكن حتى لو كان الرقم صحيحًا فليس ثمَّة ضمان بأنَّ شيرين ترغب في أن تكلِّمها. غير أنَّ الحافز على بذل محاولة، مهما يكن ذلك الحافز، بات أقوى من أن تهمله. فبعد أن سمحت الآن للماضي بأن يتغلغل في الحاضر، عصفت بها مشاعر الحزن والأسى.

قلَّبت بيري قائمة الأسماء إلى أعلى وإلى أسفل، وهي تعبث بجهاز الهاتف إلى أن توقَّف إبهامها عن تقليب الأسماء عند مدخل معيَّن: منصور. وإلى جانبه كلمة «بابا». إنَّ طقوس الأزواج ـ بحيث يصبح والدا الزوج والديك، كأنَّ ماضي شخص ما، بعد كلّ تلك السنوات من المودَّة وسوءِ الفهم والإحباطِ، يمكن في يوم من الأيَّام، وبتوقيع واحد، أن يتغيَّر. فزوجها لم يشطب اسم منصور بعد موته المفاجئ. لعلَّ تلك أوَّل علامة على التقدُّم في العمر ـ هي السماحُ للأصدقاء وللأقارب الموتى بالاستمرار في البقاء أحياء شكليًّا، وذلك بعدم شطب أسمائهم من دفتر العناوين. لأنَّك يومًا ما، ستصبح اسمًا كهذه الأسماء، ورقمًا كهذه الأرقام.

نقرت بيري على رقم الهاتف الذي حصلت عليه من والدتها وانتظرت، إلَّا أنَّ الصمت الكامن في الهاتف لبث يتكاثف ويتَّسع مداره: ثانية من التوتُّر عندما لا تعرف إن كان الاتِّصال سيحالفه التوفيق أم أنَّ رقم الهاتف مشغول. شكّ عابر يسبق كلّ الاتِّصالات الدوليَّة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل ستأتين يا بيري؟

التفتت إلى الوراء والهاتف لا يزال في يدها. كان عدنان قد أطلَّ برأسه ومال إلى أمام في اتِّجاه إطار الباب وفي يده كأس ماء. وعلى الرَّغم من أنَّ بيري كانت تشعر في معظم سنوات زواجها بالارتياح إلى عدم رؤيتها زوجَها وقد تحوَّل إلى سكِّير يُسرف في الشراب، فإنَّ ثمَّة أوقاتًا تمنَّت فيها أن يفقد سيطرته، بين حين وحين، ويقترف أخطاء يندم عليها في اليوم التالي.

قال عدنان:

ـ الناس يتساءلون: أين أنت؟

في تلك اللحظة، تناهى إلى سمعها صوتُ الهاتف وهو يرنّ وراء البحار ووراء البلاد، في إنكلترا، في بيت تخيَّلته مختلفًا الاختلافَ كلَّه عن هذا البيت. ردَّت بيري:

ـ سأحضر بعد دقيقة واحدة.

أومأ عدنان برأسه، ولاحت على محيَّاه سحابةٌ تكدّرُ وجهَه:

ـ لا بأس يا عزيزتي. لا تتأخَّري.

راقبته وهو يستدير ويتَّجه ناحية الجمع الغفير الذي أضحى أشدّ صخبًا ومرحًا منذ اللحظة التي غادرت فيها القاعة. وبدأت تعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة... ثم سمعت تكتكة، فتوقَّف قلبها عن النبض لحظة واحدة وهي تستعدّ لسماع صوت شيرين. نعم، إنَّه صوتها حقًّا، لكنَّه صوت آليّ ينطوي على لامبالاة. إنَّه رسالة صوتها البريديّ.

ـ مرحبًا! لقد اتَّصلتم بهاتف شيرين. آسفة، فأنا لست هنا الآن. إذا كان لديكم أشياء لطيفة تحبُّون قولها، فأرجو ترك رسالة مع الاسم ورقم الهاتف بعد النغمة، وبخلافه، تكلَّموا قبل النغمة ولا تتَّصلوا مجدَّدًا!

مكتبة الفكر الجديد

أغلقت بيري الهاتف لأنَّها كانت تكره ترك الرسائل لأنَّها تدلّ على صداقة زائفة. وسرعان ما اتَّصلت من جديد، لكنَّها تركت رسالة في هذه المرَّة.

ـ مرحبًا يا شيرين... إنّني بيري.

ترامى إلى أذنيها صوتُها الواهن، لكنَّها استطردت:

ـ قد لا يروقك أن تكلِّميني أو أنا لا أنحو باللائمة عليك، فقد انقضت سنوات...

في هذه اللحظة، ابتلعت لعابها، فشعرت بفمها جافًّا جفافَ قطعة طبشور، ثم أضافت.

ـ إنَّني مضطرَّة إلى أن أُكلِّم آزور. لا بدَّ لي من أن أسمع رأيه لأتأكَّد إن كان قد غفر لي أم لا...

صوت بيب. ثم اختفت الإرشادات من على شاشة الهاتف، فظلَّت بيري ساكنة تفكِّر في مضامين المفردات التي تدفَّقت من تلقاء نفسها من فمها. إلَّا أنَّها شعرت، يا للغرابة، بأنَّها تخلَّصت من عبئها. لم يعد عقلها مجموعةً من المتاعب والاستفسارات والأسرار والرغبات المكبوتة: لقد فعلتها واتَّصلت بشيرين. ومهما تكن النتائج، فإنَّها مستعدَّة لمواجهتها. راودها إحساس بأنَّ الليل لم يكن قوَّةً خارجيَّة، وإنَّما قوَّة داخليَّة تنمو داخل صدرها، تحرق رئتيها، وتندفع في أعماق أوردتها، متلهِّفةً إلى الكشف عن نفسها. وفكَّرت: ليس ثمَّة إحساس بالخفَّة كذلك الذي يساور المرءَ بعد قهر مخاوف طال أمدها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الليموزين

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

دلفت شيرين إلى حجرة بيري في معمعان الشتاء، تجرُّ وراءها حقيبة ثياب ورديَّةَ اللون ذات عجلات. قرَّرت السفر إلى منزلها لقضاء إجازة الكريسمس. وكان الكلّ متأهِّبًا للذهاب إلى أهله: الطلبة والاكاديميُّون والموظَّفون الإداريُّون في الكلِّيَّة؛ الكلّ باستثناء بيري التي تلكَّأت إلى أن فات الأوان على شراء تذكرة سفر رخيصة بعد أن تجاوزت نفقاتُها ميزانيَّتَها، فآثرت البقاء في أوكسفورد لتمضية الإجازة.

سألتها شيرين للمرَّة العاشرة كما يبدو:

ـ هل أنت متأكِّدة من أنَّك لا ترغبين في السفر وإيَّاي إلى لندن؟

ردَّت بيري:

ـ متأكِّدة. سأكون هنا بخير.

الحقّ أنَّها لن تكون «هنا» تمامًا، إذْ يتوقَّع من الطلبة في أوكسفورد أن يُفرغوا حجراتهم في أثناء الإجازات كي يصبح في الإمكان استخدام منشآت الكلِّيَّة لأغراض من يحضرون المؤتمرات. أمَّا أولئك الذين تضطرُّهم ظروفهم إلى البقاء، مثلها هي، فإنَّ الكلِّيَّة توفِّر لهم أماكن بديلة موقَّتة وأصغر حجمًا.

اقتربت شيرين خطوة من بيري، تحدِّق في عينيها تحديقة ذات مغزى، وقالت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ انظري إليَّ يا ماوس! إنَّني جادَّة في الكلام. إذا غيَّرت رأيك فما عليك سوى الاتِّصال بي. إنَّ أمِّي توَّاقة إلى التعرُّف إليك، وهي تتحمَّس عند مجيء صديقاتي للبقاء عندنا في البيت. ويمكنها أن تتذمَّر وتشكو منِّي على مدى ساعات. إنَّها أسرة لعينة، فنحن نمزِّق بعضنا بعضًا، لكنَّنا نعامل الغرباء معاملة لطيفة، وسنكون لطيفين معك.

قالت بيري:

ـ أعدك بأن أتَّصل بك إذا شعرت بوحدة لا تُحتمل.

ـ حسنًا. لا تنسي أنَّنا سوف ننتقل من هنا لدى عودتي. حان الوقت ليكون لنا بيت خاصّ بنا.

كانت بيري تتمنَّى أن تكون شيرين قد نسيت هذه الفكرة، لكنَّ الواضح أنَّها لم تنسَها. فقد فعل عدد كبير من الطلبة في أوكسفورد هذا الشيء: يبدأون حياتهم في أحضان الحياة الجامعيَّة الدافئة، حيث الحياة سهلة نسبيًّا، بما فيها من نشاطات كشفيَّة وقاعةِ طعام ومكتبةٍ وغرفِ استراحة، لكنَّهم عندما يحسُّون بأنَّها خانقة يلجأون إلى الانقسام في ما بينهم إلى جماعات صغيرة، ليقيموا بشقق سكنيَّة في سنة دراستهم الثانية. والحقُّ أنَّ كثيرين من هؤلاء الطلبة يضطرُّون إلى ذلك اضطرارًا لأنَّ كلِّيَّاتهم لا تقدر على تأمين سكن كافٍ لكلِّ طلَبَتها.

في كلّ مرَّة كانت شيرين تذكر الموضوع، كانت بيري حتى الآن تعتذر بأدب وثبات. غير أنَّ شيرين كانت، كعهدها دومًا، صارمة لا تلين. وأطلعت بيري على صور بيوت كان قد عرضها عليها سمسار عقارات، وأكَّدت لها مُطمئنةً، أنَّ الأمر لا يهمَّها إن دفعت مبلغًا أكبر من المال كلّ شهر، لأنَّها في المقابل ستحظى بفسحة مكانيَّة خاصَّة بها، وبراحةِ بال. ولمَّا كانت تكره الوحدة ولا تستطيع أن تقطن في شقَّة

مكتبة الفكر الجديد

بمفردها، فإنَّ شيرين ستكون مَدينة لها، وليس العكس، إن وافقت بيري على اقتراحها.

قالت بيري مضطربة:

ـ سأفكِّر في الموضوع.

ـ ليس هناك ما يستدعي التفكير، لأنَّ حياة الكلِّيَّة هي للمبتدئين، ولأنَّ الوحيدين الذين يلبثون مقيمين بها هم أولئك الذين يخافون المبادرة إلى الانتقال... والذين أصابهم مسٌّ من الجنون.

ـ أو أولئك الذين يعوزهم المال.

ـ المال؟

تساءلت شيرين تساؤلًا ينطوي على سخرية تحتفظ بها للناس المكروهين، أو الإزعاجاتِ التي يتعذَّر تجنُّبها، مثل طفح المجاري والقمامة المتروكة في أماكنها، ثم استطردت:

ـ يجب أن يكون المال أقلَّ ما يشغل بالك. لهذا اتركي الأمر لي.

لمَّحت شيرين بين وقت وآخر، من دون كلمة صريحة، إلى أنَّ أسرتها غنيَّة. صحيح أنَّها مرَّت في عاديات الدهر، إلَّا أنَّ قلَّة المال لم تكن واحدة منها. وافترضت بيري أنَّ البيت الآيل إلى السقوط، والذي تنفذ منه السوائل في لندن وتذمَّرت منه، لم يكن من هذا النمط. وكانت شيرين على استعداد لتسديد الإيجار برمَّته، وأنَّ كلّ ما سينبغي لبيري أن تفعله هو أن ترزم ثيابها وكتبها في بضعة صناديق، وأن تتبعها في هذه المغامرة الجديدة.

ثم قبَّلت شيرين وجنتي بيري وغمرتها في سحابة من عطر، وقالت لها:

ـ حسنًا يا عزيزتي، إنَّني مضطرَّة إلى الذهاب، وأتمنَّى لك سنة

سعيدة! إنَّني لا أستطيع البقاء هنا حتى عام ٢٠٠٢! فلديَّ إحساس يراودني بأنَّ هذه السنة ستكون أفضل سني عمرينا.

أمسكت بيري بزجاجة الماء الموضوعة على الطاولة ورافقت صديقتها إلى باب المبنى. كان رئيس البوَّابين يقف متأهِّبًا عند المدخل. وبما أنَّه كان ضابطًا سابقًا في الجيش، فقد ظهر أنَّه يعرف أسماء كلّ الطلبة، ولهذا قال في بهجة:

ـ لديك إجازة رائعة يا شيرين. إلى اللقاء في العام المقبل. وأنت أيضًا يا بيري.

ظنَّت بيري أنَّها لمست دفئًا مضافًا في صوته وهو ينقل تحيَّاته وتمنِّياته لها. لعلَّه كان يشعر بالأسى تجاهها، فهي الطالبة الوحيدة التي لن تذهب إلى أهلها.

ثمَّة سيَّارة ليموزين سوداء تنتظر مع سائقها في الخارج. وحين رأت بيري صديقتها شيرين تبتعد بحذائها العالي الكعبين وتتمايل قليلًا وهي تجرّ حقيبة ثيابها من خلفها، شعرت بأنَّ العواطف المتناقضة تمزِّقها. فإذا شاركت شيرين في السكن في البيت نفسه، فإنَّها سوف تفاقم حالة الذلّ الهوان التي كانت تشعر بها بسبب شخصيَّة صديقتها الآسرة والمقويَّة. زِدْ على ذلك، هل تراها تريد حقًّا أنْ تكون مَدينة لشيرين أو لأيٍّ شخص؟ لكن، أليس العيش في منزل خاصّ بهما رائعًا؟

بينما أخذتِ السيَّارة تبتعد، رَمَتْ بيري الماء في إثرها التزامًا بعادة تركيَّة قديمة مفادها: اذهبي كالماء، وارجعي، يا صديقتي، كالماء.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

نـــدفة الثلج

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

اقترب موسم الاحتفال بتهيُّج شديد واحتدام في العواطف. أخذتِ الدهشة بيري في بداية الأمر، وهي التي اعتادت أن تشاهد احتفالات رأس السنة أكثر هدوءًا ورصانة في إسطنبول، لكنَّها سُرَّت سرورًا بالغًا لدى مشاهدتها الاستعدادات المحكمة الصنع والمبذول فيها جهدٌ كبيرٌ. فالشوارع مزيَّنة بأقواس، والأضواءُ المتألِّقة منتشرة في كلّ مكان، والدكاكينُ عامرة بالسلع الاستهلاكيَّة، ومغنُّو أغاني العيد يحملون مصابيح تومض مثل ذباب يُضيء في الليل.

لاحت أوكسفورد كأنَّها تفقد روحها بغياب الطلبة. ويزداد اغتراب الطالب في إجازة الكريسمس إذا ما لبث وحيدًا مستوحدًا، حتى بالنسبة إلى بيري التي عادة ما تكون سعيدة بمفردها. فكانت تأكل وجبات طعامها في مطعم صيني لا يحتوي إلَّا على ثلاث طاولات. الطعامُ فيه لذيذ لكنَّه يفتقر إلى الانسجام افتقارًا غريبًا. فكَّرت في أنَّ الطاهي ربَّما كان متناقضًا يعوزه الانسجام، فينعكس مزاجه على الأطباق التي يُعِدّها. وفي بعض الأيَّام، كانت تشعر بالقرف والغثيان من بعد ذلك.

عادت إلى عملها في مكتبة «نوعان من الذكاء». قال لها مالكا المكتبة إنَّهما حاولا على مدى سنوات تغييرَ واجهة العرض لجذب القرَّاء

مكتبة الفكر الجديد

في موسم الإجازات، كوضع صورة رجل ثلجيّ يجلس على كرسيٍّ بمرفقين وفي يده كتابٌ يطالعه، بينما يتدلّى من السقف خيطٌ عليه الحروفُ الأبجديَّة. أمَّا في هذه السنة، فهما يريدان شيئًا مختلفًا.

سألت بيري:

ـ ما رأيكما في شجرة كريسمس للكتب المحظورة؟

وكما هي الشجرةُ الشبيهة بشجرة المعرفة التي تحمل ثمرة محرَّمة، فإنَّ هذه الشجرة ستحمل كتبًا مُنِعَت في عدد من الأماكن في العالم.

راقتهما الفكرة، فأوكلا أمر تنفيذها إليها. استغرقت بيري في العمل، ونصبت شجرة فضِّيَّة في وسط واجهة العرض، وعلَّقت على أغصانها الكتبَ التالية: «أليس في بلاد العجائب»، «١٩٨٤»[(١)]؛ و«حالة

---

(١) «أليس في بلاد العجائب» (١٨٦٥): رواية الكاتب البريطانيّ (تشارلز لوتفيدج دودجسون، ١٨٣٢ ـ ١٨٩٨)، المحاضر في درس الرياضيَّات في جامعة أوكسفورد (١٨٥٥ ـ ١٨٨١). كتب عددًا كبيرًا من كتب الأطفال جذبتهم روح الفكاهة والمنطق إليها. أمَّا رواية «١٩٨٤»، فهي للكاتب البريطانيّ جورج أورويل، نُشرت في سنة ١٩٤٩ وتتنبَّأ بدكتاتوريّات الأنظمة الشموليَّة. احتار المؤلِّف في وضع عنوان لها، فاقترح الناشر العنوان «١٩٨٤»، فظنَّ الكثير من القرَّاء أنَّ أحداثها سوف تقع في سنة ١٩٨٤! رواية «حالة اللافوز» للكاتب جوزيف هيلر نُشرت في سنة ١٩٦١ ومفادها أنَّ أيّ خيار تختاره سيؤدِّي إلى الخسارة والمتاعب، وتركِّز في شخصيَّة النقيب يوساريان (سرب القاذفات الأميركيَّة ٢٥٦) الذي كان يهدف إلى تجنُّب الموت في الحرب العالميَّة الثانية. رواية «عالم جديد شجاع» (١٩٣٢) للكاتب الإنكليزي ألدوس هكسلي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣)، وهو ابن عالِم الأحياء توماس هكسلي. أُصيب بمرض في عينه كاد يُصيبه بالعمى التامّ. عاش مدَّة من الزمان في إيطاليا، واستقرَّ في كاليفورنيا. أمَّا رواية «عشيق الليدي تشاترلي»، فهي آخر روايات الكاتب الإنكليزي دي. إچ لورنس (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠) المثيرة للجدل، لما فيها من اندفاع القوى الغريزيَّة الجامحة. أمَّا «لوليتا»، (١٩٥٥) فهي رواية ڤلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ ـ ١٩٧٧)

مكتبة الفكر الجديد

اللافوز»؛ «عالم جديد وشجاع»؛ «عشيق الليدي تشاترلي»؛ «لوليتا»؛ «غداء هزيل»؛ «مزرعة الحيوان». أمَّا قائمة الكتب المحظورة التداول في تركيا وحدها، فكانت طويلة وتحتاج إلى عدد كبير من الأغصان لتعليقها عليها، ومع هذا، فقد لا تكفي، وهي مؤلَّفات لكلٍّ من كافكا وبرتولت بريخت وستيفان زفايج وجاك لندن وعمر الخيام وناظم حكمت وفاطمة مرنيسي. وثبَّتت بيري على كلّ الأغصان بطاقاتٍ فوسفوريَّةً لامعة كانت قد أعدَّتها وكتبت عليها: «محظورة»، أو «أُحرقت»، أو «خضعت للرقيب».

وبينما هي تواصل عملها، فكَّرت في زمن مرَّ به عيد كريسمس آخرُ. وكانت وقتئذ في العاشرة أو الحادية عشرة، وكان منصور قد أحضر معه شجرة كريسمس مصنوعةً من اللدائن. لم يكن ثمَّة بيت آخر في الحيّ لديه مثلُ هذه الشجرة، وإن كان عدد من الدكاكين والمحالّ التجاريَّة قد عرضها للبيع.

وحين حملتِ الشجرة من عتبة الباب إلى الزاوية المخصَّصة لها، راحت الشجرة تنفض عنها أشواكَها البلاستيكيَّة كالطفل الذي جاء ذكرُه في إحدى القصص وهو يرمي من ورائه فتاتَ الخبز حتى لا يتيهَ في طريق عودته إلى البيت. ومع هذا، فقد اعتنت بيري ومنصور بتزيينها بأشرطة لمَّاعة فضِّيَّة وذهبيَّة وزرقاء. ولمَّا لم يبق لديهما شيء آخر يزيِّنان

= التي ظلمتها السينما العالميَّة بتشويه صورتها الحقيقيَّة على أنَّها طفلة مثيرة للجنس. «غداء هزيل» رواية هجائيَّة ساخرة عن عالم يسكنه مدمنون على المخدَّرات؛ عالم يأكل فيه القوي الضعيف، كتبها وليم بوروز على غرار مؤلَّفات جوناثان سويفت. أمَّا «مزرعة الحيوان» (١٩٤٥)، فهي لجورج أورويل (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الشجرة به، عَمَدا إلى صنع زينة خاصَّة بهما، فوضعا الجوز المطليَّ بألوان متعدِّدة، وأكوازَ صنوبر، وسداداتِ قنانٍ زجاجيَّة، وحيواناتٍ مصنوعةً من الفِلِّين. كان كلّ ما يخصّ شجرتهما رخيصَ الثمن ويعوزه الانسجام، لكنَّهما عشقاها عشقًا كبيرًا.

حين عادت سلمى أدراجها من السوق تجهَّم وجهها وعلته الكآبةُ وسألت:

ـ ما ضرورة كلّ هذه الأشياء؟

أجاب منصور عن هذه المناسبة غير المحتملة التي لم تتنبَّه لها زوجته:

ـ ستحلّ سنة جديدة.

قالت سلمى:

ـ هذه عادة نصرانيَّة.

فقال منصور وهو يشيح بعينيه عنها:

ـ أَلَا نستحقّ شيئًا من الفرح؟ أتظنِّين أنَّه لن يحبَّني إذا ما فرحت قليلًا؟

فأجابت سلمى:

ـ ولماذا على الله أن يحبّك وأنت لا تفعل شيئًا حتى تحبِّبَ نفسَك إليه؟

شعرت بيري بأنَّها مسؤولة عن هذا التوتُّر الذي خيَّم على الجوِّ، لأنَّها أدركت أنَّ والدها اشترى هذه الشجرة الصنوبريَّةَ لجعلها سعيدةً، وعليها الآن أن تجد وسيلة لوضع الأمور في نصابها. فانتظرت في تلك الليلة إلى أن خلد أفراد الأسرة إلى النوم، ووضعت خطَّتها موضعَ

مكتبة الفكر الجديد

التنفيذ، ولبثت ساهرة حتى الهزيعِ الأخير من الليل.

في صباح اليوم التالي، عندما توجَّه أفراد الأسرة إلى حجرة الجلوس، وجدوا شجرة دائمة الخضرة متَّشحة باللون الأخضر على نحو غريب. كانت مسبحة صلاة سلمى العزيزةُ والقططُ الخزفيَّةُ والحجاباتُ الحريريَّة التي قُطِّعت إلى شرائط، تزيِّن الأغصانَ. وكان فوق الشجرة جامعٌ صغير من البرونز، وإلى جانبه كتابُ الحديث في وضعٍ متوازن يدلّ على عناية.

قالت بيري مشرقةَ الأسارير:

ـ أتلاحظين؟ لم تعد الشجرة نصرانيَّة بعد الآن.

بدا العالم وقد توقَّف عن كلّ حركة وهي في انتظار ردّة فعل والدتها. غير أنَّ فكّ سلمى السفليّ تهدَّل وبدت مذعورة غير مصدِّقة، توشك أن تنطق بشيء ما، لكن قبل أن تتمكَّن من الكلام، راح منصور الواقفُ إلى الوراء يضحك وتتشنَّج كتفاه. وحين ترامى إلى أذني سلمى صوتهُ فَرِحًا بما يرى، اكفهرَّت ملامحها، وخرجت.

لا تزال بيري، حتى اليوم، لا تدري ما الذي كان يمكن أن تتفوَّه به والدتها وما الذي فهمته من شجرة الكريسمس الإسلاميَّة.

* * *

ذهبت بيري مجدَّدًا إلى المكتبة التي تعمل فيها في اليوم الذي سبق عشيَّة رأس السنة الجديدة، فلم تجد فيها سوى امرأةٍ مسنَّة جاءت سعيًا وراء الدفء أكثرَ ممَّا جاءت تنشد الأدب. لم يوجد زبائن غيرها. كان مالكا المكتبة غير موجودين، فقد ذهبا لزيارة صديق لهما، في حين كان يتمتَّع بقيَّة العاملين فيها بإجازة في ذلك اليوم.

مكتبة الفكر الجديد

نظَّفت بيري الرفوف، وأعدّت قهوة، وكنَّستِ الأرضيَّات، ورتَّبتِ الوسائدَ من جديد، وتأكَّدت من الخزين، مرتاحةً الراحةَ كلَّها في مكان بدأت تعشقه. وحين أنجزت مهمّاتِها، أمسكت بكتاب من تأليف أي. زد. آزور وتكوَّرت فوق أحد المقاعد محاطة بالوسائد من كلّ جانب. كانت قد بحثت عن مجمل أعماله في المكتبة، فوجدت ثمانية منشورات ذات عناوين مغرية وأغلفة برسوم هندسيَّة. وأظهرت المبيعات أنَّها كانت رائجة. أمَّا الآن، فقد بدأت قراءة أحد كتبه الأولى، وكان بعنوان «الدليل إلى البقاء في حيرة».

انتقلتِ المرأة المسنَّة إلى الكرسيّ قبالة بيري واتَّخذتْ مجلسها فيه، مهدَّلةَ الجفنين، محنيَّةَ الرأس. وسرعان ما استسلمت للنوم. فما كان من بيري إلَّا أن أحضرت دثارًا من تحت صندوق النفائس وغطَّتها به في رفق. طال الوقت وتباطأ، وسَرَى كالدبق الذي يُشبه المادَّة الصمغيَّة في أشجار الصنوبر في الأناضول. وطاف في ذهنها، كالمخدِّر، إحساسٌ بأنَّ الكون كان مفعمًا بالاحتمالات. كانت محاطة بالكتب، تريد قراءتها كلَّها، في صحبة كتابات آزور ـ المستفزِّ من جهة والمهدِّئِ من جهة ثانية ـ ما جعلها تشعر بهدوء لم تشعر بمثله على مدى سنواتِ. صحيح أنَّها لا تزال غاضبة منه، إلَّا أنَّها لا تستطيع البقاء غاضبة من مؤلَّفاته. كما أنَّها لم تتوقَّف عن التفكير في منهاجه الدراسيّ لأنَّها لم تستطع إلَّا أن تفكِّر فيه.

لم تكد تفرغ من قراءة فصل واحد حتى فُتح باب المكتبة مع رنين الجرس البرونزيّ، فهبَّت موجةُ برد عاتيةٌ بدخول شخص لم يكن غير الأستاذ آزور ملتفًّا بمعطف طويل غامق اللون ولفاع زعفرانيّ من شأنه أن يُثير حسدَ أيّ راهبٍ بوذيٍّ، وعلى رأسه قبَّعةٌ نادرًا ما روَّضت خصلاتِ شعره المتمرِّدةَ، فاكتمل بذلك مظهرُه الشديد التأنُّق.

مكتبة الفكر الجديد

قال من دون أن يوجِّه سؤاله إلى أحد معيَّن:

ـ هل لنا في الدخول؟

حين نهضت واندفعت في اتِّجاه الباب وتعثَّرت إصبعُ قدمها في شقٍّ في أرضيَّة المكتبة الخشبيَّة، أدركت مغزى استخدامه صيغةَ الجمع في السؤال. فقد كان يرافقه كلب ضخم كثيفُ الشعر حادُّ الخطم، بالألوان الأسود والأبيض والبنِّيِّ الضاربِ إلى الحُمرة.

عقد آزور حاجبيه قائلًا:

ـ مرحبًا يا بيري. يا لها من مفاجأة. ماذا تفعلين هنا؟

ـ إنَّني أشتغل في المكتبة بدوام جزئيّ.

ـ عظيم! ماذا أفعل إذن بسپينوزا؟

ـ معذرة؟

فقال:

ـ أعني كلبي. فالجوُّ بارد خارج المكتبة.

قالت بيري:

ـ آه، لا بأس. يمكنك أن تأتي به إلى هنا.

ثم تذكَّرت فجأة نفورَ مالكي المكتبة من دخول الكلاب، وقالت:

ـ ربَّما يمكن أن ينتظرك سپينوزا قرب الباب.

غير أنَّ آزور كان قد دخل ووراءه كلبُه، رافعَي رأسيهما إلى أعلى، وينظران إلى أمام كأنَّهما حرفان من الحروف الهيروغليفيَّة المصريَّة.

قال آزور متفحِّصًا المكان:

ـ لم أزر هذه المكتبة منذ مدَّة، وأرى الآن أنَّها قد تغيَّرت، إذْ تبدو أكبر مساحة، وأكثرَ إشراقًا.

قالت بيري:

ـ أعدنا ترتيب بعض الأشياء وتخلَّصنا من الأثاث المهلهل.

مكتبة الفكر الجديد

ثم راقبت سبينوزا وهو يتشمَّم المكان من حوله إلى أن استقرَّ به المقام على أكثر الأرائك نعومةً، وفروةُ بدنه تتحرَّك كمروحة من فوق الأرض.

لو أنَّ آزور تنبَّه إلى ضيقها لما ظهر ذلك على محيَّاه، فقد انتقل إلى موضوع آخر وصوتُه يتموَّج على طريقته الخاصَّة:

ـ على فكرة، أحبّ الشجرة الممنوعةَ في واجهة المكتبة. فكرةٌ رائعة.

تملَّك بيري إحساسٌ بالفخر والاعتزاز، فأرادت أن تخبره بأنَّها من صنع يديها، إلَّا أنَّها لم ترغب في جعله يظنّ أنَّها تتباهى بذلك. وعوضًا عن ذلك، قالت أوَّلَ شيء خطر في بالها:

ـ هل تبحث عن كتاب بعينه؟

فأجابها:

ـ ليس الآن. فقد طلبت منّي وكيلةُ الدعاية والإعلان أن أزورها وأوقِّع على بعض النسخ، فوعدتها بذلك.

وهنا وقع بصره على الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه بيري، فاستطرد القول:

ـ هذا الكتاب يبدو مألوفًا لديّ. هل أنت منهمكة في قراءته؟

حرَّكت بيري قدميها.

ـ نعم، بدأت بقراءته قبل قليل.

انتظرها حتى تبدّد الصمت، وانتظرت بدورها كأنَّهما يريدان اكتشاف اللغة التي يمكنهما التواصُل من خلالها. وفي نهاية المطاف، قالت مشيرةً إلى الطاولة:

ـ لماذا لا تجلس من فضلك؟ سأفتِّش لك عن كتبك.

كانت الكتب كثيرة. فثمَّة سبعة عناوين جاهزة للبيع، وعنوانان

مكتبة الفكر الجديد

آخران في طريقهما إلى المكتبة بعد إعادة طلبهما من المطبعة. وهكذا، كان ممكنًا بناءُ برج صغير بكتب يتراوح عددها بين عشرة إلى خمسة عشر كتابًا. جذب الأستاذ آزور كرسيًّا وخلع معطفه وأخرج قلم حبر وراح يوقِّع في تحمُّس. أمَّا بيري، فأحضرتْ له قهوةً وشغلت نفسها في ركن من أركان المكتبة حيث تستطيع مراقبته.

بعد أن أنجز آزور توقيع نصف كمِّيَّة الكتب، تريَّث ورمقها بنظرة فضوليَّة من وراء نظَّارته، وسألها:

ـ لماذا لا تحتفلين برأس السنة بصحبة أسرتك؟

قالت بيري مشيرة بإحدى يديها كأنَّ إسطنبول تقف منتظرةً خارج باب المكتبة:

ـ لم أستطع السفر، لكن لا بأس، فعيد الكريسمس ليس قضيَّة مهمَّة عندنا.

رشقها آزور بنظرة طويلة تغلغلت إلى أعماقها، وقال:

ـ أتعنين أنَّك لست حزينة بسبب عدم استطاعتك قضاء الإجازات مع أسرتك؟

ـ ليس هذا ما كنت أعنيه.

كانت بيري قد عرفته منذ بضعة أشهر، إلَّا أنَّها لا تزال تحمل عنه انطباعًا مفاده أنَّ سوء فهمه لها متعمَّد. وأردفت:

ـ كلّ ما هنالك أنَّ الاحتفال بهذا العيد أكثرُ أهمِّيَّة عند الطلبة النصارى.

ثم تريَّثت في كلامها. يا ترى، هل تفوَّهتْ بأيّ شيء خطأ؟

كانت دائمًا حذرة في اختيار كلماتها، حَذَرَ من تسير على طبقة من الجليد، فتتوقَّف بين حين وآخر للتأكُّد من معالم الطريق، ومن أنَّ الجليد الذي تخطو فوقه لم يتصدَّع، حتى اللحظة.

مكتبة الفكر الجديد

رماها بنظرة متفحِّصة، ولاحت في عينيه ومضةٌ غريبة بَدَتْ موجَّهة إلى أعماقها.

ـ والداك يمارسان الشعائر الإسلاميَّة؟

ـ أمِّي وأخي الأصغر ملتزمان بها، لكن أبي وأخي الأكبر غير ملتزمين بها.

قال آزور:

ـ آه، يا له من انشقاق.

كانت عبارته تنطوي على لذَّة انتصار مَن اكتشف قطعةَ أحجية الصور المفقودةِ التي كانت أمام بصره طوال الوقت.

ثم استرسل:

ـ دعيني أخمِّن. أنت قريبة من والدك وأخيك الأكبر سنًّا.

ابتلعت لعابها بصعوبة وقالت:

ـ نعم، هذا صحيح.

أومأ برأسه وعاد إلى كتبه.

فسألته بيري متردِّدة:

ـ وأنتَ؟ أعني هل تنوي الاحتفال برفقة أسرتك؟

بدا آزور كأنَّه لم يسمع السؤال، إذِ استمرَّ في توقيع بقيَّة الكتب، فلم تجرؤ على طرحه مجدَّدًا. وفي الدقائق القليلة المقبلة، أو هذا ما بدا حقًّا، لم يصدر أيّ صوت في المكتبة سوى همهمات الكلب وقد أخذ سِنَةً من النوم، والزبونة المسنَّة وهي تغطّ في النوم، وصوت تكَّات الساعة الكبيرة وخربشات قلمه الحبر. رأت آزور مطبقَ الفكَّين وفقدت عيناه التركيز موقَّتًا. كان كلّ ما فيه يبدو متحرِّكًا، آيلًا إلى الزوال، متلاشيًا، بلا ماضٍ، ولا مستقبل. لا شيء سوى اللحظة الراهنة العابرة والزائلة.

رشف قليلًا من قهوته وقال.

ـ سبينوزا هو أسرتي الآن.

الآن. أسلوبه في نطق كلمة الآن جعلَ بيري تشعر بأنَّها فتحت بصعوبة غطاء لا تملك حقًّا في لمسه، ولمحتِ الحزن داخله. قالت:

ـ آسفة.

توقَّف القلم عن الحركة. قال آزور:

ـ دعينا نعقد اتِّفاقًا، أنا وأنت. لقد تفوَّهتِ بكلمة آسفة مرَّات ومرَّات معتذرةً إليَّ. وانا الآن لا أريد أن أسمع أيّ اعتذار منك حتى لو اقترفتِ ما هو شنيع. أريد وعدًا.

لم تستطع الإحساس بدقَّات قلبها العنيفة داخل قفصها الصدريّ وإن لم تعرف لذلك سببًا. يبدو الاتِّفاق لها كأنَّه اتِّفاق مبهم وغيرُ شرعيٍّ. ومع هذا، لم تتردَّد وقالت:

ـ أعدك.

ـ رائع.

وبعد أن وقَّع على كَدْسٍ من الكتب، نهض واقفًا على قدميه وأضاف:

ـ شكرًا لك على القهوة.

قالت:

ـ سوف أضع قصاصات ورق لاصق على الكتب بعد أن أؤشِّرها بعبارة «نسخ موقَّعة».

فابتسم لها وقال:

ـ شكرًا لك.

تقدَّما في اتِّجاه الباب، الأستاذُ الطويل الشعر والكلبُ الطويل الفرو، بجسديهما المنسجمين بعد سنين من الصداقة.

مكتبة الفكر الجديد

وبينما كان آزور يمدّ يده إلى مقبض الباب، تأنّى قليلًا، والتفت وأرخى بصره نحوها وقال:

ـ سأخبرك بشيء. سوف نتناول عشاء لا يهتمّ بالرسميَّات: بعضُ قدامى الأصدقاء وعددٌ من الزملاء والمساعدين، أحدُهم في مثل سنّك. قد يكون عشاءً لطيفًا وقد يكون باعثًا علىٰ الملل والضجر، لكن لا ينبغي لك أن تكوني وحيدةً عشيَّةَ رأس السنة. إنَّ إنكلترا لها أسلوبٌ غريب في جعل الأجانب يشعرون بأنَّهم أحرار ومستوحدين على نحو يبعث على الاكتئاب. فهل ترغبين في الانضمام إلينا؟

قبل أن تتمكَّن بيري في التفكير في جواب ما، أخرج دفتر ملاحظاته واقتطع منه ورقه دوّن عليها العنوان والوقتَ، وقال:

ـ تفضَّلي. فكِّري في الموضوع من دون أيّ إحراج. فإذا رغبت في الحضور، تعالي، ولا تصطحبي أيّ شيء معك، لا أزهار ولا نبيذ ولا «حلوى تركيَّة». تعالي بمفردك.

فتح الباب ثم خطا إلى الخارج. كان الثلج قد بدأ بالتساقط وتطايرت ندفه تطايرًا لا هدف لها في مهبِّ الريح، بلا اتِّجاه معيَّن كأنَّها تثب لولبيًّا من على سطح الأرض، وليست متساقطةً من السماء. كانت أوكسفورد تشبه بلدة داخل كرة ثلجيَّة.

قال آزور لكلبه، أو لنفسه، أو لبيري:

ـ رائع!

فردَّتْ بيري بهدوء وهي واقفة عند مدخل المكتبة:

ـ جميل.

ثم أقدمت على فعل شيء غير متوقَّع تمامًا. فعلى الرَّغم من تأخُّر الوقت وبرودة الجوّ، وأنَّ آزور كان يوشك أن يمضي في سبيله، وأنَّها كانت، مكتَّفة الذراعين، ترتعش داخل كنزتها الصوفيَّة. فقد بدأت

مكتبة الفكر الجديد

تتحدَّث عن كتابه، مَن غير أن تتمكَّن من منع نفسها من الحديث، فكانت أنفاسُها سحابًا متكاثفًا:

ـ أنت تقول إنَّ حياتنا ليست سوى حياة واحدة من حيوات لا تُعَدّ ولا تُحصى، كان في وسعنا أن نحياها. وأنا أعتقد، في صميمي، أنَّنا كلَّنا نعرف ذلك. فحتى في الزيجات السعيدة والحياة المهنيَّة الناجحة ثمَّة شيء من الشكّ والريبة. فنحن لا نستطيع منع أنفسنا من التساؤل عمَّا ستكون عليه حياتنا لو أنَّنا سلكنا سبيلًا آخر... أو سبلًا أخرى. وأنت تُخبرنا بأنَّ تصوّرنا عن الربّ واحد من عديد التصوُّرات، فما فائدة أن يكون المرء دوغمائيًّا ـ متعسِّفًا من غير دليل ـ سواء أكنَّا مؤمنين أم ملحدين؟

قال آزور سارحًا ببصره على امتداد وجهها، مندهشًا ومسرورًا لسماعه مثل هذا الجيشان الكلاميّ صادرًا عنها:

ـ هذا صحيح.

فاستطردت بيري:

ـ لكن يتعيَّن عليك أن تعرف أنَّ ثمَّة أعدادًا غفيرة من الناس ممَّن يشبهون والدتي، يستمدُّون إحساسهم بالطمأنينة من إيمانهم. وهم مقتنعون بأنَّه لا يوجد سوى تفسير واحد لله، وهو تفسيرهم. إنَّ أمثال هؤلاء الناس لديهم ما يكفي لمعالجته والتعامل معه، وأنت تريد أن تسلبهم حمايتهم الوحيدةَ المتمثِّلة في يقينهم. أمِّي مثلًا... أعني أنَّني أحيانًا أنظر إليها وأرى فيها حزنًا لا ينتهي. وفي وسعي أن أحسّ بأنَّها لولا تمسُّكها بالإيمان والدين لأُصيبت بمسٍّ من الجنون.

ظلَّلهما صمتٌ رقيق كأنَّه مروحة من حرير.

قال آزور:

ـ أفهم هذا. لكنَّ المبدأ المطلق في كلّ شيء ضعفٌ، سواء أكان

مكتبة الفكر الجديد

ذلك إلحادًا مطلقًا أم إيمانًا مطلقًا. هذا الأمران ينطويان على إشكاليَّة في نظري، يا بيري، ومهمَّتي هي حقنُ الملحدين بجرعة من الإيمان، وحقنُ المؤمنين بجرعة من الشكّ.

ـ لكن لماذا؟

قاطعها آزور بقوله:

ـ لأنَّني لست من دعاة المذهب الصفائيّ الذي يَنهى عن التطوُّر العقليّ.

في هذه اللحظة، حطَّتْ ندفةُ ثلج على قبَّعته، وأخرى على شعره. وأضاف:

ـ تدرين أنَّ بعض الباحثين ميَّالون إلى التقسيم والتصنيف، وأنَّ آخرين نزَّاعون نحو الدمج والاتِّحاد. انشقاقيُّون واندماجيُّون. أمَّا أنا، فأريد أن تكون حواسِّي كلُّها في حالة يقظة، شأنُها شأنُ أخطبوطك المذهل. دعينا نكفّ عن الاعتماد على عقل واحد ممركز، ولنُدخلِ الشعرَ إلى الفلسفة، والفلسفةَ إلى حياتنا اليوميَّة. المشكلة في يومنا هذا تتمثَّل في أنَّ العالم يُقيم للأجوبة وزنًا أكبرَ من الأسئلة. لكن ينبغي للأسئلة أن تحظى بأهمِّيَّة أكبرَ بكثير من الأجوبة! أعتقد أنَّني أريد أن أُدخل فكرةَ الله إلى فكرة الشيطان، وفكرةَ الشيطان إلى فكرة الله.

ـ أنا... نحن... كيف السبيل إلى تحقيق ذلك.

ـ سوف نحطِّم الثنائيَّة حيثما وجدناها إلى أجزاء متناهية في الصِّغَر. وسوف نؤسِّس الجمع من المفرد، والتعقيدَ من البساطة.

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ يعني أنَّنا سنخلط هذه الأمور وسوف نشوِّش الخطوط. وسوف نطرح أفكارًا لا سبيل إلى التوفيق بينها، ونجمع الناس الذين يتعذَّر

مكتبة الفكر الجديد

تحقيقُ الانسجام بينهم. تصوَّري شخصًا يهاب الإسلامَ، وإذا به يُغرَم بامرأة مسلمة... أو شخصًا معاديًا للساميَّة وقد أصبح أفضل صديق ليهوديّ... وهلمّ جرًّا، إلى أن نفهم التصنيفات على ما هي عليه حقًّا. خيال محض. إنَّ الوجوه التي نراها في المرايا ليست وجوهَنا حقًّا، وإنَّما هي انعكاساتٌ ولا يمكننا العثورُ على أنفسنا الحقيقيَّة إلَّا في وجوه الآخرين. المؤمنون بما هو مطلق يبجِّلون الصفاء، أمَّا نحن، فنوقِّر الهجين. وهم يتمنُّون اختزال كلّ فرد إلى شخص مفرد، في حين نسعى نحن إلى العكس من ذلك. نريد مضاعفة كلّ فرد إلى مئات الأفراد، إلى آلاف القلوب النابضة. إذا كنت إنسانًا فينبغي لقلبي أن يكون من السعة ما يجعله قادرًا على الإحساس بالناس في كلّ مكان. انظري إلى التاريخ. راقبي الحياة. إنَّها نشأتْ من البساطة واتَّجهتْ نحو التعقيد، وليس العكس. هذه هي الأيلولة أو الانتقال.

سألت بيري:

ـ لكن، أليس ثمَّة مبالغةٌ هنا؟ فالناس محتاجون إلى التبسيط؟

ـ هراء يا عزيزتي. إنَّ أدمغتنا مزوَّدة بأسلاك كي تلتفَّ وتلتويَ!

لم يعد ثمَّة ما يُقال بعد الآن. فقد رفع يده ولوَّح مودِّعًا إيَّاها في حين أومأت هي برأسها. وابتلع الظلام الدامس المخيِّمُ على الأجواء الرجلَ وكلبَه. شعرت بيري بألم في معدتها. أنفاسُها غيرُ مستقرَّة، فقد كانت منتشية وَوَجِلَةً في الوقت نفسه، على حافَّة شيء مجهول. راقبتهما إلى أن انعطفا عند الناصية. كانت تلك اللحظةُ غيرَ عاديَّة في نظرها. فالمرء يعرف دومًا اللحظةَ التي يُغرَم فيها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الوسيط الروحانيّ

إسطنبول ــ ٢٠١٦

نكهات القهوة والكونياك ورائحة السيجار الممتزجة كلّها امتزاجًا غير سلس بعبير العطور المنتشرة في الأجواء، فاجأت بيري حال رجوعها إلى القاعة. كانت لا تزال تفكّر في الرسالة التي تركتها لشيرين حين لاحظت الوسيط الروحانيّ على بُعْد أقدام منها. كان الرجل يبتسم ابتسامة مجاملة انفرجت عنها أساريره وهو جالس على كرسيٍّ طويل (شيز لونغ) مُحاطًا بنساء جاثمات، متودِّدات ومتزلِّفات إليه كأنَّه سلطان في فانتازيا شرقيَّة غريبة. وكان مدير صندوق المضاربات الأميركيّ حاضرًا أيضًا، منتظرًا وصابرًا حتى يقرأ له الوسيط فنجان قهوته.

اتَّجهت بيري إلى حلقة الرجال، متجاهلةً قوانينَ السلوك الاجتماعيّ. وجلست في وسط المجموعة إلى جانب زوجها، وتحت سحب الدخان الرماديّ الضارب إلى الزرقة، والمنبعثة من تدخين السيجار.

وضع عدنان يده على كتفها وضغطها في رفق. مرَّة. مرَّتين. ثمَّة شيفرة بينهما مفادها: «هل أنت ضجرة؟» فأمسكت يده وضغطت عليها بدورها مرَّة واحدة لا غير: «إنَّني بخير».

قال المعماريّ لأولئك الجالسين من حوله:

مكتبة الفكر الجديد

ـ تذكَّروا ما أقوله الآن! سوف يُعاد رسم خارطة الشرق الأوسط. الواضح أنَّ القوىٰ الغربيَّة لديها خطَّة هائلة.

وقال ملك الصحافة الإسلامويّ:

ـ صحيح. فهم لا يريدون ازدهار المسلمين. إنَّ الحروب الصليبيّة لم تضع أوزارها بعد!

قال المهندس المتعصِّب للقوميَّة:

ـ نعم، لكن تركيا لم تعد كما كانت أيَّام زمان. فنحن لسنا جبناء، ولسنا الرجل المريض في أوروبا الآن. إنَّ أوروبا تهابنا اليوم، وسوف نبذل قصارى جهدنا كي نقضّ مضجعها.

وافق ملك الصحافة على كلامه بقوله:

ـ إنَّهم يعرفون جيِّدًا كيف يؤجِّجون الفتنة والفوضى. يد خفيَّة تضغط على زرّ فيشتعل كلّ شيء مجدَّدًا وينتشر العنف وسفكُ الدماء. لهذا يجب علينا كلّنا أن نتوخَّى الحيطة والحذر.

كان بقيَّة الرجال يستمعون باهتمام. بعضهم يومئ برأسه، والبعض الآخر يلتزم الهدوء.

جالت بيري ببصرها نحوهم وسط سحب الدخان، وقالت في رقَّة:

ـ ما تقولونه يبدو لي جنونًا لا أكثر. أوروبيُّون... وغربيُّون... وروس... وعرب... لو أنَّكم كنتم على دراية بهم أفرادًا، لا فئة، لأدركتم أنَّنا كلّنا سواسية من لحم وعقل بشكل أو بآخر.

وبعد أن تريَّثت قليلًا، أضافت:

ـ إنَّنا لا نستطيع أن نعرف أنفسنا إلَّا من خلال وجوه الآخرين.

فغر المعماريّ وملك الصحافة فاهيهما في دهشة، في حين غمزها عدنان وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أحسنت القول يا عزيزتي.

ابتسمت بيري لزوجها مستأذنة بالنهوض، وتوجَّهت ناحية الجهة الأخرى من القاعة واقتربت من حلقة النساء.

حين رأتها مديرة العلاقات العامَّة، مالت إلى أمام وهمست بشيء ما في أذن الوسيط الروحانيّ، فأصغى إليها الرجل مندهشًا، ورفع بصره وحدَّق إلى بيري ثم ابتسم. أمَّا هي، فلم تبتسم له، فاتَّسعت ابتسامته. وكما هو شأن كلّ من اعتاد على أن يتملَّقه الآخرون ويتزلَّفون إليه، فقد أثارت فضوله الإثارةَ كلَّها هذه المرأةُ التي حاولت أن تتحاشاه.

سأل الوسيط الروحانيّ المضيفة الجالسة قبالته، وكلبُها في حضنها:

ـ لماذا لا تنضمّ ضيفتك إلينا؟

وثبت سيِّدة الأعمال على قدميها في عزم وإصرار، واضعة إحدى يديها تحت بطن كلبها، وأمسكت بيدها الثانية مرفق بيري، في رفق أوَّل الأمر، ثم في ثبات بعد ذلك، وقادتها نحو ضيف الشرف. وقالت موجِّهة حديثها إلى الوسيط الروحانيّ:

ـ هل تعرف صديقتنا بيري؟ لقد وصلت متأخِّرة، مثلك تمامًا، وقد تعرَّضت لحادث مؤسف في طريقها إلى هنا.

قال الرجل وهو يصوِّب بصره إلى يد بيري المربوطة بضماد وإلى ثوبها الذي تعرَّض لأضرار:

ـ الواضح أنَّك عشت يومًا صعبًا.

فأجابت بيري:

ـ الأمر لا أهمِّيَّة له...

مكتبة الفكر الجديد

ـ أنت تستحقِّين هديَّة. هل تحبِّين أن أقرأ لك مستقبلك؟

ثم نهض على قدميه واستطرد مبتسمًا:

ـ من غير مقابل.

لم تتقبَّل صديقة الصحافيّ ومديرة العلاقات العامَّة اللتان كانتا تجلسان إلى جانبي الوسيط الروحانيّ في انتظار دوريهما، هذا الكلامَ بعيون السرور والرضى.

غير أنَّ بيري هزَّت رأسها:

ـ لديك ما فيه الكفاية لتقرأه.

ـ لا تقلقي. فأنا هنا من أجل الحاضرين جميعًا.

ارتسمت على وجهه ابتسامة بطيئة كأنَّه كان يريد قول شيء ما، إلَّا أنَّه آثر أن يحتفظ به لنفسه.

ـ أعتقد أنَّني سأتجاوز عن ذلك هذه المرَّة.

وضحك ضحكة قصيرة وإن احتفظت عيناه ببريق حادّ، وقال:

ـ إنَّني منهمك في هذا العمل طوال الأعوام الخمسة والعشرين الفائتة، وما زلت أرى امرأة لا ترغب في معرفة مستقبلها.

هنا، وجدت مديرة العلاقات العامَّة الفرصةَ سانحة.

ـ وماذا عن ماضيها؟

قال الرجل ثابتَ العينين على بيري، باسطًا يدَه نحوها:

ـ لا، ليس شأنها. ومع هذا، يسرّني أن أتعرَّف إليك.

فمدَّت بيري يدها اليسرى نحوه على نحو انعكاسيّ تقريبًا. وبدلًا من أن يصافحها الوسيط الروحانيّ، أمسك برسغها ولم يتركها وشأنها. شيء ما انتقل منه إليها، إحساسٌ بالمداعبة، لحظةُ دفء.

مكتبة الفكر الجديد

قال وهو لا يزال ممسكًا بيدها:

ـ لا تثقي بالدجَّالين، لكن ثقي بالوسيط الروحانيّ الحقيقيّ.

قالت سيِّدة الأعمال مؤكِّدة:

ـ آه، إنَّه أفضل وسيط، لا يشبه الآخرين.

جذبت بيري يدها وقالت:

ـ ربَّما في يوم آخر.

ما إن خَطَتْ خطوة حتى ترامى إلى أذنيها صوتُ الوسيط الروحانيّ:

ـ أنت مشتاقة إلى شخص ما.

تفرَّست بيري فيه من فوق منكبها:

ـ ماذا قلتَ؟

اقترب منها وقال:

ـ شخص ما أحببته، وقد ضاع منك.

أسرعت بيري تلمّ أطراف شجاعتها وتستعيد رباطة جأشها:

ـ يمكنك أن تقول مثل هذا القول لنصف النساء، ولنصف الرجال في العالم.

فضحك وجاء صوته خاليًا من أيّ براعة:

ـ هذا يختلف.

شبكت ذراعيها من فوق صدرها على نحو غير إراديّ، عازمةً على التوقُّف عن الكلام نهائيًّا. أمَّا هو، فقد أوضح بنبرة واثقة لا تزال قويَّة بما يكفي كي تسمعها كلُّ النساء:

ـ يمكنني أن أرى الحرف الأوَّل من اسمه. إنَّه الحرف A.

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري من غير تفكير:

ـ تبدأ أسماء معظم الذكور بالحرفِ A. فعلى سبيل المثال، الحرف الأوَّل من اسم زوجي هو A.

ـ أتدرين؟ إنَّني لا أريد أن أسبِّب لك أيَّ إحراج أمام الحاضرين، لكنَّني سوف أضعه على غطاء المائدة.

قالت سيِّدة الأعمال مغرِّدة:

ـ أسرعي يا ابنتي وهاتِي لنا قلمًا.

أمَّا مديرة العلاقات العامَّة، فقالت مشاكسة:

ـ إذا كانت القصَّة قديمة، فلماذا لا تشاركيننا فيها؟

قال الوسيط الروحانيّ:

ـ ومن قال إنَّها قصَّة قديمة؟ إنَّها لا تزال حيَّة، تنبض بالحياة.

تمكَّنت بيري من البقاء هادئة في حين راحت العاصفة تتأجَّج داخلها لتثور ثائرتُها. كلّ ما كانت تريده هو أن يتركها وشأنها. ليس هو وحده، بل كلّ هؤلاء النساء، وهؤلاء الرجال، وهذه المدينة بما فيها من فوضى لا حدود لها.

بانت الخادمة للعيان مسرعة وفي يدها القلمُ كأنَّها كانت تنتظر هذه اللحظة. فتظاهر الوسيط الروحانيّ بأنَّه يكتب شيئًا ما، كي لا يراه الآخرون. وكان يطوي منديل المائدة. كلّ حركة من حركاته غايةٌ في البطء ومتَّسمةٌ بالمحافظة على الرسميَّات.

ثم قال لبيري وهو يناولها إيَّاها:

ـ إنَّها هديَّتي إليك.

ـ حسنًا، شكرًا لك.

مكتبة الفكر الجديد

ثم ابتعدت بيري عن النساء، ومرَّت في أثناء ذلك بالرجال وخرجت إلى الشرفة. كان قارب الصيد قد مضى في سبيله، والمياه ممتدَّة إلى الأفق، أشدُّ حلكة من أعمق أعماق الحزن. شاهدت سيَّارة تمرّ سريعًا في الشارع، هادرة بمحرِّكها، وصوتُ موسيقاها الصادحة ـ موسيقى أغنية عاطفيَّة بالإنكليزيَّة ـ يعلو من داخل نوافذها المفتوحة. زَمَّتْ بيري عينيها محاولة أن تتخيَّل الرجل ـ دائمًا هو رجل ـ الذي يستمع إلى مثل هذه الموسيقى بهذا الصوت العالي في مثل هذه الساعة.

أرخت قبضة يدها اليسرى في حيطة وحذر؛ اليدِ التي تستخدمها في الكتابة، اليد الأقوى. هناك على وجه منديل مجعَّد، كان الوسيط الروحانيّ قد رسم صورة ثلاث إناث، مثل ثلاثة قرود حكماء؛ ثلاثتهنّ.

تحت الأولى كتب: شاهدتِ الشرّ. وتحت الثانية كتب: سمعتِ الشرّ. وتحت الثالثة كتب: فعلتِ الشرّ.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

القسم الرابع

البذرة

أوكسفورد ـ ٢٠٠١

كان الانفعال قد أخذ من بيري كلّ مأخذ في يوم رأس السنة، فلم تنجز إلَّا نصف ما كانت تريد إنجازه. ففي الصباح، خرجت لممارسة رياضة العَدْو، بيد أنَّها لم تتمكَّن من مواصلة نشاطها، وكان التشنُّج في عضلة ساقها من الشدَّة والقوَّة ما دفعها إلى التوقُّف عن الرياضة في وقت مبكر. وحين جلست وراء مكتبها للمطالعة، وجدت نفسها غير قادرة على التركيز، وكانت الكلمات تزحف زَحْفَ نمل جائع على الصفحة البيضاء. شعرت بأنَّها تكاد تموت جوعًا. وبما أنَّها كانت نزَّاعة إلى فترات من «التغذية المريحة»، فقد خشيتْ، وهي في غمرة التحفُّز والإثارة اللذين ألمَّا بها، عدمَ توقُّفها ربَّما عن الأكل، لو تناولت قطعة صغيرة من الطعام. لهذا السبب، راحت تقضم التفَّاح بدلًا من ذلك، وتستمع إلى الإذاعة، فوجدت في ذلك عونًا على حالتها، إذْ هدّأ الصوت المتواصل أعصابَها. ثم حوَّلتِ الموجة إلى الأخبار العالميَّة والأخبار المحلِّيَّة والنقاشات السياسيَّة، وإلى برنامج وثائقيّ تبثُّه هيئة الإذاعة البريطانيَّة (بي بي سي) عن إمبراطوريَّة الأزتيك. غير أنَّ برنامجًا وثائقيًّا ـ حتى لو كان عن الأزتيك الجبَّارين ـ يستغرق وقتًا طويلًا. وعلى الرَّغم من بذلها قصارى جهدها لإبعاد فترة المساء عن ذهنها، فقد

مكتبة الفكر الجديد

ظلَّ يخيِّم على أفكارها. وفي نهاية المطاف، شعرت بالارتياح لمَّا حان الوقت للاستعداد للذهاب، إذْ إنَّ أسوأ ما في تناول العشاء برفقة الأستاذ آزور هو انتظارُه.

اكتفت بوضع المسكارا والكحل الأسود وأحمر الشفاه، وتركتِ الأمور على حالها. ثم تأمَّلت وجهها في المرآة، فوجدت أنَّ أنفها الذي ورثته عن والدتها أكبرُ ممَّا يجب. لو كانت تعرفُ وسيلة ما، لجعلته يبدو أصغر حجمًا بمساعدة مستحضرات التجميل، لكنَّها لا تعرف مثل تلك الوسيلة. ولو كانت شيرين هنا لطلبت منها بيري إسداءَ نصيحة إليها. لكن، مرَّة أخرى، لو كانت شيرين هنا لما ذهبت بيري لتناول العشاء برفقة آزور. فقد سبق أن قال لها الأستاذ: لا ينبغي لك أن تكوني بمفردك عشيَّة رأس السنة. وراودها الأمل في ألَّا يكون قد وجَّه إليها الدعوة إشفاقًا عليها.

أمَّا الثياب التي يتعيَّن عليها أن ترتديها، فذلك هو التحدِّي بعينه. هذا لا يعني أنَّها محتارة لا تعرف ما تختار من ثيابها، لكنَّها كانت تملك ثيابًا قليلة وحاولت أن تجرِّبها كلَّها، واحدًا تلو الآخر: التنُّورةَ السوداء من قماش الدّنيم مع قميص فضفاض؛ القميصَ الفضفاض مع بنطال من قماش الدّنيم؛ البنطالَ الدنيم مع سترة خضراء... لم تكن ترغب في الظهور في مظهر طالبة، أو، وهذا هو الأسوأ، أن تبدو كأنَّها لا تريد الظهور في مظهر طالبة. وأخيرًا، وبعد أن تكدَّست الملابس فوق السرير، استقرَّ رأيها على تنُّورة مخمليَّة وكنزة لازورديَّة، نعومتُها تضفي الانطباع بأنَّها من قماش الكشمير. ثم أنهت كلّ شيء بأن تقلَّدت قلادةً ذاتَ لون أزرقَ غامقٍ، مؤلَّفةً من خرز يطرد عين الحسود.

على الرَّغم من أنَّ آزور كان واضحًا في طلبه ألَّا تجلب وإيَّاها أيَّ

مكتبة الفكر الجديد

شيء، فإنَّها تعلَّمت من والدتها ألَّا تذهب إلى أيّ مكان صفرَ اليدين. وهكذا اشترت ثماني قطع من الحلوى الصغيرة من أحد محالّ بيع الحلويات الكائنِ في شارع ليتل كلاريندون، وهو تصرُّف ساذج أقدمت عليه لأنَّه كلَّفها ثمنًا يفوق بكثير ثمنَ قالب حلوى.

سارت ناحية مرأب الحافلات وانتظرت. وفي أقلّ من خمس دقائق، وصلتِ الحافلة. فتريَّثت إلى أن فتحت الحافلة بابها وأغلقته مجدَّدًا. ثم راقبتها وهي تمضي في سبيلها من دون أن تستقلّها، إذْ إنَّها عادت أدراجها إلى حجرتها لتغيير تنُّورتها وكنزتها؛ فكَّرت في أنَّ الثوب الأسود الطويل والحذاءَ الطويل الساقين أفضل.

* * *

كان آزور يقطن خارج المدينة في شارع وودستوك، وفي قرية غودستو التي تبعد مسافة عشرين دقيقة في الحافلة. في فصل الربيع، تكون القرية مُحاطة بخضرة يانعة في قلب الريف الإنكليزيّ، ويبدو وراءها ميدو بورت، وأبراجُ أوكسفورد الحالمة على الرَّغم من أنَّ الظلام قد أرخى سدوله الآن. في الوقت الذي ترجَّلت فيه من الحافلة، بدأ الثلج ينهمر مجدَّدًا، فتساقطت الندف الكبيرة على شعرها ومعطفها. لم تشاهد أيّ بيوت أخرى أمامها في مرمى بصرها. وهو ما لم يدهشها، إذْ لطالما انتابتها الوساوس أكثرَ من مرَّة عن أستاذها كونه يكره معاشرة غيره، وأنَّه نافر من البشر.

كان المنزل بواجهة مزدوجة ومكسوًّا بحجارة مهيبة ومدهشة، وإن كان من الصعب تقديرُ عمره الزمنيّ كما هو شأنُ مالكه. بدا المنزل مكانًا له ماضيه، منزلًا ينطوي على قصص وحكايات. سارت نحوه بتؤدة، محاذرةً ألَّا تنزلق قدماها وتتزحلق على ممرٍّ متعرِّج تحفُّ به

مكتبة الفكر الجديد

أشجارُ بلُّوط نفضت عنها أوراقَها. تغلغلت الريح داخل معطفها، فسرت قشعريرة في أوصالها، بسبب توتُّرها وإحساسها بالبرد. نظرت نظرة خاطفة إلى مرأب الحافلة وراءها كأنَّها قلقةٌ خشيةَ ألَّا تكون في مكانها في وقت متأخِّر من تلك الليلة. كيف سترجع إلى البيت؟ لا بدَّ من أنَّ بعض الحاضرين إلى الحفلة يقطنون في مدينة أوكسفورد وأنَّ أحدهم سوف يقلُّها إلى هناك. كان من دأبها أن تكون مُجْهَدة وفي حالة عصبيَّة لانشغالها بالتفكير في ما سيحدث في نهاية الحفلة قبل أن تكون قد بدأت حقًّا.

كانت الأنوار تشعُّ من نوافذ الطبقة الأرضيَّة، دافئةً وذهبيَّةً كالشَّهْد. وقفت أمام الباب، واضعةً علبةَ الحلويات على صدرها ومصغيةً إلى الجلبة المنبعثة من الداخل: حديث مرح وجلجلة ضحك، ومن الخلف ترامى إلى أذنيها صوتُ الموسيقى وهي تنبعث موجاتٍ، واحدةً تلو الأخرى، موسيقى لا تشبه تلك التي تصغي إليها صديقاتُها، ولا تصغي إليها هي أيضًا. كانت الموسيقى، كما الأضواءُ، تستميلها وتهدِّدها في الوقت نفسه.

وبينما هي تخطو خطوة إلى أمام، انساب إلى سمعها صوتٌ خافت كأنَّه صوت هدير سيَّارة بعيدة، لكنَّ الطريق كان خاليًا. لا حافلة ولا درَّاجة ولا سيَّارة في هذا الجوّ. في هذه الأثناء، حذَّرها جزء من دماغها، الجزءُ الأكثر حذرًا وحكمة، من أنَّ الصوت أشدُّ قربًا، فما كان منها إلَّا أن جالت ببصرها من حولها، فوقع نظرها على سياج عالٍ من شجيرات إلى يمينها، فتجمَّدت في مكانها وتزايدت سرعة ضربات قلبها. لم يتحرَّك أيّ شيء، ولا حتى الريحُ، إلَّا أنَّها كانت متأكِّدة الآن من أنَّ شيئًا ما أو شخصًا ما يراقبها.

مكتبة الفكر الجديد

فهمهمت على نحو تلقائيّ:

ـ مَنْ هناك؟

ظنَّت بيري أنَّها شاهدت في تلك العتمة الدامسة ظلًّا جانبيًّا يهفُّ بين الأشجار، فتقدَّمت خطوة وصاحت:

ـ أهذا أنت يا تروي؟

فظهر الفتى للعيان، ممتقع الوجه، مرتبكًا.

قالت له:

ـ يا الله! لقد أفزعتني. هل كنت تقتفي أثري؟

قال تروي:

ـ إنَّني لا أقتفي أثرك أيَّتها الغبيَّة.

ثم أومأ إلى اتِّجاه المنزل وأضاف:

ـ إنَّني أسعى وراء الشيطان.

ثم تريَّث قبل أن يقول:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

رفضت بيري الإجابة عن سؤاله وقالت:

ـ إنَّك تتجسَّس على الأستاذ!

ـ لقد أخبرتك. إنَّني سأرفع دعوًى ضدَّه وأحتاج إلى دليل في المحكمة.

فكَّرت بيري: أنت مهووس به. الغريب أنَّ الحبّ والكراهية كانا، بين كلّ أنواع الهوس، ظلَّيْن متباعدَين، كأنَّهما ظِلّا لونين في لوحة فنَّان.

تعالت قهقهة من داخل المنزل، فاندفع تروي إلى ما وراء السياج وقال لها:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أرجوك ألَّا تخبري أحدًا بأنَّني هنا.

قطَّبت بيري.

ـ ليس لديك الحقّ في هذا العمل. سوف أدخل وأنتظر عشر دقائق، ثم أخرج لإلقاء نظرة. فإذا لم تكن قد مضيتَ في سبيلك فسوف أُخبر آزور. وإذا لم يتَّصل بالشرطة، فسوف أتَّصل أنا.

قال تروي رافعًا يديه إلى أعلى:

ـ عظيم! اهدئي، ولا تطلقي النار!

تركته والتفتت في اتِّجاه الباب الرئيس الذي ثُبِّتت عليه لوحةٌ زجاجيَّة ملوَّنة بألوان كهرمانيَّة وزيتونيَّة وقرمزيَّة. وكان النقش في وسط الإطار شبيهًا بالدائرة التي شاهدتها في مكتب آزور، وفي حجرة شيرين. وفي غمرة اضطرابها قرعت الجرس بسرعة، فشقّ عنانَ السماء صوتٌ يشبه صوتَ طائر. ليس صوتَ طائر الكناري الجميل أو العندليب، بل صوتٌ يشبه وقوقة ببَّغاء، ساخرًا من الزائر النَّكِد الطالع. توقَّفتِ الأصوات الصادرة من داخل المنزل لحظةً واحدة، بيد أنَّها عادت من جديد بالسرعة نفسها التي توقَّفت فيها. في الجانب الآخر من الزجاج الملوَّن ظهر ظلٌّ، وتمكَّنت من سماع صوت وقع أقدام تقترب. لم تكن قد زادت حمرة شفتيها، لكنَّ الوقت كان قد فات.

فُتح الباب.

ظهرت امرأة وهي تسدّ المدخل، امرأةٌ شقراء، فارعةُ القدّ، موفورةُ الصحَّة والعافية، رشيقةٌ، وسيمةُ الوجه، حلوةُ التقاطيع، وبدأت ترشق بيري بنظراتها من الأعلى إلى الأسفل، وثغرها يفتر عن ابتسامة يمكن أن تكون ابتسامة مودَّة لولا مهابتُها. كانت تُدرك أنَّها امرأة مثيرة، إذْ كشف

مكتبة الفكر الجديد

ثوب منتصف الليل الأزرقُ من غير حمَّالتي الكتفين، والذي كانت ترتديه، والملتصقُ بجسدها، عن قَوام كأنَّه ساعة رمليَّة. فكَّرت بيري في أنَّ هذه المرأة لا يمكن أبدًا أن تكون أستاذة، وفرحت إذْ غيَّرت كنزتها: لم تكن ترغب في أن تشارك هذه المرأة في أيِّ شيء، ولا حتى في ظلٍّ من ظلال اللون الأزرق.

كان آزور قد أخبر بيري بأنَّ سبينوزا بات أسرتَه الآن، لكن هذا لا يعني أنْ ليست له صديقة، أو حتى زوجةٌ. لم يكن يضع خاتم زواج في إصبعه، لكن ليس كلّ الأزواج ملزمين بوضع مثل هذا الخاتم. لماذا لم تفطن إلى أنَّ ثمَّة امرأة في حياته؟ لا بدَّ من أنَّ لديه امرأة. فكلّ رجل في هذا العمر لديه امرأة.

قالت المرأة وهي تأخذ العلبة من يد بيري:

ـ أهلًا وسهلًا بك. يا له من وجه جميل شابّ. لا بدَّ من أنَّك الفتاة التركيَّة.

في تلك اللحظة، بان آزور على صوت وقع الأقدام المسرعة، وكانت في يده زجاجةُ نبيذ غيرُ مفتوحة، عنقُها مسدَّد نحوهما كأنَّه مدفع سفينة صغيرٌ. كان مرتديًا كنزةً رماديَّة بلون معدن البندقيَّة، ذاتَ ياقةٍ مرتفعة، وسترةً خمريَّة اللون مصنوعةً من الصوف والكشمير، فذكَّر مظهره بيري بالفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير[1] قبل أن يخنق زوجته.

هتف الأستاذ متألِّقَ الجبين تحت الأضواء:

ـ ها قد أتيت يا بيري! لا تقفي هناك في البرد. تفضَّلي، تفضَّلي!

---

(١) لويس ألتوسير (١٩١٨ ـ ١٩٩٠): فيلسوف فرنسي، وُلد في الجزائر. درس مؤلَّفات كارل ماركس وتطوُّرَ فلسفته وتأثيرَها في حركة الطبقة العمَّاليَّة. وضع نظريَّة «الأجهزة الأيديولوجيَّة للدولة» (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

سارت خلفه ـ خلفهما ـ إلى حجرة الضيوف. كانت جدران الممرّ محتشدة بصور فوتوغرافيَّة ولوحات أُناس من مختلف بقاع العالم، تحدِّق إليها، شاخصةً بنظراتها، مستغرقةً في التفكير، كأنَّها تعرف شيئًا ما سوف تكتشفه عمَّا قريب.

سألت بيري:

ـ صور مذهلة. من الذي التقطها؟

أجاب آزور غامزًا:

ـ أنا.

ـ آه، حقًّا؟ لا بدَّ من أنَّك سافرت كثيرًا.

ـ قليلًا، أتدرين أنَّني سافرت إلى تركيا؟

ـ إلى إسطنبول؟

هزَّ رأسه. لا، ليس إسطنبول، المدينة التي يذهب إليها كلّ الناس أو يودُّون السفر إليها في يوم ما. لا، كان آزور قد زار أماكن أخرى في تركيا: جبلَ النمرود بما فيه من تماثيل عملاقة تمثِّل آلهة قديمة؛ ديرَ سوميلا البيزنطيّ المُطلَّ على جرف شديد الانحدار؛ جبلَ أرارات حيث عنده فلك نوح. ابتلعت بيري لعابها وانتابها القلق خشية أن يسألها عن هذه المواقع التي لم تزر أيًّا منها.

في حجرة الجلوس، كانت رفوف الكتب مرتَّبة إلى السقف على جدارين متقابلين وقفت بينهما مجموعةٌ من الناس تتجاذب أطراف حديث ملؤه المودَّةُ والألفة، وفي أيديهم كؤوسُ الشمپانيا والنبيذ.

التفت آزور إلى الجمع المحتشد من الضيوف ونادى على أحد الشبَّان:

ـ تعال إلى هنا يا دارين. أُريد أن أعرِّفك إلى واحدة من أفضل طالباتي.

مكتبة الفكر الجديد

وعندما رآه قادمًا، توارى عن الأنظار.

اتَّضح أنَّ دارين ليس سوى طالب دراسات عُليا في المرحلة الثانية في قسم الفيزياء. قدَّم لبيري كأسًا من الشمپانيا، بأسلوب مؤدَّب ومهذَّب. وأثنى على لكنتها الأجنبيَّة الطريفة، وهي أشبه بوسام استحقاق عرفت كيف تحصل عليه. وسألها عن جذورها، إلَّا أنَّه كان حريصًا على أن يتحدَّث عن نفسه، متكلِّمًا كأنَّه يسابق الزمن. نعم، كان ذكيًّا وطموحًا، وتوَّاقًا إلى التعليق والحبّ. حاول أن يُضحكها، مطلقًا تلك النكات، الواحدةَ تلو الأخرى. لعلَّه قرأ في مكان ما أنَّ النساء يُغرمن بالرجال المتمتِّعين بحسٍّ الدعابة. وكان يشيح بعينيه في كلّ مرَّة كأنَّه لم يجد ما يقول مضحكًا. غير أنَّه، بالرَّغم من ذلك، كان فتًى لطيفًا، نمطًا من رجل يحبّ صديقته ويحترمها، ولا ينافسها كما خُيِّل إلى بيري.

إلَّا أنَّها كانت تُدرك أنَّ ما بينهما لا يعدو كونه شرارةً موقَّتة وعابرة. لماذا يجب للأمور أن تسير على هذا النحو؟ لماذا لم تشعر بالانجذاب إلى هذا الفتى، الحنونِ والجذَّاب والحَسَن المظهر، والذي يقاربها في السنِّ، وربَّما يناسبها؟ غير أنَّها، عوضًا عن ذلك، كانت تحنّ سرًّا إلى الأستاذ، وهو رجل ليس فقط كبيرَ السنّ، ومجهولًا وغير مجدٍ لها، لكنَّه مخطئ أيضًا. واحتارت كثيرًا لأنَّها لم، ولا تهتمّ بالسعادة؛ تلك الكلمةِ السحريَّة التي تتحدَّث عنها كتبٌ ومنتديات وبرامجُ تلفازيَّة كثيرة. لم ترغب في أن تكون غير سعيدة. هذا أكيد. إلَّا أنَّها لم تفكِّر في البحث عن السعادة بصفتها هدفًا يستحقّ البحثَ عنه في الحياة. إذن، كيف يمكنها أن تسمح لنفسها بحمل مشعل لرجل مثل آزور؟

تنفَّست تنفُّسًا عميقًا، وسَرَت في أعماقها جرأةٌ ما كانت تظنّ أنَّها ستتجلَّى، فكانت مثل عبير يثير الدُّوار. هل يمكن للآخرين أن يشعروا

مكتبة الفكر الجديد

بأنَّ تحوُّلات تطرأ عليها من الداخل؟ فوراء كلّ الكلمات المصقولة والمتَّسمة بحسنِ الذوق والابتسامات المتكلِّفة في الحياة الاجتماعيَّة، ثمَّة حدودٌ تفصل الأفراد القادرين على الوفاء بالتزاماتهم عن أولئك الذين يعوزهم الانسجامُ والتكيُّف مع مجتمعهم، والناشدين المواجهةَ، والمغامرين الباحثين عن المغامرات. حدٌّ فاصل رقيق رقَّةَ همسة، هو الذي أبقى البنات التركيَّات المحتشمات بعيدًا عن كلّ أنواع المتاعب والخطايا. كيف سيكون الشعور إذا ما اقتربت من ذلك الحدّ الفاصل اقترابًا يجعلها تشعر بنهاية الأرض الصلبة من تحت قدميها، وبدايةِ الفراغ الكامن من بعدها، وعلى حين بغتة، تترك نفسها تسقط خفيفةً متوانيةً؟

على الرَّغم من أنَّ بيري لم تكن شجاعة ولا غريبةَ الأطوار، فإنَّ بذرة خارجةً عن العرف والتقاليد زُرعت في قلبها، في مكان ما على امتداد رحلة شبابها، تنمو نموًّا من غير أن يتنبَّه أحد لها، منتظرةً أن تندفع من أعماق التربة إلى سطحها. لقد اشتاقت نَفْسُ نازبيري نالبانتوغلو، الفتاةِ التي كانت دومًا ذاتَ سلوك لائق وحذرةً ومتَّزنة، إلى المخالفة، واشتاقت إلى ارتكاب الخطأ.

ـ حان وقت العشاء.

هتف آزور مبتسمًا ابتسامةً مشجِّعة من الجهة الأخرى في القاعة، وبيده شوكةٌ كبيرة كأنَّها رمح يهدف إلى توجيهه نحو ضيف لا يخامره أيُّ شكّ.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الليلة

أوكسفورد ٢٠٠١ ــ ٢٠٠٢

سارت بيري مثل الآخرين نحو مائدة طويلة وكبيرة وثقيلة القوائم مصنوعةٍ من خشب البلُّوط تصلح لأن تكون خشبة مسرح في مسرحيَّات القرون الوسطى. كان في وسعها أن تتخيَّل المائدة مُحاطة باللوردات والفرسان، ومثقلةً باللحوم المشويَّة والطواويس المحشوَّة والهلام البرَّاق، إلَّا أنَّها لم تكن مزوَّدة بأطباق فضِّيَّة وأقداح ذهبيَّة، وإنَّما كانت فخَّاريَّة.

كان ثمَّة مدفأة جداريَّة وراء المائدة مشغولةٌ بضرب من الخزف الإيطاليّ مزخرفٍ ومطليٍّ بالمينا، وفوقها عُلِّقت صورة مؤطَّرة باللونين الأبيض والأسود. اقتربت بيري من النار الوهَّاجة منجذبة نحو لهيبها المتراقص. كانت كلّ قطعة خزف من المدفأة تبدو كأنَّها تصوِّر شخصيَّةً مختلفة، معظمُها من الرجال وإن كانت فيها بعضُ النساء. ثياب تلك الشخصيَّات تنتمي إلى عصر غير هذا العصر، قَسَماتُ وجوهها صارمةٌ ورزينة؛ صورُ أنبياء ورسل وأولياء وقدِّيسين، وعلى بعض منها أسماء مكتوبةٌ: الملك سليمان، القدِّيس فرنسيس، النبي إبراهيم، بوذا، القدِّيسة تيريزا، راماناندا... الشخصيَّاتُ تحمل ماء، أو تُكتب على رَقّ، أو تتحدَّث إلى تلاميذ ومريدين، أو تسير وحيدة في منطقة

مكتبة الفكر الجديد

صحراويَّة. بدت كأنَّها مرتَّبة ترتيبًا غير محدَّد النظام. وكان وضعها جنبًا إلى جنب كأنَّها تحضِّر مأدبة خاصَّة بها، يبدو مرتبكًا. الأسهلُ تخيُّل هذه الشخصيَّات المقدَّسة وهي منفصلة بعضها عن بعض. فتَّشت نظرات بيري عن النبيّ محمَّد متسائلة إن كان واحدًا من تلك الشخصيَّات. وأخيرًا عثرت عليه، ممتطيًا صهوةَ براق، صاعدًا إلى السماء، مغطّى الوجه، ورأسه تُحيط به الهالاتُ كما هي الحالُ في الصور المصغَّرة الفارسيَّة والتركيَّة التي ترجع إلى زمن ماضٍ. وكانت من بين الشخصيَّات أيضًا مريمُ العذراء ومعها المسيحُ طفلًا، ممتقعة الوجه كالثلج خارج المنزل تحيط بها ملائكةٌ مجنَّحة. ورأت موسى يُشير إلى عصًا على الأرض تحوَّل نصفها إلى ثعبان.

ما الذي دفع آزور إلى أن يضع هذه الصور حول المدفأة؟ وإذا لم يكن لوضعها أيُّ وظيفة جماليَّة، فهل يدلّ ذلك على نظامه الإيمانيّ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يؤمن به حقًّا؟ لقد قرأت بعضًا من مؤلَّفاته، إلَّا أنَّه لا يزال يمثِّل لغزًا. ولمَّا لم تتمكَّن من الإجابة عن الأسئلة التي ألحَّت في ذهنها، عمدت عوضًا عن ذلك إلى التركيز في الصورة المثبَّتة فوق المدفأة.

كانت صورةً تمثِّل المنزل، التُقطت على ما يبدو منذ بضع سنين. وشاهدت شجرة البلُّوط التي رأتها خارج المنزل، وهي تتَّجه إليه من مرأب الحافلة، لا تزال في مكانها، فضلًا عن الممرّ الملتوي. كانت الصورة تحتوي أيضًا على حديقة تحتشد فيها الأزهار، وعلى غيوم كثيفة وثقيلة، بيضاءِ اللون تكاد في شدَّة انخفاضها تلامس سطح المنزل. كان البيت يبدو مختلفًا، أصغرَ حجمًا، لعلّ ثمَّة إضافات أُلحقت به على مدى سنين. وفي حين كانت الصورة تُظهر الربيع والطبيعة في أفضل ما

مكتبة الفكر الجديد

يمكن، إلَّا أنَّها بدت في نظر بيري كأنَّها أركاديا[1] مفقودةٌ؛ زمنُ فرح ومرح لن يعود مجدَّدًا.

كان الضيوف قد وقفوا جميعًا من حول المائدة والكؤوسُ في أيديهم، ينتظرون في طول أناة وحلم من يرشدهم إلى مقاعدهم.

ـ كيف ترغب في أن نجلس يا آزور؟

سأل رجل نحيف البنية ذو فكَّين طويلَين بارزين وخدَّينِ غائرين، عرفت بيري بعدئذ أنَّه أستاذ بارز من أساتذة مادَّة فيزياء الكمّ.

ـ كأنَّه سيكون مرشدًا تمامًا! إنَّ الجلوس قضيَّة اختيار شخصيّ في هذا المنزل.

قال ذلك رجلٌ آخر، واسعُ الخصر نسبيًّا، وهو أستاذ في كلِّيَّة اللاهوت والدين وصديقٌ قديم من أصدقاء آزور، وأحدُ الذين يعرفونه معرفة وثيقة. وكي يؤكِّد ما قاله، عمد إلى جذب كرسيّ وجلس.

بعد أن تلقَّى سائرُ الضيوف هذه الإشارةَ منه، حذوا حذوه، واحدًا تلو الآخر، وجلسوا من حول المائدة. وما إن عثرت بيري على مقعد شاغر لها، حتى جلس دارين إلى جانبها. أمَّا الشقراء الحسناء، فجلست إلى جانب آزور في الجهة المقابلة من المائدة.

مال أستاذ اللاهوت إلى الخلف، مستمتعًا بالموسيقى التي كانت لا

---

(١) أركاديا (Arcadia): مقاطعة في اليونان القديمة وسط البيلوبونيز، سُمِّيت باسم أركاس نجل جوبيتر. سكنها رعاة الغنم. وبحسب فيرجل (٧٠ ـ ١٩ ق.م) كبير شعراء الرومان وصاحب ملحمة الإلياذة، كانت أركاديا موطن السعادة والبساطة الرعويَّة. استخدم الشاعر الإنكليزيّ فيليب سدني (١٥٥٤ ـ ١٥٨٦) هذا الاسم في قصيدته العاطفيَّة التي كتبها من أجل شقيقته. وسرعان ما أصبحت الكلمة رمزًا من رموز النِّعَم الريفيَّة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

تزال تعزف الألحان في الجانب الخلفيّ. وبعد برهة وجيزة، رفع كأسه وهتف:

ـ أودّ أن نشرب نخب مضيفنا الكريم، ونحن نشكره على لَمِّ شملنا، نحن الأرواح المنسيَّة والحزينة في أوكسفورد، بعد أن أتت علينا ليلةُ الزمهرير.

ردّ آزور على هذا الثناء بابتسامة وهو يرنو من فوق شمعدان معدنيّ ذي ثلاث شموع تلقي ظلالًا متداخلة على الجدار.

جالت بيري ببصرَها متفحِّصةً رفاقَ المائدة: مجموعةً مختلطة من الأساتذة والطلبة من مختلف الاختصاصات. عندما دخلت في بداية الأمر هذا المكانَ، راودها اعتقادٌ مفاده أنَّ كلّ هؤلاء الناس يتَّصفون بصفة متشابهة على الرَّغم من الاختلافات بينهم، وهي: الذكاءُ. لا بدَّ من أنَّهم متميِّزون حتى يكونوا في حلقة آزور المصغَّرة، وأنَّهم أوسعُ معرفة، بحسب ظنِّها، وأكثرُ حساسيَّة من الناس الاعتياديِّين، كم كانت متجاسرة ووقحةً وقتئذ، إذْ إنَّ الشيء الذي كان يجمعهم هو أنَّ كلّ واحد منهم كان يوشك، لسبب أو لآخر، أن يحتفل بعيد رأس السنة منفردًا، قبل أن يتدخَّل آزور ويلمّ شملهم مثلَ أصداف مبعثرة على شاطئ بعيد.

استأنف الأستاذ المتقدِّم في السنّ كلامه:

ـ ثمَّة سبب آخر يدفعني إلى أن أشرب نخب مضيفنا يتمثَّل في عزف موسيقى باخ باستمرار. ولو أنَّ كلّ واحد استمع إلى باخ عشرَ دقائقَ في اليوم الواحد، فإنَّه يمكنني أن أؤكِّد أنَّ عدد المؤمنين سوف يزداد.

هزَّ آزور رأسه وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ حاذر يا جون. أنت أعلم منّي بأنَّ باخ حقل ألغام لاهوتيٌّ. صحيح أنَّ في وسعه أن يجعلك مؤمنًا، لكن إذا واصلت الاستماع فإنَّك يمكن أن تتخلَّى عن الربّ.

فضحك الحاضرون.

ثم قال آزور باسطًا يديه:

ـ تفضَّلوا أرجوكم.

سرعان ما حوَّل الضيوف انتباههم إلى الطعام. ثمَّة ثلاثة أطباق كبيرة الحجم تتوسَّط المائدة. الطبق الأوَّل منها يحتوي على كمِّيَّة هائلة من الفاصوليا المسلوقة، وفي الطبق الثاني أرزٌّ أسود، وفي الثالث ديكٌ رومي مشويّ ذهبيّ اللون. وكان على المائدة أيضًا دورقٌ زجاجيّ يحتوي على نبيذٍ أحمرَ بلون الياقوت. هذا كلّ ما هنالك. ولم تكن هناك أيّ سَلَطة أو توابل. كلّ شيء بسيط على نحو مصطنع.

ابتسمت بيري لنفسها حين فكَّرت في أمِّها التي كانت تفضِّل أن تموت على أن تدعو الناس إلى مثل هذه المائدة المتواضعة. وكانت قد أخبرت ابنتها بأنَّ سرّ حفل العشاء الناجح إنَّما يكمن في «التأكُّد من توفير طبقين مميَّزين لكلِّ شخص. وإذا كان هنالك أربعة ضيوف، فلا بدَّ من توفير ثمانية أطباق. أمَّا إذا كان عدد الضيوف خمسة، فيجب أن يكون عدد الأطباق عشرة». أمَّا في هذه الليلة، فإنَّ عدد الحاضرين اثنا عشر وعددَ الأطباق ثلاثةٌ. لو أنَّ والدتها كانت حاضرة هنا لهالها أن ترى ذلك.

بدأ الضيوف يغرفون بملعقة كبيرة من كلِّ طبق ويضعون ما يغرفونه في أطباقهم قبل أن يمرِّروا الملعقة إلى من يجلس إلى جوارهم. ولمَّا حان دور بيري، غرفت كمِّيَّة كبيرة، بعد أن أدركت بغتة أنَّها لم تأكل

مكتبة الفكر الجديد

شيئًا طوال ذلك النهار.

مالتِ الشقراء المجهولةُ الاسم ناحية آزور قائلة:

ـ هل أعددت هذا الطعام كلّه بمفردك؟

رفعت بيري رأسها متنبِّهة. لو كانت مضطرَّة إلى طرح مثل هذا السؤال لما كانت زوجته.

قال آزور مجيبًا:

ـ نعم يا عزيزتي. فلنرَ كيف ستستمتعين به.

ثم وجَّه كلامه إلى كلِّ الحاضرين بقوله:

ـ هنيئًا.

كانت عينا آزور خضراوين بلون الغابة تحت النور المتراقص. كما بدت حافَّات رموشه متألِّقةً. أمَّا شفتاه اللتان لم تتجرَّأ بيري على النظر إليهما من قبل فكانتا تبدوان زاهيتين بلون النبيذ الذي كان يحتسيه.

أتلعَ آزور عنقَه ومال برأسه محدِّقًا إلى بيري من تحت جفنيه الخفيضين، وقَسَماتُ وجهه تنطوي على قدر من الدهشة، فاحمرّ وجهها خجلًا، وتملَّكها الهلع حين أدركت أنَّها كانت تنظر إليه مدَّةً أطول ممَّا يجب. فما كان منها إلَّا أن التفتت إلى دارين من فورها وشكرته على حضوره.

* * *

الطبق الحلو في نهاية العشاء كان خليطًا من الزبدة والدقيق والخوخ المجفَّف والبهارات والبيض والسكَّر المغلي. أفرغ آزور مقدارًا صغيرًا من شراب البراندي على هذا الخليط الذي كان لا يزال ساخنًا، وأضاءه بعود كبريت، فتوهَّج السطح بألسنة لهيب زرقاءِ اللون، تمايلت

مكتبة الفكر الجديد

وتأرجحت قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة من حياتها البريئة والقصيرة. وبدأ آزور يقطع بيده الماهرة الخليطَ ويقدِّم إلى كلِّ ضيف قطعةً كبيرةً مع صلصة الكاسترد. فما كان من الضيوف إلَّا أن عبَّروا عن شكرهم وامتنانهم على مهارته في الطبخ بعد أن لبثوا يراقبون المشهد صامتين وتذوَّقوا أوَّل لقمة.

قال أستاذ الفيزياء مقترحًا:

ـ يتعيَّن عليك أن تؤلِّف كتابًا في فنِّ الطبخ. الطعام لذيذ. كيف أعددته؟

تمتم آزور:

ـ إنَّ المرء يتعلَّم.

أمَّا بيري، فإنَّ هذه الكلمات منحتها مفتاحًا على حياته الخاصَّة، واستنتجت أنَّه لا بدَّ من أن يكون عازبًا. وراودها أمل في أن يتحرَّى أحد الحاضرين هذا الموضوع، لكن لم يفعل ذلك أحدٌ، إذْ عمدوا جميعًا، بدلًا من ذلك، إلى الانهماك في حديث عن سخطهم على توني بلير، وثنائهم على تمرُّد نواب حزب العمَّال البرلمانيِّين الذين لا يشغلون منصبًا وزاريًّا. كما اكتسبت لهجتهم هدوءًا جعل بيري تجد صعوبة في ربطها بالسياسة. أمَّا في تركيا، فإنَّ كلّ المهاترات السياسيَّة التي سبق لها أن رأتها، سواء تلك الصادرة عن أصدقاء والدها أو عن أصدقائها، فقد كانت مشحونة بثلاثة أمور: الامتعاضِ والهيجان والإذعان. وحين تكون المواضيعُ محتدمةً، فإنَّ العواطف تكون جيَّاشة، ويصير احتمالُ تحسُّن الأوضاع ضئيلًا، فكان الأسلوبُ أوَّلَ الأشياء التي يضحى بها في أيّ نقاش. لكنَّ المتكلِّمين يتحدَّثون هنا على نحو يهيمن فيه الأسلوبُ النقاشيّ على المحتوى. كان ذهنها منشغلًا بمقارنات ثقافيَّة، فصعب

مكتبة الفكر الجديد

عليها تتبُّعُ سير الحديث من حول المائدة. ولمّا رأت الحاضرين يرمقونها بنظراتهم، لم تفهم من فورها سببًا لذلك.

فما كان من الأستاذ المسنّ إلَّا أن قال في محاولة منه لمساعدتها على الاشتراك في الحديث:

ـ كنَّا نقول قبل قليل إنَّ بلادك مثيرة للاهتمام.

تذكَّرت بيري تحذير شيرين لها من استخدام تعبير «مثير للاهتمام»، فما كان منها إلَّا أن أشاحت ببصرها ناحية أستاذها، غير أنَّ آزور لاح وهو ينظر إليها من فوق إطار نظّارته توّاقًا إلى معرفة ما ستتفوّه به.

سألتها امرأة ذاتُ شعر أبيض وقصير يشبه القشّ، وهي زوجة الأستاذ المسنّ:

ـ ما رأيك؟ هل ستحظى تركيا بفرصة الانضمام إلى الاتِّحاد الأوروبّي؟

أجابت بيري مجيبة:

ـ أتمنّى ذلك.

وسألت ذاتُ الشعر الأشقر:

ـ أَلَا تعتقدين أنَّها بلاد مختلفة ثقافيًّا؟

فأجابت بيري، وهي تُدرك أنَّ ميدان معركة قد فُتح في روحها:

ـ لا أدري ماذا تعنين بالاختلاف.

كانت بيري ترغب في أن تتكلَّم منتقدةً، فثمَّة أشياء كثيرة تدفعها إلى الإحباط في بلدها، لكنَّها كانت تريد من هؤلاء الناس أن يحبُّوا وطنها. وهكذا، اتَّخذت موقف الدفاع عنه، إحساسًا بالمسؤوليَّة. ولم تشعر من قبلُ بأنَّها تمثِّل كيانًا جماعيًّا.

مكتبة الفكر الجديد

سألها أستاذ الفيزياء:

ـ إذن، أنت لا تعتقدين أنَّ الدِّين سيكون عقبةً. فهل تظنّين أنّ تركيا يمكن أن تصبح مثل إيران؟

أجابت بيري:

ـ هنالك مثلُ هذا الخطر، غير أنَّ إيران مجتمع ذاكرة وتقاليد. أمّا نحن الأتراك، فمصابون بفقدان الذاكرة.

سألها دارين الجالس إلى جانبها:

ـ ماذا تفضِّلين: التذكُّر أم النسيان؟

ردَّت بيري من غير تردُّد:

ـ النسيان بالتأكيد، لأنَّ الماضي عبء، ثم ما نفع التذكُّر إذا كنَّا غيرَ قادرين على تغيير أيّ شيء؟

قال الأستاذ المسنّ:

ـ الشبَّان وحدهم هم الذين يتمتَّعون بنعمة النسيان.

أومأت بيري برأسها لأنَّها لم ترغب في أن تبدو شابَّة. وإذا رغبت في شيء فإنَّها كانت تريد أن تبدو ذكيَّةً وحكيمة. إلَّا أنَّ الدهشة ساورتها حين لاحظت آزور يومئ أيضًا برأسه علامةَ الموافقة ويقول:

ـ لو كان الاختيار بيدي، لفضَّلت أن أكون بلا ذاكرة أيضًا، لأنَّني لا أستطيع الانتظار حتى أُصاب بمرض ألزهايمر.

فما كان من المرأة الحسناء إلَّا أن وضعت يدها على يد آزور وقالت:

ـ أنت غير جادّ في كلامك يا عزيزي.

حوَّلت بيري ناظرَيها. لم تكن تعرف هؤلاء الناسَ. فماضيهم

مكتبة الفكر الجديد

وارتباطاتهم خارج نطاق معرفتها، وهي لا تقدر إلَّا على الإحساس بالأشياء التي تُركت من غير الحديث عنها، وبالموضوعات التي كانوا يدورون من حولها، من غير أن تتمكَّن من فهمها.

قُبيل منتصف الليل بوقت قصير، وعندما بدأ تقديم الشاي والقهوة، استأذنت وذهبت إلى المرافق الصحِّيَّة. كان الوجهُ الذي رأته في المرآة وهي تغسل يديها، وجهَ امرأة شابَّة أخفقت مرارًا وتكرارًا في أن تكون واثقة بنفسها، خاليةً من الهموم، ناعمةَ البال. كانت دومًا تنحو باللائمة على نفسها لأنَّها لم تعرف كيف تكون مبتهجة، رائقة المزاج. المؤكَّد أنَّها فعلت شيئًا ما كي تثمر تعاسة لا تريدها. لكنَّ الناس الذين لا يقدرون على اجتياز اختبار السعادة ربَّما لم يكونوا مخطئين. فالحزن ليس مظهرًا من مظاهر الكسل أو الشفقة على الذات. لعلَّ أمثالَ هؤلاء الناس وُلدوا على هذا النحو لا أكثرَ. إنَّ كفاح المرء من أجل سعادة أكبر عَبَثٌ لا طائلَ من ورائه، يشبه الكفاح من أجل زيادة الطول.

عند خروج بيري من المرافق الصحِّيَّة، ولدى وصولها إلى القاعة، ووسط كلّ أنواع اللوحات، شاهدت صورة فوتوغرافيَّة جعلتْها تتوقَّف.

كانت الصورة تمثِّل امرأة بارزة عظام الوجنتين، متباعدةَ العينين، مكتنزةَ الشفتين، عاريةً تمامًا إلَّا من وشاح قرمزيّ ملفوف بإحكام على خصرها. كان شعرها مشدودًا إلى الوراء من غير اكتراث، وكتفاها البيضاوان متألِّقتين مثلَ زينة مصنوعة من عاج مصقول، ونهداها عامرين ومدوَّرين، وحلمتاهما منتصبتين في وسط دائرتين غامقتين. أمَّا سرَّتها، فكانت بارزة قليلًا، وتمسك بإحدى يديها قطعةَ القماش التي تغطِّي ساقيها، وعلى استعداد لترميَها جانبًا في أيّ لحظة. كانت الابتسامة التي يفترّ عنها ثغرُها تشير إلى استمتاعها بالوقوف أمام عدسة التصوير، مثلما

مكتبة الفكر الجديد

تشير إلى أنَّها تعرف المصوّر.

تقدَّمت بيري إلى أمام وهي في حالة من الذهول، كأنَّها انتهكت حرمةَ منطقة يحظَّر الدخولُ إليها. ثم تريَّثت ولم تحرِّك ساكنًا، مشلولةً حينها. في مكان ما في أعماق المنزل، ثمَّة ساعةٌ تصدر تكَّاتها بعيدًا عنها. وَجْسٌ مألوف ومستحيل ينبغي لها أن تعتاده. خالجها شعور غامض مشوبٌ بقلق وانزعاج بحضور الطفل الصغير في وسط الضباب، وكان قريبًا على نحو يثير الهلع. ها هو، بوجهه الدائريّ نفسِه وعينيه الواثقتين وقطعةِ القماش البنفسجيَّة التي تغطِّي نصفَ وجهه. كانَ يحاول أن يخبرها بشيء ما عن المرأة الظاهرة في الصورة. حزن. حزن لا تحدُّه حدود منتشرٌ في هذا المكان. حزن كثيف وغير ملموس. ولم تتمكَّن بيري من أن تدرك إن كانت قد اصطدمت بحزن قديم، أم أنَّها أتتْ به معها.

همست بيري في هلع:

ـ أَغْرِبْ عنِّي!

لم تكن تطيق الاستماع إليه. لا، ليس الآن، وليس في هذا المكان.

زمّ الطفل في الضباب شفتيه.

ـ ما الذي تريد أن تقوله لي؟ لا يمكنك المجيءُ إلى هنا، إنَّ هذا المكان...

قاطعها في هذه اللحظة صوتٌ بقوله:

ـ مع من تتحدَّثين يا بيري؟

التفتت، فرأت آزور يقف خلفها، وعيناه تشعَّان ببريق ذهبيّ، لا

مكتبة الفكر الجديد

تتراجعان ولا تفسحان لها مجالًا.

قالت بيري مشيرة إلى الجدار:

ـ كنت أكلِّم نفسي لا أكثر... أنظرُ إليها.

اختلست نظرة جانبيَّة وارتاحت عندما شاهدت الطفل يتحلَّل ويتحوَّل إلى كتلة من بخار في الهواء.

قال آزور:

ـ زوجتي.

ـ زوجتك؟

ـ توفيت قبل أربعة أعوام.

ـ آه، آسفة.

فسألها:

ـ آسفة، مرَّة أخرى؟

ثم نقل بصره من المرأة في الصورة الفوتوغرافيَّة إلى المرأة الماثلة أمامه.

ـ لا بدَّ من أن تتوقَّفي حقًّا عن...

فما كان من بيري إلَّا أن استطردت من فورها لتتفادى انتقاده:

ـ إنَّها ذاتُ ملامح شرق أوسطيَّة.

ـ نعم، فوالدها جزائريّ من البربر، شأنُه شأن القدِّيس أوغسطين.

ـ هل كان القدِّيس أوغسطين من البربر؟ إنَّه نصرانيّ.

أطرق آزور ببصره إليها، مستوعبًا شبابَها وقال:

ـ التاريخ واسع. كان البربر يهودًا ونصارى، وحتى وثنيّين، في حقبة ما من حِقَبِ الزمان. وكانوا أيضًا مسلمين. إنَّ الماضي محتشد

مكتبة الفكر الجديد

بمواجهات قد تبدو بشعةً لنا في هذه الأيَّام، إلَّا أنَّها كانت ذاتَ مغزى يومئذٍ.

فتحتِ الكلماتُ التي لم تكن لها صلةٌ لها بها فجوةً في أعماقها، وفضاءً بِكْرًا مجهولًا. ففي رأيها، لم يكن الماضي وحده محتشدًا بالمواجهات التي تتحدَّى العقل، وإنَّما الحاضرُ أيضًا.

قال:

ـ يبدو وجهك ممتقعًا.

في تلك اللحظة، بدأت بيري تكلِّمه بصراحة. فبينما كانا يصغيان إلى أصوات الضيوف القريبين منهما، أخبرت بيري أستاذها بأنَّها منذ نعومة أظفارها كانت تمرّ في «تجارب تفوق الواقع» بسبب لا تدري كُنْهَه. وكانت تشاطر والدَها هذه التجاربَ، فكان يصرفها عنها بقوله إنَّها «خرافاتٌ»، وتتشارك فيها أيضًا مع والدتها التي خشيت أن يكون الجنُّ قد تلبَّسها. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد تشاركُ أحدًا فيها لئلَّا يُصدروا حُكمًا عليها.

أصغى إليها آزور، فبانت على وجهه علاماتُ التعجُّب والدهشة، وقال:

ـ لا أستطيع أن أُبدي ملاحظة على أيّ تجربة تفوق الواقع، لكن يمكنني أن أُخبرك بشيء واحد أؤمن به: لا تخشَيْ شيئًا إن كنت تشعرين بأنَّك مختلفةٌ عن الآخرين. فأنت فتاة مميَّزة جدًّا.

قاطعت حديثَهما جلبةٌ قادمة من الأصوات الهائجة في حجرة الاستقبال.

قال آزور وهو يمرِّر أصابعه في شعر رأسه:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا بدَّ من أنَّ الوقت منتصفُ الليل. لنتحدَّث عن هذا الموضوع في وقت لاحق. لا بدَّ من ذلك. تعالي معي إلى غُرَفِي.

تقدَّم منها وقبَّلها قبلتين على وجنتيها، قائلًا:

ـ كلّ عام وأنت بخير!

ثم انطلق ليقبِّل الآخرين.

فتمتمت بيري خلفه ودفءُ قُبْلَتَيْه لا يزال حاضرًا على بشرتها:

ـ كلّ عام وأنت بخير أيُّها الأستاذ!

تعالي إلى غُرَفِي. أدركت أنَّه كان يعني بذلك أنَّ ما من شيء مميَّز. فما يعنيه بِغُرَفِهِ هو تلك القاعاتُ التي ألقى فيها محاضراته في الفصل الدراسيّ المنصرم. لكن على الرَّغم من ذلك، لم تكن ملاحظتُه ملاحظةً عابرة أو اعتياديَّة. فَسَرَتْ في أعماقها انفعالاتٌ مفاجئة لها. فقد قال لها إنَّها مميَّزة، مميَّزةٌ جدًّا. في وسعه أن يرى في أعماقها ما لم يستطع أحدٌ غيره أن يراه. وفي الوقت الذي كانت تقف فيه هناك، بلا حراك، ومستغرقةً في التفكير، اتَّضح لها كلُّ شيء وضوحًا جليًّا، إذْ تبلورت آخرُ قطرة أمام كلّ توقُّعاتها، وكلِّ آمالها. وفي حين عادت أدراجها إلى حيث الضيوفُ، كانت قد اقتنعت بأنَّ أستاذها أيضًا يكنّ لها مشاعرَ عاطفيَّة.

* * *

بعد منتصف الليل بقليل، بدأ الضيوف يغادرون المنزل. وحين خطت بيري إلى الجوِّ البارد خارجًا، تذكَّرت عندئذ تروي، فما كان منها إلَّا أن اختلست نظرة خاطفة في اتِّجاه السياج العشبيّ العالي، فلم تلمح شيئًا باستثناء حلكة الظلام.

تبيَّن أنَّ كلّ فرد كانت لديه سيَّارة باستثناء بيري ودارين. لهذا

اقترحت الشقراء الحسناء التي لا تتعاطى المسكِّرات، بكلّ فخر واعتزاز، بحسب قولها ـ أن تقلّهما معًا.

كان طريق العودة إلى أوكسفورد قصيرًا، وخيَّم صمت غريب في إثر الهرج والصخب اللذين سادا في المساء. كانت المحطَّة الرابعة من هيئة الإذاعة البريطانيَّة (بي بي سي) تُذيع برنامجًا عن رسائل الحبِّ التي كان غوستاف فلوبير[1] قد كتبها. وامتلأت السيَّارة بمفردات حسِّيَّة، مانحةً المستمعين بذلك إحساسًا بالوحدة والحنين إلى حبٍّ لا يزال في طيِّ المستقبل. سألت بيري نفسَها، وهي جالسةٌ إلى جانب الشقراء التي تقود السيَّارة إن كان الناس قد فهموا في ماضي الزمان الحبَّ على نحو أفضل. ثم أسندت جبينها على النافذة نصف المتجمِّدة ولبثت تحدِّق إلى الطريق الممتدّ أمامها، والذي كانت بعضُ أجزائه تنيرها مصابيحُ السيَّارة الكاشفة قبل أن تبتلعها ظلمةُ الليل. فكَّرت في آزور، وفي المرأة الظاهرة في الصورة الفوتوغرافيَّة. كيف كانت حياتهما الجنسيَّة يا ترى؟ وفكَّرت في ابتسامته أيضًا حين رأى ضيوفه يُعيدون مَلء أطباقهم بالطعام، وكيف كان يمسك فنجان قهوته براحتي يديه رافعًا إيَّاه عاليًا، مستلذًّا بالبخار الذي كان يُداعب وجهه، وكيف ساعد النساء في ارتداء معاطفهنَّ، وضمنهنَّ هي نفسُها، عندما راح يودِّع كلّ فرد في نهاية

---

(١) غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert، ١٨٢١ ـ ١٨٨٠): أديب فرنسيّ وروائيّ كبير. امتاز بالواقعيَّة والصياغة الفنِّيَّة في إطار رومانسيّ، وبالأسلوب الموضوعيّ في السرد. أشهر رواياته «مدام بوڤاري» و«سالامبو» و«التربية العاطفيَّة» و«تجربة القدِّيس أنطونيوس» و«ثلاث قصص» و«بوفار وبيكوشيه». أمَّا الرسائل الوارد ذكُرها أعلاه، فتقدِّم صورة عن حياته الأدبيَّة وأحكامه ونقده الموجَّه إلى غيره من الأدباء. من أهمّ هذه الرسائل تلك التي كان يرسلها إلى الروائيَّة الفرنسيَّة المعروفة بالاسم المستعار «جورج ساند» (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

الليل، وكيف كان، على نقيضِ أسلوبه في الصفِّ الدراسيّ، رقيقًا، مجاملًا، وشفَّافًا إلى أبعد الحدود.

ولدى الوصول إلى أوكسفورد، ترجَّلت بيري وداريـن معًا من السيَّارة، وشعرا بأنَّ برودة المساء المبكر القارس حلَّ محلَّها هواءٌ منعش. سار الاثنان، يتجاذبان أطراف الحديث من غير توقُّف، إلى أن وصلا إلى نزل بيري الموقَّت. تبادلا قبلة تحت نور الشارع، ثم قبلةً أخرى في الظلام. أغمضت بيري عينيها واسترخت، لا بسبب النبيذ وإنَّما بسبب قسوة المساء، واهتاجت بسبب ما ساور دارين من انفعال أكثر من انفعالها هي.

سألها:

ـ هل يمكنني ارتقاءُ السلالم؟

رأت فيه الصبيَّ الذي يمسك بيد أمِّه وهما يعبران الشارع، متعلِّمًا كيف يعامل النساء باحترام. فلو رفضت عرضه لما أصرَّ على ذلك، وهذا ما كانت تعرفه، ولَمَضى في سبيله، خائبَ الأمل، لكن من غير إحراج. وفي اليوم التالي، ستجده رقيقًا وإيَّاها، وستكون هي أيضًا رقيقةً وإيَّاه إذا ما التقيا مصادفة.

أجابت على نحو تلقائيّ من دون أن تسأل:

ـ نعم.

كانت تُدرك أنَّها سوف تستيقظ في الصباح يساورها شعورٌ فظيع بالإثم من جرَّاء مضاجعتها شخصًا لم تهتمّ به إلَّا قليلًا؛ وبالإثم بسبب خذلانها والدَها وجعلِ أسوأ مخاوف والدتها تتحقَّق. وعلى الرَّغم من أنَّ أيّ واحد منهما لن يعلم بأيٍّ من هذين الشعورين، فإنَّ ضميرها

سيكون مثقلًا بالعار في المرَّة المقبلة التي ستكلِّمهما فيها، وربَّما سيلازمُها مدَّةً طويلة من بعد ذلك. إلَّا أنَّ شيئًا آخر أقلقها أكثرَ من هذا. فبينما راحت تبادل دارين القبلاتِ ولمسات الأيدي، كانت تفكِّر في شخص آخر. فقد كانت معرفتها بأنَّها كانت ترغب في أستاذها تفوق كلَّ عواطفها.

قديمًا قالوا إنَّ ما يفعله المرء في الساعات الأولى من السنة الجديدة هو الذي من شأنه أن يقرِّر ما يفعله طوالَ تلك السنة. آه، لو كان ذلك صحيحًا، لأنَّها بدأت يومَها الأوَّل من كانون الثاني بعواطفَ معقَّدة تُثقل كاهلَ قلبها. وراودها الأملُ في ألَّا تكون سنةُ ٢٠٠٢ سنة الإثم والخطيئة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الفِرْيـــــة

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

استقلَّت بيري القطارَ المتَّجه جنوبًا إلى لندن قبل انتهاء العطلة، إذْ قرَّرت أن تقبل دعوة شيرين. وشاهدتِ الطلبة والأُسر برفقة أطفال صغار السنِّ يسيرون في صفٍّ طويل داخل العربات. وكان في مقصورتها ـ إذِ اشترت تذكرة من الدرجة الأولى عن طريق الخطأ ـ ثلاثةُ رجال في خريف العمر وفي منتهى الأناقة، لا يكاد أحدهم يختلف عن الآخر، وامرأةٌ غيرُ محدَّدة العمر، مصفِّفةٌ شعرَها الأسود الضاربَ إلى الحمرة تصفيفًا مُدهشًا. رمقوها بنظرة فاترة كأنَّما يريدون القول: لا يبدو عليك أنَّ مكانك في هذه العربة. وحين عثرت على رقم مقعدها، دفنت رأسها في كتاب «الأعمال الصوفيَّة الكاملة لمايستر إيكهارت»(١).

كانت بيري قد أخذت معَها مفكِّرتَها الخاصَّة بالربّ والتي كتبت فيها الآن:

---

(١) السيِّد إيكهارت (Meister Eckhart، ١٢٦٠ ـ ١٣٢٧): فيلسوف صوفيٌّ ألمانيٌّ، هو أوَّل كبار الصوفيَّة في غربي أوروبا. مارس التعليم في باريس وستراسبورغ وكولونيا. يرى إيكهارت أنَّه لا يوجد أيُّ أمر حقيقيٍّ سوى الخالق، وأنَّ وجود المخلوقات يمثِّل وجود الله نفسه، وأنَّ العلاقة بين الله ومخلوقاته أقربُ العلاقات إطلاقًا «أقرب إليكم من حبل الوريد». ويرى النقَّاد أنَّ هذا الرأي يقترب كثيرًا من القائلين بوحدة الوجود. آمن إيكهارت بأنَّ حياة البشر هدفُها اتِّحادُ الإنسان بالله من خلال المعرفة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

«إنَّ العين التي أرى بها الربَّ هي العينُ نفسُها التي يراني بها الربُّ، كما يقول إيكهارت. وإذا ما اقتربت من الربّ بقسوة، فإنَّه يقترب منِّي بقسوة أيضًا. وإذا ما رأيت الربّ من خلال الحبّ، فإنَّ الربّ يراني من خلالِ الحبّ أيضًا. إنَّ عيني وعينَ الربّ هما عينٌ واحدة».

اندفع القطار إلى أمام، إيقاعُه الثابت يدقّ عنيفًا في وعيها. وبعد مدَّة قصيرة، جاء نادل يدفع أمامه عربة راح يوزِّع من عليها صوانيَ بلاستيكيَّة، وفيها فطورٌ ومختلفُ أنواع المشروبات. وحين اقترب من بيري، أخبرها بتوفُّر خيارين أمامها. يتضمَّن الخيارُ الأوَّل لحم الخنزير وقطعةَ الكرواسان الهلاليَّةَ الشكل. أمَّا الخيار الثاني، فيتضمَّن البيض المقلي ونقانقَ لحم الخنزير.

هزَّت بيري رأسها بالنفي وسألته:

ـ هل لديك شيء آخر؟

فسألها النادل:

ـ أأنتِ نباتيَّة؟

فأجابت:

ـ كلَّا، بل لأنَّه لحم خنزير.

نظر الرجل إليها نظرةً فاحصة لحظةً قصيرة بعينيه السوداوين الغائرتين في وجهه المكسوّ بلحية قصيرة. أمَّا بيري، فخفضت بصرها ورنَتْ إلى البطاقة المثبَّتِ عليها اسمُه وقرأت: محمَّد.

قال لها:

ـ سأرى ما يمكنُني أن أقدِّمه إليك.

ثم توارى عن الأنظار.

مكتبة الفكر الجديد

بعد دقيقة واحدة، ظهر محمَّد للعيان حاملًا سندويشةَ دجاج، وناولها لبيري مبتسمًا. لم يفطن في بال بيري إلَّا عندما انصرف محمَّد، أنَّه ربَّما أعطاها طعامه الخاصّ. ربَّما أعطاها غذاءه. ثمَّة نوع من التضامن غيرِ المرئيّ منتشرٌ بين الغرباء الذين سرعان ما يألف بعضهم بعضًا حين يكتشفون أنَّهم من الدِّين نفسِه أو الجنسيَّةِ نفسها. إنَّها روح رفاقيَّة تُظهر نفسَها في أبسط التفاصيل: ابتسامةٍ، إيماءة، سندويتشة. إلَّا أنَّها، بالرَّغم من ذلك، ساورها إحساسٌ بأنَّها منافقة، لأنَّ الرجل اعتقد أنَّها مسلمة صالحة، لكن هل هي كذلك؟

لا ريب في أنَّها مسلمة من الناحية الثقافيَّة. إلَّا أنَّ عدد الصلوات التي تعلَّمتها عن ظهر قلب لا يتجاوز عدد أصابع يدها الواحدة. فهي لا تمارس الشعائر الدينيَّة ولا تقرّ، كما شيرين، بأنَّها مسلمة مرتدَّة. ثمَّة شيء ما يخصّ كلمة «مرتدّ»، ذكَّرتها بالبَيْض الفاسِد ومنتهي الصلاحيَّة، أو الزبدةِ الرديئة. إنَّ علاقتها بالإسلام، سواء أمارستِ الشعائرَ أم لا، لم تنتهِ صلاحيَّتُها. وما تشوِّشُها إلَّا قضيَّةٌ متَّصلة؛ حيَّةٌ؛ دائمةٌ. وإذا كانت تقف في أيّ مكان، فمكانُها هو بين الحيارى. ولو أخبرت محمَّدًا بهذا الأمر، فهل يستعيد السندويتشة منها؟

حين كانت بيري بنتًا صغيرة، كانتِ المشاجرات تندلع في البيت كلَّما حلَّ عيد الأضحى. فقد كان منصور يناهض طقوس التضحية بالحيوانات، وكان يؤمن بأنَّ المال الذي يُنفق على شراء خروف يُستحسن به أن يُمنَح للمعوزين. وبهذا يتمكَّن الجائعون من مَلء بطونهم مثلما يتمكَّن المكتنزون من امتداح أنفسِهم، ويهنأون بها، ولا يضطرّ أيّ حيوان إلى الموت في أثناء ذلك.

أمَّا سلمى، فكانت لا توافقه على رأيه. فثمَّة سبب وراء إرادة الربّ

مكتبة الفكر الجديد

في أن تنحوَ الأمور هذا المنحى. فكانت تقول:

ـ لو كلَّفتَ نفسك وسعًا وقرأت القرآن الكريم لفهمت كلّ شيء.

وقال منصور:

ـ لقد قرأته. أعني قرأت ذلك الجزءَ منه، فلم أفهم منه شيئًا.

قالت سلمى منزعجة:

ـ ما الذي لم تفهمه؟

ـ إنَّ الربّ لم يطلب في القرآن من إبراهيم أن يذهب ويضحّي بولده. لقد راوده حلم. صحيح؟ ربَّما أخطأ في تفسير الحلم. أعتقد أنَّ الربّ، بما يتَّصف به من رحمة، وكي ينقذ ولده أرسل الكبش إليه.

تنهَّدت سلمى قائلة:

ـ أنت أشبهُ ما تكون بصبيٍّ كبير، واجم وعبوس. حمدًا لله فقد ربَّيت أطفالي، ولا صبر لي على تربية طفل آخر في هذا البيت.

وفَّرت سلمى النقود وهي عازمة على شراء الخروف الخاصّ بها، وأن تحتفظ به في الحديقة وتخضِّبَه بالحنَّاء، وتُطعمَه إلى أن يتمّ إرسالُه إلى الذبح. وعندئذٍ، يوزَّع لحمُه بين سبعة من الجيران ومن الفقراء.

وفي سنة من السنين، وكانت بيري في الثالثة عشرة، قرَّر الجيران أنفسُهم أن يُسهموا في مبلغٍ من المال لشراء ثور، وتوقَّعوا أن يكون الحيوان مذهلًا، يفيض قوَّة وحيويَّة، ويقتفي ظلّه الغامق أثره. إلَّا أنَّ الثور الذي وصل إليهم كان يبدو عصبيًّا كأنَّه مُصاب بمسٍّ من الجنون وإن كان ضخمًا. ولهذا، لم يكن خروفًا صاغرًا أو ذلولًا يستحقّ التضحية به، كما لم يكن ضحيَّة مدهشة، فكان بذلك مثارَ خيبة أمل.

وضعوا الحيوان في المرأب حيث ازدادت لوعته وعظم كدرُه.

مكتبة الفكر الجديد

فكان يتناهى إلى سمعهم خُوارُه، وهو يُجهد نفسه محاولًا الهروب، وصكَّ سمعَهم هذا الخوارُ الذي كان يبدو كأنَّه صادرٌ من أعماق روحه. لعلَّه شعر بمصيره. وفي اليوم الثالث، حطَّم الثور قيده وهرب في اللحظة التي خرجوا فيها به إلى الشمس. انطلق على جناح السرعة وصدم أوَّل شخص صادفه في طريقه، وكان هذا عابرَ سبيل نَكِدَ الطالع، وطرحه أرضًا، ثم أفلح في تحرير نفسه والتواري من خلف حاوية نفايات. وهنا، تردَّد في الأجواء صخبُ المارَّة وضحكُهم بعد أن كانوا قد تجمَّعوا واحتشدوا، وراح بعض هؤلاء الناس يهنِّئ الرجل الناجيَ من الصدمة على نجاته، في حين هرع الأطفال إلى معرفة سبب الجلبة. أمَّا بيري، فقد تسلَّقت سور الحديقة وتمكَّنت من مشاهدة قَرْنَي الثور وهما يهتزَّان، وقد تمكَّن الحيوانُ المُستوحد من تفريق الحشد الذي أُصيبَ بالذعر الشامل.

وبخلاف الخراف التي تؤخذ للذبح، فقد كان الثور مقاتلًا، ويا له من قتال ذلك الذي تحمّله، فقد انطلق عشرون رجلًا خلفه، يلاحقونه من كلّ حدب وصوب. اتَّجه الآن نحو الطريق السريع الذي تحوَّل إلى ميدان معركة بعد أن أحاط به جيش من الوحوش البشريَّة. واستغرق الرجال ثلاثَ ساعات كي يفرضوا سيطرتهم عليه بعد أن أطلقوا عليه طلقةً هدّأت روعه وأجهزوا عليه في إثر ذلك. وفي وقت لاحق، نبَّه بعض الأهالي إلى أنَّ لحمه ليس حلالًا لأنَّ الإطلاقة المهدِّئة أصابته بالدوار، غير أنَّ بقيَّة الناس لم يعيروا أيّ أهمِّيَّة لهذا التنبيه.

تذمَّر منصور أمام زوجته بعد رجوعه إلى المنزل، وقال:

ـ يا لها من تصرُّفات وحشيَّة. إنَّ الإسلام ينصّ على عدم جواز إلحاق الأذى بأحد، بما في ذلك الحيوانات. لقد مات ذلك المخلوق

مكتبة الفكر الجديد

المسكين خوفًا ورعبًا بعد أن عذَّبوه، ولهذا فإنَّني لن أتناول من لحمه شيئًا.

التزمت سلمى الصمتَ ولم تقل شيئًا برهةً وجيزة قبل أن تتكلَّم مجدَّدًا.

ـ حسنًا، لا تأكل شيئًا من لحمه، وربَّما لن أتناول أنا الأخرى شيئًا منه، لكن لا تقل كلامًا سيِّئًا، بل احترم الموقف أيُّها الزوج.

استبدَّت الدهشة ببيري لمَّا شاهدت والديها يتَّفقان مرَّةً واحدة بعد أن كانت تتوقَّع مشادَّة بينهما. أمَّا حصَّة اللحم الخاصّ بالأسرة، فتمّ توزيعها على إحدى الأُسر الفقيرة.

لاحظت بيري لدى تحلُّقها حول مائدة العشاء في ذلك المساء أنَّ والدها دأب على مَلء كأسه أكثر ممَّا اعتاد عليه سابقًا. وقال وذهنه مشتَّت، ويخلط في القول:

ـ يا له من نهار عصيب. هه! فقد طاردتُ أُناسًا يطاردون ثورًا، ولم أشعر بمثل هذا الإعياء منذ ولادتِكم وترككِم إيَّانا ساهرَيْن نصفَ الليل أيُّها الأولاد.

أمَّا بيري التي ملأت قدحها بالماء وكادت تسكبه، فقالت:

ـ ماذا تعني بكلامك «أيُّها الأولاد»؟

قرَّب منصور إحدى يديه من جبينه، إذ أدرك من فوره أنَّه ارتكب هفوة عابرة، وبدا في لحظة ما أنَّه يفكِّر إن كان يتعيَّن عليه الاستمرارُ في الكلام.

ـ حسنًا، إنَّني متأكِّد من أنَّك تتذكَّرين.

ـ ماذا أتذكَّر؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ ثمَّة صبيٌّ، وكان توأَمك الذي لم تُكتب له الحياة.

وراحت تتذكَّر قليلًا:

ـ لماذا؟

ـ آه، أيَّتها النحلة الطنَّانة! لا تسأليني، فقد حدث ذلك منذ أمد بعيد.

ثم أردف قائلًا بعد أن استبدَّ به حبّ الفضول:

ـ أليست لديك فكرة حقًّا عن ذلك؟

ـ إنَّني لا أعرف عن أيّ شيء تتكلَّم يا أبتي.

ـ أفهم ذلك، وهذا أمر غريب... فلطالما ظننتُ أنَّك قد تتذكَّرين... الأحداث.

وتمضي السنون الطوال قبل أن تدرك ما كان يعنيه والدها بكلامه.

* * *

توقَّف القطار في محطَّة قطار بادنغتون، وكانت شيرين تنتظر قرب آلات قطع التذاكر، مرتديةً سترةً من الفراء الرماديّ الضاربِ إلى الفضِّيّ تصل إلى ركبتيها. كانت تبدو في قلب المدينة كأنَّها مخلوق قادم من سهوب قَراح.

سألت بيري:

ـ كم حيوانًا لقي مصرعه لصنع هذه السترة من الفراء؟

أجابت شيرين وهي تقبِّل بيري على وجنتها:

ـ لا تقلقي. فالفرو ليس حقيقيًّا.

أنعمت بيري النظر في وجه صديقتها، وقالت متسائلة:

ـ أنت تكذبين. صحيح؟

مكتبة الفكر الجديد

كشَّرت شيرين وهي تجيب:

ـ هه! إنَّها المرَّة الأولى التي تفاجئينني فيها. أهنِّئك، وأنا سعيدة لأجلك يا ماوس، فأنت تفهمين كلّ شيء.

كانت بيري تدرك أنَّها كانت تناكدها. فبقدر ما كانت تضحك، فإنَّها شعرت بطعنة غير مريحة عندما لاحظت قدرًا من الصدق في كلمات صديقتها. لقد كذبت عليها شيرين من قبل، ربَّما أكثرَ من مرَّة، لكن بخصوص أيّ شيء؟ أو ما السبب الذي يجعل بيري تنتظر حتى تكتشف ذلك؟

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الراقصة الشرقيَّة

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

فتحت بيري النافذةَ مستمتعة ببرودة الهواء، وغمرتها السعادة وهي تعود إلى حجرتها وإن كانت مشتاقة إلى فضاء أرحب. جلست على السرير ممسكة بكتاب في يدها، جاذبةً ساقيها إلى جسدها. كان آزور قد طلب من طلَّابه في أحد فصوله الدراسيَّة أن يقرأوا مقالة عن فكرة الربّ في فلسفة كانط، فوجدته في قراءتها الثانية أكثرَ مدعاةً إلى الحيرة من قراءتها الأولى له. واستطاعت أن تفهم السبب الذي يجعل علماء اللاهوت منجذبين إلى هذا الفيلسوف الألمانيّ. لكن من ناحية ثانية، يمكنها أن تقتفي أثر مفكِّرين عظيمي الشهرة من الطرف الآخر، نيتشه وداروين مثلًا، وقد تأثَّروا به. واستنتجت بيري أنَّ إيمانوئيل كانط يتمتَّع بطبيعة ذات أوجه مختلفة، شأنُه في ذلك شأنُ مدينة إسطنبول.

من هنا، ليس ثمَّة ما يبعث على الدهشة إن كان آزور يروقه هذا الفيلسوفُ. فهو، أيْ آزور، ذو أوجه متعدِّدة أيضًا. فهو المُناظر الواثق بنفسه في الندوة، والممثِّلُ في الحياة اليوميَّة الذي يعشقُ دومًا جَذْبَ الأنظار إليه، والأستاذُ الذي يُرهب ويُهدِّد في حُجرة الدرس، والمحقِّقُ كثيرًا من المتطلِّبات في مكتبه، والمضيفُ الرقيق الحاشية في خلوة منزله... كمّ من الوجوه الأخرى التي يملكها يا تُرى؟ عادت بها

مكتبة الفكر الجديد

ذاكرتُها إلى عشاء ليلة رأس السنة الجديدة وما أعقبه. ومنذ تلك الليلة، تعمَّدت تجنُّبَ دارين على الرَّغم من أنَّه اتَّصل بها عددًا من المرَّات وترك لها رسائل بدت ذات لهجة تنمُّ عن انشغال البال انشغالًا متزايدًا إن لم تنمَّ عن الاستياء منها. كان في ودِّها أن تُقفل باب حجرتها عن طيب خاطر إلى أن يصفُوَ ذهنُها لولا الصفوفُ الدراسيَّة والعملُ الموقَّت في المكتبة، وشيرينُ التي لطالما كانت تجد عذرًا في قرع بابها.

انقلبت حياتها اليوميَّة بسبب انجذابها إلى آزور، إلى حياة محتدمة مفعمة بالألم. فكلَّما قصدته في غرفته لأجل التحدّث إليه، كانت كلُّ إشارة منه، وكلُّ كلمة تقرأها وتخطئ في قراءتها، تجعلانها عاجزة عن رؤيته بطريقة متَّزنة.

وكما هو شأنُ محضِّر أرواح الموتى لقراءة المستقبل، والذي يجد علاقاتٍ مقدَّسةً في كلّ مكان، فقد راحت تفتِّش عن رسائل خفيَّة في كلّ ما هو دنيويّ إلى أبعد الحدود. غير أنَّها بذلت قصارى جهدها، موطّدةً العزم بالرَّغم من ذلك كلِّه، حتى يكون لها وَقْعٌ حسن في نفس آزور من حيث جذوةُ ذكائها وألمعيَّتُها. بيد أنَّ تلك اللحظة من لحظات التجلِّي التي طال انتظارها لها لم تأتِ، فظلَّت منجذبة إليه معظم الوقت، ذاهلةً مرتبكةً. وأخذت تتأرجح بين حين وآخر إلى الجانب الآخر. وتسلَّحت بفيض من الشجاعة أو اليأس واعترضت وجادلت وتحدَّت وطرحتِ الأسئلة، غير أنَّها سرعان ما كانت تنزلق في مهاوي الصمت مجدَّدًا.

فكَّرت في أنَّ مثل هذا الشيء لن يحدث لها أبدًا، فهي ليست واحدة من أولئك الفتيات اللواتي يستبدّ بهنَّ الهوسُ بكبار السنِّ من الرجال؛ الفتياتِ اللواتي تعتقد أنَّهنَّ يبحثن عن شخص الأب الغائب عن حياتهنَّ. ولم تستطع أن تجد تفسيرًا تقدِّمه إلى أيِّ شخص، فضلًا عن

مكتبة الفكر الجديد

نفسِها هي، عن سبب تعلُّقها بآزور. ولم يكن السبب نابعًا من رغبتها في أن يشاطرها الآخرون ما يختلج في صدرها من مشاعر تجاهه. وكما هي حال المفكِّرة الخاصَّة بالربّ، والتي كانت تحتفظ بها منذ طفولتها، وكما هي حال طفل الضباب، فقد أصبح آزور سرًّا مصونًا بدقَّة وحذر. ومع هذا، فقد تعوَّدت على الإمساك بواحد من مؤلَّفاته بيديها قُبَيْل خلودها إلى النوم، فتلمس حروف اسمه بأصابعها في كنف الظلام في حين تنبعث موسيقى عاطفيَّة من إحدى زوايا الغرفة. وفي أثناء النهار، كانت تتسكَّع على مقربة من كلِّيَّته، وتنظر خلسة من حول الناصية لعلَّه يكون في الجوار. وخرجت عن طورها وراحت تشتري قهوة الصباح من المقهى الذي كان يرتاده على الرَّغم من أنَّها كانت تتوارى عن ناظريه في حجرة المَرافق الصحِّيَّة في المرَّات القليلة التي شاهدته فيها وهو يدلف إلى المقهى. وفي حين راحت تتصرَّف كلَّ هذه التصرُّفات السخيفة، كان جزء آخر منها، يراقب ما تفعله متشامخًا ومتعاليًا، لا يستحسن تلك التصرُّفاتِ، آملًا أن يكون ذلك موسمَ جنونٍ وأنَّه سرعان ما سوف ينتهي.

بعد أن أصبحت بيري غير قادرة الآن على تحمُّل أفكارها أو أفكار كانط، انتعلت حذاءها الرياضيّ وخرجت لممارسة رياضة العَدو. وعلى الرَّغم من برودة الجوِّ، فقد ثقل هواء ذلك المساء بوعد مفرح مثل قطرات الندى البلُّوريَّة. ولم يعد الافتقار إلى الضوضاء الذي فاجأها لدى انتقالها أوَّلَ مرَّة من إسطنبول إلى هذه المدينة، يُدهشها بعد الآن.

عند منعطف شارع لونغ وول، شاهدت هاتفًا عموميًّا. فكَّرت في أنَّ والدها لا بدَّ من أن يكون منهمكًا في الشراب في البيت، وحدَه أو برفقة أصدقائه، بعد أن حسبت فارق الساعتين في التوقيت.

مكتبة الفكر الجديد

التقط منصور سمّاعة الهاتف وهتف:

ـ مرحبًا؟

ـ عذرًا يا أبتي. . . هل الوقت غير مناسب للاتِّصال بك الآن؟

قال مندهشًا:

ـ يا عزيزتي بيري. . . ما معنى هذا الكلام؟ يمكنك أن تتَّصلي متى شئت. كم أتمنَّى لو تتَّصلي في أغلب الأحيان.

احتقنتِ الكلماتُ في فمها لِمَا أدركتْه من رقَّة صوته.

فأضاف:

ـ هل أنت على ما يرام؟

ردَّت:

ـ إنَّني بخير. كيف حال أمِّي؟

ـ إنَّها في حجرتها. أتريدينني أن أناديها؟

فقالت في رقَّة:

ـ لا، سوف أكلِّمها في وقت آخر. إنَّني مشتاقة إليك كثيرًا.

ـ آه، سوف تجعلينني أجهش بالبكاء أيَّتها النحلة الطنَّانة.

ـ إنَّني أشعر بالتعاسة لعدم استطاعتي الحضورَ عشيَّةَ رأس السنة.

فقال منصور:

ـ آه، ومن يعير أهمِّيَّة لعشيَّة رأس السنة؟ لقد بالغت أمّك في طهو الديك الرومي وأحرقت الأرزّ المتبَّل. لهذا لم نأكل غيرَ الأرزّ الأسود واللحم الناشف. ولعبنا لعبة الدمبلة (البنغو) فربحت والدتك. إنَّها تزعم أنَّها لم تغشَّ في اللعب، لكن من يصدِّقها؟ آه، وشاهدنا راقصة شرقيَّة من على شاشة التلفاز، أعني، أنا الذي شاهدها. هذا كلّ ما هنالك.

مكتبة الفكر الجديد

ثمَّة أمور أخرى لم يأتِ على ذكرها، غير أنَّ بيري سمعتها على الرَّغم من ذلك: إسرافُ منصور في الشراب، والراقصةُ شبه العارية التي كانت تهزَّ ردفيها، أمران من شأنهما أن يستفزَّا سلمى أيَّما استفزاز، فضلًا على المشادَّة بين أبويها مجدَّدًا.

قال منصور كأنَّه قرأ أفكارها:

ـ نعم، لقد شربت قليلًا، فهل هناك مناسبة أفضل من هذه المناسبة؟ أنت تعرفين ما يقولون:

سيكون أسلوبك في قضاء الساعات الأولى من العام الجديد هو الأسلوب الذي ستمضي فيه بقيَّة أيَّام السنة.

وَهُنَ عزم بيري.

فقال منصور مسترسلًا:

ـ لا بأس في عدم مجيئك، فأمامنا سنوات كثيرة كي نحتفل، لكن أهمّ شيء هو المدرسة.

المدرسة... وليست الجامعة أو الكلِّيَّة، بل المدرسة تلك المفردة الأساسيَّة ذات الصفة المقدَّسة في نظر أعداد لا تُحصى من الآباء، الذين كانوا يؤمنون بالتعليم، على الرَّغم من عدم تلقِّيهم تعليمًا متقدِّمًا، وكانوا ينفقون كلّ ما يمكنهم إنفاقه على مستقبل أولادهم.

سألت بيري:

ـ وكيف حال أخي؟

لم تشعر بالاضطرار إلى أن تحدِّد أيّ أخ كانت تعني، إذْ لا بدَّ من أنَّ المقصود هو هاكان ما داما لم يتحدَّثا إلَّا نادرًا عن أوميد. وإذا ما تحدَّثا، فإنَّ الحديث يأتي بنبرة مغايرة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ حسنًا، حسنًا، إنَّهما ينتظران مولودهما.

ـ حقًّا؟

قال منصور بصوت مرتفع بعد أن اكتسب اعتزازًا:

ـ نعم، إنَّه مولود ذكر.

لقد مرّ عام على تلك الليلة الفظيعة في المستشفى، غير أنَّ ذكراها لا تزال محفورة في ذهنها. رائحةُ المطهِّرات، والطلاءُ الأخضر الشبيه بلون الطحالب، والأهلَّةُ الحمراء اللون في راحتي كفَّي العروس، وها هي فريدة تنجب الآن ولدًا. تردّد صدى كلمات والدتها في رأسها: زيجات كثيرة بُنِيَت على أسس واهية.

ـ لا أعتقد أنَّ في مستطاعي أن أفعل هذا الشيء.

ـ أن تفعلي ماذا؟

ـ أن أتزوَّج شخصًا يعاملني معاملة سيِّئة.

تأفَّف منصور متنهِّدًا تارة وضاحكًا تارة أخرى، واستأنف:

ـ أنا ووالدتك نحبّك.

ثم أمسك عن الكلام لأنَّه لم يكن معتادًا على ذكر نفسه وزوجته في عبارة واحدة، بيد أنَّه مضى في قوله:

ـ سوف نساعدك في كلّ ما من شأنه أن يجعلك سعيدة.

ترقرقت الدموع في عينيها، إذْ لطالما ظلَّت تشعر بالضعف حين كان الآخرون يعاملونها معاملة رقيقة وليست بغيضة.

ـ ما خطبُك يا روحي؟ أتبكين؟

إلَّا أنَّها تجاهلت سؤاله ومضت تقول:

ـ لكن يا أبتي... ما رأيك إن ألحقتُ بك العارَ يومًا ما؟ فهل ستتبرَّأ منِّي؟

قال منصور:

ـ لن أتخلَّى عن ابنتي مهما يكن السبب، وما دامت لن تأتي إلى الدار برفقة إمام ملتحٍ ليكون صهري، لأنَّ ذلك سوف يتسبَّب بموتي! كما لا يجب على الأرجح أن تلتقي واحدًا من هؤلاء الموسيقيِّين الذين يعلو الوشمُ عضلاتِهم. ما اسمهم؟ أصحابُ الرؤوس المعدنيَّة. إنَّني لا أمانع، غير أنَّهم سوف يصيبون والدتك بالجنون. لهذا أمامك خيارات لا تُعدّ ولا تُحصى.

ضحكت بيري، وتذكَّرت طقوسهما، هي ووالدها، أمام التلفاز، وتلك الأوقاتَ التي علَّمها فيها كيف تصفِّر وكيف تمضغ العلكة وتنفخها لتصبح بالونًا، وكيف تأكل بذور حبّ زهرة الشمس، وتقشِّرها بين أسنانها، بحذق ومهارة.

سألها منصور:

ـ لنكن جادِّين، من هو هذا الفتى؟

كانت كلمة «الفتى» الأخيرة تتَّسم بالجدّ وضبط النفس. فهي من وجهة نظر والدها لا يمكنها أن تهوى إلَّا فتًى في مثل سنِّها.

ـ آه، إنَّه ليس سوى طالب، والقضيَّة ليست جادَّة. فأنا أصغر بكثير من تحمُّل الجدّ.

قال والدها بارتياح واضح:

ـ نعم يا لُبَّ فؤادي، سوف تمرّ القضيَّة، وما عليك إلَّا التركيز في دراستك.

ـ نعم يا بابا.

ـ آه، لا تذكري هذا الموضوع أمام والدتك، إذْ لا داعي لإثارة قلقها.

مكتبة الفكر الجديد

ـ على وجه التوكيد.

ما إن فرغت من المكالمة الهاتفيَّة حتى هرعت لتستمتع بوقتها. وانزلقت قدماها من فوق الرصيف الحجريّ المكسوّ بالثلج، إلَّا أنَّها واصلت عَدْوَها. وحين عادت أدراجها إلى حجرتها، كانت قد أجهدت نفسها وشعرت بالألم في ربلتَي ساقيها، كما شعرت بألم كلَّما ازدردت ريقها، فكانت تلك علامةً دالَّة على الإصابة بالبرد. فما كان منها إلَّا أن استسلمت للنوم فورًا، ووجدت نفسها لا تزال تعدو في أحلامها وتمسك بقصاصة ورق صغيرة دوَّنتها شيرين وتركتها على سريرها:

«لقد عثرتُ على مسكن مثاليّ لنا يا بيري! استعدِّي، فسوف ننتقل إليه!».

* * *

مكتبة الفكر الجديد

القائمـــة

إسطنبول ـ ٢٠١٦

ـ هل سمعتم ما حدث مؤخَّرًا؟ فظيع، فظيع!

كان ذلك صوتَ مديرة العلاقات العامَّة وهي توجِّه سؤالها إلى الجالسين في الحجرة. فقد توجَّهت إلى المرافق الصحِّيَّة، لكنَّها سرعان ما عادت أدراجها محمرَّة الوجه.

قال أحدهم:

ـ ماذا حدث في هذه المرَّة؟

ثمَّة نوعان من المدن في العالم: نوع يُطمئن السكَّان إلى أنَّ الغد وبعد الغد واليومَ الذي يعقبهما أيَّامٌ لن تكون مغايرة. وثمَّة نوع آخر يفعل ما هو خلاف ذلك، مذكِّرًا السكَّان بعدم استقرار الحياة. أمَّا إسطنبول، فهي من النوع الثاني، إذْ لا مجال أمام الاستبطان والتعمُّق في التفكير، وليس ثمَّة وقت لانتظار الساعات حتى تلاحق وقع الأحداث. وأهل إسطنبول يندفعون من خبر عاجل إلى آخر، يتحرَّكون بسرعة ويستهلكون الحدث بعجالة إلى أن يقع حدث آخر يتطلَّب كامل انتباههم.

قالت مديرة العلاقات العامَّة:

ـ لقد شاهدته على تغريدتي. كان انفجارًا.

مكتبة الفكر الجديد

سألها رجل الأعمال:

ـ في إسطنبول؟ متى؟

الأسئلة الجوهريَّة الثلاثة تنحو هذا المنحى المتسلسل: ماذا؟ أين؟ متى؟ ماذا: ورد نبأ انفجار رهيب. أين: في واحد من أكثر الأحياء ازدحامًا بالسكَّان في الجزء التاريخيّ القديم من المدينة. متى: قبل أقلّ من أربع دقائق. وكانت شدَّة الانفجار قد بلغت من القوَّة ما أدَّى إلى انهيار واجهة المبنى الذي حدث فيه، فتحطّم زجاج النوافذ على امتداد الشارع المجاور نفسه أيضًا، وأُصيب عدد من الأشخاص بجروح، وأُطلقت صافراتُ الإنذار، وتغيّر في لحظة من الزمان لونُ السماء في تلك الليلة إلى البنّيّ الضاربِ إلى لون الصدأ.

هرع معظم الضيوف، وفي مقدِّمتهم سيِّدةُ الأعمال، إلى الطبقة العليا لمتابعة الأخبار على التلفاز. ولحقت بهم بيري، وإن متمهِّلةً، إلى غرفة مريحة حسنة الإضاءة. ووقفت في مؤخِّرة الضيوف، بحيث يمكنها أن تشاهد شاشة مسطَّحة كبيرة الحجم. كانت مراسلة الأخبار المرتبكة ـ وهي امرأة شابَّة ذات شعر طويل يصلح لأن يكون عباءة ـ تتكلَّم بسرعة وهي ممسكة بلاقط الصوت بيديها: «إنَّنا لا نعرف حتى الساعة كم هو عدد القتلى وكم هو عدد المصابين، إلَّا أنَّ الأحداث لا تبشِّر بالخير. لا تبشِّر بالخير. كلّ ما نعرفه هو أنَّ القنبلة كانت شديدة الانفجار».

قنبلة. لبثتِ الكلمة معلَّقةً في وسط الغرفة كأنَّها دخان سامّ مجهول المصدر. ولبث الضيوف حتى تلك اللحظة يأملون، سرًّا، أن يكون الضرر ناجمًا عن تسرُّب غازيّ أو عطل في مولِّد كهربائيّ. من شأن ذلك أن يقلِّل خطورة ما حدث. لكنَّ القنبلة لم تكن تعني حادثًا مأساويًّا فحسب، وإنَّما أيضًا القتلُ مع سبق الإصرار والترصُّد. إنَّ الكوارث تُثير

مكتبة الفكر الجديد

الهلع. لا بأس. أمَّا إذا اجتمع الشرّ والكوارث، فتلك مصيبة كبرى.

على الرَّغم من ذلك، فقد اعتادوا العيش مع القنابل، أو احتمال وجودها. وإذا كانت هذه القنابل عشوائيَّةً وطائشة، فإنَّ الإرهابيين يتَّبعون أنماطًا معيَّنة كما يسود الاعتقاد، فهم لا يضربون ضربتهم ليلًا، وإنَّما يختارون في الأعمّ الأغلب ساعاتِ النهار، بحيث يمكنهم استهدافُ أكبر عدد ممكن، من الأهالي في أقصر وقت ممكن، فينتشر الخبر في اليوم التالي. أمَّا الليل، فهو، وإن كان ينطوي على مخاطر، فإنَّه من جهة أخرى، مأمونُ الجانب من مثل هذا العنف. أو هذا ما كانوا يعتقدونه.

لذا، سألت سيِّدة الأعمال:

ـ قنبلة؟ في هذه الساعة الغريبة؟

تهكَّم رجل الأعمال على سبيل المداعبة:

ـ لعلَّ الإرهابيِّين تأخَّروا في طريقهم بسبب حركة المرور، إذْ لا شيء يحدث في موعده في إسطنبول، ولا حتى مجيء عزرائيل.

فضحك الحاضرون ضحكة قصيرة باردة، فالنوادرُ في أوقات الشدَّة تجعل المرء يشعر بالقذارة والذَّنْب، كما أنَّها تبدِّد الخوف وتقلِّل ثقل الشكّ والارتياب اللذين يصعب تحمُّلُهما نظرًا إلى انتشارهما بسرعة، كالنار في الهشيم.

في هذه الأثناء، كانت شاشة التلفاز في مؤخّرة الغرفة تعرض حشدًا من الأطفال والرجال الذين تجمهروا وراحوا يصغون إلى كلّ كلمة من كلمات المراسلة، آملين أن يكون كلّ واحد منهم مَنْ تختاره لإجراء مقابلة. ولوَّح صبيٌّ لا يزيد عمره على اثني عشر عامًا بيده متحمِّسًا لمَّا

شاهد عدسة آلة التصوير تركِّز في وجهه.

انتقل المشهد الآن إلى طائرة مروحيَّة راحت تلتقط صورة للحيّ من الجوِّ. كانت البيوت المشيَّدةُ فوق بعضها بعضًا محتشدةً كأنَّها كتلة واحدة من الإسمنت. وإذا كانت هذه البيوت تبدو متشابهة، فإنَّها تظهر متباينةً عند النظر إليها نظرة عن كثب. فعلى سبيل المثال، بدا أحد المباني كأنَّه كان مسرحًا لحرب أهليَّة بما يشتمل عليه من نوافذ محطَّمة وجدران منهارة وزجاج مهشَّم.

قال شاهد عيان قصير القامة، مكتنز الجسم، ومرتديًا منامتَه:

ـ كنَّا في البيت، كلُّ أفراد الأسرة، جالسين أمام شاشة التلفاز عندما صكّ مسامعَنا هذا الصوتُ، واهتزَّتِ الأرض حتى ظننتُ أنَّ زلزالًا ضربنا.

كان صوت هذا الرجل مفعمًا بالتحمُّس الذي لم يتمكَّن من احتوائه. وذُهل ذهولًا شديدًا لمَّا رأى نفسه على شاشة القناة الإخباريَّة، التي كان يشاهدها قبل بضع لحظات، على مرأى من ملايين المشاهدين. وفي حين انهمك في وصف ما حدث بناء على طلب مراسلة القناة بعد أن طُلب منه الإفصاح عن مشاعره، ظهر على شريط الأخبار الأحمر اللون أسفل الشاشة خبرٌ عن حصيلة القتلى.

في المنزل المُطلّ على ساحل البحر، عاد الضيوف أدراجهم إلى حجرة الاستقبال، واحدًا في إثر الآخر، ليخبروا بقيَّة الضيوف بآخر المستجدَّات عن الكارثة: خمسة قتلى وخمسة عشر جريحًا.

قال الصحافي الذي وقف ساكنًا ليتَّصل بمكتب القناة:

ـ إنَّ حصيلة الضحايا مرشَّحة للزيادة، إذْ إنَّ حالة بعض الجرحى

حرجة جدًّا. وبالسهولة نفسها التي ناول فيها الضيوف، أحدُهم الآخرَ، أطباقَ المقبِّلات من حول مائدة الطعام، بدأوا الآن يتبادلون تفاصيل دمويَّة دقيقة. الحشو غير ذي أهمِّيَّة. كذلك التكرار. فكلَّما ازدادت مشاركتهم، افتقر الكلام إلى الواقعيَّة. فالمأساة سلعة كأيِّ سلعة أخرى، الهدف منها هو استهلاكُها فرديًّا وجماعيًّا.

ملأت صديقةُ الصحافي رئتيها بكمِّيَّة كبيرة من الهواء قبل أن تقول:

ـ إذن، كانوا يصنعون قنبلة في تلك الشقَّة. تصوَّروا. كانوا يركِّبون الأجزاء الصغيرة منها كأنَّها لعبة ليغو شيطانيَّة، ثم انفجرت. خبر سارّ: لقي الإرهابيُّون مصرعهم فورًا. خبر مزعج: لقي الجار الساكن في الطبقة العليا مصرعَه، وكان معلِّمًا متقاعدًا.

قال رجل الأعمال وهو يخلط في حديثه:

ـ لعلَّه كان معلِّمًا في مادَّة الجغرافيا. رجل مسكين. يا له من مصير... لا بدَّ من أنَّه كان مُواطنًا شريفًا، يصحِّح أوراق طلَّابه ويرتدي بذلة مهلهلة. وبعد سنوات من العمل المضنيّ، نجده وقد تقاعد عن العمل. يكفيه الصراعُ مع الجهلة الصغار. مجموعة من الإرهابيِّين تنتقل إلى الطبقة الأرضيَّة... لتبدأ بإعداد القنابل. إلى جهنَّم وبئس المصير... بوم! إنَّها نهاية المعلِّم. لقد علّم تلاميذَه الجبالَ والوديانَ بدلًا من أن يخبرهم بأنَّ هذه الجغرافيا قاتلة!

مرَّت لحظة قبل أن تبدأ ضيفةٌ أخرى الحديث، وكانت هذه المرَّة مديرةَ العلاقات العامَّة التي تساءلت:

ـ هل نعرف هويَّة الجناة؟ أهم ماركسيُّون؟ انفصاليُّون أكراد؟ إسلاميُّون؟

مكتبة الفكر الجديد

ضحك المهندس المعماريّ ضحكة قصيرة، وقال:

ـ يا لها من قائمة أسماء جيِّدة.

سمعت بيري زوجها يتنحنح في رقَّة ويقول:

ـ لا يتعلَّق الأمر بالإرهاب وحده أو بالخوف منه، وإنَّما بالسهولة التي أصبحنا فيها معتادين على مثل هذه الأنباء. ففي مثل هذا الوقت من يوم غد، سوف يتحدَّث الناس عن هذا المعلِّم. وبعد أسبوع، سيطويه النسيان.

خفضت بيري بصرها، فقد وصلت كلماته الحزينة إلى أعماق فؤادها ولبثت هناك، مثلَ الحرارة المنبعثة من جذوة النار.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

وجه الآخر

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

ثمَّة سيَّارة أجرة في الانتظار خارج البوَّابة الأماميَّة، استقلَّتها الفتاتان صامتتين، إلى أن بدَّدت بيري الصمت بعطسة:

ـ بارك الله فيك يا بيري.

ـ حسنًا، شكرًا لك... إنَّني ما زلت غير قادرة على أن أصدِّق أنّني سوف أسكن معك.

قالت بيري ذلك وهي تشاهد الشوارع من خلال النافذة، وهي تمرّ بها مرورًا سريعًا.

تجاهلت شيرين مقاومة بيري. فهي قد واظبت على البحث عن مسكن، وتمكَّنت من إقناع المسؤولين في الكلِّيَّة بأنَّ في الإمكان الانتقال إلى خارج المسكن في منتصف السنة الدراسيَّة الجامعيَّة. ونظرًا إلى ما كانت تملكه من تحمُّس لا يفتر، فإنَّها لم تنفق وقتًا طويلًا حتى عثرت على بيت. وكما هو شأن النحلة الطنَّانة المثابرة في الانتقال من زهرة إلى أخرى، دفعت إيجار السكن والتأمينات ورتَّبت مجيء سيَّارة لنقل حاجياتهما المتواضعة. لقد نظَّمت كلّ شيء في عناية وعلى نحو لم يكلِّف بيري سوى التقاط معطفها ومرافقة صديقتها إلى الخارج.

قالت شيرين متحمِّسة:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هدّئي روعك، فسوف نمرح ونستمتع نحن الثلاث.

تمالكت بيري أنفاسها، وقالت:

ـ مَن ستأتي معنا؟

فتَّشت شيرين عن علبة بودرة في حقيبة يدها ونظرت إلى نفسها في المرآة كأنَّها تريد أن تتفحَّص قسمات وجهها قبل أن تتمكّن من الجواب عن السؤال:

ـ ستنضمّ منى إلينا.

ـ ماذا؟ وأنت تخبرينني بذلك في هذه اللحظة؟

ـ حسنًا، عندما يخصّ الأمر المشاركة في العيش تحت سقف منزل واحد، فإنَّ ثلاث إناث أفضلُ من اثنتين.

قالت شيرين ذلك وهي تبتسم ولا تكاد تصدِّق نفسها.

أمَّا بيري، فقد هزَّت رأسها وأضافت:

ـ كان ينبغي لك أن تخبريني بذلك قبل الآن.

ـ آسفة، فقد نسيت، وكان ذهني منشغلًا كثيرًا...

ثم رقَّ صوت شيرين وهي تستأنف كلامها:

ـ ماذا جرى لك؟ ظنَنْتُ أنَّك معجبة بمنى.

ـ هذا صحيح، لكنَّكما لا تنسجمان معًا.

قالت شيرين:

ـ صحيح. أنا في حاجة إلى التحدِّي.

ـ ما معنى كلامك؟

لو كان لدى شيرين أيُّ تفسير لاضطرّت إلى الانتظار، فقد وصلتا إلى العنوان المقصود. كان المنزل واحدًا من البيوت المشيَّدة على

مكتبة الفكر الجديد

الطراز الڤكتوري في حيٍّ أريحا، نوافذُه في الطبقة الأرضيَّة ناتئةٌ، وسقفُه مرتفع، ويشتمل على حديقة خلفيَّة صغيرة المساحة.

كانت منى واقفة على درج الباب الأماميّ وإلى جانبها حقائبُها وصناديقها. ولدى مشاهدتها قدوم صديقتيها، لوَّحت لهما وهبطت الدرج، ووجهُها يكشف توتُّرها. وأدركت بيري، من لمحة خاطفة، أنَّ منى اضطرَّت إلى الموافقة على هذا السكن على كره منها مثلما اضطرَّت هي إلى ذلك.

هتفت شيرين بعد أن نفحت سائق سيَّارة الأجرة المالَ وترجَّلت منها:

ـ مرحبًا يا منى!

وقفتِ الفتيات الثلاث مرتبكات على الرصيف يتبادلن التحايا. كان الاختلاف بينهما يتناقض تمامًا مع طراز الشارع المعماريّ. فمنى ترتدي معطفًا طويلًا بنّيًا ضاربًا إلى الصفرة ووشاحًا عسليًّا، في حين استخدمت شيرين كلّ مساحيق التجميل وارتدت ثوبًا قصيرًا أسودَ اللون وانتعلت حذاءً طويل الساقين. أمَّا بيري، فكانت ترتدي بنطالًا من الجينز ومعطفًا واقيًا من المطر أزرقَ اللون.

قالت شيرين وهي تهزّ المفاتيح في يدها:

ـ سوف نستخرج نسختين من كلّ مفتاح، وسوف نمرح ونصخب.

وبعد أن أكملت عبارتها فتحت الباب واندفعت إلى داخل البيت، ثم دخلت منى بعدها، وهي تقدِّم رِجلها اليمنى وتقول:

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

ودخلت بيري أخيرًا، تعطس وتسعل. بدا المنزل لها ضيِّقًا لكثرة ما

مكتبة الفكر الجديد

فيه من محتويات وإن كانت قد شاهدت صوره قبل الآن. كان وجودها تحت سقف واحد برفقة فتاتين أُخريين، تتعامل وإيَّاهما في ساعات غير متوقَّعة وعلى مدى أيَّام، يبدو لها أمرًا مهدِّدًا لخصوصيَّتها. فمثل هذا الالتصاق الإجباريّ بالناس ينطوي على ألفة معيَّنة حتى إذا لم يكونوا عشَّاقًا. حاولت أن تبعد قلقها عن ذهنها، لكن بلا طائل. فالقَدَرُ لاعب يراهن في اللعب ويروقه أن يزيد في مخاطر مقامرته. وفي نهاية هذه التجربة، إمَّا سيصبحن صديقاتٍ رائعاتٍ، أخواتٍ على مدى الحياة، وإمَّا يتحلَّل كلّ شيء وسط الشجار والدموع. هذا ما فكَّرت فيه بيري.

* * *

لو كانت للبيوت مواقف، لتجسَّد مزاجُ موقف هذا البيت في مراهق متذمِّر. فهذه الدار ما فتئت تتذمَّر وتشكو. فالسلالم تُصدر صريرًا، وكذلك ألواحُ الأرضيَّات الخشبيَّة والأبوابُ وخزاناتُ المطبخ والثلَّاجةُ الكهربائيَّة، وجهازُ صنع القهوة الذي واصل أنينَه وهو يمتعض من كلّ قطرة يتخلَّى عنها. ومع هذا، فالبيت ملكهنَّ ما دمن يدفعن إيجاره. وكانت ثمَّة فسحة خلفيَّة عزمن على إقامة حفلة شواء في الهواء الطلق فيها إذا ما تحسَّن الطقس.

كانت غرفتا نوم من الغرف الثلاث في الطبقة العليا بالحجم نفسه تقريبًا، في حين كانت الغرفة الأخرى في الجهة الخلفيَّة أصغرَ حجمًا وأشدَّ عتمة. أصرَّت بيري على أن تسكن في هذه الغرفة. ولمَّا كانت أقلّ الفتيات الثلاث إسهامًا في الإيجار، فقد بدا خيارها مُنصِفًا. راودها الشكّ في أنَّ شيرين ومنى اتَّفقتا على تحمُّل النفقات معًا من دون استشارتها. ولهذا، فإنَّ أغلبيَّة الأموال المدفوعة سوف تكون من جيب شيرين. وسوف تساهم منى في دفع الفواتير التي لن تتجاوز في أيٍّ حال

مكتبة الفكر الجديد

من الأحوال، تلك التي كانت تدفعها بدلًا من استئجار حجرتها في الكلِّيَّة. أمَّا بيري، فتوقَّعت أن تدفع قيمة مشتريات البقالة. وفي ظلٍّ هذه الظروف، لن توافق البتَّة على السكن في الغرفة الأكبر حجمًا.

إلَّا أنَّ منى اعترضت قائلة:

ـ كلام فارغ! يجب أن نلجأ إلى القرعة. فمن تحصل على أقصر قشَّة تأخذ الغرفة الثالثة.

قالت شيرين وهي تهزّ رأسها في عجب:

ـ إذن، ستتركين الأمور بيد القدر؟

سألت منى:

ـ ما اقتراحك؟

أجابت شيرين:

ـ لديَّ فكرةٌ أفضل. لنتاوب على إشغال الغرفة، وننتقل إليها شهريًّا كأنَّنا قبائلُ رحّل. وسنكون مثل قبائل الهون، وإنْ أكثرَ حبًّا بالسلم. وبهذه الطريقة، سنكون على قدم المساواة.

دخلت بيري قائلة:

ـ حسنًا، شكرًا لكما. غير أنَّني لا أوافقكما على هاتين الفكرتين. فإمَّا أشغل الغرفة الصغيرة وإمَّا أذهب في سبيلي.

تبادلت شيرين ومنى نظرات بهجة وسرور، فهما لم تسمعا بيري تتكلَّم على هذا النحو من قبل. وأخيرًا، رضخت شيرين وقالت:

ـ حسنًا، لكن عليك ألَّا تغضبي بشأن النقود، فالحياة أقصر ممَّا نظنّ. أعني، من يدري بِكَمْ سأكون مدينة لك في نهاية المطاف؟ ربَّما سوف تلقِّنينني درسًا بليغًا مستقبلًا. هه!

* * *

مكتبة الفكر الجديد

في الساعات القليلة التي أعقبت ذلك، ذهبت الفتيات إلى غرفهنَّ، وشغلت كلّ واحدة نفسَها بفتح الحقائب والصناديق. ابتهجت بيري بغرفتها من فورها على الرَّغم من صغر حجمها وقلَّة أثاثها ونافذتِها المطلَّة على الفناء. إلَّا أنَّ دهشتها الكبرى تمثَّلت في السرير الخشبيّ الثقيل ذي الأعمدة الأربعة والستائر. أثرٌ من آثار عهد قديم، جعلها تتخيَّل لمَّا استلقتْ عليه وجذبتِ الستائر، أنَّها في عصر كانت فيه الجيادُ تجرّ العربات. ورأت ثمَّة خلوة صغيرة تبعث على الراحة بالقرب من النافذة، فما كان منها إلَّا أن وضعت كرسيًّا فيها وخصَّصتها لتكون خلوةً للقراءة.

في وقت العشاء، طرقت باب غرفة منى المقابلة لغرفتها. فهبطت الاثنتان السلالم واتَّجهتا ناحية المطبخ، فقد اشتاقتا إلى إعداد أوَّل وجبة طعام معًا. وكانت دهشتهما الكبيرة عندما شاهدتا شيرين في المطبخ ترتِّب على الطاولة زجاجةَ نبيذ وعلبةَ عصير تفَّاح وطَبَقًا من الزيتون وثلاثةَ أقداح.

قالت شيرين:

ـ ينبغي لنا أن نحتفل. ثلاثُ شابَّات مسلمات في مدينة أوكسفورد! الآثمةُ والمؤمنةُ والمشوَّشةُ!

ران صمت قصير، احتارت فيه منى وبيري: أيّ صفة من هذه الصفات تنطبق على كلّ واحدة منهنّ. رفعت بيري كأسها في الهواء وقالت:

ـ في نخب صداقتنا!

وقالت شيرين:

مكتبة الفكر الجديد

ـ في نخب أزمتنا الوجوديَّة الجماعيَّة!

وقالت منى وهي ترشف عصير التفَّاح:

ـ تكلَّمي عن نفسك.

قالت شيرين:

ـ حسنًا، أنت ترفضين. ها نحن معشر المسلمين نمرّ منذ اللحظة في أزمة هويَّة، وخصوصًا النساء اللواتي هنَّ مثلنا.

ـ بمعنى؟

ـ بمعنى أولئك الذين يعيشون في أكثر من ثقافة واحدة! إنَّنا نطرح أسئلة كبيرة. وما عليك يا جان بول ساتر إلَّا أن تموت في غيظك! فنحن لدينا أزمةٌ وجوديَّة لم يسبق لك أن مررت في مثلها!

قالت منى وهي تجلس:

ـ لا يروقني مثلُ هذا الكلام. ما الذي يجعلك تعتقدين أنَّنا نختلف كثيرًا عن الأخريات؟ أنت تتكلَّمين كأنَّنا من كوكب آخر.

قالت شيرين مرتشفةً جرعةً سريعة من نبيذها:

ـ مرحبًا أيَّتها الأخت! استيقظي من نومك! ثمَّة مجانين خارج المنزل يرتكبون أعمالًا مقرفةً باسم الدين، دينِنا نحن. ربَّما ليس ديني أنا، لكنَّه دينُك أنت على وجه التحديد. أفلا يُقلقك ذلك؟

قالت منى وهي تمدّ ذقنها إلى أمام:

ـ ما شأن ذلك بي؟ هل تطلبين من كلّ نصرانيّ تلتقينه أن يعتذر عن محاكم التفتيش[1] وأهوالها؟

---

(١) محاكم التفتيش (The Inquisition): هو الاسم الذي سُمِّيت به السلطةُ القضائيَّة في الكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة التي اهتمَّت بمحاكمة المنشقِّين عن الكنيسة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ لو كنَّا نعيش في القرون الوسطى فلربَّما أقدمتُ على ذلك.

ردَّت عليها منى:

ـ آه، إذن، اليهود والنصارى في هذا العصر ليسوا إلَّا ملائكةً بلا أجنحة. هل سبق أن مررتِ بنقطة تفتيش في غزَّة؟ لا أظنّ ذلك! والإبادةُ الجماعيَّة في رواندا؟ وفي سريبرينيتشا؟ أنت لا تحمِّلين كلَّ نصارى العالم المسؤوليَّةَ عن أعمال القتل الرهيبة، بل لا ينبغي لك ذلك مؤكّدًا. إذن، لماذا تُلقين باللائمة على كلّ المسلمين بسبب ما تفعله زمرة من المهووسين؟

تدخَّلت بيري في الحديث وقالت وهي تسعل، إذْ شعرت بالحمَّى تداهمها:

ـ هلَّا توقَّفتما عن الشجار من فضلكما؟

إلَّا أنَّ شيرين استرسلت في كلامها:

ـ لا ريب في أنَّ هناك مهووسين في أوساط النصارى واليهود، وعلينا أن نَدين كلّ شكل من أشكال التعصُّب مهما يكن مصدرُه، لكن ليس في وسعك إنكارُ حقيقة واضحة، وهي أنَّ التطرُّف موجودٌ في الشرق الأوسط أكثرَ من أيّ مكان آخر. فهل في وسعك التجوالُ وحيدةً في مصر من دون أن تكوني هدفًا للتحرُّش الجنسيّ؟ لا تفكِّري في التجوال في الشوارع بعد أن يرخي الظلام سدوله! إنَّني أعرف معرفة شخصيَّة نساءً كنَّ هدفًا لمضايقات وهنَّ في أماكنَ مقدَّسة! في رابعة النهار! إنَّ الناس يلتزمن الصمت في إزاء هذه الأحداث لأنَّها تسبِّب الحرج لهنّ. لكن لماذا نشعر نحن بالحرج ولا يشعر به من يتحرَّش بنا؟ ثمَّة أمور كثيرة تتطلَّب منَّا أن نناقشها.

ردَّت منى:

ـ هأنذا أناقشها. إنَّني أناقش في التاريخ؛ في السياسة؛ في الفقر الضارب أطنابُه في العالم؛ في الرأسماليَّة؛ في الفجوة بين مداخيلِ الأفراد؛ في هجرة الأدمغة؛ في صناعة الحروب. لا تنسَي التركةَ المثيرة للهلع التي خلَّفها الاستعمارُ القديم. قرون من السلب والنهب والاستغلال. هذا هو السبب الذي جعل الغرب يصل إلى هذا المستوى من الثراء! لنتركِ الإسلامَ في سلام ونبدإِ الحديث عن قضايا جوهريَّة!

بسطت شيرين ذراعيها في الهواء، وهي تقول:

ـ كلام نموذجيّ: النحوُ باللائمة على الآخرين بسبب مشكلاتنا نحن.

بذلت بيري محاولة أخرى من دون أن تتوقَّع أيّ استجابة:

ـ هل نتناول العشاء؟

كان الموقف واحدًا من تلك المواقف التي تعرفها معرفة جيِّدة جدًّا، كأنَّها تعيش مع والديها مجدَّدًا، بحيث الاتِّهاماتُ الغاضبة تتطاير ذات اليمين وذات الشمال، أساسُها سوءُ الفهم. ومع هذا، وجدت سهولة في أن تكون شاهدة هذه المرَّة، إذْ إنَّ التوتُّر المخيِّم على الأجواء لم يؤثِّر فيها على النحو الذي كان يؤثِّر فيها برفقة والديها. فشيرين ومنى ليستا في مقام أبيها وأمِّها المتشاجرَين أبدًا. وساورها الشعور بأنَّها غير مضطرَّة إلى التوسُّط بينهما. وكان فكرها صافيًا وحرًّا في تحليله من دون أيّ مسؤوليَّة عاطفيَّة تهدِّئ روعها. لهذا أصغت إليهما وهي تحسدهما سرًّا. فعلى الرَّغم من نزعتَي الفتاتين المتعارضتين بكلٍّ جلاء، فإنَّهما كانتا بالدرجة نفسها من توقُّد العاطفة. فقد كانت منى متديِّنة، وكانت شيرين ثائرة. فما الذي تملكه هي حتى تتمسّك به؟

مكتبة الفكر الجديد

استأنفت شيرين كلامها:

ـ كلّ ما أقوله هو إنَّ التحدّيات التي تواجه المسلمين الشباب اليوم أعمقُ من التحدّيات التي تنتظر الراهبَ البوذيَّ أو المورمونيّ. لنتّفق على هذا.

أجابت منى:

ـ إنَّني لا أتَّفق معك على أيّ شيء. فما دمت متعصِّبةً ضدّ دينك فإنَّنا لا نستطيع أن نتحدَّث حديثًا مناسبًا.

فردَّت شيرين بصوت راحت نبرتُه ترتفع وترتفع:

ـ ها نحن من جديد. ففي اللحظة التي أفتح فيها فمي لأنطق وأعبِّر عمَّا يدور في ذهني أجدُك مستاءة. هل في وسع شخص ما أن يخبرني بالسبب الذي يدفع شباب المسلمين إلى الاستياء؟

أجابت منى:

ـ ربَّما لأنَّنا نتعرَّض لهجوم. ففي كلّ يوم، أجد نفسي مضطرَّة إلى الدفاع عن نفسي في حين أنَّني لم أقترف أيّ ذَنْب. هناك من يتوقَّع منِّي أن أُثبت له أنَّني لست انتحاريَّة، وأجد نفسي محطّ الأنظار طوال الوقت. أتدرين كم أنا مستوحدة؟

كانت السحب المثقلة بالمطر والمتجمِّعة في السماء طوال النهار قد بدأت تتفجَّر من فوق المدينة، كأنَّها تُجيب عن ذلك التساؤل. وراح المطر ينهمر على النافذة. فكَّرت بيري في نهر التايمز القريب وقد انتفخ وحاول الخروج عن مجراه.

قالت شيرين مجيبة:

ـ أنت مستوحدة؟ لديك الملايين ممَّن يقفون إلى جانبك:

مكتبة الفكر الجديد

الحكوماتُ الدينيَّة؛ وسائلُ الإعلام؛ الثقافةُ الشعبيَّة. كما أنَّك تعتقدين أنَّ الربّ إلى جانبك: وهذا أمر له دلالته. كم من الأصحاب تريدين أكثر من هذا؟ أتعرفين جيِّدًا من هم المستوحدون الحقيقيُّون في منطقتنا؟ الملحدون. اليزيديُّون. المثليُّون. ملكاتُ الشوارع. أنصارُ البيئة. سجناءُ الضمير. هؤلاء هم المنبوذون. فإذا لم تكوني من ضمن هؤلاء الناس، فلا تتذمَّري من الوحدة.

ردَّت منى:

ـ أنت جاهلة. لقد تعرَّضتُ للأذى، وللشتيمة، ودُفِعْتُ دفعًا في الحافلات، وعُوملتُ كأنَّني خرساء؛ كلّ ذلك بسبب الحجاب. ليست لديك أدنى فكرة عن المعاملة الفظيعة التي قوبلتُ بها. يا ربِّي! إنَّ الحجاب ليس سوى قطعة من قماش.

ـ لماذا تغطِّين رأسك به إذن؟

ـ إنَّه خياري، وهويَّتي! أنا لست مستاءة من عاداتك أو تصرُّفاتك، فلماذا تستائين من عاداتي وتصرُّفاتي؟ فكِّري: من هي الليبراليَّة هنا؟

ردَّت شيرين:

ـ يا لك من جاهلة. في البدء، فتاةٌ واحدة بحجاب. ثم عشرُ فتيات، ثم ملايين. وقبل أن تُدركي الأمر، أصبحنا أمام جمهوريَّة من الأحجبة. هذا هو السببُ الذي دفع والدي إلى الرحيل عن إيران. لقد أرسلتْنا قطعةُ قماشك إلى المنفى!

أضحت كلّ قسمات بيري قاسيةً عند كلّ كلمة نطقت بها، فخفضتْ بصرها إلى أسفل، وحدَّقت إلى الطاولة الخشبيَّة المثلومة من إحدى زواياها. كانت على الدوام تنجذب إلى الندوب وإلى العيوب والنواقصِ

مكتبة الفكر الجديد

الكامنة تحت أيّ سطح أملسَ.

سألت شيرين بغتة:

ـ ما رأيك يا بيري؟

وسألت منى:

ـ نعم، أخبرينا يا بيري: مَنْ منّا على حقّ؟

تململت بيري تحت تحديقَتَي صديقتيها، وأتتْ بحركات عصبيَّة، ونظرت نظرةً خاطفة إلى كلّ وجه من هذين الوجهين المحدِّقين إليها، وراحت تبحث عن الكلمات. وأخيرًا نطقتْ. قالت إنَّ شيرين على حقٍّ من ناحية ما، لكن منى على حقٍّ أيضًا من نَواحٍ أخرى. فعلى سبيل المثال، هي توافق على أنَّ الحياة يمكنها أن تكونً قاسية على نحو منظّمٍ تجاه فرد من أفراد الأقلِّيَّة ـ سواء أكانت الأقلّيَّةُ ثقافيَّةً أم دينيَّةً أم جنسيَّةً ـ في نطاق ثقافة مجتمع مسلم مغلق. وإن كانت تُدرك أيضًا المصاعب التي تواجه المرأة المحجَّبة في مجتمع غربيّ. وكانت ترى أنّ كلّ حالة تعتمد على السياق الذي تأتي فيه. فهي تريد مساندة كلّ مَن كان ضعيفًا مسلوبَ القوَّة ومحرومًا في زمان ما ومكان ما. من هنا، فهي لا تقف إلى جانب أحد معيَّن وقوفًا قطعيًّا لا رجعة فيه إلَّا إذا كان في الجانب الأضعف.

قالت شيرين وهي تنقر بأصابعها نقرًا على الطاولة ينمّ عن نفاد صبرها:

ـ كلام مجرَّدٌ أكثرُ ممَّا يجب.

ثم أنعمت النظر في وجه منى، فبدت الفتاتان متَّفقتين إلى حدٍّ ما، لكن إجابة بيري المتوازنةَ لم تقنع أيًّا منهما.

مكتبة الفكر الجديد

أوضحت منى وهي تلتفت إلى شيرين:

ـ دعيني أوضح لك هذه النقطة. إنَّني لست متحاملة على الملحدين، أو المثليين، أو ملكات الشوارع، فالحياةُ حياتُهم. لكنَّني أعترض على أولئك المصابين برهاب الإسلام. وإذا ما تصرَّفتِ مثل المحافظين الجدد الذين يدعون إلى الحروب ويشعلونها، فإنَّه يُستحسن بي أن أنتقل من هذا البيت.

وضعت شيرين كأسها على الطاولة بقوَّة جعلت شيئًا من النبيذ ينسكب عليها، وتساءلت:

ـ مَن؟ أنا من المحافظين الجدد؟ أتريدين ترك المنزل؟ حسنًا! لكن هذا هو الحلُّ الأسهل. ينبغي لنا أن نفهم بعضنا بعضًا.

فكَّرت بيري في نفسها: نفهم بعضنا بعضًا. يتعيَّن عليَّ أن أتذكَّر هذه العبارة.

قالت منى:

ـ إنَّني موافقة.

هتفت شيرين:

ـ عظيم. سوف نكتب بيانًا صادرًا عن نساء مسلمات وسيكون شعاره متمثّلًا في الحروف الثلاثة الأولى «ب ن م»، أي «بيان نساء مسلمات»، وسندوّن فيه كلّ ما من شأنه أن يُثير إحباطنا: التطرُّف، الجنس...

قالت منى:

ـ رُهاب الإسلام.

أمَّا بيري، فقالت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أعتقد حقًّا أنَّ الأوان قد آن لإعداد وجبة العشاء.

فضحكن كلُّهنّ. وبدت العاصفة في لحظة من الزمان كأنَّها قد هدأت وانتهت. كما أنَّ المطر خارج البيت توقَّف عن الهطول، وانقلب المساء إلى ليل أرخى سدوله، وبات القمر طلسمًا لؤلُئِيَّ البريق في حضن السماء، في حين جرى نهر التايمز وراء بورت ميدو جَرَيانًا قويًّا، وفي تيَّارات دوَّاميَّة عميقة، متعرِّجًا في طريقه الفضِّيّ وسط الظلمة.

قالت منى متنهِّدة تنهيدة تنطوي على استسلام وإذعان:

ـ أتدرين ماذا؟ أنت ابنةُ ديانةٍ مدهشة، ولديك نبيٌّ رائع يَهديك السبيلَ، لكن بدلًا من تعداد بركاتك، ومحاولة أن تكوني إنسانة صالحة، فإنَّ كلّ ما تفعلينه هو الشكوى والتذمُّرُ.

قالت شيرين:

ـ ما دمت تتحدَّثين بخصوص النبيّ، فإنَّ ثمَّة أشياء وجدتها...
وهنا اعترضت منى بصوت مرتعش أوَّلَ مرَّة:

ـ لا تفكِّري في هذا. يمكنك أن تتكلَّمي عليَّ. لا بأس. لكن لا يمكنني أن أسمح للناس بأن يتكلَّموا ضدّ نبيِّي، في حين أنَّهم لا يعرفون شيئًا عنه. إذا أردت توجيه النقد إلى العالم الإسلاميّ، فلا بأس. أمَّا النبيُّ، فعليك أن تتركيه وشأنه.

تذمَّرت شيرين وسألت مُحبَطة:

ـ لماذا أتعمَّد استثناء أيّ شخص من التفكير النقديّ، وخصوصًا في حرم الجامعة؟

ردَّت منى:

ـ لأنَّ ما تصفينه بالتفكير النقديّ ليس سوى كلام تافه لا يخدم غيرَ

مكتبة الفكر الجديد

المتحدِّث ذاته! ولأنَّني أعرف ما ستقولين، وأعرف أيضًا أنَّ نظراتك ليست نقيَّةً، وأنَّ معلوماتك ملوَّثةٌ. فأنت لا يمكنك الحُكْمُ على القرن السابع بمنظار القرن الحادي والعشرين.

ـ بل يمكنني، إن كان القرنُ السابع يحاول أن يحكم القرنَ الحاديَ والعشرين!

قالت منى:

ـ كم كنت أتمنَّى لو أنَّك تفخرين بما أنت عليه. أنت تعرفين من أنت: مسلمةٌ تكره نفسها.

قالت شيرين بألم مصطنع:

ـ آخ. إنَّني لم أفهم قطُّ الناسَ الذين يفتخرون بأنَّهم أميركيُّون أو عرب أو روس أو نصارى أو يهود أو مسلمون. فلماذا يتعيَّن عليَّ أن أشعر بالرضى من شيء لا دور لي في اختياره؟ هذا يشبه القول إنَّ طولي يبلغ خمس أقدام وتسعَ بوصات؛ أو أن أهنِّئ نفسي على أنفي المعقوف. إنَّها قسمة وراثيَّة.

ردَّت منى:

ـ لكنَّك مرتاحة جدًّا في تجديفك.

فردَّت شيرين بنبرة مسرحيَّة:

ـ حسنًا، كنتُ يومًا ما ناشطة تجديفيَّة، لكنَّني لم أعد كذلك بفضل الأستاذ آزور. لكنَّني بذلت قصارى جهدي في شكوكي، ووضعت فيها عقلي وقلبي وشجاعتي. كما أنَّني فصلت نفسي عن الحشود البشريَّة وعن الاجتماعات! وأنا لم أتوصَّل إلى ذلك من دون جهد من طرفي. نعم، إنَّني سعيدة برحلتي.

ـ إذن، صحيح أنَّك تحتقرين ثقافتك، وأنَّك تحتقرينني. . . وأنا في نظرك لست سوى متخلِّفة، أو أنَّني خضعت لغسل الدماغ، وأنَّني مضطهَدة وجاهلة. لكنَّني درست القرآن على العكس منك. وفكَّرت في أنَّه كتاب بليغ وحكيم وشاعريّ. كما درست حياة النبيّ. وكلَّما تعمَّقت في القراءة عنه وجدتني أزداد إعجابًا بشخصيَّته. إنَّني أرى السلام في ديني. هل يهمّك هذا؟ إنَّني لا أدري حقًّا السببَ الذي دفعني إلى الموافقة على الانتقال إلى السكن وإيَّاك!

بعد ذلك، راحت منى ترتقي السلالم في طريقها إلى غرفتها في الطبقة العليا، فاهتزَّت الألواحُ الأرضيَّة الخشبيَّة تحت قدميها، وأنَّتْ تحت ثقل عواطفها المحتدمة. فما كان من شيرين إلَّا أن رفعت قدحَها الفارغَ وقذفته بكلِّ ما أوتيت من قوَّة نحو الجدار، فتناثر قطعًا صغيرة مهشَّمةً على الأرض تناثرَ قصاصات الورق الملوَّن. فجفلت بيري، لكنَّها سرعان ما نهضت لتنظيف الأرض.

صاحت بها شيرين:

ـ لا تتحرَّكي من مكانك، فهذه أوساخي، وسوف أُزيلها بنفسي.

قالت بيري:

ـ حسنًا. سأذهب إلى غرفتي.

كانت تعلم بأنَّ شيرين لن تزيل غير القطع الكبيرة، أمَّا القطع الصغيرة فسوف تبقى في مكانها بين الألواح الخشبيَّة في انتظار أن تجرح أقدامهنّ.

تنهَّدت شيرين قائلة:

ـ طابت ليلتك يا ماوس.

خطت بيري بضع خطوات، لكنَّها تريَّثت قليلًا ورشقت شيرين

مكتبة الفكر الجديد

بنظرة، فشاهدت وجهها وقد فَقَدَ شجاعته بغتة.

تمتمت شيرين في نفسها معتقدةً أنَّها بمفردها:

ـ لقد حذَّرني، فالأمر لن يكون سهلًا.

فسألتها بيري:

ـ مَنْ حذَّرك؟

رفعت شيرين بصرها، فشاهدت بيري أجفانَها مشوَّشةً. وردَّت شيرين:

ـ لا أحد.

كانت ثمَّة حدَّةٌ في نبرتها، لم تكن مألوفةً قبل الآن. ثم أضافت:

ـ اسمعي، سوف نتكلَّم لاحقًا. حسنًا؟ أمَّا الآن، فإنَّني أحتاج إلى الاستحمام، فقد كان النهار طويلًا.

* * *

لم تستطع بيري الرقاد. كانت وحيدة في المطبخ، فصبَّت لنفسها كأسًا أخرى من النبيذ. أحسَّت كأنَّها مُصابةٌ بدوار: هل تراها اكتشفت مصادفة سرًّا من الأسرار؟ أخذت ملاحظة شيرين غيرُ المقصودة تقضّ مضجعها. وسواء أكان ثمَّة سبب معيَّن أم حَدْسٌ لا غير، فقد راودها الإحساس بأنَّ رغبة شيرين العارمة في الانتقال معًا إلى هذا المسكن إنَّما يقف وراءها شخص بارع في تأثيره، أَلَا وهو آزور.

تذكَّرت مقطعًا في أحد كتبه المبكرة عالج فيه فكرة غريبة مفادُها أنَّ الناس الذين يعانون مرارةَ عدم الاتِّفاق مع الآخرين، ويتبادلون وإيَّاهم الاتِّهاماتِ والتأنيبَ، إنَّما يتحتَّم تركُهم معًا في حجرة واحدة مغلقة، وجعلُهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا. فالسجين الأبيض البشرة يتعيَّن حبسه

مكتبة الفكر الجديد

في الزنزانة نفسها مع سجين أسمر البشرة. وعامِلُ منجم من مناجم أحجار اليشم الكريمة مع أحد أنصار البيئة. والباحثُ عن تذكار صيد مع من ينادي بحماية الحيوانات. في ذلك الوقت الذي قرأت فيه هذه العبارات، لم تفكِّر فيها كثيرًا. أمَّا الآن، فقد اتَّضحت معانيها. فهي داخل لعبة، تؤدِّي دورها عن غير رغبة، ويهيمن عليها عقلٌ ما، يحرِّكها من على مسافة بعيدة.

انسلَّت بيري إلى الطبقة العليا مذعورةً، فوجدت باب غرفة منى موصَدًا، وتناهى إلى سمعها صوتُ خرير الماء من الحمَّام في نهاية الممرّ. كانت شيرين تدندن في الحمَّام لحنًا بدا لبيري مألوفًا إلى حدٍّ ما، وكادت نغمتُهُ تكون طاغية إلى حدٍّ كبير.

دلفت بيري على رؤوس أصابع قدميها إلى غرفة شيرين، فشاهدت علبًا كرتونيَّة في كلّ مكان. الواضح أنَّ شيرين لم تُفرغ أكثر هذه العلب. ورأت إحدى العلب الكبيرة وقد كُتِبَ عليها بحروف كبيرة كلمةَ «كُتب»، وكانت مفتوحة، فتمكَّنت بيري من رؤية بعض المجلَّدات وقد صُفَّت على الرفّ. بدا أنَّ شيرين كانت قد تعبت من إفراغ العلبة فتركت بقيَّة الكتب فيها من دون أن تمسَّها.

فتَّشت بيري في المحتويات، ولم تستغرق وقتًا طويلًا حتى عثرت على بغيتها. فقد بحثت في قائمة مؤلَّفات الأستاذ آزور، عنوانًا في إثر عنوان، ومسكت الكتاب الأوَّل وفتحت صفحة العنوان الداخليَّة، فوجدت عليها إهداءً مكتوبًا كما توقَّعت:

«إلى شيرين الحلوة؛

المهاجرةِ الدائمةِ والمتمرِّدةِ الجريئةِ والمنبوذةِ الفلسفيَّةِ؛ الفتاةِ التي تعرف كيف تطرح الأسئلة ولا تخشى متابعة الأجوبة. . .

مكتبة الفكر الجديد

أي. زد. آزور»

أغلقت بيري الكتاب وقد استبدَّت بها غيرةٌ لم يكن سببُها أنَّها لم تعرف أنَّ شيرين كانت تزور الأستاذ زياراتٍ منتظمة، مرَّتين في الأسبوع على الأقلّ، وأنَّ الاثنين قريبان أحدهما من الآخر، وإنَّما تعذَّبت وهي تُدرك قيمة شيرين في نظره. تفحَّصت العناوين الأخرى لتجد أنَّ بقيَّة الكتب تحمل إهداءات الأستاذ إلى شيرين. وكان الكتاب الأخير الذي مسكته، وهو آخر إصدارات آزور، يحمل إهداءً أطول من سابقه:

«إلى شيرين التي لا تشبه اسمَها،

الحلوةِ واللاذعةِ مثل رمّان بلاد فارس،

بلادِ الشمس والأسد...

لكن يجب أن تعرف، إن لم تعشق، ما تراه باحتقار، لأنَّ المرء لا يرى وجهَ الربّ

إلَّا في مرآة الآخر

عليك أن تحبِّي يا عزيزتي،

أن تحبِّي أختك غير الشقيقة

زد. آزور»

أيّ أخت غير شقيقة؟ كانت بيري تعلم بأنَّ شيرين لا أخت لها، اللهم إلَّا إذا كانت العبارةُ استعارةً ترمز إلى «المرأة الأخرى».

التقطت بيري أنفاسها بعد أن تصوَّرت ضخامة المشهد. كانت شيرين تحتقر الدين والمتديِّنين. وإذا كانت تهاجم كلّ الطوائف، إلَّا أنَّ الدين الذي نشأت في حضنه هو الذي كان مستهدَفًا بنقدها أكثرَ من أيّ شيء آخر. وكانت شديدة الحساسيَّة تجاه الشابَّات المسلمات اللواتي

مكتبة الفكر الجديد

يغطِّين رؤوسهنَّ والمقتنعات بذلك. وقد قالت في يوم من الأيَّام: «الملالي وشرطةُ الآداب يكتمون أفواهنا من الخارج. أمَّا هؤلاء الفتياتُ اللواتي يؤمنَّ إيمانًا جازمًا بحتميَّة تغطية رؤوسهنّ كي لا يُغوين الرجال، فإنَّهنَّ يكتمنَ أفواهنا من الداخل». وكلَّما فكَّرت بيري في هذا الأمر، ازدادت قناعتها بأنَّ الأستاذ آزور قد وضع شيرين في مختبر اجتماعيّ كأسلوب من أساليب الضغط عليها للتفاعل مع «الآخر»، الذي تمثِّله منى.

وعلى الرَّغم من صدمة بيري بما اكتشفته، فإنَّ ثمَّة ما أثار اضطرابها أكثرَ من ذلك. فلعلّ منى لم تكن الفتاةَ الوحيدة. فازدردت ريقها بصعوبة بالغة ونظرت إلى نفسها، أوَّلَ مرَّة، بعيني شيرين: افتقارُ بيري إلى اليقين وتردُّدُها ووجلُها وسلبيَّتُها... تلك سجايا تشمئزّ منها فتاة مثل شيرين. ثلاث فتيات مسلمات في أوكسفورد: الآثمةُ والمؤمنةُ والمشوَّشةُ. لم تكن منى وحدها المختارةَ لهذه التجربة الاجتماعيَّة الغربيَّة. لقد فهمت بيري الآن: فهي أيضًا الأختُ الثانية غير الشقيقة.

أعادتِ الكتاب إلى موضعه السابق وأغلقتِ العلبة، وخرجت من الغرفة. كم ندمت على التخلِّي عن الأمان والهدوء في غرفتها في الكلِّيَّة لينتهي بها المطافُ إلى هذا المنزل الذي سيعرف الأستاذ آزور كلَّ حركاته وسَكَناته. وراودها الإحساسُ بأنَّها مثلُ ذبابة في قنِّينة من زجاج، مستدفئة وآمنة من النظرة الأولى، لكنَّها في فخٍّ على الرَّغم من ذلك.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

مراكز الطاقة الروحيَّة

إسطنبول ـ ٢٠١٦

قال عدنان مرَّة أخرى:

ـ سوف يطوي النسيانُ المعلِّمَ المتقاعد، ولن يصدمنا بعد الآن أيُّ شيء. لقد أصبحنا فاقدي الإحساس، قساةَ القلوب.

فسألته سيِّدة الأعمال:

ـ لكن ألستَ قاسيًا قليلًا؟ ماذا في وسعنا أن نفعل؟ لولا ذلك لأُصبنا بِمَسّ من الجنون!

انضمَّ الوسيط الروحانيّ لدى سماعه هذه الكلمات هازًّا رأسَه على نحو يدلُّ على نفاد صبره، وقال:

ـ للأمم علامةٌ دالَّةٌ على دائرة البروج كما الأفراد. فهذا البلد وُلد في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأوَّل. العقربُ يوجِّهه المرِّيخُ وبلوتو. ما المرِّيخ؟ إلٰهُ الحرب. ما بلوتو؟ إلٰهُ العالم السفليّ. الكواكب تُفصح عن كلّ شيء.

قال ملك الصحافة المتديِّنُ:

ـ كلام فلكيّ غيرُ مفهوم. ماذا تعني بكلمة «إلٰه»، في حين أنَّنا كلَّنا نؤمن بالله الواحد الأحد؟

مكتبة الفكر الجديد

اعتدل الوسيط الروحانيّ في جلسته وبدا مستاءً. أمَّا الصحافيّ فقال:

ـ إنَّ مراكز الطاقة الروحيَّة في الشرق الأوسط تبدو معطَّلةً كلّها.

فاعترض رجل الأعمال موضحًا:

ـ ليس ثمَّة ما يدفع إلى العجب. فالطاقة الوحيدة التي يعرفها أهلُ الشرق الأوسط هي النفطُ. تحدَّث عن الطاقة الروحيَّة بدلًا من ذلك!

فسألت سيِّدة الأعمال متجاهلةً ما أبداه زوجُها من ملاحظة:

ـ إذن، أيُّ الطاقات التي يجب، في رأيك المهنيّ، فتحُها؟

فجاء الردّ:

ـ الطاقة الخامسة[١]، وهي طاقة البلعوم؛ الأفكارُ المقموعة والرغباتُ المكبوتة. إنَّها تبدأ من هنا، في نهاية الحلق وتضغط على المريء والمعدة.

في هذه اللحظة، تلمَّس بعض الضيوف رقابَهم.

قال رجل الأعمال:

ـ بغضّ النظر عن الطاقة التي تتحدَّثون عنها، فإنَّ حنجرتي يابسة. وأنا مضطرٌّ إلى فتح منفذ لطاقتي. قدِّم إلينا كمِّيَّةً أخرى من الويسكي يا كاظم.

استرسل الوسيط الروحانيّ في كلامه قائلًا:

ـ ثمَّة وسيلة لفتح مصادر الطاقة المسدودة.

قالت بيري مقترحة:

---

(١) الطاقة أو الطاقات التي يجري الحديث عنها في هذا السياق، مأخوذة من مراكز الطاقة الروحيَّة السبعةِ في جسم الإنسان استنادًا إلى فلسفة اليوغا، وهي أصلًا كلمة Cakras باللغة السنسكريتيَّة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

ـ أهي الديموقراطيَّة؟

نظر الجرَّاح التجميليّ إلى ساعته، وقال:

ـ آه، لقد تأخَّرت. يُستحسن بي أن أنصرف. فأنا مسافر جوًّا في وقت مبكر.

وعلى الرَّغم من أنَّه كان يسكن في مدينة ستوكهولم منذ أشهر عدَّة، فإنَّه كان يزور إسطنبول في أغلب الأحايين بسبب ما لديه من مصالح اقتصاديَّة، ومن عشيقة شابَّة تصلح لأن تكون ابنتَه، بحسب الشائعات.

قالت مديرة العلاقات العامَّة:

ـ حسنًا، سوف تتوارى عن الأنظار وعلينا معالجة قضايانا. إنَّ الذين يسافرون خارج البلاد بحثًا عن حياة أفضل في بلدان أخرى يصبحون موضعَ حسد وانتقاص في الوقت نفسه. القضيَّة لا تخصّ نيويورك أو لندن أو روما. أمَّا الذين يلبثون في بلادهم، فإنَّ فكرة الحياة نفسها خارج البلاد هي التي تشغل بالهم. فهم يشتاقون إلى سماء جديدة يتنزَّهون تحتها. وهم يخطِّطون من حول موائد الإفطار والغداء خططًا معقَّدة من أجل الانتقال إلى الخارج، ويعنون بذلك الغرب في الأعمّ الأغلب. إلَّا أنَّ خططهم تتهاوى رويدًا رويدًا، كما القلاعُ الرمليَّة، حين يصبح كلّ شيء مألوفًا لديهم. يُقعدهم عن فعل ذلك الأقرباءُ والأصدقاءُ والذكرياتُ المشتركة، فينسون شيئًا فشيئًا حنينهم إلى مكان آخر، إلى أن يحلّ ذلك اليوم الذي يلتقون فيه شخصًا ما كان قد فعل ما كانوا يومًا ما يتمنَّون فعله. وهنا يبدأ النفور.

قال الجرَّاح التجميليّ حين شعر بالحديث ينقلب ضدَّه:

ـ كما أنَّ السويد ليست جنَّة أيضًا.

لم تقنع تلك العبارة أحدًا. فإذا ما حان يوم غد، فإنَّه سوف يعود إلى

مكتبة الفكر الجديد

أوروبا ويتركهم في معمعة مشكلاتهم، وسوف يأكل الخبز بالقرفة في حين يغرقون هم في عدم الاستقرار الإقليميّ والاضطراب السياسيّ والقنابل.

ابتسمت بيري له ابتسامة تنمّ عن تعاطفها وإيّاه، وقالت:

ـ البقاء هنا ليس سهلًا، والرحيل ليس سهلًا أيضًا.

أرادت بيري أن توضح أنَّ أولئك الذين يبقون في وطنهم يتمتَّعون، بالرَّغم من الصعوبات، بصداقات دائمة وشبكات علاقات اجتماعيَّة واسعة، في حين أنَّ أولئك الذين يهاجرون من غير رجعة يظلُّون أحجيات ناقصة مفتقرة إلى جزء حاسم ومهمّ.

قالت صديقة الصحافيّ التي كانت لا تزال تسرف في الشراب بالرَّغم من لكزات صديقها:

ـ حسنًا، المأساة هي أنَّه سيضطر إلى العيش في جبال الألب.

حاول أحدهم أن يصحِّح معلومتها، بقوله:

ـ جبال الألب في سويسرا وليست في السويد.

بيد أنَّ صديقة الصحافيّ تجاهلت الملاحظة. ظهرت بطنها محشورة داخل تنُّورتها القصيرة والضيِّقة عندما وثبت واقفة على قدميها، وأشَّرت بظفر إحدى أصابعها المطليَّة والذي كانت قد قضمته، في اتِّجاه الجرَّاح التجميليّ، وقالت:

ـ أنتم هاربون كلّكم! فأنتم تذهبون وتعيشون خارج البلاد عيشة رغد. . . أمَّا نحن، فنعيش وسط التطرُّف والتشدُّد والجنس. . .

ثم التفتت حولها كأنَّها تبحث عن حالة مميَّزة أخرى على مقربة منها، وأضافت:

ـ إنَّ حرِّيَّاتي هي المهدَّدة. . .

التفتتِ المضيفة إلى الوسيط الروحانيّ، وقالت:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ما دمنا في صدد الحديث عن التهديدات يا عزيزي، فيجب عليَّ أن أُطلعك على المنزل، وما عليك سوى أن تخبرني بسبب الحوادث الغريبة التي حدثت لنا. أوَّلًا، حدث الفيضان، ثم الصاعقة. ثم هل ترامى إلى سمعك خبرُ السفينة التي اقتحمت المنزل كأنَّها شريط سينمائيّ من أشرطة المغامرات!

ثم رمقت زوجها بنظرة كي تتأكَّد إن كانت قد نسيت شيئًا آخر.

فقال رجل الأعمال مساعدًا إيَّاها:

ـ الشجرة.

ـ آه، نعم. فقد سقطت شجرة على سطح بيتنا! أتظنّ ذلك بسبب عين الحسود؟

أجاب الوسيط الروحانيّ:

ـ يبدو الأمر كذلك. لا تقلّلي من شأن قوَّة الحسد. هل تفحَّصت غرفة الخادمات؟ لعلَّ واحدة منهنَّ صبَّت اللعنة عليكم.

تحسَّست المضيفة حنجرتها كأنَّها غير قادرة على التنفُّس، وقالت:

ـ أتظنّ أنَّهنَّ يتجرَّأن على ذلك. لو عثرنا على ما يثير الشبهات فسوف أطردهنَّ شرّ طردة في أسرع ما يمكن. من أين تريد أن يبدأ البحث؟

ـ من السرداب. إذا كنت تبحثين عن لعبة ما، فعليك فحص الزوايا الشديدة الظلمة.

في الوقت الذي مرَّ فيه الوسيط الروحانيّ برفقة المضيفة، شعرت بيري برجَّةٍ صغيرة. ومرَّت ثانيةٌ أخرى قبل أن تُدرك أنَّ الرجَّة صادرة عن هاتف زوجها. غير أنَّ وجهها امتقع. كان الاتِّصال من شيرين.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

بيت في أريحا

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

سرعان ما اتَّضح أنَّ لكلٍّ واحدة منهنَّ، ركنًا مفضَّلًا في البيت عن سائر الأركان. فهذه شيرين كانت تفضِّل الحمَّام، وإذا ما توخَّينا دقَّة أكبر، حوض الاستحمام بقوائمه الشبيهة بالمخالب. فوضعت فيه الشموع والأملاح والكريمات والدهون، فتحوَّل بذلك إلى معبدٍ تُطلق فيه العنان لأهوائها ورغباتها. وكان طقسها المسائيّ متمثِّلًا في ملء الحوض إلى حافَّته بالماء الحارّ وتضيف إليه خليطًا من الروائح، ثم تغطس فيه ساعة من الزمان تقرأ خلالها المجلَّات وتستمع إلى الموسيقى، وتقلِّم أظفارها وتحلم أحلام يقظة.

أمَّا منى، فكان ركنها المفضَّل هو المطبخ. فكانت تستيقظ في وقت مبكر من صباح كلّ يوم حتى لا تفوتها صلاةُ الفجر، فتتوضَّأ وتفرش سجَّادتها المصنوعةَ من الحرير ـ كانت قد أهدتها إيَّاها جدَّتها ـ وتصلِّي من أجل نفسها ومن أجل الأخريات، وضمنهنّ شيرين التي كانت منى تعتقد أنَّها في حاجة إلى مساعدة إلٰهيَّة. أمَّا ما طبيعة تلك المساعدة، فهي متروكة لله لأنَّه أدرى منها بها. ثم تهبط السلالم بعد ذلك إلى المطبخ، وتحضِّر طعام الفطور لكلٍّ واحدة منهنَّ، وكان يتألَّف من الكعك والفول المدمَّس وعجَّة البيض.

مكتبة الفكر الجديد

غير أنَّ بيري كانت تفضِّل السرير بالأعمدة الأربعة في غرفة نومها. وكانت شيرين قد أعطتها طعمًا إضافيًّا من البياضات القطنيَّة المصريَّة الناعمة نعومةَ فرو الأرنب، ما جعل بيري تزداد التصاقًا بهذا الجزء من الأثاث. ودأبت على الدراسة في هذا المكان، وفي الليالي، حين كانت تستلقي في سريرها، فإنَّها تُصيخ السمع إلى هسيس الريح التي تداعب الأغصان العلويَّة من شجرة جار الماء خارج المنزل، أو إلى خرير الماء المنحدر بعيدًا. وكانت الظلال تتراقص على الجهة المقابلة على إيقاع صامت، فتتراءى لها أشكالٌ تذكِّرها بخرائطَ ريفيَّة: حقيقيَّةٍ ومتخيَّلة، وأرضٍ لقي أُناسٌ بالآلاف مَصْرَعَهم فيها، فانتشرت الدماء فوق الدماء. وعندما تُصاب بالإعياء من جرَّاء إيقاع تخيُّلاتها، تخلد إلى النوم، مطمئنَّة إلى أنَّها عند استيقاظها في صباح اليوم التالي، ستجد العالم لا يزال حاضرًا كما كان شأنُه.

وفي الصباح، حين تكون شيرين في فراشها ولم تنهض بعد، لأنَّها لا تنهض إلَّا في وقت متأخِّر، وتكون منى مستيقظة مبكرًا كعادتها، تخرج بيري لممارسة رياضة العَدْو. وفي حين تدفع بجسدها على امتداد الطريق، تبدأ بالتفكير في آزور: ما الذي كان يتوقَّعه عندما حثَّ شيرين على جمع الفتيات الثلاث معًا؟ وما الذي يرمي إليه؟ لكن كلَّما بذلت جهدًا أكبر في حلِّ هذا اللغز، ازداد نفورها من الأعماق كأنَّه عصارة الصفراء.

كانت حدَّة النقاشات تزداد من حول طاولة المطبخ، وفي أغلب الأحيان على خلفيَّة رائحة الخبز. في إحدى المرَّات، خرجت شيرين مندفعة اندفاعًا جنونيًّا وهي تصرخ وتزعق بأنَّها تعبت من هذا الجدال، غير أنَّها سرعان ما كانت تعود إلى تناول وجبة العشاء. وفي مرَّة أخرى،

مكتبة الفكر الجديد

كان دور منى التي لجأت إلى الأسلوب نفسه، وكانت مناقشاتهنَّ تدور عن موضوع الربّ والدين والإيمان والهويَّة، وفي بعض الأحيان عن الجنس.

كانت تؤمن بأن تظلّ عذراء حتى الزواج، وهذا نوع من الإخلاص الذي كانت تتوقَّعه من نفسها ومن زوج المستقبل، في حين كانت شيرين تهزأ بهذه الفكرة كلّها. أمَّا بيري، التي لم تكن متعلِّقة تعلُّقًا شديدًا بفكرة البتولة ولا بالارتياح إلى الممارسة الجنسيَّة، فكانت تصغي إليهما وتشعر بأنَّها في منطقة وسطى بين هذين الرأيين، كما هو دأبُها.

* * *

عندما عادت بيري أدراجها عصر يوم الخميس إلى المنزل في أريحا، شاهدت شيرين ومنى تراقبان صامتتين مشهدًا عمَّت فيه الفوضى من على شاشة التلفاز. كانت عدسة التصوير تدور على وقع صوت صافرات الإنذار ومشهد الزجاج المحطَّم والدماء على الأرض، فقد هوجم معبد يهوديّ في تونس على أيدي مسلمين، وانفجرت شاحنة محمَّلة بالغاز الطبيعيّ والمتفجِّرات أمامه، ما أدَّى إلى مصرع تسعة عشر شخصًا.

قالت منى وهي تعضّ على نواجذها:

ـ أرجو من الربّ ألَّا يكون هذا بفعل فاعل مسلم.

قالت شيرين:

ـ إنَّ الربّ لن يسمعك.

فما كان من منى إلَّا أن حدَّقت فيها تحديقة جامدة، وحين تكلَّمت مجدَّدًا كانت الرقَّة قد فارقت صوتها:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل تسخرين منِّي؟

ردَّت شيرين:

ـ إنَّني أسخر من دعائك. هل تظنِّين أنَّ في وسعك حقًّا تغييرَ الحقائق إذا ما استرسلت في الدعاء؟ إنَّ ما حدث قد حدث.

كان تفاقم الحال بين منى وشيرين قد بدأ بالازدياد بمرور كلّ دقيقة، وكان الشجار في ذلك المساء هو الأسوأ.

لجأت بيري إلى غرفتها من دون عشاء، ورمت بنفسها على سريرها، وسدَّت أذنيها براحتي يديها، إذْ تواصَلَ الصياحُ في الطبقة الأرضيَّة.

وفكَّرت يحدوها أمل: ستشعر كلّ واحدة منهما بالخزي في صباح الغد ممَّا تفوَّهت به إحداهما ضدَّ الأخرى.

في أيِّ حال، ستتركان كلّ شيء وراءهما، إلى أن يحين موعد الشجار المقبل. كانت بيري هي الوحيدة التي تحفظ كلّ كلمة وكلّ إشارة وكلّ إساءة. كانت منذ طفولتها قد وهبت نفسها لتكون مؤرشفةً، مسجِّلةً ذكريات أليمةً. كانت تنظر إلى ذاكرتها على أنَّها واجب ومسؤوليَّة يُحتِّمُ عليها أن تتشرَّف بهما إلى النهاية، على الرَّغم من إحساسها بأنَّ مثل هذا العبء الثقيل سوف يجعلها تنهار يومًا ما.

حين كانت بيري طفلة صغيرة، كان في وسعها أن تفهم لغةَ الريح، وتقرأ العلاماتِ المحفورةَ في الحقول التي لم يُحصَد إلَّا نصفُها أو في الثلج المتساقط من أشجار الأكاسيا، وأن تشدو مع المياه المنسابة من الصنبور. وفكَّرت أيضًا في أنَّها لو بذلت جهدًا لتمكَّنت يومًا ما من رؤية الربّ بأمِّ عينيها. وفي إحدى المرَّات، وبينما كانت تسير برفقة أمِّها،

مكتبة الفكر الجديد

شاهدت قنفذًا دهسته سيَّارة، فأصرَّت على أن تدعو لأجله، وكان ذلك دعاءً أثار فزع سلمى، فالجنَّة مكان محدَّد وصغير ومحفوظ لنخبة مختارة قليلة العدد. أمَّا الحيوانات، فلا مكان لها فيها. هكذا أوضحت لها والدتها.

سألت بيري:

ـ ومن لا يدخل الجنَّةَ غيرُ الحيوانات؟

ـ الخاطئون، الأشرار، الذين يُهملون شؤون ديننا ويحيدون عن جادَّة الحقِّ... والذين ينتحرون، ولن يحظى هؤلاء بصلاة الجنازة عليهم.

كذلك هو شأنُ القنافذ، على ما يبدو. فالقنفذ الذي يلقى مصرعه على الطريق يُرمى به في القمامة. تلك الليلة، انسلَّت بيري من المنزل ونقلت جثَّة الحيوان النافقِ من ذلك المكان النتن. ولم تعثر على أيّ قفَّازات، وحين لمست تلك الجثَّةَ التي فارقت الحياة، ارتعشت كأنَّ شيئًا ما انتقل من تلك الجثَّة إلى جسدها، ثم حفرت حفرة بيديها، وثبَّتت شاهدَ قبر صنعته بمسطرة خشبيَّة وتوجَّهت بالدعاء. ورويدًا رويدًا، أضحى ذلك العمل لعبةً من لُعَبها المفضَّلة، وجنازةً راقصة. ونظَّمت شعائرَ لدفن النحل النافق، والأزهار الذابلة، والفراشاتِ ذات الأجنحة المتكسِّرة، واللُّعَبِ المتضرِّرة التي يتعذَّر إصلاحها، وغيرِ المرغوب في دخولها الجنَّةَ.

وبعد أن أخذت تنمو وتنضج، تعلَّمت كيف تكبت تصرُّفاتِها الغريبةَ، واحدًا واحدًا. وتلاشت اختلافاتها جميعها بفعل الأُسرة والمدرسة والمجتمع. وتحوَّلت إلى مسحوق عاديّ مُملّ، باستثناء طفل الضباب، إلَّا أنَّها لبثت مدركة أنَّها مختلفة، وهذا شيء غريب ينبغي لها

مكتبة الفكر الجديد

أن تبذل قصارى جهدها حتى تُخفيَه عن الأنظار. ندبة ستظلّ باقية الأثر إلى الأبد، ومحفورةً على جسدها. بذلت كلّ ما تستطيع كي تصبح اعتياديَّة حتى لم يبق لديها ما تملكه من طاقة لتصبح شيئًا آخر، تاركةً إيَّاها مفعمةً بمشاعر ضآلة قيمتها. وفي مرحلة تجهلها، لم تعد العزلةُ خيارَها، بل صارت لعنة عوضًا عن ذلك، وخواءً داخل صدرها، غائرًا في عمقه ودائم الحضور، حتى إنَّها تخيَّلت أنَّ في إمكانها مقارنةَ ذلك بغياب الربّ. نعم، لعلّ ذلك هو حالُها، فحملت غياب الربّ في أعماقها. لهذا، لا عجب من الإحساس بثقل وطأته.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

البيدق

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

قادت بيري درَّاجتها الهوائيَّة إلى الجهة الأخرى من ساحة راد كليف ومعها حقيبةُ كتف مملوءةٌ بالكتب وفي داخلها عنقودُ عنب ممَّا تبقى من وجبة الغداء. كانت قبل ساعة من الآن قد التقت منى وبرونو في مقهى من المقاهي جالسَيْن عند نهايتي إحدى الطاولات، قسماتهما متوتِّرة جرَّاء خصومة مشتركة، وكان آزور قد طلب إليهما الاشتراك معًا في فرض دراسيّ أخير، وأن يُمضيا ليلة في المكتبة والعمل معًا: تقاسما الطعام وتقاسما الأفكار. وها هو آزور يفعلها مجدَّدًا: مرغمًا برونو الذي لم يفعل شيئًا لإخفاء نفوره من المسلمين، على ترويض منى التي كانت حسَّاسة دومًا تجاه ديانتها. بيد أنَّ ما كان آزور لا يدركه على ما يبدو، هو أنَّ خطَّته في إشاعة الوئام بينهما لم تكن ناجحة بالرَّغم من نبل مقصدها. لهذا السبب، كان الطالب والطالبة في كدر وضيق شديدين.

في هذا الوقت، لم يعد لدى بيري أدنى شكَّ في أنَّ ندوات آزور الدراسيَّة لم تكن اعتباطيَّة، فكلّ شيء خطَّط له تخطيطًا دقيقًا، وكان كلّ طالب قطعة على لوح عقليّ في لعبة كان لا يلعبها إلَّا ضدَّ نفسه. وتورَّدت وجنتاها عندما فكَّرت مرتابة في أنَّها هي أيضًا لم تكن سوى بيدق، فكرهته لذلك السبب.

مكتبة الفكر الجديد

أمام «رادكليف كاميرا»، لمحت تروي جالسًا على مصطبة برفقة مجموعة من الأصدقاء يتحدَّث حديثًا مفعمًا بالحيويَّة والنشاط، ولمَّا شاهد بيري، انفصل عن الشلَّة وسار في اتِّجاهها، وقال لها:

ـ مرحبًا بك يا بيري، أما زلت تقرئين من أجل آزور؟

ـ وأنت... أما زلت تتجسَّس عليه؟

كان التواء شفته توكيدًا كافيًا، وأردف:

ـ لا يجب السماح لذلك الرجل بالتدريس في مؤسَّسة محترمة، أنت تعلمين بأنَّه لا يعير أدنى أهمِّيَّة لطلَّابه، وكلّ ما يفعله إنَّما لإرضاء نفسه.

ـ الطلبة معجبون به.

ـ نعم، بالتأكيد، وخصوصًا الإناث.... صديقتك شيرين مثلًا.

اهتزَّ رأسه هزَّة غريبة لدى لفظه اسمَها.

ضغطت بيري كعب حذائها على الحصباء، وسألت:

ـ ما بها؟

فحدَّق إليها قائلًا:

ـ بالله عليك، أَلَا تعرفين ما بها؟ هل يتعيَّن عليّ أن أُميط اللثام عن سرِّها؟

ـ تميط اللثام عن أيّ سرّ؟

تألَّقت عينا تروي وأضاف:

ـ ذلك الرجل آزور مُغرم بها ويُقيم معها علاقة.

شاع صمت مشوب بالتوتُّر بينهما، لكنَّه صمت لم يدم طويلًا، إذْ قالت بيري وهي تمطّ الكلمات مطًّا:

ـ لكنَّها طالبة من طالباته القديمات...

مكتبة الفكر الجديد

ـ كانت تضاجعه عندما كانت تدرس منهاجه، وأراهن على أنَّه صحَّح مقالاتها وهي معه في السرير.

أشاحت بيري بنظرها بعيدًا. ففي تلك اللحظة، رأت ما أخفقت في رؤيته طوال هذا الوقت: لقد ضاعفت الغيرةُ كلَّ ما كان يحمله تروي من كراهية لآزور. إنَّ هذا الفتى مغرم بشيرين.

ـ كانت شيرين تذهب إلى مكتبه، وكانا يوصدان الباب، ويمكثان بين عشرين دقيقة ونصفِ ساعة، بحسب اليوم. لقد حسبتُ الوقت وأنا أنتظر خارج مكتبه.

امتقع وجه بيري بالعواطف، وقالت:

ـ كفى!

ـ أعرف أنَّك زرته أيضًا، فقد رأيتك.

ـ كانت زيارتي لأجل مناقشة...

ثم أمسكت عن الكلام، لتضيف بعد ذلك:

ـ عملي.

ـ كذَّابة، ليس لديك عمل معه في هذا الفصل.

ـ بل كان لديَّ، كان لديَّ شيء مهمّ أريد أن أُخبره به.

لم تكن لديها وسيلة تمكِّنها من إخباره بأنَّها زارت آزور بضع مرَّات لتحدِّثه عن موضوع طفل الضباب، وقد سألها آزور مرارًا وتكرارًا أسئلةً مفصَّلة عن البداية، وعن اختلاف ردود فعل والديها. أخبرته بكلِّ شي: خوفِها من الجانّ، وزيارتِها طاردَ الأرواح، والكتاباتِ التي دوَّنتها في مفكِّرتها الخاصَّة بالربّ، فأصبحت ذكريات طفولتها جسرًا راودها الأملُ في نهاية المطاف في أن يساعدها على الوصول إلى قلبه، غير أنَّ آزور هدم الجسر عندما اكتفى بما حدث، ولم يعد يدعوها إلى زيارته في مكتبه.

مكتبة الفكر الجديد

قال تروي:

ـ أَلَا ترين أنَّ هذا الرجل ليس سوى حيوان مفترس مهووس بنفسه؟ إنَّه يبحث عن عقول شابَّة وأجساد شابَّة يتغذَّى عليها.

قالت بيري بصوت يكاد يكون همسًا:

ـ إنَّني مضطرة إلى الانصراف.

* * *

غلب بيري داءُ الشقيقة الفظيعُ، فتوقَّفت أمام صيدليَّة في طريق عودتها إلى البيت، وكانت منذ وصولها إلى مدينة أوكسفورد قد جرَّبت كلّ أنواع المسكِّنات، فسارتِ الآن في الممرَّات المألوفة لديها وتريَّثت قرب الرفوف المحتشدة بأنواع من حبوب منع الحمل لم يسبق لها أن شاهدت مثلها في إسطنبول. علبٌ برَّاقة، وألوانٌ مغرية، وتصاميمُ غريبة، وكلماتٌ مثيرة. خطر في بالها أنَّه لو استعمل والدها ووالدتها أحد هذه المنتوجات لما وُلدت هي، ولما وُلد «هو» أيضًا، ولكان ذلك عدمًا لذيذًا لا وجود له. لا معاناة ولا إثم ولا شيء.

استغرقت سنواتٍ طويلةً حتى تكتشف حقيقة أخفاها والداها عنها بعناية وهي تنمو وتكبر. صحيح أنَّ سلمى حملت حملًا مفاجئًا في وقت متأخِّر من عمرها، إلَّا أنَّها رُزقت بطفلين اثنين وليس بطفلة واحدة، بنت وولد، بيري وبويراز، وكان اسم البنت يعني «خذروفًا» أشقر بخيط ذهبيّ، في حين كان اسم الولد يعني «ريحًا شماليَّة عاتية».

ولمَّا بلغا سنَّ الرابعة، تركت سلمى الصغيرين على أريكة وحدهما في المطبخ برهة وجيزة في عصر يوم حارّ يجلب النعاس. كانت منهمكة في إعداد المربَّى من ثمر الإجاص المفضَّل لديها. وكانوا قد اشتروا

مكتبة الفكر الجديد

كمِّيَّة كبيرة من هذه الفاكهة من سوق قريبة، ولا يزال قسم منها في وعاء على طاولة صغيرة، في حين كانت البقيَّة تنتظر الغلي والتحلية والتعليب على نَضَد المطبخ. كان العالم قد اكتسب لونًا أرجوانيًّا.

وسرعان ما شعرت بيري بالملل، فزحفت من فوق الأريكة وهبطت على السجَّادة، ووصلت إلى الإجاص في الوعاء وأمسكت بثمرة واحدة وأنعمتِ النظر فيها عن حبِّ استكشاف، وقضمت قطعة صغيرة، لتجدها ذات مذاق حامض. فما كان منها إلَّا أن غيَّرت رأيها وناولتها لأخيها، الذي تقبَّل الهديَّة بفرح وسرور. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودة لا أكثر، إذْ ما إن عادت سلمى من المطبخ حتى وجدت طفلها الصغير لا يقدر على التنفُّس وبات لون وجهه بلون الثمرة التي اختنق بها. لقد شاهدت بيري كلّ ذلك بأمِّ عينيها، إلَّا أنَّها لم تقدر على الفهم ولا على الحركة.

وصرختْ بها أمُّها أمام الأقرباء والجيران الذين تجمهروا في البيت بعد الجنازة:

ـ لماذا لم تنادي عليّ؟ ماذا جرى لك؟ لقد شاهدتِ شقيقك يموت ولم تحرِّكي ساكنًا أيَّتها الطفلة الشرِّيرة!

لم تُرْدَم الهوَّةُ بينهما قطّ، وكانت بيري تعلم في أعماقها بأنَّ والدتها ستظلّ تؤنِّبها على وفاة شقيقها التوأم: هل يصعب على طفلة في سنِّ الرابعة أن تصرخ طالبة النجدة؟ لو نادَتْني لتمكَّنتُ من إنقاذه.

صمتٌ. هذا ما اعتادت عليه بيري طوال الوقت. ليتها تمكَّنت من قتل مشاعرها ونسيان كلّ شيء، لكن مهما بذلت من جهد جهيد، فإنَّ الماضي يبقى يمرّ من أمامها، حاملًا الألمَ والعذاب معه. فقد رافقتها ذكرى عصر ذلك اليوم مع شبح أخيها التوأم، مثلما رافقها، على وجه

مكتبة الفكر الجديد

الخصوص، إحساسُ الإثم والعار وكره الذات، الذي غار في أعماق صدرها كأنَّه ليس شعورًا، بل شيء ماذّي ثقيل الوطأة.

* * *

وجدت بيري في ذلك المساء شيرين وحيدة في المطبخ تقطِّع الطماطم لإعداد السلطة. كانت شيرين تراقب وزنها الذي كان يتذبذب تذبذُبَ مزاجها، أمَّا منى، فقد خرجت لتناول الطعام برفقة أقرباء لها جاءوا لزيارتها من خارج المدينة، وستعود في وقت متأخِّر.

قالت بيري:

ـ أريد أن أطرح عليك سؤالًا.

ـ هيَّا، اسأليني.

ـ هل كانت هذه خطَّةَ آزور؟ أعني أن نعيش معًا في البيت نفسه؟ وهل كانت صداقتُنا فكرةً منذ البداية.

قالت شيرين في دهشة:

ـ ما الذي يدفعك إلى مثل هذا التفكير؟

أجابت بيري:

ـ أرجوك لا تكذبي... بعد الآن. هذه تجربة من تجاربه، صحيح؟ مختبرُ آزور الاجتماعيّ.

ـ عظيم! يا لها من مؤامرة.

ثم وضعت شيرين الطماطم في جاط فيه خَسّ وأضافت إليه قليلًا من الزيتون، وأردفت:

ـ ما مشكلتك مع الأستاذ؟

ـ يبدو أنَّه يستمتع بالتدخُّل في شؤون طلبته.

مكتبة الفكر الجديد

قالت شيرين:

ـ هه! وهل يمكنه التدريس على غير هذه الصورة؟ كيف تظنّين أنَّ الأساتذة درَّبوا طلَّابهم على مدى التاريخ؟ أساتذة وطلبة، فلاسفة ومريدون، سنوات من العمل الشاقّ والنظام، لكنَّنا نسينا كلّ ذلك، فالجامعات اليوم معتمدة على المال، والطلَّابُ الذين يستطيعون دفع المال يُعامَلون بصفتهم موردًا ماليًّا.

ـ إنَّه ليس أستاذنا، ونحن لسنا طلَّابه.

فقالت شيرين وهي تمسك ملعقة وتبدأ بخلط السلطة:

ـ حسنًا، أنا طالبته، بل أُعدّ نفسي تلميذة مخلصة له.

لزمت بيري الصمتَ غير واثقة كيف تردّ.

ـ إنَّ احترامنا لآزور هو الشيء الوحيد الذي يجمعنا أنا ومنى، ماذا جرى لك؟ ظننتُك معجبةً به.

شعرت بيري بتورُّد خدَّيها، وكرهت نفسها بسبب شفافيَّتها، وقالت:

ـ أعتقد أنَّه يتوقَّع الشيء الكثير منَّا، ونحن لن نتمكَّن من تلبية متطلّباته.

قالت شيرين مبتسمةً ابتسامةً معهودة وهي تحمل الجاط وتتَّجه نحو غرفتها:

ـ آه، إذن أنت خائفة من إحباطه، وعندئذ لا تلبِّي طلباته!

قالت بيري:

ـ انتظري.

شعرت بجفاف حلقها، فقد خشيتِ العواقبَ الوخيمة إذا ما طرحت

مكتبة الفكر الجديد

السؤال الذي كان يقضّ مضجعها، بيد أنَّها كانت مضطرَّة إلى طرحه:

ـ هل أنت مغرمة به، وتعاشرينه؟

توقَّفت شيرين وهي في منتصف طريقها على السلالم، فوضعت إحدى يديها على الحاجز وحدَّقت من مكانها إلى صديقتها متَّقدةَ العينين:

ـ إذا كنت توجِّهين هذا السؤال لأنَّك مهووسة، فتلك هي مشكلتك وليست مشكلتي. أمَّا إذا كنت تسألين لأنَّك غيورة، فتلك مشكلتك أيضًا وليست مشكلتي.

قالت بيري عاجزةً عن خفض صوتها:

ـ لست مهووسة ولا غيورة.

ضحكت شيرين وقالت:

ـ حقًّا؟ ثمَّة مَثَل سائد في إيران علَّمتني إيَّاه أمِّي يقول: مَنْ تجعل من نفسها فأرًا فسوف تأكلها القطط.

ـ ما معنى كلامك؟

ـ معناه: ابتعدي عن شؤوني يا ماوس، وإلَّا فسوف ألتهمك وأنت حيَّة.

ثم ارتقت السلالم إلى غرفتها، تاركةً بيري في المطبخ يغمرها الإحساسُ بالضآلة والتفاهة.

كم احتقرت آزور، غطرستَه، طيشَه، لامبالاتَه بها في حين كان يغازل شيرين، والربُّ وحده يعلم كم واحدة أخرى غيرها. شعرت بدوران في أعماق روحها، يدور ويدور على نحو لا سبيل إلى السيطرة عليه. كانت قد علّقت آمالًا عظيمة عليه، هو الذي، بما يملكه من معرفة وأفكار، سوف يرشدها إلى طريق الخروج من ورطتها التي عذَّبتها منذ

مكتبة الفكر الجديد

نعومة أظفارها، لكنَّه لم يفعل شيئًا.

غير أنَّها احتقرت نفسَها أكثر، وعقلَها المعذَّب الذي لم يُنتج سوى أنواع القلق والكوابيس، وجسدَها المفتقر إلى الجاذبيَّة والذي تجرُّه من حولها كأنَّه عبء ثقيل في كلّ يوم، غير قادرة على الاستمتاع بمباهجه، ووجهَها المبتذَل الذي لطالما تمنَّت أن تستبدله بوجه آخر، بوجه شقيقها التوأم مثلًا. لماذا وافته المنيَّةُ وبقيت هي في قيد الحياة؟ أكانت تلك غلطةً فظيعة أخرى اقترفها الربُّ؟

كانت متأكِّدة من أنَّها لا تستطيع أن تكون مثل شيرين ـ جريئةً وواثقة ـ، ولا مثل منى ـ مخلصةً ومرنة ـ. كانت مرهقة بسبب نفسها، ومستاءةً من الماضي، وخائفةً من المستقبل. كانت مكتئبةَ الروح، مشوَّشةً بطبعها، وَجِلَةً مثلَ نمر مولود حديثًا لكنَّه غير قادر على الاحتفاء بالوحشيَّة التي في داخله. لا أحد يعرف كم تعبت حتى أصبحت بيري. ليتها تمكَّنت من النوم والاستيقاظ لتجد نفسها فتاة أخرى، أو الأفضل ألَّا تستيقظ أبدًا.

جاءها طفلُ الضباب مجدَّدًا، في تلك الليلة، وبدتِ البقعةُ الأرجوانيَّة على وجهه وقد كبرت في حجمها، وتناثرت دموعه الأرجوانيَّةُ على ملاءاتها، وانتشر لون غامق على كلّ ما يحيط بها، يذكِّرها بالإجاص الناضج. لبث الطفل يتحدَّث بلغته المُحرَّفة، يحضّها على أن تفعل شيئًا طال أمده. وفهمت في هذه المرَّة ما الذي كان يطلب منها أن تفعله، فوافقت. ربَّما يتعيَّن عليها أن تلتقي القنفذ النكد الحظّ مجدَّدًا، ماذا حدث للحيوان؟ وبدنه، وروحه؟ هذا ما ستعرفه قبل كلّ شيء. ماذا حدث لأولئك الذين رُفض دخولهم إلى جنَّة الربّ؟

* * *

مكتبة الفكر الجديد

الممرّ

إسطنبول ـ ٢٠١٦

حين خرجت بيري إلى الشرفة للاتِّصال هاتفيًّا بشيرين، لاحظت شخصين واقفين عند ناصية الشارع تُحيط بهما الظلال إلى حدٍّ ما، لكن كان يستحيل عدم الاستدلال عليهما، وهما رجل الأعمال والمدير التنفيذيّ. كانا محنيَّين إلى أسفل، يحدِّقان إلى الأرض كأنَّهما يناقشان قضيَّة على درجة بالغة من الخطورة.

قال المدير التنفيذيّ متسائلًا:

ـ ماذا ستفعل إذن؟

ردَّ رجل الأعمال وهو ينفث خيطًا من دخان سيجاره:

ـ لم أقرِّر بعد، لكنَّني سأجعل هؤلاء السفلة يدفعون الثمن، وسوف يكتشفون مع من يعبثون ويضيِّعون وقتهم سدًى.

قال المدير التنفيذيّ:

ـ تأكَّدْ من عدم وجود أيّ شيء مدوَّن.

لم يشاهد الرجلان بيري واقفة إلى جانب الباب، فما كان منها إلَّا أن انسلَّت خفية، مُصابةً بدوار بعد أن تناهى إلى أذنيها كلامُهما. كانت الصور المؤطَّرة التي سبق لها أن رأتها في المكتب، والتي تبيِّن ارتباطاته بقادة فاسدين ودكتاتوريِّين من العالم الثالث، والشائعاتُ عن اختلاسات

مكتبة الفكر الجديد

المال العام، والعلاقاتُ بزعماء المافيا، كانت كلُّها تنسجم مع شخصيَّته وتتجانس مع طبيعته. فالأعمال التي يُديرها مضيفهم مشبوهة. راودها الشكّ أيضًا في أنَّ عددًا من الضيوف إلى المأدبة ـ وربَّما كان زوجها أيضًا واحدًا منهم ـ على علم بها، إلَّا أنَّهم لن يدعوا سمعة يُشتبه في نزاهتها تقف حائلًا أمام أمسية رائعة مع رجل ثري يتمتَّع بنفوذ قويّ. عند أيّ حدّ يصبح المرء متواطئًا في جريمة: عندما يؤدِّي دورًا نشيطًا في تنفيذها، أم عندما يتظاهر بتجاهلها تجاهلًا ينمّ عن السلبيَّة؟

ثمَّة ممرٌّ صغير بين المطبخ وحجرة الجلوس، وفيه مرآة تمتدّ على طول أحد الجدران، فوقفت بيري هنا في هذا المكان الضيِّق ممسكةً بالهاتف كأنَّها تخشى أن يخطفه أحد ما من بين يديها، وكانت كلَّما تمرّ بها إحدى الخادمات داخلةً من الباب الدوَّار أو خارجةً منه، تسترق نظرة إلى المطبخ فتشاهد الشيف يقطِّع الثوم والسكِّينُ في يده تنقر نقرات موسيقيَّة على لوح خشبيّ. بدا الرجل مرهقًا، منزعجًا، فبعد كلّ الطعام الذي أعدّه، طلبوا منه إعدادَ حساء من كرش حيوان، لمعالجة آثار مرحلة ما بعد تناول المشروبات على الطريقة الإسطنبوليَّة التقليديَّة.

شاهدت بيري الشيف يغمغم بصوت خفيت لمساعده الذي سرعان ما مال برأسه إلى الوراء وانفجر ضاحكًا. كانت متأكِّدة من أنَّهما كانا يسترقان السمع إلى كلِّ ما كان يدور من حديث، ويضحكان ملءَ شدقيهما بسبب تصرُّفات كلّ الحاضرين. أُغلق الباب فانفصلت بذلك عن العالم المفعم بالنشاط في المطبخ، ولمَّا وجدت نفسها وحيدةً في الممرّ، اقشعرَّ بدنُها، وهو شعور لطالما كان مألوفًا لديها. فالجرأة على إتيان عمل ما سبق أن أجَّلتَ تنفيذه منذ زمن طويل كانت أشبه بالغوص في أعماق بحر بارد برودةَ الثلج، وإذا ما تردَّدتَ ثانية واحدة، فإنَّك

مكتبة الفكر الجديد

ستفقد أعصابك. وهكذا أسرعت في الاتِّصال بشيرين التي ردَّت على الهاتف عند أوَّل رنَّة.

ـ مرحبًا بك يا شيرين، هذه أنا بيري.

قالت شيرين وهي تتنفَّس في حدَّة:

ـ أعرف.

لم يكن صوتها قد تغيَّر ولو بمقدار ذرَّة، فالنبرة هي النبرة نفسها الخشنةُ، المطمئنَّةُ، الجهوريَّةُ.

قالت بيري:

ـ لقد مرّ وقت طويل.

أجابت شيرين:

ـ آه، نعم، إنَّني لم أصدِّق عندما تلقَّيت رسالتك، يا له من أمر مضحك. لقد درَّبت نفسي على الكلام وخطَّطت ما سأتفوَّه به إذا ما اتَّصلتِ مجدَّدًا، لكنَّني الآن...

سألت بيري وهي تنقل هاتفها من أذن إلى أخرى:

ـ ماذا كنتِ تريدين أن تقولي؟

أجابت شيرين:

ـ صدِّقيني، أنت لا تريدين أن تعرفي. لماذا لم تتَّصلي بي من قبل؟

ـ كنت أخشى أن تكوني ما زلت غاضبة.

قالت شيرين:

ـ كنت، ما زلت، لا أفهم، لا أفهمك، إنَّ ما فعلته بنفسك وبه يُثير الجنون، فأنت حتى لم تعتذري إليه.

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري:

ـ لقد عقدنا اتّفاقًا.

كانت كلماتها تبدو مهشَّمة، محطَّمة، شأنُها شأن كلّ بوصة منها، وأضافت:

ـ طلب منّي أن أعده بألّا أعتذر إليه بغض النظر عن كلّ شيء.

ـ كلام فارغ.

ازدردت بيري تنهيدة، وقالت:

ـ كنت شابَّة يافعة.

ـ بل كنت غيورة.

أومأت بيري برأسها وقالت:

ـ نعم... كنت غيورة.

فُتح باب المطبخ، فخرجت إحدى الخادمات حاملةً صينيَّةً مملوءة بأوانٍ يتصاعد منها البخار، وتنبعث منها رائحة قويَّة، مزيجٌ من الثوم والخلّ سرعان ما خدشت منخرَيْ بيري.

سألت شيرين:

ـ أين أنت؟

ـ في حفلة داخل منزل على ساحل البحر. أحواضُ أسماك وحقائبُ يد تحمل اسمَ مصمِّمها وشعارَه، وسيجار وفير وكمأة... من شأنك أن تكرهي ذلك كلَّه.

فضحكت شيرين، وأردفت بيري:

ـ كان يومًا غريبًا.

وبعد أن بدأت بيري بالكلام، انهمرت الكلمات وتدفَّقت من غير جهد:

مكتبة الفكر الجديد

ـ تصرَّفتُ تصرُّفًا ساذجًا، وكدت أقتل الوغد.

غير أنَّها لم تذكر أنَّه حاول اغتصابها، فلو مرّت شيرين في تجربة مماثلة لتحدَّثت عنها من غير حياء. كم كانتا مختلفتين، وكم هما مختلفتان حتى الآن.

ـ فقد عثر على صورة لنا أحتفظ بها في محفظتي.

فسألتها شيرين:

ـ أتحملين صورتنا معك؟ أيّ صورة؟

ـ هل تتذكَّرين الصورة أمام مبنى بود في وقت الشتاء؟

لم تنتظر بيري حتى تُبدي شيرين ملاحظة، بل استرسلت:

ـ أنا وأنت ومنى. . . والأستاذ آزور، بعد كلّ تلك السنين، أقنعت نفسي بأنَّني تركت أوكسفورد من ورائي، لكنَّني أجعل من نفسي أضحوكة.

ـ لم أفهم قطّ كيف فقدت الاهتمام بالجامعة، فقد كنت طالبة من الطراز الأوَّل.

فقالت بيري:

ـ إنَّ الإنسان يتغيَّر، وأنا الآن أُمّ، وزوجة. . .

ثم أمسكت عن الكلام قبل أن تضيف:

ـ ربَّةُ بيت ووصيَّة في مؤسَّسة خيريَّة! وأُقيم الحفلات لأجل رئيس زوجي، وهذا هو نمط المرأة الذي كنت أخشاه دومًا: نسخة عصريَّة عن والدتي. أتدرين ماذا في الأمر؟ إنَّني معجبة به طوال الوقت.

فسألت شيرين:

ـ وهل تتعاطين الشراب؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ أكثر ممَّا ينبغي لي.

صدرت ضحكة هادئة تشبه حفيف أوراق الشجر. لو أنَّ شيرين قالت شيئًا آخر لما أدركته، لأنَّ الوسيط الروحانيّ مرّ من أمامها في تلك اللحظة متأبِّطًا ذراع المضيفة بعد أن فتَّش مختلف أرجاء المنزل بحثًا عن عين الحسود، ثم التفت جانبًا واسترق نظرة خاطفة إلى بيري، وارتجفت شفتاه كأنَّه يعرف مع من كانت تتكلَّم.

سألت شيرين:

ـ وكيف هما توأماك؟

ـ كيف تعرفين أنَّ لديَّ توأمين؟

ـ ترامى ذلك إلى سمعي.

لم يكن صعبًا على بيري معرفة مصدر الخبر، فقد كانت الاثنتان تتَّصلان على انفراد بمنى طوال تلك الأعوام.

ـ إنَّهما يكبران، لقد شنَّت ابنتي حربًا باردة عليّ، وهي المنتصرةُ فيها حتى الآن.

أطلقت شيرين تنهيدة تنمّ عن تعاطفها. كانت لطيفة، لطيفة أكثر ممَّا توقَّعت بيري.

سألت بيري:

ـ وكيف هي الأحوال الشخصيَّة؟

كانت بيري قد انساب إلى سمعها أيضًا بعضُ الأشياء، فقد علمت بأنَّ شيرين وصديقها القديم ـ الذي يشتغل محاميًا في مجال حقوق الإنسان ـ انفصلا ثم عادا أحدهما إلى الآخر مرَّات ومرَّات.

ـ على ما يرام... الحقّ أنّني حامل، وسأُرزق بالمولود في شهر أيَّار.

مكتبة الفكر الجديد

هكذا إذن، الهورمونات، فهذه شيرين ستصبح أُمًّا عمًّا قريب، وهي في مرحلة يكون فيها الغفران أسرعَ، فمن الصعب على المرء التمسُّكُ بالكراهية في حين يُعدّ العدَّة لاستقبال حياة جديدة والترحيب بها.

قالت بيري:

ـ أهنِّئك، هذا خبر مدهش، وأنا سعيدة لأجلك. ذَكَر أَمْ أُنْثى؟

ـ ذَكَر.

فسألتها بيري وهي تتوقَّع الجواب:

ـ هل يخطر في بالك أيُّ اسم؟

قالت شيرين:

ـ أعتقد أنَّك تُدركين ماذا سوف أُسمِّيه.

ساد صمت قصير، فزحف أثر من آثار العداء إلى ذلك الصمت مثل بخار ماء ينبعث من سماور قديم.

ـ لقد كرهتك زمنًا طويلًا، حتى لم تعد في نفسي أيُّ كراهية.

ـ وماذا بشأن آزور؟ ما شعوره تجاهي؟

كانت قد انقضت أربعة عشر عامًا منذ أن كلَّمته آخر مرَّة، وكانت بيري أحيانًا غير متأكِّدة إن كان الأستاذ في حياتها بالقوَّة التي تذكَّرته فيها. فقد تلاشى تمامًا من ذاكرتها وبات في طيِّ النسيان.

ـ عليك أن تعرفي ذلك بنفسك، فهو في المنزل حتمًا الآن. هل لديك قلم؟

فوجئت بيري بذلك، فنظرت حولها، وقالت:

ـ ثانية واحدة.

مكتبة الفكر الجديد

فتحت باب المطبخ والهاتف على أذنها. أشَّرت إلى الشيف أن يُعطيها ورقة وقلمًا، فما كان منه إلَّا أن ناولها قلم حبر من جيب الصدريَّة وورقة من دفتر مثبت على الثلَّاجة.

قالت له بيري:

ـ شكرًا لك.

كرَّرت ذِكْر الرقم ليس لأنَّها كانت مضطرَّة إلى ذلك، وإنَّما لأنَّ ذلك يجعلها تتكلَّم في أمر ما وأضافت:

ـ أتَّصل به.

في تلك اللحظة، تردَّد صدى جرس الطبقة الأرضيَّة في أرجاء المنزل البحريّ، فاندفعت إحدى الخادمات خارج المطبخ لتعرف من الطارق. كانت تبدو وقد أخفت مقدارًا من الطعام في يدها، وفكَّرت بيري إن كان العاملون في المنزل قد تذوَّقوا أيّ شيء من الأطباق الشهيَّة التي قدَّموها إلى الضيوف، أو حتى إن كانوا قد تناولوا أيّ طعام.

وفجأة، صكَّت الأسماعَ ضربةٌ قويَّة من جرَّاء اصطدام الباب بالحائط، أعقبها أصواتُ ضوضاء وصراخٌ مكتوم ووقعُ خطوات مسرعة وثقيلة.

سمعت بيري نفسها تقول:

ـ اشتقت إليك.

ـ وأنا أيضًا يا ماوس.

ثم شاهدت بيري من الممرّ وعلى الجانب الآخر من حجرة الجلوس رجلين يقتحمان المكان، ووجهاهما مغطَّيان بقناعين أسودين ويحملان بندقيَّتين، وصاح أحدهما بأعلى صوته:

ـ قفوا كلّكم.

صاحت سيِّدة الأعمال:

ـ ماذا يجري؟

ـ اخرسي! افعلي ما نأمرك به، الآن!

ـ لا يمكنك أن تكلِّمني بهذه اللهجة.

كان ذلك الصوت صادرًا عن سيِّدة الأعمال وهي تبحث عن زوجها من حولها، وكان لا يزال في الشرفة.

ـ كلمة واحدة أخرى وتندمين عليها.

تردَّد في الأرجاء صوتُ الزناد المعدنيّ. هذه هي المرَّة الثانية التي ترى فيها بيري سلاحًا من على هذه المسافة القريبة، وعلى العكس من السلاح الذي ضُبِطَ عند أخيها أوميد، كان سلاح المهاجمين كبيرًا يميل لونه إلى الأخضر الغامق.

سألت شيرين:

ـ أأنت على الخطّ يا ماوس؟

لم تتمكَّن بيري من الردّ، ولا بأيٍّ كلمة، فقد أنهت المكالمة الهاتفيَّة ببطء وهدوء كالضباب الزاحف إلى البيت من البوسفور.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

كأس من شراب الشري

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

كان مسكن رئيس الجامعة يحتلّ جانب المبنى الأماميّ الذي يعود إلى القرن الخامس عشر. خطا آزور خطوات واسعة إلى الأعلى في اتّجاه الباب الأسود اللامع وقرع الجرس، وبعد مرور بضع ثوانٍ، ظهر حارس قادم وقاده إلى ردهة المدخل الرحيبة.

قال الرجل وهو يُرشد آزور إلى السلالم الإليزابيثيَّة الطراز ثم إلى ممرٍّ طويل يؤدِّي إلى مكتب الرئيس:

ـ تفضَّل من هنا يا حضرة الأستاذ.

كان الرئيس داخل مكتبه ينظِّم أوراقه ـ وضعَ الأوراقَ ذاتَ الأهمِّيَّة القصوى في الصينيَّة العاجيَّة، والمهمَّةَ، لكنَّها غير مستعجلة، في الصينيَّة البنِّيَّة، وبقيَّةَ الأوراق في الصينيَّة الصفراء ـ وهو ما كان يفعله دومًا إذا كان لديه موعد يفضِّل ألَّا ينجزه. كان يتوقَّع أن يواجه نقاشًا صعبًا وأنَّه مضطرّ إلى ترتيب أفكاره، وفي الوقت نفسه، تحوَّل إلى ترتيب مكتبه، بما عليه من أوراقِ ملاحظات لاصقة ودبَّاسةٍ للأوراقِ وأداةِ فتح مظاريف ذات مقبض فضِّي. . . ثم وضع أقلام الرصاص ـ المبريَّةَ بريًا جيِّدًا ـ في علبة جلديَّة أسطوانيَّة الشكل، كانت هديَّة قدَّمتها إليه ابنته.

أيقظه من أحلام يقظته صوتُ طرق حادٍّ على الباب، فقال:

ـ تفضَّل.

دخل آزور وكان مرتديًا سترةً مخمليَّة، زاهيةً بلونها البنفسجي، وتحتها كنزةٌ ذاتُ لون بنفسجيّ فاتح. أمَّا شعره، فكان أشعث كدأبه.

ـ صباح الخير يا ليو، لم أرك منذ زمن.

قال الرئيس بصوت مؤدَّب وودِّي، لكنَّه صارم ومتوتِّر:

ـ يسرُّني أن أراك يا آزور، فقد مرّ زمن حقًّا، كنت أفكِّر في تناول الشاي. أترغب في شربه؟ أو كم الساعة الآن؟... ربَّما تفضِّل كأسًا من شراب الشري.

لم يكن من مألوف عادة آزور تناول شراب الشري وقت الضحى برفقة أساتذة الكلِّيَّة، بيد أنَّه فكَّر في هذا الوقت في أنَّه ربَّما كان هو أو الرئيسُ في حاجة إلى شراب، فقال:

ـ الشري، ولِمَ لا؟

ظهر للعيان بعد بضع ثوان حارسٌ آخرُ أكبرُ سنًّا من الأوَّل، قسماتُ وجهه تدلّ على تحفُّظ جامد، وظهرُه محدودبٌ من جرَّاء سنوات الخدمة. وكما هو شأنُ اللوحات المعلَّقة على الجدران، والكراسيِّ المصنوعة من خشب البلُّوط على الطراز القوطي، فإنَّ المرء نادرًا ما يتصوَّر زمنًا لم يكن فيه هذا الحارس جزءًا من الكلِّيَّة.

راقب الرجلان الحارسَ برهة من الزمان وقد وضع إحدى ذراعيه وراء ظهره، وراح يصبّ بيد مرتعشة شرابَ الشري ببطءٍ موجع. دورق فضِّي وأقداح بلُّوريَّة ولوز مملَّح.

قال الرئيس بعد أن أصبحا وحدهما مجدَّدًا:

ـ قرأت مقابلتك الأخيرة في صحيفة «التايمز». مادَّة جيِّدة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ شكرًا يا ليو.

ثم شاع صمت مربك.

قال الرئيس:

ـ أنت تعرف كم أنا معجب بك، ونحن محظوظون بأن تكون بيننا زميلًا، كما أنَّني كنت معجبًا جدًّا بأنيسة.

قال آزور:

ـ شكرًا، لكنَّك لم تدعني إلى الحديث عن زوجتي الراحلة، فأنا أعرفك منذ زمن بعيد يكفي لأعرف متى تكون منزعجًا. ماذا هنالك؟ أخبرني.

أخرج الرئيس دفتر ملاحظاته بأوراقه اللاصقة التي كانت يومًا ما منسّقةَ الألوان، البرتقاليّ والأخضر والورديّ.

ثم تمتم من دون أن يرفع بصره إلى آزور:

ـ ثمَّة شكاوٍ موجَّهةٌ إليك.

نظر آزور إلى الرئيس بإمعان، بشعره الذي بدأ يكتسب لونًا رماديًّا، وجبينِه الذي عَلَتْه الغضون، والارتعاشةِ العصبيَّة على فمه، وكلٍّ بوصة من الموظَّف السابق في وزارة الخزانة، وأضاف:

ـ أنت غير مضطرّ إلى تصنُّع الألفاظ معي.

ـ لا، غير مضطرّ حقًّا، ولا أحلم بذلك. لقد كنتَ تتعرَّض للهجوم في كلّ مرَّة، وكانت هناك بعضُ الهجمات مؤخَّرًا... إمَّا بسبب آرائك وإمَّا نتيجة أسلوبك في التدريس... أعني، أنت محبوب ولديك شعبيَّةٌ، لكن ليس في أوساط كلّ الطلبة. لا ريب في أنَّك تعرف ذلك... وقد وقفت إلى جانبك طوال الوقت.

مكتبة الفكر الجديد

قال آزور بهدوء:

ـ أعرف.

شيَّد الرئيس برجًا صغيرًا مستخدمًا الأوراقَ اللاصقة، وأضاف:

ـ لقد وقفت إلى جانبك لأنَّني كنت أؤمن بنزاهتك الفكريَّة، واحترمت التزامك بالمعرفة والموضوعيَّة.

ثم تنهَّد وقال:

ـ أرجوك، ما الذي جعلك تُزعج الكثيرين؟

طلَّابٌ لم يتخرَّجوا بعدُ يذرفون الدموع؛ اتَّهاماتٌ شفهيَّة وتحريريَّة ضدَّ آزور وأساليبه التدريسيَّة؛ اتِّهامات بالضغط على طلَّابه أكثر ممَّا يجب، كاشفًا عن نقاط ضعفهم، وإذلالِهم أمام أصدقائهم، وأنَّه كان يتصرَّف تصرُّفاتٍ مثيرةً للجدل، ولافتةً للأنظار، ومهينةً. وقال الرئيس بصوت مرتفع:

ـ مهينة.

قال آزور:

ـ إنَّهم في حاجة إلى التعلُّم، لا إلى الإحساس بالإهانة. نحن لسنا في دار حضانة وإنَّما في جامعة. آن الأوان كي ينضجوا، إذْ لا يمكن أن ندلِّلهم ونعاملَهم معاملةً رقيقة إلى ما لانهاية. لا بدَّ لطلبتنا من أن يتعلَّموا كيف يتعاملون مع الأشياء. ثمَّة شيء يحدث.

ـ نعم، لكن هذا ليس من ضمن منهاجك التدريسيّ.

ـ بل هو كذلك، كما أعتقد.

ـ وظيفتك هي أن تدرِّسهم الفلسفة.

ـ تمامًا!

مكتبة الفكر الجديد

ـ الفلسفة كما هي واردة في الكتب المنهجيَّة.

ـ بل الفلسفة كما هي في الحياة.

تنهيدةٌ أخرى.

ـ لا يمكنهم المضيُّ قُدُمًا يساورهم الإحساسُ بالإهانة، وبالضغط إلى أبعد الحدود. كثيرون من الطلبة يشكون من ذلك.

ثم هدم الرئيس البرجَ الذي شيَّده من الورق اللاصق، وأضاف:

ـ لكن ثمَّة شيئًا آخرَ... بالغَ الأهمِّيَّة.

ـ ما هو؟

ـ إحدى الطالبات.

لبثت الكلمتان معلَّقتين في الهواء، ترفضان الذوبان، فقال الرئيس مضيفًا:

ـ يُقال إنَّ لك علاقاتٍ ببعض الطلبة.

ـ هذا ليس شأن أحد. صحيح؟ ما دمت لا أستغلّ أحدًا في ذلك، ولا يستغلُّني أحد.

هزّ الرئيس رأسه، وقال:

ـ إنَّ أخلاقيَّة هذا الموقف قابلة للنقاش.

ـ هل يخصّ الأمر شيرين؟ إنَّها ليست طالبة من طالباتي. وعليك أن تعرف هذا، بل لم تعد طالبتي.

ـ لا... هذا ليس اسمها.

قطَّب آزور جبينه، وقال:

ـ عمّن تتكلَّم؟

ـ طالبة تركيَّة، وهي في صفِّك.

مكتبة الفكر الجديد

ثم رفع الرئيس عينيه المرهقتين وأردف:

ـ لقد حاولتِ الانتحار ليلة أمس.

امتقع وجه آزور، وقال متعجِّبًا:

ـ بيري؟ يا الله، أهي على ما يرام؟

قال الرئيس مجيبًا:

ـ نعم، على ما يرام... جرعة باراسيتيمول مضاعفة... كبدها قويَّة، فتحمَّلتِ الجرعة.

تهالك آزور في مقعده، وشحب وجهه وفقد كلَّ حيويَّته.

وقال الرئيس مضيفًا:

ـ الحقيقة أنَّك على علاقة بها، وأنَّك هجرتها.

تنفَّس آزور بعمق كأنَّه تلقَّى ضربة، وقال:

ـ أهي التي قالت هذا الكلام؟

ـ حسنًا، ليس على هذا النحو، إنَّ الفتاة ليست في وضع يساعدها على الكلام الآن، لكنَّ الفتى تروي قرَّر مقاضاتك، وهدَّد بالحديث إلى الصحافة. الواضح أنَّه مستاء جدًّا، ولديَّ إفادته مدوَّنة عندي.

ـ أيمكنني رؤيتها؟

ـ لا أظنّ ذلك، ولا بدَّ من إرسالها إلى اللجنة الأخلاقيَّة.

ـ أؤكِّد لك أنَّ أيّ شيء لم يحدث بيني وبين بيري، وكلّ ما تحتاج إليه هو أن تسألها، وأنا واثق بأنَّها سوف تخبرك بالحقيقة.

ـ استمع إليَّ. أنت أستاذ جيِّد جدًّا، لكن أوَّلًا وقبل كلّ شيء، أنت زميل في هذه الكلِّيَّة، ونحن لا يمكننا أن نُخضع اسم الكلِّيَّة الرفيعَ لتسوية، لا ريب في أنَّك على علم بأنَّك قد خلقت أعداء بمرور الأعوام.

مكتبة الفكر الجديد

وهنا، رشف الرئيس رشفة من شراب الشري، وأردف:

ـ يمكنك أن تتخيَّل وسائلَ الإعلام التي سوف تتغذَّى على هذه القصَّة، إنَّها مفترسة.

ـ ماذا تقترح؟

ـ حسنًا. . . . ربَّما تفكِّر في الانقطاع عن الدوام مدَّة من الزمان. توقَّف عن التدريس برهة وجيزة، واتركْ هذه القضيَّة تهدأُ وتنتهِ، وتفرغ اللجنة من تحقيقها، وسيكون كلّ شيء بخير بعد أن تقدِّم الفتاة إفادتها. وإلى أن يحين ذلك الوقت، يتعيَّن علينا أن نسبر غور هذه القضيَّة.

حدَّق آزور إليه مستفسرًا، ثم نهض واقفًا وقال:

ـ لقد مضت مدَّةٌ طويلة من الزمان على معرفتك بي يا ليو. وأنا لم يسبق لي أن تصرَّفت تصرُّفًا لاأخلاقيًّا.

نهض الرئيس واقفًا على قدميه أيضًا، وقال:

ـ أَصغِ. . .

ـ شهادة الطالب تروي تشوبها الشوائب، أؤكِّد لك هذا. ماذا قالت أنابيس نين؟ إنَّنا لا نرى الأشياء كما هي، لكنَّنا نراها بمنظارنا.

ـ بالله عليك، إنَّ أنابيس نين هي آخر شخص ينبغي لك أن تستشهد به في ظلِّ هذه الظروف.

قال آزور وهو يهزّ رأسه:

ـ إنَّني سأنتظر حتى تقول بيري الحقّ. فتاة مسكينة. ماذا فعلت بنفسها؟

ثم مضى في سبيله، وخرج من المبنى يخطو خطوات سريعة تحت المطر الذي كان يهطل من دون توقُّف طوال الصباح.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

صوت غياب الربّ عنها

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

حين ثابت بيري إلى رشدها في حجرة من حجرات الطبِّ النفسيّ في مستشفى جون رادكليف، لم تتمكَّن فورًا من معرفة مكانها. فالألوان ساطعةٌ أكثر ممَّا يجب، وعدوانيَّةٌ، وبياضاتُ السرير مهفهفة النظافة، وزرقةُ أغطية السرير زاهيةٌ أكثر من اللازم. أمَّا لون السماء الرماديّ خارج النافذة، فذكّرها بكتل الرصاص التي كانت والدتها تُذيبها لطرد عين الحسود. تناهى إلى سمعها صوتُ تمتمات تدور في رأسها، أدعيةٌ لا طائل من ورائها. حاولت بصعوبة أن تفتح عينيها مجدَّدًا متمنِّيةً أن يتلاشى الصوت، إلَّا أنَّ المريضة الراقدة بالقرب منها ـ وهي امرأة تناهز الستِّين أو زهاء ذلك ـ كانت توَّاقة إلى الكلام.

ـ عجبًا! أنت مستيقظة أيَّتها الفتاة! ظننت أنَّك ستنامين نومًا عميقًا إلى الأبد.

تكلَّمت المرأة بتحمُّس دالٍّ على بهجة، موضحةً أنَّها كانت متزوِّجة على مدى أربعين عامًا، وأنَّها أُدخلت المستشفى مرارًا وتكرارًا حتى باتت تعرف أسماء كلّ العاملين فيه. كان صوتها يملأ الحجرة مثل بالون منتفخ، ما يؤدِّي إلى ارتفاع الضغط في أذنَي بيري.

ـ وأنتِ أيَّتها الفتاة؟ أهذه أوَّلَ مرَّة، أم أكثر؟

تنحنحت بيري بعد أن تصاعد إلى فمها مذاق كيماويّ ذو رائحة فظيعة، وفتَّشت عن صوتها، لكنَّها هزَّت رأسها لا تقوى على الكلام، فانكمشت بين الملاءات وأشاحت بوجهها في اتِّجاه النافذة، فرأت تباشير الصبح وهي تتجمَّع في ذهنها. ماذا فعلت؟

انحدرت دمعة من عينها وسالت على خدِّها حين تذكَّرت والدها: أنت فتاة ذكيَّة. أنت وحدك بين كلّ أطفالي التي في وسعها عملُ هذا الشيء، فالتعليم سوف ينقذك، وستنقذين أسرتنا المفكَّكة التي تعيش في ظلام الجهل. إنَّ الشباب من امثالك سينقذون هذا البلد من تخلُّفه.

إلَّا أنَّ الطفلةَ الحلمَ التي أُرسلت إلى أوكسفورد لتجلب الفخر والاعتزاز لأُسرة نالبانتوغلو، جلبت عوضًا عن ذلك المذلَّةَ، والفشل. وراحت بيري، من غير أن تعي شيئًا، تجهشُ بالبكاء بشدَّةٍ وبصوت مرتفع، بحيث إنَّ جارتَها المريضة، خافت على حالتها العقليَّة، وضغطت على زرِّ الطوارئ، ونادت على الممرِّضة. وما هي إلَّا دقائقُ قليلة حتى أُعطيت بيري عصيرًا بلون الخوخ كريهَ الرائحة، إلَّا أنَّه، ويا للعجب، من دون أيّ نكهة، فدفنت رأسها في وسادتها، مثقلةَ الجفنين بسبب الإعياء.

وفي حالة شبه الهذيان التي تملَّكتها، لم تشاهد سوى وجه طفل الضباب. أين هو في هذا الوقت الذي تحتاج فيه إليه؟ ألديه حضورٌ وإرادة خارجان عنها، أم أنَّه ليس سوى لعبة من ألاعيب العقل المفعم بالإثم؟

* * *

التقت بيري في صباح اليوم التالي طبيبَها المعالج أوَّلَ مرَّة، وكان شابًّا ينفرج ثغره عن ابتسامة رقيقة واسعة. قال لها: أنت لست وحيدة، وأخبرها بأنَّهم سوف يعملون عملَ فريق واحد، وسيعطيها الأدوات التي

مكتبة الفكر الجديد

تمكِّنها من بناء بيري جديدة، بحيث تكون مهندسة نفسها، وتبني نفسَها من جديد. كان معتادًا على التوقُّف بعد كلّ جملة، خاتمًا كلَّ عبارة بسؤال واحد لا يتغيَّر: كيف يبدو هذا لك؟ وأوضح لها أنَّ العلاج لن يزيل الأفكار التدميريَّة الذاتيَّة، لكنَّه سوف يعلِّمها كيف تتعامل معها إذا ما عادت إليها.

كان يتكلَّم على النزعات الانتحاريَّة كأنَّه يتحدَّث عن الطقس وهطول المطر الغزير، «فهذه لا يمكن تفاديها، لكن إذا عرفتِ كيف تبقين غير مبلَّلة فسيكون تأثُّرك بها في أدنى مستوياته».

وقال لها:

ـ ثمَّة أمر واحد آخر: عندما تكونين جاهزة، من غير خضوع لأيٍّ ضغط، فقد يُطرح عليك سؤال أو سؤالان عن أستاذ بعينه. نحن نعلم بأنَّ هنالك اتِّهامات تخصّ تنمُّره على الطلَّاب، بمن فيهم أنت نفسك، أمام الجميع، والجامعةُ تحقِّق الآن في هذا الموضوع من أجل مصلحتك ومصلحة غيرك من الطلبة. ليست ثمَّة عجالة، متى ما كنت مستعدَّة.

شعرت بيري بقشعريرة تسري في أوصالها. لقد ظنُّوا أنَّ آزور هو الذي بدأ بالكلام عن محاولتها الإقدامَ على الانتحار، غير أنَّها ظلَّت ساكتةً لا تتكلَّم، على الرَّغم من أنَّ ما سمعته كان له وقعُ الصاعقة عليها.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

شجرة الفجر الحمراء

أوكسفورد ـ ٢٠٠٢

في ذلك الصباح الذي كان يُتوقَّع من بيري الحضور أمام اللجنة، جلست وحيدة في حديقة النباتات الطبيعيَّة القريبة من جسر المجدليَّة، وكانت في كلّ مرَّة تأتي فيها إلى هذه المنطقة تشعر كأنَّها تتنزَّه في منطقة من مناطق الطفولة الأثيرة في نفسها، فتشعر بالراحة والاطمئنان في محيطها. ثمَّة شجرة حمراء اللون يصل ارتفاعها إلى ستِّين قدمًا تشمخ عاليًا من فوق المصطبة التي كانت تجلس عليها. كم أحبَّت اسم تلك الشجرة ولونَها! لم تكن الشجرة معروفة إلَّا من خلال الحفريَّات، إذْ جرى اكتشافها في وادٍ صينيّ بعيد، وقد هَوَتْ بيري القصَّة السحريَّة لهذا الاكتشاف النباتيّ، واستمتعت بها.

كانت الشمس من ورائها، فجذبت ساقيها إليها وجعلت ركبتيها تمسَّان ذقنها، وراودها إحساسٌ غريب بالهدوء وسط النباتات والأشجار، وأمسكت بيدها فنجانَ قهوة ضغطته على خدِّها، فشعرت بدفئه مريحًا كأنَّه لمسة من لمسات حبيب.

تردَّد صدى صوت شيرين في أذنيها: لماذا تجعلين نفسك تعيسة إلى هذا الحدّ يا ماوس؟ ما سبب هذا الوجه الحزين والمتعَب؟ كأنَّك امرأة في التسعين من عمرها. متى تتعلَّمين ضرورة التمتُّع بالفرح قليلًا؟

مكتبة الفكر الجديد

غير أنَّ آزور قال إنَّ أفضل وسيلة لمعرفة «الطريق إلى الربّ» لا تتمثَّل في الدين ولا في الشكِّ، وإنَّما من خلال التوحُّد والانعزال. ثمَّة سبب يجعل كلّ هؤلاء النسَّاك والزهَّاد ينعزلون في الصحراء لتحقيق مسعاهم الروحيّ. وفي رفقة الآخرين، لا يوجد من هو أفضل من الربّ للتواصل مع الشيطان. هذا ما كان يجادل فيه آزور. نكتةٌ بالطبع... بالرَّغم من أنَّه ما من شيء مؤكَّد عندما يتعلَّق الأمر بآزور.

نعم، سوف تذهب وتُدلي بشهادتها لمصلحته، فهي مَدينة له بذلك. لقد أسهم في خرابها، هذا أمر مؤكّد. الحبّ من طرف واحد هو آخرُ ما كانت تحتاج إليه في هذه الحياة، لكن لا يمكنه أن يكون مسؤولًا عن محاولتها الانتحار. زِدْ على هذا، أنَّها ممتنَّة له، إذْ فتح لها بُعْدًا آخر في وعيها لم تكن تعرفه سابقًا، فظلَّ مغمورًا في أعماقها. كان يتوقَّع، لا، بل كان يطلب من طلّابه ملاحظةَ أهوائهم الثقافيَّة والشخصيَّة، وبالتالي يدعوهم إلى نبذها والتخلِّي عنها. كان آزور أستاذًا غريبًا واستثنائيًّا؛ أستاذًا نزيهًا، تمكَّن من هزّ مشاعرها، واستطاع أن يحفِّزها، وأن يتحدَّاها. وقد اجتهدت في فصوله الدراسيَّة اجتهادًا لم تعرف له مثيلًا في غير تلك الفصول. لقد أطلعها على الشعر في الحكمة، والحكمةِ في الشعر. وفي فصوله الدراسيَّة، كان الكلّ موضعَ ترحيب، وعلى قَدَمِ المساواة في المعاملة، من دون الأخذ في الاعتبار جذور أفكارهم وآرائهم، وإذا كان ثمَّة ما يراه آزور مقدَّسًا فهو العلم والمعرفة من غير شكّ.

كانت معجبةً الإعجابَ كلَّه بالطريقة التي أكسبت فيها بقايا أشعَّةِ الشمس شعرَه لونًا ذهبيًّا، والطريقةِ التي لمعت فيها عيناه حين كان ذهنه يحلِّق في أثناء كلامه على كتاب مفضَّل أو فيلسوف محبوب. أُعجبت

مكتبة الفكر الجديد

بحبِّه للتعليم إعجابًا دفعها أحيانًا إلى الإحساس بقوّة تفوق قوّة إرادته، كما أنَّ أعدادًا غفيرة من الأساتذة عكفوا على تدريس المنهاج الدراسيّ، سنةً من بعد سنة، في حين أنَّه ارتجل كلَّ فصل دراسيّ ارتجالًا. في عالمه الرحيب، لم يكن ثمَّة فسحة للعمل الرتيب، وإنَّما مغامراتٌ تستحقّ المجازفة بها. وتذكَّرته وهو يستشهد بالكاتب تشيسترتون (Chesterton):[1] «إنَّ الحياة تبدو حسابيَّة ومنتظمة أكثر ممَّا هي عليه حقًّا، دقَّتُها واضحة، لكن عدمَ دقَّتها خفيٌّ، وعنفوانها يكمن في الانتظار».

إلَّا أنَّ بيري، بقدر ما كانت مفتونةً به، فقد كرهت مسحةَ التشامخ والأنفة؛ تلك المسحة التي كانت صلافة مغروسة في أعماقه كأنَّها لعنة من اللعنات، فكان يغضّ بصره عن قلق الآخرين، ويُلقي على مسامع طلَّابه معتقداته وأفكارَه، ويمارس شكلًا من أشكال السلطة عليهم، فتكون بذلك على حساب جرح مشاعرهم.

تخيَّلت آزور وهو يمرِّر أصابعه في شعر شيرين وأسفل رقبتها،

---

(١) غلبرت كيث تشيسترتون (Gilbert Keith Chesterton، ١٨٧٤ _ ١٩٣٦): ناقد أدبيّ وروائيّ وشاعر إنكليزيّ، وُلد في لندن لأب يعمل في العقارات. تلقَّى علومه في مدرسة سليد للفنون، لكنَّه بدأ حياته المهنيَّة صحافيًّا أدبيًّا. أوَّل مؤلَّفاته الناجحة ديوان شعر «الفارس الوحشي» (١٩٠٠)، وروايته الأولى «ناپوليون نوتنغ هيل» (١٩٠٤). يراه النقَّاد كاتب مقالات، ويعتبرون أنَّ رواياته ليست سوى مقالات نقديَّة إلى حدٍّ بعيد. أهمّ كتبه النقديَّة: «روبرت براونينغ» (١٩٠٣)، و«ديكنز» (١٩٠٦)، و«برنارد شو» (١٩٠٩)، و«الأرثوذوكسيَّة» (١٩٠٨)، الذي يشرح فيه الديانة النصرانيَّة. أمَّا كتابه «ماذا جرى للعالم؟» (١٩١٠)، فيشرح فيه أفكاره ومعتقداته السياسيَّة والاجتماعيَّة. كتبَ مجموعة روايات تحرّ، مثل «رجل كان اسمه خميس» (١٩٠٨)، تشتمل على فوضويّين وعملاء سرّيّين وحبكة ثوريَّة لتتحوَّل من بعد ذلك إلى موضوع عن الربّ والحياة والسعادة وحكمة القلب (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

فوجدت في ذلك شيئًا لا طاقة لها عليه. وفكَّرت فيهما وهما معًا: يتحدَّثان ويضحكان ويمارسان الحبّ. هذه هي المشاهدُ التي ظلَّت تتكرَّر في ذهنها من دون توقُّف عندما كان رأسها يلامس الوسادة ليلًا: كم كان آزور قريبًا من شيرين في حين لبث متعاليًا عليها، فلا تتمكَّن من الوصول إليه؟ ولم يلتفت إليها إلَّا عندما علم بخبر طفل الضباب الذي كان يراودها. كانت لا تمثِّل له إلَّا تجربةً علميَّة أخرى، ومصدرًا آخر من مصادر الاستكشاف، وفقد اهتمامه بها على النحو الذي يفقد فيه طفل مدلَّل اهتمامه بلعبته الجديدة. وامتعضتْ من بخله المدمج بروح البحث، والزهوِّ الذي كان يخفيه من وراء بحثه الأكاديميّ، ولم تستطع معرفة ما الذي كان يقلقها أكثر: مضاجعةُ شيرين سرًّا أم رفضُه أن يحبَّها مثلما كان يحبّ شيرين. لقد تفجَّر في أعماقها ولم يترك في أعقاب ذلك سوى الدمار، نعم سوف تشهد ضدّه.

صُدمت كلٌّ من شيرين ومنى صدمة عميقة حين تناهى إلى سمعيهما خبرُ محاولة انتحار بيري. وما إن سُمح لهما بزيارتها حتى جاءتا لا تحملان شيئًا سوى انشغال فكريهما الواضح على وجهيهما، وعزمِهما الأكيد على معرفة سبب محاولتها. وكان ذلك سببًا لا تعرف له بيري جوابًا. كما توسَّلت إليها شيرين أن تقدِّم شهادتها دفاعًا عن آزور، وطلبت منها إنقاذ أستاذها الحبيب. وفكَّرت بيري إن كان طلب شيرين يرجع إلى ثقتها بها وأنَّها صديقة عزيزة، أم لأنَّها ظنَّت ببساطة أنَّ ماوس يسهل استغلالُها.

وقالت بيري في نفسها: عليك أن تتَّصفي بالموضوعيَّة، وأن تفصلي مشاعرك عن الحقائق. هذا أقلّ ما أنت مَدينةٌ به لآزور، وتأكَّدي من أنَّك غير خاضعة لعواطفك، وهو ما علَّمك إيَّاه. أمَّا في ما يخصّ

مكتبة الفكر الجديد

علاقته الغراميَّة بشيرين، فهما شخصان بالغان، ولم يستغلّ أحدهما الثاني. أمَّا دوافع تروي وراء سعيه إلى إسقاط آزور، فهل هي غير شخصيَّة تمامًا؟

على مصطبة في الحديقة النباتيَّة، لبث كلّ سؤال من هذه الأسئلة ينفذ إلى أعماقها ويؤدِّي بالتالي إلى أسئلة أخرى معقَّدة. كان الطبيب المعالج قد أخبرها بأنَّه يُستحسن بها أن تؤجِّل اتِّخاذ القرارات الحاسمة إلى أن تتماثل إلى الشفاء وتصبح أشدّ قوَّة. لكن كيف يتأتَّى لها ذلك في ظلِّ هذه الظروف؟ ساورها الإحساسُ بالضياع، فالخيط الرفيع الذي كانت معلَّقة به ويشدّها إلى الأرض انقطع وجرفتْها التيَّاراتُ إلى مياه مجهولة لا تعرف إلى أيّ اتِّجاه ستأخذها. فعمّا قريب سوف تمثُل أمام أعضاء اللجنة. فماذا ستقول لهم؟ وما هي طبيعة الأسئلة التي سوف يطرحونها عليها في مقابل ذلك؟ اتَّخذت مشاعرها شكلَ دوَّامات دائريَّة، سريعة الحركة، فلم تعرف كيف تعبِّر عنها بالكلمات، في الأقلّ أمام الغرباء، وبلغة غير لغتها.

أنعمتِ النظر إلى ساعتها، وقلبُها يخفق خفقانًا شديدًا جعلها تشعر بأنَّه سوف ينفجر في صدرها، فما كان منها إلَّا أن نهضت واتَّجهت سيرًا على قدميها إلى المبنى الذي ستكون فيه سمعةُ الأستاذ آزور على المحكّ.

* * *

في وسط السكون المتكاثف والذي لفَّ المكتب في الكلِّيَّة، جلس آزور من وراء مكتبه محدِّقًا إلى الخارج محاولًا ألَّا يجعل فكره منصبًّا على نتيجة اجتماع اللجنة. كان وقع القضيَّة ووطأتُها شديدين على ضميره، بحيث إنَّ محبِّيه قد يُصابون بالكدر في نهاية المطاف. كان يعلم

مكتبة الفكر الجديد

بأنَّ شيرين سوف تعذِّبها الأسئلة الخاصَّة بعلاقتهما، وأنَّها سوف تحاول إخفاء الحقيقة لحمايته، غير أنَّه فكَّر في عدم جدوى ذلك ما دام صمَّم على أن يقول كلّ شيء صراحة. فهو ليس لديه ما يخفيه، كما أنَّه لم يقترف خطأً.

سوف يَمْثُل تروي بدوره أيضًا أمام اللجنة، وسوف يزيح عن كاهله حزمةَ الأكاذيب التي كان يصفها بأنَّها الحقيقة. إنَّ آزور لم يعجبه ذلك الفتى يومًا ما، فهو فتى متلصِّص ووغد، وقد أحسن آزور صُنْعًا عندما طرده من منهاجه الدراسيّ.

كان آزور قد طرق سَمْعَه على مدى سنوات طويلة عدَّةُ قصص عن طلبة وأساتذة يتشاجرون بشأن أفكار سياسيَّة وآراء تاريخيَّة وما شاكلها، أمَّا هو ـ آزور ـ فقلَّما أزعجته الخلافات الفكريَّة. ففي كلّ عام، يجد المرء أمامه بضع قضايا عويصة ممثَّلة في طلبة كانوا يريدون إظهار جذوة ذكائهم وتميُّزِهم وتفوُّقهم على أندادهم. هذا أيضًا أمر لا ينطوي على أيّ مشكلة.

غير أنَّ موقف تروي في حجرة الفصل الدراسيّ هو الذي استفزَّه، وكذلك استفزَّه سلوكُه في التنمُّر على غيره من الطلبة، وسخريَّتُه بكلِّ طالب لم يتَّفق وإيَّاه، وشتمُه، واللحاقُ به وتهديدُه بأفكاره عن الربّ. في البدء، ظنَّ أنَّ حضور تروي سوف يستفزّ كلّ فرد ويدفعه إلى التفكير تفكيرًا أشدَّ وضوحًا، إلَّا أنَّ الشيء الذي بانَ في شكلٍ جليٍّ هو أنَّ معظم الطلبة شعروا بأنَّه يهدِّدهم. لهذا السبب، طرده آزور من منهاجه الدراسيّ، تاركًا الفتى مستبعَدًا وعدائيًّا وانتقاميًّا خطرًا.

كان آزور مدركًا الإدراكَ كلَّه أنّ منتقديه، وهم كُثُرْ، كانوا يفركون أيديهم فرحًا ويبتهجون لأنَّهم كانوا يتوقَّعون انكشاف فضيحة من بطولته،

مكتبة الفكر الجديد

وتمنَّى البعض منهم علانيَّةً أن يجري طردُه من التدريس. وثمَّة من ينطبق عليه القول بأنَّ مصائب قوم عند قوم فوائدُ، شأنه في ذلك شأنُ من يتوقَّع مَلء معدته على حساب جوع الآخر.

ماذا ستقول عنه بيري؛ الفتاةُ الحسناءُ والوَجِلَةُ والهشَّةُ، والتي تؤنِّب نفسها؟ إنَّه ليس قَلِقًا بشأنها لأنَّ الاتهامات المتعلِّقة بها لا أساس لها من الصحَّة، وشعر بالثقة إذْ ستقول الحقّ وتكون موضوعيَّة ونزيهة، وستقدِّم إفادتها من أجل الحقّ، إن لم يكن من أجله هو، فالنتيجة سيَّان.

حمل آزور في يديه ميزانًا متخيَّلًا، في كلِّ راحة من راحتي كفّيه الحسناتُ والمساوئ، ورأى أنَّ من مساوئه: الضغطَ على الطلبة بواجبات وفروض دراسيَّة قد يعترض عليها البعض ويراها مهينة، فتدفعهم إلى الانهيار في الفصول الدراسيَّة، ويتحطَّمون نفسيًّا. ثم هناك قضيَّة علاقته الغراميَّة بشيرين التي لا تُقاوَم. أمَّا حسناته، فتتلخَّص في سنواتِ خدمته الطويلة في التدريس وبحوثه وعملِه، وإسهامِه في الحياة الفكريَّة والجامعيَّة، وإنتاجيَّتِه في إصدار الكتب والمقالات، وحقيقةِ أنَّ شيرين ـ التي تمثِّل المظهر «الأخلاقيّ» الوحيدَ في ملفِّه ـ لم تكن طالبتَه حين بدأت فصول قصَّة غرامه بها.

وعلى الرَّغم من أنَّ تروي ورهطه بذلوا قصارى جهودهم ضدَّ آزور، فإنَّ دعواهم كانت ضعيفة، وكان آزور دائم التفكير في أنَّ المرء نادرًا ما يمكنه تحقيق النصر في أيّ معركة إذا كان لا يعرف كيف يتلقَّى ضربة. وحتى في مثل هذه الحالة، أدرك كم كان عبثيًّا في ذلك التفكير، لقد أراد أن يمضي قُدُمًا في دراسة موضوع الربّ، ويحوِّلها إلى لغة يقدر على فهمها كثير من الناس في الأقلّ إن لم يقدروا على النطق بها: الربُّ

مكتبة الفكر الجديد

ليس بصفته وجودًا لا يقدر الفكر الإنسانيّ على فهمه، أو قاضيًا توَّاقًا إلى الانتقام، أو طوطمًا قبليًا، بل بصفته فكرةً موحّدة، وضالَّةً ينشدها الناس كلُّهم. هل يمكن أن يتحوَّل البحث عن الربّ إلى حيِّز محايد، مجرَّدٍ من كلّ الأوصاف والمعتقدات، يجد فيه كلّ فرد، وضمنهم الملحدون والموحِّدون، مناقشةً ذات فائدة؟ أفي وسع الربّ أن يكون موحّدًا، لا بصفته نظامًا إيمانيًا، وإنَّما بصفته هدفَ دراسة لا يمكن لأيِّ فرد في عالم اليوم المضطرب أن يكون لامباليًا به؟ إنَّها تجربة عقليَّة: فلو أكملت كلّ روح على الأرض الربَّ، كما زعم حافظ[1]، فماذا كان ليحدث عندما يُوضع أُناس مختلفون في الحُجرة نفسها، ويُطلَب منهم أن

(١) شمس الدين محمَّد حافظ (١٣٢٦ ـ ١٣٩٠): أعظم شعراء الغزل في بلاد فارس. وُلد فقيرًا في مدينة شيراز، حيث أمضى فيها معظم سني حياته تقريبًا. والواضح أنَّه كان يكسب قُوته من ممارسة التعليم ونسخ المخطوطات، إلى أن حظيت قصائده بشهرة واسعة وبرعاية آل مظفر، السلالةِ الفارسيَّة التي حكمت مقاطعات فارس وكرمان ولورستان في إيران (١٣١٣ ـ ١٣٩٣) قبل أن يقضي عليها تيمورلنك أو تيمور الأعرج (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) الذي أخضع إيران وآسيا من دلهي إلى بغداد. مؤلَّفاته الأدبيَّة تتألَّف عمومًا من خمسمئة قصيدة في الغزل والحبّ والخمرة، ووصف النقَّاد هذه القصائد بأنَّها رموز صوفيَّة، فكان يستهلُّها، شأنه في ذلك شأنُ فرجيل (٧٠ ـ ١٩ ق.م) في روما، بالبحث عن دليل إلى السلوك، غير أنَّ النقد الأوروبيّ يميل اليوم إلى النظر إلى قصائد حافظ بصفتها الحرفيَّة، بمعنى أنَّها قصائد حبّ، لا يكون فيها المحبوب الربَّ، وإنَّما الجمال الإنساني أو الراعي الأميري. ولا تعكس النبرة الباخوسيَّة (نسبة إلى الإلٰه باخوس عند الرومان) سوى نظرة متفائلة إلى عالم مضطرب يحتشد بالفوضى. حاول الباحثون الغربيُّون منذ القرن السابع عشر ترجمةَ قصائد حافظ إلى اللاتينيَّة والفرنسيَّة والإنكليزيَّة والألمانيَّة، بل اليونانيَّة أيضًا. وأفضل ترجمة إنكليزيَّة للقصائد هي تلك التي أنجزتها غيرترود بيل، وصدرت بعنوان «قصائد من ديوان حافظ: ١٨٩٧ ـ ١٩٢٨»، وكذلك القصائد التي ترجمها أي، جَيْ، آربري في «٥٠ قصيدة: ١٩٤٧ و١٩٥٣»، و«الوردة الخالدة: ١٩٤٨» (المترجم).

ينظروا إلى بعضهم بعضًا، وحين يُشجّعون على أن يُكمل أحدُهم الآخرَ «فهمَه» عن الربّ؟ صحيح أنّه اعترف بأنَّه كان كثير المتطلّبات ومتحكّمًا أحيانًا؛ صحيح أنّه استخدم حجرة الدرس لتكون مختبرًا، لكنَّه كان يملك سببًا وجيهًا لذلك كلّه.

كان الطلبة محرومين من المعرفة، مستفيدين من العصر، سريعين في إصدار الأحكام، مستقلّين بذاتهم إلى أبعد الحدود... ولم يخطر في بالهم أنّ لأساتذتهم قصّةً، وسرًّا وحياةً في مكان آخر غير الجامعة. لقد شيَّد آزور معهم برج بابل، ودفعهم إلى أبعد نقطة ممكنة، غير أنَّه أخفق.

وكان الخطأ الأكبر متمثّلًا في مرافقة بيري، تلك الفتاةِ التي أثارت اهتمامه، وهي الفتاةُ الهادئة والمتحفّظةُ وذاتُ الجوانب الخفيَّة والصلات بما سمَّته الجانبَ «السحريّ». كانت بيري تخاصم الربّ خصامًا شخصيًّا أكثر من أيّ طالبة أخرى في فصله الدراسيّ، فانجذب إليها لذلك السبب. نعم، لقد أمضى وقتًا إضافيًّا وإيَّاها على الرَّغم من أنّه كان يرى - وكيف لا يرى؟ - أنَّ الفتاة تَكِنُّ له مشاعرها. كانت أصغرَ ممَّا ينبغي، وساذجةً أكثر من اللازم، ومحاصَرةً أكثر ممَّا يجب، فكان يتعيَّن عليه أن يكون أكثر رفقًا بها، لكن متى كان رفيقًا بها آخر مرَّة؟

لم يكن آزور قد نشأ وترعرع في بيت دينيّ، إذْ كان والده نجّارًا إنكليزيًّا ثريًّا، سعادتُه تتناسب تناسبًا عكسيًّا مع نجاحه، وكانت والدته عازفة بيانو من الجنسيَّة الشيليَّة، وموهوبةً لكنَّها محبطة، ومغتاظةً الغيظَ كلَّه بسبب عدم حصولها على التقدير الذي كانت تعتقد أنَّها جديرة به في أثناء حياتها. وكانت أسرته ذات صلات تجاريَّة بالعاصمة الكوبيَّة هافانا

مكتبة الفكر الجديد

التي وُلد فيها آزور، وكان والده يروي حكايات عن صيد أسماك القرش برفقة إيرنست هيمنغواي، وإن لم يبق سوى دليل واهٍ على تلك الصداقة المدهشة، عدا بعض الصور الفوتوغرافيَّة والملاحظات المكتوبة بخطّ اليد. واختار آزور موضوع الفلسفة مهنةً له متحدِّيًا بذلك واجبات أسرته وتوقُّعاتها، إلَّا أنَّه وافق على أن يختار علم الاقتصاد حقلًا لتخصُّصه إرضاءً لوالديه، وهو ما أقدم عليه حقًّا، في دراسته في جامعة هارفرد.

في سنته الدراسيَّة الأخيرة في الجامعة في مدينة بوسطن، تغيَّرت حياته عندما بدأ يتلقَّى الدروس مع متخصِّص بالدراسات الشرق أوسطيَّة، وشرع الأستاذ نسيم يتحدَّى آزور الشابَّ كما لم يتحدَّهُ أحد من قبل. كان الأستاذ نسيم يتحدَّر من أسرة من البربر من الجزائر، وعمل على تعريف آزور إلى مختلف الثقافات ووجهات النظر المتغيِّرة والقضايا الصعبة، كما أنَّه عرَّفه إلى كلّ مؤلَّفات كبار الصوفيَّة، من ابن عربي[1]

---

(١) ابن عربي (١١٦٥ ـ ١٢٤٠): صوفي عربيّ وُلد في الأندلس ولُقِّب بالشيخ الأكبر. أمضى الشطر الأكبر من شبابه في إشبيلية، ثم سافر إلى بلاد المشرق إلى أن استقرّ في دمشق وفيها تُوفِّي. له نحو أربعمئة كتاب، منها «الفتوحات المكِّيَّة» و«فصوص الحكم» و«مفاتيح الغيب» و«التعريفات» و«ديوان شعر» يتطلَّع فيه، مثل بقيَّة الصوفيّين، إلى الاتِّحاد بالخالق، غير أنَّ كتابه «الفتوحات المكِّيَّة» مفصَّل وجامع ويحتوي على جميع مباحث الصوفيَّة في خمسمئة وستِّين فصلًا. ويُعَدّ الفصلُ التاسع والخمسون بعد الخمسمئة فيها خلاصةَ هذا الكتاب. والمعروف أنَّه حين طلب ابن عربي من ابن الفارض أن يشرح له قصيدته التائيَّة المشهورة، قال له ابن الفارض: خير شرحٍ للتائيَّة إنَّما هو كتابك «الفتوحات المكِّيَّة». ربَّما يكون هذا الكتاب أوسعَ كتاب أُلِّف عن التصوُّف، وقد طُبع في بولاق مصر في أربعة مجلَّدات ضخمة سنة ١٢٤٧ وأُعيد طبعه سنة ١٣٢٩ في القاهرة. أمَّا كتاب «فصوص الحكم»، فقد شرحه ولخَّصه تلامذة ابن عربي وأصبح كتابًا لتدريس العرفان، وقد طُبع مشروحًا باللغة التركيَّة في بولاق مصر، ثم طُبع سنة ١٣٠٩ وسنة ١٣٢١ مع شرح عبد الرزَّاق الكاشاني في القاهرة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

والسيِّد إيكهارت والرومي[١]، إلى إسحق لوريا وفريد الدين العطّار[٢] في كتابه «منطق الطير»، فضلًا عن أشعار حافظ.

في عصر أحد الأيّام، زار آزور الأستاذَ نسيم في منزله في بروكلين، وفي ذلك المنزل التقى ابنة نسيم الصغرى أنيسة. كانت ذات عينين بندقيّتين واسعتين وشعر جعد فاحم، مفعمة بحيويَّة تُثير كلّ من حولها. تجاذبا أطراف الحديث إلى ما لانهاية، عن الكتب والموسيقى والسياسة، وكانت تحلم بالانتقال إلى شقَّة خاصَّة بها، وقالت: «لكن يجب أن أشاهد الماء حيثما سكنت».

في مساء ذلك اليوم نفسه، دُعي آزور إلى البقاء وتناول الطعام، صحيح أنَّ الطعام كان لذيذًا، بخلاف كلّ ما تذوَّقه من أطعمة من قبل، غير أنَّ الابنة السهلةَ الانقياد، والألحانَ العربيَّة، هي التي أثارت لبَّه، فكانت عيناها ترشقان وجههِ تحت ضوء الشمعة، فتمنَّى آزور في تلك اللحظة أن تكون هذه الأسرة أسرتَه. كانت عفويَّةُ الأسرة وعواطفُها الجيَّاشة وغيرُ المتكلِّفة تختلف اختلافًا واضحًا عن الكياسة المحسوبة التي عرفها في بيته، ولم يعرف آزور حتى هذا اليوم إن كان قد أُغرم بأنيسة أم بأسرتها.

وبعد أقلّ من سبعة أسابيع تزوَّج بها.

---

(١) جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣): من أكبر شعراء التصوُّف، ومؤسِّس طريقة المولوي أو رقصة الدراويش. وُلد في بلخ في أفغانستان. نقطة التحوُّل في حياته حدثت في سنة ١٢٤٤ عند لقائه شمس الدين التبريزي الذي ظلَّ ملازمًا إيَّاه، وكان من نتائجه عدد كبير من القصائد الغنائيَّة. أعظم ما تركه من تأليف يتمثَّل في «المثنوي» الذي يضمّ ٢٧ ألف بيت شعري (المترجم).

(٢) فريد الدين العطَّار (١١٨٠ ـ ١٢٢٠): من كبار شعراء التصوُّف.

مكتبة الفكر الجديد

وقبل أن يمرّ وقت طويل، اكتشف الزوجان أنَّهما غير منسجمين، إذْ كانت أنيسة تحيا في أغلب الأحايين داخل عقلها، نزَّاعةً إلى التملُّك والاستئثار، شديدةَ الغيرة، ميَّالةً إلى الانهيار العاطفيّ، لأتفه الأسباب أحيانًا، وكانت تتناول العقاقير الطبِّيَّة منذ سني مراهقتها.

كانت لأنيسة أختٌ غيرُ شقيقة أكبر سنًّا منها ـ تُدعى نور ـ وهي من ثمار زواج الأستاذ نسيم الأوَّل، وكانت مستغرقةً في التأمُّل والتفكير، وحسنةَ الانتباه ورقيقةً، تتَّخذ مجلسها كلَّما اجتمع أفراد الأسرة من حول الطاولة بالقرب منهم، فتصغي إلى الحديث الدائر بين آزور ووالدها، وتطرح أسئلة ذاتَ طبيعة اختباريَّة. ورويدًا رويدًا، بدأ آزور ينظر إليها بمنظار مختلف، فيشاهد عذوبة ابتسامتها وبريقَ عينيها ورقَّةَ أناملها وجذوةَ ذكائها. فكانت تحترم أفكاره، ويحترم بدوره أفكارها، ولم يفكِّر آزور من قبلُ في أنَّ مثل هذا الاحترام يمكن أن يكون مصدرًا من مصادر الجاذبيَّة.

في نهاية صيف تلك السنة، تجاوز آزور ونور حدَّيهما. وسرعان ما اكتشفت الأسرة الأمر، فما كان من ذلك الرجل العجوز المهذَّب، الأستاذ نسيم، إلَّا أن استدعى آزور وصرخ في وجهه صراخًا بانت خلاله عروقُ رقبته رفيعةً زرقاء، واتَّهم طفله المعجزة بالتصرُّف تصرّفَ الشيطان، متسلِّلًا داخل منزله بهدف واحد لا غير، يتمثَّل في القضاء على أمنه وسلامته، وسمعتِه التي بذل أقصى جهوده من أجل بلوغها.

اضطرّ آزور وأنيسة إلى الانتقال من المسكن وتمكّنا من تدبير أمورهما، فعزما على الرحيل عن مدينة بوسطن والبدءِ بدايةً جديدة في أوروبا، وقالت له أنيسة: إنَّ عارَك لن يلحق بنا، لأنَّه لا يستطيع السباحة واجتياز المحيطات، غير أنَّها لم تمسك عن الكلام على ذلك

مكتبة الفكر الجديد

العار. صحيح أنَّها لم تتكلَّم علانيَّة، لكن بتلميحات وملاحظات ساخرة، معتقدة أنَّ ندم آزور، مهما بلغ حجمه، لن يمكن أن يُصلح الضرر البليغ الذي حدث. ويبدو أنَّها كانت على نحو ما، تستلذّ بإثم زوجها، الذي منحها مزيَّة أخلاقيَّة في زواجهما، مثلما أكسبها إحساسًا أكثر عذوبة من التوت الناضج.

وهكذا، قَدِما إلى أوكسفورد المطلَّة على المياه، وحيث بدأت أنيسة التأقلم بسهولة، وتمكَّن آزور على جناح السرعة من إيجاد موطئ قدم لنفسه، فانتعشت أحواله في المدينة ورحَّب أهل أوكسفورد بزوجته، إلَّا أنَّ ما لم يتمكَّن كلٌّ من التقاها من رؤيته هو عمقُ ذلك الاكتئاب الذي كان ينخر روحها.

فإذا فرحت فإنَّ فرحتها موقَّتة، وإذا حزنت فإنَّها تنسحق في ذلك الحزن. وسواء أكانت فَرِحة أم حزينة، فإنَّ إحساس أنيسة بهاتين الصفتين يكون مبالغًا فيه.

كانت في الشهر الرابع من حملها حينما اختفت عن الأنظار. ففي وقت مبكر من الصباح، وكان الضباب مخيِّمًا يكاد يلامس الأرض، خرجت للتنزُّه على امتداد النهر، ولم تعد أدراجها منذ ذلك اليوم، وبعد مرور ستَّة وعشرين يوما عُثِر على جثَّتها على الرَّغم من أنَّ غوَّاصي الشرطة بحثوا عنها مرارًا وتكرارًا في النهر. ونشرت صحيفة «أوكسفورد ميل» تحقيقًا عن الحادث، وفيه صورةٌ لها بفستان الزفاف وإكليل من ورد الربيع.

لم يعرف آزور قطّ كيف حصلت الصحيفة على تلك الصورة، وعومل موتُها على أنَّه غير قابل للتفسير، على حدِّ قول الناطق باسم الشرطة، ولم يَدُر في الخلد أنَّ السبب هو الخديعة. وقدَّم محقِّق

مكتبة الفكر الجديد

الوفيَّات النطق بالحادث علنًا، لكن آزور كان مهووسًا بعبارة واحدة هي: غير قابل للتفسير.

أنحى الأستاذ نسيم باللائمة على آزور وعلاقته بنور لما تسبَّبا به من تقلّب مزاج أنيسة واختفائها المفاجئ، ولم تغفر له الأسرةُ مثلما لم يغفر آزور في أعماقه لنفسه على فعلته، غير أنَّه غدا في منتهى الحساسيَّة تجاه أيّ اعتذار، وكره ذلك حين يطلب الآخرون المغفرة بسبب أشياء تافهة، في حين أنَّ ثمَّة اعتذارات أخرى أكبرَ في الحياة لا يمكن التعبير عنها مطلقًا، وفتح لنفسه فسحةً بين التفكير الحرّ الذي اتَّصفت به نشأتُه وديانةِ الأستاذ نسيم المرتكزةِ على العدل، فقرَّر أن يمارس تدريس ما هو غير قابل للتفسير: موضوع الربّ.

* * *

في حين بدأت ريح الصباح تهدأ وتتحوَّل إلى نسمة، جاءت بيري إلى لجنة الاستماع وهي في حالة شبه حالمة، وشعرت بثقل ساقيها وتصلُّبهما. كانت الشمس متوارية من خلف سحابة، وحلَّق طائر من طيور الخطّاف عاليًا فوق رأسها، فشعرت بأنَّها في فصل آخر من فصول السنة، كأنَّ العالم قد تغيَّر منذ أن خرجت من الحديقة النباتيَّة ومن قرب شجرة الفجر الحمراء التي جلست في ظلِّها.

كان تروي يسير جيئةً وذهابًا عند المدخل، وشيرين تجلس على السلالم شابكةً ذراعيها على صدرها، ومنتفخةَ العينين من كثرة بكائها. كان كلّ واحد منهما ينتظر بفارغ الصبر وصولَ بيري كي يتمكَّن من جذبها إلى جانبه. في مكان ما داخل المبنى، كان الأهالي قد حضروا وعلى وجوههم قَسَماتٌ لا يُسبَر غورُها، وأسئلةٌ لا صلة لها بالقضيَّة.

تساءلت بيري في نفسها عن مكان آزور، وعن الأفكار التي تشغل

مكتبة الفكر الجديد

ذهنه. كم تمنَّت لو أنَّه إلى جانبها الآن، يلوذ داخل إحدى الفانتازيَّات الكثيرة التي تراودها عنه. في وسعهما أن يسيرا من أمام هؤلاء الناس، غاضَّيْن النظر عن تحديقاتهم الانتقاديَّة، وغير متأثِّرَيْن بهذه المصيبة التي حلّت عليهما من المجهول. تمنَّت لو أنَّ الوقتَ ليلٌ فيحدِّثها عن الشعر والفلسفةِ وعن تناقض الربّ الظاهريّ. مفردات تتطاير في الريح تَطايُرَ الشرر من جذوات نيران تشتعل في الهواء الطلق؛ وحدهما تحت سماء يمكن أن تكون في أيِّ مكان، في مدينة جامعيَّة حالمة أو مدينة مزدحمة، ورأسها متّكئ على عنقه المائل. وتمنَّت لو أنَّ كلّ الفوارق بين عمريهما ومكانتيهما وثقافتيهما تبخَّرت في الهواء، ولو أنَّه مال برأسه ولمس وجهها وقبَّل شفتيها وتمتم باسمها كأنَّه تعويذة. وتمنَّت لو أنَّ عقلها وقلبها تحوَّلا إلى شفرة تستأصل منه روحَ شيرين التي تسكن داخله. لقد مرّ زمن طويل منذ أن أرادت مثل هذا الشيء، وبهذه الدرجة من العنفوان والتوق.

أحكمت بيري شدّ المعطف عليها بعد أن شعرت بالبرد يتغلغل داخل جسدها. لو أنَّها قدَّمت إفادتها لمصلحته، وهو ما اعتقدت أنَّها ملزمة به أخلاقيًّا، فلربَّما أدرك كم هي مهتمَّة به. ربَّما... إلَّا أنَّها كانت تعلم من صميمها بأنَّ ما من شيء من هذه الأمور سوف يحدث، إذْ سيبقى اسمه لا تشوبه شائبة، وسيحتفل بذلك برفقة شيرين، التي كانت تحصل دومًا على كلّ ما تريد.

فكَّرت بيري في هذه الأمور عن كثب، غير أنَّها توقَّفت عن التفكير فيها رويدًا رويدًا كأنَّها استنفدت طاقتها. أفليست هي الفتاة التي شاهدت شقيقها التوأم يختنق حتى الموت ولم تصرخ طالبةً النجدة؟ كانت دومًا في منطقة وسطى، تخشى جذب الأنظار إلى نفسها، ولا ترغب في

مكتبة الفكر الجديد

الانحياز إلى أيّ جانب، مركِّزةً في عدم إزعاج أحد بحيث يبقى كلّ فرد خائبَ الأمل في نهاية المطاف. وعلى الرَّغم من كلّ محاولاتها تغييرَ طبعها، فإنَّها لم تكن تملك ما يكفي من القوَّة للتغلُّب على الشلل العاطفيّ الكامن في روحها، فقرَّرت بيري، نازبيري، روزا، ماوس، عدمَ الإدلاء بإفادتها، لا الآن ولا في وقت لاحق، فهي ليست ممثِّلة، بل مشاهدة. هذه هي مشكلة شيرين وآزور، لعبتُهما الغبيَّة. فما كان منها إلَّا أن استدارت وابتعدت كأنَّ سمعة شخص غريب في خطر، وليس مستقبلَ رجل أحبَّته، وحلمت به، ورغبت فيه، بكلٍّ كيانها.

سوف تمرّ الأعوام قبل أن تُدرك أنَّ سلبيَّتها أسهمت إسهامًا فعَّالًا في تدمير الإنسان الذي أحبَّته، فعندما خانت آزور، خانتِ الحقيقة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

خزانة الثياب

إسطنبول ـ ٢٠١٦

انضمَّ رجل ثالث، كان غطَّى نصفَ وجهه بمنديل ملوَّن ذي نقاط بيض، إلى الرجلين المتطفِّلين، وبدا من لهجته أنَّه المسؤول عنهما. لا بدَّ من أنَّه انتظر في الحديقة في حين اقتحم الرجلان الآخران القصر فاسحَيْن المجال له.

قال بصوت هادر:

ـ افعلوا ما نأمركم به ولن نُلحق الأذى بأحد.

غير أنَّه لم يكن غاضبًا ولا مستاءً، بل كان باردًا ومتجرِّدًا:

ـ الخيارُ خياركم.

أدركت بيري أنَّها كانت ترتعش، قلبُها يدقّ دقَّاتٍ عنيفةً داخل قفصها الصدريّ. هل ينبغي لها الهروبُ أو الاختباء؟ مَنْ هؤلاء الرجال: مافيا منظَّمة، أم لصوصٌ اعتياديُّون، أم إرهابيُّون ـ وإسطنبول مدينة تحتشد بمثل هؤلاء بأعداد غفيرة ـ أم أنَّهم يسعون وراء المال؟ كم عدد الناس الذين خَيَّب رجل الأعمال آمالهم في حين راح يجمع المال والحسد بكمِّيَّات متساوية. تذكَّرت قسماتِ وجهه المرتبكةَ على الشرفة، لكن لا مجال الآن للتفكير. وحين شاهدت باب المطبخ من الممرّ الذي وجدت نفسَها مكوَّرةً فيه، توقَّفت، إذْ لم يكن في وسعها أن تهرب إلى

مكتبة الفكر الجديد

هناك من دون أن يراها أحد من حجرة الاستقبال، فما كانَ منها إلَّا أن خطت خطوة إلى الوراء، ولمست بيديها سطح المرآة من خلفها، فتحرَّكت قليلًا. إنَّه باب خزانة ثياب مثبَّتة في الجدار.

دفعت الباب فانفتح لتشاهد داخله عددًا من المعاطف والأحذية والعلب والمظلَّات، فما كان منها إلَّا أن وثبت داخله من دون تفكير وجذبته فبات موصدًا من الداخل. شعرت بأنَّ ظهرها يستند إلى لوح خشبي وأنَّها قد تكوَّرت مثلَ كرة في الظلام. مرَّة أخرى في حياتها أمست قنفذًا مرتعد الأوصال.

بعد مرور دقيقة، أو ربَّما أكثر، صكّ سمعَها وقعُ أقدام على امتداد الممرّ وصوت شخص يصيح:

ـ اخرجوا من المطبخ! كلُّكم، الآن!

كان الرجال الثلاثة قد شرعوا في جمع كلّ العاملين في المنزل: الشيفِ والمساعدِ والخادماتِ والخدمِ الذين تمَّ استئجارهم للعمل في تلك الليلة. وقع أقدام مسرعة، صوتُ أحذية ثقيلة، همساتٌ خائفة.

أرسلت بيري إلى أمّها، من داخل الخزانة، رسالةً نصِّيَّةً من هاتفها النقَّال، كتبت لها فيها: اتَّصلي بالشرطة، عاجل، أنت تعرفين أين أنا.

ـ تبًّا!

كتبت ذلك بعد أن أدركت أنَّ سلمى ربَّما تكون قد أوت إلى فراشها وأنَّها لن تشاهد الرسالة إلَّا في صبيحة اليوم المقبل على الرَّغم من أنَّها شعرت بارتياح بسبب انصراف دينيز التي أصبحت في مأمن الآن، إلَّا أنَّ عدنان كان هنا... هناك؛ إنَّه زوجها، المؤتَمَن على أسرارها وأفضل أصدقائها والمواطن القدوة. كانت أنفاسها تتصاعد بصوت حادّ.

مكتبة الفكر الجديد

سمعت ضربةً، وصراخَ امرأة، وترامى إلى أذنيها صوتُ صياح، أعقبه ضحكةٌ هستيريَّة. بدا الصوت كأنَّه صادر عن صديقة الصحافيّ اللامع:

ـ ألم تشاهدهم قادمين؟ وأنت الوسيط الروحانيّ؟ تبًّا!

تجمَّدت بيري في مكانها مضمومة الساقين، هل هذا سببُه رجل الأعمال وهو يتناول حلوياته؟ أم أنَّ الأمر مصادفة لا غير؟

حَدَثٌ يقع مصادفة ويحاول المرء أن يفهمه. العالم مليء بالخطر. الفوضى واللانظام في كلّ ركن. هل الشرّ نوع من العقاب الإلٰهي بسبب أفعالنا، أم أنَّه ليس سوى أمر من تدبير قَدَر عشوائيّ؟ فإذا أصبحنا تحت سيطرة العشوائيَّات، فما الفائدة من أن يحاول المرء أن يصبح شخصًا أفضل؟ كيف يمكن للمرء أن يُكفِّر عن خطاياه السابقة إن لم يكن تكفيره بتغيير أساليبه؟ لقد كانت فتاة طيِّبة، باستثناء علاقتها بذلك الرجل الذي أحبَّته منذ سنوات مضت، ولا تزال تحبّه في زاوية من زوايا قلبها لم يدخلها أحد. لقد علّمها الأستاذ آزور أنَّ الشكّ ثمين، لكن هل هذا صحيح؟ إن كان ذلك الشكّ ينطوي على التشوُّش لا أكثر؟

اتَّصلت بالشرطة وهي تشعر بالغثيان، فالتقط أحد الضبَّاط الاتِّصال، وراح من فوره يطرح عليها وابلًا من الأسئلة، ويعاملها كأنَّها مجرمة، لا شاهدة، فقاطعته بنبرة خافتة قائلة:

ـ ثمَّة رجال مسلَّحون. . . .

فأنَّبها ضابط الشرطة قائلًا:

ـ لا يمكنني سماعك، تكلَّمي بصوت أعلى.

فأعطته بيري العنوان.

فقال الضابط:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ما سبب وجودك في ذلك المنزل؟

همست محبطة:

ـ إنَّني ضيفة، وهؤلاء مسلَّحون.

ـ في أيّ مكان من البيت أنت؟

سألها الضابط، إلّا أنَّه لم ينتظر الجواب، إذْ كان يريد معرفة اسمها وعملها ومحلّ سكناها. أسئلة عقيمة. لقد كانت مواطنة صالحة طوال هذا الوقت، أمَّا في بيانات الحكومة فهي رقم لا غير، رقم بلا قصَّة.

أخيرًا قال الرجل:

ـ حسنًا، سوف نرسل فريقًا.

فحصت بيري البطّاريَّة فوجدت أنَّها كافية للعمل خمس عشرة دقيقة أخرى أو أقلّ من ذلك، وسألت نفسها عمَّا قد يحدث في غضون ذلك. هل سيكتشف المسلَّحون أمرها ويأخذونها رهينة برفقة الآخرين، أم إنَّ الشرطة ستصل وتشنّ عمليَّة يتمّ فيها إنقاذهم، أو يلقون مصرعهم؟ ربَّما سينتهي مفعول البطّاريَّة آنئذٍ. إنَّ هذا العشاء الأخير للبورجوازيَّة التركيَّة سينتهي به المطاف خيرًا أو شرًّا. الحياة تبدو دومًا مفتقرة إلى العدالة، لكنَّ الموت ظلم كبير. أيّهما أصعب تقبُّلًا: الهدفُ الخفيّ في هذا الجنون إذا ما تمكَّن المرء من معرفة الجهة التي ينظر إليها، أم أنَّه لا يوجد أيّ منطق، ولا وجود للعدالة؟

كانت يداها ترتعشان كأنَّهما تملكان عقلًا خاصًّا بهما، ذراع أخطبوط. وفي ضوء الهاتف النقَّال وانحشارها بين المعاطف والأحذية، في حين أنَّ زوجها وأصدقاءه كانوا رهائن، اتَّصلت بالرقم الذي أعطتها إيَّاه شيرين.

اتَّصلت بآزور.

مكتبة الفكر الجديد

العار

أوكسفورد ـ ٢٠١٦

كان آزور يخرج كلَّ غسق للتنزُّه، فيسير بين خمسة وسبعة أميال مقتفيًا أثر دروب تاريخيَّة تمرُّ وسط غابات قديمة وفوق مزارع متموِّجة. فكَّر في أنَّ صفاء الذهن يهبط على المرء في الهواء الطلق، صفاءً محسوبًا ذا مغزى، لكنَّه بلا هدف محدَّد. وإذا كان ثمَّة إيمان راسخ واحد يؤمن به عن الجنس البشريّ، فهو أنَّ هؤلاء البشر مثل الحرباء الذهنيَّة، قادرون على التكيُّف حتى مع العار والخزي. لم يعرف آزور هذا الشيء من خلال التأمُّل، وإنَّما من التجربة الشخصيَّة. لقد تلوَّثت سمعته ولحق به الخزي والعار، ولو أنَّ شخصًا ما أبلغ نفسَه الشابَّةَ وهو يتسلَّق المواقع في الجامعة والمجتمع، بكلِّ ما يملكه من طموح وثقة بالنفس، بأنَّه في يوم من الأيَّام سوف يسقط على الأرض بعد أن حلَّق واقترب اقترابًا شديدًا من الشمس، لوجد أنَّ تصديق هذا الكلام يوقع الكآبة في النفس أكثر ممَّا يجب. الحقّ أنَّ آزور الشابّ صاحب المبادئ ربَّما كان من شأنه أن يقول إنَّ الأفضل له أن يموت بدلًا من العيش بمثل تلك السمعة المشوَّهة. لكن ها هو الآن لا يزال حاضرًا بعد مرور عقد من الزمان على الفضيحة، ولا يزال في قيد الحياة، ولا يزال جريحًا في أعماقه جرحًا غائرًا.

مكتبة الفكر الجديد

لقد اضطرّ قبل أربعة عشر عامًا إلى التخلّي عن منصبه في التدريس، ومنذ ذلك اليوم، احتفظ بعلاقة واهية بالكلّيّة، التي كانت يومًا ما بيتَه الأكاديميَّ، مثل حبل سرِّي لم يعد يوفِّر له الغذاء، لكنَّه لا يستطيع بالرَّغم من ذلك قطعه. لم يطلب أحد منه الحضور والتدريس مجدَّدًا، ولم يبذل من جهته أيّ محاولة للعودة لئلّا يسبِّب اسمه إحراجًا لزملائه أو لقسمه.

وطوال سنوات قرأ عددًا من المقالات عن نفسه، لكن أحد تلك المقالات كان لا يشبه بقيَّة المقالات، إذْ اتَّهمه بأنَّه مهووس بالعظمة وأوهام السلطة. مزيج فوكو من السلطة والمعرفة الذي يُتلف العقول الشابَّة الضعيفة كأنَّه قرحة. وربط كاتب المقالة محاولة انتحار بيري باختفاء أنيسة قائلًا: «ها نحن أمام رجل جلب المأساة لكلِّ امرأة شابَّة أغواها إغواءً فكريًّا». كان المقال مكتوبًا بعناية ومستندًا إلى بحث ممتاز يُثير الهلع على نحو أقلق آزور وأدّى به إلى اكتئاب كان من القوَّة بحيث بات عليه مستحيلًا أن يتذكَّر زمنًا لم يكن فيه عالمه مشبعًا بالكآبة، إلَّا أنَّه على الرَّغم من ذلك واظب على العمل كأنَّه يعلم بأنَّه في حال التوقُّف عن الكتابة فإنَّه لن يبقى أمامه أيّ سبب للتطلُّع إلى يوم آخر. كان العمل غريزة البقاء.

كان في مستطاعه الانتقال إلى أميركا أو إلى أستراليا والبدء من جديد، بيد أنَّه آثر البقاء. ولمَّا وجد نفسه بلا مسؤوليَّات إداريَّة أو تدريسيَّة، فقد أصبح الوقت أمامه متَّسِعًا للقراءة والبحث والكتابة. وحفَّزه هذا، مع النار الجديدة المتأجِّجة في روحه، على إصدار الكتب، واحدًا تلو الآخر. وكان كلّ كتاب من الكتب التي فرغ من تأليفها طوال تلك السنين يدفعه إلى الشهرة والتقدير، حتى بات اليوم في نقطة ما كان

في وسعه أن يصل إليها لو لم يفقد منصبه. لعلّ بلوتارك[1] كان على حقٍّ في كلّ الأحوال.

فالقدر قاد حقًّا أولئك الراغبين في أن يكونوا منقادين. والذين قاوموا هذه الفكرة، مثلما قاومها هو نفسه، وجدوا أنفسهم منقادين عنوة.

لا يزال آزور يعيش في البيت نفسه ذي النوافذ الناتئة والمطلّة على الغابة، وزرع في حديقته الأعشاب والخضروات للطبخ. وكان يلتقي عددًا قليلًا من الأصدقاء القدامى لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة. يطهو الطعام بنفسه، والحياة التي يحياها هادئة، ومنظَّمة، وهو ما كان يطمح إليه. لا تزال لديه عشيقات، بأعداد كثيرة، ولم يعد يهمّه إن كانت النساء اللواتي يضاجعهنَّ مرتبطات بالجامعة أم لا. ثمَّة تناقض ظاهريّ يخصّ العار علانيَّة مفاده أنَّه بالقدر الذي يُحرم فيه الفرد الأدوارَ الاجتماعيَّة والاحترام، فإنَّه يحرِّر هذا الفرد. نعم، إنَّه حرٌّ مثلِ طائر، غير مشغول البال أيضًا، غير أنَّه كان يُدرك جيِّدًا أنَّ الطيور مخلوقات أسرى العادة، لهذا فهي ليست حرَّة تمامًا ولديها أشياء كثيرة تفكِّر فيها.

---

(١) بلوتارك (Plutarch، ٤٦ ـ ١٢٧ م): كاتب سيرة ومقالات إغريقيّ، جمع بين الدراسات الأكاديميَّة والنشاطات المدنيَّة. كتب بلوتارك عددًا كبيرًا من المقالات والحوارات في الموضوعات الفلسفيَّة والعلميَّة والأدبيَّة، ومن بينها النقد اللاذع العنيف المشهور في كتابة «خبث هيرودوتس»، بسبب ما كتبه هيرودوتس من نقد ضدّ بعض الدويلات الإغريقيَّة. مفهومه الفلسفيّ أفلاطونيّ المنحى، هاجم من خلاله الرواقيين والأبيقوريين. من أشهر كتبه «السير المقارنة»، ويشتمل على خمسين سيرة لمشاهير الإغريق والرومان، وكان اهتمامه ينصبّ في شخصيَّة الفرد وليس في حياته. وقد ذاعت شهرة هذه «السِّيَر» في العصر الإليزابيثي، وكانت ترجمة سير توماس نورث لها إلى الإنكليزيَّة هي التي وفَّرت لشكسبير مادَّة دسمة لموضوعات مسرحيَّاته الرومانيَّة (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

وكان يتلقَّى بين حين وآخر نداءً هاتفيًّا أو رسالة إلكترونيَّة من صحافيّ يطلب فيها إجراء مقابلة، أو من طالب يكتب أطروحة عن مؤلَّفاته، فكان يواقف على بعضها ويرفض البعض الآخر، مدفوعًا إلى ذلك بدافع النزوة. في البدء، رفض رفضًا باتًّا وقاطعًا كلّ محاولة للتدخُّل في حياته الخاصَّة، مدركًا الإدراكَ كلَّه أنَّ أوَّل سؤال سوف يوجَّه إليه سيخصّ الفضيحة على الرَّغم من طول المدَّة الزمنيَّة التي انقضت عليها. وحتى لو لم يُثِرْها الصحافيُّون في المقابلة معه، فسوف يأتون على ذكرها في اللقاء، وهو أسوأ ما في الأمر. لهذا السبب، رفض إجراء المقابلات بقدر استطاعته. لكن تعنُّته في عدم إجراء الحوار جعله جذَّابًا في نظر قرَّائه، فقد كان لديه جمهور مخلص له؛ جمهور متعلِّم وقارئ ويشاركه في كلّ ما قدَّمه. وكما ذكر أحد الصحافيين، فقد كان آزور من أكثر المفكِّرين الذين شُوِّهت سمعتُهم على مرّ الأزمان.

فبعد رحيل سپينوزا، رفض آزور الاحتفاظ بكلب ثانٍ. غير أنَّ قراره لم يدم طويلًا. فقد ظهر للعيان أمام باب بيته كلب رومانيّ من فصيلة كلاب الرعاة لا يزيد عمره على الشهرين، وفي رقبته طوق ذهبيّ. هديَّة عيد ميلاد من شيرين. كان أبيض الشعر، كثيفه، وذا بقع رماديَّة فاقعة، هادئًا وذكيًّا، خُلِق من أجل تسلُّق الجبال. وكانت تسميته باسم الفيلسوف الروحانيّ المشهور بآرائه الكئيبة عن الربّ وكلّ ما عداه، في محلِّها. يُضاف إلى ذلك، كان اسمه يلائم مزاج آزور. من هنا، فإنَّ سيوران هو الذي رافقه في نزهاته.

* * *

في عصر هذا اليوم، طرقت شيرين على باب داره، منتفخةَ البطن ومتوهِّجة الخدَّين. الحملُ يجعل بعض النساء أكثر جمالًا من حيث

المظهر، وكانت شيرين واحدة منهنّ. ولو كانت ثمَّة قدِّيسة واحدة آثمة فإنَّها هي نفسها.

قالت وهي تنقر على طاولته بأظافر أصابع يدها المطليَّة بلون أخضر برَّاق:

ـ سوف تأتي، صحيح؟ أرجوك لا تقل لا.

أصبحت شيرين أستاذة رائعة. فبعد الفضيحة، سافرت إلى جامعة برنستون حيث راحت من هناك تراسله يوميًّا تقريبًا من غير توقُّف، ولدى عودتها، وجدت منصبًا تدريسيًّا شاغرًا في كلِّيَّتها القديمة. ومنذ ذلك الوقت، لبثا صديقين ودودين على الرَّغم من فارق العمر وأسلوبي حياتيهما المتنافرين. لم يحاول أيّ واحد منهما استعادة قصَّة غرامهما السابقة، وهو أمر جدير بالإطراء والثناء، لكنَّه محزن أيضًا. هكذا ظنّ آزور، إذْ أدرك أنَّه تقدَّمت به الأيَّام.

«انظروا، هذا الرجل فظيع، عنصريّ، يهاب المثليِّين، يخاف الإسلاميِّين، مسكينة منى، سوف تُصاب بنوبة قلبيَّة، إنَّه لا يستحي، يقول إنَّ الربّ يتكلَّم من خلاله».

ابتسم آزور:

ـ هنالك العديد منهم، وقد اعتدت على ذلك.

قالت شيرين:

ـ أمَّا أنا، فلن أعتاد عليهم، تعال أرجوك.

ـ ماذا تريدين منِّي يا عزيزتي؟ أتظنِّين أنَّ حضوري يعني شيئًا لأيِّ شخص، في الأقلّ له؟

إنَّني عارٌ سائرٌ، في نظرهم. يُضاف إلى ذلك، لقد توقَّفتُ عن

الجدل في موضوع الربّ، ولن أعود إليه بعد اليوم.

– لا أصدِّق ذلك لحظة واحدة، حسبك أن تأتي، من فضلك.

بعد انصرافها، أعدّ لنفسه شايًا واتَّخذ مجلسه من حول طاولة المطبخ. رسم شعاعُ الشمس المائل من خلال أغصان شجرة الجمِّيز المزروعة خارج الدار أشكالًا مختلفةً على وجهه، معمِّقًا بذلك حدَّةَ ملامحه وقسماته. ثمَّة جريدة مطويَّة إلى جانبه وفيها مقال عن الباحث الهولّنديّ المعروف بآرائه ومماحكاته عن الإسلام واللاجئين وزواج المثليِّين والوضع في العالم، وزعم أنَّه يتّصل اتّصالًا مباشرًا بالربّ، بوساطة عضويَّة في نادٍ خاصّ. وعلى مدى قرنين من الزمان، كان اتِّحاد أوكسفورد قد دعا متحدِّثين بارزين من الخارج، منهم التقليديُّون ومنهم مثيرو الجدل، لكن لا يتذكَّر أحد حدوث مثل هذا الضجيج والعجيج من قبل.

رفع آزور كوب شايه، تاركًا بقعةً فوق الجريدة بعد أن أحاطت رأس المتكلِّم بدائرة، فأضحى المتكلِّم وليًّا حقًّا. تأمَّل الصورة مليًّا لحظة من الزمان، ثم أمسك، بطريقة غريزيَّة، سترتَه وحمل مفاتيح سيَّارته.

* * *

بعد مرور عشرين دقيقة، اقترب آزور من المبنى، الذي لاحت خطوطه الخارجيَّة في إطار السماء المكفهرَّة، وشاهد مجموعة من الطلبة ينتظرون خارج المبنى، رافعين شعارات احتجاجًا على الخطيب، طالبين منه الرحيل عن حرم الجامعة.

أوقفه رجل شابّ. كان واضحًا أنَّه من طلَّاب سنوات الدراسة

مكتبة الفكر الجديد

الجامعيَّة الأولى، لهذا لم يعرف آزور، وقال له بلكنة إنكليزيَّة لا تخدش الأذن:

ـ لقد بدأنا حملة لوقف هذا المتوحِّش. هلَّا وقَّعت هنا؟

قال آزور:

ـ أليس الوقت متأخِّرًا؟ فالرجل سيتكلَّم بعد عشر دقائق.

ـ لا يهمّ، فلو جمعنا عددًا كافيًا من التواقيع، فإنَّ الاتِّحاد سوف يضطرّ إلى التفكير مرَّتين قبل أن يدعو شخصًا مثله في المرَّة المقبلة. يُضاف إلى ذلك، نحن نضع الخطط للدخول ومقاطعته.

ثم دفع قلمًا وورقة أمام آزور.

قال آزور:

ـ آسف إذْ أخيِّب أملك، فأنا لن أوقِّع.

اكتسى وجه الشابّ بنظرة احتقار، وقال متسائلًا:

ـ إذن أنت متَّفق وإيَّاه؟ فاشيّ؟

ـ أنا لم أَقُل إنَّني أشاطره أفكاره العالميَّة.

إلَّا أنَّ الطالب استدار وعاد أدراجه مبتعدًا بعد أن فقد اهتمامه، فلبث آزور واقفًا ومحتارًا بين تركه يمضي في سبيله واللحاق به، وأخيرًا حثّ خطاه إليه، وقال:

ـ انتظر:

فتوقَّف الطالب متريِّثًا وقد أخذته الدهشة.

ـ أنت مسلم صحيح؟

إيماءة رأس حذرة.

ـ أعتقد أنَّك قرأت عن جلال الدين الرومي. أتذكر بيت الشعر

مكتبة الفكر الجديد

الذي نَظَمَه؟ «إذا انزعجت من كلِّ فركة، فكيف ستلمّع مرآتك»؟

ـ ماذا؟

ـ اترك هذا الرجل يعبِّر عن آرائه، فالأفكار ينبغي لها أن تتحدَّى الأفكار، والكتب تتحدَّى كتبًا أفضل منها. فمهما يكنِ الناس أغبياء، فإنَّك لا تستطيع كتم أصواتهم. إنَّ حرمان المتكلِّمين الكلامَ لا يؤدِّي إلى التقدُّم.

قال الفتى:

ـ احتفظ بفلسفتك الطنَّانة لنفسك، لا أحد يملك الحقّ في الإساءة إلى ديانتي وإلى مقدَّساتي.

ـ لكن، تخيَّل كم ستشعر بالحرِّيَّة إذا تمكَّنت من السموِّ فوق مستوى كراهية هذا الرجل؟ علينا أن نردّ على الإساءة بالحكمة.

ـ هل هذا هو الرومي أيضًا؟

ـ إنَّه شمس الدين التبريزي، صديقُه إن أردت الحقّ، و...

فردّ الشابّ:

ـ اتركني وشأني.

ثم مضى في سبيله، إلى رفاقه وهمس في آذانهم شيئًا ما، فما كان منهم إلَّا أن حدَّقوا إلى آزور.

لماذا لا يقوى على مُلك لسانه، هذا اللسان الذي كان سببًا في كثير من المتاعب التي ألمَّت به في حياته حتى الآن؟ مرَّر أصابعه في شعره الرماديّ الآخذ بالتساقط ودخل اتِّحاد أوكسفورد، فشاهد ملصقًا جداريًّا عند المدخل وعليه عنوان المحاضرة «أنقذوا أوروبا من أجل الأوروبيين».

مكتبة الفكر الجديد

ساد جوٌّ من التحمُّس المصحوب بتوتُّر وسط الحشد المجتمع في القاعة، فقد جاء البعض وملؤه مشاعر الغضب والازدراء وعدم تصديق المتكلِّم الذي تعاظمت شهرته بسبب إهاناته وازدرائه، وأتى البعض الآخر مزهوًّا بالرضى بأنَّ شخصًا ما جاء أخيرًا للتعبير بصوت عالٍ عمَّا كانوا يفكِّرون فيه.

أخذ آزور يشقّ طريقه وسط الجمع الغفير، في حين لوَّح له بعض الزملاء في المؤخّرة، بينما تظاهر آخرون بأنَّهم لم يشاهدوه. كان العار عباءة تحجب الرؤية، يرتديها علانيَّة، فهي لم تؤذه بقدر ما آذته في الزمن الماضي، ولاحظ مدى استعداد الناس لإصدار الأحكام ونسيانها من بعد ذلك. في مثل هذه الأوقات، كان يفكِّر في بيري، متسائلًا عمَّا تفعله في إسطنبول، وعن نمط الحياة التي رسمتها لنفسها. لو أنَّه حُكِم عليه بالخزي والعار طوال حياته، فلا بدَّ من أنَّها حُكِم عليها بالندم طوال حياتها. من يستطيع أن يعرف أيُّهما أصعب على الروح؟

نهضت شيرين واقفة لمَّا شاهدته قادمًا إلى القاعة، وكانت تضع إحدى يديها على بطنها. كان تحمُّسها له مؤثِّرًا إلى حدٍّ دفع آزور إلى الإحساس بالحزن. فالجبناء والخصوم الانتهازيُّون الذين اتَّهموه لم يكونوا سببًا في إحساسه بالضعف، وإنَّما أولئك الذين أحبُّوه واحترموه وساندوه بغض النظر عن كلّ شيء. كانوا في انتظاره لينقّي اسمه، لكنَّه كان يرفض ذلك، إذْ فكَّر على الدوام في أنَّه كلَّما أمعن المرء في الإصرار على براءته أمام الآخرين، ثبت جرم التهمة على المتّهم في نظرهم. زِدْ على ذلك، أنّ فتح الملفَّات القديمة من شأنه أن يجرح مشاعر بيري أيضًا.

قالت شيرين:

مكتبة الفكر الجديد

ـ شكرًا على حضورك، كنت أعرف أنَّك ستأتي.

ـ سوف أنصرف في وقت مبكر، فأنا لا أتحمَّله حتى النهاية.

فوافقته على رأيه.

بعد مدَّة قصيرة، صعد المتحدِّث إلى خشبة المسرح، مرتديًا بذلة زرقاء من الكشمير ومن دون ربطة عنق. تكلَّم مدَّة ثلاثين دقيقة على المخاطر التي تنتظر الحضارة الغربيَّة. صوتُه يتَّخذ إيقاعًا محسوبًا، فينخفض تارة ويرتفع قليلًا إلى همس خشن ليتحوَّل أكثر ارتفاعًا عند نقطه بكلمات يعلم بأنَّها ستؤثِّر في السامعين وتخيفهم. قال إنَّه ليس عنصريًّا، والمؤكَّد أنَّه ليس مُصابًا بكره الأجانب، وأنَّ المخبز المفضَّل لديه يديره زوجان عربيَّان، وأنَّ طبيبه الخاصّ باكستانيّ الأصل، وأنَّه أمضى أروع إجازة في حياته قبل سنوات في بيروت حيث أعاد إليه سائق سيَّارة أجرة محفظةَ نقوده المفقودة، غير أنَّ أبواب أوروبا ينبغي لها أن تبقى موصدة بإحكام لدواعٍ أمنيَّة، وأنَّ هذا الإجراء ليس سوى إجراء منطقيّ بسبب الفوضى العارمة التي خلقها الآخرون. أوروبا هي الوطن، والمسلمون غرباء، وإنَّ الطفل البالغ من العمر خمسة أعوام يعلم بأنَّ المرء لا يدعو الغرباء إلى بيته، وإنَّ كلّ فرد في العالم ينظر بعين الحسد إلى ثروة الغرب، ولا مناصّ من حمايتها من الغرباء ومن الخونة المتظاهرين بالصداقة في الداخل، والذين لا يرون في إذابة ثقافة ما، وإفسادِ عرق من الأعراق، وتدنيسِ تراث، ما هو خطأٌ، خطأٌ، خطأ. وقال إنَّ الزيجات التي تُعقد بين المنتمين إلى عرقين مختلفين وديانتين متباينتين، تشكِّل تهديدًا وخطرًا على نزاهة المجتمع الغربيّ، وعلينا ألَّا نستحي من الحديث عن النقاء؛ النقاء العرقيّ والثقافيّ والاجتماعيّ والدينيّ. كان المتحدِّث فصيحَ العبارة، بليغًا، حسنَ السلوك. وكما هو

مكتبة الفكر الجديد

شأن كلّ الخطباء المتلاعبين في عواطف العامَّة، يعرف متى يطلق نكتة.

إنَّ مشكلة أوروبا تتمثَّل في أنَّها تخلَّت عن الربّ. أخيرًا، استيقظ الناس على هذه الغلطة التاريخيَّة، فحان الوقت الآن لإعادة الربّ المخلِّص والمنقذ إلى الجامعة، وإلى الأسرة، وإلى أوساط عامَّة الناس، ولا يجب الخلط بين الحرِّيَّات والإلحاد. لقد ضيَّعت أوروبا وقتها في النقاش في موضوعات سخيفة ـ مثل الزواج بين جنسين مماثلين ـ في حين راحت حشود المتوحِّشين تتجمهر أمام بوَّاباتنا، فإذا ما اختار الناس أن يكونوا شاذِّين، فلا بأس، لكن يتعيَّن عليهم أن يتحمَّلوا تبعة ذلك، وليس في إمكانهم النحو باللوم على الزواج، المعلن بوضوح على أنَّه عهد مع الربّ بين رجل وامرأة. وما الفوضى الضاربة أطنابها اليوم ـ كالإرهاب وأزمة اللاجئين والتطرُّفِ الإسلاميّ على التراب الأوروبيّ ـ إلَّا أسلوبٌ من أساليب الربّ لتلقين أوروبا درسًا، من أجل الاختبار والتصحيح والصقل والكمال. في ما مضى من الزمان، أمطر الربّ النار والكبريت على المدن المنغمسة في الخطيئة(١)، أمَّا اليوم، فإنَّه يمطرنا باللاجئين والإرهابيين. إنَّ كلّ عصر يأتي بعقوباته.

أيّها الأصدقاء، إنَّ الربّ معنا هنا اليوم، لقد حاولوا إبعاده عن الجامعات، وأهانوه منذ زمن بعيد، غير أنَّه حاضر بكلِّ ما فيه من بهاء،

---

(١) إشارة إلى مدينتي سدوم وعامورة الكنعانيَّتين القديمتين اللتين حلَّت بهما كارثة أرضيَّة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، مع مدن أخرى واقعة جنوبيّ البحر الميِّت. وقد ذكرت التوراة أنَّهما أُحرقتا بالنار والكبريت قصاصًا لفساد أهلهما وشذوذهم الأخلاقيّ، وهم قوم لوط عليه السلام، مثلما ورد ذكرهما في القرآن الكريم (المترجم).

مكتبة الفكر الجديد

وأنا لست سوى رسوله والناطق المتواضع باسمه.

تهكَّم آزور من مقعده في وسط جمهور الحاضرين بصوت مرتفع وجريء، مخترقًا بذلك الصمتَ الذي غشي القاعة، واتَّجهت كلّ الأنظار إليه، وضمنها ناظرا المتكلِّم الذي قال:

ـ من ذا الذي أرى أمامنا؟ إنَّنا نتشرَّف بحضور الأستاذ آزور إن لم أكن مخطئًا، وإن لم يعد أستاذًا اليوم.

انسابت الهمسات في جنبات القاعة، في حين اشرأبّ الزملاء والطلَّاب بأعناقهم كي يحظوا برؤية أفضل للمستمع المتمرِّد، فما كان من آزور إلَّا أن نهض واقفًا على قدميه بينما لبثت شيرين جالسة من غير حراك، ممتقعة الوجه مثل شبح.

ـ أنت على حقّ، فأنا لم أعد أمارس التدريس اليوم.

قال المتكلِّم بصوت خفيض:

ـ نعم، طرق سمعي ذلك، بل ترامى إلى مسامع ركننا الهادئ الصغير في هولندا.

ثم لاح على وجهه طيف ابتسامة تعاطف زائفة وأردف:

ـ غير أنَّني مسرور إذْ أشاهد بأمّ عيني كيف أنَّ الربّ أعادك إلى الأضواء.

قال آزور متسائلًا:

ـ ومن قال إنَّني كنت في الظلماء؟

ـ حسنًا، الواضح...

أومأ آزور برأسه وقال:

ـ إذن، يتعيَّن عليَّ أن أمنحك أملًا، لقد كنت طوال عمري آثمًا، غيرَ مؤمن. وإذا كان الربّ قادرًا على اجتراح المعجزات من خلالي،

فإنَّه قادر على اجتراح المعجزات في كلّ فرد، وربَّما يفتح الأدمغة المنغلقة مثل دماغك.

ـ إنَّك، ويا للروعة، تستشهد بالقدِّيس فرنسيس[1] تحقيقًا لأهدافك الخاصَّة كما أعتقد، هذا ما يفعله الناس. يجب علينا أن نشترك يومًا ما في مناظرة، وستكون تسلية ظريفة.

بهذا الكلام، استرسل المتكلِّم تاركًا آزور واقفًا على قدميه، ومتطلِّعًا إلى المشاركة في مناظرة لن تتمّ الموافقة عليها في القريب العاجل.

* * *

حين عاد من نزهته المسائيَّة، وهو يستعيد تلك اللحظة في اتحاد أوكسفورد، وجد منزله شديد البرودة، قارسًا كما الصورُ الفوتوغرافيَّة المعلَّقة على الجدران، والقرميد القريب من المدفأة، وفي حين بدأ يسخِّن معكرونة اللازانيا البائتة، راح هاتفه يرنّ. رقم غريب بدا من خارج البلاد. ولمَّا كان مزاجه متكدِّرًا، ولا يرغب في الكلام مع أيِّ شخص، فقد قرَّر عدم الردّ. توقَّف الرنين قليلًا، ومرَّت لحظة صمت مطبق، نخر فيها سيوران قليلًا، ثم بدأ الرنين مجدَّدًا.

في هذه اللحظة، شعر بدافع في أعماقه يحثّه على رفع سمَّاعة الهاتف، فرفعه، فسمع في نهاية الخطّ الآخر صوتَ بيري قادمًا من قصر بحريّ في إسطنبول، محاوِلَةً أن تتمالك صوتها.

* * *

(١) القدِّيس فرنسيس الأسِّيزي (St. Francis of Assisi، ١١٨٢ ـ ١٢٢٦): قدِّيس إيطاليّ ومؤسِّس رهبانيَّة الفرنسيسكان سنة ١٢١٠، وجعل الفقر أساسًا لها.

مكتبة الفكر الجديد

الأهواء الثلاثة

إسطنبول ـ ٢٠١٦

شهيق، زفير. لاح الزمان في لحظة واحدة، كأنَّه قد ذاب وعادت بيري إلى طبيعتها الأولى، مستيقظةً من حلم مزعج، أو دُفعت دفعًا إلى حلم آخر؛ خزانة الثياب التي حشرت نفسها فيها كأنَّها زنزانة سجن أخيها. في هذه الأثناء، كان الضيوف والعاملون في الدار قد اقتيدوا إلى الطبقة العليا حيث المكتب المذهَّب. سمعت بيري صوت وقع أقدامهم وهم يسيرون معًا كالقطيع، أمَّا الآن، فقد تكاثف صمت يُنذر بالشؤم على المنزل، فتشبَّثت بهاتف زوجها منتظرة أن يرنّ، وعلى حين بغتة شعرت بورم في بلعومها لدى سماعها صوت آزور في الطرف الثاني من الخطّ يقول لها:

ـ مرحبًا؟

جلبت تلك النبرةُ المألوفة الدموعَ إلى عينيها، وشعرت بأنَّ فمها قد امتلأ بقطع صغيرة ودقيقة من الندم. كانت مخيفة تلك السرعة التي انساب فيها الماضي المشترك انسيابَ الألم السائل إلى صمت الحاضر.

ـ مرحبًا؟ من المتكلِّم؟

كادت تقفل الهاتف، فالكلمات تخلَّت عنها بسرعة بالغة، بيد أنَّها

مكتبة الفكر الجديد

كانت مرهقة من الهروب من نفسها فدفعها دافع إلى أمام لمواجهة المخاوف.

ـ آزور. . . هذه أنا، بيري.

كرَّر:

ـ بي. . . ري. . .

ثم تريَّث كأنَّ استحضار اسمها كان يشتمل على كلّ الأشياء، الحسنة والسيِّئة، وكلّ ما بينها.

كان عقلها يتسارع، ونبضها يتسارع، إلَّا أنَّها عندما تكلَّمت مجدَّدًا، لاح صوتها هادئًا:

ـ كان يتحتَّم عليّ أن أكلِّمك قبل الآن، لقد تصرَّفت تصرُّفَ الجبناء.

لبث آزور صامتًا. كان يعرف أنَّ هذه اللحظة قادمة بلا ريب، لكنَّه لم يكن قد وضع خططه تحسُّبًا لها. أخيرًا قال كأنَّه كان يريد أن يقول شيئًا آخر بيد أنَّه عدل عن رأيه:

ـ يا لها من مفاجأة: أأنت بخير؟

ردَّت بيري من غير أن تركِّز أو تسهب في كلامها:

ـ إن شئت الحقّ، لا.

لم تخبره بوجود رجال مسلَّحين في القصر، كما لم تقل له إنَّ هذا الحديث يمكن أن ينقطع على حين بغتة بسبب انخفاض شحن بطَّاريَّتها. وترامى إلى أذنيها صوتُ نباح كلب من طرف آزور، فسألت:

ـ أهذا سپينوزا؟

ـ لقد نفق سپينوزا يا عزيزتي، أتمنَّى أن يكون في عالم أفضل.

مكتبة الفكر الجديد

ثم بدأت تبكي بكاءً صامتًا، وقالت:

ـ إنَّني مَدينة لك باعتذار يا آزور، كان يتحتَّم عليّ أن أتكلَّم أمام اللجنة.

قال لها في رقَّة:

ـ لا تلومي نفسك، فأنت لم تكوني في حال تمكّنك من تقديم إفادة صحيحة، لقد كنتِ أصغر سنًّا ممَّا يجب.

ـ بل كنت كبيرة بما يكفي.

ـ حسنًا، كان يتعيَّن عليَّ أن أكون أكثر حذرًا.

فوجئت بكلامه، إذن هو لم يكرهها طوال هذا الوقت كما كانت تظنّ، بل وجَّه اللوم إلى شخصه.

أرادت أن تقول له: قرأت كتابك الأخير، بل قرأت كلّ كتاب من كتبك الصادرة منذ ذلك الوقت... لقد تغيَّرتَ، وأصبحتَ أكثر سخرية... خاليًا من الأهواء. وإنَّني أفكِّر إن كان ذلك يعني أنَّك فقدت سخطك واضطرابك وروحك المرحة التي كانت تسحر طلَّابك وتجذب كلّ المستمعين إليك. أملي ألَّا تكون كذلك.

تناهى إلى سمعها من الطبقة العليا صوتُ وقع أقدام، أعقبته جلبة قصيرة، وصراخُ شخص ما، واختراق رصاصة مسدَّس الأجواء، ودويّ سقوطٍ ما.

تشنَّج جسد بيري برمَّته وتحوَّلت أنفاسها إلى شهقات.

فسألها آزور:

ـ ما هذا؟

فردَّت بصوت خفيت جدًّا:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا شيء.

ـ أين أنتِ الآن؟

كادت تُجيب: أنا في خزانة ثياب داخل قصر منيف في إسطنبول، اقتحمه مسلَّحون، وفي فمي طعم الخوف وطعم كمأة اسمها أوكسفورد. لا لم تستطع أن تخبره بذلك.

فقال من غير أن يُدرك ما يختلج في ذهنها من أفكار ناهيك عن محنتها:

ـ ظننت يا بيري حين التقيتك أنَّك لا تعلمين شيئًا، لكنَّك كنت تحملين أهواء برتراند رسل الثلاثة: التوق إلى الحبِّ، والبحث عن المعرفة، والعاطفة غير المحتملة تجاه معاناة بني البشر.

اكفهرّ وجهها؛ وتابع مضيفًا:

ـ كنت تملكين هذه الأهواء، فقد كانت حاجتك إلى الحبّ ماسَّة، وكذلك عطشُك إلى التعلُّم، وحساسيَّتُك تجاه الآخرين... إلى درجة محو الذات والبقاء بعيدةً عن الأضواء. لقد أشفقت عليك، لكنَّني غضبت منك أيضًا، لأنَّك ذكّرتني بامرأة سبق لي أن عرفتها.

فسألته محاذرة:

ـ زوجتك؟

ـ لا يا عزيزتي، بل امرأة أخرى تُدعى نور. أحسست بأنّني يمكن أن أجرح مشاعرك مثلما جرحت مشاعرها، الحقّ، إنَّ الأمر انتهى بي إلى إيذاء كلّ امرأة حاولت الوصول إليّ.

ـ باستثناء شيرين.

ـ صحيح، كانت فتاة لا تُقهَر، هكذا بدت، كانت أصغر سنًّا منّي،

مكتبة الفكر الجديد

لكنَّها قويَّةٌ ذاتُ بأس، وعنيدةٌ، ومحاربةٌ في طبعها. ولم يكن هناك ما يثير القلق بشأنها، ما من سوء قد يحدث لها.

ـ كنت تريد حبًّا من غير خطيئة.

قال آزور:

ـ ربَّما، أترين؟ إنَّك لست الوحيدة التي تعتذر من الربّ.

تحوَّل لون البطَّاريَّة على شاشة الهاتف من اللون الأسود إلى اللون الأحمر.

ـ هلّا صنعت لي معروفًا؟

ـ تفضَّلي.

ـ أريد الالتحاق بفصل دراسيّ واحد، الآن.

فضحك وقال:

ـ ماذا تعنين؟ عن أيّ موضوع؟

فأجابت:

ـ عن الغفران، والحبّ، والمعرفة، وسأكون أنا الأستاذة في هذه المرَّة، موافق؟

تريّث مشوب بالحذر.

ـ إنَّني مُصغٍ إليك يا عزيزتي.

قالت:

ـ حسنًا، محاضرة اليوم هي عن ابن عربي وابن رشد؛ ابن رشد الفيلسوف البارز، وابن عربي الطالب الشابّ المفعم بالأمل لدى لقائهما أوَّلَ مرَّة، وقد شعر الاثنان من فورهما بصلة بينهما لأنَّهما كانا قد وهبا نفسيهما للكتب والمعرفة، ولم يتعصَّب أيّ واحد منهما، لكنَّهما كانا مختلفين أيضًا.

مكتبة الفكر الجديد

ـ كيف؟

ـ أترى؟ إنَّه السؤال نفسه: الشرق والغرب، صحيح؟ كيف تزيد في معرفتك بنفسك وبالعالم؟ كان لابن رشد جواب واضح: من خلال التفكير التأمُّليّ، الاستدلال والدرس.

ـ وابن عربي؟

ـ كان ينشد البحث العقلانيّ والبصيرةَ الصوفيَّة، وكان يؤمن بأنَّ واجبنا نحن البشر يتمثَّل في توسيع حكمتنا، غير أنَّه أدرك أيضًا أنَّ ثمَّة أشياء وراء حدود العقل. وقبل أن يفترق الاثنان، طرح ابن رشد سؤالًا على ابن عربي للمرَّة الأخيرة وهو: «هل نكشف عن الحقيقة بوساطة التفكير العقلانيّ؟»

ـ وماذا قال ابن عربي؟

ـ قال: نعم، وقال: لا. وأضاف أنَّ بين «نعم» و«لا» تحلِّق الأرواح خارج مادَّتها والعقول خارج أبدانها. واعتقد ابن عربي أنَّه ليس ثمَّة أكثر جهلًا من أولئك الذين يبحثون عن الربّ، لكنّ الذين ينشدون حقيقة أكبر من أنفسهم لديهم فرصة للوصول إليها.

ـ أخبريني يا بيري: لم أنت مهتمَّة بهذا الموضوع؟

ـ لأنّني دومًا في تلك المنطقة الوسطى المتأرجحة بين نعم و لا.

فأنا لست غريبة عن الإيمان ولست غريبة عن الشكّ. متذبذبة، متردِّدة، لا أملك الثقة أبدًا. لعلَّ افتقاري إلى اليقين هو الذي أوصلني إلى ما أنا عليه، وأصبح هذا أسوأ أعدائي. فأنا لم أشاهد أماميَ أيَّ منفذ للخلاص.

تريَّثتْ قبل أن تسترسل في كلامها:

مكتبة الفكر الجديد

ـ لقد أخبرتك عن طفل الضباب، فإذا لم تكن مشاهدتي له هلوسةً، فإنَّها نوع من أنواع التجارب التي لم تسمع بها من قبل. لو سمع بها أستاذ آخر لسخر منها. أكيد. أمَّا أنت، فلم تسخر، لأنَّك منفتح دومًا على كلّ ما هو جديد، لهذا أنا معجبة بك.

ـ أنت تعتقدين أنَّك الوحيدة المشوَّشة الفكر. كثيرون منَّا، «نحن» مشوَّشو الفكر.

«نحن»، شوق إلى تلك الكلمة؛ كلمة أقرب إلى همسة؛ كلمة غاية في الصغر؛ غاية في العظمة؛ «نحن» المشوَّشون.

هزَّت بيري رأسها وقالت:

ـ كنت محطّ إعجابي الشديد، وفي وسعي الآن ملاحظة ذلك.

فعندما نُغرم ببعضنا بعضًا، نحوِّل الشخص الآخر إلى إلٰه، يا لخطورة هذا الأمر. وحين لا يبادلنا الحبّ، نردّ عليه بالغضب والامتعاض والكراهية...

ثم استأنفت كلامها قائلة:

ـ ثمَّة شيء في الحبّ يشبه الإيمان. نوع من الثقة العمياء. أليس كذلك؟ الشعور بالنشوة وطعم السعادة، سحرُ الارتباط بمخلوق خارج نفوسنا المحدودة والمألوفة. لكن إذا جرفنا الحبّ ـ أو الإيمان ـ فإنَّه يتحوَّل إلى عقيدة، إلى تعلُّق، وتتحوَّل العذوبة إلى حموضة، ونعاني بين أيدي الآلهة التي خلقناها بأنفسنا.

قال آزور:

ـ لا بدَّ من أنَّني واحد من آخر الناس على وجه الأرض، الذين يُنظر إليهم على أنَّهم آلهة.

مكتبة الفكر الجديد

قالت بيري:

ـ لست أنت، بل هو آزور الذي خلقته أنا لنفسي. آزور الذي احتجت إليه لأفهم ماضيَّ المتشظّي؛ هذا هو الأستاذ الذي سحرني، آزور الساكن في عقلي.

وهكذا استمرَّت في الكلام، صوتها يزداد قوَّة. عيناها معتادتان الآن على العتمة، والهاتف يومض في يدها المجروحة، وهي تلقي محاضرة على رجل في بيت خارج مدينة أوكسفورد، في حين ينتظر كلبه صابرًا إلى جانبه. كان ممكنًا أن يكون الأمر معكوسًا: هو في دائرة الخطر، وهي في مأمن. إنَّها الأستاذة اليوم وهو الطالب. تبادل أدوار، فالكلمات لا تبقى ثابتة أبدًا. شكل الحياة دائريّ، وفي الدائرة، تبقى كلّ نقطة على مسافة متساوية من المركز، سواء أطلق المرء على ذلك تسمية إلٰه أو أيّ شيء آخر.

صكّ سمعَها صوتُ صافرات الإنذار تقترب من جهة القصر. وبعد بضع دقائق، لا أكثر، سوف يتغيَّر كلّ شيء. بداية جديدة أو نهاية أقرب ممَّا يجب. وفي الوقت الذي أطلق فيه الهاتف إشارته الأخيرة، قبل أن يهمد نهائيًّا، فتحتْ باب خزانة الثياب... وخرجت.

النهايـة

مكتبة الفكر الجديد

الفهرس

مقدِّمة المترجم ٧
القسم الأوَّل ١١
حقيبة اليد ١٣
الشاعر الصامت ٣٠
السكِّين ٤٣
اللعبة ٤٩
المفكِّرة ٦٤
الصورة ٧٢
الحديقة ٨١
الحاجّ ٩٢
حوض الأسماك ٩٩
مائدة الفطور ١١١
رقصة تانغو برفقة عزرائيل ١٢٢
القصيدة ١٣١
العهد ١٤٠
العشاء الأخير ١٥١
القسم الثاني ١٥٩

مكتبة الفكر الجديد

الجامعة ١٦١
الخارطة ١٦٨
الصمت ١٨٣
التسلية ٢٠٠
العدّاءة ٢٠٤
صيّاد السمك ٢٠٨
الكافيار الأسود ٢١٦
الاحتفال ٢٢٢
المعجم ٢٣١
الملاك ٢٣٨
صندوق الموسيقى ٢٤٥
حزام البتولة ٢٥٤
المستشفى ٢٦٦
امرأة تقتات على الأقاويل ٢٧٨
رياضة العَدْو وقت الغسق ٢٨٢
الطريق الثالث ٢٨٥
الباعث على التفاؤل ٢٩٩
الشباب ٣٠٦
الغريبة النابضة بالحياة ٣١١
القسم الثالث ٣١٧
طائر السيسكين ٣١٩

مكتبة
الفكر الجديد

إستراتيجيَّة التسويق ٣٤٠
قبلة مهلكة ٣٤٦
صفحة بيضاء ٣٥٠
الدائرة ٣٥٧
مسرحيَّة الظلّ ٣٧٧
المظلومون ٣٨٥
مفسّر الأحلام ٣٩٢
العباءة ٤٠٢
التكهُّن بالمستقبل ٤١٢
الليموزين ٤١٩
ندفة الثلج ٤٢٣
الوسيط الروحانيّ ٤٣٨
القسم الرابع ٤٤٥
البذرة ٤٤٧
الليلة ٤٥٧
الفِرْية ٤٧٤
الراقصة الشرقيَّة ٤٨٢
القائمة ٤٩٠
وجه الآخر ٤٩٦
مراكز الطاقة الروحيَّة ٥١٦
بيت في أريحا ٥٢١

مكتبة الفكر الجديد

البيدق ٥٢٧
الممرّ ٥٣٦
كأس من شراب الشري ٥٤٥
صوت غياب الربّ عنها ٥٥٢
شجرة الفجر الحمراء ٥٥٥
خزانة الثياب ٥٧١
العار ٥٧٥
الأهواء الثلاثة ٥٨٨

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

كانت بيري في طريقها إلى حفل عشاء في إسطنبول عندما اعترض طريقَها متسوِّل وخطف حقيبةَ يدها. وفيما كانت تصارعه لاستعادة حقيبتها، وقعتْ منها صورةُ بولارويد تَظهر فيها ثلاثُ صبايا وأستاذُهنّ اللّامع في جامعة أوكسفورد. إنّها روايةٌ عن بقايا حبّ حاولتْ بيري يائسةً تناسيه؛ وعن صداقة غريبة جمعتْ بين: منى المصريّة المؤمنة وشيرين الإيرانيّة الملحدة، وبيري الممزّقة بين أبٍ متحرّر وأمٍّ محافظة.

«شافاك» من أهمّ مَنْ كَتبَ الرواية في زمننا هذا. عملها الرائع الأخير يتنقّل بين أوكسفورد وإسطنبول، ليستكشف على نحوٍ مذهل العلاقة بين الإيمان والصداقة، وبين الفقر والثراء، والصدامَ المروِّع بين الحداثة والتقاليد.

Independent

«أليف شافاك» أفضلُ مَن كَتبَ الروايات في تركيا في هذا العقد.

أورهان باموك

أليف شافاك: روائيّة وناشطة تركيّة. صدر لها عن دار الآداب: قواعدُ العشق الأربعون، لقيطة إسطنبول، شرف، قصر الحلوى، الفتى المتيّم والمعلِّم، حليب أسود.

www.elifshafak.com

مكتبة الفكر الجديد

18-09-2017

ISBN: 978-9953-89-552-9

9789953895529

التوزيع الحصري في العراق
دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع
العراق _بغداد _شارع المتنبي
009647819141219
009647702931543

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135 -1861633 +961